(فهرسة مقدمة العلامة ابن خلدون)

صحيفة

صحيفة

(تمت)

(فهرست سراج الملوك المطرز به هامش مقدمة العلامة ابن خلدون)

صحيفة

صحيفة

(المقدمة)

(للعلامة ابن خلدون)

(الجزء الاول)

من كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر وهو تاريخ وحيد عصره العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربى رحمه الله آمين

(وبهامشه سراج الملوك للعلامة ابى بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى المالكى رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين)

(محل مبيعه بالمطبعة الازهرية)
(ادارة الراجى من الله الغفران)
(حضرة السيد محمد رمضان)

(الطبعة الاولى)
(بالمطبعة الازهرية المصرية)
(سنة ١٣١١ هجرية)

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله الذى لم يزل ولا يزال وهو الكبير المتعال خالق الاعيان والآثار ومكور النهار على الليل والليل على النهار العالم بالخفيات (٢) وما تنطوى عليه الارضون والسموات سواء عنده الجهر والاسرار ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير خلق الخلق بقدرته واحكمهم بعلمه وخصصهم بمشيئته ودبرهم بحكمته لم يكن له فى خلقهم معين ولا فى تدبيرهم مشير وظهير وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن او يستظهر من تقدس عن الذل بمن دخل تحت ذل التكوين ثم كلفهم معرفته وجعل علم العالمين بعجزه عن ادراكه ادراكالهم ومعرفة العارفين بتقصيرهم عن شكره شكرالهم كما جعل اقرار المقرين بوقوف عقولهم عن الاحاطة بحقيقته ايمانالهم لا يلزمه لم ولا يجاوزه اين ولا يلاصقه حيث ولا يحده ما ولا يعده كم ولا يحصره متى ولا يحيط به كيف ولا يناله اى ولا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ولا يأخذه خلف ولا يحده امام ولم يظهره قبل ولم يفنه بعد ولم يجمعه كل ولم يوجده كان ولم يفقده ليس وصفه لاصفة له وكونه لاامد له ولا تخالطه الاشكال والصور ولا تغيره الايام والغير ولا تجوز عليه المماسة والمقاربة وتستحيل عليه المحاذاة والمقابلة ان قلت لم كان فقد سبق العلل ذاته ومن كان معلولا كان له غيره علة يساوقه فى الوجود وتسموا وهو قبل جميع الاعيان بلا علة فقدرة الله فى الاشياء بلا امزاج وصنعه فيها بلا علاج وعلة كل شئ صنعه ولا علة لصنعه فان قلت اين هو فقد

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغنى بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى وفقه الله تعالى)

الحمد لله الذى له العزة والجبروت * وبيده الملك والملكوت * وله الاسماء الحسنى والنعوت * العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى او يخفيه السكوت * القادر فلا يعجزه شئ فى السموات والارض ولا يفوت * أنشأنا من الارض نسما * واستعمرنا فيها اجيالا وامما * ويسر لنا منها ارزاقا وقسما * تكننا الارحام والبيوت * ويكفلنا الرزق والقوت * وتبلينا الايام والوقوت * وتعتورنا الآجال التى خط علينا كتابها الموقوت * وله البقاء والثبوت * وهو الحى الذى لا يموت * والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبى الامى العربى المكتوب فى التوراة والانجيل المنعوت * الذى تمخض لفصاله الكون قبل ان تتعاقب الآحاد والسبوت * ويتباين زحل والبهموت (١) وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت * وعلى آله واصحابه الذين لهم فى محبته واتباعه الاثر البعيد والصيت * والشمل الجميع فى مظاهرته ولعدوهم الشمل الشتيت * صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالاسلام جده المبخوت * وانقطع بالكفر حبله المبتوت * وسلم كثيرا *(أما بعد)* فان فن التاريخ من الفنون التى يتداولها الامم والاجيال * وتشد اليه الركائب والرحال *

(١) قوله البهموت هو النون اى الحوت الذى على ظهره الارض السابعة ويسمى ايضا لوتياء كما فى المزهر وروح البيان واللهجة ومعلوم ان بينه وبين زحل الذى هو فى الفلك السابع بونا بعيدا قال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى فى اول سورة نون اليهموت بفتح المثناة التحتية وسكون الهاء وما اشتهر من انه بالباء الموحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشى اهـ ومثله فى روح البيان قاله نصر الهورينى

وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال* وتتنافس فيه الملوك والاقيال* ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال* اذ هو فى ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول* والسوابق من القرون الاول* تنمى فيها الاقوال* وتضرب فيها الامثال* وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال* وتؤدى الينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال* واتسع للدول فيها النطاق والمجال* وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال *وحان منهم الزوال* وفى باطنه نظر وتحقيق* وتعليل للكائنات ومباديها دقيق* وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق* فهو لذلك اصيل فى الحكمة عريق* وجدير بان يعد فى علومها وخليق* وان فحول المؤرخين فى الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها* وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها* وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها* وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها* واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها* وأدوها الينا كما سمعوها* ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها* ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها* فالتحقيق قليل* وطرف التنقيح فى الغالب كليل* والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل* والتقليد عريق فى الآدميين وسليل* والتطفل على الفنون عريض وطويل* ومرعى الجهل بين الانام وخيم وبيل* والحق لا يقاوم سلطانه* والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه* والناقل انما هو يملى وينقل* والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل* والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل* (هذا) وقد دون الناس فى الاخبار وأكثروا* وجمعوا تواريخ الامم والدول فى العالم وسطروا* والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبرة* واستفرغوا دواوين من قبلهم فى صحفهم المتأخرة* هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل *ولا حركات العوامل* مثل ابن اسحق والطبرى وابن الكلبى ومحمد بن عمر الواقدى وسيف بن عمر الاسدى والمسعودى وغيرهم من المشاهير* المتميزين عن الجماهير* وان كان فى كتب المسعودى والواقدى من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الاثبات* ومشهور بين الحفظة الثقات* الا ان الكافة اختصتهم بقبول اخبارهم* واقتفاء سننهم فى التصنيف واتباع آثارهم* والناقد البصير قسطاس نفسه فى تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم* فللعمران طبائع فى أحواله ترجع اليها الاخبار* وتحمل عليها الروايات والآثار* ثم ان أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك* لعموم الدولتين صدر الاسلام فى الآفاق والممالك* وتناولها البعيد من الغايات فى المآخذ والمتارك* ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والامم* والامر العمم* كالمسعودى ومن نحا منحاه وجاء من بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد* ووقف فى العموم والاحاطة عن الشأو البعيد* فقيد شوارد عصره* واستوعب أخبار افقه وقطره* واقتصر على أحاديث دولته ومصره* كما فعل ابو حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها وابن الرفيق مؤرخ افريقية والدول التى كانت بالقيروان* ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد* وبليد الطبع والعقل او متبلد* ينسج على ذلك المنوال* ويحتذى منه بالمثال* ويذهل عما احالته الايام من الاحوال* واستبدلت به من عوائد الامم والاجيال* فيجلبون الاخبار عن الدول* وحكايات الوقائع فى العصور الاول* صورا قد تجردت عن موادها* وصفاحا انتضيت من أغمادها* ومعارف تستنكر للجهل طارفها وتلادها* انما هى حوادث لم تعلم أصولها* وانواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها* يكررون فى موضوعاتهم الاخبار المتداولة باعيانها* اتباعا لمن عنى من المتقدمين بشأنها* ويغفلون أمر الاجيال الناشئة فى ديوانها* بما اعوز عليهم من ترجمانها* فتستعجم صحفهم عن بيانها* ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة

سبق المكان وجوده فمن اين الا اين لم يفتقر وجوده الى اين هو بعد خلق المكان غنى بنفسه كما كان قبل خلق المكان وكيف يحل فيما منه بدا او يعود اليه ما هو انشأ وان قلت ماهو فلا ماهية لو جوده وما موضوعه للسؤال عن الجنس والقديم تعالى لا جنس له لان الجنس مخصوص بمعنى داخل تحت المائية وان قلت كم هو فهو واحد فى ذاته منفرد بصفاته وان قلت متى كان فقد سبق الوقت كونه وان قلت كيف هو فمن كيف الكيف لا يقال له كيف ومن جازت عليه الكيفية جاز عليه النعت وان قلت هو فالهاء والواو خلقه بل الزم الكل الحدث كما قال بعض الاشياخ لان القدم له فالذى بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه والذى بالاداة اجتماعه فقواها تمسكه والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه والذى الوهم يطرقه فالتصوير يرتقى اليه ومن آواه محل أدركه اين ومن كان له جنس طالبه كيف وجوده اثباته ومعرفته توحيده وتوحيده تمييزه من خلقه ما تصور فى الاوهام فهو بخلافه لا تخايله العيون ولا تخالطه الظنون ولا تصوره الاوهام ولا تحيط به الافهام ولا يقدر قدره الانام ولا يحويه مكان ولا يقارنه زمان ولا يحصره امد ولا يسعه بلد ولا يجمعه عدد قربه كرامته وبعده اهانته علوه من غير توقل ومجيئه من غير تنقل هو الاول والآخر والظاهر والباطن القريب البعيد الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير واشهد له بالربوبية والوحدانية وبما شهد به لنفسه من الاسماء الحسنى والصفات العلى والنعت

نسقوا اخبارها نسقا* محافظين على نقلها وهما اوصدقا* لا يتعرضون لبدايتها* ولا يذكرون السبب الذى رفع من رايتها* واظهر من آيتها* ولا علة الوقوف عند غايتها* فيبقى الناظر متطلعا بعد الى افتقاد احوال مبادى الدول ومراتبها* مفتشا عن اسباب تزاحمها او تعاقبها* باحثا عن المقنع فى تباينها او تناسبها* حسبما نذكر ذلك كله فى مقدمة الكتاب* ثم جاء آخرون بافراط الاختصار* وذهبوا الى الاكتفاء باسماء الملوك والاقتصار* مقطوعة عن الانساب والاخبار* موضوعة عليها اعداد ايامهم بحروف الغبار* كما فعله ابن رشيق فى ميزان العمل* ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل* وليس يعتبر لهؤلاء مقال* ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال* لما اذهبوا من الفوائد* واخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد (ولما طالعت) كتب القوم* وسبرت غور الامس واليوم* نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم* وسمت التصنيف من نفسى وانا المفلس أحسن السوم* فانشأت فى التاريخ كتابا* رفعت به عن احوال الناشئة من الاجيال حجابا* وفصلته فى الاخبار والاعتبار بابا بابا* وابديت فيه لاولية الدول والعمران عللا واسبابا* وبنيته على اخبار الامم الذين عمروا المغرب فى هذه الاعصار* وملؤا أكناف النواحى منه والامصار* وما كان لهم من الدول الطوال او القصار* ومن سلف من الملوك والانصار* وهم العرب والبربر* اذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما* وطال فيه على الاحقاب مثواهما* حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداهما* ولا يعرف اهله من اجيال الآدميين سواهما* فهذبت مناحيه تهذيبا* وقربته لافهام العلماء والخاصة تقريبا* وسلكت فى ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا* واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا* وطريقة مبتدعة واسلوبا* وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن واسبابها* ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها* حتى تنزع من التقليد يدك* وتقف على احوال من قبلك من الايام والاجيال وما بعدك* (ورتبته) على مقدمة وثلاثة كتب

(المقدمة) فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بمغالط المؤرخين

(الكتاب الاول) فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب

(الكتاب الثانى) فى اخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدا الخليقة الى هذا العهد وفيه الالماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى اسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والافرنجة

(الكتاب الثالث) فى اخبار البربر ومن اليهم من زناتة وذكر اوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء انواره* وقضاء الفرض والسنة فى مطافه ومزاره* والوقوف على آثاره فى دواوينه واسفاره* فافدت ما نقص من اخبار ملوك العجم بتلك الديار* ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار* واتبعت بها ما كتبته فى تلك الاسطار* وادرجتها فى ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من أمم النواحى* وملوك الامصار والضواحى* سالكا سبيل الاختصار والتلخيص* مفتديا بالمرام السهل من العويص* داخلا من باب الاسباب على العموم الى الاخبار على الخصوص* فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا* وذلل من الحكم النافرة صعابا* واعطى لحوادث الدول عللا واسبابا* وأصبح للحكمة صوانا وللتاريخ جرابا* (ولما كان) مشتملا على أخبار العرب والبربر*

الاوفى الآلة الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وأومن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله ونحن له مسلمون واشهد ان محمدا عبده المصطفى وامينه المرتضى ارسله الى كافة الورى بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتخبين وازواجه الطاهرات امهات المؤمنين (اما بعد) فانى نظرت فى سير الامم الماضية والملوك الخالية وما وضعوه من السياسات فى تدبير الدول والتزموه من القوانين فى حفظ النحل فوجدت ذلك نوعين احكاما وسياسات فاما الاحكام المشتملة على ما اعتقدوه من الحلال والحرام والبيوع والاحكام والانكحة والطلاق والاجارات ونحوها والرسوم الموضوعة لها والحدود القائمة على من خالف شيأ منها فامر اصطلحوا عليه بعقولهم ليس على شئ منه برهان ولا انزل الله به من سلطان ولا اخذوه عن تدبر ولا اتبعوا فيه رسولا وانما هى صادرة عن خزنة النيران وسدنة بيوت الاصنام وعبدة الانداد والاوثان وليس يعجز احد من خلق الله ان يصنع من تلقاء نفسه امثالها واشباهها واما السياسات التى وضعوها فى التزام تلك الاحكام والذب عنها والحماية لها وتعظيم من عظمها واهانة من استهان بها او خالفها فقد ساروا فى ذلك بسيرة العدل وحسن السياسة وجمع القلوب عليها والتزام النصفة فيما بينهم على ما توجبه تلك الاحكام وكذلك فى تدبير الحروب وامن السبل وحفظ الاموال وصون الاعراض والحرم

من أهل المدن والوبر * والاماع بن عاصرهم من الدول الكبر * وأفصح بالذكرى والعبر * فى مبتدا الاحوال وما بعدها من الخبر (وسميته) كتاب العبر * وديوان المبتدا والخبر * فى أيام العرب والعجم والبربر * ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر * ولم أترك شيأ فى أولية الاجيال والدول * وتعاصر الامم الاول * وأسباب التصرف والحول * فى القرون الخالية والملل * وما يعرض فى العمران من دولة وملة * ومدينة وحلة * وعزة وذلة * وكثرة وقلة * وعلم وصناعة * وكسب واضاعة * وأحوال متقلبة مشاعة * وبدو وحضر * وواقع ومنتظر * الا واستوعبت جمله * وأوضحت براهينه وعلله * فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة * والحكم المحجوبة القريبة * وأنا من بعدها موقن بالقصور * بين أهل العصور * معترف بالعجز عن المضاء * فى مثل هذا القضاء * راغب من أهل اليد البيضاء * والمعارف المتسعة الفضاء * النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء * والتغمد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاغضاء * فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة * والاعتراف من اللوم منجاة * والحسنى من الاخوان مرتجاة * والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبى ونعم الوكيل (وبعد) أن استوفيت علاجه * وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجه * وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه * وأوسعت فى فضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه * أتحفت بهذه النسخة منه (١) خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد * الفاتح الماهد * المتحلى منذ خلع التمائم * ولوث العمائم * بحلى القانت الزاهد * المتوشح من زكاء المناقب والمحامد * وكرم الشمائل والشواهد * باجمل من القلائد * فى نحور الولائد * المتناول بالعزم القوى الساعد * والجد المواتى المساعد * والمجد الطارف والتالد * ذوائب ملكهم الراسى القواعد * الكريم المعالى والمصاعد * جامع أشتات العلوم والفوائد * وناظم شمل المعارف الشوارد * ومظهر الآيات الربانية *

(١) قوله أتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد فى نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله أتحفت وبعد قوله وأدرت سياجه ونصها التمست له الكفء الذى يلمح بعين الاستبصار فنونه * ويلحظ بمداركه الشريفة معياره الصحيح وقانونه * ويميز رتبته فى المعارف عما دونه * فسرحت فكرى فى فضاء الوجود * وأجلت نظرى ليل التمام والمعهود * بين التهائم والنجود * فى العلماء الركع السجود * والخلفاء أهل الكرم والجود * حتى وقف الاختيار بساحة الكمال * وطافت الافكار وقف الآمال * وظفرت أيدى المساعى والاعمال * بمنتدى المعارف مشرقة فيه غرر الجمال * وحدائق العلوم الوارفة الظلال عن اليمين والشمال فأنخت مطى الافكار فى عرصاتها وجلوت محاسن الانظار على منصاتها وأتحفت بدواتها مقاصير ايوانها وأطلعته كوكبا وقادا فى أفق خزانتها وصوانها ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره ويعرفون فضل المدارك الانسانية فى آثاره وهى خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد الفاتح الماهد الى آخر النعوت المذكورة هنا ثم قال الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الطاهر المقدس ابى عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المؤمنين ابى يحيى ابى بكر ابن الخلفاء الراشدين من ائمة الموحدين الذين جددوا الدين ونهجوا السبل للمهتدين ومحوا آثار البغاة المفسدين من المجسمة والمعتدين سلالة ابى حفص والفاروق والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق والنور المتلالئ من تلك الاشعة والبروق فاوردته من مودعها العلى بحيث مقر الهدى وروض المعارف خضلة الندى الى آخر ماذكرنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفاسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ

كل ذلك فقد ساروا فيه بسيرة جميلة لا ينافى العقول شيء منه لو كانت الاصول صحيحة والقواعد واجبة فكانوا فى حسن سيرتهم بحفظ تلك الاصول الفاسدة كمن زخرف كنيفا أو بنى على ميت قصرا منيفا ولو لبس الحمار ثياب خز * لقال الناس يا لك من حمار فجمعت محاسن ما انطوى عليه سيرهم خاصة من ملوك الطوائف وحكماء الدول فوجدت ذلك فى ست من الامم وهم العرب والفرس والروم والهند والسند والسند هند فاما ملوك الصين وحكماؤهم فلم يصل الى أرض العرب من سياساتهم شيء كثير لبعد الشقة وطول المسافة وأما من عدا هؤلاء من الامم فلم يكونوا أهل حكم بارعة وقرائح نافذة واذهان ثاقبة وانما صدر عنهم الشيء اليسير من الحكمة فنظمت ما ألفيت فى كتبهم من الحكمة البالغة والسير المستحسنة والكلمة اللطيفة والطريقة المألوفة والتوقيع الجميل والاثر النبيل الى ما رويته وجمعته من سير الانبياء عليهم السلام وآثار الاولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات ومغاص الجواهر المكنونات ان اختصر فلمعة دالة واشارة خفية وان أطال فالفاظ بارعة وآيات معجزة هو الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة (ورتبته) ترتيبا أنيقا وترجمته تراجم بارعة حاوية لمقاصدها ناطقة بحكمها ومضمونها يلج الاذن من غير اذن ويتولج الفهم من غير استئمار الفاظها وقوالب معانيها ليس الفاظها الى الفهم بأسرع من

في فضل المدارك الانسانية * بفكره الثاقب الناقد * ورأيه الصحيح المعاقد * النير المذاهب والعقائد * نور الله الواضح المراشد * ونعمته العذبة الموارد * ولطفه الكامن بالمراصد للشدائد * ورحمته الكريمة المقالد * التي وسعت صلاح الزمان الفاسد * واستقامة المائد من الاحوال والعوائد * وذهبت بالخطوب الاوابد * وخلعت على الزمان رونق الشباب العائد * وحجته التي لا يبطلها انكار الجاحد ولا شبهات المعاند * (أمير المؤمنين) ابو فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير المؤمنين * أبي الحسن ابن السادة الاعلام من بني مرين * الذين جددوا الدين * ونهجوا السبيل للمهتدين * ومحوا آثار البغاة المفسدين * أفاء الله على الامة ظلاله * وبلغه في نصر دعوة الاسلام آماله * وبعثته الى خزانتهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم * وكرسي سلطانهم * حيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندى وفضاء الاسرار الربانية فسيح المدى * والامامة الكريمة الفارسية (١) العزيزة ان شاء الله بنظرها الشريف وفضلها الغني عن التعريف * تبسط له من العناية مهادا * وتفسح له في جانب القبول آمادا * فتوضح بها الادلة على رسوخه واشهادا * ففي سوقها تنفق بضائع الكتاب * وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب * ومن مدد بصائرها المنيرة نتائج القرائح والالباب * والله يوزعنا شكر نعمتها ويوفر لنا حظوظ المواهب من رحمتها * ويعيننا على حقوق خدمتها * ويجعلنا من السابقين في ميدانها المحلين في حومتها * ويضفي على أهل ايالتها * وما أوى من الاسلام الى حرم عمالتها * لبوس حمايتها وحرمتها * وهو سبحانه المسؤل ان يجعل اعمالنا خالصة في وجهتها * بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها وهو حسبنا ونعم الوكيل

(المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر شيء من أسبابها)

(اعلم) أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في أخلاقهم * والانبياء في سيرهم * والملوك في دولهم وسياستهم * حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في احصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف او يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها

(١) قوله الفارسية أي المنسوبة الى الامير أبي فارس المتقدم ذكره اه

معانيها الى القلب فانتظم الكتاب بحمد الله وعونه واحسانه غاية في بابه غريبا في فنونه وأسبابه محقق الحمل كثير الفائدة لم يسبق الى مثله أقلام العلماء ولا جالت في نظمه أفكار الفضلاء ولا حوته خزائن الملوك والرؤساء فلا يسمع به ملك الا استكتبه ولا وزير الا استصحبه ولا رئيس الا استحسنه واستوسده عصمة لمن عمل به من الملوك وأهل الرياسة وجنة لمن تحصن به من أولي الامر والسياسة وجمالا لمن تحلى به من أهل الآداب والمحاضرة وعنوانا لمن فاوض به من أهل المجالسة والمذاكرة (وسميته سراج الملوك) يستغني به الحكيم بدراسته عن مباحثة الحكماء والملوك عن مشاورة الوزراء (واعلموا) وفقكم الله ان أحق من أهديت اليه الحكم وأوصلت اليه النصائح وحملت اليه العلوم من آتاه الله سلطانا فنفذ في الخلق حكمه وجاز عليهم قوله (ولما رأيت) الاجل المأمون تاج الخلافة عز الاسلام فخر الانام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمدا الاموي أدام الله لاعزاز الدين نصره وأنفذ في العالمين بالحق أمره وأوزع كافة الخلق شكره وكفاهم فيه محذوره ومضره فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين فبسط فيهم يده ونشر في مصالح أحوالهم كلمته وعرف الخاص والعام يمنه وبركته وتقلد أمور الرعية وسار فيهم على أحسن قضية متحريا للصواب راغبا في الثواب طالبا سبيل العدل ومناهج الانصاف والفضل رغبت أن أخصه بهذا الكتاب نجله لطف الله تعالى يوم

بوظائفها وتضييق عمالها فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين او ثلاثا او أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة احد الصفين وشئ من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء (ولقد كان) ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على امرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والابواب أوسع من ممالك بني اسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرون ألفا كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف (وعن عائشة والزهري) ان جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية انما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع وأيضا فلو بلغ بنو اسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فان العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الاول والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وايضا فالذي بين موسى واسرائيل انما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بفتح الهاء وكسرها ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو اسرائيل الله هكذا نسبه في التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد ان يتشعب النسل في أربعة أجيال الى مثل هذا العدد وان زعموا أن عدد تلك الجيوش انما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد ايضا اذ ليس بين سليمان واسرائيل الا أحد عشر أبا فانه سليمان بن داود ابن ايشا بن عوفيذ ويقال ابن عوفذ بن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناذب ويقال حميناذاب بن رم بن حصرون ويقال حسرون بن بارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد الى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون وأما أن يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا (والذي ثبت في الاسرائيليات) ان جنود سليمان كانت اثني عشر ألفا خاصة وان مقرباته كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة منهم (وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه) كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر اذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريبا منه وتفاوضوا في الاخبار عن جيوش المسلمين او النصارى أو أخذوا في احصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الاغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الاغراب (١) فاذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال اهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك الا لولوع النفس

(١) قوله الاغراب بكسر الهمزة اهـ

تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ولنذكر فضائله ومحاسنه ما بقي الدهر كما قيل

الناس يهدون على قدرهم * لكنني أهدى على قدري
يهدون ما يفنى وأهدى الذي * يبقى على الأيام والدهر

فان العلم عصمة الملوك والامراء ومعقل السلاطين والوزراء لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله (وهذه) أبواب هذا الكتاب وعدتها أربعة وستون بابا الباب الاول في مواعظ الملوك الباب الثاني في مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين الباب الثالث فيما جاء في الولاة والقضاة وما في ذلك من الغرر والخطر الباب الرابع في معرفة ملك سليمان بن داود ووجه طلبه للملك وسؤاله ان لا يؤتاه احد من بعده الباب الخامس في فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا الباب السادس في ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح الباب السابع في بيان الحكمة في كون السلطان في الارض الباب الثامن في منافع السلطان ومضاره الباب التاسع في معرفة منزلة السلطان من الرعية الباب العاشر في معرفة خصال ورد الشرع بها فيها نظام الملك والدول الباب الحادي عشر في معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولا ثبات له دونها الباب الثاني عشر في معرفة الخصال التي فيهم الملوك انها أزالت دولتهم وهدمت سلطانهم الباب الثالث عشر في معرفة الصفات الراتبة التي زعم الحكماء

بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطا ولا عمد ولا يطالبها فى الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم فى مراتع الكذب لسانه و يتخذ آيات الله هزوا و يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة (ومن الاخبار الواهية للمؤرخين) ما ينقلونه كافة فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى افريقية والبربر من بلاد المغرب وان افريقش بن قيس بن صيفى من اعاظم ملوكهم الاول وكان لعهد موسى عليه السلام اوقبله بقليل غزا افريقية وأثخن فى البربر وأنه الذى سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ماهذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا باهلها ومنهم صنهاجة و كتامة ومن هذا ذهب الطبرى والجرجانى والمسعودى وابن الكلبى والبيلى الى ان صنهاجة و كتامة من حمير وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح (وذكر المسعودى ايضا) أن ذا الاذعار من ملوكهم قبل افريقش وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادى الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون فى تبع الآخر وهو اسعد ابو كرب وكان على عهد يستأسف من ملوك الفرس الكيانية انه ملك الموصل وأذربيجان ولقى الترك فهزمهم وأثخن ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وانه بعد ذلك اغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس والى بلاد الصغد من بلاد امم الترك وراء النهر والى بلاد الروم فملك الاول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد اخاه الثانى الذى غزا الى سمرقند قد سبقه اليها فأثخنا فى بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها الى هذا العهد وبلغ الثالث الى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع (وهذه الاخبار) كلها بعيدة عن الصحة عريقة فى الوهم والغلط وأشبه باحاديث القصص الموضوعة وذلك ان ملك التبابعة انما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه الى السويس من اعمال مصر من جهة المغرب كما تراه فى مصور الجغرافيا فلا يجد السالكون من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس والمسلك هنالك ما بين بحر السويس والبحر الشامى قدر مرحلتين فما دونهما ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم فى عساكر موفورة من غير ان تصير من اعماله هذا ممتنع فى العادة وقد كان بتلك الاعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر وملك بنو اسرائيل الشام ولم ينقل قط ان التبابعة حاربوا أحدا من هؤلاء الامم ولا ملكوا شيأ من تلك الاعمال وايضا فالشقة من البحر الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا فى غير اعمالهم احتاجوا الى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه ولا يكفى ذلك للازودة وللعلوفة عادة وان نقلوا كفايتهم من ذلك من اعمالهم فلا تفى لهم الرواحل بنقله فلابد وان يمروا فى طريقهم كلها باعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمر بهؤلاء الامم من غير ان تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك ابعد واشد امتناعا فدل على ان هذه الاخبار واهية او موضوعة (واما) وادى الرمل الذى يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره فى المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى فى كل عصر وكل جهة وهو على ماذكروه من الغرابة تتوفر الدواعى على نقله وأما غزوهم بلاد الشرق وارض الترك وان كانت طريقه اوسع من مسالك السويس الا ان الشقة هنا ابعد وامم فارس والروم معترضون

انها لاتدوم معها مملكة الباب الرابع عشر فى الخصال المحمودة فى السلطان وقد اتفقت الحكماء والعلماء عليها الباب الخامس عشر فى معرفة الخصال التى يعز بها السلطان الباب السادس عشر فى معرفة الخصال التى هى ملاك امور السلطان الباب السابع عشر فى معرفة خير السلطان وشر السلطان الباب الثامن عشر فى معرفة منزلة السلطان من القرآن الباب التاسع عشر فى معرفة خصال جامعة لامر السلطان الباب العشرون فى معرفة الخصال التى هى اركان السلطان الباب الحادى والعشرون فى بيان حاجة السلطان الى العلم الباب الثانى والعشرون فى وصية امير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل ابن زياد فى العلم الباب الثالث والعشرون فى معرفة العقل والدهاء والمكر الباب الرابع والعشرون فى الوزراء واوصافهم الباب الخامس والعشرون فى الجلساء وآدابهم الباب السادس والعشرون فى معرفة الخصال التى هى جمال السلطان الباب السابع والعشرون فى المشاورة والنصيحة الباب الثامن والعشرون فى الحلم ومحاسنه ومحمود عواقبه الباب التاسع والعشرون فيما يسكن به الغضب الباب الثلاثون فى الجود والسخاء الباب الحادى والثلاثون فى معرفة الشح والبخل وما يتعلق بهما الباب الثانى والثلاثون فى معرفة الصبر
فيها
وجميل عواقبه الباب الثالث والثلاثون فى كتمان السر ومحاسنه الباب الرابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى هى رهن لسائر الخصال

فيهادون الترك ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وانما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الاعمال وقد وقع ذلك بين ذى الاذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين تبع الاصغر أبو كرب ويستاسف منهم أيضا ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاوزة أرض فارس بالغزو والى بلاد الترك والتبت وهو ممتنع عادة من أجل الامم المعترضة منهم والحاجة الى الازودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر فالاخبار بذلك واهية مدخولة وهى لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحا فيها فكيف وهى لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق فى خبر يثرب والاوس والخزرج ان تبعا الآخر سار الى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم اليها بوجه لما تقرر فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك وتأمل الاخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله الهادى الى الصواب

(فصل) وأبعد من ذلك وأعرق فى الوهم ما يتناقله المفسرون فى تفسير سورة والفجر فى قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد فيجعلون لفظة ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أى أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لابنين مثلها فبنى مدينة ارم فى صحارى عدن فى مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم ذكر ذلك الطبرى والثعالبى والزمخشرى وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة انه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره الى معاوية فاحضره وقص عليه فبحث عن كعب الاحبار وسأله عن ذلك فقال هى ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج فى طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ فى شئ من بقاع الارض وصحارى عدن التى زعموا انها بنيت فيها هى فى وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا والادلاء تقص طرقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الاخباريين ولا من الامم . ولو قالوا انها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه الا أن ظاهر كلامهم انها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق بناء على ان قوم عاد ملكوها وقد ينتهى الهذيان ببعضهم الى انها غائبة وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر مزاعم كلها أشبه بالخرافات والذى حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب فى لفظة ذات العماد أنها صفة ارم وحملوا العماد على الاساطين فتعين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد ارم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى اشبه بالاقاصيص الموضوعة التى هى اقرب الى الكذب المنقولة فى عداد المضحكات والا فالعماد هى عماد الاخبية بل الخيام وان اريد بها الاساطين فلا بدع فى وصفهم بانهم اهل بناء واساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا انه بناء خاص فى مدينة معينة او غيرها وان اضيفت كما فى قراءة ابن الزبير فعلى اضافة الفصيلة الى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار واى ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى تمحلت لتوجيهه لامثال هذه الحكايات الواهية التى ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة

(ومن الحكايات) المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر اذن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما فى مجلسه وان العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها زعموا فى حالة سكر فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وابويها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه الا اربعة رجال هم اشراف الدين وعظماء الملة من بعده والعباسة بنت محمد المهدى ابن عبد الله أبى جعفر المنصور ابن محمد السجاد ابن على ابى الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ابنة خليفة اخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها واين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها او كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس او بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش وغايته ان جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الاشراف وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالى الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها واستنكره ولج فى تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد من الناس وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على امره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولى عهد وخليفة حتى شب فى حجره ودرج من عشه وغلب على امره وكان يدعوه يا أبت فتوجه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من اقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء وسيرت الى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة اموال الجباية وافاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العانى ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم واسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والامصار فى سائر الممالك حتى آسفوا البطانة واحقدوا الخاصة واغصوا اهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة اخوال جعفر من اعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر فى نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم اواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبائر المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أخى محمد المهدى الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على امان الرشيد بخطه وبذل لهم

الباب الرابع والخمسون فى هدايا العمال والرشا على الشفاعات الباب الخامس والخمسون فى معرفة حسن الخلق الباب السادس والخمسون فى الظلم وشؤمه وسوء عاقبته الباب السابع والخمسون فى السعاية والنميمة وقبحهما وما يؤول اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة الباب الثامن والخمسون فى القصاص وحكمته الباب التاسع والخمسون فى الفرج بعد الشدة الباب الستون فى الشجاعة وثمراتها الباب الحادى والستون فى الحروب وتدبيرها الباب الثانى والستون فى القضاء والقدر وأحكامهما الباب الثالث والستون وهو جامع من اخبار ملوك العجم وحكاياتهم الباب الرابع والستون يشتمل على حكم منثورة وهو آخر الكتاب وكمال الابواب

(الباب الاول فى مواعظ الملوك)

لقد خاب من كان حظه من الله الدنيا اعلم ايها الرجل وكانا ذلك الرجل ان عقول الملوك وان كانت كبارا الا انها مشغوفة بكثرة الاشغال فيستدعى من الموعظة ما يتولج على تلك الافكار ويتغلغل فى مكامن تلك الاسرار فيرفع تلك الاستار ويقلع تلك الاكنة والاقفال ويصقل ذلك الصدا والران قال الله تعالى قل متاع الدنيا قليل فوصف الله تعالى جميع الدنيا بانها متاع قليل وأنت تعلم انك ما أوتيت من ذلك القليل الا قليلا ثم ذلك القليل ان تمتعت به ولم تعص الله فيه فهو لهو فيه ولعب قال الله تعالى انما الحياة الدنيا لهو ولعب ثم قال وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون فلا تبع ايها العاقل لعيا باقيا لا

فيه ألف ألف درهم على ماذكره الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرما لدماء اهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه * وسأله الرشيد عنه لما وشي به اليه ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم والقيت عليهم سماؤهم وخسفت الارض بهم وبدارهم وذهبت سلفا ومثلا للآخرين ايامهم ومن تأمل اخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الاثر ممهد الاسباب (وانظر) ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم وماذكره في باب الشعراء من كتاب العقد في محاورة الاصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم انه انما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

ليت هندا أنجزتنا ما تعد * وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحده * انما العاجز من لا يستبد

وان الرشيد لما سمعها قال اي والله اني عاجز حتى بعثوا بامثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال (وأما) ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لاول وقتها (حكى) الطبري وغيره انه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاما ويحج عاما ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ ومالي لا أعبد الذي فطرني وقال والله ما أدري لم فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت اليه مغضبا وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضا اياك اياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وايضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده ابي جعفر بعيد زمن انما خلفه غلاما وقد كان ابو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين اشار عليه بتأليف الموطا يا أبا عبد الله انه لم يبق على وجه الارض اعلم مني ومنك واني قد شغلتني الخلافة فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة قال مالك فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ ولقد أدركه ابنه المهدي ابو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو بمجلسه يباشر الخياطين في ارقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدي من ذلك وقال يا أمير المؤمنين علي كسوة العيال عامنا هذا من عطائي فقال له لك ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالانفاق من أموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوته وما ربي عليه من امثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها ان يعاقر الخمر او يجاهر بها وقد كانت حالة الاشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد واوصاف الكمال ونزعات العرب (وانظر) ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أحضر له السمك في مائدته فحماه عنه ثم امر صاحب المائدة

يفنى بحياة الابد حياة لا تفنى وشباب لا يبلى كما قال الفضيل رحمه الله لو كانت الدنيا ذهبا يفنى وكانت الآخرة خزفا يبقى لوجب ان نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا ما آتى سليمان بن داود عليهما السلام حيث آتاه ملك جميع الدنيا والانس والجن والطير والوحش والريح تجري بامره رخاء حيث أصاب ثم زاده الله ما هو أعظم منها فقال تعالى هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها رفعة ومنزلة كما حسبتموها بل قال عند ذلك هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ام اكفر وهذا افصل الخطاب لمن تدبر أن يقول له ربه في معرض المنة هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب ثم خاف سليمان عليه السلام ان يكون استدراجا من حيث لا يعلم هذا وقد قال الله لك ولسائر اهل الدنيا فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون وقال وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين تأمل بعقلك ما روي عن النبي عليه السلام انه قال لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء والق سمعك الى ما نزل به جبريل عليه السلام من عند الله تعالى على محمد عليه السلام فقال يا محمد ان الله يقول لك عش ما شئت فانك ميت واحبب من شئت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك مجزي به فانظر ما اشتملت عليه هذه الكلمات من تصرم العمر وفراق الاحبة والجزاء على الاعمال فلو لم ينزل من السماء غيرها لكانت كافية انظر بفهمك الى ما رواه الحسين ان

النبي عليه السلام مر بمنزل قوم قد ارتحلوا عنه واذا الاعطار وح فقال أترون هذا هان على اهله فقالوا من هوانه عليهم ألقوه قال فوالذي
نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذا على اهله فجعل الدنيا اهون على الله من الجيفة المطروحة وقال ابو هريرة قال لي النبي

يحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله فاعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة اقداح خلط احداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خمرا صرفا وقال في الاول والثاني هذا طعام امير المؤمنين ان خلط السمك بغيره اولم يخلطه وقال في الثالث هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها الى صاحب المائدة حتى اذا انتبه الرشيد واحضره للتوبيخ احضر الثلاثة الاقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط واماع وتفتت ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما فكانت له في ذلك معذرة وتبين من ذلك ان حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته واهل مائدته ولقد ثبت عنه انه عهد بحبس ابي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب واقلع وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق وفتاويهم فيها معروفة واما الخمر الصرف فلا سبيل الى اتهامه به ولا تقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من اكبر الكبائر عند اهل الملة ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحلية الى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على ان جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم أيضا في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم ويتبين ذلك باتم من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الاول ان شاء الله والله الهادي الى الصواب (ويناسب) هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه وانه كان يعاقر المأمون الخمر وانه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه

يا سيدي وأمير الناس كلهم * قد جار في حكمه من كان يسقيني
اني غفلت عن الساقي فصيرني * كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم انما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون انما كانت خلة في الدين ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويلتمس الاناء مخافة ان يوقظ يحيى بن أكثم وثبت انهما كانا يصليان الصبح جميعا فاين هذا من المعاقرة وايضا فان يحيى بن أكثم كان من علية أهل الحديث وقد أثنى عليه الامام احمد بن حنبل واسمعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزني الحافظ ان البخاري روى عنه في غير الجامع فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ما ينبزه المجان بالميل الى الغلمان بهتانا على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك الى اخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء اعدائه فانه كان محسودا في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزها عن مثل ذلك ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله سبحان الله ومن يقول هذا وانكر ذلك انكارا شديدا واثنى عليه اسمعيل القاضي فقيل له ما كان يقال فيه فقال معاذ الله ان تزول عدالة مثله بتكذيب باغ وحاسد وقال ايضا يحيى بن أكثم ابرأ الى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان ولقد كنت اقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمي بما رمي به وذكره ابن حبان في الثقات وقال لا يشتغل بما يحكى عنه لان اكثرها لا يصح عنه (ومن

عليه السلام الا اريك الدنيا جميعا بما فيها قلت بلى قال فاخذ بيدي واتى بي الى واد من اودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤس الناس وعذرات وخرق بالية وعظام البهائم ثم قال يا ابا هريرة هذه الرؤس كانت تحرص على الدنيا كحرصكم وتأمل آمالكم ثم هي اليوم تساقط جلدا بلا عظم ثم هي صائرة رمادا رمددا وهذه العذرات الوان اطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها في بطونهم فاصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية رياشهم ولباسهم ثم اصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها اطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا (وقال ابن عمر) اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدي فقال يا عبد الله كن في الدنيا كانك غريب او كعابر سبيل واعدد نفسك في الموتى يا ايها الرجل ان كنت لا تدري متى يفجؤك الاجل فلا تغتر بطول الامل فانه يقسي القلب ويفسد العمل وقد عير الله اقواما مد لهم في الاجل فقست منهم القلوب وطال منهم الامل فقال تعالى ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد

أمثال هذه الحكايات) ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل في سبب اصهار المأمون الى الحسن بن سهل في بنته بوران وانه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاعتقده وتناول المعالق فاهتزت وذهب به صعدا الى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشه وتنضيد ابنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس وان امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائقة الجمال فتانة المحاسن فحيته ودعته الى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع الى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعثه على الاصهار الى ابيها واين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه وأخذه بسير الخلفاء الاربعة اركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه أحوال الفساق (١) المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الاعراب واين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وانما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون باشباه هذه الاخبار وينقرون عنها عند تصفحهم لاوراق الدواوين ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون ولقد عذلت يوما بعض الامراء من ابناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالاوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي افلا ترى الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له ياسبحان الله وهلا تأسيت بأبيه او اخيه اوما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي وأعرض والله يهدي من يشاء (ومن الاخبار الواهية) ما يذهب اليه الكثير من المؤرخين والاثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن اهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم الى اسمعيل الامام ابن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على احاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الاحاديث في أخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وادلة الاحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فانهم متفقون في حديثهم عن مبدا دولة الشيعة ان أبا عبد الله المحتسب لما دعى بكتامة للرضي من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه ابي القاسم خشيا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وانهما خرجا من الاسكندرية في زي التجار ونمى خبرهما الى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى اذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي فأفلتوا الى المغرب وأن المعتضد اوعز الى الاغالبة امراء افريقية بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة باخذ الافاق عليهما واذكاء العيون في طلبهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر الشيعة على الاغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وافريقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بني العباس في ممالك الاسلام شق الابلة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ولقد اظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الامير

(١) قوله المستهتر بالشئ بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل به وشتم له والذي كثرت اباطيله اه قاموس

فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون احسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر يا ايها الرجل الذي الى متى املك وارى قد ابلك فان كنت لا تدري متى الموت فاعلمن * بانك لا تبقى الى آخر الدهر اين آدم اين آدم أبو الاولين والآخرين أين نوح شيخ المرسلين أين ادريس رفيع العالمين أين ابراهيم خليل الرحمن أين موسى الكليم من بين النبيين والمرسلين أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين وامام السائحين أين محمد خاتم النبيين وحبيب رب العالمين وسيد الاولين والآخرين اين أصحابه الابرار المنتخبون أين الامم الماضية اين الملوك السالفة أين القرون الخالية أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان اين الذين اغتروا بالاجناد والسلطان أين اصحاب السطوة والولايات أين الذين خفقت على رؤسهم الالوية والرايات أين الذين قادوا الجيوش والعساكر أين الذين عمروا القصور والدساكر أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب أين الذين تمتعوا في اللذات والمآرب أين الذين اسرفوا على الخلائق كبرا وعتيا أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا أين الذين استلانوا الملابس اثاثا ورئيا أين الذين ملكوا ما بين الخافقين فخرا وعزا أين الذين فرشوا القصور وخزا وبزا أين الذين تضعضعت لهم الارض هيبة وعزا أين الذين استذلوا العباد قهرا ولزا هل تحس منهم من أحد او تسمع لهم ركزا أفناهم والله مفني

البساسيرى من موالى الديلم المتغلبين على خلفاء بنى العباس فى مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حولا كاملا ومازال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بنى أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعى فى النسب يكذب فى انتحال الامر واعتبر حال القرمطى اذ كان دعيا فى انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه وظهر سريعا على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ولو كان أمر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقرض أمرهم وشيعتهم فى ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الامام اسمعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس اثرها داعين الى بدعتهم هاتفين باسماء صبيان من اعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى تعيينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الائمة ولو ارتابوا فى نسبهم لما ركبوا اعناق الاخطار فى الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس فى امره ولا يشبه فى بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله (والعجب) من القاضى ابى بكر الباقلانى شيخ النظار من المتكلمين يجنح الى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الرأى الضعيف فان كان ذلك لما كانوا عليه من الالحاد فى الدين والتعمق فى الرافضية فليس ذلك بدافع فى صدر دعوتهم وليس اثبات منتسبهم بالذى يغنى عنهم من الله شيأ فى كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام فى شأن ابنه انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يا فاطمة اعملى فلن أغنى عنك من الله شيأ ومتى عرف امرؤ قضية او استيقن أمرا وجب عليه ان يصدع به والله يقول الحق وهو يهدى السبيل والقوم كانوا فى مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم فى القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو تسأل الايام ما اسمى ما درت * وأين مكانى ما عرفن مكانيا

حتى لقد سمى محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدى بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة بنى العباس بذلك عند ظهورهم الى الطعن فى نسبهم وازدلفوا بهذا الرأى القائل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وامراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الاعداء يدفعون به عن انفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين واهل دعوتهم حتى لقد اسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم من اعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضى واخوه المرتضى وابن البطحاوى ومن العلماء ابو حامد الاسفراينى والقدورى والصيمرى وابن الاكفانى والابيوردى وابو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من اعلام الامة ببغداد فى يوم مشهود وذلك سنة ستين واربعمائة فى ايام القادر وكانت شهادتهم فى ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بنى العباس الطاعنون فى هذا النسب فنقله الاخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه والحق من ورائه وفى كتاب المعتضد فى شأن عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة اصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم فالمعتضد اقعد بنسب اهل البيت من كل احد والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب

الامم وأبادهم مبيد الرمم واخرجهم من سعة القصور واسكنهم فى ضنك القبور تحت الجنادل والصخور فاصبحوا الاترى الامساكنهم فعاث الدود فى أجسادهم واتخذ مقيلا فى أبدانهم فسالت العيون على الخدود وامتلأت تلك الافواه بالدود وتساقطت الاعضاء وتمزقت الجلود وتناثرت اللحوم وتقطعت البطون فلم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما كسبوا اسلمتك الاحبة والاولياء وهجرك الاخوان والاصفياء ونسيك القرباء والبعداء فأمسيت ولو نطقت لانشدت قولنا فى سكان الثرى ورهائن الترب والبلى

مقيم بالحجون رهين رمس * واهلى راحلون بكل واد
كانى لم أكن لهم حبيبا * ولا كانوا الاحبة فى السواد
فعودوا بالسلام فان أبيتم * فأوموا بالسلام على بعاد
فان طال المدى وصفا خليل * سوانا فاذكروا صفو الوداد
وذاك أقل مالك من حبيب * وآخره الى يوم التناد
فلو انا وقفكم وقفنا * سقينا الترب من مهج الفؤاد

(وقال) مكرم بن يوسف العابد أوحى الله الى نبى من انبياء بنى اسرائيل ان قف على المدائن والحصون وأبلغهم عنى حرفين لا تأكلوا الاطيبا ولا تتكلموا الا بالحق ولما دخل يزيد الرقاشى على عمر بن عبد العزيز قال عظنى يا يزيد قال يا أمير المؤمنين اعلم انك اول خليفة تموت فبكى عمر وقال زدنى يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم الا أب ميت فبكى وقال زدنى يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بين الجنة والنار منزل فسقط مغشيا يا أيها الرجل لا تغفلن عن تذكر ما تلقيه من

اليه

مخوف الفناء وتقضي المسار بذهاب اللذات وانقضاء الشهوات وبقاء التبعات وانقلابها حسرات وان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال
له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له من صح فيها سقم ومن سلم فيها هرم

اليه بضائع العلوم والصنائع وتلمس فيه ضوال الحكم وتحدى اليه ركائب الروايات والاخبار وما نفق فيها
نفق عند الكافة فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ولم تجر
(١) عن قصد السبيل نفق في سوقها الابريز الخالص واللجين المصفى وان ذهبت مع الاغراض والحقود
وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه
وملتمسه (ومثل هذا) وأبعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن عبد الله بن
حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الامام بعد أبيه بالمغرب الاقصى
ويعرضون تعريض الحد بالتظنن في الحمل المخلف عن ادريس الاكبر انه لراشد مولاهم قبحهم الله
وابعدهم ما اجهلهم اما يعلمون ان ادريس الاكبر كان أصهاره في البربر وانه منذ دخل المغرب الى ان توفاه
الله عزوجل عريق في البدو وان حال البادية في مثل ذلك غير خافية اذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب
واحوال حرمهم اجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدم
الفواصل بين المساكن وقد كان راشد يتولى خدمة الحرم اجمع من بعد مولاه بمشهد من اوليائهم وشيعتهم
ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب الاقصى عامة على بيعة ادريس الاصغر من بعد ابيه وآتوه
طاعتهم عن رضا واصفاق وبايعوه على الموت الاحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته ولو حدثوا
أنفسهم بمثل هذه الريبة او قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح او منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو
بعضهم كلا والله انما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الاغالب عمالهم كانوا
بافريقية وولاتهم وذلك انه لما فر ادريس الاكبر الى المغرب من وقعة فخ اوعز الهادي الى الاغالبة
ان يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب فتم امره وظهرت دعوته
وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع
للعلوية وادهانه في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالى المهدي أبيه للتحيل على قتل
ادريس فاظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه ادريس وخلطه بنفسه وناوله
الشماخ في بعض خلواته سما استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بني العباس احسن المواقع لما رجوه من
قطع اسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما تأدى اليهم خبر الحمل المخلف لادريس فلم
يكن لهم الا كلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس بن ادريس قد
تجددت فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم قد نزل بدولة العرب عن أن يسموا
الى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على ادريس الاكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر
عليه الا التحيل في اهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا الى أوليائهم من الاغالبة بافريقية في سد تلك الفرجة
من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل ان تشج منهم يخاطبهم بذلك
المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الاغالبة عن برابرة المغرب الاقصى اعجز ولمثلها من الذبون على
ملوكهم احوج لما طرق الخلافة من انتزاء مماليك العجم على سدتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها
وتصريفهم احكامها طوع اغراضهم في رجالها وجباياتها وأهل خططها وسائر نقضها وابرامها كما قال
شاعرهم خليفة في قفص * بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له * كما تقول الببغا
فغشي هؤلاء الامراء الاغالبة بوادر السعايات وتلوا بالمعاذير فطورا باحتقار المغرب وأهله وطورا بالارهاب

(١) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار اى لم تمل اه

ومن افتقر فيها حزن ومن
استغنى فيها افتتن حلالها
حساب وحرامها عقاب
ومتشابهها عتاب من
ساعاها فاتته ومن قعد عنها
أتته ومن نظر اليها أعمته
ومن بصر بها بصرته
لا خيرها يدوم ولا شرها
يبقى ولا فيها المخلوق بقاء
يا أيها الرجل لا تخدعن
كما خدع من قبلك فان
الذي أصبحت فيه من النعم
انما صار اليك بموت من
كان قبلك وهو خارج من
يديك بمثل ما صار اليك
فلو بقيت الدنيا للعالم
لم تصر للجاهل ولو بقيت
للاول لم تنتقل الى الآخر
يا أيها الرجل لو كانت الدنيا
كلها ذهبا او فضة ثم سلمت
عليك بالخلافة وألقت
اليك مقاليدها وأفلاذ
كبدها ثم كنت طريدة
للموت ما كان ينبغي لك
أن تتهنأ بعيش لا تفرح فيما
يزول ولا غناء فيما لا يبقى
وهل الدنيا الا كما قال الاول
قد دنت لي و كيف بلا
وكما قال الشاعر
ولقد سألت الدار عن
أخبارهم
فتبسمت عجبا ولم تبدي
حتى مررت على الكنيف
فقال لي

أموالهم ونوالهم عندي ولقد أصاب ابن السماك لما قال له الرشيد يا ابن السماك عظني وبيده شربة من ماء فقال يا أمير المؤمنين
أرأيت لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفتديها بملكك قال نعم قال يا أمير المؤمنين فلو حبس عنك خروجها أكنت تفتديه بملكك

بشأن ادريس الخارج به ومن قام مقامه من اعقابه يخاطبونهم بتجاوزه حدود النخوم من عمله وينفذون سكته في تحفهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضا باستقحاله وتهويلا باشتداد شوكته وتعظيما لما دفعوا اليه من مطالبته ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة ان الجؤا اليه وطوروا يطعنون في نسب ادريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضا لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعد المسافة وافن عقول من خلف من صبية بني العباس ومماليكهم العجم في القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل هذا دابهم حتى انقضى امر الاغالبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء اسماع الغوغاء وصبر عليها بعض الطاعنين اذنه واعتدها ذريعة الى النيل من خلفهم عند المنافسة ومالهم قبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون وادريس ولد على فراش ابيه والولد للفراش على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد اهل الايمان فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء باثمه وولج الكفر عن بابه وانما أطنبت في هذا الرد سدا لابواب الريب ودفعا في صدر الحاسد لما سمعته اذناي من قائله المعتدي عليهم به القادح في نسبهم بفريته وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن اهل البيت وارتاب في الايمان بسلفهم والافالمحل منزه عن ذلك معصوم منه ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا وارجو ان يجادلوا عني يوم القيامة (ولتعلم) ان اكثر الطاعنين في نسبهم انما هم الحسدة لاعقاب ادريس هذا من منتم الى اهل البيت اودخيل فيهم فان ادعاء هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على الامم والاجيال من اهل الآفاق فتعرض التهمة فيه ولما كان نسب بني ادريس هؤلاء بمواطنهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع احد في دركه اذ هو نقل الامة والجيل من الخلف عن الامة والجيل من السلف وبيت جدهم ادريس مختط فاس ومؤسسها بين بيوتهم ومسجده لصق محلاتهم ودروبهم وسيفه منتضى برأس المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من آثاره التي جاوزت اخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان فاذا نظر غيرهم من اهل هذا النسب الى ما آتاهم الله من امثالها وما عضد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن انه بمعزل عن ذلك وانه لا يبلغ مد احدهم ولا نصيفه وان غاية امر المنتمين الى البيت الكريم ممن لم يحصل له امثال هذه الشواهد ان يسلم لهم حالهم لان الناس مصدقون في انسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من نفسه غص بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسدا من عند انفسهم فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن القائل والقول المكذوب تعللا بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال وهيهات لهم ذلك فليس في المغرب فيما نعلمه من اهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ اعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي ابن محمد بن يحيى العوام ابن القاسم بن ادريس بن ادريس وهم نقباء اهل البيت هنالك والساكنون ببيت جدهم ادريس ولهم السيادة على اهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الادارسة ان شاء الله تعالى (ويلحق) بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب القائلة ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم

قال نعم قال فلا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة ايها الشاب لا تغتر بشبابك فان أكثر من يموت الشباب والدليل عليه ان اقل الناس الشيوخ يا أيها الشاب كم من جمل في التنور وأبوه يرعى وكم من طفل في التراب وجده يحيى وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه لاسقف قد أسلم عظني قال يا امير المؤمنين ان كان الله عليك فمن ترجو قال احسنت فزدني قال ان الله معك فمن تخاف قال احسنت فزدني قال احسب ان الله قد غفر ذنب المذنبين أليس قد فاتهم ثواب المحسنين قال حسبي حسبي وبكى اربعين صباحا وقال الحسن قدم صعصعة يعني عم الفرزدق على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه يقرأ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فقال حسبي حسبي لا ابالي ان لا اسمع آية غيرها وقال سليمان بن عبد الملك لمحمد الطويل عظني فقال ان كنت اذا عصيت الله ظننت انه يراك فلقد اجترأت على رب عظيم وان كنت تظن انه لا يراك فلقد كفرت برب عظيم وكتب علي بن الحسين رضي الله عنه الى سلمان انما مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها ويقتل سمها فاعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن فيها الى سرور أشخص منها الى مكروه وقال أبو العتاهية

هي الدار دار الاذى والقذا * ودار الفناء ودار الغير
ولو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها وطر

الموحدون اتباعه من انتسابه فى أهل البيت وانما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن فى نفوسهم من حسده على شأنه فانهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته فى العلم والفتيا وفى الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بانه متبوع الرأى مسموع القول موطأ العقب نفوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح فى مذاهبه والتكذيب لمدعياته وأيضا فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة اعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل فى بلده وعلى قدره فى قومه فاصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ونقموا على المهدى ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناصبة لهم تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم فنادى فى قومه ودعا الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها اعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية وتساقطت فى ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها الا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة وتقربوا الى الله تعالى باتلاف مهجهم فى اظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحاله من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على شئ من الحظ والمتاع فى دنياه حتى الولد الذى ربما تجنح اليه النفوس وتخادع عن تمنيه فليت شعرى ما الذى قصد بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا فى عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعوته سنة الله التى قد خلت فى عباده

(وأما) انكارهم نسبه فى أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع أنه ان ثبت أنه ادعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لان الناس مصدقون فى أنسابهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم فى غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتى فى الفصل الاول من هذا الكتاب والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد اليه والى عصابته من هرغة حتى تم امر الله فى دعوته فاعلم ان هذا النسب الفاطمى لم يكن أمر المهدى يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه وانما كان اتباعهم له بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمى خفيا قد درس عند الناس وبقى عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون النسب الاول كانه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب الاول فى عصبيته اذ هو مجهول عند أهل العصابة ومثل هذا واقع كثيرا اذ كان النسب الاول خفيا (وانظر) قصة عرفجة وجرير فى رياسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الازد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر رضى الله عنه كما هو مذكور تتفهم منه وجه الحق والله الهادى للصواب

(وقد) كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب فى هذه المغالط فقد زلت أقدام كثير من الاثبات والمؤرخين الحفاظ فى مثل هذه الاحاديث والآراء وعلقت بافكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت فى محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتبكا وعد من مناحى العامة فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار فى السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على اصول الدول والملل ومبادى ظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونها واحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث

أيا من يؤمل طول الحياة * وطول الحياة عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير فى العيش بعد الكبر

ولما بلغ مراده من الدنيا افضل ما سمت اليه نفسه ورقت اليه همته رفضها ونبذها وقال هذا سرور لولا انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك لولا انه هالك وغناء لولا انه فناء وجسيم لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنى لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلاء لولا انه بلاء وحسن لولا انه حزن وهو يوم لو وثق له بغد يا أيها الرجل لا تكن كالمنخل يرسل أطيب ما فيه ويمسك الحثالة واعلم ان من قسا قلبه لا يقبل الحق وان كثرت رذائله قال الله تعالى فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وذلك ان كثرة الذنوب مانعة من قبول الحق القلوب وولوج المواعظ فيها قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون أى غطاها وغشيها فلا تقبل خيرا ولا تصيخ لموعظة جاء فى التفسير اذا أذنب العبد نكتت فى قلبه نكتة سوداء ثم اذا أذنب نكتت نكتة سوداء حتى يسود القلب وقال حذيفة القلب كالكف فاذا أذنب العبد انقبض وقبض اصبعا ثم اذا أذنب انقبض وقبض أصبعا أخرى ثم كذلك فى الثالث والرابع حتى يتقبض الكف كله ثم يطبع الله عليه فذلك هو الران وقال بكر بن عبد الله اذا أذنب العبد صار فى قلبه كوخز الابرة ثم كلما أذنب صار فيه كوخز الابرة ثم كلما أذنب صار فيه كوخز الابرة حتى يعود القلب كالمنخل

وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب وقال ابن شبرمة اذا كان البدن سقيما لم ينفعه الطعام واذا كان القلب مغرما بحب
الدنيا لم تنفعه الموعظة وفيه قيل ولا أرى أثر الذكر في خلدي * والحبل في الصخرة الصماء له أثر

واقفا على أصول كل خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه واستغنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن اسحق من قبلهما وأمثالهم من علماء الامة وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه فاختلط المرعي بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الامور (ومن الغلط) الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوي شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد من أهل الخليقة (وذلك) ان أحوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده وقد كانت في العالم أمم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك الاحوال وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها او يشابهها والى ما يباينها او يباعدها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال أجمع انقلابة أخرى وصارت الى ما أكثره متعارف لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الاسلاف الذين شيدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار الامر في ايدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال فذهبت بذهابهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها واغفل أمرها (والسبب) الشائع في تبدل الاحوال والعوائد ان عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الامثال الحكمية الناس على دين الملك وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلا بد وان يفزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الاول فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت ايضا بعض الشئ وكانت للاولى اشد مخالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة فما دامت الامم والاجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والاحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مرامه فربما يسمع السامع كثيرا من اخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الاحوال وانقلابها فيجريها لاول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط (فمن هذا الباب) ما ينقله المؤرخون من احوال الحجاج وان اباه كان من المعلمين مع ان التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز اهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم (١) فيتشوف الكثير من المستضعفين اهل الحرف والصنائع المعاشية الى نيل الرتب التي ليسوا لها باهل ويعدونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع حبلها من ايديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقهم وانهم اهل حرف وصنائع للمعاش وان التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة

(١) قوله الجذم الاصل اهـ قاموس

اذا قسا القلب لم تنفعه موعظة
كالارض ان سبخت لم ينفع المطر
ويروى ان أبا العتاهية مر بدكان الوراق واذا كتاب فيه بيت من الشعر
لن ترجع الانفس عن غيها
ما لم يكن منها لها زاجر
فقال لمن هذا فقيل لابي نواس قال وددت انه لي بنصف شعري قال الاصمعي ان النعمان الذي هو امرؤ القيس الاكبر الذي بنى الخورنق أشرف على الخورنق يوما فاعجبه ما أوتي من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال الوجوه نحوه فقال لاصحابه هل اوتي أحد مثل ما أوتيت فقال له حكيم من حكماء أصحابه أهذا الذي اوتيت شئ لم يزل ولا يزال ام شئ كان لمن كان قبلك زال عنه وصار اليك قال بل شئ كان لمن قبلي زال عنه وصار الي وسيزول عني قال فسررت بشئ تذهب عنك لذته وتبقى تبعته قال فأين المهرب قال اما ان تقيم وتعمل بطاعة الله او تلبس امساحا وتلحق بجبل وتعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك قال فاذا كان ذلك فمالي قال حياة لا موت فيها وشباب لا هرم فيه وصحة لا سقم فيها وملك جديد لا يبلى قال فاي خير فيما يفنى والله لاطلبن عيشا لا يزول ابدا انما وملكا جديدا فانخلع من ملكه ولبس الامساح وسار في الارض وتبعه الحكيم وجعلا يعبدان الله حتى ماتا وفيه يقول عدي بن زيد

روم لم يبق منهم مذكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ
ملك عنه فبابه مهجور
وفيهم يقول الاسود بن يعفر
ولقد علمت سوى الذي
أنبأتني
ان السبيل سبيل ذي
الاعواد
ماذا أؤمل بعد آل محرق
تركوا منازلهم وبعد اياد
أرض الخورنق والسدير
وبارق
والقصر ذي الشرفات من
سنداد
نزلوا بأنقرة تسيل عليهم
ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض يخيرها لطيب مقيلها
كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على محل ديارهم
فكأنهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يلهى به
يوما يصير الى بلى ونفاد
(وقال) وهب بن منبه
أصيب على غمدان وهو
قصر سيف بن ذي يزن
بارض صنعاء اليمن وكان
من الملوك الاجلة مكتوبا
بالقلم المسند فترجم بالعربية
واذا هي أبيات جليلة
وموعظة عظيمة
باتوا على قلل الاجبال
تحرسهم
غلب الرجال فلم تنفعهم
القلل

انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان اهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبرى لا على وجه التعليم الصناعي اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الامم وشرفوا فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للامة لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار اصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرائع الدين بعث في ذلك من اصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الاسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الامم البعيدة من ايدى اهلها واستحالت بمرور الايام احوالها وكثر استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطا وصار العلم ملكة يحتاج الى التعلم فاصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل اهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم واصبح حرفة للمعاش وشمخت انوف المترفين واهل السلطان عن التصدي للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند اهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان ابوه من سادات ثقيف واشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الامر عليه لهذا العهد من انه حرفة للمعاش وانما كان على ما وصفناه من الامر الاول في الاسلام (ومن هذا الباب) ايضا ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ اذا سمعوا احوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود العساكر فتترامى بهم وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون ان الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بابن ابي عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف باشبيلية اذا سمعوا ان آباءهم كانوا قضاة انهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضاء من الكتاب الاول وابن ابي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الاموية بالاندلس واهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد بل انما كان القضاء في الامر القديم لاهل (١) العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظائم الامور التي لا تقلد الا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الاحوال على غير ما هي وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من اهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبيات من البربر فبقيت

(١) العصبية بفتحتين التعصب وهو ان يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبة محركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لانهم هم الذابون عن حريم من هو منتماهم وهي بهذا المعنى ممدوحة وأما العصبية المذمومة في حديث الجامع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال قبيلة أخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام نسبة الى العصبة بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير اقاربه ظالما كان أو مظلوما وفي الفتاوى الخيرية من موانع قبول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لانه من بني فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث ليس منا من دعا الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه قاله الاستاذ أبو الوفاء اهـ

واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ✽ فاسكنوا حفرا يا بئس ما نزلوا ✽ ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا ✽ أين الاسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة ✽ من دونها تضرب الاستار والكلل ✽ فأفصح القبر عنهم حين سألهم ✽ تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

انسابهم العربية محفوظة والذريعة الى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورئموا المذلة يحسبون ان انسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكم فتجد اهل الحرف والصنائع منهم متصدين لذلك ساعين في نيله فاما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الامم والعشائر فقلما يغالطون في ذلك ويخطئون في اعتباره (ومن هذا الباب) ايضا ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه واباه وامه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لاهل الدولة وابناؤها متشوفون الى سير أسلافهم ومعرفة احوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لابناء صنائعهم وذويهم والقضاة ايضا كانوا من اهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله وأما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبها ومن كان يناهضها من الامم او يقصر عنها فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الابناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم انما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الاقدمين والذهول عن تحري الاغراض من التاريخ اللهم الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجاج وبني المهلب والبرامكة وبني سهل بن نوبخت وكافور الاخشيدي وابن ابي عامر وامثالهم فغير نكير الالماع بآبائهم والاشارة الى احوالهم لانتظامهم في عداد الملوك (ولنذكر) هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها وهي ان التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر او جيل (فاما) ذكر الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به اخباره وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الامم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلثمائة غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار اماما للمؤرخين يرجعون اليه واصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الاحوال لان الامم والاجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقض عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة والله وارث الارض ومن عليها واذا تبدلت

الاحوال

قد طال ما أكلوا يوما وما شربوا * فأصبحوا بعد ذاك الاكل قد أكلوا   قال شيخنا قرئ على القاضي أبي الوليد الباجي وأنا اسمع
لبعض الشعراء   ويحك يا اسماء ما شاني * (٢٠) أضللتني والله ما شاني   الموت حق فاعلمي نازل * قرب لي لحدي وأكفاني

قد كنت ذا مال فلا والذي
أعطاني العيش وأغناني
ما قرت العين به ساعة
الا تذكرت فأشجاني
علمي باني صائر للبلى
وفاقد أهلي وجيراني
وتارك مالي على حاله
نهبا لشيطان بن شيطان
لامرأة ابني أو لزوج ابنتي
يا لك من غبن وخسران
يسعد في مالي وأشقى به
قوم ذوو غل وشنآن
ان احسنوا كان لهم اجره
وخف من ذلك ميزاني

وممن استبصر من ابناء الملوك فرأى عيب الدنيا وفناءها ونقصها وزوالها ابراهيم ابن ادهم بن منصور من ابناء الملوك ملوك خراسان من كورة بلخ ولما زهد في الدنيا زهد عن ثمانين سريرا قال ابراهيم بن بشار سألت ابراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت الى هذا قال غير هذا أولى بك قلت يرحمك الله لعل الله ينفعني به يوما ثم سألته ثانية فقال ويحك اشتغل بالله تعالى ثم سألته ثالثة فقلت ان رأيت يرحمك الله ان تخبرني لعل الله ان ينفعني فقال كان ابي من ملوك خراسان وكان من المياسير وكان
قد حبب الى الصيد فبينما أنا راكب فرسا وكلبي معي وأثرت أرنبا أو ثعلبا فحركت فرسي فسمعت
نداء من ورائي يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحدا فقلت في نفسي لعن الله الشيطان ثم حركت

الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم باسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التى تبدلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودى لعصره ليكون أصلا يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده (وأنا ذاكر فى كتابى) هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى اما صريحا او مندرجا فى أخباره وتلويحا لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال اجياله وامه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعى على احوال المشرق وامه وان الاخبار المتناقلة لا توفى كنه ما اريده منه والمسعودى انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه فى البلاد كما ذكر فى كتابه مع انه لما ذكر المغرب قصر فى استيفاء احواله وفوق كل ذى علم عليم ومرد العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب ومن كان الله فى عونه تيسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعى والمطالب (ونحن) آخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه التكلان (وقد) بقى علينا ان نقدم مقدمة فى كيفية وضع الحروف التى ليست من لغات العرب اذا عرضت فى كتابنا هذا (اعلم) ان الحروف فى النطق كما يأتى شرحه بعد هى كيفيات الاصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والاضراس او بقرع الشفتين أيضا فتتغاير كيفيات الاصوات بتغاير ذلك القرع وتجىء الحروف متمايزة فى السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما فى الضمائر وليست الامم كلها متساوية فى النطق بتلك الحروف فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لامة أخرى والحروف التى نطقت بها العرب هى ثمانية وعشرون حرفا كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفا ليست فى لغتنا وفى لغتنا أيضا حروف ليست فى لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ثم ان أهل الكتاب من العرب اصطلحوا فى الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر الثمانية والعشرين واذا عرض لهم الحرف الذى ليس من حروف لغتهم بقى مهملا عن الدلالة الكتابية مغفلا عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذى يليه من لغتنا قبله او بعده وليس ذلك بكاف فى الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله (ولما) كان كتابنا مشتملا على اخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا فى أسمائهم او بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذى يليه كما قلناه لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت فى كتابى هذا على ان أضع ذلك الحرف العجمى بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجى ذينك الحرفين فتحصل تأديته وانما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الاشمام كالصراط فى قراءة خلف فان النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاى فوضعوا الصاد ورسموا فى داخلها شكل الزاى ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم او القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل او بنقطة القاف واحدة من فوق او ثنتين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم او القاف وهذا الحرف أكثر ما يجىء فى لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارئ انه متوسط فينطق به كذلك فيكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذى من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب

فرسى فسمعت نداء اقوى من الاول يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا امرت فوقفت مقشعرا انظر يمنة ويسرة فلم ار شيأ فقلت لعن الله ابليس ثم حركت فرسى فسمعت من قربوس سرجى يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا امرت فوقفت وقلت هيهات جاءنى النذير من رب العالمين والله لا عصيت ربى ما عصمنى بعد يومى هذا فتوجهت الى اهلى وخليت فرسى وجئت الى بعض رعاة ابى فأخذت جبته وكساءه والقيت اليه ثيابى فلم ازل ارض تقلنى وارض تضعنى حتى صرت الى العراق فعملت بها اياما فلم يصف لى شئ من الحلال فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال عليك بالشام قال فانصرفت الى مدينة يقال لها المنصورة وهى المصيصة فعملت بها اياما فلم يصف لى شئ من الحلال فسألت بعض المشايخ فقال ان اردت الحلال فعليك بطرسوس فان المباحات بها والعمل كثير قال فبينا انا قاعد على باب البحر اذ جاءنى رجل فاكترانى انظر له بستانا فتوجهت معه فكنت فى البستان اياما كثيرة فاذا انا بخادم قد اقبل ومعه اصحاب له ولو علمت ان البستان لخادم ما نظرته فقعد فى مجلسه ثم قال يا ناطور فأجبته قال فاذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه واطيبه فأتيته برمان فأخذ الخادم رمانة فكسرها فوجدها حامضة فقال يا ناطور ما هذا انت منذ كذا وكذا فى بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا لا تعرف الحلو من الحامض قلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيأ وما أعرف الحلو من الحامض قال فغمز الخادم أصحابه وقال ألا تعجبون من هذا ثم قال لى لو كنت ابراهيم بن أدهم ما زاد على هذا فلما كان من

الغد حدث الناس في المسجد بالصفة بخفاء الناس عنه فالى البستان فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وانا هارب منهم وكان ابراهيم بن ادهم يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين والعمل في الطين وكان يوما يحفظ كرما فمر به جندي فقال اعطنا من هذا العنب فقال ما أمر به صاحبه فأخذ يضربه بالسوط فطأطأ رأسه وقال اضرب رأسا طالما عصى الله فانحجز الرجل ومضى وقال سهل بن ابراهيم صحبت ابراهيم بن أدهم فرضت فانفق على نفقته فاشتهيت شهوة فباع حماره وانفق ثمنه علي فلما تماثلت قلت يا ابراهيم أين الحمار فقال بعناه فقلت فعلام أركب قال يا أخي على عنقي قال فحملني ثلاث منازل رحمه الله وأنشدوا شعرا

أيها المرء ان دنياك بحر ... طافح موجه فلا تأمنها
وسبيل النجاة فيها مبين ... وهو أخذ الكفاف والقوت منها

و بلغني ان بالهند يوما يخرج الناس فيه الى البرية فلا يبقى في البلد بشر من طفل لا شيخ كبير ولا مولود صغير وهذا اليوم يكون بعد انقراض مائة سنة من يوم مثله فاذا اجتمع الخلق في صعيد واحد نادى منادي الملك لا يصعدن هذا الحجر بحجر هنالك منصوب الا من حضر في الجمع الاول الذي قد خلا من مائة سنة فربما جاء الشيخ الهرم الذي قد ذهبت قوته وعمي بصره وفني شبابه وتجيء العجوز ترجف لم يبق منها الا رسمها وقد أخنى الدهر عليها فيصعدان على الحجر السدسة الذي هنالك و يقول الشيخ حضرت الجمع الاول منذ مائة سنة وأنا طفل صغير وكان الملك فلانا و يصف الجيوش الماضية والامم الخالية

عنه وفضله

(الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب)

(اعلم) انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال (ولما كان) الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأي اونحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله (ومن الاسباب) المقتضية للكذب في الاخبار أيضا الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (ومنها) الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع و ينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب (ومنها) توهم الصدق وهو كثير وانما يجيء في الاكثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه (ومنها) تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها (ومن الاسباب) المقتضية له ايضا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة و ينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من اجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتم له بناؤها في حكاية طويلة من احاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه ومن قبل ان الملوك لا تحمل انفسها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفي ذلك اتلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفة عين ومن قبل ان الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها انما هي قادرة على التشكل وما يذكر من كثرة الرؤس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لا انه حقيقة (وهذه) كلها قادحة في تلك الحكاية والقادح المحيل لها من طريق الوجود ابين من هذا كله وهو ان المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي و يهلك مكانه وهذا هو

وكيف طحنتهم البلى وصاروا تحت اطباق الثرى ويقوم خطيبهم فيعظ الناس ويذكرهم صرعة الموت وحسرة الفوت فيبكي القوم ويتوبون
من المظالم ويكثرون الصدقات ويخرجون عن التبعات ويصلحون على ذلك مدة وقال وهب بن منبه صحب رجل بعض

السبب في هلاك أهل الحمامات اذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فان المتدلي فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه في تعديل رئته اذ هو حار بافراط والماء الذي يعدله بارد والهواء الذي خرج اليه حار فيستولي الحار على روحه الحيواني ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك (ومن الاخبار) المستحيلة ما نقله المسعودي ايضا في تمثال الزرزور الذي برومة تجتمع اليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت (ومنها) ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط باكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي ايضا في حديث مدينة النحاس وانها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته الى المغرب وانها مغلقة الابواب وان الصاعد اليها من اسوارها اذا اشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والادلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم ان هذه الاحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الموجود منها ان يصرف في الآنية (١) والخرثي وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وأمثال ذلك كثير وتمحيصه انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن او ممتنع واما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله ان يؤول بما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية اوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط (واما الاخبار) عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب ان ينظر في امكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له واذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن شئ من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا وكأن هذا علم مستقل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد اخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان او عقليا (واعلم) ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أعثر عليه البحث وأدى اليه الغوص وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية فان موضوع الخطابة انما هو

(١) قوله الخرثي بالضم اثاث البيت اهـ قاموس

الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيأ فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ثم التفت اليه في اليوم السابع فقال ياهذا قد علمت ما تريد حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد في الدنيا رأس كل خير والتوفيق نتاج كل خير فاحذر رأس كل خطيئة وارغب في رأس كل خير وتضرع الى ربك ان يهب لك نتاج كل خير قال فكيف اعرف ذلك قال كان جدي رجلا من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء فشبهها بالماء المالح يغر ولا يروي ويضر ولا ينفع وبسحاب الصيف يغر ولا ينفع وبظل الغمام يغر ويخذل وبزهر الربيع ينضر ثم يصفر فتراه هشيما وباحلام النائم يرى السرور في منامه فاذا استيقظ لم يكن في يده الا الحسرة وبالعسل المشوب بالسم الذعاف يغر ويقتل فتدبرت هذه الاحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت حرفا واحدا فشبهتها بالغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها فرأيت جدي في المنام وقال يابني اشهد أنك مني وانا منك هي والله الغول التي تهلك من أجابها وتترك من
أعرض عنها قلت فبأي شئ يكون الزهد في الدنيا قال باليقين واليقين بالصبر والصبر بالعين والعين بالفكر ثم وقف الراهب وقال خذها منا
فلا أراك تلقى الا متجردا بفعل دون قول فكان ذلك آخر العهد به (قلت) وقد وصف الله تعالى الدنيا وأهلها بصفة اعم من هذه الصفة فقال

سبحانه اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه
مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد والكفار ههنا الزراع كأن الزرع يكون في أول نباته أخضر ناعما اهتزت

الاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رأي او صدهم عنه ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية اذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل او المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمري لم اقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة ما أدري لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الانساني متعددون وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل فاين علوم الفرس التي امر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح واين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها واين علوم القبط ومن قبلهم وانما وصل الينا علوم امة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون باخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها ولم نقف على شيء من علوم غيرهم واذا كانت كل حقيقة متعقلة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلهم انما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا انما ثمرته في الاخبار فقط كما رأيت وان كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار وهي ضعيفة فلهذا هجروه والله أعلم وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وهذا الفن) الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لاهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في اثبات النبوة من ان البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس محتاجون الى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد في ان الزنا مخلط للانساب مفسد للنوع وأن القتل أيضا مفسد للنوع وان الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة (وكذلك) أيضا يقع الينا القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه (فمن كلام) الموبذان بهرام بن بهرام في حكاية البوم التي نقلها المسعودي أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك (ومن كلام أنوشروان) في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح العمال واصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه (وفي الكتاب) المنسوب لارسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه الا أنه غير مستوفى ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار في ذلك الكتاب الى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبذان وانوشروان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها وهو قوله العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان تحيا به السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية عبيد يكنفهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع الى اول الكلام فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط

الارض به بعد يبسها فجاءت في العيون كالملح مايكون ثم يهيج فتراه مصفرا أي يكبر ويستوي فيجف ويحترق ويتكسر اعلاه ويستقل يسفله ثم يداس فيكون حطاما اي تبنا متكسرا متقطعا وهذا مثل ضربه الله لبني آدم اذ كانوا أطفالا أول الولادة وفي حال الطفولية كاحسن مرأى يعجبون الآباء ويفتنون ذوي الاحلام والنهى ثم يكبرون فيصيرون شيوخا منكسة رؤسهم مقوسة ظهورهم قد ذهب حسنهم ونعومتهم وفني شبابهم وجمالهم وذوت غضارتهم ونضارتهم واستولى عليهم الهرم والشيب ثم يموتون فيصيرون حطاما في القبور كالتبن في الحريق هذا بعدما وصفها بخمس صفات مذمومة لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر وكان الصدر الاول يسمي الدنيا خنزيرة ولو وجدوا اسما اقبح منه لسموها به وكانوا يسمونها ام دفر والدفر النتن وقال مالك بن أنس بلغني ان ملكا من ملوك بني اسرائيل ركب يوما في زي عظيم فنشرت
له الناس ينظرون اليه أفواجا حتى مر برجل يعمل شيأ مكبا عليه لم يلتفت اليه ولا رفع رأسه اليه فوقف الملك
عليه وقال كل الناس ينظرون الي الا أنت فقال الرجل اني رأيت ملكا مثلك وكان على هذه القرية فمات هو ومسكين فدفن الى جنبه

بعضها

بعضها ببعض وارتدت اعجازها على صدورها واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها ففخر بعثوره عليها وعظم من فوائدها وأنت اذا تأملت كلامنا في فصل الدول والملك واعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في أثنائه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها مستوفى بينا باوعب بيان واوضح دليل وبرهان اطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة موبذان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير في مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه انما يجليها في الذكر على منحى الخطابة في اسلوب الترسل وبلاغة الكلام وكذلك حوم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا اوضح الادلة انما يبوب الباب للمسئلة ثم يستكثر من الاحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا انما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ وكانه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله الى ذلك الهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين بكرة وجهينة خبره فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع انظاره وانحاءه فتوفيق من الله وهداية وان فاتني شئ في احصائه واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل لاني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء

(ونحن) الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الاوهام وترفع الشكوك (ونقول) لما كان الانسان متميزا عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهامي لا بفكر وروية ومنها السعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار الى الغذاء في حياته وبقائه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر او حلة للانس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما سنبينه ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالامصار والقرى والمدن والمداشر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها وله في كل هذه الاحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول (الاول) في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الارض (والثاني) في العمران البدوي وذكر القبائل والامم الوحشية (والثالث) في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية (والرابع) في العمران الحضري والبلدان والامصار (والخامس) في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه (والسادس) في العلوم واكتسابها وتعلمها (وقد) قدمت العمران البدوي لانه سابق على جميعها كما نبين لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والامصار واما تقديم المعاش فلان المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالي أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمالي وجعلت الصنائع مع الكسب لانها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما نبين لك بعد والله الموفق للصواب والمعين عليه

في يوم واحد وكنا نعرفهما في الدنيا باجسادهما ثم كنا نعرفهما بقبريهما ثم نسفت الريح قبريهما وكشفت عنهما فاختلطت عظامهما فلم أعرف الملك من المسكين فلذلك أقبلت على عملي وتركت النظر اليك وروى ان داود عليه السلام بيناهو يسيح في الجبال اذ أتى على غار فاذا فيه رجل عظيم الخلق من بني آدم واذا عند رأسه حجر مكتوب بكتاب محفور فيه أنا رستم الملك ملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وافترعت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت الى ما ترى فصار التراب فراشي والحجارة وسادي فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرتني. وقال وهب بن منبه خرج عيسى بن مريم عليه السلام ذات يوم مع جماعة من أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أمكن من الفرك فقالوا يا نبي الله انا جياع فأوحى الله اليه ان ائذن لهم في أقواتهم فاذن لهم فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون فبيناهم كذلك اذ جاء صاحب الزرع وهو يقول زرعي وأرضي ورثته عن آبائي باذن من تأكلون يا هؤلاء قال فدعا عيسى ربه فبعث الله تعالى جميع من ملك تلك الارض من لدن آدم الى ساعته فاذا عند كل سنبلة او ما شاء الله رجل أو امرأة كلهم ينادون زرعي وأرضي ورثته عن آبائي ففزع الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى عليه السلام وهو لا يعرفه فلما عرفه قال معذرة اليك يا رسول الله اني لم أعرفك زرعي ومالي لك حلال فبكى عيسى عليه السلام وقال ويحك هؤلاء كلهم قد ورثوا هذه الارض وعمروها ثم ارتحلوا عنها وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم ليس لك أرض ولا مال

وقال ابو العتاهية   وعظتك أجداث صمت * ونعتك أزمنة خفت   وتكلمت عن أوجه * تبلى وعن صور سبت
وارتك قبرك في القبور * وأنت حي لم تمت   ياشامتا بمنيتي * ان المنية لم تمت   ولربما انقلب الشماتة * فحل بالقوم الشمت

(الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات)

(الاولى) في ان الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدني بالطبع اي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري هب أنه يأكله حبا من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله أيضا حبا الى اعمال اخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان توفي بذلك كله او ببعضه قدرة الواحد فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم باضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة اكمل من حظ الانسان فقدرة الفرس مثلا اعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف من قدرته ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتراس النائبة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته ايضا باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها او كثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلابد في ذلك كله من التعاون عليه بابناء جنسه ومالم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني والا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضا من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضله ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لانها موجودة لجميعهم فلابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور

وروى ان على بن أبي طالب رضي الله عنه لما رأى فاطمة رضي الله عنها مسجاة بثوبها بكى حتى رثى له ثم قال

لكل اجتماع من خليلين فرقة
وان الذي دون الممات قليل
أرى علل الدنيا على كثيرة
وصاحبها حتى الممات عليل
وان افتقادي واحدا بعد واحد
دليل على أن لا يدوم خليل

(وقال)

الا أيها الموت الذي ليس تاركي
أرحني فقد أفنيت كل خليل
اراك بصيرا بالذين أحبهم
كأنك تنحو نحوهم بدليل

ولما نفض يديه من ترابها تمثل بقول بعض بني أمية

اقول وقد فاضت دموعي حسرة
ارى الارض تبقى والاخلاء تذهب
اخلاي لو غير الحمام أصابكم
عتبت ولكن ما على الموت معتب

(وقال العتابي)

قلت للفرقدين والليل ملق
سود أكنافه على الآفاق
ابقيا ما بقيتما فسيرمى
بين شخصيكما بسهم الفراق
غر من ظن أن يفوت المنايا
وعراها قلائد الاعناق
كم صفيين متعا باجتماع * ثم صارا لغربة وافتراق
لا يدوم البقاء للخلق لكن دوام البقاء للخلاق

وانشدني بعض الادباء   اسعداني يا نخلتي حلوان * وارثيا لي من ريب هذا الزمان   ولعمري لو ذقتما حرق الفر * قة ابكاكما الذي أبكاني

جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا انه خاصة للانسان طبيعية ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنهم في خلقه وجثمانه الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد ان يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فاهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلا عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانه يمتنع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وانه ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق والهداية

(المقدمة الثانية)

(في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم)

(اعلم) انه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الارض كري وانها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما اراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الارض وليس بصحيح وانما التحت الطبيعي قلب الارض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الارض وان قيل في شيء منها انه تحت الارض فبالاضافة الى جهة أخرى منه واما الذي انحسر عنه الماء من الارض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحرا يسمى البحر المحيط ويسمى أيضا البلاية بتفخيم اللام الثانية ويسمى أوقيانوس اسماء أعجمية ويقال له البحر الاخضر والاسود ثم ان هذا المنكشف من الارض للعمران فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانه والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وانما المعمور منه قطعة أميل الى الجانب الشمالي على شكل مسطح كري ينتهي من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط كري ووراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي بينهما سد يأجوج ومأجوج وهذه الجبال مائلة الى جهة المشرق وينتهي من المشرق والمغرب الى عنصر الماء أيضا بقطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الارض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الارض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول الارض وأكبر خط في كرتها كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلثمائة وستين درجة والدرجة من مسافة الارض خمسة وعشرون

واعلما ان بقيتما ان نحسا * سوف يأتيكما فتفترقان

ولما سافر الرشيد الى طوس وعلّ في طريقه من جراحه فقال له الطبيب لا يبرئك الا جمار النخل وكان نزوله قريبا من هاتين النخلتين فامر بقطع جمار احدى النخلتين فلما مثل بين يديه انشده بعض الجلساء هذه الابيات لبعض الشعراء في هاتين النخلتين فقال الرشيد لو سمعتهما ما أمرت بقطعهما ولما مات الاسكندر قال ارسطاطاليس أيها الملك لقد حركتنا بسكونك وقال بعض الحكماء من أصحابه كان الملك امس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فنظمه ابو العتاهية فقال

كفى حزنا بدفنك ثم اني * نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت من حياتك لي عظات * فانت اليوم اوعظ منك حيا

ووجد مكتوبا على قبر

قهرنا من قهرنا فصرنا * للناظرين عبرة

(وقال عبد الله بن المعتز)

نسير الى الآجال في كل ساعة * وايامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حقا كانه * اذا ما تخطته الاماني باطل
وما اقبح التفريط في زمن الصبا * فكيف به والشيب في الرأس شاعل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى * فعمرك أيام تعد قلائل

ولما دخل أبو الدرداء الشام قال يا أهل الشام اسمعوا قول أخ لكم ناصح فاجتمعوا عليه فقال مالي أراكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا شديدا واملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح أملهم غرورا وجمعهم بورا ومساكنهم قبورا وروى الجاحظ قال وجد مكتوبا في حجر ابن آدم لو رأيت يسير

مابقى من أجلك لزهدت فى طول ماترجو من أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت عن حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك
لو قد زلت بك قدمك وأسلمك اهلك (٢٨) وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب فلا أنت فى عملك زائد ولا الى أهلك
عائد وقال مالك بن أنس
بلغنى ان امرأتين أتتا عيسى
عليه السلام فقالتا ياروح
الله ادع الله لنا ان يخرج
لنا أبانا فانه هلك ونحن
غائبتان عنه قال تعرفان
قبره فقالتا نعم فذهب
معهما فاتتا قبرا فقالتا هذا
هو فدعا الله فاخرج لهما
فاذا هو ليس به فدعا فرد
ثم دلتاه على قبر آخر فدعا
ان يخرج فخرج فاذا هو
فلزمتاه وسلمتا عليه ثم قالتا
يانبى الله يامعلم الخير ادع
الله ان يبقيه معنا فقال
وكيف أدعو له ولم يبق له
رزق يعيش به ثم رده
وانصرف وانشدنى بعض
الادباء

واأسفى من فراق قوم
هم المصابيح والحصون
والمزن والمدن والرواسى
والخير والامن والسكون
لم تتغير بنا الليالى
حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب
وكل ماء لنا عيون

(وروى) أن النعمان بن
المنذر خرج متصيدا ومعه
عدى بن زيد فمروا بشجرة
فقال عدى بن زيد أيها
الملك أتدرى ما تقول هذه
الشجرة قال لا قال انها
تقول

من رآنا فليحدث نفسه * أنه موف على قرب سؤال وصروف الدهر لا يبقى لها * ولما تأتى به صم الجبال مستجرا
رب ركب قد أناخوا حولنا * يشربون الخمر بالماء الزلال عمروا الدهر بعيش حسن * آمنى دهرهم غير عجال

فرسخا والفرسخ اثناعشر ألف ذراع فى ثلاثة اميال لان الميل اربعة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعا والاصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها الى بعض ظهرا لبطن و بين دائرة معدل النهار التى تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض و بين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن العمارة فى الجهة الشمالية من خط الاستواء اربع وستون درجة والباقى منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم ان المخبرين عن هذا المعمور وحدوده ومافيه من الامصار والمدن والجبال والبحار والانهار والقفار والرمال مثل بطليموس فى كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زجار من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها الاقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية فى العرض مختلفة فى الطول فالاقليم الاول أطول مما بعده وكذا الثانى الى آخرها فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من انحسار الماء عن كرة الارض وكل واحد من هذه الاقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب الى المشرق على التوالى وفى كل جزء الخبر عن احواله وأحوال عمرانه (وذكروا) أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب فى الاقليم الرابع البحر الرومى المعروف يبدأ فى خليج متضايق فى عرض اثنى عشر ميلا أونحوها مابين طنجة وطريف و يسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا و ينفسح الى عرض ستمائة ميل ونهايته فى آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومى والشامى وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية (قالوا) ويخرج منه فى جهة الشمال بحران آخران من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقا فى عرض رمية السهم و يمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح فى عرض أربعة أميال ويمر فى جريه ستين ميلا و يسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك فى مذهبه الى ناحية الشرق فيمر بارض هريقلية و ينتهى الى بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس والبحر الثانى من خليجى هذا البحر الرومى وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى سمت الجبل انحرف فى سمت المغرب الى بلاد البنادقة و ينتهى الى بلاد انكلاية على ألف ومائة ميل من مبدئه وعلى حافتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم و يسمى خليج البنادقة (قالوا) و ينساح من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق على ثلاث عشرة درجة فى الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر الى الجنوب قليلا حتى ينتهى الى الاقليم الاول ثم يمر فيه مغربا الى أن ينتهى فى الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى بلاد باب المندب منه على اربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه و يسمى البحر الصينى والهندى والحبشى وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج و بلاد بربرا التى ذكرها امرؤ القيس فى شعره وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وارض الواق واق وأمم أخر ليس بعدهم الا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته و بعدهم الحبشة (قالوا) ويخرج من هذا البحر الحبشى بحران آخران (أحدهما) يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقا ثم يمر

مستبحرا الى ناحية الشمال ومغربا قليلا الى ان ينتهي الى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على ألف واربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وايلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل ومازال الملوك في الاسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك (والبحر الثاني) من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال مغربا قليلا الى ان ينتهي الى الابلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الاقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والابلة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والاحقاف عند مبدئه وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها دخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضي الى العراق فيما بين الشأم والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما وهنالك الكوفة والقادسية وبغداد وايوان كسرى والحيرة ووراء ذلك امم الاعاجم من الترك والخزر وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشي (قالوا) وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه أذربيجان والديلم وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان وفي شماليه أرض الخزر واللان (هذه) جملة البحار المشهورة التي ذكرها اهل الجغرافيا (قالوا) وفي هذا الجزء المعمور انهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (فاما النيل) فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الاقليم الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الارض جبل اعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هنالك وبعضها في أخرى ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما الى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فاذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ويذهب الآخر منعطفا الى المغرب ثم يمر على سمته الى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأممهم كلهم على ضفتيه (وأما الفرات) فمبدؤه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمر جنوبا في أرض الروم وملطية الى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة الى ان ينتهي الى البطحاء التي بين البصرة وواسط ومن هنالك يصب في البحر الحبشي وتنجلب اليه في طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة (وأما دجلة) فمبدؤها عين ببلاد خلاط من أرمينية أيضا وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد الى واسط فتتفرق الى خلجان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضي الى بحر فارس وهو في الشرق على يمين الفرات وينجلب اليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشأم من عدوتي الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة (وأما نهر جيحون) فمبدؤه

عصف الدهر بهم فانقرضوا * وكذلك الدهر حالا بعد حال قال ثم جاوزوا الشجرة فمروا بمقبرة فقال له عدى أيها الملك أتدري ما تقول هذه المقبرة قال لا قال انها تقول أيا الركب المخبونا * على الارض المجدونا * كما أنتم كذا كنا * كما نحن تكونونا فقال النعمان قد علمت ان الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت انك انما أردت تعظني فجزاك الله عني خيرا فما السبيل الذي تدرك به النجاة قال تدع عبادة الاوثان وتعبد الله وحده قال في هذه النجاة قال نعم فترك عبادة الاوثان وتنصر يومئذ واخذ في العبادة والاجتهاد (وقال) عبد الله بن المعلم خرجنا من المدينة حجاجا فلما كنا بالرويثة نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة ليس له منظر وهيئة فقال من يبغي خادما من يبغي ساقيا فقلت دونك هذه القربة فاخذها فانطلق فلم يلبث الا يسيرا حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طينا فوضعها كالمسرور الضاحك ثم قال ألكم غير هذا قلنا لا وأطعمناه قرصا باردا فأخذه وحمد الله تعالى وشكره ثم اعتزل وقعد فأكله أكل جائع فادركتني عليه الرأفة فقمت اليه بطعام طيب كثير فقلت له قد علمت انه لم يقع منك القرص بموقع فدونك هذا الطعام فنظر في وجهي وتبسم وقال يا عبد الله انما هي فورة جوع فما أبالي بأي شيء رددتها فرجعت عنه فقال لي رجل الى جنبي أتعرفه قلت لا قال انه من بني هاشم من ولد العباس بن عبد المطلب كان يسكن البصرة فتاب فخرج منها فافتقد فما عرف له اثر ولا وقف له على خبر فأعجبني قوله ثم اجتمعت به وآنسته وقلت له هل لك ان تعادلني فان معي

من بلخ فى الجزء الثامن من الاقليم الثالث من عيون هنالك كثيرة وتنجلب اليه انهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها الى بلاد خوارزم فى الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصب فى بحيرة الجرجانية التى باسفل مدينتها وهى مسيرة شهر فى مثله واليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتى من بلاد الترك وعلى غربى نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارى وترمذ وسمرقند ومن هنالك الى ماوراءه بلاد الترك وفرغانة والخزلجية وامم الاعاجم وقد ذكر ذلك كله بطليموس فى كتابه والشريف فى كتاب زجار وصوروا فى الجغرافيا جميع مافى المعمور من الجبال والبحار والاودية واستوفوا من ذلك مالا حاجة لنا به لطوله ولان عنايتنا فى الاكثر انما هى بالمغرب الذى هو وطن البربر وبالاوطان التى للعرب من المشرق والله الموفق

(تكملة لهذه المقدمة الثانية)

(فى ان الربع الشمالى من الارض أكثر عمرانا من الربع الجنوبى وذكر السبب فى ذلك)

ونحن نرى بالمشاهدة والاخبار المتواترة ان الاول والثانى من الاقاليم المعمورة اقل عمرانا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندى الذى فى الشرق منهما وامم هذين الاقليمين واناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة وامصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع ومابعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك اومعدومة وأممها واناسيها تجوز الحد من الكثرة وامصارها ومدنها تجاوز الحد عددا والعمران فيها مندرج مابين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء ان ذلك لافراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤس فلنوضح ذلك ببرهانه ويتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال الى الخامس والسابع (فنقول) ان قطبى الفلك الجنوبى والشمالى اذا كانا على الافق فهنالك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هى اعظم الدوائر المارة من المشرق الى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار وقد تبين فى موضعه من الهيئة ان الفلك الاعلى متحرك من المشرق الى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الافلاك التى فى جوفه قهرا وهذه الحركة محسوسة وكذلك تبين ان للكواكب فى افلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهى من المغرب الى المشرق ويختلف مؤداها باختلاف حركة الكواكب فى السرعة والبطء وممرات هذه الكواكب فى افلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الاعلى تقسمه بنصفين وهى دائرة فلك البروج منقسمة باثنى عشر برجا وهى على ماتبين فى موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما اول الحمل وأول الميزان فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار الى الشمال وهو من اول الحمل الى آخر السنبلة ونصف مائل عنه الى الجنوب وهو من اول الميزان الى آخر الحوت واذا وقع القطبان على الافق فى جميع نواحى الارض كان على سطح الارض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب الى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على مازعموا فى مبدا الاقليم الاول من الاقاليم السبعة والعمران كله فى الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالى يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج الى ان ينتهى ارتفاعه الى أربع وستين درجة وهنالك ينقطع العمران وهو آخر الاقليم السابع *واذا ارتفع على الافق تسعين درجة وهى التى بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرؤس وصارت دائرة معدل النهار على الافق وبقيت ستة من البروج فوق الافق وهى الشمالية وستة تحت الافق وهى الجنوبية والعمارة فيما بين الاربعة والستين الى التسعين ممتنعة

فضلا من راحلتى فجزانى خيرا وقال لو اردت هذا لكان لى معدا ثم انس الى فجعل يحدثنى فقال انا رجل من ولد العباس كنت اسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد وبذخ وانى امرت خادما لى آن تحشو فراشا لى من حرير ومخدة بورد نثر ففعلت وانى لنائم اذا بقمع وردة قد أغفلته الخادم فقمت اليها فاوجعتها ضربا ثم عدت الى مضجعى بعد اخراج القمع من المخدة فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى وقال افق من غشيتك ابصر من حيرتك ثم أنشأ يقول

يا خدانك ان توسد لينا
وسدت بعد الموت صم الجندل
فامهد لنفسك صاعدا تسعد به
فلتندمن غدا اذا لم تفعل

فانتبهت فزعا فخرجت من ساعتى هاربا الى ربى (وقال) عبد الواحد بن زيد ذكر لى أن فى جوانب الابلة جارية مجنونة تنطق بالحكمة فلم ازل أطلبها حتى وجدتها فى خرابة جالسة على حجر وعليها جبة صوف وهى محلوقة الرأس فلما نظرت الى قالت من غير ان أكلمها مرحبا بك يا عبد الواحد فقلت لها رحمك الله بك وعجبت من معرفتها لى ولم ترنى قبل ذلك فقالت ما الذى جاء بك ههنا فقلت جئت لتعظينى فقالت واعجباه لواعظ يوعظ ثم قالت يا عبد الواحد اعلم ان العبد اذا كان فى كفاية ثم مال الى الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد فيظل حيران والهاً فان كان له نصيب عند الله عاتبه وحيا فى سره فقال عبدى أردت ان أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى واجعلك دليلا لاوليائى وأهل طاعتى فى أرضى فملت الى عرض من اعراض الدنيا وتركتنى فورثتك لان

لان الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين فاذا الشمس تسامت الرؤس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة الى رأس السرطان ورأس الجدى ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعا وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب الشمالى عن الافق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبى كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد واذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها الى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية من الافق كذلك الى رأس الجدى لانحرافها الى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه فلا يزال الافق الشمالى يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرؤس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعا وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذى اذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالى حتى صار مسامتا فاذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة ولا تزال في انخفاض الى ان يكون ارتفاع القطب أربعا وستين ويكون انخفاض الشمس عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبى عن الافق مثلها فينقطع التكوين لافراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر ثم ان الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الاشعة على الارض على زوايا قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة واذا كانت زوايا الاشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة فلهذا يكون الحر عند المسامتة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لان الضوء سبب الحر والتسخين * ثم ان المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتى الحمل والميزان واذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدى الا وقد صعدت الى المسامتة فتبقى الاشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الافق ويطول مكثها او يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها وكذا مادامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض أربعة وعشرين فان الاشعة ملحة على الافق في ذلك بقريب من الحاحها في خط الاستواء وافراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لانه اذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات اذ التكوين لا يكون الا بالرطوبة ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر الى الاعتدال أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين ويتزايد على التدريج الى ان يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الا ان فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد لان الحر اسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في الجمد فلذلك كان العمران في الاقليم الاول والثانى قليلا وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثيرا لنقصان الحر وان كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر اذ لا تجفيف فيها الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالى أكثر وأوفر والله أعلم * ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه وأورد عليهم انه معمور بالمشاهدة والاخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية انما أداهم البرهان الى أن فساد التكوين فيه قوى بافراط الحر والعمران فيه اما ممتنع أو ممكن أقلى وهو كذلك فان خط الاستواء والذى وراءه وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا (وقد زعم) ابن

بذلك الوحشة بعد الأنس والذل بعد العز والفقر بعد الغنى عبدى ارجع الى ما كنت عليه أرجع لك ما كنت تعرفه من نفسك ثم تركتنى وولت عنى وانصرفت منها وبقلبى حسرة منها وأنشدوا

انك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل
أماترى الموت محيطا بها يقطع فيها أمل الآمل
تعجل الذنب بما تشتهى وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا غفلة ماذا بفعل الحازم العاقل

ولما نزل سعد بن أبى وقاص الحيرة قيل له ههنا عجوز من بنات الملوك يقال لها الحرقة بنت النعمان بن المنذر وكانت من أجل قبائل العرب وكانت اذا خرجت الى بيعتها نشرت عليها ألف قطيفة حرير وديباج ومعها ألف وصيف ووصيفة فارسل اليها سعد فجاءت كالشن البالى فقالت ياسعد كنا ملوك هذا المصر قبلك يحمل الينا خراجه ويطيعنا أهله مدة من المدد حتى صاح بنا صائح الدهر فشتت شملنا والدهر ذو نوائب وصروف فلو رأيتنا في أيامنا الا رعدت فرائصك فزعا منا فقال لها سعد ما أنعم ما تنعمتم به قالت سعة الدنيا علينا وكثرة الاصوات اذا دعونا ثم انشأت تقول

وبينا نسوس الناس والامر أمرنا اذا نحن فيهم سوقة ليس ننصف
فتبا الدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

ثم قالت ياسعد انه لم يكن أهل بيت خير الا والدهر يعقبهم غيره حتى يأتى امر الله على الفريقين فاكرمها سعد وأمر بردها فلما أرادت القيام قالت ياسعد لا أزال الله عنك نعمة ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا أزال عن كريم نعمة ولا أزال عن عبد صالح نعمة الا جعلك الله

رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه فى الجنوب بمثابة ما وراءه فى الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذى قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وانما امتنع فيما وراء خط الاستواء فى الجنوب من جهة أن العنصر المائى غمر وجه الارض هنالك الى الحد الذى كان مقابله من الجهة الشمالية قابلا للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لان العمران متدرج ويأخذ فى التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه فى خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم * ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زجار ثم نأخذ فى تفصيل الكلام عليها الخ

(تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا)

اعلم ان الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال الى الجنوب يسمون كل قسم منها اقليما فانقسم المعمور من الارض كله على هذه السبعة الاقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله * فالاول منها مار من المغرب الى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك الا القفار والرمال وبعض عمارة ان صحت فهى كلا عمارة ويليه من جهة شماليه الاقليم الثانى ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى ان ينتهى الى البحر المحيط كالحال فيما وراء الاقليم الاول فى جهة الجنوب الا ان الخلاء فى جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذى فى جهة الجنوب * ثم ان أزمنة الليل والنهار تتفاوت فى هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالى عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهى طول الليل والنهار فى آخر الاقليم الاول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدى لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما الى ثلاث عشرة ساعة وكذلك فى آخر الاقليم الثانى مما يلى الشمال فينتهى طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفى الى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوى برأس الجدى ويبقى للاقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة وكذلك فى آخر الاقليم الثالث مما يلى الشمال أيضا ينتهيان الى أربع عشرة ساعة وفى آخر الرابع الى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفى آخر الخامس الى خمس عشرة ساعة وفى آخر السادس الى خمس عشرة ساعة ونصف وفى آخر السابع الى ست عشرة ساعة وهنالك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الاقاليم فى الاطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم يتزايد من اوله فى ناحية الجنوب الى آخره فى ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد * واما عرض البلدان فى هذه الاقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذى هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبى عن افق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالى عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل * والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة فى طوله من المغرب الى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها فى المسالك ونحن الآن نوجز القول فى ذلك ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحار فى كل جزء منها ونحاذى بذلك ما وقع فى كتاب نزهة المشتاق الذى ألفه العلوى الادريسى الحمودى لملك صقلية من الافرنج وهو زجار بن زجار عندما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من امارة مالقة وكان تأليفه للكتاب فى منتصف

لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

(وروى) ان عيسى عليه السلام كان مع صاحب له يسيحان فاصابهما الجوع وقد انتهيا الى قرية فقال عيسى لصاحبه انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية وقام عيسى يصلى فجاء الرجل بثلاثة ارغفة فأبطأ عليه انصراف عيسى فأكل رغيفا فانصرف عيسى فقال أين الرغيف الثالث فقال ما كانا الا رغيفين قال فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى فدعا عيسى عليه السلام ظبيا منها فذكاه فأكلا منه ثم قال عيسى عليه السلام للظبي قم باذن الله فاذا هو يشتد فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف قال ما كانا الا اثنين قال فمضيا على وجوههما فمرا بنهر عجاج عظيم فأخذ عيسى عليه السلام بيده فمشى به على الماء حتى جاوزا الماء فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه السلام بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف قال ما كانا الا اثنين فمرا حتى أتيا قرية عظيمة خربة واذا قريب منها لبن ثلاث من ذهب فقال الرجل هذا مال فقال عليه السلام هذا مال واحدة لى وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف   المائة
فقال أنا صاحب الرغيف فقال عليه السلام هى لك كلها ففارقه فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا

اللبن فقال اثنان منهم لواحد انطلق الى القرية فأتنا بطعام فذهب فقال احد الباقين تعال نقتل هذا اذا جاء ونقسم هذا بيننا قال الآخر نعم وقال الذي ذهب يشتري الطعام اجعل في الطعام سما فاقتلهما وآخذ اللبن ففعل فلما جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذي

المائة السادسة وجمع له كتابا جمة للمسعودي وابن خرداذبه والحوقلي والقدري وابن اسحق المنجم و بطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالاقليم الاول الى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنه وفضله

(الاقليم الاول) وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها واشهرها ثلاثة و يقال انها معمورة وقد بلغنا ان سفائن من الافرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أساراهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وانهم يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها لان سفر السفن في البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها والى أين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب واذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفافي البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلجج فيه السفن لانها ان غابت عن مرأى السواحل فقل ان تهتدي الى الرجوع اليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الابخرة المانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الارض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها وأما الجزء الاول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان و يذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة اوليل وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان والى بلادهم تسافر تجار المغرب الاقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفار و يكتوون في وجوههم وأصداغهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم و يبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الا اناسي أقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما يأكل بعضهم بعضا وليسوا في عداد البشر وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين ووركلان فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح وقال صاحب كتاب زجار انه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة السلطان مالي وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك و يمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هنالك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كانم من امم السودان و بعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونغارة وكانم بلاد زغاوة وتاجرة

جاء به فماتا فمر بهم عيسى عليه السلام وهم حولها منصرعين فقال هكذا تفعل الدنيا باهلها (وقال عبد الملك) بن عمير رأيت في هذا القصر عجبا رأيت رأس الحسين على ثوبين مصبوغين بين يدي ابن زياد ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار ثم رأيت رأس المختار بين يدي المصعب بن الزبير ثم رايت رأس المصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان (وقال الاصمعي) لما زخرف الرشيد مجالسه وتحرم فيها وزوقها وصنع فيها طعاما كثيرا ارسل الى ابي العتاهية وقال صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال

عش ما بدا لك سالما * في ظل شاهقة القصور

يسعى عليك بما اشتهـ * ـت لدى الرواح وفي البكور

واذا النفوس تقعقعت * في ضيق حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنا * ما كنت الا في غرور

فبكى هرون فقال الفضل ابن يحيى بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فاحزنته فقال هرون دعه فانه رآنا في ضلالة وعمى فكره ان يزيدنا عمى (ويروى) ان

 سليمان بن عبد الملك لبس أخز ثيابه ومس أطيب طيبه ونظر في مرآته فأعجبته نفسه وقال أنا الملك الشاب وخرج الى الجمعة وقال لجاريته كيف ترين فقالت أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير ان لا بقاء للانسان ليس فيما بدا لنا منك عيب *

المتصلة بارض النوبة فى الجزء الرابع من هذا الاقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر الرومى فى الشمال ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذى فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا فى ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة الى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفى كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها فى بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها فى بطيحة واحدة فى اسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربى منه الى بلاد السودان مغربا حتى يصب فى البحر المحيط ويخرج الشرقى منه ذاهبا الى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم فى أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله فى البحر الرومى عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد فى بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر فى وسط هذا الاقليم الاول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهى فى غربى هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق فى الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب فى مهوى بعيد صبا مهولا فلا يمكن ان تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد أسوان قاعدة الصعيد وكذا وسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة والواحات فى غربيها عدوة النيل وهى الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة وفى وسط هذا الاقليم فى الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتى من وراء خط الاستواء ذاهبا الى أرض النوبة فيصب هنالك فى النيل الهابط الى مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا انه من نيل القمر وبطليموس ذكره فى كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل والى وسط هذا الاقليم فى الجزء الخامس ينتهى بحر الهند الذى يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران الا ما كان فى الجزائر التى فى داخله وهى متعددة يقال تنتهى الى ألف جزيرة او فيما على سواحله الجنوبية وهى آخر المعمور فى الجنوب او فيما على سواحله من جهة الشمال وليس منها فى هذا الاقليم الاول الا طرف من بلاد الصين فى جهة الشرق وفى بلاد اليمن وفى الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندى الى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر فى شرقيها على ساحل هذا البحر الهندى وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليهما كما نذكره فى الاقليم الثانى وما بعده فأما الذى على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من اطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة (١) فى شمالى الحبشة ما بين جبل العلاقى فى أعالى الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندى وتحت بلاد زالع من جهة الشمال فى هذا الجزء خليج باب المندب بضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل فى وسط البحر الهندى ممتدا مع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال فى طول اثنى عشر ميلا فضيق البحر بسبب ذلك الى ان يصير فى عرض ثلاثة أميال او نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه فى هذا الجزء تهائم اليمن ومنها على ساحله بلد على بن يعقوب وفى جهة

(١) قوله البجة بضم الباء وفتح الجيم ويقال ايضا البجاة وأما زالع فهى زيلع اه

الجنوب

عابه الناس غير انك فانى فاعرض بوجهه ثم خرج فصعد المنبر وصوته يسمع آخر المسجد فركبته الحمى فلم يزل صوته ينقص حتى ما سمعه من حوله فصلى ورجع بين اثنين يسحب رجليه فلما صار على فراشه قال للجارية ما الذى قلت لى فى صحن الدار قالت ما رأيتك ولا قلت شيأ وانى لى بالخروج الى صحن الدار فقال انا لله وانا اليه راجعون نعيت الى نفسى ثم عهد عهده واوصى وصيته فلم تدر عليه الجمعة الاخرى الا وهو فى قبره (ووجد) مكتوبا على قصر سيف بن ذى يزن

من كان لا يطأ التراب برجله وطئ التراب بناعم الخد

من كان بينك فى التراب وبينه شبران كان بغاية البعد

لو بعثرت للناس أطباق الثرى لم يعرف المولى من العبد

(وقال الهيثم بن عدى) وجدوا غارا فى جبل لبنان زمان الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه بالرومية أنا سبا بن نواس ابن سبا خدمت عيص بن اسحق بن ابراهيم خليل الرب الديان الملك الاكبر وعشت بعده عمرا طويلا ورأيت عجبا كثيرا ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبر احبائه ويعلم انه صائر اليهم ثم لا يتوب وقد علمت ان الاجلاف الجفاة سينزلونى عن سريرى ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان وتتأمر الصبيان ويكثر الحدثان فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلا ومات ذليلا (ويروى) ان الاسكندر مر بمدينة قد ملكها املاك سبعة وبادوا فقال هل بقى من نسل

الجنوب من بلاد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضا وينعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحله الجنوبى فى الجزء السابع من هذا الاقليم وفى شرقى بلاد سفالة من ساحله الجنوبى بلاد الواق واق متصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس فى الارض اعلى منه وهى قبالة سفالة ثم جزيرة القمر وهى جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى ان تقرب من سواحل أعالى الصين ويحتف بها فى هذا البحر من جنوبيها جزائر الواق واق ومن شرقيها جزائر السيلان الى جزائر أخر فى هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والافاويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرذ وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من احوال العمران عجائب ذكرها اهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر فى الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلاد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الامامة الزيدية وهى بعيدة عن البحر الجنوبى وعن البحر الشرقى وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفى شماليها صنعاء وبعدهما الى المشرق أرض الاحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبى وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هى التى انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه اعالى بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام فى الاقليم الاول والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق بمنه وفضله

(الاقليم الثانى) وهو متصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه فى البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التى مر ذكرها وفى الجزء الاول والثانى منه فى الجانب الاعلى منهما أرض قنورية وبعدها فى جهة الشرق أعالى ارض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفى الجانب الاسفل منهما صحراء نيسر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقا أرض فزان ثم مجالات اركار من قبائل البربر ذاهبة الى اعالى الجزء الثالث على سمتها فى الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أمم السودان ثم قطعة من أرض التاجويين وفى أسافل هذا الجزء الثالث وهى جهة الشمال منه بقية أرض ودان وعلى سمتها شرقا أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة وفى الجزء الرابع من اعلاه بقية أرض التاجويين ثم يعترض فى وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حفافى النيل الذاهب من مبدئه فى الاقليم الاول الى مصبه فى البحر فيمر فى هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه وعليه من اعلاه بلد اسنا وأرمنت ويتصل كذلك حفافيه الى أسيوط وقوص ثم الى صول ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهى الايمن منهما فى هذا الجزء عند اللاهون والايسر عند دلاص وفيما بينهما أعالى ديار مصر وفى الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة فى الجزء الخامس الى أن تنتهى الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندى فى الجنوب الى جهة الشمال وفى عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يلملم الى بلاد يثرب وفى وسط الحجاز مكة شرفها الله وفى ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب فى العدوة الغربية من هذا البحر

الاملاك الذين ملكوا هذه المدينة أحد قالوا رجل يكون فى المقابر فدعاه وقال له ما دعاك الى لزوم المقابر قال أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت ذلك سواء قال فهل لك ان تتبعنى فأحيى بك شرف آبائك ان كانت لك همة قال ان همتى العظيمة ان كانت بغيتى عندك قال وما بغيتك قال حياة لا موت فيها وشباب لا هرم فيه وغنى لا يتبعه فقر وسرور لا يعتريه مكروه قال ما أقدر على هذا قال فانفذ لشأنك وخلنى أطلب بغيتى ممن هى عنده فقال الاسكندر هذا أحكم من رأيت (وروى) فى الاسرائيليات ان عيسى بن مريم عليه السلام بينما هو فى بعض سياحته اذ مر بجمجمة نخرة فأمرها ان تتكلم فقالت يا روح الله أنا بلوام بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة وولد لى ألف ذكر وافتضضت ألف بكر وهزمت ألف عسكر وقتلت ألف جبار وافتتحت ألف مدينة فمن رآنى فلا يغتر بالدنيا كما غرتنى فما كانت الا كحلم نائم فبكى عيسى عليه السلام (ووجد) مكتوبا على قصر بعض الملوك وقد باد اهله وأقفرت ساحته

هذى منازل أقوام عهدتهم يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم
تبكى عليهم ديار كان يطربها ترنم المجد بين الحلم والكرم

(وقال) عبد الله بن أبى نوح نزل حى من العرب شعبا من شعاب اليمن فتشاحنوا فيه واختلفوا واستعدوا للقتال فاذا صائح يصيح يا هؤلاء على رسلكم علام القتال فى فوالله لقد ملكنى سبعون أعور كلهم اسمه عمرو *(فصل)* أيها الرجل اعتبر بمن مضى من الملوك والاقيال وخلا من الامم والاجيال

وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش الى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبا ومارب ثم أرض الشحر وينتهي الى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال كما مر ويذهب في هذا الجزء بانحراف الى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلهات وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء وفي الجزء السابع في الاعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الاخرى في السادس ويغمر بحر الهند جانبه الاعلى كله وعليه هنالك بلاد السند الى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوبران وهي من السند أيضا فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهرا وتحتها الملتان بلاد الصنم المعظم عندهم ثم الى أسفل من السند ثم الى أعالي بلاد سجستان وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد منيبار وفي الجانب الاعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الاسفل أرض كابل وبعدها شرقا الى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الاقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الاقصى ويتصل فيه الى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه الى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله الى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم

(الاقليم الثالث) هو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الاول منه وعلى نحو الثلث من اعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البرابر أمم لا يحصيهم الا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والاقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نيسر المفازة التي ذكرناها في الاقليم الثاني وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية الى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى أن ينتهي وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتاتة ثم تينملك ثم كدميوة ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاجة وهم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك امم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم ثم ان جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الاقصى وهي في جوفيه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط اسفي ومدينة سلا وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هي التي تسمى المغرب الاقصى في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر لان هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الاقليم الرابع ويذهب مشرقا فينتهي الى بلاد الشام فاذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل في الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسنطينة في

الشرق

وكيف بسطت لهم الدنيا وانفسحت لهم الآجال وانفسح لهم في المنى والآمال وامدوا بالآلات والعدد والاموال كيف طحنهم بكلكله المنون واختدعهم بزخرفه الدهر الخؤون وأسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور وعاد العين أثرا والملك خبرا فاما اليوم فقد ذهب صفو الزمان وبقي كدره فالموت اليوم تحفة لكل مسلم كان الخير أصبح خاملا والشر أصبح ناظرا وكان الغي أصبح ضاحكا والرشد باكيا وكأن العدل أصبح غائرا وأصبح الجور عاليا وكان العقل أصبح مدفونا والجهل منشورا وكان اللؤم اصبح باسقا والكرم خاويا وكان الود أصبح مقطوعا والبغضاء موصولة وكان الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخى بها الاشرار وكان الخب أصبح مستيقظا والوفاء نائما وكان الكذب أصبح مثمرا والصدق ماحلا وكان الاشرار أصبحوا يسامون السماء وأصبح الاخيار يردون بطن الارض اما ترى الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك ولا تنافس أهل الدنيا في خفض عيشهم ولين رياشهم ولكن انظر الى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم قال الشاعر

رب مغروس يعاش به * عدمته عين مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه * أقرب الاشياء من عرسه

وقد قال التهامي

الشرق منها وفي آخر الجزء الاول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتفعا الى جنوب المغرب الاوسط بلاد أشير ثم بلاد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثاني من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقا ارض ودان التي بقيتها في الاقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل اوراس وتبسة والاربس وعلى ساحل البحر بلد بونة ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونفزاوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هوارة متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم يمر أيضا فيه جبل درن الا أنه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمته الى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان والبحر الرومي من شماله يغمر طائفة منه الى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار الى آخر الجزء في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم اجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلمسة على البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم وفي الاعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الاقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمته شرقا ارض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفترق هذا الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطنوف وزفتى وينقسم الايمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الاسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشيد وعلى مصب الشرقي بلد دمياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية كلها محشوة عمرانا وفلحا وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد الشام واكثرها على ما أصف وذلك لان بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لانه في ممره مبتدئ من البحر الهندي الى الشمال ينعطف آخذا الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب في ارض الحجاز كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيرا من غربيه عليها الفرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك وبقي شبه الباب مفضيا الى ارض الشام وفي غربي

تنافس في الدنيا غرورا وانما * قصارى غناها ان تؤول الى الفقر وانا في الدنيا كركب سفينة * تظن وقوفا والزمان بها يجري

ولبعض الشعراء تروح لك الدنيا بغير الذي غدت * وتحدث من بعد الامور أمور وتجري الليالي باجتماع وفرقة * وتطلع فيها الانجم وتغور فمن ظن ان الدهر باق سروره فذاك محال لا يدوم سرور عفا الله عمن صير الهم واحدا وأيقن ان الدائرات تدور (وقال وهب بن منبه) قرأت في كتب بعض الانبياء عليهم السلام ان المسيح اجتاز بجمجمة هائلة عظيمة نخرة فقال له أصحابه يا روح الله لو سألت الله تعالى ان يستنطق هذه الجمجمة فعسى تخبرنا بما وأنه من العجائب ففعل فأنطقها الله تعالى فقالت يا روح الله اني عشت ألف سنة واستولدت ألف ذكر وافتتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وقتلت ألف جبار وصحبت الدهر واختبرته وامتحنت تقلبه وانقلابه فلم أر شيأ أشد من طالح يلي أمر صالح ولم أجد لهذا الدهر شيأ أنفع من الصبر ومسالمة أهله ولم أر هلاك أهله الا في الحرص والطمع ووجدت العز في الرضا بالقسم (وقال محمد) بن أبي العتاهية آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله

الهي لا تعذبني فاني * مقر بالذي قد كان مني فمالي حيلة الا رجائي * وعفوك ان عفوت وحسن ظني وكم من زلة لي في البرايا * وأنت علي ذو فضل ومن اذا فكرت في قدمي عليها * عضضت أناملي وقرعت سني أجن بزهرة الدنيا جنونا * واقطع طول عمري بالتمني وبين يدي ميثاق عظيم * كاني قد دعيت له كاني

شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا ومن شرقيها أرض التغرغر من الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين وأسافله وفي الشمال بقية بلاد التغرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخير من الترك أيضا الى آخر الجزء شرقا وفي الشمال من أرض خرخير بلاد كيمان من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسلك والصعود الى أعلاه من خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية في استخراجه بما يلهمهم الله اليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك أمم لا تحصى وهم ظواعن رحالة أهل ابل وشاه وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل ولغاتهم كثيرة لا يحصيهم الا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ويغزون الكفار ومنهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون الى بلاد خراسان والهند والعراق

(الاقليم الرابع) يتصل بالثالث من جهة الشمال * والجزء الاول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى ان ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم وينفسح في ذهابه بتدريج الى ان يغمر الاربعة اجزاء وأكثر الخامس ويغمر عن جانبيه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما سنذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضا وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مايرقة ثم منرقة ثم سردانية ثم صقلية وهي أعظمها ثم بلونس ثم اقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ويمر مغربا الى ان ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متضايقا في عرض رمية السهم الى آخر الاقليم ثم يفضي الى الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف الى بحر نيطش ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم بادريس ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج الى الثالث وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها بلاد الاندلس الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مغربه منه شريش ثم لبلة وقبالتها فيه جزيرة قادس وفي الشرق عن شريش ولبلة اشبيلية ثم استجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم وادياش وبسطة وتحت هذه شنترية وشلب على البحر المحيط غربا وفي الشرق عنهما بطليوس وماردة ويابرة ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رباح وتحت هذه اشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر باجة وفي الشرق عنها شنترين وموزية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر

الجزء

فـا أتت عليه عاشرة حتى مات (وأنشدني) القاضي أبو العباس الجرجاني رحمه الله بالبصرة هذه الابيات

بالله ربك كم قصر مررت به * قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقاب المنايا في جوانبه * فصاح من بعده بالويل والحرب

وأنشدني أيضا

أيها الرافع البناء رويدا * ان تذود المنون عنك المباني
ان هذا البناء يبقى ويفنى * كل شيء أبقى من الانسان

(وقال الحكم بن عمرو) قال أبو جعفر المنصور عند موته اللهم ان كنت تعلم اني ارتكبت الامور العظام جراءة مني عليك فانك تعلم اني قد أطعتك في أحب الاشياء اليك شهادة ان لا اله الا الله منا منك لا منا عليك * وكان سبب احرامه من الخضراء انه كان يوما نائما فأتاه آت في منامه فقال

كأني بهذا القصر قد باد أهله * واوحش منه أهله ومنازله
وصار عميد القصر من بعد بهجة * الى تربة تسفي عليه جنادله

فاستيقظ مرعوبا ثم نام فأنشد

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وامر الله لا بد واقع
فهل كاهن أعددته ومنجم * أبا جعفر عنك المنية دافع

فقال يا ربيع ائتني بطهوري فقام واغتسل ولبى وتجهز للحج ثم قال يا ربيع اقبرني في حرم الله تعالى (وأنشدني) القاضي أبو العباس الجرجاني بالبصرة

ان كنت تسمو الى الدنيا وزينتها * فانظر الى ملك الاملاك قارون
زم الامور وفاطعته مقادتها * وتحذر الناس بالتشديد والبين
حتى اذا ظن ان لا شيء غالبه * ومكنته قدماه أي تمكين
راحت عليه المنايا بروحة تركت *

الجزء من شماليه فينتهي الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طلبيرة في الشرق من فورنه ثم طليطلة ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلمريه هذه غربي الاندلس * وأما شرقي الاندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لقنة ثم دانية ثم بلنسية الى طرطوشة آخر الجزء في الشرق وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاخمان بسطة وقلعة رباح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه شمالا ارض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب ثم افراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا والجزء الثاني من هذا الاقليم غمر الماء جميعه الا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقية جبل البرنات ومعناه جبل الثنايا والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر في الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها الى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برشلونة ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل ارض افريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر الا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها ارض قلوريه والوسطى من ارض انكبرده والشرقية من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطيش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها الى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها اسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام الى أن ينتهي الى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا الى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى أن ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخر الى آخر الجزء من الشمالي وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي الى بلاد الارمن وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا ان فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلد أنطرطوس في اول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفي شمال انطرطوس جبلة ثم اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحفافيه فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوبا من غربيه حصن الحواني وهو للحشيشة

ذا الملك والعز تحت الماء والطين
وأنشدني أبو محمد التميمي ببغداد
لمن أبني لمن أسم المطايا * لمن استأنف الشيء الجديدا
اذا ما صار اخواني رفاتا * وصرت لفقدهم فردا وحيدا
أعاين معشرا هم شكول * وأشكالي قد اعتنقوا اللحودا

(وممن زهد في الدنيا) وأبصر عنه بها من أبناء الملوك أبو عقال علوان بن الحسن من بني الاغلب وهم ملوك المغرب وكان ذا نعمة وملك وله فتوة ظاهرة فتاب الى ربه ورجع عن ذلك رجوعا فارق نظراءه فرفض المال والاهل وهجر البناء والوطن وبلغ من العبادة مبلغا أربى فيه على المجتهدين وعرف باجابة الدعوة وكان عالما أديبا قد صحب عدة من أصحاب سحنون وسمع منهم ثم انقطع الى بعض السواحل فصحب رجلا يكنى أبا هرون الاندلسي منقطعا متبتلا الى الله تعالى فلم ير منه كبير اجتهاد في العمل فبينا أبو عقال يتهجد في بعض الليالي وأبو هرون نائم اذ غالبه النوم فقال لنفسه يا نفس هذا عابد جليل القدر ينام الليل كله وأنا أسهر الليل كله فلو أرحت نفسي فوضع جنبه فرأى في منامه شخصا قائلا عليه أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات الى آخر الآية فاستيقظ فزعا وعلم أنه المراد فأيقظ أبا هرون وقال له سألتك بالله هل أتيت كبيرة قط قال لا يا ابن أخي ولا صغيرة

عن تعمد والحمد لله فقال أبو عقال لهذا تنام أنت ولا يصلح لمثلي الا الكد والاجتهاد ثم دخل الى مكة ولزم بيت الله الحرام وحج مرارا وأربى على عباد المشرق وكان يعمل بالقربة على ظهره بقوته ومات بمكة وهو ساجد في صلاة الفريضة بالمسجد

الاسماعيلية و يعرفون لهذا العهد بالفداوية و يسمى الحصن مصيات وهو قبالة انطرطوس وقبالة هذا الحصن فى شرق الجبل بلد سلمية فى الشمال عن حمص وفى الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد انطاكية ويقابلها فى شرق الجبل المعرة وفى شرقها المراغة وفى شمال انطاكية المصيصة ثم اذنة ثم طرسوس آخر الشام و يحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين فى شرق الجبل حلب و يقابل عين زربة منبج آخر الشام واما الدروب فمن يمينها ما بينها وبين البحر الرومى بلاد الروم التى هى لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان وفى ساحل البحر منها بلد انطاكية والعلايا واما بلاد الارمن التى بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء الشمالى و يخرج من الجزء الخامس فى بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان فى شرقيه فيمر بها جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب فى البحر الرومى جنوب سلوقية و يمر نهر سيحان موازيا النهر جيحان فيحاذى المعرة ومرعش و يتجاوز جبال الدروب الى أرض الشام ثم يمر بعين زربة و يجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف الى الشمال مغربا فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها واما بلاد الجزيرة التى يحيط بها منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففى جنوبها بلد الرافضة والرقة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من شرقيه و يمر فى وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس و يمران فى بلاد الارمن جنوبا الى ان يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربى سميساط وسروج و ينحرف الى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقة و يخرج الى الجزء السادس وتمر دجلة فى شرق آمد وتنعطف قريبا الى الشرق فتخرج قريبا الى الجزء السادس وفى الجزء السادس من هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفى الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهى فى الشرق الى قرب آخر الجزء و يعترض من آخر العراق هنالك جبل اصبهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره فى الشمال يذهب مغربا الى أن يخرج من الجزء السادس و يتصل على سمته بجبل السلسلة فى الجزء الخامس فينقطع بهذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية ففى الغربية من جنوبها مخرج الفرات من الخامس وفى شمالها مخرج دجلة منه اما الفرات فاول ما يخرج الى السادس يمر بقرقيسيا و يخرج من هنالك جدول الى الشمال ينساب فى أرض الجزيرة و يغوص فى نواحيها و يمر من قرقيسيا غير بعيد ثم ينعطف الى الجنوب فيمر بقرب الخابور والى غرب الرحبة و يخرج منه جدول من هنالك يمر جنوبا و يبقى صفين فى غربيه ثم ينعطف شرقا و ينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة و بعضها بقصر ابن هبيرة و بالجامعين وتخرج جميعا فى جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك فى شرق الحيرة والقادسية و يخرج الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها يمر الى الزاب والانبار من جنوبها ثم يصب فى دجلة عند بغداد واما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر مشرقا على سمته ومحاذيا الجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمته فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكريت و ينتهى الى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة فى شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك و يمر على سمته جنوبا وفى غرب القادسية الى ان ينتهى الى بغداد و يختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجرايا الى ان يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع و يصب هنالك فى بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات

الحرام سنة ست وتسعين ومائتين وقال له رجل كان يصحبه يوما مالى اليك حاجة فقال له بعد الجهد به حاجتك مقضية قال ان كان لك شهوة أخبرنى بها قال نعم أشتهى أن آكل رأسا قال فاشتريت له رأسين ولففتهما فى رقاق وجئته بهما ثم سألته بعد أيام هل طاب لك الرأسان قال لاما هو الا أن فتحتهما فاذا هما محشوان دودا ليس فيهما البتة لحم الا الدود فاتيت الرأس فاخبرته فأطرق متعجبا ثم قال ما ظننت أن فى زماننا احدا يحمى من الحرام هذه الحماية تلك الرؤس كانت من غنم انتهبها بعض العمال ثم أعطانى رأسين من غير تلك الغنم فاتيت بهما اباعقال فاكلهما فاخبرته بما قال الرآس فبكى ثم قال يارب ما كان يستحق عبدك أبوعقال مثل هذه الحماية ولكنه يارب فضلك وكرمك فلك على يارب أن لا آكل طعاما بشهوة أشتهيها حتى ألقاك ان شاء الله تعالى وكانت له أخت متعبدة فلما ماتت لحقت قبره بمكة و بكت عليه وكتبت عليه هذه الابيات

ليت شعرى ما الذى عاينته بعد دوم الصوم مع نفى الوسن
مع عزوف النفس عن أوطارها والتخلى عن حبيب وسكن
ياشقيقى ليس فى وجدى به علة تمنعنى عن ان أجن
وكما تبلى وجوه فى الثرى فكذا يبلى عليهن الحزن

(وروى) ان رجلين تنازعا فى أرض فانطق الله لبنة من جدار تلك الارض فقالت انى كنت ملكا من الملوك ملكت الدنيا الف سنة ثم مت وصرت رميما الف سنة فاخذنى خزاف واتخذنى خزفا ثم اخذنى وضربنى لبنا وانا فى هذا الجدار كذا وكذا

والفرات قبل مجمعهما بغداد هي بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته بغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي الى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقا ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلاد جلولاء وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الاعاجم مشرقا الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان في الغرب والشمال عن اصبهان وتسمى هذه القطعة بلد البهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور وغربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد ارمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للاكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد اذربيجان ومنها تبريز والبيلقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد البهلوس وفيها همزان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك وانه محيط ببلاد البهلوس في القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد البهلوس من شرقها وتحته هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا الى آخر الجزء ومن جنوبه من هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهبا الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه الى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقا وبانحراف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلد استراباذ وحفافي هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا وكل هذه تحت الجبل وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزء بين الشمال والشرق مفاوز معطلة وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب الى الشمال ففي عدوته الغربية زم وآمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة ويمر الجبل في الاقليم الثالث بين هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد اسروشنة ومنها خجندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمرقند واسروشنة

سنة فلم تتنازعان في هذه الارض (ومن العجب) ما روي في الاسرائيليات ان ابنة من بنات الملوك تزهدت في الدنيا وتابت وخرجت من ملكها فافتقدت فلم يسمع لها خبر ولا علم لها أثر وكان هنالك دير للمتعبدين فلحق بهم شاب (٤٣) يتعبد فابصروا منه من الاجتهاد والجد في العمل وملازمة الاوراد ومواصلة الاعمال ما فاق به جميع من في الدير واقام على ذلك ما شاء الله تعالى الى ان انقضت ايامه ووافاه حمامه فقضى الفتى نحبه فحزن له أهل الدير من الزهاد والعباد والمنقطعين وأذروا عليه الدموع ثم أخذوا في غسله واذا هو امرأة ففحصوا عن أمره واذا هي بنت الملك فزادهم ذلك اعجابا به وتعظيما له وتشاوروا في أمره ماذا يحدثون له من الكرامة ثم اجمعوا امرهم أن لا يدفنوها تحت الثرى وان يحملوها فوق أكفهم فغسلوها وكفنوها وجهزوها وصلوا عليها ثم أقبلوا يحملونها على الاكف والسواعد كلما ضجر واحد جاء واحد يحمل مع من يحمل وكل من انقطع في الدير لعبادة ربه جعل يحمل معهم الى ان بليت وتقطعت أوصالها مع طول الزمان فدفنت حينئذ رحمة الله عليها (وكان) في بلاد الروم مما يلي أرض الاندلس رجل نصراني قد بلغ في التخلي من الدنيا مبلغا عظيما واعتزل الخلق والتزم قلال الجبال والسياحة في الارض الى الغاية القصوى فورد على المستعين بن هود في بعض الامر فاكرمه ابن هود ثم أخذ بيده وجعل يعرض عليه ذخائر ملكه وخزائن امواله وما حوته من البيضاء والحمراء واحجار الياقوت والجواهر وأمثالها ونفائس الاعلاق والجواري والحشم والاجناد والكراع والسلاح

ارض يلاق ثم فى الشمال عن يلاق أرض الشاش (١) الى آخر الجزء شرقا و يأخذ قطعة من الجزء التاسع فى جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة و يخرج من تلك القطعة التى فى الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضا فى الجزء الثامن الى أن ينصب فى نهر جيحون عند مخرجه من هـذا الجزء الثامن فى شماله الى الاقليم الخامس و يختلط معه فى ارض يلاق نهر يأتى من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تخوم بلاد التبت و يختلط معـه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الاقليم الخامس و ينعطف شرقا ومنحرفا الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسـع محيطا بأرض الشاش ثم ينعطف فى الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هنالك الى جنوبه فيـدخل فى الاقليم الثالث و بين نهر الشاش وطرف هذا الجبل فى وسط الجزء بلاد فاراب و بينه و بين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة وفى زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق ارض خجندة وفيها بلد اسبيجاب وطراز * وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى غربيه بعد أرض فرغانة والشاش ارض الخزلجيـة فى الجنوب وارض الخليجية فى الشمـال وفى شرق الجزء كله ارض الكيمـاكية و يتصل فى الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعـة من البحر المحيط هنالك وهو جبـل يأجوج ومأجوج وهذه الامم كلها من شعـوب الترك انتهى

(الاقليم الخامس) الجزء الاول منه أكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لان البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل فى الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب الاندلس سـعيور على البحر عنـد اول الجزء من الجنوب والغرب وسلمنكة شرقا عنها وفى جوفها سمورة وفى الشرق عن سلمنكة ايلة آخر الجنوب وارض قستالة شرقا عنها وفيها مدينة شقونية وفى شمالها ارض ليون و برغشت ثم وراءها فى الشمـال ارض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط فى آخر الضلع الغربى بلد شنتياقو ومعناه يعقوب وفيها من شرق بلاد الاندلس مدينة شطلمنة عند آخر الجزء فى الجنوب وشرقا عن قستالية وفى شمالها وشرقها وشقة و بنبلونة على سمتها شرقا وشمالا وفى غرب بنبلونة قسـطالة ثم ناجرة فيما بينها و بين برغشت و يعـترض وسط هـذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمـالى الشرقى منه وعلى قرب و يتصـل به و بطرف البحر عند بنبلونة فى جهة الشرق الذى ذكرنا من قبل ان يتصل فى الجنوب بالبحر الرومى فى الاقليم الرابـع و يصير حجرا على بلاد الاندلس من جهة الشرق وثناياه ابواب لهـا تفضى الى بلاد غشكونية من امم الفرنج فمنها من الاقليم الرابـع برشلونة واربونة على ساحل البحر الرومى وخريدة وقرقشونة وراءهما فى الشمـال ومنها من الاقليم الخامس طلوشة شمـالا عن خريدة واما المنكشف فى هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شـكل مثلث مسـتطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقا وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التى يتصـل بها جبل البرنات بلد نيونة وفى آخر هـذه القطعـة فى الناحيـة الشرقية الشمـالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج الى آخر الجزء وفى الجزء الثانى فى الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفى شمالها ارض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما وفى شرق بلاد غشكونية فى شمالها قطعة ارض من البحر الرومى دخلت فى هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليـلا وصارت بلاد غشكونية فى غربها داخلة فى جون من البحر وعلى رأس هذه القطعة شمـالا بلاد جنوة وعلى سمتها فى الشمـال جبل نست جون وفى شمـاله وعلى سمته ارض برغونة

(١) فى المشترك اقليم ايلاق متصل باقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون الياء بعدها اهـ

فاقاموا فى ذلك اياما فلما انقضت قال له كيف رأيت ملـكى قال قد رأيت ملـكا ولـكنه يعوزك فيه خصـلة ان أنت قدرت عليها فقيها
نظام ملـكك وان لم تقدر عليها فهذا الملك لا شئ قال وما تلك الخصلة قال تعمد فتصنع غطاء عظيما حصينا قويا وتكون مساحته قدر البلد ثم تكبه على البلد حتى لا يجـد ملك الموت مدخلا اليك فقال المستعين سبحان الله او يقدر البشر على هذا فقال العلج يا هذا أتفتخر بأمر تتركه غدا ومثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه فى النوم (و يروى) ان ملـكا من الملوك بنى قصرا وقال انظروا من عاب منه شيأ فاصلحوه وأعطوه درهمين فأتاه رجل فقال ان فى هذا القصر عيبين قال وما هما قال يموت الملك ويخرب القصر قال صدقت ثم اقبل على نفسـه وترك الدنيا (ومن عجائب) أخبار الخضر عليه السلام قالوا سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شئ رأيتـه فى الدنيا فى طول سياحتك وكثرة خلواتك وقطعك القفار والفلوات قال أعجب ما رأيته انى مررت على مدينة لم أر على وجه الارض أحسن منها فسألت بعضهم متى بنيت هذه المدينة قالوا سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا متى بنيت هذه المدينة ومازالت كذلك من عهد الطوفان ثم غبت عنها نحوا من خمسمائة عام وعبرت عليها بعـد ذلك
واذا هى خاوية على عروشها ولم أر أحدا اسأله واذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت أين المدينة التى كانت ههنا وفى
قالوا سبحان الله ما يدرك آباؤنا ولا اجدادنا أنه قط كانت ههنا مدينـة فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا موضع تلك

وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه بيش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسي ملك الافرنجة ومسكن البابا بتركهم الاعظم وفيها من المباني الضخمة والهياكل المهولة والكنائس العادية ما هو معروف الاخبار ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس وفيها كنيسة بطرس و بولس من الحواريين وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد افرنصيصة الى آخر الجزء وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد تابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلاد قلورية من بلاد الفرنج وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه و بين البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلاية في الاقليم السادس وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه ويوصل من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء وفي شرقي بلاد قلورية بلاد انكبردة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالي و يخرج على سمته من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى ان ينتهي قبالة الخليج في شماليه في بلاد انكلاية من أمم الالمانيين كما ذكرنا وعلى هذا الخليج و بينه و بين هذا الجبل ما داما ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهبا الى المغرب فبينهما بلاد حروايا ثم بلاد الالمانيين عند طرف الخليج وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر و يخرج منها الى الشمال و بين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما وفي آخر الجزء شرقا قطع من البحر و يخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي و يذهب على سمت الشمال الى أن يدخل في الاقليم السادس و ينعطف من هنالك عن قرب مشرقا الى بحر نيطش في الجزء الخامس و بعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما نذكر و بلاد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة و بها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الاحاديث والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الامم الى ان صارت للتركمان وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات يخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى ممره في الاقليم الرابع وهنالك في غربيه آخر الجزء مبدأ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما وفي شرقيه هنالك مبدأ نهر الدجلة الذاهب على سمته وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يمد منه نهر دجلة بلد ميافارقين ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احداهما غربية جنوبية وفيها أرض

المدينة بحر واذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية فقلت لبعض الغواصين منذ كم كان هذا البحر ههنا فقال سبحان الله ما يدرك آباؤنا ولا أجدادنا الا أن هذا البحر منذ بعث الله الطوفان ثم غبت عنها نحوا من خمسمائة عام (٤٥) ثم انتهيت اليها واذا ذلك البحر قد غاض ماؤه واذا مكانه غيضة ملتفة بالقصب والبردي والسباع واذا صيادون يصيدون السمك في زوارق صغار فقلت لبعضهم أين البحر الذي كان ههنا فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا انه كان ههنا قط بحر فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم أتيت الى ذلك المكان فاذا هو مدينة على حاله الاولى والحصون والقصور والاسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيضة التي كانت ههنا ومتى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله ما يذكر احد الا أن هذه المدينة على حالها منذ بعث الله الطوفان فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا عاليها سافلها وهي تدخن بدخان شديد فلم أر احدا أسأله ثم رأيت راعيا فسألته أين المدينة التي كانت ههنا ومتى حدث هذا الدخان فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا الا أن هذا الموضع كان هكذا منذ كان فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي في الدنيا فسبحان مبيد العباد ومفني البلاد ووارث الارض ومن عليها ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (قال الشاعر)

قف بالديار فهذه آثارهم * تبكي الاحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرا * عن أهلها أو ناطقا أو مشفقا
فاجابني داعي الهوى في رسمها * فارقت من تهوى فعز الملتقى

باطوس كما قلناه وأسافلها الى آخر الجزء شمالا وو راء الجبل الذى يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث فى الجنوب منها مبدأ الدجلة والفرات وفى الشمال بلاد البيلقان متصلة بارض عمورية من وراء جبل قباقب وهى عريضة وفى آخرها عند مبدأ الفرات بلاد خرشنة وفى الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذى يمده خليج القسطنطينية وفى الجزء السادس من هذا الاقليم فى جنوبه وغربه بلاد ارمينية متصلة الى ان يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق وفيها بلاد أردن فى الجنوب والغرب وفى شمالها تفليس ودبيل وفى شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة وفى جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة ارمينية ومن هنالك مخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة فى شرقى جبل الاكراد المسمى بارمى وقد مر ذكره فى الجزء السادس منه ويتاخم بلاد ارمينية فى هذا الجزء وفى الاقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد اذربيجان وآخرها فى هذا الجزء شرقا بلاد أردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت فى الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله فى هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية فى الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب الى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة فى أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر وبين هذه الجبال الشمالية فى هذا الجزء ثنايا كالابواب تفضى من الجانبين ففى جنوبيها بلاد الابواب متصلة فى الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الابواب وتتصل بلاد الابواب فى الغرب من ناحية جنوبيها ببلاد ارمينية وبينهما فى الشرق وبين بلاد اذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة الى بحر طبرستان وفى شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء فى غربها مملكة السرير فى الزاوية الغربية الشمالية منها وفى زاوية الجزء كله قطعة أيضا من بحر نيطش الذى يمده خليج القسطنطينية وقد مر ذكره ويحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير وعليها منها بلد أطرابزيدة وتتصل بلاد السرير بين جبل الابواب والجهة الشمالية من الجزء الى ان ينتهى شرقا الى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر وتنتهى الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا * والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان وخرج من جنوبه فى الاقليم الرابع القطعة التى ذكرنا هنالك ان عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوين وفى غربى تلك القطعة متصلة بها القطيعة التى فى الجزء السادس من الاقليم الرابع ويتصل بها من شمالها القطعة التى فى الجزء السادس من شرقه أيضا وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر اثل فى هذا البحر ويبقى من هذا الجزء فى ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هى مجالات للغز من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل فى الجزء الثامن ويذهب فى الغرب الى مادون وسطه فينعطف الى الشمال الى ان يلاقى بحر طبرستان فيحتف به ذاهبا معه الى بقيته فى الاقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ويذهب مغربا الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوبا الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا الطرف منه هو الذى اعترض فى هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر واتصلت أرض الخزر فى الجزء السادس والسابع حفافى هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتى * والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك وفى الجهة الجنوبية

الغربية

(ومن الشعر) المستحسن فى هذه الابيات قول القائل رب ورقاء هتوف بالضحى * ذات شجو صدحت فى فنن ذكرت الفا ودهرا صالحا * فبكت حزنا فهاجت حزنى فبكائى ربما ارقها (٤٦) وبكاها ربما ارقنى فاذا تسعدنى أسعدها واذا اسعدها تسعدنى ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى غير انى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى (ونظر) رجل من العباد الى باب ملك من الملوك وقد شيده واتقنه وزوقه فقال باب حديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد (ولما ثقل) عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى بيده ثوبا فقال وددت انى كنت غسالا لا أعيش الا بما أكسبه يوما فيوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عنده ماهم فيه (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا او فقرا منسيا او مرضا مفسدا او هرما مفندا أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر او الساعة والساعة أدهى وأمر (وقال) عيسى عليه السلام اوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه يا دنيا امررى على أوليائى ولا تحلولى لهم فتفتنيهم (وقال) مورق العجلى يا ابن آدم فى كل يوم يؤتى برزقك وتحزن وينقص عمرك وأنت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك لا بقليل تقنع ولا بكثير تشبع (وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم) فى خطبته أيها الناس ان الايام تطوى والاعمار

الغربية منه بحيرة خوارزم التى يصب فيها نهر جيحون دورها ثلثمائة ميل ويصب فيها انهار كثيرة من ارض هذه المجالات وفى الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها اربعمائة ميل وماؤها حلو وفى الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء وفى الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيأ يسمى عرعون وبه سميت البحيرة وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالى البحيرة انهار لا تحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين * وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد اركس من أمم الترك فى غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء فى الشمال ثم انعطف مغربا فى الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى مادون نصفه وأحاط من أوله الى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت فى جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء التاسع فى شرقيه وفى الاعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب على سمته الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما نذكره وبقيت منه القطعة التى احاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهى من بلاد يأجوج ومأجوج وفى الجزء العاشر من هذا الاقليم ارض يأجوج متصلة فيه كله الا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفا فى شرقيه من جنوبه الى شماله والا القطعة التى يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه وما سوى ذلك فارض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

(الاقليم السادس) فالجزء الاول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من هذه الارض فى هذا الجزء داخلة بين طرفين وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولا وعرضا وهى كلها ارض بريطانية وفى بابها بين الطرفين وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التى مر ذكرها فى الجزء الاول والثانى من الاقليم الخامس * والجزء الثانى من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة اكبر من نصفه الشمالى من شرق ارض بريطانية فى الجزء الاول واتصلت بها القطعة الاخرى فى الشمال من غربه الى شرقه وانفسحت فى النصف الغربى منه بعض الشئ وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكلطرة وهى جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها فى الاقليم السابع وفى جنوب هذه القطعة وجزيرتها فى النصف الغربى من هذا الجزء بلاد رمندية وبلاد افلادش متصلين بها ثم بلاد افرنسة جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها الامم الافرنجة وبلاد الالمانيين فى النصف الشرقى من الجزء فجنوبه بلاد انكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهوكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط فى الزاوية الشمالية الشرقية ارض افريزة وكلها الامم الالمانيين * وفى الجزء الثالث من هذا الاقليم فى الناحية الغربية بلاد مراتبة فى الجنوب وبلاد شطونية فى الشمال وفى الناحية الشرقية بلاد انكوية فى الجنوب وبلاد بلونية فى الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ويمر مغربا بانحراف الى الشمال الى أن يقف فى بلاد شطونية آخر النصف الغربى * وفى الجزء الرابع فى ناحية الجنوب ارض

تقتى والأبدان فى الثرى تبلى وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات (وقال) بعض الحكماء الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبه شربا ازداد عطشا وكالكاس من العسل فى اسفله السم للذائق منه حلاوة عاجلة وله فى اسفله الموت الذعاف وكالاحلام للنائم التى تفرحه فى منامه فاذا استيقظ انقطع الفرح وكالبرق الذى يضىء قليلا ويذهب وشيكا ويبقى رائيه فى الظلام مقيما وكدودة الابريسم التى لا يزداد الابريسم على نفسها لفا الا ازدادت من الخروج بعدا (وفيه قال القائل)

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ومثال من يستعجل زهرة الدنيا ويعرض عن الدار الآخرة مثال رجلين لقطا من الارض حبتى عنب فأما احدهما فجعل يمص الحبة التذاذا بها ثم بلعها واما الآخر فزرع الحبة فلما كان بعد زمان التقيا فأما الذى زرع الحبة وجدها قد صارت له كرما وكثرت ثمرته وفكر الآخر فى صنعه فى الحبة فوجدها قد صارت عذرة وليس عنده منها شئ الا الحسرة على تفريطه والغبطة لصاحبه (وقال) وهب بن منبه أوحى الله تعالى الى نبى من انبياء بنى اسرائيل ان أردت ان تسكن معى فى حضرة القدس فكن فى الدنيا وحيدا فريدا مهموما وحشيا بمنزلة الطير الوحدانى الذى يظل فى الارض الفلاة ويأكل من رؤس الشجر ويشرب من ماء العيون فاذا كان الليل أوى وحده ولم يأو مع الطير

استثناسابر به (ولبعضهم) كم للحوادث من صروف عجائب * ونوائب موصولة بنوائب ولقد تقطع من شبابك وانقضى *
مالست اعلمه اليك با‌ ‌يب تبغي من الدنيا الكثير وانما * يكفيك منها مثل زاد الراكب (وقال مالك بن أنس)

جثولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من اول الجزء غربا الى أن يقف في النصف الشرقي وفي شرق ارض جثولية بلاد جرمانية وفي الزاوية الجنوبية الشرقية ارض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطش فيقع قطعة من بحر نيطش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء وبعدها الخليج وبينهما في الزاوية بلاد مسيناه * وفي الجزء الخامس من الاقليم السادس ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته مشرقا فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول ألف وثلثمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها الى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطش متصلة بارض البيلقان من الاقليم الخامس وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطش وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غربا أرض ترخان وشرقا بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء ومن شمالها في الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الاقليم * وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطش وينحرف قليلا الى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية وفي جنوبه ومنفسحا الى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل ارض الخزر وفي شرقها ارض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية ارض بلغار وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يجوزها هنالك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده ويذهب بعد مفارقته مغربا فيجوز في هذه القطعة ويدخل الى الجزء السادس من الاقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الابواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر * وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان وهو قطعة من ارض الخزر الى آخر الجزء غربا وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية ارض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض سحرب ويخناك وهم أمم الترك *وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجوخ من الترك في الناحية الشمالية غربا والارض المنتنة وشرق الارض التي يقال ان يأجوج ومأجوج خربوها قبل بناء السد وفي هذه الارض المنتنة مبدأ نهر الاثل من اعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الاقليم الخامس في الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل في الأرض المنتنة من ثلاث ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب الى آخر السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالا الى الجزء السابع من الاقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغربا غير بعيد ثم ينعطف ثانية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من الاقليم السادس ويخرج منه جدول يذهب مغربا ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الاقليم السادس ثم ينعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم الخامس في الجزء السابع منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفجاق وبلاد التركس منهم أيضا وفي

الشرق

بلغني ان عيسى عليه السلام انتهى الى قرية قد خربت حصونها وجفت أنهارها وتشعث شجرها فنادى ياخراب أين أهلك فلم يجبه أحد ثم نادى ياخراب أين أهلك فلم يجبه أحد فنودي عيسى بن مريم بادوا وتضمنتهم الارض وعادت أعمالهم قلائد في أعناقهم الى يوم القيامة فبكى عيسى عليه السلام (قال مالك) سئلت امرأة من بقية قوم عاد يقال لها هرمة أي عذاب الله رأيت أشد قالت كل عذاب الله شديد وسلام الله ورحمته على ليلة لا ريح فيها ولقد رأيت العير تحملها الريح بين السماء والارض (وقال) مجاهد كان طعام يحيى بن زكريا العشب وان كان ليبكي من خشية الله تعالى مالو كان القار على عينيه لاحرقه ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه (ومر) بعض الملوك بسقراط الحكيم وهو نائم فركضه برجله وقال قم فقام غير مرتاع منه ولا ملتفت اليه فقال له الملك أما تعرفني قال لا ولكن ارى فيك طبع الدواب فهي تركض بارجلها فغضب وقال أتقول لي هذا وأنت عبدي فقال له سقراط بل انت عبد عبدي قال وكيف ذلك قال لان شهوتك قد ملكتك وأنا ملكت الشهوات فقال أنا الملك ابن الاملاك السادة أملك من البلاد كذا ومن الاموال والرجال كذا قال أراك تفخر علي بما ليس من نفسك وانما

الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر المحيط فى شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم فى الشمال ويفارقه مغربا وبانحراف الى الشمال حتى يدخل فى الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع الى سمته الاول حتى يدخل فى هذا الجزء التاسع من الاقليم من جنوبه الى شماله بانحراف الى المغرب وفى وسطه ههنا السد الذى بناه الاسكندر ثم يخرج على سمته الى الاقليم السابع وفى الجزء التاسع منه فيمر فيه الى الجنوب الى ان يلقى البحر المحيط فى شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغربا الى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط فى غربيه وفى وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذى بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره فى القرآن وقد ذكر عبد الله بن خرداذبه فى كتابه فى الجغرافيا ان الواثق رأى فى منامه كأن السد انفتح فانتبه فزعا وبعث سلاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه فى حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا * وفى الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد ماجوج متصلة فيه الى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة فى الشمال وعريضة بعض الشئ فى الشرق

(الاقليم السابع) والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج فالجزء الاول والثانى مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلطرة التى معظمها فى الثانى وفى الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال و بقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه فى الجزء الثانى من الاقليم السادس وهى مذكورة هنالك والمجاز منها الى البر فى هذه القطعة سعة اثنى عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة فى شمال الجزء الثانى جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أكثره بالبحر الا قطعة مستطيلة فى جنوبه وتتسع فى شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التى مر ذكرها فى الثالث من الاقليم السادس وأنها فى شماله وفى القطعة من البحر التى تغمر هذا الجزء ثم فى الجانب الغربى منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب فى جنوبها يفضى الى بلاد فلونية وفى شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفى غربيه أرض قيمازك من الترك وفى شرقها بلاد طست ثم أرض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهى دائمة الثلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية فى الاقليم السادس وفى الجزء الرابع والخامس منه وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم فى الناحية الغربية منه بلاد الروسية و ينتهى فى الشمال الى قطعة من البحر المحيط التى يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل وفى الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التى على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الاقليم السادس و ينتهى الى بحيرة طرمى من هذا الجزء وهى عذبة تنجلب اليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفى شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من التركمان الى آخره وفى الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية وفى وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب اليها الانهار من الجبال فى النواحى الشرقية وهى جامدة دائما لشدة البرد الا قليلا فى زمن الصيف وفى شرق بلاد القمانية بلاد الروسية التى كان مبدؤها فى الاقليم السادس فى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغار التى كان مبدؤها فى الاقليم السادس وفى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفى وسط هذه القطعة من أرض بلغار منعطف نهر اتل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر وفى

يسدلك ان تفخر على بنفسك ولكن تعال نخلع ثيابنا ونلبس جبعاتو يامن ماء فى هذا النهر و نتكلم اذ يتبين الفاضل من المفضول فانصرف الملك خجلا * وها أنا أحكى لك أمرا أصابنى طيش عقلى و بلبل حرمى وقطع نياط قلبى فلا يزال امرآة لى حتى نوارينى التراب وذلك انى كنت يوما بالعراق وأنا أشرب ماء فقال لى صاحب لى وكان له عقل يافلان لعل هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء قد كان انسانا يوما من الدهر فمات فصار ترابا فاتفق للفخارى ان أخذ تراب القبر وضربه خزفا وشواه بالنار فانتظم كوزا كما ترى وصار آنية يمتهن و يستخدم بعد ان كان بشرا سويا يأكل و يشرب و ينعم و يلذ و يطرب فاذا الذى قاله من الجائزات فان الانسان اذا مات عاد ترابا كما كان فى النشأة الاولى ثم قد يتفق ان يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه فيتخذ منه آنية فتمتهن فى البيوت او لبنة فتبنى فى الجدار أو طين به سطح البيت أو يفرش فى البلاد فيوطأ بالاقدام أو يجعل طينا على الجدار وقد يجوز ان يغرس عند قبره شجرة فيستحيل تراب الانسان شجرة وورقا وثمرة فترعى البهائم أوراقها و يأكل الانسان ثمرها فينبت منها لحمه و ينشر منها عظمه أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم فبينما كان يقتات صار قوتا و بينا كان يأكل صار مأكولا ثم يعود فى بطن الانسان رجيعا فيقذف فى بيت الراحة او بمراتبذ بالعراء و يجوز اذا حفر قبره ان تسفى الرياح ترابه فتتفرق اجزاؤه فى بطون الاودية والتلول والوهاد اليس فى هذا ما أذهل العقول وطيش الحلوم ومنع اللذات وهان عنده مفارقة الاهلين

آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصلا من غربه الى شرقه وفى الجزء السابع من هذا الاقليم فى غربه بقية أرض يخناك من أمم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفى الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفى الناحية الشرقية بقية أرض سحرب ثم بقية الارض المنتنة الى آخر الجزء شرقا وفى آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه وفى الجزء الثامن من هذا الاقليم فى الجنوبية الغربية منه متصل الارض المنتنة وفى شرقها الارض المحفورة وهى من العجائب خرق عظيم فى الارض بعيد المهوى فسيح الاقطار ممتنع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان فى النهار والنيران فى الليل تضىء وتخفى وربما رؤى فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد وفى آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى الجانب الغربى منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يحوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب فى وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج فى الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفى وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمر البحر جميعه هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة وفى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات للعالمين

(المقدمة الثالثة)

(فى المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم)

(قد بينا) إن المعمور من هذا المنكشف من الارض انما هو وسطه لافراط الحر فى الجنوب منه والبرد فى الشمال ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين فى الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع أعدل العمران والذى حفافيه من الثالث والخامس أقرب الى الاعتدال والذى يليهما والثانى والسادس بعيدان من الاعتدال والاول والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر اعدل اجساما وألوانا واخلاقا وأديانا حتى النبوات فانما توجد فى الاكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة فى الاقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك ان الانبياء والرسل انما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وأخلاقهم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الانبياء من عند الله وأهل هذه الاقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون فى استجادة الآلات والمواعين ويذهبون فى ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون فى معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف فى عامة أحوالهم وهؤلاء اهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منهم فى هذه الاقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام اعدل هذه كلها لانها اوسط من جميع الجهات واما الاقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثانى والسادس

والمال والعروق بقلال الجبال والانس بالوحوش حتى يأتى أمر الله أليس فى هذا ما صغر الدنيا وما فيها أليس فى هذا ما حقر الملك عند من عظمه والمال عند من جمعه أليس فى هذا ما زهد فى اللذات وسلى عن الشهوات (وقال) كم من مستقبل يوما لا يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله انكم لو أبصرتم الاجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره (ولما) بنى المأمون بن ذى النون وكان من ملوك الاندلس قصره وانفق فيه بيوت الاموال جاء على أكمل بنيان فى الارض وكان من عجائبه ان صنع فيه بركة ماء كانها بحرة وبنى فى وسطها قبة وساق الماء من تحت الارض حتى علا على رأس القبة على تدبير قد احكمه المهندسون وكان الماء ينزل من اعلى القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة فى غلالة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون قاعد فيها فروى عنه انه بينما هو نائم اذ سمع منشدا ينشد هذين البيتين

أتبنى بناء الخالدين وانما
بقاؤك فيها لو عقلت قليل
لقد كان فى ظل الاراك كفاية
لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فلم يلبث بعدها الا يسيرا حتى قضى نحبه (ووجد) مكتوبا على قصر قنباد أهله وأقفرت منازله

هذى منازل اقوام عهدتهم
فى خفض عيش نفيس ماله خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا
الى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفى نفسك لما عدت هذا البيت

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
على الماء خانته فروج الاصابع

(وروى) ان الحجاج قال فى خطبته أيها الناس ان ما بقى من

والسابع

والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد يقال إنهم دانوا به في المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما إليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيد الولد إخوته لا غيره وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فإن الشمس تسامت رؤسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرئي العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في التوسط كما قدمناه فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم وتبعه عن جانبيه الثالث والخامس وإن لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب الحار وهذا قليلا إلى الشمال البارد إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالأول والثاني للحر والسواد والسابع

الدنيا أشبه مما مضى من الماء بالماء ولو أعطيت ما مضى من الدنيا بما مضى هذه ما قابلته فكيف آسى على ما بقي منها (وروى) أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لابن آدم عند الموت كمثل رجل له ثلاثة أخلاء فلما حضره الموت قال لأحدهم قد كنت لي خليلا مكرما مؤثرا وقد حضرني من أمر الله تعالى ما ترى فماذا عندك فيقول هذا أمر الله غلبني عليك لا أستطيع أن أنفس كربك ولكن ها أنا بين يديك فخذ مني زادا ينفعك ثم يقول للثاني قد كنت عندي آثر الثلاثة وقد نزل بي من أمر الله تعالى ما ترى فما عندك قال هذا أمر الله غلبني عليك ولا أستطيع أن أنفس كربك ولكن سأقوم عليك في مرضك فإذا مت أتقنت غسلك وجودت كسوتك وسترت جسدك وعورتك وقال للثالث قد نزل بي من أمر الله ما ترى وكنت أهون الثلاثة علي فماذا عندك قال إني قرينك وحليفك في الدنيا والآخرة أدخل معك قبرك حين تدخله وأخرج معك حين تخرج منه ولا أفارقك أبدا فقال النبي صلى الله عليه وسلم الأول ماله والثاني أهله والثالث عمله (ولما) لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له قد كنت أحب لقاءك فعظني فقرأ الحسن أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فقال عليك السلام أبا سعيد فقد وعظت أحسن موعظة وأعجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى الأولى وأعجبا كل العجب للشاك في قدرة الله تعالى وهو يرى خلقه وأعجبا كل العجب للمكذب بالنشور وهو يموت في كل يوم وليلة ويحيا وأعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور وأعجبا كل العجب للمختال الفخور وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة

والسادس للبرد والبياض ويسمى سكان الجنوب من الاقليمين الاول والثانى باسم الحبشة والزنج والسودان اسماء مترادفة على الامم المتغيرة بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند وليست هذه الاسماء لهم من أجل انتسابهم الى آدمى اسود لا حام ولا غيره وقد نجد من السودان اهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل او السابع المنحرف الى البياض فتبيض الوان اعقابهم على التدريج مع الايام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال او الرابع بالجنوب تسود الوان اعقابهم وفى ذلك دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا فى ارجوزته فى الطب

بالزنج حر غير الاجسادا * حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا * حتى غدت جلودها بياضا

وأما اهل الشمال فلم يسموا باعتبار الوانهم لان البياض كان لونا لاهل تلك اللغة الواضعة للاسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره فى التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغر والخزر واللان والكثير من الافرنجة ويأجوج ومأجوج اسماء متفرقة واجيالا متعددة مسمين باسماء متنوعة وأما اهل الاقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال فى خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار والمبانى والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الاحوال المعتدلة وأهل هذه الاقاليم التى وقفنا على اخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنى اسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين ولما رأى النسابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لاجل الانساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا فى ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم او اكثرهم من ولد يافث واكثر الامم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحق فى انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد انما هو اخبار عن الواقع لا أن تسمية اهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم الى حام الاسود وما أداهم الى هذا الغلط الا اعتقادهم ان التمييز بين الامم انما يقع بالانساب فقط وليس كذلك فان التمييز للجيل او الامة يكون بالنسب فى بعضهم كما للعرب وبنى اسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب ويكون بغير ذلك من أحوال الامم وخواصهم ومميزاتهم فتعميم القول فى اهل جهة معينة من جنوب او شمال بانهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الاب انما هو من الاغاليط التى اوقع فيها الغفلة عن طبائع الاكوان والجهات وان هذه كلها تتبدل فى الاعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيبه واحكم وهو المولى المنعم الرؤف الرحيم

(المقدمة الرابعة فى أثر الهواء فى اخلاق البشر)

(قد رأينا) من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق فى كل قطر والسبب الصحيح فى ذلك انه تقرر فى موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه وتقرر ان الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة فى كميته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية التى تبعثها سورة الخمر فى

وه وبين ذلك لا يدرى ما يفعل به (وروى) ان الله تعالى أوحى الى آدم عليه السلام جماع الخير كله فى أربع واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك (٥٢) وبين الناس فاما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيأ وأما التى لك فاعمل ما شئت فانى اجزيك به واما التى بينى وبينك فعليك الدعاء وعلى الاجابة وأما التى بينك وبين الناس فكن لهم كما تحب ان يكونوا لك (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام اوتينا ما أوتى الناس وما لم يؤتوا وعلمنا ما علم الناس وما لم يعلموا فلم نجد شيأ أفضل من خشية الله تعالى فى الغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر (وكتب) معاوية الى عائشة رضى الله عنها ان اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى على فكتبت اليه سلام عليك أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس والسلام (ولما) ضرب ابن ملجم عليا رضى الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما (فقال) أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ولا تأسفا على شئ فاتكما منها اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ثم دعا محمدا وقال له أما سمعت ما أوصيت به أخويك قال بلى قال فانى اوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع أمرا دونهما ثم أقبل عليهما فقال أوصيكما به خيرا فانه أخوكما وابن أبيكما وانتما تعلمان ان أباكما كان يحبه فاحباه ثم قال يا بنى اوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة وكلمة الحق

الروح

فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الصديق والعدو والعمل فى النشاط والكسل والرضا عن الله فى الشدة والرخاء
يا بنى ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير وكل نعيم دون الجنة حقير وكل (٥٣) بلاء دون النار عافية * يا بنى من أبصر عيب

الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجئ طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفسوا فى هوائها واتصلت حرارة الهواء فى ارواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور ولما كان السودان ساكنين فى الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفى أصل تكوينهم كان فى ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس الى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حرا فتكون أكثر تفشيا فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا ويجئ الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا اهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة فى الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك فى أهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفى هوائها لانها عريقة فى الجنوب عن الارياف والتلول واعتبر ذلك أيضا باهل مصر فانها فى مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مآكلهم من أسواقهم ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها فى التوغل فى التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا فى نظر العواقب حتى ان الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيأ من مدخره وتتبع ذلك فى الاقاليم والبلدان تجد فى الاخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسعودى للبحث عن السبب فى خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت بشئ أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندى ان ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(المقدمة الخامسة)

فى اختلاف احوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى ابدان البشر واخلاقهم

(اعلم) ان هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها فى رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الارض الحرة التى لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكانها فى شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هؤلاء يفقدون الحبوب والادم جملة وانما اغذيتهم وأقواتهم الالبان واللحوم ومثل العرب أيضا الجائلين فى القفار فانهم وان كانوا يأخذون الحبوب والادم من التلول الا أن ذلك فى الاحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الاقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه الى سد الخلة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون فى غالب احوالهم على الالبان وتعوضهم من الحنطة أحسن معاض وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والادم من أهل القفار أحسن حالا فى جسومهم واخلاقهم من أهل التلول المنغمسين فى العيش فالوانهم اصفى وابدانهم انقى واشكالهم أتم واحسن واخلاقهم ابعد من الانحراف واذهانهم أثقب فى المعارف والادراكات هذا أمر تشهد له التجربة فى كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب فى ذلك والله أعلم ان كثرة الاغذية ورطوباتها تولد فى الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد اقطارها فى غير نسبة وكثرة الاخلاط

نفسه شغل عن عيب غيره ومن رضى بقسم الله لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغى قتل به ومن حفر لاخيه بئرا وقع فيها ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بنيه ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله ذل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الانذال احتقر ومن جالس العلماء وقر ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ومن يصحب صاحبا صالحا يغنم ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن لا يملك نفسه ندم ومن مزح استخف به ومن أكثر من شئ عرف به ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار يا بنى الادب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين يا بنى العافية عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت الا عن ذكر الله تعالى والواحدة فى ترك مجالسة السفهاء يا بنى لا شرف اعلى من الاسلام ولا كرم اعلى من التقوى ولا معقل احرز من الورع ولا شفيع انجح من

التوبة ولا لباس اجمل من العافية الحرص مفتاح التعب ومطية النصب التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد فطوبى لمن اخلص لله علمه وعمله وحبه وبغضه واخذه وتركه وكلامه وصمته وقوله وفعله (وروى) عن عمر بن الخطاب رضى

القاسدة العفنة و يتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطى الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك فى حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمهى والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والارياف والمراعى الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا فى صفاء أديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها فالغزال اخو المعز والزرافة اخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك الا لاجل ان الخصب فى التلول فعل فى أبدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره والجوع لحيوان القفر حسن فى خلقها وأشكالها ما شاء واعتبر ذلك فى الآدميين ايضا فانا نجد أهل الاقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتصف اهلها غالبا بالبلادة فى أذهانهم والخشونة فى أجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين فى الادم والحنطة مع المتقشفين فى عيشهم المقتصرين على الشعير او الذرة مثل المصامدة منهم واهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالا فى عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون فى الادم والبر مع أهل الاندلس المفقود بارضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لأهل الاندلس من ذكاء العقول وخفة الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا أهل الضواحى من المغرب بالجملة مع اهل الحضر والامصار فان أهل الامصار وان كانوا مكثرين مثلهم من الادم ومخصبين فى العيش الا ان استعمالهم اياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة مآكلهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك فى أغذيتهم ويخف ما تؤديه الى أجسامهم من الفضلات الرديئة فلذلك تجد جسوم أهل الامصار ألطف من جسوم البادية المخشنين فى العيش وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لا فضلات فى جسومهم غليظة ولا لطيفة * واعلم ان أثر هذا الخصب فى البدن واحواله يظهر حتى فى حال الدين والعبادة فنجد المتقشفين من اهل البادية او الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافى عن الملاذ أحسن دينا واقبالا على العبادة من اهل الترف والخصب بل نجد أهل الدين قليلين فى المدن والامصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالاكثار من اللحمان والادم ولباب البر ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين فى غذائهم من اهل البوادى وكذلك نجد حال اهل المدينة الواحدة فى ذلك مختلفا باختلاف حالها فى الترف والخصب وكذلك نجد هؤلاء المخصبين فى العيش المنغمسين فى طيباته من اهل البادية واهل الحواضر والامصار اذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع اليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب واهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل اهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل اهل افريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت واهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فان هؤلاء وان أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب فى ذلك والله أعلم ان المنغمسين فى الخصب المتعودين للادم والسمن خصوصا تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية حتى تجاوز حدها فاذا خولف بها العادة بقلة الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع الى المعى اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف فى الغاية فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لانه من المقاتل فالهالكون فى

الجماعات

الله عنه انه لما طعن دعا بابن فشر به فخرج من طعنته فقال الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال وددت ان أخرج منها كفافا كما دخلت فيها والله ان لى اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع (قال) ابن عمر ولما حضرت الوفاة عمر غشى عليه فاخذت رأسه فوضعتها فى حجرى فقال ضع رأسى بالارض لعل الله يرحمنى فمسح خديه بالتراب وقال ويل لعمر ويل لامه ان لم يغفر له فقلت وهى فخذى والارض الا سواء يا أبتاه فقال ضع رأسى بالارض لا أم لك كما آمرك فاذا قضيت فأسرعوا بى فى حفرتى وانما هو خير تقدمونى اليه أو شر تضعونه عن رقابكم ثم بكى فقيل له ما يبكيك قال خبر السماء لا ادرى الى جنة ينطلق بى او الى نار (ولما) حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال اللهم انك امرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت وانعمت على فافضلت فان عفوت فقد مننت وان عاقبت فما ظلمت الا انى اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله ثم قضى رحمه الله (ولما) حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر الى أهله يبكون حوله فقال جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكا وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما حمل ما أعظم منقلب هشام ان لم يغفر الله له (ودخل) على المأمون فى مرضه الذى مات فيه فاذا هو قد أمر ان يفرش له جل الدابة ويبسط عليه الرماد وهو راقد عليه يتضرع و يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من يزول ملكه (وروى) ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجر وتأكل من الثمر

وليس عليك حساب ولا عقاب ياليتني كنت مثلك والله لوددت انى شجرة الى جنب طريق فمر علي بعير فأخذني فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعرا ولم أك بشرا (وقال) عاصم بن عبد الله اخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٥٥) تبنة من الارض فقال ياليتني كنت مثل

المجاعات انما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق * وأما المتعودون لقلة الادم والسمن فلا تزال رطوبتهم الاصلية واقفة عند حدها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الاغذية الطبيعية فلا يقع في معاهم بتبدل الاغذية يبس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الادم في المآكل وأصل هذا كله أن تعلم ان الاغذية وائتلافها اوتركها انما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع (١) وما أفرط في الانحراف فاما ما وجد فيه التغذي والملاءمة فيصير غذاء مألوفا بالعادة فاذا أخذ الانسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضا عن الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن اهل الرياضات فانا نسمع عنهم في ذلك أخبارا غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فان النفس اذا ألفت شيأ صار من جبلتها وطبيعتها لانها كثيرة التلون فاذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الاطباء من ان الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه الا اذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فانه حينئذ ينحسم المعى ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما اذا كان ذلك القدر تدريجا ورياضة باقلال الغذاء شيأ فشيأ كما يفعله المتصوفة فهو بمعزل عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فانه اذا رجع به الى الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوما وصالا وأكثر * وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع اليه امرأتان من اهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الاكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما الى أن ماتتا ورأينا كثيرا من أصحابنا أيضا من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الافطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك * واعلم ان الجوع اصلح للبدن من اكثار الاغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الاقلال منها وان له أثرا في الاجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بآثار الاغذية التي تحصل عنها في الجسوم فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في اهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون بألبان الابل ولحومها أيضا مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال الموجود ذلك للابل وتنشأ أمعاؤهم أيضا على نسبة أمعاء الابل في الصحة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضار الاغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل طبخه والدرياس والقربيون ولا ينال أمعاءهم منها ضرر وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الاغذية لكان الهلاك أسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمية ومن تأثير الاغذية في الابدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الابل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء

(١) قوله قال في القاموس اليتوع كصبور أو تنور كل نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة الشبرم واللاعية والعرطنيثا والماهودانه والمازريون والقلجلاشت والعشر وكل اليتوعات اذا استعملت في غير وجهها أهلكت اه

هذه التبنة ياليتني لم تلدني امي ياليتني كنت نسيا منسيا (وقال) ابن مسعود وددت انى طائر في منكبي ريش (وسمع) رجلا يقول ياليتني كنت من أصحاب اليمين فقال ابن مسعود ياليتني اذا مت لم أبعث (وقال) عمران بن حسين لوددت انى رماد فتنسفني الرياح في يوم عاصف (وقال) ابو الدرداء ياليتني كنت شجرة تعضد وتؤكل ثمرتي ولم أك بشرا (وروى) ان علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لما رجع من صفين فدخل اوائل الكوفة فاذا هو بقبر فقال قبر من هذا فقالوا قبر خباب بن الارت فوقف عليه وقال رحم الله خبابا أسلم راغبا وهاجر طائعا وعاش مجاهدا وابتلي في جسمه آخرا الا وان يضيع الله أجر من أحسن عملا ثم مضى فاذا قبور فدنا حتى وقف عليها فقال السلام عليكم اهل الديار الموحشة والمحال المقفرة انتم لنا سلف ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى ثم قال يا أهل القبور أما الازواج فقد نكحت واما الديار فقد سكنت واما الاموال فقد قسمت فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ثم التفت الى اصحابه وقال أما انهم لو تكلموا لقالوا وجدنا ان خير الزاد التقوى * (الباب الثاني في مقامات العلماء والصالحين عند الامراء

الدجاج منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء دجاجها في غاية العظم وأمثال ذلك كثير فاذا رأينا هذه الآثار من الاغذية في الابدان فلا شك ان للجوع أيضا آثارا في الابدان لان الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

(المقدمة السادسة)

(في اصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا)

(اعلم) ان الله سبحانه اصطفى من البشر اشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه اليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والاخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم الا واني لا أعلم الا ما علمني الله واعلم ان خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر ان توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشي او اغماء في رأي العين وليست منهما في شيء وانما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ثم يتنزل الى المدارك البشرية اما بسماع دوي من الكلام فيتفهمه او يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقي اليه قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوحي احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول ويدركه اثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر عنه ففي الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا وقال تعالى انا سنلقي عليك قولا ثقيلا ولاجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الانبياء بالجنون ويقولون له رئي او تابع من الجن وانما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الاحوال ومن يضلل الله فما له من هاد* ومن علاماتهم أيضا انه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس اجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته وفي الصحيح انه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في ازاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره ودعي الى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشي النوم الى ان طلعت الشمس ولم يحضر شيأ من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى انه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم فقيل له في ذلك فقال اني أناجي من لا تناجون (وانظر) لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها بحال الوحي اول ما فجأه وارادت اختباره فقالت اجعلني بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه انه لا يقرب النساء وكذلك سألته عن احب الثياب اليه ان يأتيه فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك يعني ان البياض والخضرة من الوان الخير والملائكة والسواد من الوان الشر والشياطين وامثال ذلك* ومن علاماتهم ايضا دعاؤهم الى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله

والسلاطين)* دخل الاحنف بن قيس على معاوية وعليه شملة ومدرعة صوف فلما مثل بين يديه اقتحمته عينه فأقبل عليه وقال مه فقال الاحنف يا أمير المؤمنين اهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع المحول واتصال من الدخول فالمكثر منها قد أطرق والمقل منها قد أملق وبلغ به المخنق فان رأى أمير المؤمنين ان ينعش الفقير ويجبر الكسير ويسهل العسير ويصفح عن الدخول ويداوي المحول ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ويزول اللأواء الاوان السيد من يعمر ولا يخص ويدعو الجفلى ولا يدعو النقرى ان احسن اليه شكر وان أسيء اليه غفر ثم يكون من وراء الرعية عمادا يدفع عنهم الملمات ويكشف عنهم المعضلات فقال معاوية ههنا يا أبا بحر ثم قرأ ولتعرفنهم في لحن القول (وقال) سفيان الثوري لما حج المهدي قال لا بد لي من سفيان فوضعوا الي الرصد حول البيت فأخذوني بالليل فلما مثلت بين يديه أدناني ثم قال لاي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا فما أمرتنا من شيء صرنا اليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه فقلت له كم أنفقت في سفرك هذا قال لا أدري لي امناء ووكلاء قلت فما عذرك غدا اذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حج قال لغلامه كم أنفقت في سفرنا هذا قال يا أمير المؤمنين ثمانية عشر دينارا قال ويحك اجحفنا ببيت مال المسلمين (وقال) عليه
الزهري ما سمعت باحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنين اسمع مني أربع كلمات فيهن صلاح

عليه وسلم بذلك وكذلك ابو بكر ولم يحتاجا فى امره الى دليل خارج عن حاله وخلقه وفى الصحيح ان هرقل حين جاءه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام احضر من وجد ببلده من قريش وفيهم ابو سفيان ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل ان قال بم يأمركم فقال ابو سفيان بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف الى آخر ما سأل فأجابه فقال ان يكن ما تقول حقا فهو نبى وسيملك ما تحت قدمى هاتين والعفاف الذى (١) اشار اليه هرقل هو العصمة فانظر كيف اخذ من العصمة والدعاء الى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ولم يحتج الى معجزة فدل على ان ذلك من علامات النبوة (ومن علاماتهم) ايضا ان يكونوا ذوى حسب فى قومهم وفى الصحيح ما بعث الله نبيا الا فى منعة من قومه وفى رواية اخرى فى ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين وفى مساءلة هرقل لابى سفيان كما هو فى الصحيح قال كيف هو فيكم فقال ابو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل والرسل تبعث فى احساب قومها ومعناه ان تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من اكمال دينه وملته (ومن علاماتهم) أيضا وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد وانما تقع فى غير محل قدرتهم وللناس فى كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الانبياء خلاف فالمتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بانها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبى وان كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم الا ان المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبى فيها عند سائر المتكلمين الا التحدى بها باذن الله وهو ان يستدل بها النبى صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه فاذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بانه صادق وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية فالمعجزة الدالة بمجموع الخارق والتحدى ولذلك كان التحدى جزأ منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها وهو واحد لانه معنى الذاتى عندهم والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر اذ لا حاجة فيهما الى التصديق فلا وجود للتحدى الا ان وجد اتفاقا وان وقع التحدى فى الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فانما هى على الولاية وهى غير النبوة ومن هنا منع الاستاذ ابو اسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدى بالولاية وقد أريناك المغايرة بينهما وانه يتحدى بغير ما يتحدى به النبى فلا لبس على أن النقل عن الاستاذ فى ذلك ليس صريحا وربما حمل على انكار أن تقع خوارق الانبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد وأفعالهم معتادة فلا فرق وأما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو محال اما عند الاشعرية فلان صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذبا واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا وأما عند المعتزلة فلان وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبى ولو كان فى غير محل القدرة بناء على مذهبهم فى الايجاب الذاتى ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الاسباب والشروط الحادثة مستندة أخيرا الى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار وان النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له فى التكوين والنبى عندهم مجبول على التصريف فى الاكوان مهما توجه اليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبى كان للتحدى أو لم يكن

(١) قوله الذى أشار اليه هرقل الظاهر أبو سفيان اهـ

دينك وملكك وآخرتك ودنياك قال لا تعد احدا عدة وأنت لا تريد انجازها ولا يغرنك مرتقى سهل اذا كان المنحدر وعرا واعلم ان الاعمال جزاء فاحذر العواقب والدهر تارات فكن على حذر (ولما دخل) ابن السماك على هارون الرشيد قال له عظنى قال يا أمير المؤمنين ان الله لم يرض لخلافته فى عباده غيرك فلا ترض من نفسك الا بما رضى الله به عنك فانك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى الناس بذلك يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته فى مهلة من أجله كان خليقا ان يعتق نفسه يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركونه اليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها يا أمير المؤمنين ناشدتك الله ان تقدم الى جنة عرضها السموات والارض وقد دعيت اليها وليس لك فيها نصيب يا أمير المؤمنين انك تموت وحدك وتحاسب وحدك وانك لا تقدم الا على نادم مشغول ولا تخاف الا مفتونا مغرورا وانك وايانا فى دار سفر وجيران ظعن (ولما) حج سليمان بن عبد الملك استحضر ابا حازم فقال له تكلم يا أبا حازم فقال فيم أتكلم قال فى الخروج من هذا الامر قال يسير ان أنت فعلته قال وماذاك قال لا تأخذ الاشياء الا بحقها ولا تضعها الا فى أهلها قال ومن يقوى على ذلك قال من قلده الله من الامر ما قلدك قال عظنى يا أبا حازم قال يا أمير المؤمنين ان هذا الامر لم يصل اليك الا بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك ثم قال يا أمير المؤمنين نزه ربك فى عظمته عن أن يراك حيث نهاك او يفقدك حيث أمرك يا أمير المؤمنين انما انت سوق فما نفق عندك حمل اليك

من خير او شر فاختر لنفسك أيهما شئت قال فمالك لا تأتينا قال وما أصنع باتيانك ان أدنيتني فتنتني وان أقصيتني احزنتني وليس عندي
ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك (٥٨) له قال فارفع الينا حوائجك قال قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها فما أعطاني منها قبلت وما منعني

وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبي في الاكوان الذي هو من خواص النفس النبوية لا بانه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدي جزأ من المعجزة ولم يصح فارقا لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر ان النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلم الشر بخوارقه والساحر على الضد فأفعاله كلها شر وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة ان خوارق النبي مخصوصة كالصعود الى السماء والنفوذ في الاجسام الكثيفة واحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران في الهواء وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الانبياء ويأتي النبي بجميع خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الانبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عمن اخبرهم واذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها واوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فان الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر الى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الانبياء الا واوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحي الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة يشير الى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والامة

(ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول)

(اعلم) ارشدنا الله واياك انا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني واولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد الى أن يستحيل الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد منها ألطف مما قبله الى ان ينتهي الى عالم الافلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم الى معرفة مقاديرها واوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر أفق المعادن متصل باول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل باول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات ان آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب أن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم انا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الافلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والادراك تشهد كلها بان لها مؤثرا مباينا للاجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها

منها رضيت يقول الله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فمن ذا الذي يستطيع ان ينقص من كثير ما قسم الله أو يزيد في قليل ما قسم الله قال فبكى سليمان بكاء شديدا فقال رجل من جلسائه اسأت الى امير المؤمنين قال أبو حازم اسكت فان الله تعالى اخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج من عنده فلما وصل الى منزله بعث اليه بمال فرده وقال للرسول قل له يا أمير المؤمنين والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي (وقال) الفضل بن الربيع حج هرون الرشيد فبينا أنا نائم ليلة اذ سمعت قرع الباب فقلت من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعا فاذا أنا به امير المؤمنين فقلت يا أمير المؤمنين لو ارسلت الى أتيتك فقال ويحك قد حاك في نفسي شئ لا يخرجه الا عالم انظر لي رجلا أسأله قلت له ههنا سفيان بن عيينة قال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير
المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك قال خذ لما جئناله فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم قال يا عباسي اقض دينه ثم
انصرفنا فقال ما أغنى عني صاحبك شيأ فانظر لي رجلا اسأله فقلت ههنا عبد الرزاق بن همام قال امض بنا اليه نسأله فأتيناه فقرعت عليه

وذلك

وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولابد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها أيضا ويكون ذاته ادراكا صرفا وتعقلا محضا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات فى لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالافق الذى بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها فى الاتصال جهتا العلو والسفل هى متصلة بالبدن من أسفل منها ومكتسبة به المدارك الحسية التى تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الاعلى منها بافق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فان عالم الحوادث موجود فى تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم فى الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة فى البدن فكانه وجميع اجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها أما الفاعلية فالبطش باليد والمشى بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعا وأما المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتقية الى القوة العليا منها او من المفكرة التى يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرها يرتقى الى الباطن وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها فى حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لان المحسوسات لا تزدحم عليها فى الوقت الواحد ثم يؤديه الحس المشترك الى الخيال وهى قوة تمثل الشئ المحسوس فى النفس كما هو مجرد عن المواد الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين فى تصريفهما البطن الاول من الدماغ مقدمه للاولى ومؤخره للثانية ثم يرتقى الخيال الى الواهمة والحافظة فالواهمة لادراك المعانى المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الاب وافتراس الذئب والحافظة لايداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهى لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين فى تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ أوله للاولى ومؤخره للاخرى ثم ترتقى جميعها الى قوة الفكر وآلته البطن الاوسط من الدماغ وهى القوة التى يقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل فتحرك النفس بها دائما لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذى للبشرية وتخرج الى الفعل فى تعقلها متشبهة بالملا الاعلى الروحانى وتصير فى اول مراتب الروحانيات فى ادراكها بغير الآلات الجسمانية فهى متحركة دائما ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها الى الملكية من الافق الاعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الاولى فى ذلك (والنفوس البشرية) على ثلاثة اصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحانى فينقطع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التى للفكر فى البدن وكلها خيالى منحصر نطاقه اذ هو من جهة مبدئه ينتهى الى الاوليات ولا يتجاوزها وان فسد فسد ما بعدها وهذا هو فى الاغلب نطاق الادراك البشرى الجسمانى واليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ اقدامهم وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والادراك الذى لا يفتقر الى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الاوليات التى هى نطاق الادراك الاول البشرى ويسرح فى فضاء المشاهدات الباطنية وهى وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها وهذه مدارك العلماء الاولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية وهى الحاصلة بعد الموت لاهل السعادة فى

الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال حد لما جئناله فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم فقال يا عباسى اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما اغنى عنى صاحبك شيأ فانظر لى رجلا أسأله فقلت ههنا الفضيل بن عياض قال امض بنا اليه فأتيناه واذا هو قائم يصلى فى غرفة يتلو آية من كتاب الله ويرددها فقرعت الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال مالى ولامير المؤمنين فقلت سبحان الله اما عليك طاعة فقال اوليس قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليس للمؤمن ان يذل نفسه فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بايدينا فسبقت كف الرشيد كفى اليه فقال أواه من كف ما الينها ان نجت غدا من عذاب الله تعالى قال فقلت فى نفسى ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى فقال حد لما جئنا له يرحمك الله قال وفيم جئتنا حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم ان يحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك ثم قال ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد ابن كعب القرظى ورجاء بن حيوة فقال لهم انى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على فعد الخلافة بلاء وعددتها انت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها الموت وقال له محمد بن كعب ان أردت النجاة من عذاب

الله غدا فان يكن كبير المسلمين لك ابا واوسطهم عندك اخا واصغرهم ولدا فبر اباك وارحم اخاك وتحنن على ولدك وقال له رجاء بن حيوة
ان اردت النجاة من عذاب الله غدا فاحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم متى شئت مت واني

البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها الى الملائكة من الافق الاعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملا الاعلى في افقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهي في تلك اللمحة وهؤلاء الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجبلة صورهم فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها فهم يتوجهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فاذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملا الاعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها لحكمة التبليغ للعباد فتارة يسمع دويا كانه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي القي اليه فلا ينقضي الدوي الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي اليه رجلا فيكلمه ويعي ما يقوله والتلقي من الملك والرجوع الى المدارك البشرية وفهمه ما القي عليه كله كانه في لحظة واحدة بل اقرب من لمح البصر لانه ليس في زمان بل كلها تقع جميعا فيظهر كانها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحي في اللغة الاسراع (واعلم) ان الاولى وهي حالة الدوي هي رتبة الانبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الانبياء والمرسلين ولذلك كانت اكمل من الاولى وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما ساله الحرث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو اشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فاعي ما يقول وانما كانت الاولى اشد لانها مبدا الخروج في ذلك الاتصال من القوة الى الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه وعندما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال فعندما يعرج الى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصا الاوضح منها وهو ادراك البصر وفي العبارة عن الوحي في الاولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي ان الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي فمثل الحالة الاولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام واخبر ان الفهم والوعي يتبعه غب انقضائه فناسب عند تصور انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعي فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد * واعلم ان في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة قد اشار اليها القرآن قال تعالى انا سنلقي عليك قولا ثقيلا وقالت عائشة كان مما يعاني من التنزيل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف وسبب ذلك ان الوحي كما قررناه مفارقة البشرية الى المدارك الملكية وتلقي كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من افقها الى ذلك الافق الآخر وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في مبدا الوحي في قوله فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت ما انا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث وقد يفضي الاعتياد بالتدريج فيه شيئا فشيئا الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة اقصر منها وهو بالمدينة وانظر الى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وانها نزلت كلها او اكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد ان كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من

لا اقول لك هذا واني لاخاف عليك اشد الخوف يوم تزل الاقدام فهل معك رحمك الله مثل هذا القوم من يأمرك بمثل هذا فبكى هرون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت ارفق بامير المؤمنين فقال يا ابن ام الربيع قتلته انت واصحابك وارفق به انا ثم افاق فقال زدني فقال يا امير المؤمنين بلغني ان عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا اليه سهرا فكتب اليه عمر بن عبد العزيز يا اخي اذكر سهر اهل النار في النار وخلود الابد فان ذلك يطرد بك الى ربك نائما ويقظان واياك ان تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر ما اقدمك قال لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت لك ولاية ابدا حتى القى الله تعالى فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال زدني فقال يا امير المؤمنين ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاءه فقال يا رسول الله امرني على امارة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير من امارة
لا تحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت ان لا تكون اميرا فافعل فبكى هرون الرشيد بكاء قصار
شديدا ثم قال زدني يرحمك الله قال يا حسن الوجه انت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت ان تقي هذا

قصارا لمفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد ان كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكي والمدني من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل امر النبوة (وأما الكهانة) فهي أيضا من خواص النفس الانسانية وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر ان للنفس الانسانية استعدادا للانسلاخ من البشرية الى الروحانية التي فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الانبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر انه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الافعال البدنية كلاما او حركة ولا بأمر من الامور انما هو انسلاخ من البشرية الى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر واذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجودا في الطبيعة البشرية فيعطي التقسيم العقلي ان هنا صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الاول نقصان الضد عن ضده الكامل لان عدم الاستعانة في ذلك الادراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما فاذا أعطى تقسيم الوجود ان هنا صنفا آخر من البشر مفطورا على ان تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عندما يبعثها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجبلة فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة او متخيلة كالاجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان فيستديم ذلك الاحساس او التخيل مستعينا به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيع له وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الادراك هي الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها في الجزئيات أكثر من الكليات ولذلك تكون المخيلة فيهم في غاية القوة لانها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائما ولا يقوى الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات لان وحيه من وحي الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الاجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لانه يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به وربما يفزع الى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه وتمويها على السائلين وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لانهم ارفع سائر اصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الاضافة وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالاختبار كيف يأتيك هذا الامر قال يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك الامر يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لانها اتصال من ذات النبي بالملأ الاعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة بالتصورات الاجنبية كانت داخلة في ادراكه والتبست بالادراك الذي توجه اليه فصار مختلطا بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع ان تكون نبوة وانما قلنا ان أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء (وقد زعم) بعض الناس ان هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة وان ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان انما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت

الوجه من النار فافعل واياك ان تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فان النبي صلى الله عليه وسلم قال من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال عليك دين قال نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي ان سألني والويل لي ان ناقشني والويل لي ان لم يلهمني حجتي قال انما أعني دين العباد قال ان ربي لم يأمرني بهذا أمرني ان أصدق وعده واطيع امره فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فقال له هذه الف دينار خذها فانفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فقال سبحان الله انا ادلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا سلمك الله ووفقك ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال لي هرون اذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا هذا سيد المسلمين اليوم (وروى) ان امرأة من نسائه دخلت عليه فقالت له يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال ففرجنا به فقال انما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه موتوا يا اهلي جوعا ولا تذبحوا فضيلا فلما سمع الرشيد ذلك قال ادخل فعسى ان يقبل المال قال فدخلنا فلما علم بنا الفضيل خرج وجلس على التراب على السطح فجاءه هرون الرشيد فجلس الى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينما كذلك اذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف يرحمك الله فانصرفنا (ووعظ) شبيب بن شبة المنصور فقال يا امير المؤمنين ان الله

الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لان علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا كما قررناه أيضا فالآية انما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك وأيضا فانما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك الى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لان هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لان النبوة هي النور الاعظم الذي يخفى معه كل نور و يذهب وقد زعم بعض الحكماء أنها انما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوة وقعت لان وجود النبوة لابد له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص و يقتضي وجود الكاهن اما واحدا أو متعددا فاذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الاوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شئ بعد وهذا بناء على ان بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع انما يقتضي ذلك الاثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيأ لا انه يقتضي ذلك الاثر ناقصا كما قالوه ثم ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لان لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل انسان من أمر اليوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن باشد مما للنائم ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب الا قوة المطامع في انها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لامية بن أبي الصلت فانه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم فاذا غلب الايمان وانقطعت تلك الاماني آمنوا أحسن ايمان كما وقع لطليحة الاسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الايمان (وأما الرؤيا) فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات فانها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية بان تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تتشوف اليه من الامور المستقبلة وتعود به الى مداركها فان كان ذلك الاقتباس ضعيفا وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلصه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة الى التعبير وقد يكون الاقتباس قويا يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس انها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تعقلا محضا و يكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير شئ من الآلات البدنية الا ان نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الافق الاعلى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشئ من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن ومنه خاص كالذي للاولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا * وأما الذي للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية الى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات و يخرج هذا الاستعداد فيهم متكررا في حالات الوحي وهو عندما يعرج على المدارك البدنية و يقع فيها ما يقع من الادراك شبيها بحال النوم شبها بينا وان كان حال النوم أدون منه بكثير فلاجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بانها جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في

يجعل فوقك أحدا فلا تجعل فوق شكر الله شكرا (ودخل) عمر بن عبيد على المنصور فقرأ والفجر وليال عشر حتى بلغ ان ربك لبالمرصاد لمن فعل مثل فعالهم فاتق الله يا أمير المؤمنين فان ببابك نيرانا تأجج لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله وأنت مسؤل عما اجترحوا وليسوا مسؤلين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بافساد آخرتك أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم الا العدل لتقرب به اليك من لا يريده فقال له سليمان بن مجالد اسكت فقد غممت أمير المؤمنين فقال له عمرو ويلك يا ابن أم مجالد اما كفاك انك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت ان تحول بينه و بين من ينصحه اتق الله يا أمير المؤمنين فان هؤلاء قد اتخذوك سلما الى شهواتهم فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب وان هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيأ (وقال) الاوزاعي للمنصور في بعض كلامه يا أمير المؤمنين أما علمت انه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها و يردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا فكيف من سفك دماء المسلمين وشقق أبشارهم وانتهب أموالهم ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدشة خدشها اعرابيا من غير تعمد فقال له جبريل عليه السلام ان الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون رعيتك يا أمير المؤمنين لو ان ثوبا من النار نشر على ما في الارض لاجتثه فكيف بمن يتقمصه ولو ان ذنوبا من النار صب على ما في

بعض

الارض لاجتثه فكيف بمن يتجرعه ولوان حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يسلسل فيها ويرد فضلها على عنقه (ودخل) بعض العقلاء على سلطان فقال له ان أحق الناس بالاحسان من أحسن الله اليه وأولاهم (٦٣) بالانصاف من بسط يديه بالقدرة فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق (وروى) ان أعرابيا قام بين يدى هشام بن عبد الملك فقال أيها الامير أتت على الناس سنون ثلاث اما الاولى فأكلت اللحم وأما الثانية فاذابت الشحم واما الثالثة فهاضت العظم وعندك فضول اموال فان كانت لله فاقسمها بين عباده وان كانت لهم فلم تحصرها عليهم وان كانت لكم فتصدقوا فان الله يجزى المتصدقين فامر هشام بمال فقسم بين الناس وأمر للاعرابى بمال فقال ألكل المسلمين منك مثل هذا قال لا يقوم بذلك بيت المال قال لا حاجة لى فيما يبعث لائمة الناس على أمير المؤمنين (وقال) رجل لعمر بن عبد العزيز يا امير المؤمنين اذكر لمقامى هذا لا يشغل الله عنك كثرة من يخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب فبكا عمر بكاء شديدا ثم استرده الكلام فجعل يردده وعمر يبكى و ينتحب ثم قال ما حاجتك قال عاملك باذربيجان اخذ منى اثنى عشر الف درهم قال الا تكتبون له حتى يرد عليه ماله (ولما) دخل زياد على عمر بن عبد العزيز قال يا زياد الا ترى ما ابتليت به من امر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال زياد يا امير المؤمنين والله لوان شعرة منك نطقت ما بلغت كنه ما انت فيه فاعمل لنفسك فى

بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب اليه بعضهم فى رواية ستة واربعين من ان الوحى كان فى مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاثة وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا ان هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء مع ان ذلك انما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة واذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولا علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاول الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاص بصنف الانبياء الفطرى لهم صلوات الله عليهم اذ هو الاستعداد البعيد وان كان عاما فى البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذى هو جبلى لهم فتتعرض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تتشوف اليه فى عالم الحق فتدرك فى بعض الاحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يارسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أوترى له (وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس) بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك ان النفس الناطقة انما ادراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الايسر من القلب على ما فى كتب التشريح لجالينوس وغيره و ينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق فيعطى الحس والحركة وسائر الافعال البدنية و يرتفع لطيفه الى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التى فى بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارى وهى متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين فى ان اللطيف لا يؤثر فى الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد البدنية صار محلا لآثار الذات المباينة له فى جسمانيته وهى النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطته وقد كنا قدمنا ان ادراكها على نوعين ادراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس وادراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية وان هذا الادراك كله صارف لها عن ادراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التى هى مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الادراك على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانخناس الروح الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه الى الحس الباطن و يعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره الى باطنه فتكون مشيعة مركبها وهو الروح الحيوانى الى الباطن ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب انما هو بالليل فاذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت الى الصورة التى فى الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريبا ثم ينزلها الحس المشترك الذى هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على انحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة الى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنة فتدرك بادراكها الروحانى لانها مفطورة عليه وتقتبس من صور الاشياء التى صارت متعلقة فى ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة والمحاكاة فى القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هى المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هى اضغاث أحلام (وفى الصحيح) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا

من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة الداعية الى التعبير من الملك واضغاث الاحلام من الشيطان لانها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها احد منهم بل كل واحد من الانساني رأى في نومه ما صدر له في يقظته مرارا غير واحدة وحصل له على القطع ان النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد واذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال والله الهادي الى الحق بمنه وفضله

(فصل) ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالبا انما هو من غير قصد ولا قدرة عليه وانما تكون النفس متشوفة لذلك الشيء فيقع لها بتلك اللمحة في النوم لا انها تقصد الى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب اهل الرياضات ذكر اسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف اليه ويسمونها الحالومية وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومة سماها حالومة الطباع التام وهو ان يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الاعجمية وهي تماغس بعدان يسواد وغداس نوفنا غادس ويذكر حاجته فانه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم (وحكى) ان رجلا فعل ذلك بعد رياضة ليال في مآكله وذكره فتمثل له شخص يقول له انا طباعك التام فسأله واخبره عما كان يتشوف اليه وقد وقع لي انا بهذه الاسماء مرائي عجيبة واطلعت بها على امور كنت اتشوف اليها من احوالي وليس ذلك بدليل على ان القصد للرؤيا يحدثها وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا في النفس لوقوع الرؤيا فاذا قوي الاستعداد كان اقرب الى حصول ما يستعد له وللشخص ان يفعل من الاستعداد ما احب ولا يكون دليلا على ايقاع المستعد له فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء فاعلم ذلك وتدبره فيما تجد من امثاله والله الحكيم الخبير

(فصل) ثم انا نجد في النوع الانساني اشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعة ولا يستدلون عليه باثر من النجوم ولا غيرها انما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الاجسام الشفافة كالمرايا وطساس المياه والناظرين في قلوب الحيوانات واكبادها وعظامها واهل الزجر في الطير والسباع واهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة في عالم الانسان لا يسع احدا جحدها ولا انكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لاول موته او نومه يتكلم بالغيب وكذلك اهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة ونحن الآن نتكلم على هذه الادراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في ان النفس الانسانية كيف تستعد لادراك الغيب في جميع الاصناف التي ذكرناها وذلك انها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن واحواله وهذا امر مدرك لكل احد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الادراك والتعقل فهي توجد اولا بالقوة مستعدة للادراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاته المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الادراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد اخرى حتى يحصل لها الادراك والتعقل طورا بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالادراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في اول نشأته لا يقدر على الادراك الذي لها

الخروج مما انت فيه يا امير المؤمنين كيف حال رجل له خصم الد قال سيئ الحال قال فان كان له خصمان ألدان قال اسوأ لحاله قال فان كانوا ثلاثة قال لا يهنئه عيش قال فوالله ما احد من امة محمد صلى الله عليه وسلم الا وهو خصمك قال فبكى حتى تمنيت ان لا اكون قلت له ذلك (وقال) محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز يا امير المؤمنين انما الدنيا سوق فمنها خرج الناس بما ربحوا فيها لآخرتهم وخرجوا بما يضرهم فكم من قوم غرهم مثل الذي اصبحنا فيه حتى اتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مرملين لم يأخذوا من الدنيا للآخرة فاقتسم مالهم من لا يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم فانظر الى الذي تحب ان يكون معك مقدمه بين يديك حتى تخرج اليه وانظر الى الذي تكره ان يكون معك اذا قدمت فابتغ به البدل حيث يجوز البدل ولا تذهبن الى سلعة قد بارت على غيرك ترجو جوازها عندك يا امير المؤمنين افتح الابواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم (وحضر) رجل بين يدي بعض الملوك فأغلظ له السلطان فقال له الرجل انما انت كالسماء اذا ارعدت وأبرقت فقد قرب خيرها فسكن غيظه واحسن اليه (ولما احتاج) المنصور بن ابي عامر ملك الاندلس ان يأخذ ارضا محبسة ويعاوض عنها اخبره منها استحضر من الفقهاء في قصره فافتوه بانه لا يجوز فغضب السلطان وارسل اليهم رجلا من الوزراء مشهورا بالحدة والعجلة فقال لهم يقول لكم امير المؤمنين يا مشيخة السوء يا مستحلي اموال الناس يا آكلي اموال اليتامى ظلما يا شهداء الزور يا آخذي

الرشا وملقي الخصوم وملقي الشرور وملبس الامور وملتمس الروايات لاتباع الشهوات تبا لكم ولآرائكم فهو اعزه الله واقف على فسوقكم قديما وخونكم لاماناتكم مغض عنه صابر عليه ثم احتاج الى دقة نظركم في حاجة مرة (٦٥) واحدة في دهره فلم تسعفوا ارادته ما كان

من ذاتها الا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما وذلك لان صورتها التي هي عين ذاتها وهي الادراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك ادراك بآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لان الحواس ابدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه اولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة اما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم او بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق او بالرياضة مثل اهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ الى الذوات التي فوقها من الملا الاعلى لما بين افقها وافقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه قبل وتلك الذوات روحانية وهي ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوما وربما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما ادركت اما مجردا او في قوالبه فتخبر به هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبي ولنرجع الى ما وعدناه من بيان اصنافه (فاما) الناظرون في الاجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان واكبادها وعظامها واهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان الا انهم اضعف رتبة فيه في اصل خلقهم لان الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها واشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه وربما يظن ان مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة الى ان يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كانه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون اليهم بالمقصود لما يتوجهون الى معرفته من نفي او اثبات فيخبرون بذلك على نحو ما ادركوه واما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الادراك وهو نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات واكبادها وللناظرين في الماء والطساس وامثال ذلك وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما ادرك ويزعمون انهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم احوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال والاشارة وغيبة هؤلاء عن الحس اخف من الاولين والعالم ابو الغرائب واما الزجر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر او حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئي او مسموع وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه او سمعه فتؤديه ذلك الى ادراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا واما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد امزجتهم غالبا وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية اخرى شيطانية تتشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فاذا اصابه ذلك التخبط اما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها او لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة فادرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لانه

هذا ظنه بكم والله ليعارضنكم وليكشفن ستوركم وليناصحن الاسلام فيكم واخشن عليهم بهذا ونحوه فاجابه شيخ منهم ضعيف المنة فقال نتوب الى الله مما قاله امير المؤمنين ونسأله الاقالة فرد عليه زعيم القوم محمد بن ابراهيم بن حيويه وكان جلدا صارما فقال للمتكلم مم تتوب يا شيخ السوء نحن برآء من متابك ثم اقبل على الوزير فقال يا وزير بئس المبلغ انت وكلما نسبته الينا عن امير المؤمنين فهو صفتكم معاشر خدمه فانتم الذين تأكلون اموال الناس بالباطل وتستحلون ظلمهم بغير حق وتحيفون معايشهم بالرشا والمصانعة وتبغون في الارض بغير الحق واما نحن فليست هذه صفاتنا ولا كرامة لا يقولها لنا الا متهم في الديانة فنحن اعلام الهدى وسرج الظلمة بنا يتحصن الاسلام ويفرق بين الحلال والحرام وتنفذ الاحكام وبنا تقام الفرائض وتثبت الحقوق وتحقن الدماء وتستحل الفروج فهلا اذ عتب علينا سيدنا امير المؤمنين بشيء لا ذنب فيه لنا وقال

بالغيظ ما قاله تأنيت لابلاغ رسالته باهون من الخاشك وعرضت لنا بانكاره حتى فهمنا منك فاجبناك عنه بما يصلح الجواب عنه به فكنت ترين على السلطان ولا تفشي سره وتستحيينا بما استقبلتنا به فنحن نعلم ان امير المؤمنين لا يتمادى على

هذا الرأي فينا ولا نعتقد هذا المعتقد في صفاتنا وانه شيء اجتمع بصيرته في ايثارنا وتعزيزنا فلو كنا عنده على هذه الحال التي وصف فتهاعنا
والعياذ بالله من ذلك لبطل عليه كل ما صنعه وعقده من أول خلافته الى هذا الوقت فما يثبت له كتاب من حرب ولا

لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا الحس الا بعد الاستعانة بالتصورات الاجنبية كما قررناه ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الامر الذي يتوجهون اليه و يأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادي ذلك الاتصال والادراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الامور) وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا اصابة ويظهر من كلام الرجل انه كان بعيدا عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من اهله ومن غير أهله وهذه الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفزعون الى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من ادراك غيبهم وفي كتب اهل الادب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق من انمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبراه به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش ورؤيا الموبذان التي أولها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فاخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوني * فانك ان داويتني لطبيب

وقال الآخر

جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجد ان هما شفياني
فقالا شفاك الله والله ما لنا * بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الابلق الأسدي (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوف اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا في مبادي النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كانه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه و يفهمه وكذلك يصدر من المقتولين عند مفارقة رؤسهم وأوساط ابدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم اشخاصا ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدميا اذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه اربعين يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه الا العروق وشؤن رأسه فيخرج من ذلك الدهن فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسئل عنه من عواقب الامور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الانساني ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا باماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع أنه اذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا خصوصا بلاد الهند ويسمون هنالك الجوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم في ذلك غريبة وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية عن هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون

سلم ولا شراء ولا بيع ولا صدقة ولا حبس ولا هبة ولا عتق ولا غير ذلك الا بشهادتنا هذا ما عندنا والسلام ثم قاموا منصرفين فلم يكادوا يبلغوا باب القصر الا والرسل تناديهم فادخلوا القصر فتلقاهم الوزراء بالاعظام ورفعوا منازلهم واعتذروا اليهم مما كان من صاحبهم وقالوا لهم أمير المؤمنين يعتذر اليكم من فرط موجدته ويستجير بالله من الشيطان الرجيم ونزغته التي حملته على الجفاء عليكم ويعلمكم انه نادم على ما كان منه اليكم وهو مستبصر في تعظيمكم وقضاء حقوقكم وقد أمر لكل واحد منكم ما ترون من صلة وكسوة عامة لرضاه عنكم فدعوا له وقبضوا ما أمر لهم وانصرفوا غانمين لم يمسهم سوء (ولما نظر مالك بن دينار الى المهلب بن أبي صفرة يجر أذياله و يتبختر في أثواب خيلائه ناداه أن ارفع من ذيالك فقال له المهلب أوما تعرفني قال له مالك بلى انى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة و يروى ان رجلا قال لعبيد الله العمري هذا
هرون الرشيد في الطواف قد أخلي له المسعى فقال له لا جزاك الله عني خيرا كلفتني أمرا كنت عنه غنيا ثم جاء اليه فقال له يا هرون فلما نظر اليه قال لبيك يا عم قال كم ترى ههنا من خلق الله فقال لا يحصيهم الا الله عز وجل فقال اعلم أيها الرجل ان كل واحد

جمع

منهم يسئل عن خاصة نفسه وأنت واحد تسئل عنهم كلهم فانظر كيف تكون قال فبكى هرون وجاس وجعل يعطونه منديلا لامنديلا
للدموع ثم قال له فيما قال ان الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف فمن أسرع في مال المسلمين فيقال

جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية يحصل لهم أذواق اهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبهاتتم وجهتهم في هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول مايحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من اول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة فانها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لاشيأسواه واذا حصل اثناء ذلك مايحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه اذا عرض له ولا يحفل به وانما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون مايقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا ومايقع لهم من التصرف كرامة وليس شئ من ذلك بنكير في حقهم وقد ذهب الى انكاره الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فرارا من التباس المعجزة بغيرها والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فيكم محدثين وان منهم عمر وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه ياسارية الجبل وهو سارية بن زنيم كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام وكان بقربه جبل يتحيز اليه فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه ياسارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ووقع مثله أيضا لابي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن مانحلها من أوسق التمر من حديقته ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة فقال في سياق كلامه وانما هما أخواك وأختاك فقالت انما هي اسماء فمن الاخرى فقال ان ذا بطن بنت خارجة أراها جارية فكانت جارية وقع في الموطأ في باب مالا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء الا أن أهل التصوف يقولون انه يقل في زمن النبوة اذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى انهم يقولون ان المريد اذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله مادام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا الى الحق

(فصل) ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجائب لانهم لا يتقيدون بشئ فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شئ من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لاتحصل الا بالعبادة وهو غلط فان فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وانما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للانسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكانه اذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر في قبول التكاليف لاصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شئ من التكاليف واذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم ولك

ان هرون كان يقول بعد ذلك اني أحب ان احج في كل عام ومايمنعني من ذلك الا عبيد الله العمري ويروى ان الحسن بن محمد ابن الحسين رضي الله عنهم دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له ياعمر ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان فقال له عمر ايه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وجثا على ركبتيه فقال الحسن من اذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ومن اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ومن اذا قدر لم يتناول ماليس له (ولما) ولي عمر بن عبد العزيز وفدت الوفود من كل بلد فوفد عليه الحجازيون فقدم غلام منهم للكلام وكان حديث السن فقال له عمر لينطق من هو أسن منك فقال الغلام أصلح الله أمير المؤمنين انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فاذا منح الله عبدا لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام وعرف فضله ومن سمع خطابه ولو ان الامر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الامة من هو أحق بمجلسك هذا منك فقال صدقت
قل مابدا لك فقال الغلام أصلح الله امير المؤمنين نحن وفد تهنئة لاوفد مرزئة وقد أتيناك لمن الله الذي من علينا بك ولم يقدمنا اليك رغبة ولا رهبة اما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا واما الرهبة فقد امنا جورك بعدلك فقال له عمر عظني ياغلام فقال الغلام اصلح الله امير

فى تمييزهم علامات منها ان هؤلاء البهاليل تجدلهم وجهة مالا يخلون عنها أصلا من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا تجدلهم وجهة أصلا ومنها أنهم يخلقون على البله من أول نشأتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فاذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم فى الناس بالخير والشر لانهم لا يتوقفون على اذن لعدم التكليف فى حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد للصواب (فصل) وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج الى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب فى شئ انما هى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله فى الشخصيات فى العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك فى محله ان شاء الله وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه فى شئ ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا الاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة الى المادة التى يضعون فيها اعمالهم ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها فى الزوجية والفردية واستوائها فيهما فكانت ستة عشر شكلا لانها ان كانت أزواجا كلها أو أفرادا كلها فشكلان وان كان الفرد فيها فى مرتبة واحدة فقط فاربعة أشكال وان كان الفرد فى مرتبتين فستة أشكال وان كان فى ثلاثة مراتب فاربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلا ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها الى سعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتا طبيعية بزعمهم وكأنها البروج الاثنا عشر التى للفلك والاوتاد الاربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتا وحظوظا ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فنا حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه الا أن أحكام النجامة مستندة الى اوضاع طبيعية كما زعم بطليموس وهذه انما مستندها اوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شئ منها ويزعمون ان أصل ذلك من النبوة القديمة فى العالم وربما نسبوها الى دانيال أو الى ادريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلى الله عليه وسلم كان نبى يخط فمن وافق خطه فذاك وليس فى الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لان معنى الحديث كان نبى يخط فيأتيه الوحى عند ذلك الخط ولا استحالة فى أن يكون ذلك عادة لبعض الانبياء فمن وافق خطه ذلك النبى فهو ذاك اى فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحى لذلك النبى الذى كانت عادته أن يأتيه الوحى عند الخط وأما اذا أخذ ذلك من الخط مجردا من غير موافقة وحى فلا وهذا معنى الحديث والله اعلم فاذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قرطاس او رمل او دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب الاربعة ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجئ ستة عشر سطرا ثم يطرحون النقط ازواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زوجا كان أو فردا فى مرتبته على الترتيب فتجئ اربعة اشكال يضعونها فى سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذى بازائه وما يجتمع منهما من زوج او فرد فتكون ثمانية اشكال موضوعة فى سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتهما باعتبار ما يجتمع فى كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضا من زوج او فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا

كذلك

المؤمنين ان ناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول املهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الاقدام فهووا فى النار فلا يغرنك حلم الله عنك وطول املك وكثرة ثناء الناس عليك فيزل بك قدمك فتلحق بالقوم فلا جعلك الله منهم والحقك بصالحى هذه الامة ثم سكت فسأل عمر الغلام عن سنه فاذا هو ابن احدى عشرة سنة ثم سأل عنه فاذا هو من ولد الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فتمثل عمر عند ذلك فقال

تعلم فليس المرء يولد عالما
وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده
صغير اذا التفت عليه المحافل

وفى مثل هذا قيل للعتابى وكان لا يبالى ما لبس مالك لا تجيد الملبوس فقال انما يرفع الرجل أدبه وعقله لا حليته وخلته محى الله امرا يرضى ان ترفعه هيئته وجماله لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ويعلو به أكبراه همته ولبه ولما دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن المنذر وهو ملك وكان ضمرة ذا رأى وعقل احتقرته عيناه لدمامته فقال لان تسمع بالمعيدى خير من أن تراه فقال ضمرة أبيت اللعن ان القوم ليسوا بجزور تجزر انما المرء باصغريه قلبه ولسانه فاذا نطق نطق ببيان واذا قاتل قاتل بجنان والرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالقبان فأعجب المنذر بكلامه وروى ان روح بن زنباع وكان فى طريق مكة فى يوم شديد الحر مع أصحابه فنزلوا فضربت لهم الخيام والظلال وقدم اليهم الطعام والشراب المبرد فبينما هم كذلك اذا هم براع فدعاه للطعام فابى وقال انى صائم قال له روح فى مثل

كذلك تحتهما ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول شكلا يكون آخر الستة عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريبا وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتأخرين وهي كما رأيت تحكم وهوى والتحقيق الذي ينبغي ان يكون نصب فكرك ان الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل الى تعرفها الا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمي المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة الى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الامور التي ينظر فيها من النقط او العظام او غيرها اشغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالحصى والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وانها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل والله يهدي من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها اهل هذا الادراك الغيبي أنهم عند توجههم الى تعرف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادي الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب في شيء وانما هو ساع في تنفيق كذبه

(فصل) ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وانما هي مغالط يجعلونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست أذكر من ذلك الا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من المغلوب في المتحاربين من الملوك وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد الى الالف آحادا وعشرات ومئين وألوفا فاذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كان العددان مختلفين في الكمية وكانا معا زوجين او فردين معا فصاحب الاقل منهما هو الغالب وان كان احدهما زوجا والآخر فردا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معا زوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معا فردين فالطالب هو الغالب ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما

ارى الزوج والافراد يسمو أقلها * وأكثرها عند التخالف غالب

ويغلب مطلوب اذا الزوج يستوي * وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانونا معروفا عندهم في طرح تسعة وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الاربع وهي ا الدالة على الواحد و ى الدالة على العشرة وهي واحدة في مرتبة العشرات و ق الدالة على المائة لانها واحدة في مرتبة المئين و ش الدالة على الالف لانها واحد في مرتبة الآلاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر حروف أبجد ثم رتبوا هذه الاحرف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي ايقش

هذا اليوم الحار قال أفادع أيامي تذهب باطلا قال روح لقد ظننت بايامك يا راعي اذ جاد بها روح بن زنباع و روي ان اعرابيا قام بين يدي سليمان بن عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين اني مكلمك بكلام فاحتمله ان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته قال هات يا اعرابي قال سأطلق لساني بما خرست به الالسن اداء لحق الله وحق امانتك انك قد اكتنفك رجال أساؤا الاختيار لانفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فلا تصلح دنياك بفساد آخرتك فاعظم الناس غبنا يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره فقال له سليمان اما انت فقد نصحت وأرجو ان الله سيعيننا على ما قلدنا وقد جردت لسانك فهو سيفك فقال أجل يا أمير المؤمنين وهو لك لا عليك وقال ابن أبي عروبة حج الحجاج فنزل بعض المياه بين مكة والمدينة ودعا بالغداء وقال لحاجبه انظر من يتغدى معي وأسأله عن بعض الامر فنظر نحو الجبل واذا هو براع بين شملتين نائم فضربه برجله وقال له ائت الامير فأتاه فقال له الحجاج اغسل يدك وتغد معي فقال دعاني من هو خير منك فاجبته قال ومن هو قال الله تعالى دعاني الى الصيام فصمت قال في هذا الحر الشديد قال نعم صمت ليوم هو أشد منه حرا قال فافطر وصم غدا قال ان ضمنت لي البقاء الى غد قال ليس ذلك الي قال فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه قال لانه طعام طيب قال لم تطيبه أنت ولا الطباخ ولكن طيبته العافية ولما حج هرون الرشيد بعث الى مالك بن أنس بكيس فيه خمسمائة دينار فلما قضى نسكه وانصرف ودخل

المدينة بعث الى مالك بن أنس أن أمير المؤمنين يحب ان تنتقل معه الى مدينة السلام فقال للرسول قل له ان الكيس بخاتمه وقال الرسول عليه السلام والمدينة خيرلهم لو كانوا يعلمون وقال وهب بن منبه ان ملكا كان يفتن الناس ويحملهم على أكل لحم

ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لانها كانت آخر حروف ابجد فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي ب الدالة على اثنين في الآحاد وك الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون ور الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك الى آخر حروف ابجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جلس دمت هنث وصخ زعذ حفظ طضغ مرتبة على توالي الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته فالواحد لكلمة ايقش والاثنان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جلس وكذلك الى التاسعة التي هي طضغ فتكون لها التسعة فاذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات واخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الاعداد التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم فان كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها والا أخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه والسر في هذا القانون بين وذلك ان الباقي من كل عقد من عقود الاعداد بطرح تسعة انما هو واحد فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت اعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والالفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الاعداد على التوالي دالة على اعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والالوف (١) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائبا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضا من الحروف التي فيها وتجمع كلها الى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الامر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى ان الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالاخرى سواء وهي هذه أرب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ ثضظ تسع كلمات على توالي العدد ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فيها الثلاثي والرباعي والثنائي وليست جارية على أصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ايقش والله أعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة الى برهان ولا تحقيق والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزو الى ارسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد لك بذلك تصفحه ان كنت من أهل الرسوخ اهـ ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة الى أبي العباس سيدي احمد السبتي من اعلام المتصوفة بالمغرب كان في آخر المائة السادسة بمراكش ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صناعة وكثير من الخواص يولعون بافادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للافلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة باقسام فلكها اما البروج واما العناصر أو غيرهما

(١) قوله والالوف فيه نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الالف كما سبق في كلامه اهـ

وخطوط

الخنزير فاتي برجل أفضل أهل زمانه فاعظم الناس مكانه وهالهم أمره فراوده على أكل لحم الخنزير فلم يفعل فرق له صاحب شرطة الملك فقال له أنا آتيك بجدي تذبحه مما يحل لك أكله فاذا دعا الملك بلحم خنزير آتيتك به فافعل ثم أتى به الملك فدعا بلحم الخنزير فاتي صاحب الشرطة بذلك الجدي فامر به الملك أن يأكله فابى ان يأكله فجعل صاحب الشرطة يغمزه ان يأكله فابى ان يأكله فامر الملك صاحب الشرطة ان يقتله فلما ذهب به قال ما منعك ان تأكل وهو اللحم الذي ذبحته أنت أظننت اني جئت بغيره قال لا قد علمت انه هو ولكني خفت أن يفتتن الناس بي فان أكرهوا على أكل الخنزير قالوا قد أكله فلان فيستن بي فأكون فتنة لهم فقتل رحمه الله وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الاحبار يا كعب خوفنا قال أوليس فيكم كتاب الله وسنة رسوله قال بلى يا كعب ولكن خوفنا قال يا أمير المؤمنين اعمل عمل رجل لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر وأطرق مليا ثم أفاق ثم قال يا كعب خوفنا فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق

وخطوطا كل قسم مارة الى المركز ويسمونها الاوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم (١) الزمام التى هى أشكال الاعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة فى داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثر البيوت المتقاطعة طولا وعرضا يشتمل على خمسة وخمسين بيتا فى العرض ومائة واحد وثلاثين فى الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الاعداد فى أوضاعها ولا القسمة التى عينت البيوت العامرة من الخالية وحفافى الزايرجة أبيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل فى استخراج المطلوب من تلك الزايرجة الا انها من قبيل الالغاز فى عدم الوضوح والجلاء وفى بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء اشبيلية كان فى الدولة اللمتونية ونص البيت

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو البيت المتداول عندهم فى العمل لاستخراج الجواب من السؤال فى هذه الزايرجة وغيرها فاذا أرادوا استخراج الجواب عما يسئل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفا ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا الى الزايرجة ثم الى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله مارا الى المركز ثم الى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله الى آخره والاعداد المرسومة بينهما ويصيرونها حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون آحادها الى العشرات وعشراتها الى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون الى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والاعداد من أوله الى المركز فقط لا يتجاوزونه الى المحيط ويفعلون بالاعداد ما فعلوه بالاول ويضيفونها الى الحروف الاخرى ثم يقطعون حروف البيت الذى هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع فى أس البرج وأسه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الاس عند أهل صناعة الحساب فانه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه فى عدد آخر يسمونه الاس الاكبر والدور الاصلى ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك فى بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون أخرى ويقابلون بما معهم فى حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون فى كل دور الحرف الذى ينتهى عنده الدور يعاودون ذلك بعدد الادوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالى فتصير كلمات منظومة فى بيت واحد على وزن البيت الذى يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله فى فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرجة * وقد رأينا كثيرا من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الاعمال ويحسبون ان ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال فى توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لانه قدم لك أن الغيب لا يدرك بامر صناعى البتة وانما المطابقة التى فيها بين الجواب والسؤال من حيث الافهام والتوافق فى الخطاب حتى يكون الجواب مستقيما أو موافقا للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة فى تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والاوتار

(١) قوله برشوم أى موضوعة برشوم بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة ا ه

فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا خر على ركبتيه حتى يخر ابراهيم خليل الرحمن على ركبتيه يقول يارب لا أسألك اليوم الا نفسى واستأذن أبو دهمان (٧١) على بعض الامراء فحجبه ثم أذن له فلما دخل قال ان هذا الامر الذى صار اليك قد كان فى يد غيرك فامسوا والله حديثا فان خيرا فخير وان شرا فشر فتحبب الى عباد الله بحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب فان حب عباد الله موصول بحب الله وبغضهم موصول ببغضه لانهم شهداء الله على خلقه (ولما) دخل محمد بن واسع سيد العباد فى زمانه على بلال بن أبى بردة أمير البصرة وكان ثوبه الى نصف ساقه فقال له بلال ما هذه الشهرة يا ابن واسع فقال له ابن واسع أنتم شهرتمونا هكذا كان لباس من مضى وانما أنتم طولتم ذيولكم فصارت السنة بينكم بدعا وشهرة وأما أنا فلما دخلت على ملك مصر وهو الافضل بن امير الجيوش فقلت سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا وأكرم اكراما جزيلا وأمرنى بدخول مجلسه وأمرنى بالجلوس فيه فقلت أيها الملك ان الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عاليا شامخا وأنزلك منزلا شريفا باذخا وملكك طائفة من ملكه وأشركك فى حكمه ولم يرض ان يكون أمر أحد فوق امرك فلا ترض ان يكون أحد أولى بالشكر منك وان الله تعالى قد ألزم الورى طاعتك فلا يكونن أحد أطوع لله منك وان الله تعالى امر عباده بالشكر وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال والاحسان قال الله تعالى اعملوا آل

داود شكرا واعلم ان هذا الملك الذى اصبحت فيه انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك فاتق الله
فيما خولك من هذه الامة فان الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل قال الله تعالى فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا

والدخول فى الجدول بالاعداد المجتمعة من ضرب الاعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك فى الادوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالى غير مستنكر وقد يقع الاطلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فيقع له معرفة المجهول فالتناسب بين الاشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيما من أهل الرياضة فانها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة فى الفكر وقد مر تعليل ذلك غير مرة ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة فى الغالب لاهل الرياضة فهى منسوبة للسبتى ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمرى انها من الاعمال الغريبة والمعاناة العجيبة والجواب الذى يخرج منها فالسر فى خروجه منظوما يظهر لى انما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه انا وجدنا اعمالا أخرى لهم فى مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك فى موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه الى المطلوب فينكر صحتها ويحسب انها من التخيلات والايهامات وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذى ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والاوتار ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يجىء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكن من شأن كل مدرك انكار ما ليس فى طوقه ادراكه ويكفينا فى رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعى فانها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح لا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له ذكاء وحدس واذا كان كثير من المعاياة فى العدد الذى هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعد النسبة فيه وخفائها فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسئلة من المعاياة يتضح لك بها شئ مما ذكرناه مثاله لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التى أخذت واشتر بها طائرا ثم اشتر بالدراهم كلها طيورا بسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدراهم فجوابه أن تقول هى تسعة لانك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وان الثلاثة ثمنها وان عدة أثمان الواحد ثمانية فاذا جمعت الثمن من الدراهم الى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهى ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائرا آخر وهو المشترى بالفلوس المأخوذة أولا وعلى سعره اشتريت بالدراهم فتكون تسعة فانت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسر التناسب الذى بين اعداد المسئلة والوهم أول ما يلقى اليك هذه وأمثالها انما يجعله من قبيل الغيب الذى لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين الامور هو الذى يخرج مجهولها من معلومها وهذا انما هو فى الواقعات الحاصلة فى الوجود أو العلم واما الكائنات المستقبلة اذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته واذا تبين لك ذلك فالاعمال الواقعة فى الزايرجة كلها انما هى فى استخراج الجواب من الفاظ السؤال لانها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك انما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل فى مقام آخر من حيث موضوع الفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفى السؤال من نفى أو اثبات وليس هذا من المقام الاول بل انما يرجع لمطابقة الكلام لما فى الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه الاعمال بل

يعملون وقال تعالى وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين واعلم ايها الملك ان الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم وسخر له الريح تجرى بامره رخاء حيث اصاب ثم رفع عنه حساب ذلك اجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف ان تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به فقال هذا من فضل ربى ليبلونى ءاشكر ام اكفر فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم اعانك الله على ما قلدك وجعلك كهفا للملهوف وامانا للخائف ثم اتممت المجلس بان قلت قد دوخت البلاد شرقا وغربا فما اخترت مملكة تزوجت فيها وولد لى غير هذه المملكة ثم انشدت شعرا

والناس اكيس من ان يحمدوا رجلا
حتى يروا عنده آثار احسان

وكتب حكيم الى حكيم انى سائلك عن ثلاثة أشياء ان اجبت عنها صرت لك تلميذا أى الناس أولى
البشر
بالرحمة ومتى تضيع أمور الناس وبم تتقى النعمة من الله تعالى فكتب اليه ان أولى الناس بالرحمة ثلاثة البر يكون فى سلطان فاجر فهو

البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله يعلم وأنتم لا تعلمون

(الفصل الثانى)

(فى العمران البدوى والامم الوحشية والقبائل وما يعرض فى ذلك من الاحوال وفيه أصول وتمهيدات)

١ *(فصل فى ان أجيال البدو والحضر طبيعية)*

(اعلم) ان اختلاف الاجيال فى أحوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضرورى منه ونشيط قبل الحاجى والكمالى فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم فى حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاء انما هو بالمقدار الذى يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا فى الزائد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتحضر ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها فى التأنق فى علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة فى أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح وأحكام وضعها فى تنجيدها والانتهاء فى الصنائع فى الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون فى صرحها ويبالغون فى تنجيدها ويختلفون فى استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل فى معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لان أحوالهم زائدة على الضرورى ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين ان أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها كما قلناه

٢ *(فصل فى ان جيل العرب فى الخلقة طبيعى)*

قد قدمنا فى الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعى من الفلح والقيام على الانعام وأنهم مقتصرون على الضرورى من الاقوات والملابس والمساكن وسائر الاحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجى أو كمالى يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه وقد يأوون الى الغيران والكهوف وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة الا ما مسته النار فمن كان معاشه منهم فى الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المداشر والقرى والجبال وهم عامة البربر والاعاجم ومن كان معاشه فى السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن فى الاغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب فى الارض أصلح بهم ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاه والبقر ولا يبعدون فى القفر لفقدان المسارح الطيبة وهؤلاء مثل البربر والترك واخوانهم من التركمان والصقالبة وأما من كان معاشهم فى الابل فهم أكثر ظعناً وأبعد فى القفر مجالاً لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الابل فى قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء فى نواحيه فراراً من أذى البرد الى دفاء هوائه وطلباً لماخض

الدهر حزين لما يرى و يسمع والعاقل يكون فى تدبير الجاهل فهو الدهر مغموم والكريم يحتاج الى اللئيم فهو الدهر خاضع له ذليل وتضييع أمور الناس اذا كان الرأى عند من لا يقبل منه والسلاح عند من لا يستعمله والمال عند من لا ينفقه وتلقى النعمة من الله تعالى بكثرة شكره ولزوم طاعته واجتناب معصيته فصار تلميذاً له الى ان مات (وقال يحيى بن سعيد) حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز فلما أشرفا على عقبة عسفان نظر سليمان الى السرادقات قد ضربت له فقال له يا عمر كيف ترى قال أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضاً وأنت المسؤل عنها المؤخوذ بها فبينما هما كذلك اذ طار غراب من سرادقات سليمان فى منقاره كسرة فصاح فقال سليمان ما يقول هذا الغراب قال عمر ما أدرى ما يقول ولكن ان شئت أخبرتك بعلم قال أخبرنى قال هذا غراب طار من سرادقاتك فى منقاره كسرة أنت بها مأخوذ وعنها مسؤل من أين دخلت ومن أين خرجت قال انك لتخبرنا بالعجائب قال أفلا اخبرك بأعجب من هذا قال بلى قال من عرف الله كيف عصاه ومن عرف الشيطان كيف أطاعه ومن أيقن بالموت كيف يهنيه العيش قال لقد غصصت علينا ما نحن فيه ثم ضرب فرسه وسار (ويروى) ان بلال بن أبى

 بردة خرج فى جنازة وهو أمير على البصرة فنظر الى جماعة وقوفاً فقال ما هذا قالوا مالك بن دينار يذكر الناس فقال لوصيف معه اذهب الى مالك بن دينار فقل له يرتفع الينا الى القبر فجاء الوصيف فأدى الرسالة الى مالك فصاح به مالك مالى اليه

النتاج في رماله اذا الابل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا وأحوجها في ذلك الى الدفاء فاضطروا الى ابعاد النجعة وربما ذادتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشا وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان والترك بالمشرق الا ان العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لابد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم

٣ *(فصل في ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدد لها)*

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لان الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لان أول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى الكمال والترف الا اذا كان الضروري حاصلا فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها وينتهي بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وأمكن نفسه الى قياد المدينة وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم والحضري لا يتشوف الى أحوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا اذا فتشنا أهل مصر من الامصار وجدنا أوليتهم أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضر وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فافهمه ثم ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فرب حي أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمرانا من مدينة فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار وأصل لها بما أن وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم

٤ *(فصل في ان أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر)*

وسببه أن النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وبقدر ما سبق اليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر اذا سبقت اليه أيضا عوائده وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا وأهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شئ من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى أهل الحضر أقل بكثير فهم أقرب

حاجة فأجيئه فيها فان تكن له حاجة فليجئ الى حاجة نفسه فلما دفنوا اميتهم قام بلال بن سعد الى حلقة مالك فلما دنا منه نزل ونزل من معه ثم جاء يمشي الى الحلقة حتى جلس (٧٤) فلما رآه مالك بن دينار سكت فأطال السكوت فقال له بلال يا أبا يحيى ذكرنا فقال ما نسيت شيأ فاذكرك به قال فحدثنا قال اما هذا فنعم قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه في هذه الجبانة ثم اتينا بزنجي فدفناه الى جنبه فوالله ما أدري أيهما كان أكرم على الله سبحانه فقال بلال يا أبا يحيى أتدري ما الذي جرأك علينا وما الذي أسكتنا عنك لانك لم تأكل من دراهمنا شيأ اما والله لو أخذت من دراهمنا شيأ ما اجترأت علينا هذه الجرأة فافاد هذا الحديث علما الا فاتقوا دراهمهم (ودخل) ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال يا ابن شهاب ما حديث يحدثنا به أهل الشام قال وما هو يا أمير المؤمنين قال حدثونا أن الله تبارك وتعالى اذا استرعى عبدا رعية كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيآت قال كذبوا يا أمير المؤمنين أنبي خليفة أقرب الى الله أم خليفة ليس بنبي قال بل نبي خليفة قال فانا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لا تشك فيه قال الله تعالى لنبيه داود يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب

الى

يا أمير المؤمنين فهذا وعيد الله لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي فقال الوليد ان الناس ليغروننا عن ديننا (وروى) زياد عن مالك

الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع فى النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر وهو ظاهر وقد توضح فيما بعد أن الحضارة هى نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر والله يحب المتقين ولا يعترض على ذلك بما ورد فى صحيح البخارى من قول الحجاج لسلمة بن الاكوع وقد بلغه أنه خرج الى سكنى البادية فقال له ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لى فى البدو فاعلم أن الهجرة افترضت أول الاسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبى صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الاعراب أهل البادية لان أهل مكة يمسهم من عصبية النبى صلى الله عليه وسلم فى المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الاعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد بن أبى وقاص عند مرضه بمكة اللهم أمض لاصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التى ابتدؤا بها وهو من باب الرجوع على العقب فى السعى الى وجه من الوجوه وقيل ان ذلك كان خاصا بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية الى الهجرة لقلة المسلمين وأما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فان الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط انشاؤها عمن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على انها بعد الوفاة ساقطة لان الصحابة افترقوا من يومئذ فى الآفاق وانتشروا ولم يبق الا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك تعربت نعى عليه فى ترك السكنى بالمدينة بالاشارة الى الدعاء المأثور الذى قدمناه وهو قوله ولا تردهم على اعقابهم وقوله تعربت اشارة الى أنه صار من الاعراب الذين لا يهاجرون وأجاب سلمة بانكار ما ألزمه من الامرين وان النبى صلى الله عليه وسلم اذن له فى البدو ويكون ذلك خاصا به كشهادة خزيمة وعناق ابى بردة او يكون الحجاج انما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة وأجابه سلمة بان اغتنامه لاذن النبى صلى الله عليه وسلم اولى وأفضل فما آثره به واختصه الا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو الذى عبر عنه بالتعرب لان مشروعية الهجرة انما كانت كما علمت لمظاهرة النبى صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة البدو فليس فى النعى على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب والله سبحانه أعلم وبه التوفيق

* (فصل فى أن أهل البدو اقرب الى الشجاعة من أهل الحضر) *

والسبب فى ذلك ان أهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم الى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبى مثواهم حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب فى الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتوجسون للنبآت والهيعات ويتفردون

ابن انس قال بعث الى ابو جعفر والى ابن طاوس فدخلنا عليه فاذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه انطاع قد بسطت وبين يديه جلاوزة بايديهم السيوف يضربون الاعناق واومأ الينا ان اجلسا فجلسنا فاطرق عنا طويلا ثم رفع راسه والتفت الى ابن طاوس وقال حدثنا عن ابيك قال نعم انى سمعت ابى يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل اشركه الله فى ملكه فادخل عليه الجور فى حكمه فامسك ابو جعفر ساعة قال مالك فضممت ثيابى مخافة ان ينضحنى بدمه فامسك ابو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ثم قال يا ابن طاوس ناولنى هذه الدواة فامسك عنه ثم قال ناولنى هذه الدواة فامسك عنه ثم قال ما يمنعك ان تناولنيها قال اخشى ان تكتب بها معصية فاكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال قوما عنى قال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغى منذ اليوم قال مالك فما زلت اعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم (وقال احمد بن ابى الحوارى) سمعت رجلا يحدث عن ابن السماك قال بعث الى هرون فلما انتهيت الى باب القصر اخذنى حرسيان بضبعى فاعملانى فى دهاليز القصر فلما انتهينا الى باب القاعة لقينى خصيان فاخذانى من الحرسيين فاعملانى فى قاعة القصر فانتهيت الى البهو الذى هو فيه فتلقانى خصيان دونهما فاخذانى فاعملانى فى البهو فقال لهما هرون ارفقوا بالشيخ فلما وقفت بين يديه قلت له يا امير المؤمنين ما مر بى يوم منذ ولدتنى امى اتعب فيه من يومى هذا فاتق الله فى خلقه واحفظ محمدا فى امته وانصح لنفسك فى رعيتك فان لك مقاما بين

فى القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بانفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع او استنفرهم صارخ وأهل الحضر مهما خالطوهم فى البادية او صاحبوهم فى السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيأ من أمر نفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى فى معرفة النواحى والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ماشرحناه وأصله ان الانسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذى ألفه فى الاحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك فى الآدميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء

٦ *(فصل فى أن معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم)*

وذلك انه ليس كل احد مالك أمر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون لامر الناس قليل بالنسبة الى غيرهم فمن الغالب ان يكون الانسان فى ملكة غيره ولابد فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعانى منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلين بما فى أنفسهم من شجاعة او جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الادلال جبلة لا يعرفون سواها واما اذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والاخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل فى النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعدا رضى الله عنهما عن مثلها لما اخذ زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين الفا من الذهب وكان أتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت فى اتباعه اذنى وكتب الى عمر يستأذنه فكتب اليه عمر تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقى عليك ما بقى من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وامضى له عمر سلبه وأما اذا كانت الاحكام بالعقاب فذهبة للبأس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التى تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما اذا كانت الاحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت فى ذلك بعض الشئ لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلا ببأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو اشد بأسا ممن تأخذه الاحكام ونجد أيضا الذين يعانون الاحكام وملكتها من لدن مرباهم فى التأديب والتعليم فى الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والاخذ عن المشايخ والائمة الممارسين للتعليم والتأديب فى مجالس الوقار والهيبة فيهم وهذه الاحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكر ذلك بما وقع فى الصحابة من أخذهم باحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأسا لان الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعى ولا تأديب تعليمى انما هى احكام الدين وآدابه المتلقاة نقلا يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم قال عمر رضى الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا ادبه الله حرصا على ان يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقينا بان الشارع اعلم بمصالح العباد ولما تناقص الدين فى الناس وأخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى الاحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبين ان الاحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لان الوازع فيها اجنبى وأما الشرعية فغير مفسدة لان الوازع فيها ذاتى ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر فى أهل الحواضر فى ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم فى وليدهم

يدى الله تعالى انت فيه اذل من مقامى هذا بين يديك فاتق الله واعلم ان من اخذ الله وسطواته على اهل المعصية كيت وكيت قال فاضطرب على فراشه حتى نزل الى مصلى بين يدى فراشه فقلت يا امير المؤمنين هذا ذل الصفة فكيف ولو رايت ذل المعاينة قال فكادت نفسه تخرج فقال يحيى للخصيين اخرجوه فقد ابكى امير المؤمنين ثم دخل مرة اخرى فقال عظنى واوجز قال يا امير المؤمنين ان الذى اكرمك بما اكرمك به لحقيق ان تحب ما يحب وتبغض ما يبغض فوالله لقد احب الله دارا وابغضتها وابغض دارا واحببتها كانما اردت خلاف ربك او اردت سواه واعلم يا امير المؤمنين ان الذى فى يدك لو بقى على من كان قبلك لم يصل اليك فكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك فاتق الله فى خلافته واحفظ وصية محمد صلى الله عليه وسلم فى امته ودخل هرون على بعض النساك فسلم عليه فقال وعليك السلام ثم قال ايها الملك تحب الله قال نعم قال فتعصيه قال نعم قال كذبت والله فى حبك اياه انك لو احببته اذا ما عصيته ثم انشأ يقول

تعصى الاله وانت تظهر حبه
هذا لعمرى فى المقال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته
ان المحب لمن يحب مطيع
فى كل يوم يبتديك بنعمة
منه وانت لشكر ذاك مضيع

(وروى زيد بن اسلم عن ابيه) قال قلت لجعفر بن سليمان بن عبد الله بن ابى طالب الهاشمى والى المدينة احذر وكهولهم ...
إن يأتى برجل فذا ليس له فى الاسلام نسبة ولا اب ولا جد فيكون اولى برسول الله صلى الله عليه وسلم منك كما كانت امرأة فرعون اولى بنوح

ولوط عليهما السلام من زوجيهما وكما كانت زوجة نوح ولوط اولى بفرعون فمن زوجته من ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه ومن اسرع به عمله لم يبطئ به نسبه وقال بشر بن السري بينما الحجاج جالس في الحجر اذ دخل رجل من اهل اليمن يجعل يطوف فوكل به

وكونهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه في أحكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب ان يضرب أحدا من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط نقله عن شريح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغط وأنه كان ثلاث مرات وهو ضعيف ولا يصلح شأن الغط ان يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

٧ *(فصل في أن سكنى البدو لا يكون الا للقبائل أهل العصبية)*

(اعلم) ان الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناه النجدين وقال فألهمها فجورها وتقواها والشر أقرب الخلال اليه اذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجم الغفير الا من وفقه الله ومن اخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع اخيه امتدت يده الى اخذه الا ان يصده وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لا يظلم

فأما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على ايدي من تحتهم من الكافة ان يمتد بعضهم على بعض او يعدو عليه فهم مكبوحون (١) بحكمة القهر والسلطان عن التظالم الا اذا كان من الحاكم بنفسه وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغفلة أو الغرة ليلا أو العجز عن المقاومة نهارا أو يدفعه ذياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة وأما احياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة وأما حللهم فانما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي ارحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن اخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لابيه لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون والمعنى انه لا يتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبة له وأما المتفردون في أنسابهم فقل ان تصيب احدا منهم نعرة على صاحبه فاذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الامم سواهم واذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو اقامة ملك أو دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفا فاتخذه اماما تقتدي به فيما نورده عليك بعد والله الموفق للصواب

٨ *(فصل في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه)*

وذلك ان صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الاقل ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الارحام ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه او العداء عليه و يود لو يحول

(١) قوله بحكمة بفتح الحاء والكاف اه

بعض من معه فقال اذا خرج من طوافه فأتني به فلما فرغ من طوافه اتاه به فقال له ممن انت قال من اهل اليمن قال افلك علم بمحمد بن يوسف قال نعم قال فاخبرني عنه قال لقد تركته ابيض بضا سمينا طويلا عريضا قال ويلك ليس عن هذا اسألك قال فعمه قال عن سيرته وطعمته قال فأجور السير واخبث الطعم واعدى العداء على الله واحكامه قال فغضب الحجاج وقال ويلك أما علمت انه اخي قال بلى قال افانت ما علمت ان الله ربي والله لهو امنع بي منك كثير منك لاخيك قال اجل ارسله يا غلام (وقال الاصمعي) حدثني رجل من اهل المدينة قال سمعت محمد بن ابراهيم يحدث قال شهدت ابا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش واهل بيت من المهاجرين ليسوا القرشي فقالوا لابي جعفر اجعل بيننا وبينهم ابن ابي ذئب قال ابو جعفر لابن ابي ذئب ما تقول في بني فلان قال اشرار من اهل بيت اشرار قالوا سله يا امير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة قال ما تقول في الحسن قال يأخذ بالاحنة و يقضي بالهوى فقال الحسن والله يا أمير المؤمنين لو سألته عن نفسك لرماك بداهية ونعتك بشر قال ما تقول في قال اعفني يا أمير المؤمنين قال لابد ان تقول قال انك لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية فتغير وجه ابي

جعفر فقام ابراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل وقال طاهر في بدمه يا أمير المؤمنين قال له ابن أبي ذئب اقعد يا بني فلنس في دم رجل
يشهد ان لا اله الا الله طهور ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلام فقال دعنا يا أمير المؤمنين عما نحن فيه بلغني انك رزقت

بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشئ فربما تنوسي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والحلف اذ نعرة كل أحد على اهل ولائه وحلفه للالفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها او قريبها او نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريبا منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم ما تصلون به ارحامكم بمعنى ان النسب انما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه انما هو في هذه الوصلة والالتحام فاذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه واذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجانا ومن اعمال اللهو المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى ان النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى اعلم

٩ *(فصل في أن الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم)*

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الاحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الابل ونتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم الفا وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقا وجبلة فلا ينزع اليهم أحد من الامم ان يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الاجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل الى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لاجل ذلك من اختلاط انسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الادم والحبوب كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب * واما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيئ وقضاعة واياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف وانما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وانما هذا للعرب فقط * قال عمر رضي الله تعالى عنه تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا هذا الى ما لحق هؤلاء العرب أهل الارياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصيبة فكثر الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطراح العرب أمر النسب وانما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

ابناء صالحا بالعراق يعني المهدي قال أما ان قلت ذلك انه ليصوم البعيد ما بين الطرفين قال ثم قام ابن أبي ذئب فخرج فقال أبو جعفر أما والله ما هو بمستوثق العقل ولقد قال بذات نفسه (ودخل أبو النصر) سالم مولى عمر بن عبيد الله على عامل للخليفة فقال له يا أبا النصر انه تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها ولا نجد بدا من انفاذها فما ترى قال أبو النصر قد أتاك كتاب الله قبل كتاب الخليفة فأيهما اتبعت كنت من أهله

(الباب الثالث فيما جاء في الولاة والقضاة وما في ذلك من الغرر والخطر)

قال الله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله جاء في التفسير من اتباع الهوى ان يحضر الخصمان بين يديك فتود ان يكون الحق للذي لك منه خاصة وبهذه الخصلة سلب سليمان بن داود عليهما السلام ملكه قال ابن عباس رضي الله عنهما كان الذي أصاب سليمان ابن داود عليهما السلام ان ناسا من أهل جرادة امرأته وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا اليه مع غيرهم فاحب ان يكون الحق لاهل جرادة فيقضي لهم فعوتب حين لم يكن هواه فيهم واحدا ومن ذلك آية الملوك التي أنزلها الله تعالى في السلاطين لما

فصل

اقتضته من السياسة العامة التي فيها بقاء الممالك وثبوت الدول قال الله تعالى ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ثم سمى المنصورين
وأوضح شرائط النصر فقال تعالى الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا

١٠ *(فصل في اختلاط الانساب كيف يقع)*

(اعلم) انه من البين أن بعضا من أهل الانساب يسقط الى اهل نسب آخر بقرابة اليهم أو حلف او ولاء اولفرار من قومه بجناية أصابها فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الاحوال واذا وجدت ثمرات النسب فكانه وجد لانه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء الا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكانه التحم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الاول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الاكثر وما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم * وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شئ من ذلك ومنه شأن بجيلة في عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الاعفاء منه وقالوا هو فينا لزيق أي دخيل ولصيق وطلبوا أن يولي عليهم جريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة صدقوا ياأمير المؤمنين أنا رجل من الازد أصبت دما في قومي ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسي بالجملة وعد منهم بكل وجه ومذهب فافهمه واعتبر سر الله في خليقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه

١١ *(فصل في ان الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية)*

(اعلم) ان كل حي أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات أخرى لانساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو اخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الاقربين أو الابعدين فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام الا انها في النسب الخاص اشد لقرب اللحمة والرياسة فيهم انما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرياسة انما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لاهلها فاذا وجب ذلك تعين ان الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص اهل الغلب عليهم اذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الاخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم الى فرع ولا تنتقل الا الى الاقوى من فروعه لما قلناه من سر الغلب لان الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر فلابد من غلبة أحدها والا لم يتم التكوين فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه

١٢ *(فصل في ان الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم)*

وذلك ان الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لان كل عصبية منهم اذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب انما هو

(١١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفاسية وموجود في النسخة التونسية واثباته أولى ليطابق كلامه أول الفصل ١٢ اه

عن المنكر فضمن الله تعالى النصر للملوك وشرط عليهم شرائط كما ترى فمن تضعضعت قواعدهم وانتقص عليهم من أطراف ممالكهم أو ظهر عليهم عدو أو باغ فتنة أو حاسد نعمة أو اضطربت عليهم الامور أو رأوا أسباب الغير فليجؤوا الى الله تعالى ويستجنوا من سوء أقداره باصلاح ما بينهم وبينه باقامة الميزان القسط الذي شرعه الله تعالى لعباده وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السموات والارض واظهار شرائع الدين ونصر المظلوم والاخذ على يد الظالم وكف يد القوي عن الضعيف ومراعاة الفقراء والمساكين وملاحظة ذوي الخصاصة والمستضعفين وليعلموا انهم قد أخلوا بشئ من الشرائط الاربع التي شرطت في النصر (وروى) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فالامام الذي على الناس راع وهو مسؤل عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤل عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها

وهي مسؤلة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤل عنه ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فجعل النبي صلى الله عليه وسلم كل ناظر في حق غيره راعيا له واللفظ ماخوذ من الرعاية والمراعاة فاذا تقدم لرعاية غيره من يأكله فهو الهلاك كما قال الشاعر

ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة واذا فرضنا انه قد التحم بهم واختلط وتنوسي عهده الاول من الالتصاق ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام أو لاحد من سلفه والرياسة على القوم انما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية فالاولية التي كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالصاق والرياسة لابد وأن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب الى أنساب يلهجون بها اما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فينزعون الى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زناتة جملة انهم من العرب ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد منهم لحق جدهم ببني عامر نجارا يصنع الحرجان (١) واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي * ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس بن توجين انهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة في هذا النسب الشريف وغلطا باسم العباس بن عطية أبي عبد القوي ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الادارسة والعبيديين فكيف يسقط العباسي الى أحد من شيعة العلويين وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواد انهم من ولد القاسم بن ادريس ذهابا الى ما اشتهر في نسبهم انهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناتي أنت القاسم أي بنو القاسم ثم يدعون ان القاسم هذا هو القاسم بن ادريس أو القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا انه فر من مكان سلطانه مستجيرا بهم فكيف تتم له الرياسة عليهم في باديتهم وانما هو غلط من قبل اسم القاسم فانه كثير الوجود في الادارسة فتوهموا ان قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فان منالهم للملك والعزة انما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شئ من الانساب وانما يحمل على هذا المتقربون الى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد * ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤثل سلطانهم انه لما قيل له ذلك أنكره وقال بلغته الزناتية ما معناه أما الدنيا والملك فنلناه بسيوفنا لا بهذا النسب وأما نفعه في الآخرة فمردود الى الله وأعرض عن التقرب اليه بذلك * ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبنو سلامة شيوخ بني يدللتن من توجين انهم من سليم والزواودة شيوخ رياح انهم من اعقاب البرامكة وكذا بنو مهني أمراء طيئ بالمشرق يدعون فيما بلغنا انهم من أعقابهم وامثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الانساب كما ذكرناه بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبياته فاعتبره واجتنب المغالط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية فان المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرغة قومه وانما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة

١٣ * (فصل في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه) *

وذلك ان الشرف والحسب انما هو بالخلال ومعنى البيت ان يعد الرجل في آبائه أشرافا مذكورين

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحتين نعش الموتى اهـ

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها * فكيف اذا الذئاب لها رعاء (وروى مسلم) في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال مامن امرئ يلي أمر المسلمين ثم لم يجتهد لهم وينصح الا لم يدخل الجنة معهم وقال معقل بن يسار سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه الا لم يجد رائحة الجنة (وروى) عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها وان أعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها (وروى) أبو هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انكم ستحرصون على الامارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة وقال أبو ذر رضي الله عنه قلت أمرني يا رسول الله قال انها امانة وانها حسرة وندامة يوم القيامة الا من أخذها بحقها وادى الذي عليه فيها (وروى البخاري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الامر حتى يقع فيه وفي الحديث) من ولي من أمر المسلمين شيأ ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث الى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيوقف على جسر جهنم فيأمر الله سبحانه الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عظم منه من مكانه ثم يأمر الله العظام فترجع الى مكانها ثم يسائله فان كان لله تعالى طائعا أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته وان كان لله

تكون

عاصيا خرق به الجسر فيهوى به فى جهنم مقدار سبعين خريفا فقال عمر سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم مالم أسمع قال نعم وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان أى والله يا عمر ومع السبعين سبعين خريفا فى واد يلتهب التهابا فقال عمر بيده على جبهته انا لله

تكون له بولادتهم اياه والانتساب اليهم تجلة فى اهل جلدته لما وقر فى نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم والناس فى نشأتهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا فمعنى الحسب راجع الى الانساب وقد بينا ان ثمرة الانساب وفائدتها انما هى العصبية للنعرة والتناصر فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية والمنبت فيها زكى محمى تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها اقوى وتعديد الاشراف من الآباء زائد فى فائدتها فيكون الحسب والشرف أصيلا فى أهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتفاوت البيوت فى هذا الشرف بتفاوت العصبية لانه سرها ولا يكون للمنفردين من أهل الامصار بيت الا بالمجاز وان توهموه فزخرف من الدعاوى واذا اعتبرت الحسب فى أهل الامصار وجدت معناه ان الرجل منهم يعد سلفا فى خلال الخير ومخالطة أهله مع الركون الى العافية ما استطاع وهذا مغاير لسر العصبية التى هى ثمرة النسب وتعديد الآباء لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه وليس حسبا بالحقيقة وعلى الاطلاق وان ثبت انه حقيقة فيهما بالوضع اللغوى فيكون من المشكك الذى هو فى بعض مواضعه أولى وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ويختلطون بالغمار ويبقى فى نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها فى شئ لذهاب العصبية جملة وكثير من أهل الامصار الناشئين فى بيوت العرب أو العجم لاول عهدهم موسوسون بذلك وأكثر ما رسخ الوسواس فى ذلك لبنى اسرائيل فانه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت أولا لما تعدد فى سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابراهيم عليه السلام الى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية ثانيا وما آتاهم الله بها من الملك الذى وعدهم به ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء فى الارض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافا من السنين ومازال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا هارونى هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من اهل الامصار وغيرهم المنقطعين فى أنسابهم عن العصبية يذهب الى هذا الهذيان وقد غلط ابو الوليد بن رشد فى هذا لما ذكر الحسب فى كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الاول والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه وليت شعرى ما الذى ينفعه قدم نزلهم بالمدينة ان لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه فكأنه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع ان الخطابة انما هى استمالة من تؤثر استمالته وهم أهل الحل والعقد وأما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت اليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو وأهل الامصار من الحضر بهذه المثابة الا أن ابن رشد ربى فى جيل وبلد لم يمارسوا العصبية ولا آنسوا احوالها فبقى فى أمر البيت والحسب على الامر المشهور من تعديد الآباء على الاطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها فى الخليقة والله بكل شئ عليم اه

١٤ *(فصل فى ان البيت والشرف للموالى واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم)*

وذلك أنا قدمنا ان الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصبية فاذا اصطنع اهل العصبية قوما من غير نسبهم او استرقوا العبدان والموالى والتحموا بهم كما قلناه ضرب معهم اولئك الموالى والمصطنعون بنسبهم فى تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبتهم وحصل لهم من الانتظام فى العصبية مساهمة فى نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق او مولى اصطناع وحلف وليس نسب

وانا اليه راجعون من يأخذها بما فيها فقال سلمان من سلب الله أنفه وألصق خده بالارض (وروى) ان العباس رضى الله عنه قال أمرنى يارسول الله فاصيب واستريش فقال له ياعباس ياعم النبى صلى الله عليه وسلم نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها الا أحدثكم عن الامارة أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها حسرة يوم القيامة (وروى) أبو داود فى السنن جاء رجل فقال يارسول الله ان أبى عريف على الماء وانى أسألك ان تجعل لى العرافة من بعده فقال النبى صلى الله عليه وسلم العرفاء فى النار (وروى) الساجى عن أبى سعيد الخدرى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة الامام الجائر * وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ليس من وال ولا قاض الا ويؤتى به يوم القيامة حتى يقف بين يدى الله سبحانه على الصراط ثم تنشر الملائكة سيرته فيقرؤها على رؤس

الخلائق فان كان عادلا انجاه الله بعدله وان كان غير ذلك انتفض به الصراط انتفاضة صار بين كل عضو من أعضائه مسيرة سنة ثم ينخرق به الصراط فما يلقى قعر جهنم الا بحر وجهه (وروى) معاذ بن جبل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان القاضى

يزل في مزلقة أبعد من عدن في جهنم (وقالت) عائشة رضي الله عنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة
فيلقى في شدة الحساب على ما قضى (٨٢) حتى يود انه لم يقض بين اثنين في تمرة (وروى) الحسن البصري ان النبي صلى الله عليه وسلم

ولادته نافع له في تلك العصبية اذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزه الى شرفهم بل يكون ادون منهم على كل حال وهذا شأن الموالي في الدول والخدمة كلهم فانهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها الا ترى الى موالي الاتراك في دولة بني العباس والى بني برمك من قبلهم وبني نوبخت كيف ادركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من اعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا موالي كل دولة وخدمها انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعها ويضمحل نسبه الاقدم من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في اصالته ومجده وانما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه اذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقا من شرف مواليه وبناؤه من بنائهم فلم ينفعه نسب ولادته وانما بنى مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقد يكون نسبه الاول في لحمة عصبيته ودولته فاذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تنفعه الاولى لذهاب عصبيتها وانتفع بالثانية لوجودها وهذا حال بني برمك اذ المنقول أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدنة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء بني العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة له والوجود شاهد بما قلناه وان أكرمكم عند الله أتقاكم والله ورسوله أعلم

١٥ *(فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء)*

(اعلم) ان العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من أحواله فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كائنة فاسدة بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من أهل الخليقة شرف متصل في آبائه من لدن آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السر فيه وأول كل شرف خارجية كما قيل وهي الخروج عن الرياسة والشرف الى الضعة والابتذال وعدم الحسب ومعناه ان كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل محدث ثم ان نهايته في اربعة آباء وذلك ان باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لابيه قد سمع منه ذلك وأخذه عنه الا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاين له ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم ان ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وانما هو امر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته ويرى الفضل له عليهم وثوقا بما ربي فيه من استتباعهم وجهلا بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من اهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للاذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوي

دعا عبد الرحمن بن سمرة
يستعمله فقال يا رسول الله
خر لي فقال اقعد في بيتك
وروى ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال ليودن أقوام
يوم القيامة لو وقعوا من
الثريا ولم يكونوا امراء على
شئ وكم من متخوض في مال
الله ومال رسوله له النار غدا
(وفي) الحديث ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال
صنفان من أمتي لا تنالهما
شفاعتي يوم القيامة امام
ظالم غشوم وغال في الدين
مارق منه (وقال) أبو
هريرة رضي الله عنه ما من
أمير يؤمر على عشرة الا جيء
به يوم القيامة مغلولا لا نجاه
عمله أو أهلكه (وقال)
طاوس لسليمان بن عبد
الملك هل تدري يا أمير
المؤمنين من أشد الناس
عذابا يوم القيامة من اشركه
الله في ملكه فجار في حكمه
فاستلقى سليمان على
سريره وهو يبكي وما زال
يبكي حتى قام عنه جلساؤه
(وقال) حذيفة بن اليمان من
اقتراب الساعة ان يكون
امراء فجرة وقراء كذبة وامناء
خونة وعلماء فسقة وعرفاء
ظلمة (وقال) عبيد بن عمير
ما ازداد رجل من السلطان
قربا الا ازداد من الله بعدا

ولا كثر اتباعه الا كثر شيطانه ولا كثر ماله الا كثر حسابه (وفي الحديث) عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة
اثنان في النار وواحد في الجنة رجل قضى بغير علم فهو في النار ورجل قضى بعلم فجار فهو في النار ورجل قضى بالحق فهو في الجنة رواه

فروع

فروع الاول و ينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت القبائل والامراء وأهل العصبية أجمع ثم في بيوت أهل الامصار اذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب ان يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشتراط الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب والا فقد يدثر البيت من دون الاربعة و يتلاشى و ينهدم وقد يتصل امرها الى الخامس والسادس الا أنه في انحطاط وذهاب واعتبار الاربعة من قبل الاجيال الاربعة بان ومباشر له ومقلد وهادم وهو أقل ما يمكن وقد اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم انما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم اشارة الى أنه بلغ الغاية من المجد وفي التوراة ما معناه أنا الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع وهذا يدل على ان الاربعة الاعقاب غاية في الانساب والحسب ومن كتاب الاغاني في اخبار عزيف الغواني أن كسرى قال للنعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال باي شئ قال من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده الا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وهم بيت قيس وآل ذي الجدين بيت شيبان وآل الاشعث بن قيس من كندة وآل حاجب بن زرارة وآل قيس بن عاصم المنقري من بني تميم فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم وأقعد لهم الحكام والعدول فقام حذيفة بن بدر ثم الاشعث بن قيس لقرابته من النعمان ثم بسطام بن قيس بن شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيد يصلح لموضعه وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت بني الذبيان من بني الحرث بن كعب بيت اليمني وهذا كله يدل على ان الاربعة الآباء نهاية في الحسب والله أعلم

١٦ * (فصل في أن الامم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها) *

* (اعلم) * انه لما كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لاجرم كان هذا الجيل الوحشي اشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الامم بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الاعصار فكلما نزلوا الارياف وتفنقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر اذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها وكذلك الآدمي المتوحش اذا أنس وألف وسببه ان تكون السجايا والطبائع انما هو عن المألوفات والعوائد واذا كان الغلب للامم انما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الاجيال اعرق في البداوة وأكثر توحشا كان اقرب الى التغلب على سواه اذا تقاربا في العدد وتكافآ في القوة والعصبية وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين الى الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون الى خصب العيش وغضارة النعيم كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم وهذا حال بني طيئ و بني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشئ من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلقها مذاهب الترف حتى صاروا أغلب على الامر منهم وكذا كل حي من العرب يلي نعيما وعيشا خصبا دون الحي الآخر فان الحي المبتدي يكون أغلب له وأقدر عليه اذا تكافآ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم (وقال) ابن سيرين جاء صبيان الى عبيدة السلماني يتخايرون اليه في ألواحهم فلم ينظر فيها وقال هذا حكم ولا أتولى حكما أبدا (وتخاير) غلامان الى ابن عمر فجعل ينظر الى كتابتهم وقال هذا حكم ولابد من النظر فيه * والمصنفون يرسلون في كتبهم حديثا مرفوعا رواه أبو داود في سننه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قدم الى القضاء فقد ذبح بغير سكين (وفي أخبار) القضاة ان قاضيا قدم الى بلد فجاءه رجل له عقل ودين فقال له أيها القاضي أبلغك قول النبي صلى الله عليه وسلم من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين قال نعم قال فبلغك ان أمور الناس ضائعة في بلدنا فجئت تجبرها قال لا قال أفأكرهك السلطان على ذلك قال لا قال فاشهد اني لا أسألك مجلسا ولا أؤدي عندك شهادة أبدا (وروى) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في بعض خطبه ان الملك اذا ملك زهده الله في ماله ورغبه فيما في يد غيره واشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط الكثير جذل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره ومحى ظله حاسبه الله فاشد حسابه وأقل عفوه (وذكر) السلطان لاعرابي فقال والله لئن عزوا في الدنيا بالجور لقد ذلوا في الآخرة بالعدل و بقليل فان رضوا عن كثير باق وانما يكون الندم حين لا ينفع الندم (وقال) أبو بكر بن أبي مريم حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا دلنا على الماء قال احلفوا الي ثلاثا وثلاثين يمينا انه لم يكن فيكم صرافا ولا مكاسا ولا عريفا ولا بريدا ولا يروي ولا عرافا

١٧ *(فصل فى أن الغاية التى تجرى اليها العصبية هى الملك)*

وذلك لانا قدمنا ان العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه وقدمنا ان الآدميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون فى كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلابد ان يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية والالم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو امر زائد على الرياسة لان الرياسة انما هى سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر فى أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طلب ما فوقها فاذا بلغ رتبة السودد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لانه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التى يكون بها متبوعا فالتغلب الملكى غاية للعصبية كما رأيت ثم ان القبيل الواحد وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلابد من عصبية تكون اقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كانها عصبية واحدة كبرى والاوقع الافتراق المفضى الى الاختلاف والتنازع ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية اخرى بعيدة عنها فان كافأتها اومانعتها كانوا اقتالا وانظارا ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والامم المفترقة فى العالم وان غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا وزادتها قوة فى التغلب الى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم اعلى من الغاية الاولى وأبعد وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة فان أدركت الدولة فى هرمها ولم يكن لها ممانع من اولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك أجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وانما قارن حاجتها الى الاستظهار باهل العصبيات انتظمتها الدولة فى أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستبد وهو كما وقع للترك فى دولة بنى العباس ولصنهاجة وزناتة مع كتامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر ان الملك هو غاية العصبية وأنها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك اما بالاستبداد او بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وان عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقفت فى مقامها الى أن يقضى الله بامره

١٨ *(فصل فى أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم)*

وسبب ذلك ان القبيل اذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب فى نعمتهم وخصبهم وضربت معهم فى ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع احد فى انتزاع امرها ولا مشاركتها فيه اذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها و يشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم الى شئ من منازع الملك ولا اسبابه انما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون فى ظل الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بمذاهب الملك فى المبانى والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعوا اليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة و يتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم واعقابهم فى مثل ذلك من الترفع عن خدمة انفسهم وولاية حاجاتهم و يستنكفون عن سائر الامور الضرورية فى العصبية حتى يصير ذلك خلقا لهم وسجية فتنقص عصبيتهم و بسالتهم فى الاجيال بعدهم بتعاقبها الى ان تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق فى النعيم كاسر من سورة

فانا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثا وثلاثين يمينا فدلهم على الماء ثم قالوا له عاونا على غسله فقال احلفوا الى ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم ذكره فحلفوا له فاعانهم على غسله ثم قالوا تقدم وصل عليه قال لا حتى تحلفوا الى أربعا وثلاثين يمينا كما تقدم فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحدا وكان يرون انه الخضر عليه السلام (وقال) ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا وقتله نبى وامام ضلالة وممثل من الممثلين (وقال) أبو ذر قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أيام أعقل يا أباذر ما أقول لك ثم لما كان فى اليوم السابع قال أوصيك بتقوى الله فى أمر سرك وعلانيتك فاذا أسأت فاحسن ولا تسألن أحدا وان سقط سوطك ولا تؤوين أمانة ولا تؤوين يتيما ولا تقضين بين اثنين (وقال) أبو ذر أيضا قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أباذر انى أحب لك ما أحب لنفسى وانى أراك ضعيفا لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم (وروى) أبو ذر أيضا قلت يا رسول الله الا تستعملنى فضرب بيده على منكبى وقال لى يا أباذر انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذها بحقها وادى الذى عليه فيها (وروى) على بن أبى طالب رضى الله عنه قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن وأنا حديث السن فقلت يا رسول الله انك تبعثنى الى قوم شيوخ ذوى أسنان ولا علم لى بالقضاء فقال ان الله سبحانه هادى قلبك ولسانك فاذا جلس الخصمان

فلا تقض للاول حتى تسمع كلام الآخر فانك اذا سمعت ذلك عرفت كيف تقضي (فان قال قائل) كيف نهى أباذر عن القضاء وأمر عليا بالقضاء مع ما فيه من التغرير وما روى بان من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين وفيه البعد عن حضرته والتيمن بالمشاهدة

العصبية التي بها التغلب واذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم سواهم فقد تبين ان الترف من عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

١٩ *(فصل في ان من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم)*

وسبب ذلك ان المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للذلة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة فأولى ان يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام واخبرهم بان الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها اي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك ياموسى ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك الا لما آنسوا من انفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقابا حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع انهم لم يؤمنوا حق الايمان بما اخبرهم به موسى من ان الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم بحكم من الله قدره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا في قفر من الارض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها العمران ولا نزلوا مصرا ولا خالطوا بشرا كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الاحكام والقهر ولا يسام بالمذلة فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك ان الاربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر سبحان الحكيم العليم وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب فان القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لان في المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية الا اذا استهونته عن القتل والتلف وان عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل والمذلة عائقة كما قدمنا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث في بعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخلهم الذل فهو دليل صريح على ان المغرم موجب للذلة هذا الى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر فاذا رأيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم ان زناتة بالمغرب كانوا شاوية يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو غلط فاحش كما رأيت اذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة وانظر فيما قاله شهربراز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل شهربراز أمانه على أن يكون له فقال أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصغري معكم فرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف

٢٠ *(فصل في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس)*

وتعلم سننه وشرائع دينه والتخلق باخلاقه وشيمه وايهما أفضل المثول بين يديه والكون بحضرته ومشاهدته والصلاة خلفه أو القضاء في غيبته مع البعد عنه (قلنا) انما نهى أباذر لمعنى فيه يقصر به عن رتبة القضاء مما كان ضده في علي رضي الله عنه ثم قال في آخره الا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها فاستدللنا بذلك على ان من استجمعت فيه شروط القضاء وكان قويا على انفاذه لم يدخل تحت النهي ومما يعد ضعفا عن القضاء طلبه اياه اذ لم يدر عواقبه وقد وصف الله سبحانه المتسرع الى الامانة بالجهل فقال تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا أي ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة أمره والدليل على صحة هذا التأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة اثنان في النار وواحد في الجنة رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار (قلت) فهذان الرجلان ضعيفان عن رتبة القضاء احدهما بغشه وظلمه والآخر بجهله وقد عابت جهلة بني اسرائيل طالوت فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم

لما كان الملك طبيعيا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان أقرب الى خلال الخير من خلال الشر باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه وأما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله أقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصة للانسان لا للحيوان فاذن خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا ان المجد له اصل ينبني عليه وتتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشير وفرع يتمم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهي الخلال لان وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء او ظهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصا في أهل البيوت والاحساب فما ظنك باهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضا فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم واحكام الله في خلقه وعباده انما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع واحكام البشر انما هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معا ومقدرهما اذ لا فاعل سواه فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان أوثق من الاول وأصح مبنى فقد تبين ان خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية فاذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والامم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل او ترك وحسن الظن بهم واعتقاد اهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الاكابر والمشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعي اليه وانصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل في أحوالهم والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى اسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا ان هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها ان يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم او على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى اليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك ان الله تأذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقر ذلك وتتبعه في الامم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار (واعلم) ان من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف واهل الاحساب واصناف التجار والغرباء وانزال الناس منازلهم وذلك أن اكرام القبائل وأهل العصبيات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الاكثر الرغبة في الجاه او المخافة من قوم المكرم او التماس مثلها منه وأما امثال

هؤلاء

يؤت سعة من المال فعابوه بخصلتين الفقر وانه ليس من سبط المملكة فقال لهم نبيهم ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم فبين شروط الولايات والممالك وأنها تفتقر الى العلم الذي به يحكم والى القوة التي بها تنفذ الاحكام دون ما ظنه بنو اسرائيل

وأما قولك أيهما أفضل القضاء في غيبته أو الحضور بين يديه والكون في حضرته فالجواب ان اوامره عليه السلام فرض يعصى بتركه والكون في حضرته مستحب بعد الهجرة لا يعصى بتركه فعلمنا بهذا انه انما بعث عليا رضي الله عنه للقضاء لانه افضل من سكناه بحضرته لانه مبلغ عنه الى الخلائق شريعته التي بعثه الله بها فهو خليفته في ذلك يدل على هذا انه أوجب الجنة لمن قضى بالحق

(الباب الرابع في بيان معرفة ملك سليمان بن داود عليهما السلام ووجه طلبه الملك وسؤاله أن لا يؤتى لاحد من بعده)

قال هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي فطلب الملك ثم زاد على ذلك بأن لا يؤتى مثله أحدا بعده وكان ظاهره يؤذن بالبخل والكلام على هذه الآية من وجوه (أحدها) انه انما سأل هذا بعد ان سلبه الله تعالى ملكه ثم أعاده اليه فمن طلب الملك كان ملكا فكانه قال هذا الملك الذي جددته لي هبة لي على صفات لا أعصيك فيها فتسلبني اياه وتعاقبني يدل عليه انه بدأ بالمغفرة فقال رب اغفر لي وهب لي ملكا أي ملكا لا أعصيك فيه فتؤاخذني والدليل على صحة هذا قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب فكانه أجاب دعاءه فقال تصرف كيف شئت

هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقي ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال في الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام اقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه واكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجأ اليهم في اقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الاخلاق وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من اهل عصبيته انتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك وان الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل اهل الملك اذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رأيته قد ذهب من أمة من الامم فاعلم ان الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له والله تعالى أعلم

٢١ *(فصل في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها أوسع)*

وذلك لانهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الامم سواهم ولانهم يتنزلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الاكراد والتركمان واهل اللثام من صنهاجة وأيضا فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أفقهم بل يطفرون الى الاقاليم البعيدة ويتغلبون على الامم النائية وانظر ما يحكى في ذلك عن عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه أهله الا بذلك أين القراء المهاجرون عن موعد الله سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك أيضا بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا يخطون من اليمن الى المغرب مرة والى العراق والهند أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الامم وكذا حال الملثمين من المغرب لما نزعوا الى الملك طفروا من الاقليم الاول ومجالاتهم منه في جوار السودان الى الاقليم الرابع والخامس في ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الامم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقا وأبعد من مراكزها نهاية والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

٢٢ *(فصل في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية)*

والسبب في ذلك ان الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من سائر الامم سواهم فيتعين منهم المباشرون للامر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التي تجدع أنوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها وبقي الذين بعدوا عن الامر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فاذا استولت على الاولين الايام وأباد غضراءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدهم واشتفت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الانساني والتغلب السياسي (شعر)

من بعدي فمعناه لا أسلبه في باقي عمري فيصير لغيري كما سلبته فيما مضى من عمري وقيل لا تسلط على فيه شيطانا مثل الذي قد سلطت على وقيل انما سأل ذلك ليكون علما على المغفرة وقبول التوبة فاجيب الى ذلك فعلم أنه قد غفر له وقيل انما سأل ذلك ليكون آية لنبوته وعلما على معجزته وقال مقاتل كان سليمان بن داود ملكا ولكنه اراد بقوله لا ينبغي لاحد من بعدي تسخير الرياح والطير يدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى فسخرنا له الريح الى آخر الآية وقيل ان سليمان كان ملكه في خاتمه ولهذا ذهب ملكه بذهاب خاتمه فقال لا ينبغي لاحد من بعدي يعني اجعل ملكي في نفسي لا في خاتمي حتى لا يملكه احد غيري فان ابليس لما اخذ خاتم سليمان تحول ملك سليمان الى ابليس وقعد على كرسيه يحكم فيه حتى انكرت بنو اسرائيل أحكامه وكان قد القى عليه شبهه (وقال) عمرو بن عثمان المكي انما أراد به ملك النفس

كدود القز ينسج ثم يفنى * بمركز نسجه في الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم في الغلب معلومة فتسموا آمالهم الى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الامر ويصير اليهم وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضا منتبذا عنه من عشائر أمتهم فلا يزال الملك ملجأ في الامة الى ان تنكسر سورة العصبية منها او يفنى سائر عشائرها سنة الله في الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم اخوانهم من ثمود ومن بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم اخوانهم من حمير ومن بعدهم اخوانهم التبابعة من حمير أيضا ومن بعدهم الاذواء كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس لما انقرض امر الكينية ملك من بعدهم الساسانية حتى تأذن الله بانقراضهم اجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض امر مغراوة وكتامة الملوك الاول منهم رجع الى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا سنة الله في عباده وخلقه وأصل هذا كله انما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في الاجيال والملك تخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد فاذا انقرضت دولة فانما يتناول الامر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والانقياد وأونس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك انما يوجد في النسب القريب منهم لان تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه او بعد حتى اذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران او ما شاء الله من قدرته فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل كما وقع لمضر حين غلبوا على الامم والدول وأخذوا الامر من ايدي اهل العالم بعد ان كانوا مكبوحين عنه احقابا

٢٣ *(فصل في ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده)*

والسبب في ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من ان انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وانما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للاول ولذلك ترى المغلوب يتشبه ابدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الابناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما وما ذلك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انه اذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري اليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء والامر لله وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فانه من بابه اذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الابناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق

٢٤ *(فصل في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء)*

سؤال المغفرة على طلب المملكة وقال بعض الوعاظ انما اراد حتى انتقم لآدم من ابليس وذريته حيث كان سببا في اخراجه وذريته من الجنة (وروى) البخاري في صحيحه (٨٨) ان النبي عليه السلام قال ان عفريتا من الجن جعل يتفلت على البارحة ليقطع على صلاتي وان الله تعالى امكنني منه فصرعته ولقد هممت ان اربطه الى سارية من سواري المسجد حتى يصبح فتنظرون اليه كلكم فذكرت قول سليمان هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي فرده الله خاسئا (فان قيل) فما معنى قول يوسف عليه السلام اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (قلت) يستفاد من الآية ان من حصل بين يدي ملك لا يعرف قدره أو أمة لا يعرفون فضله فخاف على نفسه او اراد ابراز فضله جاز له ان ينبههم على مكانه وما يحسنه دفعا للشر عن نفسه أو اظهارا لفضله فيجعل في مكانه وفيه فائدة أخرى وهو انه اذا رأى الامور في يد الخونة واللصوص ومن لا يؤدي الامانة ويعلم من نفسه أداء الامانة مع الكفاية جاز له أن ينبه السلطان على أمانته وكفايته ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء جاز له أن ينبه السلطان على مكانه ويخطب خطة القضاء وقال بعضهم بل يجب ذلك عليه اذا كان الامر في يدي من لا يقوم به والسبب

(الباب الخامس في فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا)

قال الله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض يعني لولا أن الله تعالى أقام السلطان في الارض يدفع القوي عن

الضعيف وينصف المظلوم من الظالم لاهلك القوى الضعيف وتواثب الخلق بعضهم على بعض فلا ينتظم لهم حال ولا يستقر لهم قرار فتفسد الارض ومن عليها ثم امتن الله تعالى على الخلق باقامة السلطان فقال تعالى

ولكن الله ذو فضل على العالمين يعني في

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل والاعتمار انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده وهذا موجود في أخلاق الاناسي ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وانها لا تسافد اذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال الى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير يقال ان سعدا أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا منهم سبعة وثلاثون ألفا رب بيت ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلا ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن ان ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فملكة الاسلام في العدل ما علمت وانما هي طبيعة في الانسان اذا غلب على امره وصار آلة لغيره ولهذا انما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه او من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة او افادة مال او عز كما يقع لمماليك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٥ *(فصل في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط)*

وذلك انهم بطبيعة التوحش الذي فيهم اهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون الى المزاحفة والمحاربة الا اذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل او مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتنعة عليهم باوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم لانهم لا يتسنمون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر واما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى أن يصبح اهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي وانحراف السياسة الى ان ينقرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره

٢٦ *(فصل في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب)*

والسبب في ذلك أنهم امة وحشية باستحكام عوائد التوحش واسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون

اقامة السلطان فيأمن الناس به فيكون فضله على الظالم كف يده عن المظلوم وفضله على المظلوم كف يد الظالم عنه (وروى) أبو هريرة ان النبي عليه السلام قال ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم (وروى) ان النبي عليه السلام قال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال اني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (وروى) كثير بن مرة قال قال النبي عليه السلام السلطان ظل الله في أرضه يأوي اليه كل مظلوم من عباده فاذا عدل كان له الاجر وعلى الرعية الشكر واذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر (وروى) أبو هريرة يرفعه قال لعمل الامام العادل في رعيته يوما أفضل من عبادة العابد في أهله مائة سنة او خمسين سنة (وقال) قيس بن سعد ليوم من امام عادل خير من عبادة رجل في بيته ستين سنة (وروى) أن سعد بن ابراهيم وأبا سلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن مصعب بن شرحبيل ومحمد بن صفوان قالوا للسعيد بن سليمان

ابن زيد بن ثابت لقضاء يوم بالحق أفضل عند الله من صلاة الملك عمرك وستضح لك صحة هذه الاقوال اذا وقفت على ما نالته الرعية من الصلاح بصلاح السلطان (واعلم) (٩٠) أرشدك الله ان الانسان أعز جواهر الدنيا واغلاها قدرا وأشرفها منزلة و بالسلطان صلاح

السقف عليه فلذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما في ايدي الناس وان رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه بل كلما امتدت أعينهم الى مال او متاع او ماعون انتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وأيضا فلانهم يتلفون على أهل الاعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والثمن والاعمال كما سنذكره هي أصل المكاسب وحقيقتها واذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الايدي عن العمل وابذعر الساكن وفسد العمران وايضا فانهم ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا ومغرما فاذا توصلوا الى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد وربما فرضوا العقوبات في الاموال حرصا على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زائدا فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها وتقدم ذلك أول الفصل وأيضا فهم متنافسون في الرياسة وقل ان يسلم احد منهم الامر لغيره ولو كان أباه أو أخاه او كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من أجل الحياء فيتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقض قال الاعرابي الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال تركته يظلم وحده وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٧ فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم فاذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي او الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك اسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الاولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات فان كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

الانسان اذا فهو أعز اعلاق الدنيا واعمها بركة ولذلك خلق الله تعالى دارين دار الدنيا ودار الآخرة ثم لما كان السلطان صلاح الدارين فاخلق بشخص يعم نفعه العباد والبلاد ويصلح بصلاحه الدنيا والآخرة أن يكون شرفه عند الله عظيما كما كان قدره في العقول جسيما ومقامه عند الله كريما كما كان نفعه عميما وعلى قدر عموم المنفعة تشرف الاعمال وعلى قدر النعمة تكون المنة الا ترى ان الانبياء عليهم السلام أعم خلق الله نفعا فهم اجل خلق الله قدرا لانهم تعاطوا اصلاح الخلائق واخراجهم من الظلمات الى النور كذلك سلطان الله في الارض هو خلافة النبوة في اصلاح الخلائق ودعائهم الى فناء الرحمن واقامة دينهم وتقويم اودهم وليس فوق السلطان العادل منزلة الا نبي مرسل أو ملك مقرب فاتخذ عظم قدر السلطان عندك حجة لله تعالى على نفسك وناصحه على قدر ما نفعك وليس نفعه مقصورا على عجالة من حطام الدنيا يحبوك بها ولكن صيانة مهجتك وصيانة حريمك وحراسة مالك عن البغاة أعم نفعا مالك ان فقدت وليس لله سلطان فصل
الا وقد أخذ عليه شرائط العدل ومواثيق الانصاف وشرائع الاحسان وكما انه ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كذلك ليس دون رتبة

٢٨ *(فصل فی ان العرب أبعد الامم عن سیاسة الملك)*

والسبب فی ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الامم وأبعد مجالا فی القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصبية التی بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضی ان يكون السائس وازعا بالقهر والا لم تستقم سياسته وأيضا فان من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما فی أيدی الناس خاصة والتجافی عما سوى ذلك من الاحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا أمة من الامم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما فی ايديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد فی الاموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعا وربما يكون باعثا بحسب الاغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطى من ماله فی جانب غرضه فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الامة كأنها فوضى مستطيلة ايدی بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم فی الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوی سلطانهم كان رستم اذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدی يعلم الكلاب الآداب ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا الى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب امر الخلافة وامحى رسمها انقطع الامر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا بادية فی قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك فی القديم وما كان فی القديم لاحد من الامم فی الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر فی الاسلام بنی أمية وبنی العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم فی بعض الاحيان غلب على الدول المستضعفة كما فی المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتی ملكه من يشاء

٢٩ *(فصل فی ان البوادی من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار)*

قد تقدم لنا ان عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضرورية فی العمران ليس كلها موجودة لاهل البدو وانما توجد لديهم فی مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم فی الفلح وغيره وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم وانما بايديهم اعواضها من مغل الزراعة واعيان الحيوان او فضلاته ألبانا وأوبارا وأشعارا واهابا مما يحتاج اليه أهل الامصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم الا أن حاجتهم الى الامصار فی الضروری وحاجة أهل الامصار اليهم فی الحاجی والكمالی فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة وجودهم فما داموا فی البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم محتاجون الى أهلها

السلطان الشرير الجائر رتبة لشريرلان شره يعم كما ان خير الاول يعم وكما ان بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد وتنال الزلفى الى الله تعالى والفوز بجنة المأوى كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصی والآثام (٩١) وتورث دار البوار وذلك ان السلطان اذا عدل انتشر العدل فی رعيته فاقاموا الوزن بالقسط وتعاطوا الحق فيما بينهم ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور وانتعشت قوانين الحق فارسلت السماء غيثها وأخرجت الارض بركاتها ونمت تجاراتهم وزكت زروعهم وتناسلت أنعامهم ودرت أرزاقهم ورخصت أسعارهم وامتلأت أوعيتهم فواسى البخيل وأفضل الكريم وقضيت الحقوق وأعيرت المواعين وتهادوا فضول الاطعمة والتحف فهان الحطام لكثرته وذل بعد عزته فتماسكت على الناس مروآتهم وانحفظت عليهم أديانهم وبهذا تبين لك ان الوالی ماجور على ما يتعاطاه من اقامة العدل ومأجور على ما يتعاطاه الناس بسببه واذا جار السلطان انتشر الجور فی البلاد وعم العباد فرقت أديانهم واضمحلت مروآتهم ففشت فيهم المعاصی وذهبت أماناتهم فضعفت النفوس وقنطت القلوب فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل وبخسوا المكيال والميزان وجوزوا البهرج فرفعت منهم البركة وأمسكت السماء غيثها ولم تخرج الارض ريعها ونباتها فقل فی أيديهم الحطام فقنطوا وامسكوا الفضل الموجود وتأجروا عن المفقود فمنعوا الزكوات المفروضة وبخلوا بالمواساة المسنونة وقبضوا أيديهم عن المكارم وتنازعوا المقدار اللطيف

وتجاحد ذوا القدر الخسيس ففشت فيهم الايمان الكاذبة والختل في البيع والخداع في المعاملة والمكر والحيلة في القضاء والاقتضاء ولا
يمنعه من السرقة الا العار ومن الزنا الا الحياء فيظل أحدهم عاريا عن محاسن دينه ومتجردا عن جلباب مروأته وأ كثر

و يتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم به وان كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض اهله على الباقين والا انتقض عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه اما طوعا ببذل المال لهم ثم يبدي لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم وأما كرها ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين فيضطر الباقين الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي الى جهات أخرى لان كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ الا طاعة المصر فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الاحد القهار

(الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات)

١ *(فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصبية)*

وذلك انا قررنا في الفصل الاول أن المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا وقل أن يسلمه أحد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشئ منها لا يقع الا بالعصبية كما ذكرناه آنفا وهذا الامر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة انما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية في تمهيد أمرهم ولا يعرفون كيف كان الامر من أوله وما لقي أولهم من المتاعب دونه وخصوصا أهل الاندلس في نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الامد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شئ عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

٢ *(فصل في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية)*

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قوية من الغلب للغرابة وان الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الاولية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم الى كبير عصابة بل كان طاعتها كتاب الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولامر ما يوضع الكلام في الامامة آخر الكلام على العقائد الايمانية كانه من جملة عقودها و يكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة اما بالموالي والمصطنعين الذين نشؤا في ظل العصبية وغيرها واما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فان عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك انما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الاولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم وملكوها وصار الخلائف في حكمهم ثم انقرض

همه قوت دنياه أعظم مسراته من هذا الحطام ومن عاش كذلك فبطن الارض خير له من ظاهرها (قال) وهب بن منبه اذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الاسواق والزرع والضرع وكل شئ واذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك وقال عمر بن عبد العزيز يهلك العامة بعمل الخاصة ولا تهلك الخاصة بعمل العامة والخاصة هم الولاة وفي هذا المعنى قال الله سبحانه واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (وقال) الوليد ابن هشام ان الرعية لتفسد بفساد الوالي وتصلح بصلاحه (وقال) سفيان الثوري لابي جعفر المنصور اني لاعلم رجلا ان صلح صلحت الامة قال ومن هو قال أنت (وقال) ابن عباس ان ملكا من الملوك خرج يسير في مملكته مستخفيا فنزل على رجل له بقرة فراحت البقرة فحلبت له قدر حلاب ثلاثين بقرة فعجب الملك لذلك وحدث نفسه بأخذها فلما راحت عليه من الغد حلبت على النصف مما
حلبت بالامس فقال له الملك ما بال حلابها انقص أرعت في غير مرعاها بالامس قال لا ولكن أظن ملكنا هم بأخذها أو هم
فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم او هم بالظلم ذهبت البركة فعاهد الملك الله سبحانه في نفسه ان لا يأخذها فراحت من الغد فحلبت حلابها

امرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقرض أمرهم وزحف آخرا التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور افريقية وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم حتى تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فمحوا آثارهم وكذا دولة بني أمية بالاندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بانفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بالقاب الملك ولبسوا شارته وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره لان الاندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره واستمر لهم ذلك كما قال ابن شرف

مما يزهدني في ارض اندلس * أسماء معتصم فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها * كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الاندلس من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن أبي عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبد كل واحد منها بجانب من الاندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى جاز اليهم البحر المرابطون أهل العصبية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم فبهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول باطلاق هم الجند أهل العطاء المفروض مع الاهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها وانما هو مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لاهله فالرجل انما ادرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم الى المستخدمين من ورائهم بالاجر على المدافعة فانه انما ادرك دول الطوائف وذلك عند اختلال دولة بني امية وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره وكان في ايالة المستعين ابن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير الا سلطانا مستبدا بالملك عن عشائره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينازع فيه ويستعين على امره بالاجراء من المرتزقة فأطلق الطرطوشي القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الامر منذ أول الدولة وأنه لا يتم الا لاهل العصبية فتفطن انت له وافهم سر الله فيه والله يؤتي ملكه من يشاء

٣ * (فصل في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية) *

وذلك انه اذا كان لعصبية غلب كثير على الامم والاجيال وفي نفوس القائمين بامره من أهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتملوا عليه وقاموا بامره وظاهروه على شأنه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله الامر من يد أعياصه وجزاءه لهم على مظاهرته باصطفائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليما لعصبيته وانقيادا لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة ايمانية

ثلاثين بقرة فتاب الملك وعاهد ربه لا يعدل ما بقيت * ومن المشهور في أرض المغرب أن السلطان بلغه ان امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وان قصبة منها تعصر قدحا فعزم على أخذها منها ثم اتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم انها عصرت قصبة فلم تبلغ نصف قدح فقال لها أين الذي كان يقال فقالت هو الذي بلغك الا ان يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت بركتها فتاب السلطان وأخلص لله نيته ان لا يأخذها أبدا ثم أمرها فعصرت فجاء ملء القدح * وحدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الاخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمرا ولم يكن في الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل في ذلك العام شيأ ولا تمرة واحدة (قال) شيخنا رحمه الله قال لي شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة في الغربية تجني عشرة أرادب سنين وبيعه وكان صاحبها يبيعها في سنين الغلاء كل ويبة بدينار (قال) الشيخ رضي الله عنه وشهدت انا بالاسكندرية والصيد في الخليج مطلق للرعية والسمك فيه يغلي الماء به كثرة ويصيده الاطفال بالخرق ثم حجره الوالي ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يرى فيه الا الواحدة الى يومنا هذا وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ان خيرا فخير وان شرا فشر (وروى) أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا كان الناس اذا أصبحوا في زمان الحجاج يتلاقون يتساءلون من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وأمثال ذلك وكان الوليد صاحب ضياع

واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه من البنيان والصانع والضياع وشق الانهار وغرس الاشجار ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يتحدثون فى الاطعمة الدقيقة ويتوسعون فى الانكحة والسرارى ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ولما ولى عمر بن عبد العزيز كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك فى كل ليلة وكم يحفظ فلان ومتى يختم وكم تصوم من الشهر وامثال ذلك

(الباب السادس فى ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح)

اعلموا ارشدكم الله ان السلطان خطره عظيم وبليته عامة وقد تطرقه من الآفات ويحتوشه من الامور المهلكات ما يجب على كل ذى لب ان يستعيذ بالله مما جاءه ويشكره على ما عصمه لا تهدأ افكره ولا تسكن خواطره ولا يصفو قلبه ولا يستقر لبه الخلق فى شغل عنه وهو مشغول بهم والرجل يخاف عدوا واحدا وهو يخاف ألف عدو والرجل يضيق بتدبير أهل بيته واثالة ضيعته وتقدير معيشته وهو مدفوع لسياسة جميع أهل مملكته وكلما رتق فتقا من حواشى مملكته انفتق آخر وكلما رم منها شعثا رث آخر وكلما قمع عدوا أرصد له أعداء

استقرت فى الاذعان لهم فلو رامو هامعه أو دونه لزلزلت الارض زلزالها وهذا كما وقع للادارسة بالمغرب الاقصى والعبيديين بافريقية ومصر لما انتبذ الطالبيون من المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا الى طلبها من ايدى بنى العباس بعد أن استحكمت الصبغة لبنى عبد مناف لبنى امية اولا ثم لبنى هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقام بامرهم البرابرة مرة بعد أخرى فأوربة ومغيلة للادارسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديين فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم امرهم واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم افريقية ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين يمتد الى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم فى الممالك الاسلامية شق الابلمة وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيديين أمرهم مذعنون لملكهم وانما كانوا يتنافسون فى الرتبة عندهم خاصة تسليما لما حصل من صبغة الملك لبنى هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الامم فلم يزل الملك فى أعقابهم الى أن انقرضت دولة العرب باسرها والله يحكم لا معقب لحكمه

٤ *(فصل فى أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة أو دعوة حق)*

وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب والتغلب انما يكون بالعصبية واتفاق الاهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها انما يكون بمعونة من الله فى اقامة دينه قال تعالى لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم وسره ان القلوب اذا تداعت الى اهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة كما نبين لك بعد ان شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لا رب سواه

٥ *(فصل فى ان الدعوة الدينية تزيد الدولة فى أصلها قوة على قوة العصبية التى كانت لها من عدد)*

السبب فى ذلك كما قدمناه ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار فى أمرهم لم يقف لهم شئ لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه وأهل الدولة التى هم طالبوها وان كانوا أضعافهم فاغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام فى الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفا فى كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفا بالقادسية وجموع هرقل على ما قاله الواقدى أربعمائة ألف فلم يقف للعرب احد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم واعتبر ذلك أيضا فى دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم فى العدد والعصبية او يشف عليهم الا ان الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شئ واعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها او الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها واشد بداوة واعتبر هذا فى الموحدين مع زناتة لما كانت زناتة أبدى من المصامدة وأشد توحشا وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدى فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها فغلبوا على زناتة اولا واستتبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم

الى سائر ما يعانيه من اخلاق الناس ويقاسيه من خصومانه ونصب الولاة والقضاة وبعث الجيوش وسد الثغور واستيفاء الاموال ودفع المظالم ثم من العجب العجاب ان له نفسا واحدة وانه بر زامن الدنيا قوتها كما بر زآحاد الرعايا ثم يسأل غدا عن

عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه منهم والله غالب على امره

٦ *(فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)*

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم اولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف ثار بالاندلس داعيا الى الحق وسمي أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي فاستتب له الامر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بحصن اركش وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين ومن هذا الباب احوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون الى القيام على أهل الجور من الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر اتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه انما أجرى الامور على مستقر العادة والله حكيم عليم فاذا ذهب احد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما ان كان من الملبسين بذلك في طلب الرياسة فأجدر ان تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لانه أمر الله لا يتم الا برضاه واعانته والاخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لعلي بن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع ابراهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الاسواق واستعدى اهلها الحكام فلم يعدوهم فتوافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل اهل الزعارة فغلبهم واطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد اهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الانصاري ويكنى ابا حاتم وعلق مصحفا في عنقه ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لاولئك الشطار وقال له خالد الدريوس انا لا أعيب على السلطان فقال له سهل لكني اقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة احدى ومائتين وجهز له ابراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وانحل

[Margin text]

جميعهم ولا يسألون عنه فبالله ويا للعجب من رجل رضي ان ينال رغيفا ويحاسب منها على آلاف آلاف رغيف ويأكل في معي واحد ويحاسب على آلاف آلاف معي ويستمتع بنفس واحدة ويحاسب على آلاف آلاف من الانفس وعلى هذا النمط في جميع احواله يحمل أثقالهم ويريح أسرارهم ويجاهد عدوهم ويسد ثغورهم ويدافع مناويهم ومناصبهم ويعصي ربه فيهم ويخالف أمره ويركب نهيه من أجلهم ويقتحم جرائم جورهم على بصيرة فيهم ثم تجدهم له قالين وعنه غير راضين ولولا ان الله تعالى يحول بين المرء وقلبه لم يرض عاقل بهذه منزلة ولا اختارها لبيب مرتبة وكل ما ذكرته في هذا الباب أحكمه النبي عليه السلام في كلمة فقال مالكم ولامرائي لكم صفو أمرهم وعليهم كدره ومثال السلطان مع الرعية كالطباخ مع الاكلة له العناء ولهم الهناء وله الحار ولهم القار طالب لقومه الراحة فحصل على التعب وطالب لهم النعيم فاخطأ الصراط المستقيم وعن هذا قالوا سيد القوم أشقاهم وفي الحديث ساقي القوم آخرهم شربا وكان بعض سلاطين المغرب يسير يوما وبين يديه الوزراء اذ نظر الى جماعة من التجار فقال لوزيره اتحب ان أريك ثلاث طوائف طائفة لهم الدنيا والآخرة وطائفة لا دنيا ولا آخرة وطائفة دنيا بلا آخرة قال وكيف ذلك أيها الملك فقال الذين لهم الدنيا والآخرة فهؤلاء التجار يكسبون أقواتهم ويصلون صلاتهم ولا يؤذون أحدا وأما الذين لا دنيا ولا آخرة فهؤلاء الشرط والخدمة الذين بين أيدينا وأما الذين لهم دنيا بلا آخرة فانا وأنت وسائر السلاطين

أمره سريعا وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم باقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون اليه فى اقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم والذى يحتاج اليه فى أمر هؤلاء اما المداواة ان كانوا من أهل الجنون واما التنكيل بالقتل او الضرب ان أحدثوا هرجا واما اذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفاعين وقد ينتسب بعضهم الى الفاطمى المنتظر اما بأنه هو او بأنه داع له وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمى ولا ما هو وأكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين او ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رياسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل اليها بشئ من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الاسباب البالغة بهم الى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لاول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التويذرى عمد الى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم أنه الفاطمى المنتظر تلبيسا على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وان من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشى رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدس اليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوى من قتله فى فراشه وكذلك خرج فى غمارة أيضا لاول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الارذلون من سفهاء تلك القبائل وغمارهم وزحف الى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لاربعين يوما من ظهور دعوته ومضى فى الهالكين الاولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية فى مثلها وأما ان كان التلبيس فأحرى أن لا يتم له امر وان يبوء باثمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه

٧ *(فصل فى أن كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها)*

والسبب فى ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لابد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التى تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وامضاء احكام الدولة فيها من جباية وزدع وغير ذلك فاذا توزعت العصائب كلهم على الثغور والممالك فلابد من نفاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون ثغرا للدولة وتخما لوطنها ونطاقا لمركز ملكها فان تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقى دون حامية وكان موضعا لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها فى توزيع الحصص على الثغور والنواحى بقى فى الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها الى غايته والعلة الطبيعية فى ذلك هى قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية وكل قوة يصدر عنها فعل من الافعال فشأنها ذلك فى فعلها والدولة فى مركزها اشد مما يكون فى الطرف والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذى هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شأن الاشعة والانوار اذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه ثم اذا أدركها الهرم والضعف فانما تأخذ فى التناقص من جهة الاطراف ولا يزال المركز محفوظا الى أن يأذن الله بانقراض الامر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز واذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الاطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها فان المركز كالقلب الذى تنبعث منه الروح فاذا غلب القلب وملك انهزم جميع الاطراف وانظر هذا فى الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس اجمع ولم ينفع يزدجرد ما بقى بيده من اطراف ممالكه وبالعكس من ذلك

الدولة

فحق على جميع الورى أن يمدوا السلطان بالنصائح ويخصوه بالدعوات ويعينوه على سائر المحاولات ويكونوا له أعينا ناظرة وأيديا باطشة وجننا واقية والسنة ناطقة وقوادم تنهضه وقوائم تقله وهيهات منه السلامة وأنى له بالسلامة وعن هذا قال بعض السلاطين يوما لاصحابه اعلموا ان السلطان والجنة لا يجتمعان (قال) شيخنا رحمه الله وحدثنى رجل له قدر قال أرسل الى السلطان ان طلق امرأتك وكان قد أرادها لبعض أصحابه فأبيت ذلك وراجعت الرسل غير مرة فقال لى ناصح منهم خذ الامر بلا فانه لا حيلة لك فان السلطان لا يخاف فى الدنيا عارا ولا فى الآخرة نارا ففارقتها (وروى) عن عبد الملك ابن مروان انه لما ولى الخلافة أخذ المصحف فوضعه فى حجره ثم قال هذا فراق بينى وبينك ولما حج هرون الرشيد لقيه عبد الله العمرى فى الطواف فقال له يا هرون فقال لبيك يا عم قال كم ترى ههنا من الخلائق قال لا يحصيهم الا الله فقال اعلم أيها الرجل ان كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه وأنت واحد تسأل عنهم كلهم فانظر كيف تكون فبكى هرون وجلس فجعلوا يعطونه منديلا منديلا للدموع ثم قال له والله ان الرجل ليسرع فى مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف بمن أسرع فى مال المسلمين ويقال ان هرون كان يقول والله انى أحب ان أحج كل سنة وما يمنعنى الا رجل من ولد عمر يسمعنى ما أكره وقال مالك بن دينار قرأت فى بعض الكتب القديمة يقول الله تعالى من أحمق من السلطان ومن أجهل ممن عصانى

ومن أعز من اعتز بي يا راعي السوء دفعت اليك غنما سمانا صحاحا فأكلت اللحم وشربت اللبن وائتدمت بالسمن ولبست الصوف وتركتها عظاما تتقعقع ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم لها منك

الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تحيزوا الى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم فلم يزل ملكهم متصلا بها الى أن تأذن الله بانقراضه وانظر أيضا شأن العرب أول الاسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لاسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك الى ما وراءه من السند والحبشة وافريقية والمغرب ثم الى الاندلس فلما تفرقوا حصصا على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم في تلك التوزيعات اقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى امر الاسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

٨ *(فصل في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة)*

والسبب في ذلك ان الملك انما يكون بالعصبية واهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها فما كان من الدولة العامة قبيلها واهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا وكان ملكها اوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل الى من أسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجهوا لطلب ما في أيدي الامم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم والترك بالمشرق والافرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الاقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم لما كان قبيل كتامة القائمين بدولة العبيديين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم فملكوا افريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناتة بني مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لاول ملكهم أكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم اقوى منها وأوسع نطاقا وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى يقال ان عدد بني مرين لاول ملكهم كان ثلاثة آلاف وان بني عبد الواد كانوا ألفا الا أن الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة في اعداد المتغلبين لاول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها وأما طول امدها أيضا فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدول انما هو بالعصبية فاذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعا لها وكان امد العمر طويلا والعصبية انما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك أن النقص انما يبدو في الدولة من الاطراف فاذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدها طويلا وانظر ذلك في دولة العرب الاسلامية كيف كان أمدها أطول الدول لا بنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالاندلس ولم ينتقص أمر جميعهم الا بعد الاربعمائة من الهجرة ودولة العبيديين كان أمدها قريبا من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معز الدولة امر افريقية لبلكين بن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة الى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسمائة ودولة

(الباب السابع في بيان الحكمة في كون السلطان في الارض)

اعلموا أرشدكم الله ان في وجود السلطان في الارض حكمة لله تعالى عظيمة ونعمة على العباد جزيلة لان الله سبحانه جبل الخلق على حب الانتصاف وعدم الانصاف ومثلهم بلا سلطان مثل الحيتان في البحر يزدرد الكبير الصغير فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ولم يستقم لهم معاش ولم يهنؤا بالحياة ولهذا قال بعض القدماء لو رفع السلطان من الارض ما كان لله في أهل الارض من حاجة ومن الحكم التي في اقامة السلطان انه من حجج الله تعالى على وجوده سبحانه ومن علاماته على توحيده لانه كما لا يمكن استقامة أمور العالم واعتداله بغير مدبر ينفرد بتدبيره كذلك لا يتوهم وجوده وترتيبه وما فيه من الحكمة ودقائق الصنعة بغير خالق خلقه وعالم اتقنه وحكيم دبره وكما لا يستقيم سلطانان في بلد واحد لا يستقيم الهان للعالم والعالم باسره في سلطان الله تعالى كالبلد الواحد في يد سلطان الارض ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه امران جليلان لا يصلح احدهما بالتفرد ولا يصلح الآخر بالمشاركة وهما الملك والرأي فكما لا يستقيم الملك بالشركة لا يستقيم الرأي بالانفراد ونحوه مثال السلطان القاهر لرعيته والرعية بلا سلطان مثال بيت فيه سراج منير

الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهكذا نسب الدول في أعمارها على نسبة القائمين بها سنة الله التي قد خلت في عباده

9 * (فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة) *

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء وأن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وإن كانت ذات عصبية لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بإفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي سرح عليهم وعلى الإفرنجة شيئا وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى وعظم الإثخان من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة قال ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن إفريقية مفرقة لقلوب أهلها إشارة إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام إنما كانت حاميتها من فارس والروم والكافة دهماء أهل مدن وأمصار فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم ويونان والعمالقة وأكريش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب على أمره وبعكس هذا أيضا الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعا لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد إذ هي خلو من القبائل والعصبيات كأن لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصائب إنما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحدا بعد واحد وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء ببغداد وكذا شأن الأندلس لهذا العهد فإن عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرات إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتهم عليهم وأشربت القلوب بغضاهم وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيرا من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملك الحضرة مراكش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالأمر بالأندلس

وحوله قيام من الخلق يعالجون صناعتهم فبينما هم كذلك طفئ السراج فقبضوا أيديهم للوقت وتعطل جميع ما كانوا فيه فتحرك الحيوان الشرير وخشخش الهامّ الخسيس (98) فدبت العقرب من مكمنها وفسقت الفارة من جحرها وخرجت الحية من معدنها وجاء اللص بحيلته وهاج البرغوث مع حقارته فتعطلت المنافع واستطارت فيهم المضار كذلك إذا كان قاهرا لرعيته كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء في أهلها محقونة والحرم في خدورهن مصونة والأسواق عامرة والأموال محروسة والحيوان الفاضل ظاهر والمرافق حاصلة والحيوان الشرير من أهل الفسوق والدعارة خامل وإذا اختل أمر السلطان دخل الفساد على الجميع ولو جعل ظلم الناس حولا في كفة كان هرج ساعة أعظم وأرجح من ظلم السلطان حولا وكيف لا وفي زوال السلطان أو ضعف شوكته سوق أهل الشر ومكسب الأجناد ونفاق أهل العيارة والسوقة واللصوص والمناهبة وقال الفضيل جور ستين سنة خير من هرج ساعة ولا يتمنى زوال السلطان إلا جاهل مغرور وفاسق يتمنى كل محذور فحقيق على كل رعية أن ترغب إلى الله تعالى في إصلاح السلطان وأن تبذل له نصحه وتخصه بصالح دعائها فإن في صلاحه صلاح العباد والبلاد وفي فساده فساد العباد والبلاد وكان العلماء يقولون إذا استقامت لكم أمور السلطان فأكثروا حمد الله تعالى ثم وشكره وإن جاءكم منه ما تكرهون وجهوه إلى ما تستوجبونه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم وأقيموا عذر السلطان لانتشار الأمور عليه

ثم سما ابن الاحمر للامر وخالف ابن هود فى دعوته فدعا هؤلاء لابن ابى حفص صاحب افريقية من الموحدين وقام بالامر وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لاكثر منهم لقلة العصائب بالاندلس وانها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز اليه البحر من اعياص زناتة فصاروا معه عصبة على المثاغرة والرباط ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناتة امل فى الاستيلاء على الاندلس فصار اولئك الاعياص عصابة ابن الاحمر على الامتناع منه الى ان تأثل امره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة الا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة فان قطر الاندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغنى عن كثرة العصبية فى التغلب عليهم والله غنى عن العالمين

١٠ *(فصل فى ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)*

وذلك ان الملك كما قدمناه انما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الاخرى كلها فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا فى ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره ان العصبية العامة للقبيل هى مثل المزاج للمتكون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبين فى موضعه ان العناصر اذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لابد ان تكون واحدة منها هى الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهى موجودة فى ضمنها وتلك العصبية الكبرى انما تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم ولابد ان يكون واحد منهم رئيسا لهم غالبا عليهم فيتعين رئيسا للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها واذا تعين له ذلك من الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والانفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة فى استتباعهم والتحكم فيهم ويجىء خلق التأله الذى فى طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فتجدع حينئذ أنوف العصبيات ويفلج شكائمهم عن ان يسموا الى مشاركته فى التحكم وتقرع عصبيتهم عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم فى الامر لا ناقة ولا جملا فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته وقد يتم ذلك للاول من ملوك الدولة وقد لا يتم الا للثانى والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها الا انه أمر لابد منه فى الدول سنة الله التى قد خلت فى عباده والله تعالى أعلم

١١ *(فصل فى ان من طبيعة الملك الترف)*

وذلك ان الامة اذا تغلبت وملكت ما بايدى أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ويذهبون الى اتباع من قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية فى تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون فى ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الامم فى أكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفاره ويناغى خلفهم فى ذلك سلفهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه الى ان يبلغوا من ذلك الغاية التى للدولة ان تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها سنة الله فى خلقه والله تعالى أعلم

١٢ *(فصل فى ان من طبيعة الملك الدعة والسكون)*

وذلك ان الامة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى

وكثرة ما يكابده من ضبط جوانب المملكة واستئلاف الاعداء وارضاء الاولياء وقلة الناصح وكثرة التدليس والطمع وفى كتاب التاج هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار وألباب الملوك مشغولة بكل شئ وألباب السوقة مشغولة بيسير شئ والجاهل منهم يعذر نفسه مع ما هو عليه من الراحة ولا يعذر سلطانه مع شدة ما هو عليه من المؤنة ومن هنالك يعز الله سلطانه ويرشده وينصره وعن هذا قالت حكماء العجم لا تستوطنن البلدا فيه سلطان قاهر وقاض عادل وسوق قائمة وطبيب عالم ونهر جار

(الباب الثامن فى منافع السلطان ومضاره)

(قال) حكماء العرب والعجم مثل مضار السلطان فى جنب منافعه مثل الغيث الذى هو سقيا الله تعالى وبركات السماء وحياة الارض ومن عليها وقد يتأذى به المسافر ويتداعى له البنيان وتكون فيه الصواعق وتدرس سيوله فتهلك الناس والدواب والذخائر ويموج له البحر فتشتد بليته على اهله ولا يمنع ذلك الخلق اذا نظروا الى آثار رحمة الله تعالى فى الارض التى أحيا والنبات الذى أخرج والرزق الذى بسط والرحمة التى نشر ان يعظموا رحمة ربهم ويشكروها ويلغوا ذكر خواص الاذية التى دخلت على خواص الخلق (ومثاله) أيضا مثل الرياح التى يرسلها الله تعالى نشرا بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحا للثمرات وارواحا للعباد يتنسمون منها ويتقلبون فيها وتجرى بها مياههم وتقد بها نيرانهم وتسير بها فى البحر افلاكهم وقد تضر بكثير من الناس فى برهم وبحرهم وتخلص الى أنفسهم فيشكرها الشاكرون

السعي اليها (قال الشاعر)

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فاذا حصل الملك اقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون باحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في احوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى أن يتأذن الله بامره وهو خير الحاكمين والله تعالى اعلم

١٣ *(فصل في انه اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم)*

وبيانه من وجوه * الاول انها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا كانت هممهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة أسوة في طموحها وقوة شكائمها ومرماهم الى العز جميع وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم وكبح من أعنتهم واستأثر بالاموال دونهم فتكاسلوا عن الغزو وفشل ريحهم ورئموا المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء أجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواه وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضدا من الشوكة وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب البأس من أهلها * الوجه الثاني ان طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة الى ان يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن اقامة أحوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وأيضا اذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصرا عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان الى الزيادة في اعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم والجباية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص وان زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا فاذا وزعت الجباية على الاعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورابعا الى أن يعود العسكر الى أقل الاعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول او من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته وأيضا فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادي العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم الى أن يقضى عليها * الوجه الثالث ان طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه واذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا

وقد يتأذى بها كثير من الناس ولا يزيلها ذلك عن منزلتها من قوام عبادته وتمام نعمته (ومثاله) أيضا مثال الشتاء والصيف اللذين جعل الله حرهما او بردهما صلاحا للحرث والنسل ونتاجا للحب والثمر يجمعهما البرد باذن الله ويخرجهما الحر باذن الله فينضج على اعتدال الى غير ذلك من منافعهما وقد يكون الاذى في حرهما وبردهما وسمومهما وزمهريرهما وهما مع ذلك لا ينسبان الى الصلاح والخير وقد غمر صلاحهما أذيتهما (ومثاله) أيضا مثل الليل الذي جعله الله تعالى سكنا ولباسا ونوما وراحة وسباتا وقد يستوحش له اخو الفقر ويسارع فيه أهل الدعارة والفساد واللصوص وتعدو فيه السباع وتنتشر فيه الهوام وذوات الحمة والسموم القاتلة ثم لا ينسى العباد نعم الله تعالى عليهم به ولا يرزأ صغير ضرره بكبير نفعه (ومثاله) أيضا مثال النهار الذي جعله الله ضياء ونورا ونشورا واكتسابا وانتشارا وقد تكون فيه الحروب والغارات والتعب والنصب والشخوص والخصومات فتستريح الخلق منه الى الليل ثم لم ينس العباد نعمة الله عليهم فيه وهكذا كل جسيم من أمور الدنيا يكون ضرره خاصا ونفعه عاما فهو نعمة عامة وكل شئ يكون نفعه خاصا فهو بلاء عام ولو كانت نعم الدنيا صفوا من غير كدر وميسورها من غير معسور لكانت الدنيا هي الجنة التي لا تعب فيها وخلقا ولا نصب (وقد قال الشاعر) لا ترج شيأ خالصا نفعه * فالغيث لا يخلو من العيب * (الباب التاسع في بيان منزلة السلطان من الرعية)*

وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وايلافها فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر الا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيأ فشيأ وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية أخرى ان كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غير ريبة وربما يحدث في الدولة اذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بامره وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق فان غالب جندها الموالي من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين اليهم فرسانا وجندا فيكونون أجرأ على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله وكذلك في دولة الموحدين بافريقية فان صاحبها كثيرا ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك اهل الدولة المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمرا آخر سالما من الهرم والله وارث الارض ومن عليها

١٤ *(فصل في ان الدولة لها أعمار طبيعية كما للاشخاص)*

اعلم ان العمر الطبيعي للاشخاص على ما زعم الاطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون أعمار بعض اهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين او ثمانين او سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها واعمار هذه الملة ما بين الستين الى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون الا في الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود واما اعمار الدول أيضا وان كانت تختلف بحسب القرانات الا ان الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين الذي هو انتهاء النمو والنشو الى غايته قال تعالى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني اسرائيل وان المقصود بالاربعين فيه فناء الجيل الاحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الاربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وانما قلنا ان عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال لان الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما

اعلموا ان منزلة السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد فاذا صفت الروح من الكدر سرت الى الجوارح سليمة وسرت في جميع اجزاء الجسد فأمن الجسد من الغير فاستقامت الجوارح والحواس وانتظم امر الجسد وان تكدرت الروح وفسد مزاجها فيا ويح الجسد فتسري الى الحواس والجوارح كدرة وهي منحرفة عن الاعتدال فأخذ كل عضو وحاسة بقسطه من الفساد فرضت الجوارح وتعطلت فتعطل نظام الجسد وجر الى الفساد والهلاك (ومثال) السلطان أيضا مثال النار ومثال الخلق مثال الخشب فما كان منها معتدلا لم يحتج الى النار وما كان منها متأودا احتاج الى النار ليقام أوده فيعتدل عوجه فان أفرطت النار احترق الخشب قبل ان يستقيم أوده وان قصرت النار لم يلن الخشب لقبول الاعتدال فيبقى متأودا واذا كانت النار معتدلة اعتدل الخشب كذلك السلطان في أطواره ان أفرط اهلك الخلق وان فرط لم يستقيموا وان اعتدل اعتدلوا (ومثاله) أيضا مثال عين خرارة في أرض خوارة فان حلا مشربه وعذب طعمه وسلمت من الكدر والفساد أوصافه اختلج في الارض فابتلعته صافيا صرفا ثم شربته عروق الاشجار فاغتذت به كذلك فغلظت سوقها وفرعت أغصانها وامتدت افنانها ثم أخرجت أوراقها وأبرزت أزهارها ثم قذفت ثمارها فجاءت على اتم طبيعتها كبرا وطعما ولونا ورائحة فتقوت بها العباد وأكلت حظوظها البهائم والحشرات وسقط عليها الطير فأحرز كل منها قوته واستقام النظام وان كان في حواشي الارض ما يدق عن الانبات والنفع ويكدي عن

أدركوا الجيل الاول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد ومراميهم فى المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه ماذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الاحوال التى كانت للجيل الاول او على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنكوه من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس فى الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها وهم فى الاكثر أجبن من النسوان على ظهورها فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من اهل النجدة ويستكثر بالموالى ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلقها ولهذا كان انقراض الحسب فى الجيل الرابع كما مر فى ان المجد والحسب انما هو فى أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعى كاف ظاهر مبنى على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمله فلن تعدو وجه الحق ان كنت من اهل الانصاف وهذه الاجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدو الدول فى الغالب هذا العمر بتقريب قبله او بعده الا ان عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع ولهذا يجرى على ألسنة الناس فى المشهور أن عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصحح لك عدد الآباء فى عمود النسب الذى تريده من قبل معرفة السنين الماضية اذا كنت قد استربت فى عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء فان نفدت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح وان نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد فى عمود النسب وان زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم اذا كان محصلا لديك فتأمله تجده فى الغالب صحيحا والله يقدر الليل والنهار

١٥ *(فصل فى انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة)*

اعلم ان هذه الاطوار طبيعية للدول فان الغلب الذى يكون به الملك انما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس ولا يكون ذلك غالبا الا مع البداوة فطور الدولة من أولها بداوة ثم اذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الاحوال والحضارة انما هى تفنن فى الترف وأحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والابنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع فى استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم باحوال الترف وما تتلون به من العوائد فصار طور الحضارة فى الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك وأهل الدول ابدا يقلدون فى طور الحضارة واحوالها للدولة السابقة قبلهم فاحوالهم يشاهدون ومنهم فى الغالب يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وابناءهم ولم يكونوا لذلك العهد فى شئ من الحضارة فقد حكى انه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم ملحا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك

الزكاة والريع او كان فيها من الشجرة ما يبرز جله ويقل ريعه اعطى كل ذلك الغاية من نفسه وأطلع ما فى قواه ولم يغادر ممكنا الاوفاه وان كان فى العين كدرا وفسادا وملح شربتها الاشجار كذلك ففسد مزاجها واضر الجزء الفاسد بالطيب فرقت سوقها وضعفت أغصانها وتغيرت أوراقها وقلت ازهارها وثمارها ودخل الفساد على جميع ذلك فجاءت الثمرة وهى نزرة قدرها ردىء طعمها كاسف لونها فدخل بذلك من النقص على جميع الحيوان مثل ما دخل عليهم فى الاولى ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ان الحشرات لتموت فى أجحرتها هزلا بذنب ابن آدم يعنى اذا كثرت المعاصى فى الارض حبست السماء غياثها ومنعت الارض نباتها فهلك الهوام والحشرات والدواب

(الباب العاشر فى بيان معرفة خصال ورد الشرع بها فيها انتظام الملك والدول)

وهى ثلاثة اللين وترك الفظاظة والمشاورة وأن لا يستعمل على الاعمال والولايات راغب فيها ولا طالب لها ولما علم الله تعالى ما فيها من انتظام امر الملة واستقامة الامر نص عليها الله سبحانه ورسوله اعلم ان هذه الخصال من أساس الممالك وقل من يعمل بها من الملوك اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قالها الرسول صلى الله عليه وسلم اما الالهية فقال الله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر وفى الآية اشارتان احداهما ان الفظاظة تنفر الاصحاب والجلساء وتفرق الجموع والحشم وانما الملك والقومة

والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في احواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوّروا بطور الحضارة والترف في الاحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي وكذلك احوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الاعراس فاتوا من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في اعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها الى داره بفم الصلح وركب اليها في السفين وما أنفق في املاكها وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها تقف من ذلك على العجب فمنه ان الحسن بن سهل نثر يوم الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنثر على الطبقة الاولى منهم بنادق المسك ملتوتة على الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أداه اليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد أن انفق في مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه ان المأمون اعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان (١) وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت وقال المأمون حين رآه قاتل الله أبا نواس كانه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر

كأن صغرى وكبرى من فواقعها * حصباء در على ارض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلا مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفني الحطب لليلتين واوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت وارسل الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات (٢) المعدة لذلك ثلاثين الفا أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن ذى النون بطليطلة نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن حيان بعد أن كانوا كلهم في الطور الاول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان اسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم يذكر ان الحجاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال اخبرني باعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الامير شهدت بعض مرازبة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعا أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة أربعا على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فاذا طعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها فقال الحجاج يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس وعلم انه لا يستقل بهذه الابهة وكذلك كان * ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فانما كان أكثرها الابل أخذا بمذاهب العرب وبداوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدهم ما علمت من احمال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الاغالبة بافريقية وكذا بني طغج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالاندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جرا تنتقل الحضارة من الدول السالفة الى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى السلجوقية ثم الى الترك ثم الى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين وعلى قدر

(١) قوله وثلثان الذي في كتب اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية الثلثان اه

(٢) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو اه مختار

ملك بجلسائه وأصحابه وحشمه واتباعه واخلاق بخصلة تنفر الاولياء وتطمع الاعداء فقمن بكل سلطان رفضها والاحتراز من سوء مغبتها ولتكن كما قال الله تعالى واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * وروى أن النبي (١٠٣) صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه فجاء رجل فقال أيكم ابن عبد المطلب فقالوا هذا الابيض المتكئ فقال الرجل يا ابن عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد أجبتك دل الاثر على انه ما استأثر بشرف المجلس ولا فاتهم بزى ولا مقعد وقد يبلغ باللين ما لا يبلغ بالغلظة الا ترى أن الرياح تهون أصواتها فيتداخل لها الشجر وتنعطف الافنان والاغصان وفي الفرط تنكسر الاغصان والماء بلينه في أصول الشجر يقلعها من أصلها واذا كانت الحية مع صعوبتها وسمها وتغيبها في جحرها ترقى بالكلام حتى تستعطف فتخرج فالانسان أحرى ان يستمال بلين القول وحسن المنطق فاذا أردت ان تنتقم ممن يسيء اليك فكافئه بكل كلمة سوء قالها كلمة جميلة وحسن ثناء عليه والاشارة الثانية انه قال وشاورهم في الامر فاذا قيل لنا كيف يشاورهم وهو نبيهم وامامهم وواجب عليهم مشاورته وان لا يفصلوا أمرا دونه قلنا هذا أدب أدب الله تعالى نبيه عليه السلام به وجعله مأدبة لسائر الملوك والامراء والسلاطين لما علم الله تعالى ما في المشاورة من حسن الادب مع الجليس ومساهمته في الامور فان نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه وتميل اليه وتخضع قلوبهم بين يديه شرعة لنبيه عليه السلام ولذوي الامرة من أهل ملته صلى الله عليه وسلم الا ترى أن النبي عليه

السلام كان فى غزوة فأمرهم بالنزول فقال له سعد يا رسول الله ان كان هذا بامرك فسمع وطاعة وان كان غير ذلك فليس بمنزل فسمع منه النبى
عليه السلام وقال ارتحلوا ومن أقبح مايوصف به الرجال ملوكا كانوا أوسوقة الاستبداد بالرأى وترك المشاورة وسنعقد
للمشاورة بابا ان شاء الله تعالى

عظم الدولة يكون شأنها فى الحضارة اذ أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحا فى العمران والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٦ *(فصل فى ان الترف يزيد الدولة فى أولها قوة الى قوتها)*

والسبب فى ذلك ان القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضا من الموالى والصنائع وربيت أجيالهم فى جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا الى عددهم وقوة الى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد فاذا ذهب الجيل الاول والثانى وأخذت الدولة فى الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم فى تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شئ انما كانوا عيالا على أهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع فى الدولة العربية فى الاسلام كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفا أو ما يقاربها من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغه فى الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالى والصنائع بلغ ذلك العدد الى أضعافه يقال ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحها فى تسعمائة ألف ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحا اذا اعتبرت حاميتهم فى الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا الى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمصطنعين وقال المسعودى احصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للانفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفا بين ذكران واناث فانظر مبالغ هذا العدد لاقل من مائتى سنة واعلم ان سببه الرفه والنعيم الذى حصل للدولة وربى فيه أجيالهم والا فعدد العرب لاول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه والله الخلاق العليم

١٧ *(فصل فى أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الاطوار)*

(اعلم) ان الدولة تنتقل فى أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها فى كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله فى الطور الآخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذى هو فيه وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو فى الغالب خمسة أطوار الطور الاول طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدى الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة فى هذا الطور أسوة قومه فى اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشئ لان ذلك هو مقتضى العصبية التى وقع بها الغلب وهى لم تزل بعد بحالها الطور الثانى طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة فى هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالى والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له فى نسبه الضاربين فى الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدهم عن موارده ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا اليه حتى يقر الامر فى نصابه ويفرد أهل بيته بما يبنى من مجده فيعانى من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون فى طلب الامر أو أشد لان الاولين دافعوا الاجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم وهذا يدافع الاقارب لا يظاهره على مدافعتهم الا الاقل من الاباعد فيركب صعبا من الامر الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه فى الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها وتشييد المبانى الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة واجازة

والخصلة الثالثة ماروى البخارى ومسلم وغيرهما ان رجلا قال يا رسول الله استعملنى فقال النبى عليه السلام انا لا نستعمل على عملنا من أراده والسر فيه ان الولايات امانات وتصرف فى أرواح الخلائق وأموالهم والتسرع الى الامانة دليل على الخيانة وانما يخطبها من يريد أكلها واذا ائتمن خائن على موضع الامانات كان كاسترعاء الذئب على الغنم ومن هذه الخصلة تفسد قلوب الرعايا على ملوكها لانه اذا اهتضمت حقوقهم وأكلت أموالهم فسدت نياتهم وأطلقوا ألسنتهم بالدعاء والتشكى وذكروا ماثر الملوك بالعدل والاحسان فكانوا كالبيت السائر الذى انشدناه

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها
فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

فاذا خان أهل الامانات وفسد أهل الولايات كان الامر كما قال الاول

بالملح يصلح ما يخشى تغيره
فكيف بالملح ان حلت به الغير

(وقال آخر)

ذئب تراه مصليا * فاذا مررت به ركع * يدعو وجل دعائه * ما للفريسة ما تقع
عجل بها يا ذا العلا * ان الفؤاد قد انصدع * ومن أشراط الساعة التصدى للامانة وخطبة الولاية

الوفود

الوفود من اشراف الامم ووجوه القبائل و بث المعروف فى أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته فى احوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وادرار ارزاقهم وانصافهم فى اعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم فى ملابسهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهى بهم الدول المسالمة و يرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر اطوار الاستبداد من أصحاب الدولة لانهم فى هذه الاطوار كلها مستقلون بآرائهم بانون لعزهم موضحون الطرق لمن بعدهم الطور الرابع طور القنوع والمسالمة و يكون صاحب الدولة فى هذا قانعا بما بنى ولوه سلما لانظاره من الملوك واقتاله مقلدا للماضين من سلفه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل و يقتفى طرقهم باحسن مناهج الاقتداء و يرى ان فى الخروج عن تقليدهم فساد أمره وانهم ابصر بما بنوا من مجده الطور الخامس طور الاسراف والتبذير و يكون صاحب الدولة فى هذا الطور متلفا لما جمع أولوه فى سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفى مجالسه واصطناع اخدان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الامور التى لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسدا لكبار الاولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغنوا عليه و يتخاذلوا عن نصرته مضيعا من جنده بما انفق من اعطياتهم فى شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون وهادما لما كانوا يبنون وفى هذا الطور تحصل فى الدولة طبيعة الهرم و يستولى عليها المرض المزمن الذى لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء الى أن تنقرض كما نبينه فى الاحوال التى نسردها والله خير الوارثين

١٨ *(فصل فى ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى اصلها)*

والسبب فى ذلك ان الآثار انما تحدث عن القوة التى بها كانت اولا وعلى قدرها يكون الاثر فمن ذلك مبانى الدولة وهياكلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة الدولة فى اصلها لانها لا تتم الا بكثرة الفعلة واجتماع الايدى على العمل والتعاون فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جدا وحشروا من آفاق الدولة واقطارها فتم العمل على اعظم هياكله الا ترى الى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما وانظر بالمشاهدة ايوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى انه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاءد عنه وشرع فيه ثم ادركه العجز وقصة استشارته ليحيى بن خالد فى شأنه معروفة فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع اخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء فى السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بنى امية بقرطبة والقنطرة التى على واديها وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء الى قرطاجنة فى القناة الراكبة عليها وآثار شرشال بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف الدول فى القوة والضعف واعلم ان تلك الافعال للاقدمين انما كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الايدى عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ما تتوهمه العامة ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين عن أجسامنا فى اطرافها واقطارها فليس بين البشر فى ذلك كبير بون كما تجد بين الهياكل والآثار ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة فى ذلك اخبارا عريقة فى الكذب من اغربها ما يحكون عن عوج بن عناق (١) رجل من العمالقة الذين قاتلهم بنو اسرائيل فى الشام زعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر و يشويه الى الشمس و يزيدون الى جهلهم باحوال البشر الجهل باحوال

(١) قوله ابن عناق الذى فى القاموس فى باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على ألسنة الناس عنق بالنون اه

(و روى) عن النبى عليه السلام انه قال من أشراط الساعة ان تكون الزكاة مغرما والامانة مغنما فحينئذ يدعو عليه الضعيف وأهل الصلاح و يقعد له بالمراصد الشرير و يخامر عليه القوى و يقبح ثناؤه عند الجماعة ويتمنون الراحة منه و ينظرون من يصلح لها سواه

(الباب الحادى عشر فى بيان معرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ولا ثبات له دونها)

فاول الخصال واحقها بالرعاية العدل الذى هو قوام الملك ودوام الدول وأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو اصلاحية اعلم ارشدك الله ان الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه ان ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى فلو وسع الخلق العدل ما قرن الله به الاحسان فمن لم يصلح حتى يزاد على العدل كيف يصلح اذا لم يبلغ به العدل والعدل ميزان الله فى الارض الذى به يؤخذ للضعيف من القوى وللمحق من المبطل وليس موضع الميزان بين الرعية فقط بل بين السلطان والرعية أيضا فمن أزال ميزان الله الذى وضعه من القيام بالقسط فقد تعرض لسخط الله تعالى * واعلم أيها الوالى ان الملك بمنزلة رجل فرأسه أنت وقلبه وزيرك ويداه أعوانك و رجلاه

رعيتك وروحه عدلك وما بقاء جسد بلا روح واذا أردت ذروة العدل فاعلم ان الرعية ثلاثة أنفس كبير وصغير ووسط فاجعل كبيرهم أبا ووسطهم أخا وصغيرهم ابنا فبر أباك واكرم أخاك وارحم ابنك فانك واصل بذلك الى بر الله وكرامته ورحمته واعلم

ان عدل الملك يوجب الاجتماع عليه وجوره يوجب الافتراق عنه عدل الملك حياة رعيته وفي منثور الحكم سلطان جائر اربعين عاما خير من رعية مهملة ساعة واحدة

من النهار اذا عدل السلطان فيما قرب منه صلح له ما بعد عنه فضل الملوك في الاعطاء وشرفها في العفو وعزها في العدل عدة السلطان ثلاثة مشاورة النصحاء وثبات نيات الاعوان واقامة سوق العدل افضل الازمنة ازمنة ائمة العدل ثم العدل ينقسم قسمين قسم الهدى جاءت به الرسل والانبياء عليهم السلام عن الله تعالى والثاني ما يشبه العدل وهو السياسة الاصلاحية التي هرم عليها الكبير ونشأ عليها الصغير وبعيدا ان يبقى سلطان او تستقيم رعية في حال ايمان او كفر بلا عدل قائم ولا ترتيب للامور ثابت فذلك ما لا يجوز ولا يمكن وقد ذكرنا في اول الكتاب ان سليمان بن داود سلب ملكه حين جلس الخصمان بين يديه وكان لاحدهما خاصة بسليمان فقال في نفسه وددت ان يكون الحق لخاصتي فاقضي له فسلبه الله تعالى ملكه وقعد الشيطان على كرسيه فاجعل العدل راس سياستك فتسقط عنك جميع الآفات المفسدة للسياسة وتقوم لك جميع الشرائط التي تقوم بها المملكة قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه امام عادل خير من مطر وابل واسد حطوم خير من سلطان ظلوم وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم وقال ابن مسعود اذا كان الامام عادلا فله الاجر وعليك الشكر وان كان جائرا فعليه الوزر وعليك الصبر وقال سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك واتفق حكماء

الكواكب لما اعتقدوا ان للشمس حرارة وانها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون ان الحر هو الضوء وان الضوء فيما قرب من الارض اكثر لانعكاس الاشعة من سطح الارض بمقابلة الاضواء فتتضاعف الحرارة هنا لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارح الاشعة المنعكسة فلا حر هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب وان الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة وانما هو جسم بسيط مضيء لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالقة او من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني اسرائيل عند فتحهم الشام واطوال بني اسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا يشهد لذلك ابواب بيت المقدس فانها وان خربت وجددت لم تزل المحافظة على اشكالها ومقادير ابوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين اهل عصره بهذا المقدار وانما مثار غلطهم في هذا انهم استعظموا آثار الامم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام وشدتها بعظم هياكلها وليس الامر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما لا مستند له الا التحكم وهو ان الطبيعة التي هي جبلة للاجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الاعمار اطول والاجسام اقوى لكمال تلك الطبيعة فان طرو الموت انما هو بانحلال القوى الطبيعية فاذا كانت قوية كانت الاعمار ازيد فكان العالم في اولية نشأته تام الاعمار كامل الاجسام ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة الى ان بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص الى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له الا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الاولين وابوابهم وطرقهم فيما احدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتا صغارا وابوابها ضيقة وقد اشار صلى الله عليه وسلم الى انها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به واهرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين ان يصيبكم ما اصابهم وكذلك ارض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الارض شرقا وغربا والحق ما قررناه ومن آثار الدول ايضا حالها في الاعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون وقد مر ذلك كله ومن آثارها ايضا عطايا الدول وانها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو اشرفت على الهرم فان الهمم التي لاهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس والهمم لا تزال مصاحبة لهم الى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش كيف اعطاهم من ارطال الذهب والفضة والاعبد والوصائف عشرا عشرا ومن كرش العنبر واحدة واضعف ذلك بعشرة امثاله لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وانما حمله على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك في الارض والغلب على الامم في العراقين والهند والمغرب وكان الصنهاجيون بافريقية ايضا اذا اجازوا الوفد من امراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال احمالا والكساء تخوتا مملوءة والحملان جنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك اخبار كثيرة وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا اذا كسبوا معدما فانما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم او بعض يوم واخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان بالف حمل من المال ولا تنتهي اليوم دولة الى مثل هذا وكذلك وجد بخط احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغداد ايام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة * (غلات السواد) * سبعة وعشرون الف الف درهم مرتين

مرتين وثمانمائة الف درهم ومن الحلل النجرانية مائة حلة ومن طين الختم مائتان واربعون رطلا *(كنكر)* احدعشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة الف درهم *(كوردجلة)* عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم *(حلوان)* أربعة آلاف الف درهم مرتين وثمانمائة الف درهم *(الاهواز)* خمسة وعشرون الف درهم مرة ومن السكر ثلاثون الف رطل *(فارس)* سبعة وعشرون الف الف درهم ومن ماء الورد ثلاثون الف قارورة ومن الزيت الاسود عشرون الف رطل *(كرمان)* اربعة آلاف الف درهم مرتين ومائتا الف درهم ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون الف رطل *(مكران)* اربعمائة الف درهم مرة *(السندومايليه)* احدعشر الف الف درهم مرتين وخمسمائة الف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلا *(سجستان)* اربعة آلاف الف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفانيد عشرون رطلا *(خراسان)* ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن نقر الفضة ألفا نقرة ومن البراذين أربعة آلاف ومن الرقيق ألف رأس ومن المتاع عشرون ألف ثوب ومن الاهليلج ثلاثون ألف رطل *(جرجان)* اثناعشر ألف ألف درهم مرتين ومن الابريسم ألف شقة *(قومس)* ألف ألف مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة *(طبرستان والرويان ونهاوند)* ستة آلاف ألف مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبري ستمائة قطعة ومن الاكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل ثلثمائة ومن الجامات ثلثمائة *(الري)* اثناعشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون الف رطل *(همدان)* احدعشر الف ألف درهم مرتين وثلثمائة ألف ومن رب الرمانين ألف رطل ومن العسل اثناعشر ألف رطل (مابين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة الف درهم (ماسبذان والدينار)(١) اربعة آلاف الف درهم مرتين *(شهرزور)* ستة آلاف الف درهم مرتين وسبعمائة الف درهم *(الموصل وماإليها)* اربعة وعشرون الف الف درهم مرتين ومن العسل الابيض عشرون الف الف رطل *(اذربيجان)* اربعة آلاف الف درهم مرتين *(الجزيرة ومايليها من اعمال الفرات)* اربعة وثلاثون الف الف درهم مرتين ومن الرقيق الف راس ومن العسل اثناعشر الف زق(٢) ومن البزاة عشرة ومن الاكسية عشرون *(ارمينية)* ثلاثة عشر الف ألف درهم مرتين ومن القسط المحفور عشرون ومن الزقم خمسمائة وثلاثون رطلا ومن المسايح السورماهي عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون *(قنسرين)* أربعمائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل *(دمشق)* اربعمائة ألف دينار وعشرون الف دينار *(الاردن)* سبعة وتسعون الف دينار *(فلسطين)* ثلاثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة ألف رطل *(مصر)* ألف ألف دينار وتسعمائة الف دينار وعشرون الف دينار *(برقة)* ألف الف درهم مرتين *(افريقية)* ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون *(اليمن)* ثلثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع *(الحجاز)* ثلاثمائة ألف دينار انتهى واما الاندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول الى بيت المال في أيامه

(١) قوله والدينار الظاهر انها الدينور وفي الترجمة التركية ماسندان وربان اه

(٢) قوله ومن البزاة الخ في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه

العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا الملك بناء والجند أساسه فاذا قوى الاساس دام البناء وان ضعف الاساس انهار البناء فلا سلطان الا بجند ولا جند الا بمال ولا مال الا بجباية ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بعدل فصار العدل أساسا لسائر الاساسات فاما العدل النبوي فان يجمع السلطان الى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم الادلاء على الله تعالى والقائمون بامر الله والحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله وروى أبوهريرة ان النبي عليه السلام قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قالوا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فاتخذ أيها الملك العلماء شعارا والصالحين دثارا فتدور المملكة بين نصائح العلماء ودعوات الصلحاء وأخلق بملك يدور بين هاتين الخصلتين ان تقوم عمده ويطول أمده وكيف لا وقد فرقهم الله في سلطانه واصطفاهم بخالص معرفته فقال جل من قائل شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط فبدأ بنفسه وثنى بملائكته وثلث باولي العلم وهم ورثة الانبياء عليهم السلام الموفقون عن الله تعالى لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ففي تعظيمهم وتقريبهم امتثال لامر الله تعالى وتعظيم لمن أثنى الله عليه ويجب ترفيع مجالسهم وتمييز مواضعهم عمن سواهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وفيه استمالة قلوب الرعية وخلوص نياتهم لسلطانهم واجتماعهم على محبته فواجب على السلطان ان لا يقطع أمرا دونهم

سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا أمثال هذه الاخبار عن الدول السالفة بادر بالانكار وليس ذلك من الصواب فان أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لا نشك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة اليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمرانها فان آثارها كلها جارية على نسبة الاصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره فخذ من الاحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها او ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستطرفة وذلك انه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة (١) كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان ابي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند اذا خرج الى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه وامثال هذه الحكايات فتناجي الناس بتكذيبه ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال لي الوزير فارس اياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزيرا اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذي كان يتغذى به فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار وكذا في لحم الابل والبقر اذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات الا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس الفار وهذا كثيرا ما يعتري الناس في الاخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه اوسع شيء فلا يفرض حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فانا اذا نظرنا اصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم من نسبة ذلك على احواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل رب زدني علما وانت ارحم الراحمين والله سبحانه وتعالى اعلم

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها نحو ٧ كراريس اه

ولا يفصل حكما الا بمشاورتهم لانه في ملك الله يحكم وفي شريعته يتصرف وأقل الواجبات على السلطان ان ينزل نفسه مع الله بمنزلة ولاته معه أليس اذا خالف واليه أمره وما رسمه له من الاحكام عزله وعاقبه ولم يأمن سطوته واذا امتثل أوامره وازدجر عن زواجره حل منه محل الرضا فوا عجبا ان يغضب على واليه اذا خالفه ثم لا يخاف سطوة ربه عليه اذا خالفه فهذه طريق اقامة العدل الشرعي والسياسة الاسلامية الجامعة لوجوه المصلحة الآخذة لازمة التدبير السالمة من العيوب الممهدة لاستقامة الدنيا والدين وكما ان الملك الحازم لا يتم حزمه الا بمشاورة الوزراء والاخيار كذلك لا يتم عدله الا باستفتاء العلماء الابرار وقد وقع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة يا عمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها وفي اشاعة العدل قوة القلب وطيبة النفس ولزوم اليقين وأمان من العدو ولما استأذن الهرمزان على عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لم يجد عنده حاجبا ولا بوابا فقيل له هو في المسجد فأتى المسجد فوجده مستلقيا متوسدا كوما من الحصباء ودرته بين يديه فقال له عدلت فامنت فنمت وقال الحسن رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد جمع الحصباء في مسجد النبي عليه السلام عند رأسه وقد وضع أحد جانبي ردائه عليه وهو يومئذ أمير المؤمنين ما عنده أحد من الناس ودرته بين يديه وكتب عامل حمص الى عمر بن عبد العزيز ان مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت الى اصلاح فكتب اليه عمر حصنها بالعدل ونق طرقها من الجور

فصل

والسلام وقالت الحكماء من حرم العدل فلا خير فيه ولا للناس في سلطانه وقال يحيى بن أكثم ماشيت المأمون في بستان والشمس عن يساري
والمأمون في الظل فلما رجعنا وقعت الشمس أيضا على فقال لي المأمون تحول مكاني وأتحول مكانك حتى تكون في الظل

١٩ *(فصل في استظهار صاحب الدولة وقومه واهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)*

(اعلم) ان صاحب الدولة انما يتم امره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهراؤه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم من يقلد اعمال مملكته ووزارة دولته وجباية امواله لانهم اعوانه على الغلب وشركاؤه في الامر ومساهموه في سائر مهماته هذا ما دام الطور الاول للدولة كما قلناه فاذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح صاروا في حقيقة الامر من بعض اعدائه واحتاج في مدافعتهم عن الامر وصدهم عن المشاركة الى اولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون اقرب اليه من سائرهم واخص به قربا واصطناعا واولى ايثارا وجاها لما انهم يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الامر الذي كان لهم والرتبة التي الفوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ ويخصهم بمزيد التكرمة والايثار ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم جليل الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه من القاب المملكة لانهم حينئذ اولياؤه الاقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع في برئها من هذا الداء لانه ما مضى يتأكد في الاعقاب الى ان يذهب رسمها واعتبر ذلك في دولة بني امية كيف كانوا انما يستظهرون في حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن ابي وقاص وعبيد الله بن زياد بن ابي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن ابي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن ابي بردة بن ابي موسى الاشعري ونصر بن سيار وامثالهم من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها ايضا برجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل ابن نوبخت وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بغا ووصيف واتامش وباكناك وابن طولون وابنائهم وغير هؤلاء من موالي العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى اعلم

٢٠ *(فصل في احوال الموالي والمصطنعين في الدول)*

اعلم ان المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك ان المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة انما يتم بالنسب لاجل التناصر في ذوي الارحام والقربى والتخاذل في الاجانب والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تتنزل منزلة ذلك لان أمر النسب وان كان طبيعيا فانما هو وهمي والمعنى الذي كان به الالتحام انما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة واذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله في الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تتنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وان لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة فاذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها أوشج وعقائدها أصح ونسبها أصرح لوجهين أحدهما انهم قبل الملك اسوة في حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية الا عند الاقل منهم فيتنزلون منهم منزلة ذوي قراباتهم وأهل أرحامهم واذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة

كما كنت وأقبل الشمس كما وقيتني فان أول العدل ان يعدل الرجل على بطانته ثم الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى فعزم على فتحوات وكان يقال ليس شيء أبعد من بقاء ملك الغاصب وقيل للاسكندر لو أكثرت من النساء حتى يكثر نسلك ويحيا ذكرك فقال انما يحيي الذكر الافعال الجميلة والسيرة الحميدة ولا يحسن بمن يغلب الرجال ان تغلبه النساء وقال الحكيم من اتخذ العدل سنة كان له أحسن جنة ومن استشعر حلة العدل استكمل زينة الفضل وقال أبو عبيد بن عبد الله بن مسعود ان الامام العادل لتسكت الاصوات عن الله وان الامام الجائر لتكثر منه الشكاية الى الله تعالى وقال الحكيم لا يزال السلطان مهملا حتى يتخطى الى أركان العمارة ومباني الشريعة فحينئذ يريح الله منه وقالوا لا تظلم الضعفاء فتكون من شرار الاقوياء وقال بعض الحكماء أمير بلا عدل كغيم بلا مطر وعالم بلا ورع كأرض بلا نبات وشاب بلا توبة كشجر
بلا ثمر وغني بلا سخاء كقفل بلا مفتاح وفقير بلا صبر كسراج بلا ضوء وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح وقال كسرى اتفقت ملوك العجم على
أربع خصال ان الطعام لا يؤكل الا على شهوة والمرأة لا تنظر الا الى زوجها والملك لا يصلحه الا الطاعة والرعية لا يصلحها الا العدل

الملك مميزة للسيد عن المولى ولاهل القرابة عن أهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه أحوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتتميز حالاتهم ويتنزلون منزلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك * الوجه الثاني ان الاصطناع قبل الملك يبعد عهده عن اهل الدولة بطول الزمان ويخفى شأن تلك اللحمة ويظن بها في الاكثر النسب فيقوى حال العصبية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته الاكثر فتتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة الى الولاية التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده أشد التحاما به واقرب قرابة اليه ويتنزل منه منزلة ابنائه واخوانه وذوي رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاولين وهذا مشاهد بالعيان حتى ان الدولة في آخر عمرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم ولا يبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ بأوليتهم ومشارفة الدولة على الانقراض فيكونون منحطين في مهاوي الضعة وانما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن اوليائهم الاقدمين وصنائعها الاولين ما يعتريهم في انفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له ونظره بما ينظره به قبيله واهل نسبه لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتصال بآبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء اهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب المجد ويبقون على حالهم من الخارجية وهكذا شأن الدول في اواخرها واكثر ما يطلق اسم الصنائع والاولياء على الاولين وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان والله ولي المؤمنين وهو على كل شيء وكيل

٢١ *(فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه)*

اذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه وتداوله بنوهم واحدا بعد واحد بحسب الترشيح فربما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه في الاكثر ولاية صبي صغير أو مضعف من اهل المنبت يترشح للولاية بعهد أبيه او بترشيح ذويه وخوله ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك فيقوم به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه او قبيله ويوري بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي يدعوه اليها ترف احواله ويسيمه في مراعيها متى أمكنه وينسيه النظر في الامور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك انما هو جلوس السرير واعطاء الصفقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وان الحل والربط والامر والنهي ومباشرة الاحوال الملوكية وتفقدها من النظر في الجيش والمال والثغور انما هو للوزير ويسلم له في ذلك الى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحول الملك اليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبني بويه والترك وكافور الاخشيدي وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن أبي عامر بالاندلس وقد يتفطن ذلك المحجور المغلب لشأنه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على أيدي المتغلبين عليه اما بقتل او برفع عن الرتبة فقط الا ان ذلك في النادر الاقل لان الدولة اذا أخذت في تغلب الوزراء والاولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه لان ذلك انما يوجد في الاكثر عن احوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والاظآر وربوا

وأحق الناس باجبار نفسه على العدل الملوك الذين بعدلهم يعدل من دونهم والذين اذا قالوا أوفعلوا كان نافذا غير مردود وقالت الحكماء رم ماشئت بالانصاف وأنا زعيم لك بالظفر به والظلم ادعى شيء الى تغيير نعمة او تعجيل نقمة وقال الحكيم شر الزاد الى المعاد الذنب بعد الذنب وشر من هذا العدوان على العباد ومتى أراد السلطان حسن الصيت وجميل الذكر فليقم سوق العدل وان أحب الزلفى عند الله وشرف المنزلة عنده فليقم سوق العدل وان احبهما جميعا فليقم سوق العدل والذي يخلد به ذكر الملوك على غابر الدهور عدل واضح او جور فاضح هذا يوجب له الرحمة وهذا يوجب له اللعنة

(فصل) فاما القسم الثاني من العدل وهو السياسة الاصلاحية وان كان أصلها على الجور فيقوم بها أمر الدنيا وكانها تشاكل مراتب الانصاف على نحو ما كانت عليه ملوك الطوائف في أيام الفرس وكانوا كفارا يعبدون النيران ويتبعون هواجس الشيطان فوضعوا بينهم سننا وأسسوا لهم أحكاما وأقاموا لهم مراتب في النصفة بين الرعايا واستجباء الخراجات وتوظيف المكوس على التجارات كل ذلك بعقولهم على وجوه ما أنزل الله بها من سلطان ولا نصب عليها من برهان بيد أنه لما جاءت الشريعة من عند الله تعالى على لسان نبيه صاحب المعجزة محمد صلى الله عليه وسلم فمنها ما أقرته في نصابه ومنها ما نسخته وأبطلت حكمه فعادت الحكمة البالغة الى الله تعالى والحكم بما أنزل الله وبطل ما سواه وكان ملكهم محفوظا برعاياتهم عليها

للقوانين المألوفة بينهم فانقطع بذلك حبل الهمل فكانوا يقسمون بها واجب الحقوق ويتعاطون بها مالهم وعليهم ومن هذا كان يقال ان السلطان الكافر الحافظ لشرائط السياسة الاصلاحية أبقى وأقوى من السلطان المؤمن العدل في نفسه المضيع للسياسة النبوية العدلية والجور المرتب أبقى من العدل المهمل اذ لا شئ أصلح لامر السلطان من ترتيب الامور ولا شئ أفسد له من اهمالها واعلم ان درهما يؤخذ من الرعية على وجه الاهمال والخرق وان كان عدلا أفسد لقلوبهم من عشرة تؤخذ منها سياسة على زمان معروف ورسم مألوف وان كان جورا فلا يقوم السلطان لاهل الايمان ولا لاهل الكفران الا باقامة العدل النبوي وما يشبه العدل من الترتيب الاصطلاحي وقال ابن المقفع الملوك ثلاثة ملك دين وملك حزم وملك هوى فاما ملك الدين فانه اذا أقام لاهل المملكة دينهم كانوا راضين وكان الساخط فيه بمنزلة الراضي واما ملك الحزم فيقوم به الامر ولا يسلم من الطعن والسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر ولقد بلغنا أن ملكا من ملوك الهند نزل به صمم فاصبح متوجعا مهتما بامور المظلومين وانه لا يسمع استغاثتهم فأمر مناديه ان لا يلبس احد في مملكته ثوبا أحمر الا مظلوم وقال لئن منعت سمعي لم أمنع بصري فكان كل من ظلم لبس ثوبا أحمر ووقف تحت قصره فيكشف عن ظلامته قال شيخنا وأخبرني أبو العباس الحجازي وكان ممن دخل الصين بسيرة عجيبة غريبة للملوك في سياستهم وذلك ان للبيت الذي يكون فيه الملك ناقوسا موصولا بسلسلة

عليها فلا ينزعون الى رياسة ولا يعرفون استبدادا من تغلب انما همهم في القنوع بالابهة والتفنن في اللذات وأنواع الترف وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضروري كما قدمناه وهذان مرضان لا برء للدولة منهما الا في الاقل النادر والله يؤتي ملكه من يشاء وهو على كل شئ قدير

٢٢ *(فصل في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك)*

وذلك ان الملك والسلطان حصل لاوليه مذ أول الدولة بعصبية قومه وعصبيته التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا المتغلب وان كان صاحب عصبية من قبيل الملك او الموالي والصنائع فعصبيته مندرجة في عصبية اهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من الامر والنهي والحل والعقد والابرام والنقض يوهم فيها أهل الدولة انه متصرف عن سلطانه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان وأولوه على أنفسهم عن القبيل منذ أول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشئ من ذلك لنفسه (١) عليه اهل العصبية وقبيل الملك وحاولوا الاستئثار به دونه لانه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لاول وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر حين سما الى مشاركة هشام واهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتتابعة فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة فنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قريش وبايعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا عليهم وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم واستبدل منه سواه من أعياص الدولة الى آخرها واختلت مراسم ملكهم والله خير الوارثين

٢٣ (فصل في حقيقة الملك وأصنافه)*

الملك منصب طبيعي للانسان لانا قد بينا ان البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم الا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده الى حاجته يأخذها من صاحبه لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع المفضي الى المقاتلة وهي تؤدي الى الهرج وسفك الدماء واذهاب النفوس المفضي ذلك الى انقطاع النوع وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض واحتاجوا من اجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من ان المطالبات كلها والمدافعات لا تتم الا بالعصبية وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شئ من ذلك الا بالعصبيات كما مر والعصبيات متفاوتة وكل عصبية فلها تحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها وليس الملك لكل عصبية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الاموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشئ كفرح لم يره أهلا له كما في القاموس

وطرف السلسلة في خارج الطريق وعليها أمناء السلطان وحفظة فيأتي المظلوم فيحرك السلسلة فيسمع الملك صوت الناقوس فيأمر
بادخال المظلوم فكل من حرك السلسلة تمسكه تلك الحفظة حتى تدخله على السلطان

(الباب الثاني عشر في التنصيص على الخصال التي زعم الملوك انها أزالت دولتهم وهدمت سلطانهم)

أيها الملك احرص كل الحرص ان تكون خبيرا بامور عمالك فان المسيء يفرق من خبرتك به قبل ان تصيبه عقوبتك والمحسن يستبشر بعلمك به قبل ان يأتيه ثوابك قال أبو جعفر المنصور مازال أمر بني أمية مستقيما حتى أفضى امرهم الى أبنائهم المترفين فكانت همتهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصد الشهوات وايثار اللذات والدخول في معاصي الله ومساخطه جهلا منهم باستدراج الله تعالى وأمنا لمكره فسلبهم الله العز ونقل عنهم النعمة قال عبيد الله ابن مروان ومروان هذا هو المعروف بمروان الحمار وهو آخر ملوك بني أمية قتل في أرض مصر في كورة بوصير لما زال ملكنا وهربت الى أرض النوبة فمن اتبعني من أصحابي فسمع ملك النوبة بخبري فجاءني فقعد على الارض ولم يقعد على فراش افترشته فقلت له الا تقعد على ثيابنا فقال لا فقلت ولم قال لاني ملك وحق على كل ملك آن يتواضع لامر الله سبحانه اذ رفعه ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم ولم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم ولم تستعملون الذهب والفضة وتلبسون الديباج والحرير وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك فقل انصارنا

وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور أو جباية الاموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الاغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به عصبيته أيضا عن الاستعلاء على جميع العصبيات والضرب على سائر الايدي وكان فوقه حكم غيره فهو أيضا ملك ناقص لم تتم حقيقته وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق أعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيديين وزناتة مع الامويين تارة والعبيديين تارة أخرى ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره تجده والله القاهر فوق عباده

٢٤ *(فصل في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر)*

اعلم ان مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحته أو جهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه وانما مصلحتهم فيه من حيث اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين منتسبين فحقيقة السلطان انه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي له من حيث اضافته لهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه فانها ان كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم وان كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم واهلاكا لهم ويعود حسن الملكة الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات منقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات وربما أجمعوا على قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج وان دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولا وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية واذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا اليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الامر من كل جانب وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك وأما النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي اصل كبير في التحبب الى الرعية واعلم انه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديد الذكاء من الناس واكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل واقل ما يكون في اليقظ انه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطلاعه على عواقب الامور في مباديها بالمعيته فيهلكون لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سير اضعفكم ومن هذا الباب اشترط الشارع في الحاكم قلة الافراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن ابي سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال لم عزلتني يا امير المؤمنين ألعجز أم لخيانة فقال عمر لم اعزلك لواحدة منهما ولكني كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس فأخذ من هذا ان الحاكم لا يكون مفرطا الذكاء والكيس مثل زياد بن ابي سفيان وعمرو بن العاصي لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لانه افراط في الفكر كما ان البلادة افراط في الجمود والطرفان مذمومان من كل صفة انسانية والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع

التبذير

التبذير والبخل وكما فى الشجاعة مع الهوج والجبن وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومتشيطن وأمثال ذلك والله يخلق ما يشاء وهو العليم القدير

٢٥ *(فصل فى معنى الخلافة والامامة)*

لما كانت حقيقة الملك انه الاجتماع الضرورى للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه فى الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى أحوال دنياهم لحمله اياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجىء العصبية المفضية الى الهرج والقتل فوجب أن يرجع فى ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون الى احكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب امرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله فى الذين خلوا من قبل فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية واذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وذلك ان الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها الموت والفناء والله يقول أفحسبتم انما خلقناكم عبثا فالمقصود بهم انما هو دينهم المفضى بهم الى السعادة فى آخرتهم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الانسانى فاجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب واهمال القوة الغضبية فى مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة واحكامها فمذموم ايضا لانه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لان الشارع اعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من امور آخرتهم واعمال البشر كلها عائدة عليهم فى معادهم من ملك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم انما هى اعمالكم ترد عليكم وأحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الاحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل الشريعة وهم الانبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وان الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

٢٦ *(فصل فى اختلاف الامة فى حكم هذا المنصب وشروطه)*

واذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وامامة والقائم به خليفة واماما فأما تسميته اماما فتشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الامامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى أمته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله واختلف فى تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة وقوله جعلكم خلائف الارض ومنع الجمهور منه لان معنى الآية ليس عليه

وانتصرنا بقوم من الاعاجم دخلوا ديننا ولنا عبيد وأتباع فعلوا ذلك على كره منا فاطرق مليا يقلب كفيه وينكت فى الارض ثم قال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها واخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلادى فيصيبنى معكم وانما الضيافة ثلاثة أيام فتزودوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى فتزودنا وارتحلنا وسئل بزرجمهر ما بال ملك آل ساسان صار الى ما صار اليه بعد ما كان فيه من قوة السلطان وشدة الاركان فقال ذلك لانهم قلدوا كبار الاعمال صغار الرجال وعن هذا قالت الحكماء موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة وفى الامثال ان زوال الدول باصطناع السفل وقال الشافعى رضى الله عنه أظلم الناس لنفسه اللئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وانكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوى الفضل وسئل بعض الملوك بعد زوال ملكه ما الذى سلبك ملكك قال اعطاؤنا من بطر وطغى ورفع عمل اليوم لغد وسئل بعض الملوك بعد ان سلبوا ملكهم ما الذى سلب عزكم وهدم ملككم فقال شغلتنا لذاتنا عن التفرغ لمهماتنا ووثقنا بكفاتنا فآثروا مرافقهم علينا وظلم عمالنا رعيتنا فافسدت نياتهم لنا وتمنوا الراحة منا وحمل على أهل

خراجنا فقل دخلنا وبطل عطاء عبيدنا فزالت الطاعة منهم لنا وقصدنا عدونا فقل ناصرنا وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الاخبار عنا وقالت الحكماء أسرع الخصال فى هدم السلطان وأعظمها واسرعها فى افساده وتفريق الجمع عنه

وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به وقال لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الاستخلاف انما هو فى حق الغائب وأما الحاضر فلا ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه فى الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الى بيعة أبى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر اليه فى أمورهم وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الاعصار واستقر ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى ان مدرك وجوبه العقل وأن الاجماع الذى وقع انما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الاغراض فما لم يكن الحاكم الوازع افضى ذلك الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذى لحظه الحكماء فى وجوب النبوات فى البشر وقد نبهنا على فساده وان احدى مقدماته ان الوازع انما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم ايمان واعتقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما فى أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة اونقول يكفى فى رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم ان ارتفاع التنازع انما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة اوبامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلى المبنى على هذه المقدمة فدل على ان مدرك وجوبه انما هو بالشرع وهو الاجماع الذى قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء انما هو امضاء احكام الشرع فاذا تواطأت الامة على العدل وتنفيذ احكام الله تعالى لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالاجماع والذى حملهم على هذا المذهب انما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعى على اهله ومرغبة فى رفضه واعلم ان الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وانما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك ان فى هذه مفاسد محظورة وهى من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة واقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بازائها الثواب وهى كلها من توابع الملك فاذا انما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال اخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة اليهما وانما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذى لم يكن لغيرهما وهما من انبياء الله تعالى واكرم الخلق عنده ثم نقول لهم ان هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيأ لانكم موافقون على وجوب اقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصبية والشوكة والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك وان لم ينصب امام وهو عين ما فررتم عنه واذا تقرر أن هذا النصب واجب باجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار أهل العقد والحل فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم وأما شروط هذا المنصب فهى أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى فأما اشتراط العلم فظاهر لانه انما يكون منفذا لاحكام الله تعالى اذا كان عالما بها وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكفى من العلم الا ان يكون مجتهدا لان التقليد نقص

اظهارا لمحاباة لقوم دون قوم والميل الى قبيلة دون قبيلة ففى اعلان بحب قبيلة فقد برئ من قبائل وقديما قيل المحاباة مفسدة وقال مهبوذ الموبذان من زوال السلطان تقريب (١١٤) من ينبغي ان يباعد ومباعدة من ينبغي ان يقرب وحينئذ حان أوان الغدر وقيل للملك بعد ذهاب ملكه ما الذى أذهب ملككم قال ثقتى بدولتى واستبدادى بمعرفتى واغفالى استشارتى واعجابى بشدتى واضاعتى الحيلة وقت حاجتى والتأنى عند العجلة ولما أحيط بمروان الجعدى وهو آخر ملوك بنى أمية قال لهفاه على دولة ما نصرت وكف ما ظفرت ونعمة ما شكرت فقال له خادمه نسيل وكان من أولاد أشراف الروم من أغفل الصغير حتى يكبر والقليل حتى يكثر والخفى حتى يظهر أصابه مثل هذا وسئل بعض العلماء ما الذى أذهب ملك بنى مروان قال تحاسد الاكفاء وانقطاع الاخبار وذلك ان زيد بن عمر كان يحب أن يضع من نصر بن سيار وكان لا يمده بالرجال ولا يرفع الى السلطان ما يرد عليه من أخبار خراسان فلما رأى ذلك نصر بن سيار قال

أرى خلل الرماد وميض نار فيوشك أن يكون لها اضطرام
وان النار بالعودين تذكو وان الحرب أولها الكلام
فقلت تعجبا يا ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام

وكان العباسيون يؤسسون لدولتهم ولا تصل اخبارهم الى بنى أمية حتى استفحل أمرهم وضعف أمر بنى أمية وسئل مروان بن محمد الجعدى وهو آخر ملوك بنى أمية ما الذى أضعف ملككم بعد قوة السلطان وثبات الاركان فقال الاستبداد برأيى لما كثرت على كتب نصر بن سيار ان

والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف والاحوال وأما العدالة فلانه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريا على اقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها كفيلا بحمل الناس عليها عارفا بالعصبية وأحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وتدبير المصالح وأما سلامة الحواس والاعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فقده من الاعضاء في العمل كفقد اليدين والرجلين والانثيين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل اليه وان كان انما يشين في المنظر فقط كفقد احدى هذه الاعضاء فشرط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقدان الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالاسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقة فينتقل النظر في حال هذا المستولي فان جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز اقراره والا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته حتى ينفذ فعل الخليفة وأما النسب القرشي فلاجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على الانصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منا أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله عليه وسلم الائمة من قريش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن الى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحجوا الانصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت أيضا في الصحيح لا يزال هذا الامر في هذا الحي من قريش وأمثال هذه الادلة كثيرة الا أنه لما ضعف امر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الارض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الاعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا الى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا واطيعوا وان ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته اولما دخلتني فيه الظنة وهو أيضا لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضا فولى القوم منهم وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كانها مفقودة في ظنه عدل الى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصبية كما نذكر ولم يبق الى صراحة النسب فرآه غير محتاج اليه اذ الفائدة في النسب انما هي العصبية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصا من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فاسقط شرط القرشية وان كان موافقا لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الامامة للقرشي ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على امره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضا الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع ولنتكلم الآن في

امده بالاموال والرجال قلت في نفسي هذا رجل يريد الاستكثار من الاموال بما يظهر من فساد الدولة قبله وهيهات ان ينتقض على خراسان فانتقضت دولته من خراسان

ومن أعجب العجاب دوام الملك مع الكبر والاعجاب اعلموا ان الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة والمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب والكبر يكسب المقت ويمنع من المسئلة وكل كبر ذكره الله في القرآن يقرونه بالشرك ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله سبحانه يغضب منهما وقال اردشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به فصرفه الى الكبر وقال الاحنف بن قيس ما تكبر أحد الا من ذلة يجدها في نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه قال الشاعر

فتى كان عذب الروح لا من خصاصة
ولكن كبرا ان يقال به كبر

ونظر افلاطون الى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت اني مثلك في ظنك وان أعدائي مثلك في الحقيقة قالت الحكماء قد يدوم الملك مع معظم النقائص فرب فقير ساد قومه ورب أحمق ساد قبيلته منهم الاقرع ابن حابس الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الاحمق المطاع قالوا ولا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب السيادة

واعظم من ذلك ان الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال سبحانه وتعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض
ولا فسادا فقرن الكبر بالفساد ومنعا من دخول الجنة وقال جل وعز سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير
الحق وقال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا الا تحول داؤه في يعني اني اتكبر عليه واعلم ان الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله ومن أبغضته بطانته كان كمن غص بالماء ومن كره الحماة تطاولت عليه الاعداء واما الاعجاب فيحمله على الاستبداد وترك مشورات الرجال ومن الصفات التي لا تقوم معها المملكة الكذب والغدر والخبث والجور والسخف وقالت حكماء العرب والعجم ست خصال لا تغتفر من السلطان الكذب والخلف والحسد والحدة والبخل والجبن فانه اذا كان كذابا لم يوثق بوعده ولا بوعيده فلم يرج خيره ولم يخف شره ولا بهاء لسلطان لا يرهب وقال الحكماء خراب البلاد وفساد العباد مقرونان بابطال الوعد والوعيد من الملوك والكذب اسقط الاخلاق وأغلب شئ على صاحبه وأحرى أن لا ينزع عنه لضراوته وقيل لاعرابي لم لم تكذب قال لو تعززت به ما تركته وهو نوع من الفحش وضرب من الدناءة وأصله استعذاب المنى وهو أضغاث سكر الحمق و من بليته انه يحمل على صاحبه ذنب غيره فاذا سمعت كذبة طائحة نسبت اليه قال الشاعر

حسب الكذوب من المها * نة بعض ما يحكى عليه
واذا سمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه

(وقال غيره)

حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول ان الاحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لاجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في المشهور وان كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد اذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها واذا سبرنا وقسمنا لم نجدها الا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن اليه الملة وأهلها وينتظم حبل الالفة فيها وذلك أن قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو جعل الامر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرة فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر في قريش لانهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يراد منهم فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة لانهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة واذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذعن لهم سائر العرب وانقادت الامم سواهم الى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في ايام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين الى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس اخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم وقد ذكر ذلك ابن اسحق في كتاب السير وغيره فاذا ثبت أن اشتراط القرشية انما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا ان الشارع لا يخص الاحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك انما هو من الكفاية فرددناه اليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في القائم بامور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الاقطار والآفاق كما كان في القرشية اذ الدعوة الاسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الامم وانما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة واذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لانه سبحانه انما جعل الخليفة نائبا عنه في القيام بامور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر الا من له قدرة عليه الا ترى ما ذكره الامام ابن الخطيب (١) في شأن النساء وانهن في كثير من الاحكام الشرعية جعلن تبعا للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وانما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الامر شئ وكان الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بامر امة أو جيل الا من غلب عليهم وقل ان يكون الامر الشرعي مخالفا للامر الوجودي والله تعالى اعلم

٢٧ *(فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة)*

(١) قوله الامام الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر اهـ

اعلم

(اعلم) ان الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع على وبنيه رضى الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الامة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبى اغفاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع او مطعون فى طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلى وخفى فالجلى مثل قوله من كنت مولاه فعلى مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا فى على ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أقضاكم على ولا معنى للامامة الا القضاء باحكام الله وهو المراد باولى الأمر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكما فى قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعنى على روحه وهو وصى وولى هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا على ومن الخفى عندهم بعث النبى صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة سورة براءة فى الموسم حين أنزلت فانه بعث بها اولا ابا بكر ثم اوحى اليه ليبلغه رجل منك او من قومك فبعث عليا ليكون القارئ المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم على وايضا فلم يعرف انه قدم احدا على على واما ابو بكر وعمر فقدم عليهما فى غزاتين اسامة بن زيد مرة وعمرو بن العاصى أخرى وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين على للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين على وتشخيصه وكذلك تنتقل منه الى من بعده وهؤلاء هم الامامية ويتبرؤن من الشيخين حيث لم يقدموا عليا ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون فى امامتهما ولا يلتفت الى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول ان هذه الادلة انما اقتضت تعيين على بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ولا يتبرؤن من الشيخين ولا يغمصون فى امامتهما مع قولهم بان عليا أفضل منهما لكنهم يجوزون امامة المفضول مع وجود الافضل ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة فى مساق الخلافة بعد على فمنهم من ساقها فى ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد على ما يذكر بعد وهؤلاء يسمون الامامية نسبة الى مقالتهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه فى الايمان وهى أصل عندهم ومنهم من ساقها فى ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ ويشترط أن يكون الامام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن على بن الحسين السبط وقد كان يناظر أخاه محمدا الباقر على اشتراط الخروج فى الامام فيلزمه الباقر أن لا يكون ابوهما زين العابدين اماما لانه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة وأخذه اياها عن واصل بن عطاء ولما ناظر الامامية زيدا فى امامة الشيخين ورأوه يقول بامامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الائمة وبذلك سموا رافضة ومنهم من ساقها بعد على وابنيه السبطين على اختلافهم فى ذلك الى أخيهما محمد بن الحنفية ثم الى ولده وهم الكيسانية نسبة الى كيسان مولاه وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصارا ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان فى القول بالوهية هؤلاء الائمة اما على انهم بشر اتصفوا بصفات الالوهية او ان الاله حل فى ذاته البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى فى عيسى صلوات الله عليه ولقد حرق على رضى الله عنه

لى حيلة فيمن ينم وليس فى الكذاب حيلة * من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليله وقال الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأما الحسد فانه اذا كان حسودا لم يشرف أحدا واذا ضاعت الاشراف هلكت الاتباع ولا يصلح الناس الا على أشرافهم قال الشاعر

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وأما البخل فاذا كان بخيلا لم يناصحه أحد ولا تصلح الولاية الا بالمناصحة وليس للملك ان يبخل لان بيوت الاموال فى يديه وأما الجبن فاذا كان جبانا اجترأ عليه عدوه وضاعت ثغوره واذا كان حديدا غضوبا والقدرة من ورائه هلكت رعيته وليس للملك ان يغضب لان القدرة من وراء حاجته ولما دخل أسقف نجران على مصعب بن الزبير ضرب وجهه بالقضيب فادماه فقال الاسقف ان شاء الامير أخبرته بما أنزل الله على عيسى عليه السلام قال قل قال لا تغضب بعدما قال هات قال لا ينبغى للامام ان يكون سفيها ومنه يلتمس الحلم ولا جائرا ومنه يلتمس العدل وقال الاوزاعى يهلك السلطان بالاعجاب والاحتجاب فاما الاعجاب فقد ذكرناه وأما الاحتجاب فهو أوحى الخلال فى هدم السلطان وأسرعها خرابا للدول فانه اذا احتجب السلطان فكأنه قد مات لان الحجبة موت حكمى فتعبث بطانته بأرواح الخلائق وحريمهم وأموالهم لان الظالم قد أمن ان لا يصل المظلوم الى السلطان ومعظم ما رأينا فى أعمارنا وسمعنا عمن سمعنا من دخول الفساد على الملوك من حجبتهم عن مباشرة الامور ولا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا

بالنار ومن ذاهب فيه الى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار ابن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول ان كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقلت روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الائمة لا يتجاوزه الى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفية فبعضهم يقول هو حي لم يمت الا انه غائب عن اعين الناس و يستشهدون لذلك بقصة الخضر قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وانه في السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وانه في جبل رضوى من أرض الحجاز وقال شاعرهم

ألا ان الائمة من قريش * ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه * هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر * وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى * يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا * برضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثنى عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري و يلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع امه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الارض عدلا يشيرون بذلك الى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وهم الى الآن ينتظرونه و يسمونه المنتظر لذلك و يقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيهتفون باسمه و يدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون و يرجئون الامر الى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفية يقول ان الامام الذي مات يرجع الى حياته الدنيا و يستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف والذي مر على قرية وقتيل بني اسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد الحميري ومن شعره في ذلك

اذا ما المرء شاب له قذال * وعلله المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى * فقم ياصاح نبك على الشباب
الى يوم تئوب الناس فيه * الى دنياهم قبل الحساب
فليس بعائد ما فات منه * الى أحد الى يوم الاياب
أدين بان ذلك دين حق * وما أنا في النشور بذي ارتياب
كذاك الله أخبر عن أناس * حيوا من بعد درس في التراب

وقد كفانا مؤنة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فانهم لا يقولون بها و يبطلون احتجاجاتهم عليها وأما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه أبي هاشم وهؤلاء هم الهاشمية ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده الى أخيه علي ثم الى ابنه الحسن بن علي وآخرون يزعمون أن أباهاشم لما مات بارض السراة منصرفا من الشام أوصى الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف بالامام وأوصى ابراهيم الى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى هو الى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحدا بعد واحد الى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائمين

الى سلطانهم فاذا احتجب فهنالك سلاطين كثيرة يا أيها الملك المغرور واحتجبت عن الرعية بالحجاب والابواب وجعلت دونهم بروجا مشيدة وحظائر بالحجارة والماء والطين مانعة و باب الله مفتوح للسائلين ليس هنالك لا حاجب ولا بواب قال الله تعالى الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وقال معاوية ليس بين أن يملك السلطان رعيته أو تملكه الا الحزم والتواني وكماله أمران شدة في غير افراط ولين في غير امتهان وسئل بزرجمهر أي الملوك أحزم قال من ملك جده هزله و قهر لبه هواه وأعرب عن ضميره فعله ولم يختدعه رضاه عن حظه ولا غضبه عن كيده وقال بعض الحكماء زوال الدول في اصطناع السفل ومن طال عدوانه زال سلطانه وقالوا من لم يستظهر باليقظة لم ينتفع بالحفظة وقال يحيي ابن خالد أحسن ما وجدت في طراز الحكم من البلاغة البخل والجهل مع التواضع خير من السخاء والعلم مع الكبر فيالها حسنة غطت على سيئتين و يالها سيئة غطت على حسنتين

(الباب الرابع عشر في الخصال المحمودة في السلطان)

وقد اتفقت العلماء والحكماء عليها فقالوا أيها الملك ان قصرت قوتك عن عدوك فتعلق بالاخلاق الجميلة التي ليس لعدوك مثلها فان الكفاية من الغارة الشعواء وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال كان عالما برعيته عادلا في قضيته عاريا من الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريا للصواب رفيقا بالضعيف غير محاب للقوي ولا جاف للقريب وقالوا المنفعة بدولة

بدولة بنى العباس وكان منهم أبومسلم وسليمان بن كثير وأبوسلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية
وربما يعضدون ذلك بان حقهم فى هذا الامر يصل اليهم من العباس لانه كان حيا وقت الوفاة وهو أولى
بالوراثة بعصبية العمومة واما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها وأنها باختيار اهل الحل والعقد
لا بالنص فقالوا بامامة على ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه على زين العابدين ثم ابنه زيد بن على وهو
صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا الى الامامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بامامة ابنه
يحيى من بعده فمضى الى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى الى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن
السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدى وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد الى أخيه
ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن على فوجه اليهم المنصور عساكره فهزم وقتل ابراهيم وعيسى
وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهى معدودة فى كراماته وذهب آخرون منهم الى ان الامام بعد
محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن على بن عمر وعمر هو أخو زيد بن على فخرج محمد بن
القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى المعتصم فحبسه ومات فى حبسه وقال آخرون من الزيدية ان الامام
بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذى حضر مع ابراهيم بن عبد الله فى قتاله مع المنصور ونقلوا الامامة فى
عقبه واليه انتسب دعى الزنج كما نذكره فى اخبارهم وقال آخرون من الزيدية ان الامام بعد محمد بن عبد
الله اخوه ادريس الذى فر الى المغرب ومات هنالك وقام بامره ابنه ادريس واختط مدينة فاس وكان من
بعده عقبه ملوكا بالمغرب الى أن انقرضوا كما نذكره فى أخبارهم وبقى امر الزيدية بعد ذلك غير منتظم
وكان منهم الداعى الذى ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن على بن
الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة فى الديلم الناصر الاطروش منهم واسلموا على يده وهو
الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر وعمر أخو زيد بن على فكانت لبنيه بطبرستان دولة وتوسل الديلم
من نسبهم الى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر فى أخبارهم * وأما الامامية فساقوا الامامة
من على الرضا الى ابنه الحسن بالوصية ثم الى اخيه الحسين ثم الى ابنه على زين العابدين ثم الى ابنه محمد
الباقر ثم الى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين فرقة ساقوها الى ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم
بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثانى
عشر من الائمة وقولهم بغيبته الى آخر الزمان كما مر فأما الاسماعيلية فقالوا بامامة اسمعيل الامام بالنص
من أبيه جعفر وفائدة النص عليه عندهم وان كان قد مات قبل ابيه انما هو بقاء الامامة فى عقبه كقصة
هرون مع موسى صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو أول
الائمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين اقامة للحجة على
الخلق واذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق وبعده ابنه
محمد الحبيب وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبد الله المهدى الذى أظهر دعوته ابو عبد الله الشيعى فى كتامة
وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده
مصر كما هو معروف فى أخبارهم ويسمى هؤلاء الاسماعيلية نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون ايضا
بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن اى المستور ويسمون أيضا الملحدة لما فى ضمن مقالتهم من الالحاد
ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا اليها الحسن بن محمد الصباح فى آخر المائة الخامسة وملك حصونا
بالشأم والعراق ولم تزل دعوته فيها الى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق

توجب المحبة والمضرة توجب البغضة والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الالفة والصدق يوجب الثقة والامانة توجب الطمأنينة
والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة والانبساط
يوجب المؤانسة والانقباض
يوجب الوحشة والكبر
يوجب المقت والتواضع
يوجب المقة والجود يوجب
الحمد والبخل يوجب المذمة
والتوانى يوجب التضييع
والجد يوجب رجاء الاعمال
والهوينى توجب الحسرة
والحزم يوجب السرور
والتغرير يوجب الندامة
والحذر يوجب العذر
واصابة التدبير توجب
بقاء النعمة وبالتانى تسهل
المطالب وبلين كنف
المعاشرة تدوم المودة وبخفض
الجانب تأنس النفوس
وبسعة خلق المرء يطيب
عيشه والاستهانة توجب
التباعد وبكثرة الصمت
تكون الهيبة وعدل المنطق
يوجب الجلالة وبالنصفة
تكثر المواصلة وبالافضال
يعظم القدر وبصالح
الاخلاق تزكو الاعمال
وباحتمال المؤن يجب
السودد وبالحلم عن السفيه
تكثر انصارك عليه وبالرفق
والتؤدة تستحق اسم الكرم
وبترك ما لا يعنيك يتم
لك الفضل واعلم ان السياسة
تكسو أهلها المحبة
والفظاظة تخلع عن صاحبها
ثوب القبول ومن صغر
الهمة الحسد للصديق على
النعمة والنظر فى العواقب نجاة ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن سكت سلم ومن خاف حذر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن
فهم علم ومن أطاع هواه ضل ومع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة زارع البر يحصد السرور صاحب العاقل مغبوط صديق

فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والنحل للشهرستاني وأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الامامية عند المتأخرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق لوفاة أخيه الاكبر اسمعيل الامام في حياة أبيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد اليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه محمد الحسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير الا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

٢٨ *(فصل في انقلاب الخلافة الى الملك)*

اعلم ان الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وان الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلابد فيه من العصبية اذ المطالبة لاتتم الا بها كما قدمناه فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح مابعث الله نبيا الا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب الى اطراحها وتركها فقال ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية (١) وفخرها بالآباء أنتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم ووجدناه أيضا قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاق والاسراف في غير القصد والتنكب عن صراط الله وانما حض على الالفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة واعلم ان الدنيا كلها واحوالها عند الشارع مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه او يذمه من أفعال البشر أو يندب الى تركه اهماله بالكلية او اقتلاعه من اصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية انما قصده تصريفها في اغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الانسان فانه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما يذم الغضب للشيطان وللاغراض الذميمة فاذا كان الغضب لذلك كان مذموما واذا كان الغضب في الله ولله كان ممدوحا وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات ايضا ليس المراد ابطالها بالكلية فان من بطلت شهوته كان نقصا في حقه وانما المراد تصريفها فيما ابيح له باشتماله على المصالح ليكون الانسان عبدا متصرفا طوع الاوامر الالهية وكذا العصبية حيث ذمها الشارع وقال لن تنفعكم ارحامكم ولا أولادكم فانما مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون لاحد فخر بها أو حق على أحد لان ذلك مجان من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار فاما اذا كانت العصبية في الحق واقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع اذ لا يتم قوامها الا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وانما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الاغراض والشهوات كما قلناه فلو كان الملك مخلصا في غلبه للناس انه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك ولما لقي معاوية

(١) قوله عبية الجاهلية قال المجد والعبية وبالكسر الكبر والفخر والنخوة اه

الجاهل تعب اذا جهلت فاسأل واذا زللت فارجع واذا اسأت فاندم واذا ندمت فاقلع واذا أفضلت فاكتم واذا منعت فاجمل واذا أعطيت فاجزل واذا غضبت فاحلم من بدأك ببره فقد شغلك بشكره المروآت كلها تبع للعقل الرأي تبع للتجربة العقل اصله التثبت وثمرته السلامة والتوفيق أصله العقل وثمرته النجح والتوفيق والاجتهاد زوجان فالاجتهاد سبب والتوفيق ينجح الاجتهاد قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والاعمال كلها تبع للقدور واختار العلماء اربع كلمات من اربع كتب من التوراة من قنع شبع ومن الزبور من سكت سلم ومن الانجيل من اعتزل نجا ومن القرآن ومن اعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجهل سفه والايام دول والدهر غير والمرء منسوب الى فعله ومأخوذ بعمله اصطناع المعروف يكسب الحمد أكرموا الجليس يعمر ناديكم أنصفوا من نفوسكم يوثق بكم اياكم والاخلاق الدنيئة فانها تضع الشرف وتهدم المجد نهمة الجاهل أهون من جريرته رأس العشيرة يحمل اثقالها واجمعت حكماء العرب والعجم على اربع كلمات لاتحمل بطنك مالا تطيق ولا تعمل عملا لا ينفعك ولا تغتر بامرأة ولا تثق بمال وان كثر

(الباب الخامس عشر فيما يعز به السلطان) وهي الطاعة قال ملك فارس لموبذان موبذ ماشيء واحد يعز به السلطان قال الطاعة قال فما ملاك الطاعة قال التودد الى الخاصة والعدل على العامة قال

عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه الى الشأم في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال أكسروية يا معاوية فقال يا أمير المؤمنين انا في ثغر تجاه العدو وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه هذا الجواب في تلك الكسروية وانتحالها بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وانما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله وأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وانما قصده بها وجه الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذرا من التباسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر على الصلاة اذ هي أهم امور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهي حمل الكافة على احكام الشريعة ولم يجر للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لاهل الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعا سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاقتفى اثره وقاتل الامم فغلبهم وأذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت الى عثمان بن عفان ثم الى علي رضي الله عنهما والكل متبرؤن من الملك متنكبون عن طرقه وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الاسلام وبداوة العرب فقد كانوا أبعد الامم عن أحوال الدنيا وترفها لا من حيث دينهم الذي يدعوهم الى الزهد في النعيم ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي ألفوه فلم تكن امة من الامم اسغب عيشا من مضر لما كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الارياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتطاولون الى خصبها ولقد كانوا كثيرا ما يأكلون العقارب والخنافس ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الابل يموهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه وقريبا من هذا كانت حال قريش في مطاعمهم ومساكنهم حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا الى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الارض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفا من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان علي يقول يا صفراء ويا بيضاء غري غيري وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لانه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وانما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لاحد من أهل العالم قال المسعودي في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين ألفا وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج وبنى

فان في المعدلة حياة الانام وفي الهيبة نفي الظلام وفي طاعة الرعية التآلف والالتئام طاعة الائمة فرض على الرعية كما أن طاعة السلطان مقرونة بطاعة الله اتقوا الله بحقه والسلطان بطاعته من اجلال الله اجلال السلطان عادلا كان أو جائرا الطاعة تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين عصيان الائمة يهدم أركان الملة أولى الناس بطاعة السلطان ومناصحته أهل الدين والنعم والمروآت اذ لا يقوم الدين الا بالسلطان ولا تكون النعم والحرم محفوظة الا به الطاعة ملاك الدين الطاعة معاقد السلامة وأرفع منازل السعادة الطريقة المثلى والعروة الوثقى قوام الامة وقيام السنة بطاعة الائمة الطاعة عصمة من كل فتنة ونجاة من كل شبهة طاعة الائمة عصمة لمن لجأ اليها وحرز لمن دخل فيها وليس للرعية ان تعترض على الائمة في تدبيرها وان سولت لها أنفسها بل عليها الانقياد وعلى الائمة الاجتهاد بالطاعة تقوم الحدود وتؤدى الفرائض وتحقن الدماء وتأمن السبل الامامة عصمة للعباد وحياة للبلاد أوجب الله لمن خصه بفضلها وحلاه أعباءها الطاعة فقرنها بطاعته وطاعة رسوله فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم طاعة الائمة هدى لمن استضاء بنورها وموئل لمن حافظ عليها الخارج من الطاعة

سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرافات وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ماقيمته ثلثمائة ألف درهم اه كلام المسعودى فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعيا عليهم فى دينهم اذ هى أموال حلال لانها غنائم وفيوء ولم يكن تصرفهم فيها باسراف انما كانوا على قصد فى أحوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح فيهم وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع الى ما أشرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم فى سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التى هى مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الاموال فلم يصرفوا ذلك التغلب فى باطل ولاخرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق ولما وقعت الفتنة بين على ومعاوية وهى مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا فى محاربتهم لغرض دنيوى اولايثار باطل اولاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم فى الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده فى الحق فاقتتلوا عليه وان كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما فيها بقصد الباطل انما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا فى مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية ان يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعى ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية فى اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم فى الانفراد بالامر لوقع فى افتراق الكلمة التى كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول اذا رأى القاسم بن محمد بن ابى بكر لو كان لى من الامر شئ لوليته الخلافة ولو اراد أن يعهد اليه لفعل ولكنه كان يخشى من بنى أمية اهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الامر عنهم لئلا تقع الفرقة وهذا كله انما حمل عليه منازع الملك التى هى مقتضى العصبية فالملك اذا حصل وفرضنا ان الواحد انفرد به وصرفه فى مذاهب الحق ووجوهه لم يكن فى ذلك نكير عليه ولقد انفرد سليمان وابوه داود صلوات الله عليهما بملك بنى اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الامر الى من سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع ان ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب أحد فى ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا لله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم فى الملك مذهب اهل البطالة والبغى انما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم الا فى ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذى هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من احوالهم فقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين وعدالتهم معروفة ثم تدرج الامر فى ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذى كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع الى طريقة الخلفاء الاربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك فى اغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرى القصد

منقطع العصمة برىء من الذمة مبدل بالكفر النعمة طاعة الائمة حبل الله المتين ودينه القويم وجنته الواقية وكفايته العالية اياكم والخروج عن أنس الطاعة الى وحشة المعصية ولا تسروا غش الائمة وعليكم بالاخلاص والنصيحة مامشى قوم الى سلطان ليذلوه الا أذلهم الله قبل ان يموتوا الطاعة مقرونة بالمحبة طاعة المحبة أفضل من طاعة الهيبة للرعية على السلطان الاستصلاح لهم والتعهد لامورهم وحسن السيرة فيهم والعدل عليهم والتعديل بينهم وحق السلطان عليهم الطاعة والاستقامة والشكر والمحبة بالرعية من الحاجة الى الراعى ما ليس بالراعى من الحاجة اليهم لولا الرعاة هلكت الرعية ولولا المسيم هلكت السوائم

(الباب السادس عشر فى ملاك أمور السلطان)

قال سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك وقال زياد ملاك السلطان ثلاثة أشياء الشدة على المذنب والمجازاة للمحسن وصدق القول ولما غزا سابور ذو الاكتاف ملك الروم وأخرب بلاده وقتل جنده وأفنى بطارقته قال له ملك الروم انك قد قتلت وأخربت فاخبرنى ما الامر الذى تشبثت به حتى قويت على ما أرى وبلغت فى السياسة مالم يبلغه ملك فان كان مما يضبط الامر بمثله أديت اليك الخراج وصرت كبعض الرعية فى الطاعة لك فقال له سابور انى لم أزد فى السياسة على ثمان خصال فيها لم أهزل فى أمر ولانهى ولم أخالف فى وعد ولا وعيد ووليت أهل الكفاية وأثبت على العناء لا على الهوى وضربت للادب لا للغضب

فيها واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس الى أن نعوا عليهم افعالهم وادالوا بالدعوة العباسية منهم وولى رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الامر الى بنيهم فاعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من ايدى العرب جملة وامكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحرى الحق من الباطل علم صحة ماقلناه وقد حكى المسعودى مثله في أحوال بنى أمية عن ابى جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بنى أمية فقال أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالى بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو امية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ماوهب الله لهم منه مع تسنمهم معالى الامور ورفضهم دنياتها حتى افضى الامر الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصى الله جهلا باستدراجه وأمنا لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضه فارا أيام السفاح قال اقمت مليا ثم أتانى ملكهم فقعد على الارض وقد بسطت له فرش ذات قيمة فقلت له مامنعك من القعود على ثيابنا فقال انى ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لى لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم فى كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فاطرق ينكت بيده فى الارض ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا ثم رفع رأسه الى وقال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ماحرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فينالنى معكم وانما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت اليه وارتحل عن أرضى فتعجب المنصور وأطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة الى الملك وان الامر كان فى اوله خلافة ووازع كل احد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وان افضت الى هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر فى الدار جاءه الحسن والحسين (١) وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للالفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى الى هلاكه وهذا على أشار عليه المغيرة لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على اعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ماشاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرارا من الغش الذى ينافيه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالامس بما أشرت ثم عدت الى نظرى فعلمت انه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت فقال على لا والله بل اعلم انك نصحتنى بالامس وغششتنى اليوم ولكن منعنى مما أشرت به ذائد الحق وهكذا كانت احوالهم فى اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلادينا يبقى ولا مانرقع

(١) قوله البيعة بفتح الموحدة أما بكسرها على وزن شيعة بسكون الياء فيها فهى معبد النصارى اهـ

وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة والهيبة من غير ضغينة وحسمت بالقوة ومنعت الفضول فاذعن له وأدى اليه الخراج وكتب الوليد الى الحجاج ان يكتب له بسيرته فكتب اليه انى أيقظت رأيى وأنمت هواى وادنيت السيد المطاع فى قومه ووليت الحرب الحازم فى أمره وقلدت الخراج الموفر لامانته وقسمت لكل خصم من نفسى قسما يعطيه حظا من نظرى ولطيف عنايتى وصرفت السيف الى البطر والمسىء فخاف المذنب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب وقال أبو عبيدة اذا كان الملك محصنا لسره بعيدا من ان يعرف مافى نفسه متخيرا للوزراء مهيبا فى أنفس العامة مكافئا بحسن البلاء لايخافه البرىء ولا يأمنه المجرم كان خليقا لبقاء ملكه

(الباب السابع عشر فى خير السلطان وشر السلطان)

أفضل الملوك من كان شكره بين الرعايا لكل واحد منهم فيه قسط ليس أحد أحق به من أحد لا يطمع القوى فى حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله كان النبى صلى الله عليه وسلم تأخذ بيده الامة من اماء المدينة فتطوف به على سكك المدينة حتى تقضى حاجتها وفى حكم الهند أفضل السلطان من أمنه البرىء وخافه المجرم وشر السلطان من خافه البرىء وأمنه المجرم وقال عمر للمغيرة لما ولاه الكوفة يامغيرة ليأمنك الابرار وليخفك الفجار وفى حكم الهند أيضا شر المال مال لا ينفق منه وشر الاخوان الخاذل وشر السلطان من خافه البرىء وشر البلاد ماليس فيه خصب ولا أمن وخير السلطان من أشبه النسر وحوله الجيف لامن أشبه الجيفة وحولها النسور

وعن هذا المعنى قالوا سلطان تخافه الرعية خير للرعية من سلطان يخافها وفي الامثال العامة رهبوت خير لك من رحموت وكان يقال شر خصال الملوك الجبن عن الاعداء والقسوة على الضعفاء والبخل عند الاعطاء وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاثة من الفواقر جار ملازم ان رأى حسنة سترها وان رأى سيئة أذاعها وامرأة ان دخلت عليها السنتك وان غبت عنها لم تأمنها وسلطان ان أحسنت لم يحمدك وان أسأت قتلك وقال رجل لبعض العلماء متى أضل وأنا أعلم فقال اذا ملكتك امراء ان أطعتهم أذلوك وان عصيتهم قتلوك وقال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك السلطان سوق ما نفق عنده أتى به وفي كتاب ابن المقفع الناس على دين الملك الا القليل فان يكن للبر والمروءة عنده نفاق فسيكسد بذلك الفجور والدناءة في آفاق الارض وسمع زياد رجلا يذم الزمان فقال لو كان يدري ما الزمان لعاقبته ان الزمان هو السلطان وقال معاوية لابن الكواء صف لي الزمان فقال أنت الزمان ان تصلح يصلح وان تفسد يفسد والمثل السائر في كل زمان وعلى كل لسان الناس على دين الملك وقال بعض الحكماء ان أحق الناس ان يحذر العدو الفاجر والصديق الغادر والسلطان الجائر وقال بزرجمهر أدوم التعب صحبة السلطان السيئ الخلق وقال بعض الحكماء اذا ابتليت بصحبة سلطان لا يريد صلاح رعيته فقد خيرت بين الامة أمرين ليس بينهما خيار اما الميل مع الوالي على الرعية فهو هلاك الدين وأما الميل مع الرعية على الوالي فهو هلاك الدنيا فلا حيلة لك الا

فقد رأيت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير الا في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من خلفاء بني العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واستعملت في اغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الامر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الامر ملكا بحتا كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شئ وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضا مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولا ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار

٢٩ *(فصل في معنى البيعة)*

اعلم ان البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على انه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شئ من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك فسمي هذا الاستيعاب أيمان البيعة وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب ولهذا لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الاكراه أنكرها الولاة عليه ورأوها قادحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضي الله عنه وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازا لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الاصل لما في المصافحة لكل احد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب الملوكي الا في الاقل ممن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة في العرف فانه أكيد على الانسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وامامه ولا تكون أفعاله عبثا ومجانا واعتبر ذلك من افعالك مع الملوك والله القوي العزيز

٣٠ *(فصل في ولاية العهد)*

اعلم انا قدمنا الكلام في الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة وان حقيقتها النظر في مصالح الامة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والامين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته وتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى امورهم كما كان هو يتولاها ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع باجماع

قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفاسية وفي بعضها عبد الملك وأظنه تصحيفا اه نصر

الامة على جوازه وانعقاده اذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة واجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشورى الى الستة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوض بعضهم الى بعض حتى أفضى ذلك الى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علي فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته اياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعن دون اجتهاده فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملأ من الصحابة حاضرون للاولى والثانية ولم ينكره أحد منهم فدل على انهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والاجماع حجة كما عرف ولا يتهم الامام في هذا الامر وان عهد الى ابيه او ابنه لانه مأمون على النظر لهم في حياته فاولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافا لمن قال باتهامه في الولد والوالد أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد فانه بعيد من الظنة في ذلك كله لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من ايثار مصلحة او توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأسا كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعا معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية اذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظن انه أولى بها وعدل عن الفاضل الى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الاهواء الذي شأنه أهم عند الشارع وان كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فانهم كلهم اجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد الله بن عمر من ذلك انما هو محمول على تورعه من الدخول في شئ من الامور مباحا كان او محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور الا ابن الزبير وندور المخالف معروف ثم انه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم ايثار أبنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينيا فعند كل احد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسمو الى ذلك الى وازعه وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطاني والعصباني فلو عهد الى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعا وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف * سأل رجل عليا رضي الله عنه ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لان ابا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وانا اليوم وال على مثلك يشير الى وازع الدين أفلا ترى الى المأمون لما عهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف انكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه ابراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الامر حتى بادر المأمون من خراسان الى بغداد وردّ امرهم لمعاهده فلابد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لطفا من الله بعباده واما ان يكون القصد بالعهد

الموت أو الهرب منه وقالوا الملك العادل كالنهر الصافي ينتفع به الاشراف والاخيار ولا يضر أحدا والملك السوء مثل الجيفة يسرع اليها شرار الحيوان ويتحاماها الناس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله ليرعى بالسلطان ما لا يرعى بالقرآن معناه أي يدفع وقال كعب مثل الاسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والاطناب والاوتاد فالفسطاط الاسلام والعمود السلطان والاطناب والاوتاد الناس لا يصلح بعضهم الا ببعض وقال أردشير لابنه يابني ان الملك والدين اخوان لا غنى لاحدهما عن الآخر فالدين أس والملك حارس وما لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع يابني اجعل حديثك مع أهل المراتب وعطيتك لاهل الجهاد وبشرك لاهل الدين وسرك لمن عناه ما عناك ولتكن من أهل العقل وكان يقال الدين والسلطان توأمان

(الباب التاسع عشر في خصال جامعة لامر السلطان)

قالوا اظفر الملك بعدوه على حسب عدله في رعيته ونكوبه في حروبه على حسب جوره في عساكره واصلاح الرعية انفع من كثرة الجنود وقالوا تاج الملك عفافه وحصنه انصافه وسلاحه كفافه وماله رعيته وقالت حكماء الهند لا ظفر مع بغي ولا صحة مع نهم ولا بناء مع كبر ولا شرف مع سوء أدب ولا بر مع شح ولا اجتناب محرم مع حرص ولا ولاية حكم مع عدم فقه ولا سودد مع انتقام ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة وزارة ولما ولي أبو بكر رضي الله عنه

خطب فقال أيها الناس انه لا أحد أقوى عندي من المظلوم حتى آخذ له بحقه ولا أضعف من الظالم حتى آخذ الحق منه وقيل للاسكندر
بم نلت ما نلت قال باستمالة الاعداء والاحسان الى الاصدقاء وقال بزرجمهر سوسوا احرار الناس بمحض المودة

حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفا من العبث بالمناصب الدينية والملك لله يؤتيه من يشاء * وعرض هنا امور تدعو الضرورة الى بيان الحق فيها * فالاول منها ما حدث في يزيد من الفسق ايام خلافته فاياك ان تظن بمعاوية رضي الله عنه انه علم ذلك من يزيد فانه اعدل من ذلك وافضل بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه وهو أقل من ذلك وكانت مذاهبهم فيه مختلفة ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك ومنهم من أباه لما فيه من اثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لان شوكة يزيد يومئذ هي عصابة بني أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش وتستتبع عصبية مضر أجمع وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر على احد من الفريقين فمقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم والامر الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على انه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال ان أعهد فقد عهد من هو خير مني يعني أبا بكر وان أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه للدخول الى النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن شأنهما في العهد فأبى علي من ذلك وقال انه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل على ان عليا علم انه لم يوص ولا عهد الى أحد وشبهة الامامية في ذلك انما هي كون الامامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك وانما هي من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ولو كانت من اركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا دليل على أن الوصية لم تقع ويدل ذلك أيضا على ان أمر الامامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لان امر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من اجل الاحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج الى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة والاحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجموا منها ودهشوا من تتابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الانواع مندرجا في ذلك القبيل كما وقع فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهما من المهمات الاكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الاهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة اليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا

والعامة بالرغبة والرهبة والسفلة بالمخافة وقال الموبذان السياسة التي بها صلاح الملك الرفق بالرعية وأخذ الحق منهم في غير مشقة وسد الفروج وأمن السبل وان ينصف المظلوم من الظالم ولا يحمل القوي على الضعيف وقالوا الوالي من الرعية كالروح من الجسد لا حياة له الا به وبعد الوالي من اصلاح الرعية مع افساد نفسه كبعد الجسد مع البقاء بعد ذهاب الرأس والسلطان خليق أن يعود نفسه الصبر على من خالف رأيه من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم ولا ينبغي أن يحسد الا على حسن التدبير ولا أن يكذب لان احدا لا يقدر على استكراهه ولا أن يغضب لان الغضب والقدرة لقاح الشر والندامة ولا أن يبخل لانه أقل الناس خوفا من الفقر ولا أن يحقد لان قدره جل عن المجازاة ولا ينبغي للوالي أن يستعمل سيفه فيما يكتفي فيه بالسوط ولا سوطه فيما يكتفي فيه بالحبس ولا حبسه فيما يكتفي فيه بالجفاء والوعيد وقال معاوية اني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت اذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها ونحو هذا قول الشعبي كان معاوية كالجمل الطب والجمل الطب هو الحاذق بالشيء لا يضع يده الا حيث تبصر عينه وينبغي له أن يعلم رعيته أنه بالخيار

بالخيار في الفعل والترك كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الامور للالفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها والامر الثالث شأن الحروب الواقعة في الاسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم ان اختلافهم انما يقع في الامور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الادلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون اذا اختلفوا فان قلنا ان الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ فان جهته لا تتعين باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة ولا يتعين المخطئ منهما والتأثيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حق وان كل مجتهد مصيب فأحرى بنفي الخطا والتأثيم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين انه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في الاسلام انما هو واقعة علي مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فأما واقعة علي فان الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في الامصار فلم يشهدوا بيعة علي والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على امام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا في الامصار عدلوا عن بيعته أيضا الى الطلب بدم عثمان وتركوا الامر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لا في الممالأة عليه فحاش لله من ذلك ولقد كان معاوية اذا صرح بملامته انما يوجهها عليه في سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فرأى علي أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الامر في المطالبة بدم عثمان الى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك ورأى الآخرون ان بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة اهل الحل والعقد بالآفاق ولم يحضر الا قليل ولا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم او من القليل منهم وان المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام وذهب الى هذا معاوية وعمرو بن العاصي وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا الا أن اهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب اليه وتعين الخطا من جهة معاوية ومن كان على رأيه وخصوصا طلحة والزبير لانتقاضهما على علي بعد البيعة له فيما نقل مع دفع التأثيم عن كل من الفريقين كالشأن في المجتهدين وصار ذلك اجماعا من اهل العصر الثاني على احد قولي اهل العصر الاول كما هو معروف ولقد سئل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال والذي نفسي بيده لا يموتن احد من هؤلاء وقلبه نقي الا دخل الجنة يشير الى الفريقين نقله الطبري وغيره فلا يقعن عندك ريب في عدالة احد منهم ولا قدح في شيء من ذلك فهم من علمت واقوالهم وافعالهم انما هي عن المستندات وعدالتهم مفروغ منها عند اهل السنة الا قولا للمعتزلة فيمن قاتل عليا لم يلتفت اليه احد من اهل الحق ولا عرج عليه واذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس اجمعين في شأن الاختلاف في عثمان واختلاف الصحابة من بعد وعلمت انها كانت فتنة ابتلى الله بها الامة بينما المسلمون قد اذهب الله عدوهم وملكهم ارضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم

لا يصاب خيره الا بالمعونة له على الخير ولا ينبغي له أن يدع تفقد لطيف أمور الرعية اتكالا على نظره في جسيمها فان للطيف موقعا ينتفع به وقد آتى الله ملك الدنيا سليمان بن داود عليهما السلام ثم تفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد لان التهاون باليسير أساس الوقوع في الكبير وقد قال الشاعر

لا تحقرن شبيبا
كم جر شرا شبيب

وقالوا أصل الاشياء كلها شيء واحد ولا تدع مباشرة جسيم أمره فللجسيم موضع ان غفل عنه تفاقم ولا يلزم نفسه مباشرة الصغير أبدا فيضيع الكبير وقال زياد لحاجبه وليتك حجابتي وعزلتك عن أربع المؤذن للصلاة وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد سخنه فسد وصارخ الليل لشر دهاه وصاحب البريد فالتهاون بالبريد ساعة يخرب عمل سنة وكان أبو العباس السفاح يقول لأعملن اللين حتى لا ينفع الا الشدة ولا كثرن من الخاصة ما أمنتهم على العامة ولاغمدن سيفي حتى يسله الحق ولاعطين حتى لا أرى للعطية موضعا وقال أردشير لما كمل ملكه وأباد أعداءه انه لم يحكم حاكم على العقول كالعبر ولم يحكمها حكم كالتجربة وليس شيء أجمع للعقل من خوف وحاجة يتأمل بها صفحات حاله وكان عمر يقول ان هذا الامر لا يصلح له الا اللين في غير ضعف والقوة في غير عنف وقال الاصمعي قال لي الرشيد هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الاخلاق يقل لفظها ويسهل حفظها تكون لاغراضها اقفالا ولمقاصدها وفقا تشرح المستبهم وتوضح المستعجم قلت نعم يا أمير المؤمنين دخل أكثم بن صيفي حكيم العرب على بعض

ملوكها فقال له انى سائلك عن أشياء لاتزال بصدرى مختلجة وماتزال الشكوك عليها والجحة فانبئنى بما عندك فيها فقال أبيت اللعن سألت خبيرا واستنبأت بصيرا والجواب (١٢٨) يشفعه الصواب فسل عما بدا لك قال ما السودد قال اصطناع المعروف عند العشيرة واحتمال الجريرة قال فما الشرف قال كف الاذى وبذل الندى قال فما المجد قال حمل المغارم وابتناء المكارم قال فما الكرم قال صدق الاخاء فى الشدة قال فما العز قال شدة العضد وكثرة العدد قال فما السماحة قال بذل النائل وحب السائل قال فما الغنى قال الرضا بما يكفى وقلة التمنى قال فما الرأى قال لب تعينه تجربة قال له الملك أوريت زناد بصيرتى وأذكيت نار حيرتى فاحتكم قال لكل كلمة هجمة قال هى لك قال الاصمعى فقال لى الرشيد ولك بكل كلمة بدرة فانصرفت بثمانين ألفا وكان قس بن ساعدة يفد على قيصر فيكرمه فقال له يوما ما أفضل العقل قال معرفة الرجل بنفسه قال ما أفضل العلم قال وقوف الرجل عند علمه قال فما أفضل المروءة قال استبقاء الرجل ماء وجهه قال فما أفضل المال قال ماقضى به الحقوق

(الباب الموفى عشرين فى الخصال التى هى أركان السلطان)

قال أبو جعفر المنصور ما كان أحوجنى أن يكون على بابى أربعة لا يكون على بابى أعف منهم قيل من هم يا أمير المؤمنين قال هم أركان الملك لا يصلح الملك الا بهم كما أن السرير لا يصلح الا بأربع قوائم فان نقص قائمة واحدة عابه ذلك أحدهم قاض لا تأخذه

بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ولا هذبتهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم فى الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الايمان واذا بهم عند استفحال الدولة قد اصبحوا فى ملكة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز ويثرب السابقين الاولين الى الايمان فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والازد من اليمن وتميم وقيس من مضر فصاروا الى الغض من قريش والانفة عليهم والتمريض فى طاعتهم والتعلل فى ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدل فى القسم عن السوية وفشت القالة بذلك وانتهت الى المدينة وهم من علمت فأعظموه وابلغوه عثمان فبعث الى الامصار من يكشف له الخبر بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة واسامة بن زيد وامثالهم فلم ينكروا على الامراء شيأ ولا رأوا عليهم طعنا وأدوا ذلك كما علموه فلم ينقطع الطعن من أهل الامصار ومازالت الشناعات تنمو ورمى الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان وعزله ثم جاء الى المدينة من أهل الامصار يسألون عزل العمال وشكوا الى عائشة وعلى والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تنقطع بذلك ألسنتهم بل وفد سعيد بن العاصى وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولا ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه من العزل فأبى الا أن يكون على جرحة ثم نقلوا النكير الى غير ذلك من أفعاله وهو متمسك بالاجتهاد وهم ايضا كذلك ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاؤا الى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم فى ذلك على وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين الامور ورجوع عثمان الى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلا ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه فى يد حامله الى عامل مصر بان يقتلهم وحلف عثمان على ذلك فقالوا مكنا من مروان فانه كاتبك فحلف مروان فقال عثمان ليس فى الحكم أكثر من هذا فحاصروه بداره ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بامر الدين ولا يضيعون شيأ من تعلقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على احوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم الا خيرا لما شهدت به أحوالهم ومقالات الصادق فيهم واما الحسين فانه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة اهل البيت بالكوفة للحسين ان يأتيهم فيقوموا بامره فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لاسيما من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه باهليته وشوكته فاما الاهلية فكانت كما ظن وزيادة وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها لان عصبية مضر كانت فى قريش وعصبية قريش فى عبد مناف وعصبية عبد مناف انما كانت فى بنى أمية تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه وانما نسى ذلك أول الاسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحى وتردد الملائكة لنصرة المسلمين فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت ولم يبق الا العصبية الطبيعية فى الحماية والدفاع ينتفع بها فى اقامة الدين وجهاد المشركين والدين فيها محكم والعادة معزولة حتى اذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشئ للعوائد فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت وأصبحت مضر أطوع لبنى امية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل (فقد) تبين لك غلط الحسين الا أنه

فى

في الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فاني غني عن ظلمهم ثم عض على اصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه قال من هو يا امير المؤمنين (١٢٩) قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على

في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لانه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية اخوه وغيره في مسيره الى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما اراده الله وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وان كان فاسقا لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فاقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أثموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره فانهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكربلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك لعلمه انه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه وكذلك لا يذهب بك الغلط ان تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وان كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي الحنفي على شرب النبيذ واعلم ان الامر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وان كان خلافه عن اجتهادهم وانما انفرد بقتاله يزيد واصحابه ولا تقولن ان يزيد وان كان فاسقا ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم انه انما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعا وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الامام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضا واجتهاد وقد غلط القاضي ابو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه ان الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في امامته وعدالته في قتال أهل الآراء واما ابن الزبير فانه رأى في منامه ما رآه الحسين وظن كما ظن وغلطه في أمر الشوكة أعظم لان بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا اسلام والقول بتعين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل اليه لان الاجماع هنالك قضى لنا به ولم نجده ههنا وأما يزيد فتعين خطأه فسقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد لانه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وان لم يتعين في جهة منهما والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يجيء على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق هذا هو الذي ينبغي ان تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامة واذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين او ثلاثا ثم يفشو الكذب فجعل الخيرة وهي العدالة مختصة بالقرن الاول والذي يليه فاياك ان تعود نفسك أو لسانك التعرض لاحد منهم ولا يشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك وما اختلفوا الا عن بينة وما قاتلوا او قتلوا الا في سبيل جهاد او اظهار حق واعتقد مع ذلك ان اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامة ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه واكوانه واعلم انه على كل شيء قدير واليه الملجأ والمصير والله تعالى أعلم

الصحة وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يصلح الوالي الا باربع خصال ان نقصت واحدة لم يصلح له امر ولا نهي قوة على جمع المال من أبواب حله ووضعه في حقه وشدة لا جبروت فيها ولين لا وهن فيه

(الباب الحادي والعشرون في بيان حاجة السلطان الى العلم)

قال ابن المقفع اذا أكرمك الناس لمال او سلطان فلا يعجبك ذلك فان زوال الكرامة بزوالهما ولكن يعجبك ان أكرموك لادب أو علم أو دين اعلم ارشدك الله ان أكثر الناس حاجة الى التفقه أكثرهم عيالا واتباعا وحشما وأصحابا والخلق مستمدون من السلطان ماله من الخلائق السنية والطرائق العلية مفتقرون اليه في الاحكام وقطع التشاجر وفصل الخصام فهو احوج خلق الله الى معرفة العلوم وجمع الحكم وشخص بلا علم كبلد بلا أهل وأفضل ما في السلطان خصوصا وفي الناس عموما محبة العلم والتحلي به والشوق الى استماعه والتعظيم لحملته فان ذلك دليل على قوة الانسانية فيه وبعده من البهيمة ومضاهاته للعالم العلوي وهو من أوكد ما يحبب به الى الرعية واذا كان الملك خاليا من العلوم ركب هواه وأضر برعيته كالدابة بلا رسن تمر في غير طريق وقد تتلف ما تمر به واعلم أن زهر الفضائل وحسن المناقب وبهاء المحاسن وما ضاد ذلك من قبيح

٣٢ *(فصل فى الخطط الدينية الخلافية)*

لما تبين ان حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف فى الامرين اما فى الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية الذى هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم فى العمران البشرى وقد قدمنا ان هذا العمران ضرورى للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان اهملت وقدمنا ان الملك وسطوته كاف فى حصول هذه المصالح نعم انما تكون أكمل اذا كانت بالاحكام الشرعية لانه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة اذا كان اسلاميا ويكون من توابعها وقد ينفرد اذا كان فى غير الملة وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططا وتتوزع على رجال الدولة وظائف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذى تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره و يحسن قيامه بسلطانه وأما المنصب الخلافى وان كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذى ذكرناه فتصرفه الدينى يختص بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميين فلنذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع الى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم ان الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الامامة الكبرى التى هى الخلافة فكأنها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها فى سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ احكام الشرع فيها على العموم فاما امامة الصلاة فهى ارفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة فى شأن ابى بكر رضى الله عنه باستخلافه فى الصلاة على استخلافه فى السياسة فى قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس واذا ثبت ذلك فاعلم ان المساجد فى المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة وأخرى دونها مختصة بقوم اومحلة وليست للصلوات العامة فاما المساجد العظيمة فامرها راجع الى الخليفة اومن يفوض اليه من سلطان أووزير اوقاض فينصب لها الامام فى الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك انما هو من طريق الاولى والاستحسان ولئلا يفتات الرعايا عليه فى شئ من النظر فى المصالح العامة وقد يقول بالوجوب فى ذلك من يقول بوجوب اقامة الجمعة فيكون نصب الامام لها عنده واجبا * واما المساجد المختصة بقوم اومحلة فامرها راجع الى الجيران ولا تحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة فى كتب الفقه ومبسوطة فى كتب الاحكام السلطانية للماوردى وغيره فلا نطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الاولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء فى المسجد عند الاذان بالصلاة وترصدهم لذلك فى أوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخلفون فيها وكذا كان رجال الدولة الاموية من بعدهم استئثارا بها واستعظاما لمرتبتها يحكى عن عبد الملك انه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابى الا عن ثلاثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والآذن بالصلاة فانه داع الى الله والبريد فان فى تأخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس فى دينهم ودنياهم استنابوا فى الصلاة فكانوا يستأثرون بها فى الاحيان وفى الصلوات العامة كالعيدين والجمعة اشادة وتنويها فعل ذلك كثير من خلفاء بنى العباس والعبيديين صدر دولتهم وأما الفتيا فللخليفة تفصح أهل العلم والتدريس ورد الفتيا الى من هو اهل لها واعانته على ذلك ومنع من ليس أهلا لها وزجره لانها من مصالح

المثالب وخفش الرذائل كل ذلك يظهر عليك و يعظم منك بقدر ما أوتيته من علو المنزلة وشرف الحظوة فيكون حسنك أحسن كما يكون قبحك أقبح وليس أحد من أهل (١٣٠) الدرجات السنية والمراتب العلية أحوج الى مجالسة العلماء وصحبة الفقهاء ودراسة كتب العلوم والحكم ومطالعة دواوين العلماء ومجامع الفقهاء وسير الحكماء من السلطان وانما كان ذلك من وجهين أحدهما انه قد نصب نفسه لممارسة أخلاق الناس وفصل خصوماتهم وتعاطى حكوماتهم وكل ذلك يحتاج الى علم بارع ونظر ثاقب و بصيرة بالعلم قوية ودراسة طويلة فكيف يكون حاله لولم يعد لهذه الامور عدتها ولم يقدم لها أهبتها والثانى أن من سواه من الناس لا يعدمون من ينكر عليهم و يعارضهم و يذاكرهم مساويهم و يخالفهم فى مذاهبهم فيكون ذلك مما يعينهم على رياضة أنفسهم وتعلمهم مراشدهم ومناظرة الاكفاء ومعاشرة النظراء تلقيح العقول وتهذيب النفوس وتدريب لمأخذ الاحكام بخلاف السلطان فان ارتفاع درجته يقطع عنه جميع ذلك اذلا يلقاه ولا يجالسه الا معظم لقدره مبجل لشأنه وساتر لمساويه ومادح له بما ليس فيه وانما جوابه لهم صدق الامير وعلى قدر المرتبة يكون علو السقطة كما أن على قدر ارتفاع الحائط يكون صوت الوجبة *(فصل)* يا أيها الملك ليس أحد فوق أن يؤمر بتقوى الله ولا أحد دون المسلمين ان يؤمر بتقوى الله ولا أحد أجل قدرا من أن يقبل أمر الله ولا أرفع خطرا من ان يتعلم حكم الله ولا اعلى شأنا من ان يتصف بصفات الله ومن

المسلمين في اديانهم فيجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له باهل فيضل الناس وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فان كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها والنظر في أئمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وان كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على اذن على انه ينبغي ان يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له باهل فيضل به المستهدي ويضل به المسترشد وفي الاثر أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على جراثيم جهنم فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من اجازة أو رد * وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع الا انه بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم ولا يجعلون القضاء الى من سواهم وأول من دفعه الى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى أبا موسى الاشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه يقول أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلي اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعماء المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في نسب أو ولاء فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام انتهى كتاب عمر وانما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وان كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية فاستخفوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفا على انفسهم وكانوا مع ذلك انما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك واما احكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة في كتب الفقه وخصوصا كتب الاحكام السلطانية الا ان القاضي انما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الامر على انه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء على رأي من رآه والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي وكانه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن امضائه ويكون نظره في البينات

صفات الله العلم الذي وصف به سبحانه نفسه وتمدح بسعته فقال تعالى وسع كرسيه السموات والارض والكرسي هو العلم والكراسي هم العلماء واذا كان العلم فضيلة فرغبة الملوك وذوي الاخطار والاقدار والاشراف والشيوخ فيه أولى لان الخطأ فيهم أقبح والابتداء بالفضيلة فضيلة (حكي) ان ابراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال يا عم ما عندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر فقال المأمون لم لا تتعلم اليوم فقال او يحسن بمثلي طلب العلم فقال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن العلم قال ما حسنت بك الحياة وروي أن بعض الحكماء رأى شخصا يطلب العلم ويحب النظر فيه ويستحيي فقال يا هذا أتستحيي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله ولان الصغير أعذر وان لم يكن في الجهل عذر وفي منثور الحكم جهل الشباب معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما كان الصغير أفضل منه لان الامل فيه أقوى وحسبك نقيصة في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه وكما ذكرنا من حاجة الشيخ الى العلم فحاجة السلطان اليه أكثر ودواعيه الى اكتسابه أشد لان من عداه انما تخصه نفسه الواحدة فيقرب عليه تحصيل ما يقوم بها والملك منتصب لسياسة اهل مملكته وتعليمهم وتقويم اودهم فهو الى العلم أحوج قال الشاعر

اذا لم يكن مر السنين مترجما *

فمن الفضل في الانسان سمينه طفلا وما تنفع الاعوام حين تعدها ولم تستفد فيهن علما ولا عقلا أرى الدهر من سوء التصرف مائلا *
الى كل ذي جهل كأن به جهلا (١٣٢) وقال بعض الحكماء كل عز لا يوطده علم مذلة وكل علم لا يؤكده عقل مضلة وكيف يستنكف

والنظر في اعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي * وكان الخلفاء الاولون يباشرونها بأنفسهم الى أيام المهتدي من بني العباس وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي ادريس الخولاني وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم والمعتصم لاحمد بن أبي داود وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالطائفة الى أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالاندلس فكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب وكان أيضا النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية بالاندلس والعبيديين بمصر والمغرب راجعا الى صاحب الشرطة وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوسي فيها أمر الخلافة فصار أمر المظالم راجعا الى السلطان كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالي وتارة باسم الشرطة وبقي قسم التعازير واقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعا فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته واستقر الامر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة لان الامر لما كان خلافة دينية وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها الا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع اليه * ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الامر كله ملكا أو سلطانا صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لانها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه ثم خرج الامر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافية بعدا عنهم بمنحاها وعصبيتها وذلك ان العرب كانوا يرون ان الشريعة دينهم وان النبي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الامم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك انما يولونها جانبا من التعظيم لما دانوا بالملة فقط فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الامصار ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الاهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضر المنغمسين في الترف والدعة البعداء عن عصبية الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملة واخذها باحكام الشريعة لما انهم الحاملون للاحكام المقتدون بها ولم يكن ايثارهم في الدولة حينئذ اكراما لذواتهم وانما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وان حضروه فحضور رسمي لا حقيقة وراءه اذ حقيقة الحل والعقد انما هي لاهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه اللهم الا أخذ الاحكام الشرعية عنهم وتلقي

ملك أو ذو منزلة علية عن طلب العلم وهذا موسى عليه السلام ارتحل من الشام الى مجمع البحرين في أقصى المغرب على بحر الظلمات الى لقاء الخضر ليتعلم منه فلما ظفر به قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا هذا وهو نبي الله وكليمه وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته من جميع خلقه قد اوصاه ربه وعلمه كيف يستنزل ما في خزائنه فقال وقل رب زدني علما فلو كان في خزائنه أشرف من العلم لنبهه عليه وهذا آدم عليه السلام لما فخرت الملائكة بتسبيحها وتقديسها الى بها فخر آدم بالعلم فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين فلما عجزوا أمرهم بالسجود له وأخلق بخصلة تستدعي السجود لحاملها ان يتنافس فيها كل ذي لب وهذا فصل الخطاب لمن تدبره ولا تصدن لك عن ذرائعها روي في بعض الاخبار مثل الذي يتعلم العلم في الصغر كالوشم على الصخر والذي يتعلم في الكبر كالنقش على الماء فقد سمع الاحنف رجلا يقول التعلم في
الصغر كالنقش في الحجر فقال الكبير أكبر عقلا ولكنه أشغل قلبا ففحص عن المعنى ونبه عن العلة   القتاوى
وقد كان أصحاب النبي عليه السلام يسألون شيوخا وكهولا واحداثا وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن وهم بحور العلم وأطواد الحكم

الفتاوى منهم فنعم والله الموفق وربما يظن بعض الناس ان الحق فيما وراء ذلك وان فعل الملوك فيما فعلوه من اخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان انما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضي لهم شيأ من ذلك لان الشورى والحل والعقد لا تكون الا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل او عقد او فعل او ترك واما من لا عصبية له ولا يملك من امر نفسه شيأ ولا من حمايتها وانما هو عيال على غيره فاي مدخل له في الشورى او اي معنى يدعو الى اعتباره فيها اللهم الا شوراه فيما يعلمه من الاحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة واما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة احوالها واحكامها وانما اكرامهم من تبرعات الملوك والامراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب اليه باي جهة انتسب واما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان الفقهاء في الاغلب لهذا العهد وما احتف به انما حملوا الشريعة اقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج الى العمل بها هذه غاية اكابرهم ولا يتصفون الا بالاقل منها وفي بعض الاحوال والسلف رضوان الله عليهم واهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها فمن حملها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل اهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الامران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والائمة الاربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على اثرهم واذا انفرد واحد من الامة باحد الامرين فالعابد احق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد لان العابد ورث صفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيأ انما هو صاحب اقوال ينصها علينا في كيفيات العمل وهؤلاء اكثر فقهاء عصرنا الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم

(العدالة) وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الاشهاد واداء عند التنازع وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس واملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من المران (١) على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كانهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وانما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح احوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وان لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه واذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الامصار واشتباه الاحوال واضطرار القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولون غالبا في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي اخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى اعلم   *(الحسبة والسكة)* اما الحسبة فهي وظيفة دينية من

(١) قوله المران بكسر الميم التمرن والاعتياد على الشيء اه

والفقه غير ان العلم في الصغر ارسخ اصولا واسبق فروعا وليس اذا لم يحرزه يفوته كله   قال رجل لابي هريرة رضي الله عنه اني اريد ان اتعلم العلم واخاف ان اضيعه فقال ابو هريرة كفى بتركك له تضييعا وبعض الخير خير من كل الشر وانما مثل الجاهل تحت غب الجهل مثل الحمال تحت حمل ثقيل فانه كلما انقصه قليلا قليلا يوشك ان ينقصه كله فيستريح منه وان هو لم يطرح القليل حتى يطرح الكثير فما اوشكه ان يصرعه حمله وكذلك الجاهل اذا تعلم قليلا قليلا يوشك ان يأتي على بقيته وان لم يتعلم في الكبر لما فاته في الصغر فاوشك به ان يموت تحت غب الجهل

(الباب الثاني والعشرون في وصية امير المؤمنين علي ابن ابي طالب)

رضي الله عنه لكميل بن زياد في العلم واهله قال كميل بن زياد النخعي خرجت مع علي بن ابي طالب رضي الله عنه الى الجبانة فلما اصحر تنفس الصعداء ثم قال يا كميل بن زياد ان القلوب اوعية فخيرها اوعاها للخير احفظ عني ما اقول لك الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤا منه الى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزكو على الانفاق والمال تنقصه النفقة والعلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العالم دين يدان الله به يكسبه الطاعة في حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته مات خزان الاموال وهم احياء والعلماء باقون ما بقي الدهر اشخاصهم مفقودة وامثالهم في القلوب موجودة ها ان ههنا واشار

باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلا له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع او استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين وله أيضا حمل المماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة اغراضها فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وافردت بالولاية

(وأما السكة) فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش او النقص ان كان يتعامل بها عددا أو ما يتعلق بذلك ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة فان السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية وانما ترجع غايته الى الاجتهاد فاذا وقف أهل أفق او قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها اماما وعيارا يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمماثلته فان نقص عن ذلك كان زيفا والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضي ثم أفردت لهذا العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية وبقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية فوظيفة الامارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية نتكلم عليها في أماكنها بعد وظيفة الجهاد ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه الا في قليل من الدول يمارسونه ويدرجون أحكامه غالبا في السلطانيات وكذا نقابة الانساب التي يتوصل بها الى الخلافة أو الحق في بيت المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسومها وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد والله مصرف الامور كيف يشاء

٣٣ *(فصل في اللقب بامير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء)*

وذلك انه لما بويع ابو بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الامر على ذلك الى أن هلك فلما بويع لعمر بعهده اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنهم استثقلوا هذا اللقب بكثرته وطول اضافته وانه يتزايد فيما بعد دائما الى أن ينتهي الى الهجنة ويذهب منه التمييز بتعدد الاضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الامير وهو فعيل

بيده الى صدره لعلما جما لو اصبت له حملة بلى قد اصبت له لقنا غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بحجج الله تعالى على كتابه او كافا لو بنعمته على عباده أو منقادا لاهل الحق لا بصيرة له في احنائه ينقدح الشك في قلبه باول عارض من شبهة الالا ذا ولا ذاك أو منهوما باللذات سريع الانقياد للشهوات أم آخر شأنه جمع المال والادخار ليسا من رعاة الدين أقرب شبها بهما الانعام السائمة اللهم فكذلك يموت العلم بموت حامليه ولكن لن تخلو الارض من قائم لله سبحانه بحجة لئلا تبطل حجج الله وبيناته ومن أولئك وأين أولئك أولئك الاقلون عددا الاكثرون عند الله قدرا تخزن الحكمة في قلوبهم حتى يزرعوها في قلوب أشباههم ويودعوها في صدور نظرائهم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوحشه المترفون واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا باجساد ارواحها متعلقة بالمحل الاعلى اولئك خلفاء الله في بلاده ودعاته الى دينه آه شوقا الى رؤيتهم

(الباب الثالث والعشرون في العقل والدهاء والخبث) قد ذكرت في كتاب الاسرار حقيقة العقل وأقسامه ومحله وأحكامه بما لا مزيد عليه ونذكر ههنا منافعه ومداركه ولباب ما تحرر من القول فيه انه الاستشهاد بالشاهد على الغائب فمن كان في طوقه من أن يستدل بما شاهد على ما غاب عنه كان معه عقل ويسمى عاقلا عند الموحدين وبه يتوجه التكليف عليه وذلك أن من نظر الى قصر

من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة أيضا يدعون سعد بن ابي وقاص امير المؤمنين لامارته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين يومئذ واتفق ان دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا امير المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال ان أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاصي والمغيرة بن شعبة وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر يقول أين أمير المؤمنين وسمعها اصحابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه انه والله أمير المؤمنين حقا فدعوه بذلك وذهب لقباله في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية ثم ان الشيعة خصوا عليا باسم الامام نعتا له بالامامة التي هي أخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم في انه أحق بامامة الصلاة من ابي بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون بالامام ما داموا يدعون لهم في الخفاء حتى اذا يستولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده الى امير المؤمنين كما فعله شيعة بني العباس فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالامام الى ابراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على أمره فلما هلك دعي أخوه السفاح بامير المؤمنين وكذا الرافضة بافريقية فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر الى عبيد الله المهدي وكانوا أيضا يدعونه بالامام ولابنه ابي القاسم من بعده فلما استوثق لهم الامر دعوا من بعدهما بامير المؤمنين وكذا الادارسة بالمغرب كانوا يلقبون ادريس بالامام وابنه ادريس الاصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بامير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشأم والعراق المواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا لاسمائهم الاعلام عن امتهانها في ألسنة السوقة وصونا لها عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد الى آخر الدولة واقتفى أثرهم في ذلك العبيديون بافريقية ومصر وتجافى بنو أمية عن ذلك بالمشرق قبلهم من الغضاضة والسذاجة لان العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة وأما بالاندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية وانهم انما منعوا بامارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس حتى اذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد بن الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط لاول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعيثهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وافريقية وتسمى بامير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله وأخذت من بعده عادة ومذهبا لقن عنه ولم يكن لآبائه وسلفه وقومه واستمر الحال على ذلك الى أن انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء افريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالاندلس على امر بني أمية واقتسموه وافترق امر الاسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالالقاب بعد أن تسموا جميعا باسم السلطان * فاما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بالقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك

قد كمل بناؤه وحصنت أركانه وجعلت فيه من الآلات ما يكتفي به ساكنوه فاشرف عليه انسان فرأى بيوتا مقطوعة وأبوابا منصوبة وفرشا مفروشة وزرابي مبثوثة وموائد موضوعة وصحافا مصفوفة وأرائك منصوبة وحجلا مشدودة وطسوتا وأباريق وبيوت ماء ومآزيب تصب الماء وتحتها بلاليع لغيض الماء الى سائر ما يستعده العقلاء للانتفاع ثم فكر هل هذا القصر بما حواه صنعة قادر صانع عالم حي أو اتفق لنفسه وتركب على صورته بلا صانع فيستقر في عقله بالضرورة استحالة وجوده من غير صانع وانه مفتقر الى صانع صنعه وهذا علم يهجم على العقول لا يفتقر الى نظر واستدلال وانما كثرت لك هذه الامثلة لان ما في الانسان من الاعضاء ولطف الصنعة والعجائب أكثر مما في القصر بأضعاف مضاعفة فاذا نظر الى ما في نفسه فرأى فيها من العجائب والتركيب ومنفعة كل عضو وتخصيصه اما لجلب نفع أو دفع ضر فانعم نظره في عضو واحد مثلا وهو فمه فيرى في أوله اسنانا تشبه الفاس تصلح للقطع وفي آخره طواحين مدرسة تصلح للطحن وشدقين كأنهما أثقال الرحى يمنعان ان ينهرق الطعام الى خارج ولسانا يرد ما انقلب من الطعام الدنه على الطواحين ثم يلي ذلك بلعوم لازدراده بعد الطحن علم بادنى تأمل ان هذه الخلقة ما انفعلت بنفسها اتفاقا بل هي مفتقرة الى قصد قاصد وجعل جاعل وعلى هذا النمط لو ذهبنا نذكر منفعة كل عضو لوقفت على العجب ولكن تركناه كراهية التطويل وعلى هذا المعنى نبه الكتاب المهيمن فقال تعالى

وفي أنفسكم أفلا تبصرون و بهذه العبرة تستقل العقول باثبات الصانع وتستغني عن النظر في الجواهر والاعراض فالعلم المفيد لاثبات الصانع في الشاهد مثل البناء والنجار (١٣٦) والخياط وأشباههم بعد النظر في صنائعهم على اضطرار والعلم المثبت للصانع سبحانه عند النظر في حدوث العالم علم استدلال اعتبارا للغائب بالشاهد اذ لا فرق في العقول بين صنعة وصنعة في اقتضاء صانع وانما كان العلم في الشاهد ضروريا لان الانسان لم يزل يرى البناء يبني والخياط يخيط والنجار ينجر الخشب ولم تر العقلاء القديم سبحانه يخلق و يخترع وانما استفادوه من النظر في الشاهد فان قيل فاي العلمين أقوى في النفوس وأثبت في العقول العلم بالصانع النظر في السرير واقتضائه للنجار أم العلم بالاله عند النظر في السموات والارضين وما بينهما فالجواب ان هذا يستدعي تفصيلا وتدقيقا وليس هذا الكتاب موضوعا لذلك فحينئذ نعلم ان معه عقلا غريزيا وتمييزا عاقلا وتوجه التكليف عليه وهو العقل التكليفي واذا ثبت هذا فاعلم ان الله تعالى خلق الخلق على أربعة أنحاء ملائكة وآدميين وشياطين و بهائم فاما الملائكة فعقول بلا شهوات ولا هوى يقارنه وأما البهائم فشهوات بلا عقول وأما الشياطين والجن فركب الله فيها العقول والشهوات والهوى وهكذا ركب في بني آدم العقل والهوى والشهوة فصل فغلبت شهوات الشياطين وهواهم عقولهم فقطعوا أوقاتهم بالاخلاق المذمومة بالكبر والعجب والمقت والفخر والدعوى والحسد

وامثال هذه وكان العبيديون أيضا يخصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الالقاب وتجافوا عن القاب الخلافة أدبا معها وعدولا عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة الى انتحال الالقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها الى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين * وأما ملوك الطوائف بالاندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن ابي شرف ينعي عليهم

مما يزهدني في ارض أندلس * اسماء معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها * كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

وأما صنهاجة فاقتصروا على الالقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الالقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيأ من هذه الالقاب الا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من أهل الخير والاقتداء نزعت به همته الى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي ابا بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته اياه على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخاطبه فيه بامير المؤمنين تشريفا له واختصاصا فاتخذها لقبا ويقال انه كان دعي له بامير المؤمنين من قبل أدبا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على أثرهم داعيا الى الحق آخذا بمذاهب الاشعرية ناعيا على أهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول اليه ذلك من التجسيم كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى اتباعه الموحدين تعريضا بذلك النكير وكان يرى رأي أهل البيت في الامام المعصوم وانه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمي بالامام أولا لما قلناه من مذهب الشيعة في القاب خلفائهم وأردف بالمعصوم اشارة الى مذهبه في عصمة الامام وتنزه عند اتباعه عن أمير المؤمنين اخذا بمذاهب المتقدمين من الشيعة ولما فيها من مشاركة الاغمار والولدان من أعقاب اهل الخلافة يومئذ بالمشرق ثم انتحل عبد المؤمن ولي عهده اللقب بامير المؤمنين وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استئثارا به عمن سواهم لما دعا اليه شيخهم المهدي من ذلك وأنه صاحب الامر وأولياؤه من بعده كذلك دون كل احد لانتفاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم ولما انتقض الامر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة في انتحال اللقب بامير المؤمنين ادبا مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولا ولبني أبي حفص من بعدهم ثم نزع المتأخرون منهم الى اللقب بامير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغا في منازع الملك وتتميما لمذاهبه وسماته والله غالب على أمره

والاذية وسائر الاخلاق المهلكة وأما البهائم فتقضت أوقاتها فى شهوات البطن والفرج وأما الآدميون فركب فيهم عقول الملائكة وأخلاق الشياطين وشهوات البهائم فمن غلب عقله هواه منهم فكأنه من عالم الملائكة كالانبياء والرسل والاولياء والأصفياء وقليل ما هم وأما من كان عقله مغلوبا بهواه وشهواته فان كان ذلك من المباحات من المطاعم والملابس والمراكب والنساء والخيل المسومة والانعام والحرث فاكل وتمتع بعد ان كسبه من حله فهذا من عالم البهائم وانما ألحقناه بعالم البهائم لانه لا تكليف على البهائم وكذلك هذه المباحات لا حرج فى الاستمتاع بها بعد ان يكون كسبه من حله وان كان الغالب عليه أخلاق الشياطين من الكبر والعجب والحسد والغش الى سائر الاخلاق المذمومة فهذا من عالم الشياطين وان اجتمع فى الشخص افراط الشهوات واتباع الهوى والاخلاق المذمومة فيكون آدميا فى صورته شيطانا فى اخلاقه بهيمة فى شهواته فلا يصلح للصحبة وان ثبت هذا فاعلم ان هذا العقل الغريزى أطول رقدة من العين وأحوج الى الشحذ من السيف *(فصل)* فاما العقل المكتسب وهو نتيجة العقل الغريزى فهو نهاية المعرفة واصابة الفكرة وليس له حد ينتهى اليه لانه ينمو اذا استعمل وينقص ان أهمل ونماؤه يكون باحد وجهين اما ان يقارنه من مبدا النشوء كالوحسن فطنة كالذى قال الاصمعى قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحدثنى وأمتعنى الله بفصاحته وملاحته أيسرك ان يكون لك مائة الف درهم وأنك أحمق

٣٤ *(فصل فى شرح اسم البابا والبطرك فى الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود)*

(اعلم) ان الملة لابد لها من قائم عند غيبة النبي يحملهم على احكامها وشرائعها ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكاليف والنوع الانساني ايضا بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشرى لابد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا وكرها اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها اليهما معا واما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا فى المدافعة فقط فصار القائم بامر الدين فيها لا يعنيه شئ من سياسة الملك وانما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولامر غير دينى وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم كما فى الملة الاسلامية وانما هم مطلوبون باقامة دينهم فى خاصتهم ولذلك بقى بنو اسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنة لا يعتنون بشئ من أمر الملك انما همهم اقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كانه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم امر الصلاة والقربان ويشترطون فيه ان يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه لان موسى لم يعقب ثم اختاروا لاقامة السياسة التى هى للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن اعظم منهم رتبة فى الدين وابعد عن شغب الاحكام واتصل ذلك فيهم الى ان استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الارض التى أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والارمن وأردن وعمان ومأرب ورياستهم فى ذلك راجعة الى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحوا من أربعمائة سنة ولم تكن لهم صولة الملك وضجر بنو اسرائيل من مطالبة الامم فطلبوا على لسان شمويل من انبيائهم ان يأذن الله لهم فى تمليك رجل عليهم فولى طالوت وغلب الامم وقتل جالوت ملك الفلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتد الى الحجاز ثم اطراف اليمن ثم الى اطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية فى الدول كما قدمناه الى دولتين كانت احداهما بالجزيرة والموصل للاسباط العشرة والاخرى بالقدس والشام لبنى يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بختنصر ملك بابل على ما كان بايديهم من الملك أولا الاسباط العشرة ثم ثانيا بنى يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو الف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم الى اصبهان وبلاد العراق الى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس الى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الاول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الاسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود فى ملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بنى حشمناى وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت امرهم ثم رجعوا الى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس اصهار بنى حشمناى وبقية دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأفحشوا فى القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها الى رومة وما وراءها وهو الخراب الثانى للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك فى ملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن * ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين

قال لا والله قلت ولم قال أخاف ان يجنى على جنى جناية تذهب بمالى و يبقى على جنى فاستفرج هذا الصبى بفرط ذكائه ماندق على من هو أكبر منه سنا وقيل لبعض

وغايته اصابة الوهم وليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية ألا ترى ان اياس بن معاوية الذى يضرب المثل بذكائه قال لابيه وهو طفل وكان أبوه يؤثر أخاه عليه يا أبت تعلم ما مثلى ومثل أخى معك أنا كفرخ الحمام أقبح ما يكون أصغر ما يكون وكلما كبر ازداد ملاحة وحسنا فتبتغى له العلالى و يتخذ له المربعات و يستحسنه الملوك ومثل أخى مثل الجحش أملح ما يكون أصغر ما يكون وكلما كبر قبح وصار الى القهقرى انما يصلح لحمل الزبل والتراب والوجه الثانى ما يصلح لذوى الحنكة وصحة الروية لطول ممارسة الامور وكثر التجارب ومرور الغير على اسماعهم وتقلب الايام وتصرف الحوادث وتناسخ الدول قد مرت على عيونهم وجوه الغير وتصدت لاسماعهم أنواع الاخبار وآثار العبر قال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأدبا و بتقلب الايام عظة وقالوا التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل ولذلك حمدت آراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار و ينابيع

والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثنى عشر و بعث منهم رسلا الى الآفاق داعين الى ملته وذلك ايام اوغسطس اول ملوك القياصرة وفى مدة هيردوس ملك اليهود الذى انتزع الملك من بنى حشمناى اصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيردوس ملكهم ملك القياصرة اوغسطس يغريه به فأذن لهم فى قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الحواريون شيعا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين الى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذى انزل على عيسى صلوات الله عليه فى نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى انجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى منهم الى اللسان اللطينى وكتب لوقا منهم انجيله باللطينى الى بعض اكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدى منهم انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطينى ونسبه الى مرقاس تلميذه واختلفت هذه النسخ الاربع من الانجيل مع انها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام و بكلام الحواريين وكلها مواعظ وقصص والاحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد اقليمنطس تلميذ بطرس و كتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهى خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا واسفار الملوك اربعة وسفر بنيامين وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب اوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق ومزامير داود عليه السلام وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الانبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلقاة من الحواريين نسخ الانجيل الاربعة وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الابريكسيس فى قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب اقليمنطس وفيه الاحكام وكتاب أبوغالمسيس وفيه رؤيا يوحنا بن زبدى واختلف شأن القياصرة فى الاخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها اخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغى الى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه الى ما بعد عنه من امم النصرانية و يسمونه الاسقف اى نائب البطرك و يسمون الامام الذى يقيم الصلوات و يفتيهم فى الدين بالقسيس و يسمون المنقطع الذى حبس نفسه فى الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم فى الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية الى أن قتله نيرون خامس القياصرة فيمن قتل من البطارق والاساقفة ثم قام بخلافته فى كرسى رومة اريوس وكان مرقاس الانجيلى بالاسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها وجعل معه اثنى عشر قسا على أنه اذا مات البطرك يكون واحد من الاثنى عشر مكانه و يختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثانى عشر فكان امر البطاركة الى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم فى قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق فى الدين واتفق ثلثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأى واحد فى الدين فكتبوه وسموه الامام وصيروه أصلا يرجعون اليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع فى تعيينه الى اجتهاد الاقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وابطلوا ذلك الرأى وانما يقدم عن ملا واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الامر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك فى تقرير قواعد الدين وكانت لهم

الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وعليكم بآراء الشيوخ فانهم ان عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الايام حنكة وتجربة وقد قال الشاعر

ألم تران العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

مجتمعات في تقريره ولم يخالفوا في هذه القاعدة فبقي الامر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الاساقفة عن البطاركة وكان الاساقفة يدعون البطرك بالاب أيضا تعظيما له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بالاسكندرية فارادوا ان يميزوا البطرك عن الاسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم اول ظهوره بمصر على مازعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسي الاعظم عندهم وهو كرسي رومة لانه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه الى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة الى ان استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقهم ولا يلتفتون الى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ولم نر ان نسخم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهي على الجملة معروفة وكلها كفر كما صرح به القرآن الكريم ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال انما هو الاسلام او الجزية أو القتل ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة للافرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في اقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الافرنجة انه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون اليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجا من افتراق الكلمة ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرذور وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمة ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الانبرذور وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

٣٥ *(فصل في مراتب الملك والسلطان وألقابهما)*

اعلم ان السلطان في نفسه ضعيف يحمل امرا ثقيلا فلا بد له من الاستعانة بابناء جنسه واذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بامضاء الاحكام الوازعة فيهم وكف العدوان عليهم في أموالهم باصلاح سابلتهم والى حملهم على مصالحهم وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش والمكاييل والموازين حذرا من التطفيف والى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش والى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قال بعض الاشراف من الحكماء لمعاناة نقل الجبال من اماكنها اهون علي من معاناة قلوب الرجال ثم ان الاستعانة اذا كانت بأولي القربى من اهل النسب او التربية او الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه فتتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى واجعل لي وزيرا من اهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري وهو اما ان يستعين في ذلك بسيفه او قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم او يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفترق في أشخاص وقد يتفرع كل واحد منها الى فروع

اذا طال عمر المرء في غير آفة * أفادت له الايام في كرها عقلا

غير ان للعقل آفات كما قال بعض الحكماء كيف يرجو العاقل النجاة والهوى والشهوة قد اكتنفاه والهوى أبعد من ان ينفذ فيه حيلة الحازم المحتال وهو أغمض مسلكا في الجنان من الروح في الجثمان وأملك بالنفس من النفس والمالك للشئ ولهذا قيل كم من عقل أسير عند هوى أمير فمن أحب ان يكون حرا فلا يهوى والا صار عبدا كما قال علي بن الجهم

أنفس حرة ونحن عبيد * ان رق الهوى لرق شديد

واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد في الانسان هل يكون فضيلة أم لا فقال معظم العقلاء انه فضيلة اذا كان مجموع آحاد والآحاد فضائل ولا شك ان كثرة الفضائل فضيلة اما الشئ المحدود فتكون الزيادة فيه نقصا من المحدود كالتهور في الشجاعة والتبذير في الكرم فاما الزيادة في العقل المكتسب فزيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة مالم يكن بما قد كان وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أفضل الناس أعقل الناس وقال عليه السلام العقل حيث كان ألف مألوف وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب الخصال عليه ولما مات بعض الخلفاء احتشدت الروم واجتمعت ملوكها وقالوا الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فيمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وضربوا في ذلك مشاورات وتراجعوا فيه بالمناظرات وأجمعوا على انه فرصة الدهر وثغرة النحر وكان رجل منهم من ذوي الرأي والمعرفة غائبا عنهم فقالوا من الحزم عرض

كثيرة كالقلم يتفرع الى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات والى قلم المحاسبات وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور * ثم اعلم ان الوظائف السلطانية في هذه الملة الاسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه فالاحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها لعموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضا منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي وفي نظره في الاحكام والاموال وسائر السياسات مطلقا أو مقيدا أو في موجبات العزل ان عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة او جباية أو ولاية لابد للفقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الاسلامية على رتبة الملك والسلطان الا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته انما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من احكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج الى تفصيل أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الاحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء فان أردت استيفاءها فعليك بمطالعتها هنالك وانما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط لا لتحقيق احكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا وانما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الانساني والله الموفق

(الوزارة) وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها يدل على مطلق الاعانة فان الوزارة مأخوذة اما من المؤازرة وهي المعاونة او من الوزر وهو الثقل كانه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة وقد كنا قدمنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة لانها اما أن تكون في امور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب وأما ان تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذه الاوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب واما ان تكون في امور جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه ان يكون بضيعة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق واما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الاربعة بوجه وكل خطة أو رتبة من رتب الملك والسلطان فاليها يرجع الا أن الارفع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف اذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائما ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه وأما ما كان خاصا ببعض الناس او ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الاخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام او النظر في السكة فان هذه كلها نظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها تبعا لاهل النظر العام وتكون رتبته مرؤوسة لأولئك ومازال الامر في الدول قبل الاسلام هكذا حتى جاء الاسلام وصار الامر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك الى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله اذ هو أمر لابد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات اخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول واحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون

الرأي عليه فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال لا أرى ذلك صوابا فسألوه عن علة ذلك فقال غدا أخبركم ان شاء الله فلما أصبحوا غدوا عليه للوعد وقالوا لقد وعدتنا قال نعم فامر باحضار كلبين عظيمين قد أعدهما ثم حرش بينهما وألب كل واحد على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل منه على الكلبين ذئبا عنده قد أعده فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب فنالا منه ما أحبا ثم اقبل الرجل على اهل الجمع فقال لهم مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج والقتال بينهم ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم فاذا ظهر لهم عدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله وتفرقوا عن رأيهم وأما المذموم في هذا الباب فصرف العقل الى الدهاء والمكر قال الشعبي ودهاة العرب ستة معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد ابن امية وقيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن بديل ابن ورقاء وقال الاصمعي كان معاوية يقول انا للاناة وعمرو للبديهة وزياد للصغار والكبار والمغيرة للامر العظيم قال قبيصة بن جابر ما رأيت اعطى لجزيل مال بغير سلطان من طلحة بن عبيد الله ولا رأيت أثقل حلما ولا أطول أناة من معاوية ولا رأيت اغلب للرجال ولا ابذل لهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ولا أشبه سرا بعلانية من زياد ولو ان المغيرة كان في مدينة لها ثمانية ابواب لا يخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من ابوابها كلها (وقال) ابو الدرداء قال النبي

ابا

ابا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الاسلام وكذا عمر مع ابي بكر وعلي وعثمان مع عمر واما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا اميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب اهل الكتاب او افرادا من موالي العجم ممن يجيده وكان قليلا فيهم واما اشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم تكن عندهم رتبة خاصة للامية التي كانت فيهم والامانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم تخرج السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هي دين ليست من السياسة الملكية في شئ وايضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة احسنها لان الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته متى عن له من يحسنه * واما مدافعة ذوي الحاجات عن ابوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والقابه كان اول شئ بدئ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاصي وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد جاء ان عبد الملك لما ولى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعي الله وصاحب البريد فامر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في امور القبائل والعصائب واستئلافهم واطلق عليه اسم الوزير وبقي امر الحسبان في الموالي والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على اسرار السلطان ان تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لانه انما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام اذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك ارفع رتبهم يومئذ هذا في سائر دولة بني امية فكان النظر للوزير عاما في احوال التدبير والمفاوضات وسائر امور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالاهلة وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه واضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون اسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان ايام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان اخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استنابة الخليفة اياه لذلك لتصح الاحكام الشرعية وتجيء على حالها كما تقدم فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه والى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الامر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لاولئك المتغلبين ان ينتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لانهم خول لهم فتسموا بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى امير الامراء او

عليه السلام يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابي وامي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله وادِّ فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل صالح الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وعليه عزا (ويروى) لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه شعر

ان المكارم اخلاق مطهرة
فالعقل اولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها
والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم اني لا اصدقها
ولست ارشد الاحين اعصيها
والعين تعلم في عيني محدثها
ان كان من حزبها او من اعاديها

وقال بعض الحكماء العاقل من عقله في ارشاد ومن رأيه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغواء فقوله سقيم وفعله ذميم فاما من صرف فضل عقله الى الدهاء والمكر والشكر والحيل والخديعة كالحجاج وزياد واشباههما فمذموم وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لست بالخب والخب لا يخدعني وقال المغيرة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه افضل من ان يخدع واعقل من ان يخدع والموصوف بالدهاء والمكر مذموم وصاحبه محذور تخاف غوائله وتحذر عواقب حبائله وقد امر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابا موسى الاشعري ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد اعن موجدة او خيانة يا امير المؤمنين قال لا عن واحدة منهما ولكن كرهت ان احمل الناس على فضل عقلك وكتب زياد الى معاوية رضي الله عنه ان

العراق في شمالي و يميني فارغة فولني الحجاز ا كفك أهله فبلغ ذلك ابن عمر فقال اللهم ا كفه فطعن في أصبعه بعد أيام فمات فنحن وإن
كنا نرغب عن الدهاء والمكر فانا نرغب في الحيلة ونرضى بها والاتساع في الحيلة مما تواصى به العقلاء قديما وحديثا

بالسلطان الى ما يحليه به الخليفة من الالقاب كما تراه في القابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولأنهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص اسم الامير بصاحب الحروب والجند وما يرجع اليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل اما نيابة واما استبدادا واستمر الامر على هذا ثم جاءت دولة الترك آخرا بمصر فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الامير فصارت مرؤسة ناقصة فاستنكف اهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الاحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية * وأما دولة بني أمية بالاندلس فانفوا اسم الوزير في مدلوله اول الدولة ثم قسموا خطته اصنافا وافردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسيل وزيرا وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فاكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بافريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فاغفلوا أمر هذه الخطط اولا وتنقيح اسمائها حتى ادركت دولتهم الحضارة فصاروا الى تقليد الدولتين قبلهم في وضع اسمائها كما تراه في اخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك اغفلت الامر اولا للبداوة ثم صارت الى انتحال الاسماء والالقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الامويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاؤا ولم يزل الشأن ذلك الى هذا العهد واما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار ويضيفون اليه استتباع كاتب السر واصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولى الامور لمن يشاء

(الحجابة) قد قدمنا ان هذا اللقب كان مخصوصا في الدولة الاموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم او يفتحه لهم على قدره في مواقيته وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤسة لها اذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر ايام بني العباس والى هذا العهد فهي بمصر مرؤسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب * واما في الدولة الاموية بالاندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في اخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن ابي عامر وابناؤه كذلك ولما بدؤا في مظاهر الملك واطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفا لهم وكان اعظمهم ملكا بعد انتحال ألقاب الملك واسمائه لابد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة

ولبس شيء من أمور الدنيا لطالب الرفعة وباغي الوسيلة ومرتاد أمر كان دق أوجل خير من الحيلة وأضعف الحيلة أنفع من كثرة الشدة وقالت الحكماء ملاك العقل الحيلة والتأني للسبب الضعيف والقوي من الامور (وروى) ان رجلا وقف لكسرى فقال أنا أصنع ما تعجز الخلائق عنه قال ما هو قال يشد برجلي حبل طرفه برقبة الفيل وبرجلي الاخرى كذلك ويشد طرفه برقبة الفيل ثم يساق الفيل بالضرب والزجر فلا أتزحزح ثم طلب ان يفعل ذلك باربع من الفيلة فجرت بحدتها فقسموه شطرين فقال كسرى من لم يكن أكبر ما فيه عقله هلك باكبر ما فيه فنظمه بعض الشعراء فقال

من لم يكن أكبره عقله
أهلكه أكبر ما فيه

(وسمعت) استاذنا أبا الوليد يحكي ان رجلا استأذن على هرون الرشيد وقال اني أصنع ما تعجز الخلائق عنه قال الرشيد هات فاخرج انبوبة تصب فيها ابرعدة ثم وضع واحدة في الارض وقام على قدميه وجعل يرمي ابرة ابرة من قامته فتقع كل ابرة في عين الابرة الموضوعة حتى فرغ ذسته فامر الرشيد بضربه مائة سوط
ثم أمر له بمائة دينار فسئل عن جمعه بين الكرامة والهوان فقال وصلته لجودة ذكائه وأدبته كي لا يصرف فرط ذكائه في الفضول ومن زعم

السلطان

ان العقل المكتسب اذا تناهى لا يكون فضيلة قال لان الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة كالكرم الذى هو متوسط بين البخل والتبذير والشجاعة وسط بين التهور والجبن (وقالت الحكماء للاسكندر)

السلطان عن العامة والخاصة وبذى الوزارتين على جمعه لخطتى السيف والقلم ثم لم يكن فى دول المغرب وافريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التى كانت فيهم وربما يوجد فى دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها الا انه قليل * ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية الى انتحال الالقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالاسماء الا آخرا فلم يكن عندهم من الرتب الا الوزير فكانوا اولا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان فى خاص امره كابن عطية وعبد السلام الكومى وكان له مع ذلك النظر فى الحساب والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفا فى دولتهم يومئذ (واما بنو ابى حفص بافريقية) فكانت الرياسة فى دولتهم اولا والتقديم لوزير الرأى والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر فى الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ويسمى متوليها بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق فى الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الاموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه ان يكون من الموحدين واختص عندهم القلم ايضا بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الاسرار لان الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره الى قهرمان خاص بداره فى احواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة فى المطابخ والاصطبلات وغيرهما وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه فى ذلك على اهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما اضافوا اليه كتابة العلامة على السجلات اذا اتفق انه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأى والمشورة فصارت الخطة أرفع الرتب واوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثانى عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان ابو العباس على نفسه واذهب آثار الحجر والاستبداد باذهاب خطة الحجابة التى كانت سلما اليه وباشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة باحد والامر على ذلك لهذا العهد

* (وأما دولة زناتة بالمغرب) * واعظمها دولة بنى مرين فلا اثر لاسم الحاجب عندهم وأما رياسة الحرب والعساكر فهى للوزير ورتبة القلم فى الحسبان والرسائل راجعة الى من يحسنها من اهلها وان اختصت ببعض البيوت المصطنعين فى دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهى رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان فى تنفيذ اوامره وتصريف عقوباته وانزال سطواته وحفظ المعتقلين فى سجونه والعريف عليهم فى ذلك فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود فى دار العامة راجع اليه فكأنها وزارة صغرى

* (وأما دولة بنى عبد الواد) * فلا أثر عندهم لشئ من هذه الالقاب ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها وانما يخصون باسم الحاجب فى بعض الاحوال منفذ الخاص بالسلطان فى داره كما كان فى دولة بنى ابى حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا فى تبعها وقائمين بدعوتها منذ اول أمرهم

* (وأما أهل الاندلس لهذا العهد) * فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الامور المالية يسمونه بالوكيل وأما الوزير فكالوزير الا انه قد يجمع له الترسيل والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها فليس هنالك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول

أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز (وفى الحديث ان النبى عليه السلام قال خير الامور أوساطها (وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه خير الامور الاوسط اليه يرجع العالى ومنه يلحق التالى قالوا ولان زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم (قلنا) هذا كله باطل بما قدمناه لنصرة القول الاول وهو منقوض بالعقل الغريزى وبالعلوم وبسائر الفضائل واما قولهم انه يفضى بصاحبه الى الدهاء والمكر قلنا الدهاء والمكر كسب معان أخر غير العقل ليست من لوازم العقل فان شاء تداهى ومكر وان شاء كف عما يقول فى كل شر يكتسبه العاقل باختياره وليس عقله أوقعه فيه بل انما أوقعه فيه قلة عقله * وكان بزرجمهر لما فرغ من كتاب أمثاله ونسق كل باب على حياله يقول ليس العجب عمن حفظ هذه الامثال فصار عالما انما العجب عمن حفظها ولم يصر عالما وانا أقول ليس العجب عمن قرأ كتابى هذا وصار مهذبا كاملا انما العجب عمن قرأه ولم يصر مهذبا كاملا

* (الباب الرابع والعشرون فى الوزراء وصفاتهم والجلساء وآدابهم) * قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام واجعل لى وزيرا

من أهلي فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان احق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران ثم ذكر حكمة الوزراء فقال اشدد به أزري وأشركه في أمري دلت الآية على ان موضع الوزارة ان تشد قواعد المملكة وان يفضي اليه السلطان بعجزه

(وأما دولة الترك بمصر) فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من اهل الشوكة وهم الترك ينفذ الاحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في اهل الدولة وفي العامة على الاطلاق وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الاحيان و يقطع القليل من الارزاق ويبتها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم واجبار من أبى الانقياد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الاموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج او مكس أو جزية ثم في تصريفها في الانفاقات السلطانية او الجرايات المقدرة وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة من رجالات الترك او أبنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور ومصرفها بحكمته لا اله الا هو رب الاولين والآخرين

(ديوان الاعمال والجبايات)

اعلم ان هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج واحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف اعطياتهم في اباناتها والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به الا المهرة من أهل تلك الاعمال و يسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها ويقال ان اصل هذه التسمية ان كسرى نظر يوما الى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كانهم يحادثون فقال ديوانه أي مجانين بلغة الفرس فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان ثم نقل هذا الاسم الى كتاب هذه الاعمال المتضمن للقوانين والحسبانات وقيل انه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الامور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل الى مكان جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الاعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم او غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرره أولوها واعلم ان هذه الوظيفة انما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد وأول من وضع الديوان في الدولة الاسلامية عمر رضي الله عنه يقال لسبب مال اتى به ابو هريرة رضي الله عنه من البحرين فاستكثروه وتعبوا في قسمه فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل بل اشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقيل له ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا وسأل عمر عن اسم الديوان فعبر له ولما اجتمع ذلك امر عقيل بن ابي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهري عن سعيد بن المسيب

وبحره اذا استكملت فيه الخلال المحمودة ثم قال كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ادلت هذه الكلمة على ان بصحبة العلماء والصالحين واهل الخبرة والمعرفة تنتظم امور الدنيا وامور الآخرة وكما ان اشجع الناس يحتاج الى السلاح وافره الخيل الى السوط واحد الشفار الى المسن كذلك يحتاج اجل الملوك واعظمهم واعلمهم الى الوزير (وروى أبو سعيد الخدري) قال ما بعث الله نبيا ولا استخلف خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه و بطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله تعالى وانما اشتقت الوزارة من الوزر وهو الثقل يريد انه يحمل من أمر المملكة واعبائها وأثقالها مثل الاوزار أسعد الملوك من له وزير صدق ان نسي ذكره وان ذكر أعانه وقال وهب ابن منبه قال موسى عليه السلام لفرعون آمن ولك الجنة ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاوره في ذلك فقال بينما أنت اله تعبد اذ صرت تعبد فانف واستكبر وكان من أمره ما كان وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن أبي مسلم لا يألو خبالا وبئس القرناء ان

ثم فرق بين الشرخدين وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة الوزير عون على الامور وشريك في التدبير وظهير على

ان ذلك كان في المحرم سنة عشرين وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشأم بالرومية وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والي الاردن لعهده أن ينقل ديوان الشأم الى العربية فأكمله لسنة من يوم ابتدائه ووقف عليه سرجون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زادان في حرب عبد الرحمن بن الاشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية الى العربية ففعل ورغم لذلك كتاب الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة الى من كان له النظر فيه كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الاحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتمييز النواحي بالصلح والعنوة وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسبانات فأمر راجع الى كتب الاحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وانما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة اركانه لان الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك كان الامر في دولة بني امية بالاندلس والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها انما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الاشغال وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها ولما استبد بنو أبي حفص بافريقية وكان شأن الجالية من الاندلس فقدم عليهم اهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الاندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني ابي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الاشغال كما كان لهم بالاندلس ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة * وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها ويرجع الى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخراج والعطاء هذه اصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان * وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الاموال لان النظر في الاموال عندهم يتنوع الى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الاموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف

السياسة ومفزع عند النازلة الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه وفي الامثال نعم الظهير الوزير (واعلم) أن اول ما يستفيد الملك من الوزراء أمران علم ما كان يجهله ويقوى عنده علم ما كان يعلمه فيزول شكه واول ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في استخلاص الوزراء واستنقاد الجلساء ومحادثة العقلاء فهذه ثلاث خلال تدل على كماله وبها يجمل في الخلق ذكره ويجل في العين قدره وترسخ في النفوس عظمته والمرء موسوم بقرينه وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم وفي كتاب كليلة ودمنة لا يصلح السلطان الا بالوزراء والاعوان الا بالمودة والنصيحة والمودة والنصيحة الا بالسر والعفاف واعظم الاشياء ضررا على الناس عامة وعلى الولاة خاصة أن يحرموا صالح الوزراء والاعوان فتكون أعوانهم غير ذي جدوى وغناء ويحذر الملك ان يولي الوزارة غير المتحرين كي لا تضيع الامور كما يحذر ان يتطبب بغير طبيب بصير مأمون (قال شريح بن عبيد) لم يكن في بني اسرائيل ملك الا ومعه رجل حكيم اذا رآه غضبان كتب له ثلاث صحائف في كل صحيفة ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكلما غضب الملك ناوله صحيفة حتى يسكن غضبه (وقال أردشير) يحق على الملك أن ألطف ما يكون نظر أعظم ما يكون خطرا ولا يذهب حسن أثره في الرعية خوفه لها ولا يستغني بتدبير اليوم عن تدبير غد وأن يكون حذره للملاقين أكثر من حذره للمتباعدين وان يتقي بطانة السوء أشد من اتقائه

لمولى من موالي السلطان وأهل عصبيته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير الى نظره ويجتهد جهده في متابعته ويسمى عندهم استاذ الدولة وهو أحد الأمراء الاكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة الى الاموال والحسبان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لاموال السلطان الخاصة به من اقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الامير استاذ الدار وان كان الوزير من الجند فلا يكون لاستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لاموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعدما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الامور لا رب غيره

(ديوان الرسائل والكتابة)

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وانما أكد الحاجة اليها في الدولة الاسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الاكثر وكان الكاتب للامير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولا أو آخرا على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكاتب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها الى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعا لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الانفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدا بأمره قائما على نفسه فيرسم الامر للكاتب ليضع علامته ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فاما أن تصدر كذلك واما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول *واعلم ان صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق

مقاصد

العامة ولا يطمعن في اصلاح العامة الا بالخاصة (وقال أردشير) لكل ملك بطانة حتى يجتمع بذلك جميع المملكة فاذا أقام الملك بطانة على حال الصواب أقام كل امرئ منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية ومثال الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي فيه التمساح فلا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا وكان الى الماء محتاجا ومثل السلطان مثل الطبيب ومثل الرعية كمثل المرضى ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والاطباء فان كذب السفير بطل التدبير وكما أن السفير اذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فاذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل كذلك الوزير ينقل الى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك فمن ههنا شرطنا أن يكون الوزير صدوقا في لسانه عدلا في دينه مأمونا في الخلافة بصيرا بأمور الرعية وتكون بطانة الوزير من أهل الامانة والبصيرة ويحذر الملك أن يولي الوزارة لئيما فاللئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوي الفضل ولما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد بن أبي مسلم قال له عمر بن عبد العزيز أسألك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تحيي ذكر الحجاج باستكتابك اياه فقال يا أبا حفص اني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم قال عمر أنا أوجدك من هو أعف منه في الدينار والدرهم قال ومن هو قال ابليس ما مس دينارا ولا درهما وقد أهلك

هذا الخلق (ودخل) رجل له عقل وأدب على بعض الخلفاء فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل اليه ويقربه فقال

ياملك طاعته فى الورى * وجبه مفترض واجب ان الذى شرفت من أجله * (١٤٧) يزعم هذا انه كاذب وأشار الى الذمى

فاسأله ياامير المؤمنين عن ذلك فسأله فلم يجد بدا من أن يقول هو صادق فاعترف بالاسلام لا يعرف وزير الملك ماله وما عليه حتى يراعى من صاحبه الواثق به ما يراعيه العاشق الغيور من المعشوقة المتهومة (وكان بعض) الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره اذا رأيتنى غضبان فادفع الى رقعة فكان فى الواحدة انك لست باله وانك ستموت وتعود الى التراب فيأكل بعضك بعضا وفى الثانية ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء وفى الثالثة اقض بين الناس بحكم الله فانهم لا يصلحهم الا ذلك اذا كان الوزير يساوى الملك فى الرأى والهيبة والطاعة فليصرعه الملك فان لم يفعل فليعلم انه المصروع (وفى الامثال) اذا سكنت الدهماء خاف الوزراء ولما كانت أمور المملكة عائدة الى الوزراء وأزمة الملوك فى أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا لا تغتر بمودة الامير اذا غشك الوزير واذا أحبك الوزير فلا تخش الامير ويقال الخرق

مماراة الامراء ومعاداة الوزراء ورب أمر كرهه الامير فتم بالوزير وكم من امر أراده الامير فثناه عنه الوزير وانما السلطان كالدار والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها أزعج (وقال أنوشروان) لا يتم للملك أمره حتى يرفع نفسه عن كل عيب ويكون له

مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة فى بعض الدول مستندة الى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لاجل سذاجة العصبية فيختص السلطان اهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فأما رتبة السيف فتستغنى عن معاناة العلم وأما المال والكتابة فيضطر الى ذلك للبلاغة فى هذه والحسبان فى الاخرى فيختارون لها من هذه الطبقة مادعت اليه الضرورة ويقلدونه الا انه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبة على يده ويكون نظره متصرفا عن نظره كما هو فى دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فان الكتابة عندهم وان كانت لصاحب الانشاء الا أنه تحت يد امير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدويدار وتعويل السلطان ووثوقه به واستنامته فى غالب احواله اليه وتعويله على الآخر فى احوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الاسرار وغير ذلك من توابعها واما الشروط المعتبرة فى صاحب هذه الرتبة التى يلاحظها السلطان فى اختياره وانتقائه من اصناف الناس فهى كثيرة واحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب فى رسالته الى الكتاب وهى اما بعد حفظكم الله يا اهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وارشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اصنافا وان كانوا فى الحقيقة سواء وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى اسباب معاشهم وابواب ارزاقهم فجعلكم معشر الكتاب فى اشرف الجهات اهل الادب والمروآة والعلم والرزانة بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف الا منكم فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التى بها يسمعون وابصارهم التى بها يبصرون والسنتهم التى بها ينطقون وايديهم التى بها يبطشون فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما اضفاه من النعمة عليكم وليس احد من اهل الصناعات كلها احوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم ايها الكتاب اذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات اموره ان يكون حليما فى موضع الحلم فهيما فى موضع الحكم مقداما فى موضع الاقدام محجاما فى موضع الاحجام مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف كتوما للاسرار وفيا عند الشدائد عالما بما يأتى من النوازل يضع الامور مواضعها والطوارق فى اماكنها قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وان لم يحكمه اخذ منه بمقدار ما يكتفى به يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل امر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفقهوا فى الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسموا اليه هممكم ولا تضيعوا النظر فى الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الامور ومحاقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربؤا بانفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات واياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو أليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه امره وان اقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته

جليس مأمون الغيب وخادم ناصح الجيب وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من النظر فكما أن من لم ينظر الى المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه كذلك السلطان (١٤٨) اذا لم يكن له وزير لا يعرف محاسن دولته وعيوبها وكاتب الملك مستقر اسراره ولسانه الناطق

وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه فان عرضت في الشغل محمدة فلا يصرفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى القراء وهو لكم أفسد منه لها فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه ان يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه والاضطرار الى ما لديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم او صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه ارفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما وللاشراف مكرما وللفيء موفرا وللبلاد عامرا وللرعية متألفا وعن اذاهم متخلفا وليكن في مجلسه متواضعا حليما وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا واذا صحب احدكم رجلا فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة واجمل وسيلة وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحا لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوبا اتقاها من بين يديها وان خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها وان كانت حرونا قمع برفق هواها في طرقها فان استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكاتب لفضل ادبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنه او يخاف سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم اوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها الا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا ما امكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب وللامور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة وأصدقها حجة واحمدها عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وآدابه فانه ان ظن منكم ظان أو قال قائل ان الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن ظنه او مقالته الى أن يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقول أحد منكم انه أبصر بالامور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فان اعقل الرجلين عند ذوى الالباب

عنه في آفاق مملكته والمخصوص بقربه ولزومه دون نظرائه ظهير الامير وزيره وزينه حاجبه ولسانه كاتبه ورسوله عينه الكتابة قوام الخلافة وقرينة الرياسة وعمود المملكة للكاتب على الملك ثلاثة أشياء رفع الحجاب عنه واتهام الوشاة عليه وافشاء سره اليه (وقد قالت الحكماء) لا يطمعن ذو الكبر في الثناء ولا الخب في كثرة الصديق ولا السيء الادب في الشرف ولا الشحيح في البر ولا الحريص في قلة الذنوب ولا الملك المتهاون الضعيف الوزراء في بقاء الملك وكما أن المرآة لا تريك وجهك الا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدا كذلك الامير لا يكمل امره الا بجودة عقل الوزير وصحة فهمه وصفاء نفسه ونقاء قلبه (ومن شروط الوزير) ان يكون مكين الرحمة للخلق رؤفا بهم ليأسو برحمته ما يجرحه السلطان بغلظته (ومن شروطه) ان يكون نقي الجيب ناصح الغيب لا يقبل دقيقة ولا يكتم نصيحة وقال بعض الملوك لوزيره لا تكونن الى ما تسرني به اسرع مبادرة من انذاري فيما يخاف علي منه وقال بعض الملوك اعط من اتاك بما تكره كما تعطي من اتاك بما تحب فان من انذرك كمن بشر (ومن شروطه) ان يكون معتدلا كاملا تهامة لا حر

الالباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى ان اصحابه اعقل منه واجل فى طريقته وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على اخيه اونظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته (وانا اقول) فى كتابى هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته اه *(الشرطة)* ويسمى صاحبها لهذا العهد بافريقية الحاكم وفى دولة اهل الاندلس صاحب المدينة وفى دولة الترك الوالى وهى وظيفة مرؤسة لصاحب السيف فى الدولة وحكمه نافذ فى صاحبها فى بعض الاحيان وكان اصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم احكام الجرائم فى حال استبدائها اولا ثم الحدود بعد استيفائها فان التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع الا فى استيفاء حدودها وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك فكان الذى يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده اذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر فى الحدود والدماء باطلاق وافردوها من نظر القاضى ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ولم تكن عامة التنفيذ فى طبقات الناس انما كان حكمهم على الدهماء واهل الريب والضرب على ايدى الرعاع والفجرة ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى امية بالاندلس ونوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على اهل المراتب السلطانية والضرب على ايديهم فى الظلامات وعلى ايدى اقاربهم ومن اليهم من اهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان ورجال يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا فى تصريفه وكانت ولايتها للاكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة واما فى دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وان لم يجعلوها عامة وكان لا يليها الا رجالات الموحدين وكبراؤهم ولم يكن له التحكم على اهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين واما فى دولة بنى مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها فى بيوت من مواليهم واهل اصطناعهم وفى دولة الترك بالمشرق فى رجالات الترك او اعقاب اهل الدولة قبلهم من الكرد يتخيرونهم لها فى النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء فى الاحكام لقطع مواد الفساد وحسم ابواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع اقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة فى المدينة والله مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى اعلم

(قيادة الاساطيل) وهى من مراتب الدولة وخططها فى ملك المغرب وافريقية ومرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه فى كثير من الاحوال ويسمى صاحبها فى عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة فانه اسمها فى اصطلاح لغتهم وانما اختصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لانهما جميعا على ضفة البحر الرومى من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى الاسكندرية الى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجة والصقالبة والروم الى بلاد الشام ايضا ويسمى البحر الرومى والبحر الشامى نسبة الى اهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه

ولا تقر وموقع الوزير من الملك موقع الملك من العامة وكان السلطان اذا اصلح صلحت الرعية واذا افسد فسدوا كذلك الوزراء اذا افسدوا فسد الملك واذا اصلحوا اصلح الملك (وكان) يقال آفة العقل الهوى وآفة الامير سخافة الوزير وقال المقتدر بالله لوزيره على بن عيسى اتق الله يعطفنى عليك ولا تعصه فيسلطنى عليك وقال المأمون لمحمد بن يزداد اياك ان تعصى الله فيما تتقرب به الى فيسلطنى عليك (واعلم) انه ليس للوزير ان يكتم السلطان نصيحة وان استقلها وموقع الوزير من المملكة كموقع العينين من الانسان وكاليدين فانه اذا صح قبضهما وبسطهما صح التدبير واذا اسقمهما دخل النقص على الجسد ولا تصلح الوزارة ان تكون فى غير اهلها كما لا يصلح الملك ان يكون فى غير اهله وشر الوزراء من كان الاشرار ايضا له وزراء وبطانة ودخلاء واوصت امرأة ابنها وكان ملكا فقالت يابنى ينبغى للملك ان يكون له ستة اشياء وزير يثق برأيه ويفضى اليه باسراره وحصن يلجأ اليه اذا فزع وسيف اذا نازل الاقران لم يخفه وذخيرة خفيفة المحمل اذا نابه نائبة كانت معه وامرأة اذا دخلت عليه اذهبت همه وطباخ اذا لم يشته الطعام طبخ له ما يشتهيه

(الباب الخامس والعشرون فى الجلساء وآدابهم)*

قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال سبحانه ياويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد اضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا وينبغى للملك ان يجالس اهل العقل والادب وذوى الرأى والحسب وذوى التجارب والعبرة بمجالسة

يعانون من أحواله مالا تعانيه امة من أمم البحار فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب أجازوا في الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من ايديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفافيه معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاصي رضي الله عنهما أن صف لي البحر فكتب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود فاوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه احد من العرب الا من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الازدي سيد بجيلة لما اغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر فانكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو ولم يزل الشأن ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية اذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على اعواده والسبب في ذلك ان العرب كانوا لبداوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والافرنجة لممارستهم احواله ومرباهم في التقلب على اعواده مرنوا عليه واحكموا الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم العجم خولا لهم وتحت ايديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية اُمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا الى الجهاد فيه وانشؤا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس واوعز الخليفة عبد الملك الى حسان ابن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية ايام زيادة الله الاول ابن ابراهيم بن الاغلب على يد اسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة ايضا في ايامه بعد ان كان معاوية بن حديج اغزى صقلية ايام معاوية بن ابي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الاغلب وقائده اسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك اساطيل افريقية والاندلس في دولة العبيديين والامويين تتعاقب الى بلادهما في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى اسطول الاندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى مائتي مركب او نحوها واسطول افريقية كذلك مثله اوقريبا منه وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفؤها للحط والاقلاع بجاية والمرية وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف وامر ارسائه في مرفئه فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من اعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم بشئ من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش

العقلاء لقاح العقل ومادته ولذلك حمدت آراء الشيوخ فقال القدماء المشايخ أشجار الوقار وينابيع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وقالوا عليك بآراء المشايخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم آثار الغير وقالوا رأى الشيخ خير من مشهد الغلام (وقال عبد الملك) لجلسائه جنبوني ثلاثا لا تطروني فاني أعرف بنفسي منكم ولا تكذبوني فانه لا رأى لكذوب ولا تغتابوا عندي أحدا فيفسد قلبي عليكم (وقال بعض الحكماء) كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الايام عظة وقالوا التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل وقد قال هرم بن قطبة وهو احد حكماء العرب حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد النظر (وقال كثير من حكماء العرب) عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم يطله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم والمذهب الاول اصدق على العقول وقال عبد العزيز بن زرارة لمعاوية عليك بمجالسة الالباء اعداء كانوا أو أصدقاء فان العقل يقع على العقل (وقال ابن عباس) مجالسة العقلاء تزيد في الشرف وقال سفيان بن عيينة ان الرجل ممن كان قبلكم ليلقى الرجل العاقل فيكون عاقلا أياما وقال مالك بن أنس مر سليمان بن داود عليهما السلام بقصر بارض مصر فوجد فيه مكتوبا

تغدونا من قرى اصطخر * الى القصر فحللناه ... فمن يسأل عن القصر * فمبنيا وجدناه ... يقاس المرء بالمرء * اذا ما هو ماشاه

واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج وكان ابو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى أساطيله سنة خمس واربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن فى ممالكهم كما وقع فى ايام بنى الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين وانحازت امم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها واساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد على فريسته وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت فى طرقه سلما وحربا فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح حتى اذا أدرك الدولة العبيدية والاموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى ايديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة فملكوها ثم الحوا على سواحل الشأم فى تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشأم وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم وغلبوا بنى خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن زيرى وكانت لهم فى المائة الخامسة الكرة بهذا البحر وضعف شأن الاساطيل فى دولة مصر والشام الى ان انقطع ولم يعتنوا بشئ من أمره لهذا العهد بعد ان كان لهم به فى الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف فى أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب الغربى من هذا البحر لهذا العهد موفور الاساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قائد الاسطول به لعهد لمتونة بنى ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم اخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا ولما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة وملكوا العدوتين اقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد اسطولهم احمد الصقلى أصله من صدغيار الموطنين بجزيرة جربة من سدويكش اسره النصارى من سواحلها وربى عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك وولى ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشى على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بنى عبد المؤمن وأجاز الى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة واجزل الصلة وقلده أمر اساطيله فجلى فى جهاد أمم النصرانية وكانت له آثار واخبار ومقامات مذكورة فى دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عهده فى الكثرة والاستجادة الى مالم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشأم لعهده باسترجاع ثغور الشأم من يد امم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر و بنائه تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذى كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد والاقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم فى ذلك الجانب الشرقى من البحر وتعدد اساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هنالك كما أشرنا اليه قبل فأوفد صلاح الدين على أبى يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بنى منقذ ملوك شيزر وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم فى دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا الى ملك المغرب طالبا مدد

(وفى الامثال) يظن بالمرء ما يظن بخليله (ولما) حج عبيد الله بن جعفر نزل مكة ليلا فلما أصبح قال يا أهل مكة عرفنا خياركم من أشراركم فى ليلة واحدة قالوا كيف ذلك قال نزلنا ومعنا أخيار وأشرار فنزل أخيارنا على أخياركم وأشرارنا على اشراركم فعرفناكم واعلم أنه ليس الدخان على النار بادل من الصاحب على الصاحب وقال الاوزاعى الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب ان لم تكن فى مثله شانته وقال مالك بن مسمع للاحنف بن قيس يا أبا بحر ما اشتاق الى غائب اذا حضرت ولا انتفع بحاضر اذا غبت فاخذه ابراهيم بن العباس الكاتب فنظمه فقال

وأنت هوى النفس من بينهم
وأنت الحبيب وأنت المطاع
ومابك ان بعدوا وحشة
وما بهم ان بعدت اجتماع

وقال عبد الله بن طاهر المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة وقال الاصمعى تناظر رجلان واعرابى حاضر فقال لاحدهما مناظرة مثلك فى الدين فرض والاستماع منك أدب ومجالستك زين ومعرفتك عز ومذاكرتك تلقيح للعقول وتهذيب لاولى شرف ونخر وقال السمعانى غنى مخارق بين يدى المأمون

وانى لمشتاق الى ظل صاحب * يروق و يصفو ان كدرت عليه

عذيري من الانسان لا ان جفوته * صفا لي ولا ان صرت طوع يديه فطرب المأمون وقال و يحك يا مخارق خذ مني نصف الخلافة
وأعطني هذا الانسان وقالت الحكماء (١٥٢) النظر في عواقب الامور تلقيح العقول وقالوا العاقل لا تنقطع صداقته والاحمق لا تدوم

الاساطيل لتجول في البحر بين اساطيل الكفرة و بين مرامهم من امداد النصرانية بثغور الشام وأصحبه كتابه اليه في ذلك من انشاء الفاضل البيساني يقول في افتتاحه فتح الله لسيدنا ابواب المناجح والميامن حسبما نقله العماد الاصفهاني في كتاب الفتح القدسي فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين وأسرها في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم الى مرسلهم ولم يجبه الى حاجته من ذلك وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالاساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الاساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما هلك ابو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت امم الجلالقة على الاكثر من بلاد الاندلس والجؤا المسلمين الى سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريحهم في بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم و كثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب فان أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الاساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر باحواله وغلب الامم في لجته وعلى أعواده وصار المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان أو قوة من الدولة تستجيش لهم اعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الاساطيل بالانشاء والركوب معهود لما عساه تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله فمن المشتهر بين اهل المغرب عن كتب الحدثان انه لابد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الافرنجة وان ذلك يكون في الاساطيل والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل

٣٦ *(فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول)*

(اعلم) ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على امره الا أن الحاجة في أول الدولة الى السيف ما دام اهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة الى القلم لان القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه و يقل أهلها بما يناله من الهرم الذي قدمناه فتحتاج الدولة الى الاستظهار بارباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن اول الامر في تمهيدها فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين و يكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها واكثر نعمة واسنى اقطاعا وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشئ عن السيف لانه قد تمهد أمره ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصريفه وتكون السيوف مهملة في مضاجع اغمادها الا اذا نابت نائبة او دعيت الى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة اليها فتكون أرباب الاقلام في هذه الحاجة اوسع جاها واعلى رتبة واعظم نعمة وثروة واقرب من السلطان مجلسا واكثر اليه ترددا وفي خلواته نجيا لانه حينئذ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في اعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله و يكون الوزراء حينئذ واهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على انفسهم من بوادره وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم أما بعد فانه مما حفظناه

مودته فاتخذ من نصحاء أصحابك مرآة لطبائعك وفعالك كما تتخذ لوجهك المرآة المجلوة فانك الى صلاح طبائعك أحوج منك الى تحسين صورتك وقال المأمون للحسن بن سهل نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة خلا سبعة قال وما السبع يا أمير المؤمنين قال خبز الحنطة ولحم الغنم والماء البارد والثوب الناعم والرائحة الطيبة والفراش الوطئ والنظر الى الحسن من كل شئ قال فاين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال قال صدقت وهي اولاهن وقال هشام بن عبد الملك قد قضيت الوطر من كل شئ فما كانت الحلو والحامض حتى لا أجد منهما طعما وشممت الرائحة حتى لا أجد لها رائحة وأتيت النساء حتى ما أبالي مرأة أتيت أم حائطا فما وجدت شيأ ألذ من جليس يسقط بيني وبينه مؤنة التحفظ وقال عبد الملك بن مروان قد قضيت الوطر من كل شئ الا من محادثة الاخوان في الليالي الزهر على التلال العفر وقال عبد الملك من قرب السفلة وادناهم وباعد ذوي العقل واقصاهم استحق الخذلان ومن منع المال من الحمد ورثه من لا يحمده
ومن الكلام الشريف قول الحكماء ما أحوج ذا القدرة الى دين يحجزه وحياء يكفه وعقل يعدله والى تجربة طويلة وعبر محفوظة والى

اعراق تسري اليه واعلاق تسهل الامور عليه والى جليس رفيق ووارث شفيق والى عين تنظر العواقب وعقل يخاف الغير ومن لم يعرف يوم ظفر الايام لم يحترس من سطوات الدهر ولم يتحفظ من فلتات الذال ولم يتعاظمه ذنب

وان عظم ولا تناءوان سمج واذا رأيت

من وصايا الفرس أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء سنة الله في عباده والله سبحانه وتعالى اعلم

٣٧ *(فصل في شارات الملك والسلطان الخاصة به)*

(اعلم) ان للسلطان شارات وأحوالا تقتضيها الابهة والبذخ فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم *(الآلة)* فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الالوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الابواق والقرون وقد ذكر ارسطو في الكتاب المنسوب اليه في السياسة ان السر في ذلك ارهاب العدو في الحرب فان الاصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري انه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره ارسطو ان كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والاصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الابل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تأثيرا اذا كانت الاصوات متناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولاجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية (١) لاطبلا ولا بوقا فيحدق المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم الى الاستماتة ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى امام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الابطال بما فيها ويسارعون الى مجال الحرب وينبعث كل قرن الى قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم امام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم *(واما)* تكثير الرايات وتلوينها واطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر وربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الاقدام واحوال النفوس وتلوناتها غريبة والله الخلاق العليم ثم ان الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها فأما الرايات فانها شعار الحروب من عهد الخليقة ولم تزل الامم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات ولعهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء وأما قرع الطبول والنفخ في الابواق فكان المسلمون لاول الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفضا لاحواله واحتقارا لابهته التي ليست من الحق في شيء حتى اذا انقلبت الخلافة ملكا وتبجحوا زهرة الدنيا ونعيمها ولابسهم الموالي من الفرس والروم اهل الدول السالفة واروهم ما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويها بالملك وأهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغر أوقائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين او العبيديين لواءه ويخرج الى بعثه او عمله من دار الخليفة اوداره في موكب من أصحاب الرايات والآلات فلا يميز بين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الالوية وقلتها او بما اختص به الخليفة من الالوان لرايته كالسواد في رايات بني العباس فان راياتهم كانت سودا حزنا على شهدائهم من بني هاشم ونعيا على بني أمية في قتلهم ولذلك سموا المسودة ولما افترق امر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك

(١) قوله الموسيقية وفي نسخة الموسيقارية وهي صحيحة لان الموسيقي بكسر القاف بين التحتيتين اسم للنغم والالحان وتوقيعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر أول سفينة الشيخ محمد شهاب.

من جلسك أمرا تكرهه أو خلة لاتحبها أو صدرت منه كلمة عوراء اوهفوة غبراء فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داو كله واستر عورته فابقه وابرأ من عمله قال الله تعالى فان عصوك فقل اني برئ مما تعملون فلم يأمر بقطعهم وانما أمر بالبراءة من عملهم السوء قال الشاعر

اذا راب مني مفصل فقطعته
بقيت ومالي للنهوض مفاصل
ولكن أداويه فان صح سرني
وان هو أعيا كان فيه تحامل

وأتى رجل الى بعض الحكماء فشكا اليه صديقه وعزم على قطعه والانتقام منه فقال له الحكيم أتفهم ما أقول لك فأكلمك أم بك من فورة الغضب ما شغلك عنه فقال اني لما تقول واع فقال أسرورك بمودته كان أطول أم غمك بذنبه قال بل سروري قال أفحسناته عندك أكثر أم سيآته قال بل حسناته قال فاصفح بصالح ايامك عن ذنبه وهب لسرورك جرمه واطرح مؤنة الغضب والانتقام منه ولعلك لا تنال ما املت فتطول مصاحبة الغضب وانت صائر الى ما تحب *(الباب السادس والعشرون في بيان معرفة الخصال التي هي جمال السلطان)* قد ذكرنا الخصال التي تجري من المملكة مجرى الاساس من البنيان ونذكر الآن

سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالمشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا الى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضراء وأما الاستكثار منها فلا ينتهي الى حد وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز الى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الابواق وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الاذن فيها لعمالهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبيل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أولا راية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر وهي شعار السلطان عندهم ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية بلسانهم وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيحون لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء الا الجتر فانه خاص بالسلطان وأما الجلالقة لهذا العهد من أمم الافرنجة بالاندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الالوية القليلة ذاهبة في الجو صعدا ومعها قرع الاوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا يبلغنا عنهم وعمن وراءهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين

(السرير) وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي وهو أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الاسلام وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على أسرة الذهب وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسي وسرير من عاج مغشى بالذهب الا أنه لا تأخذ به الدول الا بعد الاستفحال والترف شأن الأبهة كلها كما قلناه وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يتشوفون اليه * وأول من اتخذه في الاسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم اني قد بدنت فأذنوا له فاتخذه واتبعه الملوك الاسلاميون فيه وصار من منازع الابهة ولقد كان عمرو بن العاصي بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس الى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا لأبهة الملك ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيديين وسائر ملوك الاسلام شرقا وغربا من الاسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الاكاسرة والقياصرة والله مقلب الليل والنهار

(السكة) وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وان لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها

الخصال التي تجري من المملكة مجرى التاج والطيلسان وحسن الهيئة والكمال فأكملها وقاعدتها العفو قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (١٥٤) فلما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم قال يا جبريل ما هذا قال لا أدري حتى أسأل العالم فذهب جبريل ثم عاد فقال يا محمد ربك يقرؤك السلام ويأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك واعلموا أرشدكم الله ان الله تعالى أمر بالعفو وندب اليه وذكر فضيلته وحث عليه ووصف به نفسه فقال سبحانه والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين فأوجب الله تعالى محبته للعافين وأثنى عليهم بالاحسان فقال ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وعزائم الامور من صفات المصطفين من الرسل قال الله تعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال سبحانه واذا ما غضبوا هم يغفرون وقال سبحانه وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم فاستعطف الخلق وندبهم الى أن يعفوا عن الجناة والظالمين والخاطئين كما يحبون أن يفعل الله بهم وقال فمن انتصر ولم يعف ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل فرفع الحرج عن المنتصر والمنتقم ولم يوجب له فضيلة ثم كشف الغطاء وأزاح العذر وصرح بتفضيل العافين على المنتصرين والواهبين حقوقهم على المنتقمين فقال سبحانه وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وهذا نص لا يحتمل التأويل وتحقيق القول في ذلك أن

وزنا

وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل الى أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علما عليها فى عرف الدول وهى وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات ويتقون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن او حيوان او مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم الى آخر أمرهم ٭ ولما جاء الاسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين ايديهم يردونها فى معاملتهم الى الوزن ويتصارفون بها بينهم الى أن تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائنى سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها فى سائر النواحى سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولى ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسرى فى تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولى الحجاز وكتب عليها فى أحد الوجهين بركة الله وفى الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك ان الدرهم كان وزنه أول الاسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب فى ذلك ان أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتيج الى تقديره فى الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلاثة اسباع درهم وقيل كان منها البغلى بثمانية دوانق والطبرى اربعة دوانق والمغربى ثمانية دوانق واليمنى ستة دوانق فأمر عمر أن ينظر الاغلب فى التعامل فكان البغلى والطبرى وهما اثنا عشر دانقا وكان الدرهم ستة دوانق وان زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالا واذا نقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجاريين فى معاملة المسلمين من الغش فعين مقدارها على هذا الذى استقر لعهد عمر رضى الله عنه واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صورا لان العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع ان الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس فى أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما فى دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلا وتحميدا وصلاة على النبى وآله وفى الوجه الثانى التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين والعبيديين والامويين وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكة الا آخر الامر اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد فى تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدى اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه ويملأ من احد الجانبين تهليلا وتحميدا ومن الجانب الآخر كتبا فى السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدى فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون فى ملاحمهم عن دولته وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة وانما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزنا بالصنجات المقدرة بعدة منها ولا

الانتصار عدل والعفو فضل وفضل الله أحب الينا من عدله لانه ان عدل علينا فانا ان أخذنا بحقه هلكنا وان عفا عنا برحمته تخلصنا ولو كان العدل يسع الخلائق لما قرنه الله بالاحسان فلما علم ان العدل استقصاء ومناقشة وذلك

مما تضيق عنده النفوس وتحرج له الصدور ناط الاحسان بالعدل فقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأيضا فان الانتصار انتقام وعذاب بلا امتنان والعفو محبة من الله واحسان وأيضا فالانتصار سيئة والعفو حسنة قال الله تعالى ولا تستوى الحسنة ولا السيئة والدليل على ان الانتصار سيئة قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها غير انها انما سميت سيئة لما كانت نتيجة سيئة لانه لا يجوز الانتصار وهو كقول عمرو بن كلثوم التغلبي

الا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى الجزاء على الجهل جهلا وان لم يكن فى الحقيقة جهلا وعن هذا روت عائشة رضى الله عنها قالت ما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط غير انه اذا انتهك شئ من محارم الله فلا يقوم لغضبه شئ (وروى) انه قال ينادى مناد يوم القيامة من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم الا من عفا فى الدنيا فان عفوت أيها الطالب كان أجرك على الله وان لم تعف كان حقك قبل من ظلمك ولان يكون أجرك فى ضمان الله تعالى أوثق من أن يكون قبل مخلوق وأيضا فان لم تعف نلت حقك بلا زيادة عليه وان عفوت كان حسنة أسديتها الى اخيك والله تعالى يقول من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وشفع الاحنف بن قيس فى محبوس الى السلطان

فقال له ان كان مجرما فالعفو يسعه وان كان بريا فالعدل يسعه (وقيل) لبعض الكتاب بين يدى أمير المؤمنين بلغ أمير المؤمنين عنك أمر فقال لا أبالى فقيل له ولم لا تبالى (١٥٦) قال ان صدق الناقل وسعنى عفوه وان كذب الناقل وسعنى عدله ولما دخل عيينة بن حصن على عمر بن الخطاب قال يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر وهم بان يوقع به فقال ابن أخيه يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان عمر وقافا عند كتاب الله تعالى (وقال) النبى صلى الله عليه وسلم ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء وقال ارحم ترحم وكان يقال أولى الناس بالسلطان أحقهم بالرأفة والرحمة وفى الانجيل أفلح أهل الرحمة لانهم سيرحمون (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام لقد أبغض الله المتسرعين الى اراقة الدماء فاليهم انتهت القسوة والغلظة والتباعد من الرحمة ولما تمكن داود من قتل جالوت أبقى عليه وهو يومئذ عدوه وطالبه وقال يارب أعظم دمى فى عين أعدائى كما عظمت فى عينى دم عدوى وكذلك خلصنى من جميع الهموم وقالت حكماء الهند لا سودد مع انتقام ولا سياسة مع عزازة نفس وعجب (وقالت) الحكماء ليس الافراط فى شئ أجود منه فى العفو ولا هو فى شئ أقبح منه فى العقوبة وكذلك التقصير مذموم فى العفو محمود فى العقوبة واعلم انك ان تخطئ فى العفو فى ألف قضية خير من أن تخطئ فى العقوبة فى التى

يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله اهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم (ولنختم الكلام) فى السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين و بيان حقيقة مقدارهما وذلك ان الدينار والدرهم مختلفا السكة فى المقدار والموازين بالآفاق والامصار وسائر الاعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الاحكام بهما فى الزكاة والانكحة والحدود وغيرها فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين فى تقدير تجرى عليهما أحكامه دون غير الشرعى منهما فاعلم ان الاجماع منعقد منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين ان الدرهم الشرعى هو الذى تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والاوقية منه اربعين درهما وهو على هذا سبعة اعشار الدينار ووزن المثقال من الذهب ثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم الذى هو سبعة اعشاره خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع فان الدرهم الجاهلى كان بينهم على انواع أجودها الطبرى وهو ثمانية دوانق والبغلى وهو أربعة دوانق فجعلوا الشرعى بينهما وهو ستة دوانق فكانوا يوجبون الزكاة فى مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك أو اجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ذكر ذلك الخطابى فى كتاب معالم السنن والماوردى فى الاحكام السلطانية وانكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه ان يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين فى عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما فى الزكاة والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق انهما كانا معلومى المقدار فى ذلك العصر لجريان الاحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخص فى الخارج وانما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعى على المقدر فى مقدارهما وزنتهما حتى استفحل الاسلام وعظمت الدولة ودعت الحال الى تشخيصهما فى المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك ايام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما فى الخارج كما هو فى الذهن ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية رأسا حتى خلصت ونقش عليها السكة وتلاشى وجودها فهذا هو الحق الذى لا محيد عنه ومن بعد ذلك وقع اختيار اهل السكة فى الدول على مخالفة المقدار الشرعى فى الدينار والدرهم واختلفت فى كل الاقطار والآفاق ورجع الناس الى تصور مقاديرهما الشرعية ذهنا كما كان فى الصدر الاول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التى بينها وبين مقاديرها الشرعية واما وزن الدينار باثنين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذى نقله المحققون وعليه الاجماع الا ابن حزم خالف ذلك وزعم ان وزنه اربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضى عبد الحق ورده المحققون وعدوه وهما وغلطا وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم ان الاوقية الشرعية ليست هى المتعارفة بين الناس لان المتعارفة مختلفة باختلاف الاقطار والشرعية متحدة ذهنا لا اختلاف فيها والله خلق كل شئ فقدره تقديرا

(الخاتم) واما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الاسلام وبعده وقد ثبت فى الصحيحين ان النبى صلى الله عليه وسلم اراد ان يكتب الى قيصر فقيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا ان يكون مختوما فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله *قال البخارى جعل الثلاث كلمات فى ثلاثة أسطر وختم به وقال لا ينقش أحد مثله قال وتختم به ابو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان فى بئر أريس وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله وفى كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه وذلك ان الخاتم يطلق على الآلة

قضية واحدة (وقال) معاوية انى لارفع نفسى أن يكون ذنب أعظم من عفوى وجهل أكبر من حلمى وعورة لا يواريها سترى (وقال) المأمون ليس على فى الحلم مؤنة ولوددت ان أهل الجرائم علموا رأيى فى العفو فيذهب الخوف عنهم فتخلص لى قلوبهم

وقال رجل للمنصور يا أمير المؤمنين ان الانتقام انتصاف والتجاوز فضل والمتجاوز قد جاوز حد المنصف ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه باوكس النصيبين وأن لا يرتفع الى أعلى الدرجتين فاعف عنا يعف الله عنك فعفا عنهم وأنشدوا

واذا بغى باغ عليك بجهله
فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

وقال بعضهم لمسلم بن قتيبة لما عفا عنه والله ما أدرى أيها الامير أى يوميك أشرف

أيوم ظفرت أم يوم عفوت

وقال الشاعر

ما زلت فى العفو للذنوب واط
لاق لجان بجرمة علق
حتى تمنى العفاة أنهمو
عندك أمسوا فى القيد والحلق

ورفع الى انوشروان ان العامة تؤنب الملك فى معاودة الصفح عن المذنبين مع تتابعهم فى الذنوب فوقع المذنبون مرضى ونحن اطباء وليس معاودة الداء اياهم بمانعنا من معاودة العلاج لهم (وقال) عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما قرن شئ الى شئ افضل من حلم الى علم ومن عفو الى قدرة (وقال) رجل لعبد الملك ابن مروان لما ظفر بالمهلب ما رأيت أحدا يا أمير المؤمنين ظلم ظلمك ولا نصر نصرك ولا عفا عفوك (وقال) بعض التابعين المعاقب مستدع لعداوة اولياء المذنب والعافى مستدع لشكرهم أو مكافاتهم أيام قدرتهم ولان يثنى عليك باتساع الصدر خير من أن تنسب الى

التى تجعل فى الاصبع ومنه تختم اذا لبسه و يطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الامر اذا بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الامر و يطلق على السداد الذى يسد به الاوانى والدنان و يقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام قال لان آخرما يجدونه فى شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه وانما هو من الختام الذى هو السداد لان الخمر يجعل لها فى الدن سداد الطين او القار يحفظها و يطيب عرفها وذوقها فبولغ فى وصف خمر الجنة بان سدادها من المسك وهو أطيب عرفا وذوقا من القار والطين المعهودين فى الدنيا فاذا صح اطلاق الخاتم على هذه كلها صح اطلاقه على اثرها الناشئ عنها وذلك ان الخاتم اذا انقشت به كلمات او اشكال ثم غمست فى مداف من الطين او مداد و وضع على صفح القرطاس بقى أكثر الكلمات فى ذلك الصفح وكذلك اذا طبع به على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسما فيه واذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى اذا كان النقش على الاستقامة من اليمنى وقد يقرأ من الجهة اليمنى اذا كان النقش من الجهة اليسرى لان الختم يقلب جهة الخط فى الصفح عما كان فى النقش من يمين او يسار فيحتمل ان يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه فى المداد او الطين ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات فيه ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كأن الكتاب انما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بتمام وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب او أوله بكلمات منتظمة من تحميد او تسبيح او باسم السلطان او الامير أو صاحب الكتاب من كان او شئ من نعوته يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه و يسمى ذلك فى المتعارف علامة و يسمى ختما تشبيها له باثر الخاتم الآصفى فى النقش ومن هذا خاتم القاضى الذى يبعث به للخصوم أى علامته وخطه الذى ينفذ بهما احكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أى علامته قال الرشيد ليحيى بن خالد لما اراد أن يستوزر جعفرا و يستبدل به من الفضل اخيه فقال لابيهما يحيى يا ابت انى اردت أن أحول الخاتم من يمينى الى شمالى فكنى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم و يشهد لصحة هذا الاطلاق ما نقله الطبرى ان معاوية ارسل الى الحسن عند مراودته اياه فى الصلح صحيفة بيضاء ختم على أسفلها و كتب اليه أن اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت اسفلها ما شئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة فى آخر الصحيفة بخطه او غيره و يحتمل ان يختم به فى جسم لين فتنتقش فيه حروفه و يجعل على موضع الحزم من الكتاب اذا حزم وعلى الموادعات وهو من السداد كما مر وهو فى الوجهين آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم واول من اطلق الختم على الكتاب أى العلامة معاوية لانه امر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة الف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين و رفع زياد حسابه فانكرها معاوية وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبرى وقال آخره وحزم الكتب ولم تكن تحزم أى جعل لها السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائمين على انفاذ كتب السلطان والختم عليها اما بالعلامة او بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه فى ديوان الاعمال والحزم للكتب يكون اما بدس الورق كما فى عرف كتاب المغرب واما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب كما فى عرف اهل المشرق وقد يجعل على مكان الدس او الالصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فاهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع و يختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرتسم النقش فى الشمع وكان فى المشرق فى الدول القديمة يختم على مكان اللصق

بخاتم منقوش أيضا قد غمس فى مداف من الطين معد لذلك صبغه احمر فير تسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين فى الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجلب من سيراف فيظهر انه مخصوص بها فهذا الخاتم الذى هو العلامة المكتوبة او النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير فى الدولة العباسية ثم اختلف العرف وصار ان اليه الترسيل وديوان الكتاب فى الدولة ثم صاروا فى دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للاصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه السلطان شارة فى عرفهم كما كانت البردة والقضيب فى الدولة العباسية والمظلة فى الدولة العبيدية والله مصرف الامور بحكمه

(الطراز) من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم اسماؤهم او علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج او الابريسم تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب الحاما وسدى بخيط الذهب او ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك ووضعه فى صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصدا للتنويه بلابسها من السلطان فمن دونه او التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه بذلك او ولايته لوظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك واشكالهم او اشكال وصور معينة لذلك ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب اسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفال او السجلات وكان ذلك فى الدولتين من ابهة الامور وأفخم الاحوال وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم فى قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر فى أمور الصباغ والآلة والحاكة فيها واجراء ارزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة اعمالهم وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال فى دولة بنى أمية بالاندلس والطوائف من بعدهم وفى دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها فى الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من اكثر الدول بالجملة * ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بنى أمية أول المائة السادسة ولم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التى لقنوها عن امامهم محمد بن تومرت المهدى وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها اعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة واما لهذا العهد فادركنا بالمغرب فى الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسما جليلا لقنوه من دولة ابن الاحمر معاصرهم بالاندلس واتبع هو فى ذلك ملوك الطوائف فاتى منه بلمحة شاهدة بالاثر * واما دولة الترك بمصر والشأم لهذا العهد ففيه من الطرز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الا ان ذلك لا يصنع فى دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وانما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش لفظة اعجمية ويرسم اسم السلطان أو الامير عليه ويعده الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها والله مقدر الليل والنهار والله خير الوارثين

(الفساطيط والسياج)

اعلم ان من شارات الملك وترفه اتخاذ الاخبية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيباهى بها فى الاسفار وتنوع منها الالوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة فى

ضعه واقالة العثرة موجبة اقالة عثرتك من ربك وعفوك عن الناس موصول بعفو الله عنك وعقابك موصول بعقاب الله تعالى لك والله يحب العافين (وقال) المنصور (١٥٨) عقوبة الاحرار التعريض وعقوبة الاشرار التصريح (وقال) المأمون لما رأيت الذنوب جلت عن المجازاة بالعقاب جعلت العقاب فيها عفوا أمضى من الضرب للرقاب وقال الاحنف لا تزال العرب بينة الفضل ما لم تعد العفو ضيما والبذل سرفا وفى الحكمة اذا انتقمت فقد انتصفت واذا عفوت فقد تفضلت (وقال) بعض الحكماء اقبل العذر وان كان مصنوعا الا ان يكون ممن أوجبت المروءة قطيعته أو يكون فى قبولك عذره تشجيعه على المنكر وأو هونه على الشرفان قبولك للعذر فيه اشتراك فى المنكر (ولما دخل) الفيل دمشق حشر الناس لرؤيته وصعد معاوية الى علية له متطلعا فبيناهو كذلك اذ نظر فى بعض الحجر فى قصره رجلا مع بعض حرمه فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بد فوقعت عينه على الرجل فقال يا هذا أفى قصرى وتحت جناحى تهتك حرمى وأنت فى قبضتى ما حملك على ذلك فبهت الرجل وقال بحلمك أوقعنى قال له معاوية فان عفوت عنك تسترها على قال نعم فخلى سبيله وهذا من الدهاء العظيم والحلم الواسع أن يطلب الستر من الجانى وهو عروض قول الشاعر اذا مرضنا أتينا كم نعودكم * وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

(وأتى موسى الهادى) برجل قد جنى فجعل يقرعه بذنوبه ويتهدده فقال اعتذارى مما تقرعنى به رد عليك واقرارى بما ذكرته ذنب

المثروة

الثروة واليسار وانما يكون الامر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بني امية انما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين الا الاقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الاهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقة تحشد الناس على أثره ان يقيموا اذا ظعن ونقل انه استعمل في ذلك الحجاج حين اشار به روح بن زنباع وقصتهما في احراق فساطيط روح وخيامه لاول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولى ارادتهم على الظعن الا من يأمن بوادر السفهاء من احيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخف الى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في اسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتا مختلفة الاشكال مقدرة الامثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بابلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الامير والقائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجا من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان اهله أفراك بالكاف التي بين الكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره * وأما في المشرق فيتخذه كل امير وان كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم فخف لذلك ظهرهم وتقاربت الساح بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهوا أنيقا لاختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التي أظلتنا كان سفرهم اول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطن حتى اذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا الى سكنى الاخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان الا ان العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الاهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك الى تحفظ آخر والله القوي العزيز

(المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة)

وهما من الامور الخلافية ومن شارات الملك الاسلامي ولم يعرف في غير دول الاسلام * فاما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزه وما يليه فاول من اتخذها معاوية بن ابي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة وقيل اول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي انما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الابهة كلها ومازال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما

ولكني أقول فان كنت ترجو في العقوبة راحة * فلا تزهدن عند المعافاة في الاجر فامر باطلاقه (وقال المهلب) لاشئ أبقى للملك من العفو فان الملك اذا وثقت رعيته منه بحسن العفو لم يوحشها الذنب وان عظم وان خشيت منه العقوبة أوحشها الذنب وان صغر حتى يضطره ذلك الى المعصية ومن الحكمة البالغة في مثل هذا قول سابور وقد جمع أولاده فقال يا بني ان العز كان ثم أثواق قلوب الرعية حبا فاملؤها خوفا وليس ذلك بان تحمل العقوبة على من لا يستحقها ولكن تحملها لمن يستحقها وفي هذا المعنى قال الله تعالى فشرد بهم من خلفهم وهذا معنى لا يختل عما أوجبناه وهو معنى قول سابور ولا يخالف ما قررناه من حسن العفو بل هذا محمول على الواجب المستحق أو على ما في تركه اغرار بركون أمثاله فههنا يكون العفو مفسدة فيا أيها المعاقب اذا قدرت على مذنب عقوبة فلا تكن كالمتشفي المتلذذ بعذابه لانك واياه اخوان لاب وأم آدم وحواء لم تفضله بحولك وقوتك بل عطاء فضلك الله به تطولا عليك فاذكر لو كنت في مقامه وكان في مقامك ولا تأمن تقلب الدهر فتقوم مقامه بين يدي من لا يرحم ولا ينظر في العواقب واحذر التفريط والتقصير واقم نفسك مذنبا أقيم للعقوبة وليكن عقابك مقدرا كما كان عطاؤك مقدرا وليكن عقابك للتقويم لا للانتقام وللزجر لا للهوى وعن هذا قال بزرجمهر لا ينبغي للملوك ان يكرموا احدا بهوان من ليس للهوان أهلا ولا ان يهينوا أحدا باكرام من ليس للكرامة أهلا لا تكن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ولا على البخل أسرع

منك الى البذل قال الشاعر صفوح عن الاجرام حتى كانه * من العفو لم يعرف من الناس مجرما فليس يبالى ان يكون به الاذى *

اذا ما الاذى بالكرم لم يغش مسلما (وقال سليمان بن داود) عليهما السلام التنكيل والعقوبة أمنية الملك الشرير

استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة و بقيت من بعده سنة لملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده *

(واما الدعاء على المنابر) في الخطبة فكان الشأن اولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضا عن أصحابه واول من اتخذ المنبر عمرو بن العاصي لما بنى جامعه بمصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد اخذ عمرو بن العاصي المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب اليه عمر بن الخطاب اما بعد فقد بلغني انك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين او ما يكفيك ان تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك الا ما كسرته فلما حدثت الابهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولان تلك الساعة مظنة للاجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة في ذلك و يشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الامر الى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر ان يشاركه فيه احد او يسمو اليه وكثيرا ما يغفل الماهدون من اهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة و يقنعون بالدعاء على الابهام والاجمال لمن ولي امور المسلمين و يسمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك ان الدعاء على الاجمال انما يتناول العباسي تقليدا في ذلك لما سلف من الامر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه * يحكى أن يغمراسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الامير ابو زكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في اعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤا وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سببا لأخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فاذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا في اعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والابهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا الى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

٣٨ *(فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها)*

اعلم ان الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله وأصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته فاذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان احداهما تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيده فالاول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والاكراد وأشباههم لانهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم

ومعاشهم

وعلى مثله يبعث الله ملكا غير رحيم وقال معاوية لا ينبغي للملك ان يظهر منه غضب أو رضا الا لثواب أو عقاب وقال اردشير فضل الملك على السوقة انما هو بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم فكلما استكثر منها بانت فضيلته واستحقاقه لوضعه من الولاية عليهم وكلما نقص منها قارب من السوقة (وقال المأمون) انى لاجد لعفوي لذة أعظم من لذة الانتقام واعلم انه اذا عاقب الملك أو أهان على ظن بغير يقين أدخل على نفسه من قبح الخطا في الرأى أعظم مما أدخل على صاحبه من العقوبة وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الغالب بالشر مغلوب وما ظفر من ظفر بالاثم (وقيل) لافلاطون أي شيء من أفعال الناس يشبه أفعال الله تعالى فقال الاحسان الى الناس وقال الحكيم الحلم فدام السفيه والعفو زكاة العقل وقال الحكيم السيد الذي لا يشين حسن الظفر بقبح الانتقام وخير مناقب الملوك العفو وكان يحيى ابن معاذ يقول سبحان من أذل العبد بالذنب وأذل الذنب بالعفو الهي ان عفوت فخير راحم وان عذبت فغير ظالم الهي ان كنت لا ترضى الا عن أهل طاعتك فكيف يصنع الخاطئون وان كان لا يرجوك الا أهل وفائك فبمن يستغيث المستغيثون وقال الشاعر

وان الله ذو حلم ولكن * لعز الحلم ينتقم الحليم (وروى ان الحجاج) أخذ القطرى بن الفجاءة فقال لاقتلنك قال ولم قال لخروج أخيك
على قال فان معى كتاب أمير المؤمنين ان لا تأخذنى بذنب أخى قال ماته قال ان معى أوكد منه قال الله تعالى ولا تزر وازرة

ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وانما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما فى ايديهم والثالث هو المسمى فى الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغى وفتنة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفا ونوع بالكر والفر اما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر وذلك لان قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة و يمشون بصفوفهم الى العدو قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع واصدق فى القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع فى ازالته وفى التنزيل ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص اى يشد بعضهم بعضا بالثبات وفى الحديث الكريم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة ايجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف فان المقصود من الصف فى القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف و باء باثم الهزيمة ان وقعت وصار كانه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها الى الدين بخرق سياجه فعد من الكبائر و يظهر من هذه الادلة ان قتال الزحف اشد عند الشارع وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والامن من الهزيمة ما فى قتال الزحف الا انهم قد يتخذون وراءهم فى القتال مصافا ثابتا يلجؤن اليه فى الكر والفر و يقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد ثم ان الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساما يسمونها كراديس و يسوون فى كل كردوس صفوفه وسبب ذلك انه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحى استدعى ذلك ان يجهل بعضهم بعضا اذا اختلطوا فى مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لاجل النكراء وجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا و يضمون المتعارفين بعضهم لبعض و يرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعى فى الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها من سلطان او قائد فى القلب و يسمون هذا الترتيب التعبية وهو مذكور فى اخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدى الملك عسكرا منفردا بصفوفه متميزا بقائده ورايته وشعاره و يسمونه المقدمة ثم عسكرا آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمونه الميمنة ثم عسكرا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم عسكرا آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة و يقف الملك وأصحابه فى الوسط بين هذه الاربع و يسمون موقفه القلب فاذا تم لهم هذا الترتيب المحكم اما فى مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها او كيفما أعطاه حال العساكر فى القلة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبية وانظر ذلك فى اخبار الفتوحات واخبار الدولتين بالمشرق و كيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى فى التعبية فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا اليه وكما هو معروف فى أخباره وكان فى الدولة الاموية بالاندلس أيضا كثير منه وهو مجهول فيما لدينا لانا انما ادركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهى فى مجال الحرب الى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة أو مدينة و يعرف كل واحد منهم قرنه و يناديه فى حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبية

وزر أخرى فتعجب من جوابه وخلى سبيله ولما وفد عقيل بن أبى طالب على معاوية أمر له بمائة ألف درهم فلما أراد الانصراف رأى فى الطريق جارية بأربعين ألف درهم فرجع الى معاوية فأخبره قال وما تصنع بها قال تلد لى غلاما فان أغضبته يضرب مفرقك بالسيف فأمر له بها فابتاعها فولدت له مسلم بن عقيل ثم قدم مسلم الشام فابتاع منه معاوية ضيعة فبلغ الحسين ابن على الخبر فكتب الى معاوية انى لا أجيز بيع مسلم فارسل معاوية الى مسلم فقال هذا كتاب الحسين يأمر برد المال فقال مسلم أما دون ان أضرب مفرقك بالسيف فلا فضحك معاوية وقال والله لقد تهددنى أبوك بذلك قبل ان يشترى أمك وسوغه المال فقال الحسين غلبنا معاوية حلما وجودا

(الباب السابع والعشرون فى المشاورة والنصيحة)

وهذا الباب مما يعده الحكماء من أساس المملكة وقواعد السلطنة ويفتقر اليه الرئيس والمرؤس وقد ذكرناه فى

 باب الخصال الفرقانية ونذكر ههنا فوائدها ومحاسنها اعلم ان المستشير وان كان أفضل رأيا من المشير فانه يزداد
برأيه رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوأ فلا يقذفن فى روعك انك اذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأى غيرك فيمنعك

ذلك عن المشاورة فانك لا تريد الرأي للفخر به ولكن للانتفاع به فان أردت الذكر كان أنفع لذكرك وأحسن عند ذوي الألباب لسماستلك ان يقولوا لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي

من اخوانه ولا يمنعك عزمك على انفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة

(فصل) ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب وقد يفعله أهل الزحف أيضا ليزيدهم ثباتا وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجا من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنهم حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع * وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالسا فيها على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبوذة وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال (١) والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والإبل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف وكان الحرب أول الإسلام كله زحفا وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان والزحف إلى الاستماتة أقرب * وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبية كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال الجبيري فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري ويلقب أبا الدلفاء وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى فتنوسي قتال الزحف بإبطال الصف ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء في الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية وكان ذلك صفتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيعات وتخرم صفوفهم

(فصل) ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان

(١) قوله للأثقال والأبنية مراده بالأبنية الخيام كما يدل له قوله في فصل الخندق الآتي قريبا إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم اهـ

الاترى ان ابراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها فحمله حسن الادب وعلمه بوقعه في النفوس على الاستشارة فيه فقال فيه يا بني اني أرى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى وهذا من أحسن ما رسم في هذا الباب وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرأي الفرد كالخيط السحيل والرأيان كالخيطين والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع ويروى ان روميا وفارسيا تفاخرا فقال الفارسي نحن لا نملك علينا من يشاور وقال الرومي ونحن لا نملك علينا من لا يشاور وقال بزرجمهر اذا أشكل الرأي على الحازم كان بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها فالتمسها فوجدها كذلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الامر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص له الصواب (وكان) يقال من كثرت استشارته حمدت اماوته وفي حكم الهند قال بعض الملوك ان الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الانهار وينال بالحزم والرأي ما لا يناله بالقوة والجنود ولم تزل حزمة الرجال يستحلون مرارة قول النصحاء كما يستحلي الجاهل المساعدة على الهوى وقال المأمون لطاهر بن الحسين صف لي أخلاق المخلوع يعني أخاه الأمين فقال كان واسع الصدر ضيق الادب يبيح من نفسه ما تأباه همم الاحرار

يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردأ للمقاتلة امامه فلابد أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف والا اجفلوا على طريقة اهل الكر والفر فانهزم السلطان والعساكر باجفالهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندا من هذه الامة المتعودة الثبات في الزحف وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر وانما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناكها من تخوف الاجفال على مصاف السلطان والافرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لان عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في المغرب انما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من ممالأتهم على المسلمين هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شئ عليم

(فصل) وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام وأن تعبية الحرب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفا وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوسا وكل صف ردء للذي امامه أن يكبسهم العدو الى أن يتهيأ النصر لاحدى الطائفتين على الاخرى وهي تعبية محكمة غريبة

(فصل) وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذرا من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلمة سترا من عاره فاذا تساووا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ويديرون الحفائر نطاقا عليهم من جميع جهاتهم حرصا أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الايدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن والله خير القادرين وانظر وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لاصحابه يوم صفين تجد كثيرا من علم الحرب ولم يكن احد أبصر بها منه قال في كلام له فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الاضراس فانه أنبى للسيوف عن الهام والتووا على اطراف الرماح فانه أصون للاسنة وغضوا الابصار فانه أربط للجاش وأسكن للقلوب واخفتوا الاصوات فانه أطرد للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الا بايدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر وقال الاشتر يومئذ يحرض الازد عضوا على النواجذ من الاضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين يثأرون بآبائهم واخوانهم حناقا على عدوهم وقد وطنوا على الموت أنفسهم لئلا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار وقد أشار الى كثير من ذلك ابو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الاندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهدها ويذكره بامور الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها.

يا أيها الملأ الذي يتقنع * من منكم الملك الهمام الاروع
ومن الذي غدر العدو به دجى * فانفض كل وهو لا يتزعزع
تمضي الفوارس والطعان يصدها * عنه ويذمرها الوفاء فترجع
والليل من وضح الترائك انه * صبح على هام الجيوش يلمع

لا مصغيا الى نصيحة ولا يقبل مشورة يستبد برأيه فيرى سوء عاقبته فلا يردعه ذلك عما يهم به قال فكيف حروبه قال يجمع الكتائب بالتبذير ويفرقها بسوء التدبير فقال المأمون لذلك ما حل محله أما والله لو ذاق لذاذة النصائح واختار مشورة الرجال وملك نفسه عند شهوتها ما ظفر به وقال بعضهم انقياد الملوك الامور بغير روية كالعبادة بغير نية ولم تزل العقلاء على اختلاف آرائهم يشهدون الغيوب ويستشيرون صواب الرأي من كل أحد حتى الامة الوعك هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الى عيوبي وكان يقال من أعطى أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب وقال بعضهم خمير الرأي خير من فطيره وتأخيره خير من تقديمه (وذكر صاحب كتاب التاج) ان بعض ملوك العجم استشار وزراءه فقال أحدهم لا ينبغي للملك ان يستشير منا أحدا الا خاليا فانه أموت للسر واحزم في الرأي وأجدر بالسلامة واعفى لبعضنا من غائلة البعض وكان بعض ملوك العجم اذا شاور مرازبته فقصروا في الرأي دعا الموكلين بارزاقهم فعاقبهم فيقولون تخطئ مرازبتك وتعاقبنا فيقول نعم لم يخطئوا الا لتعلق قلوبهم بارزاقهم واذا اهتموا أخطؤا وكانوا اذا اهتموا بمشاورة رجل بعثوا اليه بقوته وقوت عياله لسنته ليتفرغ لبه وكان يقال النفس اذا أحرزت قوتها اطمأنت واذا شاورت فاصدق الخبر تصدقك المشورة ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك

أنى فزعتم يا بنى صنهاجة * واليكمو فى الروع كان المفزع
انسان عين لم يصبه منكم * حضن وقلب أسلمته الاضلع
وصددتمو عن تاشفين وانه * لعقابه لوشاء فيكم موضع
ما أنتمو الا أسود خفية * كل لكل كريهة مستطلع
يا تاشفين أقم لجيشك عذره * بالليل والقدر الذى لا يدفع

(ومنها فى سياسة الحرب)

اهديك من أدب السياسة ما به * كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لا انتى ادرى بها لكنها * ذكرى تخص المؤمنين وتنفع
والبس من الحلق المضاعفة التى * وصى بها صنع الصنائع تبع
والهندوانى الرقيق فانه * امضى على حد الدلاص وأقطع
واركب من الخيل السوابق عدة * حصنا حصينا ليس فيه مدفع
خندق عليك اذا ضربت محلة * سيان تتبع ظافرا أو تتبع
والواد لا تعبره وانزل عنده * بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل مناجزة الجيوش عشية * ووراءك الصدق الذى هو أمنع
واذا تضايقت الجيوش بمعرك * ضنك فاطراف الرماح توسع
واصدمه اول وهلة لا تكترث * شيأ فاظهار النكول يضعضع
واجعل من الطلاع أهل شهامة * للصدق فيهم شيمة لا تخدع
لا تسمع الكذاب جاءك مرجفا * لا رأى للكذاب فيما يصنع

قوله واصدمه اول وهلة لا تكترث البيت مخالف لما عليه الناس فى أمر الحرب فقد قال عمر لابى عبيد بن مسعود الثقفى لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع وأطع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم واشركهم فى الامر ولا تجيبن مسرعا حتى تتبين فانها الحرب ولا يصلح لها الا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف وقال له فى أخرى انه لن يمنعنى أن اؤمر سليطا الا سرعته فى الحرب وفى التسرع فى الحرب الا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لامرته لكن الحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بان التثاقل فى الحرب اولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفى الا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى اعلم

(فصل) ولا وثوق فى الحرب بالظفر وان حصلت أسبابه من العدة والعديد وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب فى الاكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهى الجيوش ووفورها وكمال الاسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن أمور خفية وهى اما من خدع البشر وحيلهم فى الارجاف والتشانيع التى يقع بها التخذيل وفى التقدم الى الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفى الكمون فى الغياض ومطمئن الارض والتوارى بالكدى عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلمون الى النجاة وأمثال ذلك واما أن تكون تلك الاسباب الخفية امورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى فى القلوب فيستولى الرهب عليهم لاجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الاسباب

وقال بعض ملوك العجم لا ينفعك شدة باسك فى باطنك ولا علوم كانك فى نفسك من ان تجمع الى رأيك رأى غيرك فان أخذت أحمدت وان أخطأت عذرت فان فى ذلك خصالا منها ان وافق رأيك رأى غيرك ازداد رأيك شدة عندك وان خالفه عرضته على نظرك فان رأيته معتليا لما رأيته قبلته وان رأيته متضعا استغنيت عنه وتجد بذلك النصيحة ممن شاورته وان أخطأ وتمحض لك مودته وان قصر ولو لم يكن من فضيلة المشاورة الا انك ان أصبته مستبدا سلبت فائدة الاصابة بألسنة الحسدة وقال قائل هذا اتفاق ولو فعل كذا لكان أحسن واذا شاورت فاصبت أحمد الجماعة رأيك لانهم لنفوسهم يحمدون وان أخطأت حمل الجماعة خطأك لانهم عن نفوسهم يكافحون واعلم ان القول الغليظ يستمع لفضل عاقبته كما يتكاره شرب الدواء المر لفضل مغبته (وقال اعرابى) ما غبنت قط حتى غبن قومى قالوا وكيف ذلك قال لا أفعل شيأ حتى أشاورهم (وقيل) لرجل من بنى عبس ما أكثر صوابكم يا بنى عبس فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ونحن نطيعه فكأنا ألف حازم وكان ابن هبيرة امير البصرة يقول اللهم انى أعوذ بك من صحبة من غايته خاصة نفسه والانحطاط فى هوى مستشيره (وفى حكم الهند) من التمس من الاخوان الرخصة عند المشورة ومن الاطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه أخطأ الرأى وازداد مرضا وحمل الوزر وقالت الحكماء لا تشاور معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفا ولا من يرهقه أحد السبيلين وقالوا الآراء

لخانق ولا لحازق ولا لحاقب ولا لشاور ومن لا دقيق عنده والحازق هو الذى ضغطه الخف الضيق والحاقب هو الذى يجد فى بطنه ثقلا وقالوا من شكا الى عاجز أعاره عجزه وأمده من جزعه (ومن لطيف ما جرى فى الاستشارة) (١٦٥) ان زياد بن عبيد الله الحارثى استشار

الاسباب الخفية لكثرة ما يحتمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلابد من وقوع التأثير فى ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب فى الحرب غالبا عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الاشياء عن الاسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر فى موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الامور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين فى حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك فى الفتوحات فان الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بالقاء الرعب فى قلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب فى قلوبهم سببا للانهزام فى الفتوحات الاسلامية كلها الا انه خفى عن العيون * وقد ذكر الطرطوشى ان من أسباب الغلب فى الحروب ان تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان فى أحد الجانبين على عدتهم فى الجانب الآخر مثل ان يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفى الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد فى ذلك وأبدى وهو راجع الى الاسباب الظاهرة التى قدمناه وليس بصحيح وانما الصحيح المعتبر فى الغلب حال العصبية ان يكون فى أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفى الجانب الآخر عصائب متعددة لان العصائب اذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع فى الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية اذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذى عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذى عصبيته واحدة لاجل ذلك فتفهمه واعلم انه أصح فى الاعتبار مما ذهب اليه الطرطوشى ولم يحمله على ذلك الا نسيان شأن العصبية فى حلة وبلده وانهم انما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة الى الوحدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون فى ذلك عصبية ولا نسبا وقد بينا ذلك أول الكتاب مع ان هذا وأمثاله على تقدير صحته انما هو من الاسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش فى العدة وصدق القتال وكثرة الاسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كفيلا بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن ان شيأ منها لا يعارض الاسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الامور السماوية من الرعب والخذلان الالهى فافهمه وتفهم أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار

(فصل) ويلحق بمعنى الغلب فى الحروب وان أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل ان تصادف موضعها فى أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقا على صاحبها والسبب فى ذلك ان الشهرة والصيت انما هما بالاخبار والاخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الاوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للاحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل ويدخلها التقرب لاصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون الى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا فى الاكثر براغبين فى الفضائل ولا منافسين فى أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفى فهو الذى يعبر عنه بالبخت كما تقرر والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

 (فصل فى الجباية وسبب قلتها وكثرتها)

عبيد الله بن عمر فى أخيه أبى بكر ان يوليه القضاء فاشار به فبعث الى أبى بكر فامتنع عليه فبعث زياد الى عبيد الله يستعين على أبى بكر فقال ابو بكر لعبيد الله أنشدك الله أترى لى القضاء قال اللهم لا قال زياد سبحان الله استشرتك فاشرت على به ثم اسمعك تنهاه فقال أيها الامير استشرتنى فاجتهدت لك الرأى ونصحتك ونصحت للمسلمين واستشارنى فاجتهدت له رأيى ونصحته (وروى ان الحجاج) بعث الى المهلب يستعجله حرب الازارقة فكتب اليه المهلب ان من البلاء ان يكون الرأى لمن يملكه دون من لا يبصره

(فصل فى النصيحة)

اعلموا ان النصح للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين قال الله تعالى اخبارا عن نوح عليه السلام ولا ينفعكم نصحى ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم وقال شعيب عليه السلام ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وقال عليه السلام ان العبد اذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين (وروى) ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم فالنصح فى الجملة فعل الشئ الذى به الصلاح

اعلم ان الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك ان الدولة ان كانت على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وان كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن اموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك الا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الاموال من مجموعها واذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم واذا كثر الاعتمار كثرت اعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جملتها فاذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البداوة والسذاجة وخلقها من الاغضاء والتجافي وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية الى الكيس وتخلق اهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات وفي الابواب كما نذكر بعد ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا وتهضمهم وتصير عادة مفروضة لان تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها انما ثبت على الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من نفوسهم بقلة النفع اذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الايدي عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف اذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لان فائدة الاعتمار عائدة اليها واذا فهمت ذلك علمت ان أقوى الاسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس اليه لثقتها بادراك المنفعة فيه والله سبحانه وتعالى مالك الامور كلها وبيده ملكوت كل شئ

٤٠ *(فصل في ضرب المكوس اواخر الدولة)*

اعلم ان الدولة تكون في أولها بدوية كما قلناه فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء بازيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية لما تحتاج اليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع اولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الاموال من الاعمال والقاصية فتقل الجباية

ودفع الملامة مأخوذ من النصاحة وهي السلوك التي يخاط بها وتصغيرها نصيحة تقول العرب هذا قميص منصوح أي مخيط ونصحته نصحا اذا خطته ويختلف النصح في الاشياء (١٦٦) لاختلاف الاشياء فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس باهل له عقدا وقولا والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرا وباطنا والرغبة في محابه والتباعد من مساخطه وموالاة من اطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد في رد العصاة الى طاعته قولا وفعلا وارادة بث جميع ما ذكرناه في عباده والنصيحة لكتابه اقامته في التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم ما فيه واستعماله والذب عنه من تأويل المحرفين وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين قال الله تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب والنصيحة للرسول عليه السلام موازرته ونصرته والحماية من دونه حيا وميتا واحياء سنته بالطلب واحياء طريقته في بث الدعوة وتأليف الكلمة والتخلق بالاخلاق الطاهرة والنصيحة للائمة معاونتهم على ما تكلفوا القيام به في تنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء واعلامهم باخلاق عمالهم وسيرهم في الرعية وسد خلتهم عند الحاجة ونصرتهم في جمع الكلمة عليهم ورد القلوب النافرة اليهم والنصح لجماعة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرحمة
وتكثير
لصغيرهم وتفريج كربهم ودعوتهم الى ما يسعدهم وتوقي ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوساوس عليهم ومن النصيحة للمسلمين رفع

وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعاضها بآثار الخير وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى محا رسمه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بأمصار الجريد بإفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم

٤١ *(فصل في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية)*

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت إلى مزيد المال والجباية فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم وأن الأرباح تكون على نسبة رؤس الأموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فإن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غصبا أو بأيسر ثمن أو لا يجد من يناقشه في شرائه فيبخس ثمنه على بائعه ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلها كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار لا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل ثم إنه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من

مؤنة نفسه وبدنه وحوائجه عنهم (قال الأصمعي) التقط عمر بن الخطاب رضي الله عنه نواة من الطريق فأمسكها بيده حتى مر بدار قوم فألقاها في الدار وقال يأكلها داجنهم والنصح بجميع الملل أن يحب إسلامهم ويدعوهم إلى الإيمان (١٦٧) بالقول ويحذرهم سوء مغبة الكفر وبالسيف إن كان ذا سلطان أو يكفوا عن قتال المسلمين فيكونوا ذمة وإلا فالقتل نصحا لإقامة أمره فيهم (وروى معاذ) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم العمل لله ومناصحة ولاة الأمر والاعتصام بجماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وقال جابر بن عبد الله بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقنني فيما استطعت والنصح لكل مسلم (وروى) أنس أن النبي عليه السلام قال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وقال أبو الدرداء العلم يبلغه البر والفاجر والحكمة ينطق بها البر والفاجر والنصيحة لله تعالى لا تثبت إلا في قلوب المنتجبين الذين صحت عقولهم وصدقت نياتهم واعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم وكان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي وقال ميمون بن مهران قال لي عمر بن عبد العزيز رحمه الله قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره وقال مالك النصيحة لله في أرضه هي التي بعث الله بها أنبياءه ومن أمر الإسلام القصد والنصيحة لعباد الله في أمورهم والنفوس مستثقلة للنصح نافرة عن أهله ومائلة إلى ما وافق هواها (وفي منثور الحكم) ودلك من

شراء او بيع فانه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلا من جهة الجباية ثم فيه التعرض لاهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصه فان الرعايا اذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف أحوالهم فافهم ذلك وكان الفرس لا يملكون عليهم الا من اهل بيت المملكة ثم يختارونه من اهل الفضل والدين والادب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وان لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الاسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة * واعلم ان السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده الا الجباية وادرارها انما يكون بالعدل في اهل الاموال والنظر لهم بذلك فبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للاخذ في تثمير الاموال وتنميتها فتعظم منها جباية السلطان وأما غير ذلك من تجارة او فلح فانما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الامراء والمتغلبين في البلدان انهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من اربابها الواردين على بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤن ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشد من الاولى واقرب الى فساد الرعية واختلال احوالهم وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الاصناف أعني التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فانها أجدر بنمو الاموال وأسرع في تثميره ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعاياتهم المضرة بجبايته وسلطانه والله يلهمنا رشد انفسنا وينفعنا بصالح الاعمال والله تعالى اعلم

٤٣ *(فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة)*

والسبب في ذلك ان الجباية في اول الدولة تتوزع على اهل القبيل والعصبية بمقدار غنائهم وعصبيتهم ولان الحاجة اليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون اليه من الجباية معتاض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم فله عليهم عزة وله اليهم حاجة فلا يطير في سهمانه من الجباية الا الاقل من حاجته فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي مملقين في الغالب وجاههم متقلص لانه من جاه مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيته فاذا استفحلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض أيديهم عن الجبايات الا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم وتقل حظوظهم اذ ذاك لقلة غنائهم في الدولة بما انكبح من أعنتهم وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الامر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية او معظمها ويحتوي على الاموال ويحتجنها للنفقات في مهمات الاحوال فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الاموال ويتأثلونها ثم اذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبية وفناء القبيل المماهدين للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ الى الاعوان والانصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجه لظهرائه وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات وانفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والانفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة الى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم وضيق

نطاقه

نصحك وقلاك من مشى في هواك وكان يقال أخوك من احتمل أثقل نصيحتك وقال بعضهم شعرا

عرضت نصيحة مني لزيد * فقال غششتني والنصح مر
وما لي ان أكون نصحت زيدا * وزيد طاهر الاثواب بر
ولكن قد أتاني أن زيدا * يقال عليه في مغناه شر
فقلت له تجنب كل شئ * يقال عليك ان الحر حر

(وقال آخر)

وعلى النصوح نصيحتي * وعلى عصيان النصوح

(وللقطامي شعر)

ومعصية الشفيق عليك مما * تزيدك مرة منه استماعا
وخير الامر ما استقبلت منه * وليس بان تتبعه اتباعا

(ولورقة بن نوفل)

لقد نصحت لاقوام وقلت لهم * أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا شئ مما ترى تبقى بشاشته * الا الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

قال ابن وهب انما يحسن الاختيار لغيره من يحسن الاختيار لنفسه ولا خير لك فيمن لا خير له في نفسه وقالت العلماء ان ينصحك امرؤ لا ينصح لنفسه (وقال بعضهم) رأي ورأيك في المعرفة امثل لنفسك من رأيك لانه خلو من هواك وقال أبو الدرداء ان شئتم لانصحن لكم ان أحب عباد الله الى الله الذين يحببون الله الى عباده ويعملون في الارض نصحا وروى ان رجلا لطم ابراهيم بن أدهم فرفع رأسه الى السماء وقال الهي ان كنت تثيبني وتعاقبه فلا تثبني ولا تعاقبه *(ومن الخصال التي تجري مجرى الجمال والكمال الحلم)*

(الباب الثامن والعشرون في الحلم)

نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة الى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الاموال في غير سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيأ فشيأ وواحدا بعد واحد على نسبة رتبهم وتنكر الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه اهله ويرفعوه وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركناها لعهدنا سنة الله التي قد خلت في عباده

(فصل) ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلص من ربقة السلطان بما حصل في ايديهم من مال الدولة الى قطر آخر ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في انفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغلاط الفاحشة والاوهام المفسدة لاحوالهم ودنياهم واعلم ان الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فان صاحب هذا الغرض اذا كان هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصبية المزاحمون له بل في ظهور ذلك منه هدم لملكه واتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لان ربقة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر وأما اذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته فقل أن يخلى بينه وبين ذلك أما أولا فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم مماليك لهم مطلعون على ذات صدورهم فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة ضنا باسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها احد وغيرة من خدمته لسواهم ولقد كان بنو أمية بالاندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بايدي بني العباس فلم يحج سائر أيامهم احد من أهل دولتهم وما أبيح الحج لاهل الدول من الاندلس الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوعها الى الطوائف وأما ثانيا فلانهم وان سمحوا بحل ربقته هو فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون انه جزء من دولتهم اذ لم يكتسب الا بها وفي ظل جاهها فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به ثم اذا توهمنا انه خلص بذلك المال الى قطر آخر وهو في النادر الاقل فتمتد اليه أعين الملوك بذلك القطر وينتزعونه بالارهاب والتخويف تعريضا أو بالقهر ظاهرا لما يرون أنه مال الجباية والدول وأنه مستحق للانفاق في المصالح واذا كانت أعينهم تمتد الى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش فأحرى بها أن تمتد الى أموال الجباية والدول التي تجد السبيل اليه بالشرع والعادة ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بافريقية الخروج عن عهدة الملك واللحاق بمصر فرارا من طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس فاستعمل اللحياني الرحلة الى ثغر طرابلس يوري بتمهيده وركب السفين من هنالك وخلص الى الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده ببيت المال من الصامت والذخيرة وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجوهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله الى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة فأكرم نزله ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شيأ فشيأ بالتعريض الى أن حصل عليها ولم يبق معاش ابن اللحياني الا في جرايته التي فرض له الى أن هلك سنة ثمان وعشرين

قال الله تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب وقال تعالى فاصفح الصفح الجميل (قال) علي رضي الله عنه الصفح الجميل الرضا بلا عتاب وقيل الصفح الجميل الرضا بلا توبيخ فيه ولا حقد معه وفي الامثال القديمة كاد الحليم أن يكون نبيا (١٦٩) (ويروى) أن رجلا قال يارسول الله علمني كلمات أعيش بهن ولا يكثرن علي فانسى قال لا تغضب واعلم ان الحلم أشرف الاخلاق وأحقها بذوي الالباب لما فيه من راحة السر واجتلاب الحمد وأحق الناس به السلطان لانه منصوب لاقامة اود الخلائق وممارسة أخلاقهم ولا يطيفون به في حال سلمهم وانما يغشون بابه حين تنازعهم وخصوماتهم وشرورهم وتكدر نفوسهم وضيق اخلاقهم فان لم يكن معه حلم يرد به بوادرهم والا وقع تحت عيب ثقيل وكان أنوشروان ذا حلم وأناة وكان يقول في خصلتان لولا انهما ظاهرتان عند الرعية لضقت بهما ذرعا الحلم والاناة (وروى) ان يحيى ابن زكريا لقي عيسى بن مريم عليهم السلام فقال ياروح الله اخبرني باشد الاشياء في الدارين قال غضب الله تعالى قال ياروح الله وما ينجيني من غضب الله تعالى قال ترك الغضب قال ياروح الله كيف يبدو الغضب قال التعزز والتكبر والفخر على الناس وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال وجبت محبة الله تعالى على من أغضب فحلم والذي يحمل ان يضرب في هذا الباب قصة اسحق عليه السلام قال له ابراهيم يابني اني أرى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ثم انه تله للجبين

وأمر على حلقه السكين فلم يقل الاخير افقال الله تعالى وبشرناه بغلام حليم (وفى الاخبار) يقول ابليس لعنه الله ان الحديد من الرجال لم ييأس منه وان كان يحيي الموتى بدعائه لانه تأتى عليه ساعة يحتد فيها فيصير منه الى ما يريد (ويروى) ان جعفر بن محمد

حسبما نذكره فى اخباره فهذا وامثاله من جملة الوسواس الذى يعترى أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب وانما يتخلصون ان اتفق لهم الخلاص بانفسهم وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم والذى حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف فى وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاه فى انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول انساب لكن

النفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بمنه وفضله والله أعلم

٤٣ *(فصل فى أن نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية)*

والسبب فى ذلك ان الدولة والسلطان هى السوق الاعظم للعالم ومنه مادة العمران فاذا احتجن السلطان الاموال او الجبايات أو فقدت فلم يصرفها فى مصارفها قل حينئذ ما بأيدى الحاشية والحامية وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للاسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ فى الاسواق وتضعف الارباح فى المتاجر فيقل الخراج لذلك لان الخراج والجباية انما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج فان الدولة كما قلناه هى السوق الاعظم ام الاسواق كلها واصلها ومادتها فى الدخل والخرج فان كسدت وقلت مصارفها فاجدر بما بعدها من الاسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه وأيضا فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله فى عباده

٤٤ *(فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران)*

اعلم ان العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم واذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب فاذا كان الاعتداء كثيرا عاما فى جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالاعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت ايديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذعر الناس فى الآفاق من غير تلك الايالة فى طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت امصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر فى ذلك ما حكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم ايام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك فى انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك اصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له ان بوما ذكرا يروم نكاح بوم أنثى وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها ان دامت ايام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له ايها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل

دخل على الرشيد وقد استخفه الغضب فقال له يا أمير المؤمنين انك انما تغضب لله تعالى ولا تغضب له باكثر من غضبه لنفسه واعلم أرشدك الله ان هذه الكلمة لا قيمة لها والله أعلم حيث يجعل رسالاته فما أخفها وأجل قدرها وأعظم شأنها الا انك اذا كنت أيها السلطان انما تتصرف فى ملك الله بامر الله فالله تعالى قد حد حدودا وشرع شرائع وأقام فروضا وسننا ونهى عن حدود ورسوم ثم قدر فى كل خصلة عند مخالفته حدا محدودا ونهى ان يتعدى ذلك الحد فلا يقبل من استحق القطع والحبس والادب والحد ولا يحبس غير من استوجب الحبس وكانت الخلفاء يؤدبون الناس على قدر منازلهم فمن عثر من ذوى المروآت أقيلت عثرته ولم يقابل بشئ لقوله عليه السلام اقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم ومن سواهم كان يقابل على قدر منزلته وهفوته فكان يقام قائما فى مجلس يقعد فيه نظراؤه فتكون هذه عقوبته وآخر يشق جيبه وآخر تنزع عمامته من رأسه وآخر يكلم بالكلام الذى فيه بعض الغلظة * قال الشعبى كانت العصاة فى زمن عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم اذا أخذ الرجل منهم نزعت عمامته وطيف به فى المسجد على قومه وقيل هذا أخذ بشعره فلما ولى زياد ضربهم ونزع عمائمهم فلما ولى

والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصب الرب وجعل له قيما وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الاموال واقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا الى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال وهلكت الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك الا بها فلما سمع الملك ذلك اقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من ايدي الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت الارض وأخصبت البلاد وكثرت الاموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الاعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران وان عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ولا تنظر في ذلك الى أن الاعتداء قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم ان ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء واحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا واحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا لان النقص انما يقع بالتدريج فاذا خفي بكثرة الاحوال واتساع الاعمال في المصر لم يظهر أثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الاخرى فترقعه بجدتها وتجبر النقص الذي كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر به الا أن ذلك في الاقل النادر والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان امر واقع لا بد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول ولا تحسبن الظلم انما هو أخذ المال او الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك احد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الاملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لاذهابه الآمال من أهله واعلم ان هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع لما أدى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهما وأدلته من القرآن والسنة كثيرا أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر ولو كان كل واحد قادرا عليه لوضع بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بازاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل احد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر الا أن الظلم لا يقدر عليه الا من يقدر عليه لانه انما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى ان يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد * ولا تقولن ان العقوبة قد وضعت بازاء الحرابة في الشرع وهي من ظلم القادر لان المحارب زمن حرابته قادر فان الجواب عن ذلك من طريقين احدهما أن تقول العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس او مال على ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة . الطريق الثاني ان تقول المحارب لا يوصف بالقدرة

مصعب بن الزبير حلق مع الضرب رؤسهم فلما ولي بشر بن مروان أقامهم على الكراسي ثم مدت أيديهم وسمر بها عمارثم نزع الكرسي من تحت رجليه حتى يحرم يده فمن ميت ومن حي فلما ولي الرجل المعروف بالحجاج قال كل هؤلاء يلعب من أخذ بشعره ضرب عنقه وقال ارسطاطاليس النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان والنفس الشريفة يؤثر فيها يسير الكلام وفيه قيل

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت ايلام

واعلم أن من تجاوز في العقوبة فوق ما حد الله تعالى فيها شارك المجرم في الذنب واستوجب ما استوجبه المجرم من العقوبة ويتبين في الآخرة انه انما يعاقب للهوى والتشفي اذا فاغضب الله تعالى (وفي كتاب سليمان ابن داود عليهما السلام) القاهر لنفسه أشد من يفتتح المدينة وحده وصدق نبي الله صلى الله عليه وسلم فان السلطان يفتتح المدينة ويقهر أهلها ويغلب جنودها وحماتها ويقتل أبطالها ثم تغلبه شهوته ويبقى أسيرا في ذل هواه قد قهرته قينة بطنبورها أو قدح خمر يذهب بعقله *وقال أكثم بن صيفي الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر الندم (وسأل علي بن أبي طالب) رضي الله عنه كثيرا من كبراء فارس من أحمد ملوكهم عندهم فقال لاردشير فضل السبق غير ان أحمدهم سيرة أنوشروان قال فاي اخلاقه كان أغلب عليه قال الحلم والاناة فقال علي رضي الله عنه هما توأمان ينتجهما علو الهمة *ومن محمود السيرة ان يعرف الناس من أخلاقك انك لا تعجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي

لانا انما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب واما قدرة المحارب فانما هي اخافة يجعلها ذريعة لاخذ الاموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر على ما يشاء

(فصل) ومن أشد الظلامات وأعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الاعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق لان الرزق والكسب انما هو قيم اعمال أهل العمران فاذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فان الرعية المعتملين في العمارة انما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فاذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وان تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

(فصل) واعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على اموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الاثمان ثم فرض البضائع عليهم بارفع الاثمان على وجه الغصب والاكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك الاثمان على النواحي والتأجيل فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الاسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء الى بيعها بابخس الاثمان وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوقة وأهل الدكاكين في المآكل والفواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الاصناف والطبقات وتتوالى على الساعات وتجحف برؤس الاموال ولا يجدون عنها وليجة الا القعود عن الاسواق لذهاب رؤس الاموال في جبرها بالارباح ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الاسواق ويبطل معاش الرعايا لان عامته من البيع والشراء واذا كانت الاسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان او تفسد لان معظمها من أوسط الدولة وما بعدها انما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤول ذلك الى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به هذا ما كان بامثال هذه الذرائع والاسباب الى أخذ الاموال وأما أخذها مجانا والعدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم واسرارهم واعراضهم فهو يفضي الى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي الى الانتقاض ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء وحظر أكل أموال الناس بالباطل سدا لابواب المفاسد المفضية الى انتقاض العمران بالهرج او بطلان المعاش واعلم ان الداعي لذلك كله انما هو حاجة الدولة والسلطان الى الاكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الاحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة يستحدثون ألقابا ووجوها يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة الى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد الى أن تنمحي دائرتها ويذهب برسمها ويغلبها طالبها والله أعلم

٤٥ *(فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وانه يعظم عند الهرم)*

اعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لانه لا بد لها من العصبية التي بها يتم

أمرها

وقال محمود الوراق سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب * وان عظمت منه على الجرائم فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم (١٧٢) فاما الذي فوقي فاعرف فضله * واتبع فيه الحق والحق لازم واما الذي دوني فان قال صنت عن اجابته نفسي وان لام لائم واما الذي مثلي فان زل أو هفا تفضلت ان الحلم بالفضل حاكم (وقال الاصمعي) سمعت اعرابيا يقول أسرع الناس جوابا من لم يغضب لا توقدن بين جنبيك جمرة الغضب واورد اساءته بالحلم فان شجر النار اذا الحت عليها الرياح تحاكت أغصانها فتشتعل نارا وتحترق من أصولها * وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثلاث من اجتمعن فيه فقد سعد من اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضي لم يدخله رضاه في باطل واذا قدر عف وكف (وسئل جعفر بن محمد) عن حد الحلم فقال وكيف يعرف فضل شئ لم ير كماله في أحد * وقال الاحنف لابنه يا بني ان أردت ان تؤاخي رجلا فاغضبه فان أنصفك والا فاحذره (وكان سلم بن نوفل) سيد بني كنانة فضربه رجل من قومه بسيفه فاخذ فاتي به اليه فقال له ما الذي فعلت اما خشيت انتقامي قال فلم سودناك الا ان تكظم الغيظ وتعفو عن الجاني وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه في النفس والمال فخلى سبيله فقال فيه قائلهم شعرا

تسود أقوام وليسوا بسادة * بل السيد المعروف سلم بن نوفل

وقال رجل من كلاب للحكم بن عوانة انما أنت عبد فقال والله

أمرها ويحصل استيلاؤها والبداوة هي شعار العصبية والدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعز الغلب فقط فالبداوة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضا عن منازع الملك ومذاهبه فاذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزه وصار الى الانفراد بالمجد واحتاج الى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤنه لما يكثر حينئذ من بحاشيته فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الاذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجبا له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوه وصاروا الى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظا على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الاول يفضي اليهم منه خواصهم من الاولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الثاني يفضي الى مجالس الاولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الاول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لايام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جريا على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك الى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار بباب الخلفاء داران للعباسية دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الاولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك ان أهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المستبد ان يحجب عنه بطانة أبيه وخواص أوليائه يوهمه أن في مباشرتهم اياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده ملابسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه الى ان يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في الغالب الا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لان القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه

٤٦ *(فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين)*

اعلم ان أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك ان الملك عندما يستفحل ويبلغ أحوال الترف والنعيم الى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به يأنف حينئذ عن المشاركة ويصير الى قطع أسبابها ما استطاع باهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم ونزعوا الى القاصية اليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الاسلامية العربية حين كان أمرها حريزا مجتمعا ونطاقها ممتدا في الاتساع وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضر فلم ينبض عرق

وقال له اقتص فقال اذا سفهت مثلك فقال خذ من ذلك عوضا من المال قال ما كنت لافعل قال فهبها لله قال هي لله ثم لك فنكس هشام رأسه وقال والله لا أعود لمثلها وقال الشاعر

لن يبلغ المجد أقوام وان شرفوا
حتى يذلوا وان عزوا الاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة
لا صفح ذل ولكن صفح اكرام

وقال آخر

وجهل رددناه بفضل حلومنا
ولو اننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة
وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال هشام لخالد بن صفوان صف لي الاحنف ابن قيس فقال يا أمير المؤمنين ان شئت أخبرتك عنه بثلاث وان شئت باثنتين وان شئت بواحدة فقال اخبرني عنه بثلاث قال كان لا يحرص ولا يجهل ولا يدفع الحق اذا نزل به قال فاخبرني عنه باثنتين قال كان يؤثر الخير ويتوقى الشر قال فاخبرني عنه بواحدة قال كان أعظم الناس سلطانا على نفسه وقال أكثم بن صيفي الغلبة والعز للحلم وقال الاحنف بن قيس وجدت الحلم أنصر لي من الرجال وصدق الاحنف فان من حلم كان الناس أنصاره كما روي ان رجلا أسرف في شتم بعض الادباء وهو

ساكت فمضى له بعض المارين في الطريق وقال له يرحمك الله الا تنتصر لك فقال لا فقال ولم قال لاني وجدت الحلم أنصر لي من الرجال وهل حاميت في الاحلي وقال رجل لعمرو بن العاص والله لا تفرغن لك فقال له الآن وقعت في الشغل وقال عبد

الله بن عمر رضي الله عنه ان رجلا ممن كان قبلكم استضاف قوما فاضافوه ولهم كلبة تنبح فقالت والله لا أنبح ضيف أهلي الليلة فعوى جروها في بطنها فبلغ ذلك نبيا لهم أو قيلا من أقيالهم فقال مثل هذا مثل أمة تكون بعدكم يظهر سفهاؤها على حلمائها وقال الاحنف اياكم ورأي الاوغاد وقالوا وما رأي الاوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عارا وسئل الاحنف عن الحلم فقال هو الذي تصبر عليه ولست بحليم ولكني صبور ويروى ان المهلب نازعه رجل من كبار بني تميم فاربى على المهلب والمهلب ساكت فقيل له في ذلك فقال كنت اذا سبني استحييت من مخافة السباب وغلبة اللئام والسفلة وكان اذا سبني تهلل وجهه وشغفت نفسه بان ظفر بفضل القحة ونبذ المروءة وخلع ربقة الحياء وقلة الاكتراث بسوء الثناء ومر المسيح عليه السلام على قوم من اليهود فقالوا له شرا وقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وانت تقول خيرا فقال كل ينفق

من الخلاف سائر أيامه الا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الامر من بني أمية واستقل بنو العباس بالامر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وآذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل الى الاندلس قاصية دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس الى المغرب وخرج به وقام بامره وأمر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصا فاضطرب الاغالبة في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بامرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على افريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الادارسة وقسموا الدولة دولتين أخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس بمركز العرب وأصلهم ومادتهم الاسلام ودولة بني أمية المجددين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بافريقية ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدولة الى ان كان انقراضها متقاربا أو جميعا وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك الى استيلاء الديلم على العراقين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضا بعد الاستفحال كما هو معروف في اخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وافريقية لما بلغت الى غايتها أيام باديس بن المنصور خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك العرب لنفسه مما بين جبل أوراس الى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري واستحدث ملكا آخر قسيما لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما اليها ولم يزل ذلك الى ان انقرض أمرهما جميعا وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بافريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكا لاعقابهم بنواحيها ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من اعقابهم الامير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي اسحق ابراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا ببجاية وقسنطينة وما اليها أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين اعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهي الانقسام الى أكثر من دولتين وثلاثة وفي غير أعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك صنهاجة بافريقية فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون افريقية ثائر مستقل بامره كما تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من افريقية قبيل هذا العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة لابد وأن تعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فيقتسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الامر ويتعدد فيها الدولة والله وارث الارض ومن عليها

٤٧ *(فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع)*

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحدا بعد واحد وبينا انها تحدث للدولة بالطبع وانها كلها امور طبيعية لها واذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الامراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما انه طبيعي والامور الطبيعية لا تتبدل وقد يتنبه كثير من اهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن انه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه انه لحقها بتقصير من قبله من اهل الدولة وغفلتهم وليس كذلك فانها امور طبيعية للدولة

مما عنده وقال اكثم بن صيفي من حلم ساد ومن تفهم ازداد وكفر النعمة لؤم وصحبة الجاهل شؤم ولقاء الاخوان ... والعوائد غنم والمباشرة يمن ومن الفساد اضاعة الزاد وسب رجل الشعبي بقبائح نسبها اليه فقال الشعبي ان كنت كاذبا فغفر الله لك وان كنت صادقا

والعوائد هي المانعة له من تلافيها والعوائد منزلة طبيعية أخرى فان من ادرك مثلا اباه وأكثر اهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الانبياء في انكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الالهي والنصر السماوي وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا أزيلت تلك الابهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب اوهام الابهة فتتدرع الدولة بتلك الابهة ما أمكنها حتى ينقضي الامر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم ان الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها ايماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم انها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب

٤٨ *(فصل في كيفية طروق الخلل للدولة)*

اعلم ان مبنى الملك على اساسين لا بد منهما فالاول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام اولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال والخلل اذا طرق الدولة طرقها في هذين الاساسين فلنذكر أولا طروق الخلل في الشوكة والعصبية ثم نرجع الى طروقه في المال والجباية واعلم ان تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه انما يكون بالعصبية وانه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فاذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف اهل العصبية كان اول ما يجدع أنوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم ويأخذهم الترف ايضا أكثر من سوادهم لمكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخرا الى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الامر فيقلب غيرته منهم الى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها فتنحل عروتها وتضعف شكيمتها وتستبدل عنها بالبطانة من موالي النعمة وصنائع الاحسان وتتخذ منهم عصبية الا انها ليست مثل تلك الشدة الشكيمة لفقدان الرحم والقرابة منها وقد كنا قدمنا ان شأن العصبية وقوتها انما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والانصار الطبيعية ويحس بذلك اهل العصائب الاخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا طبيعيا فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقلد الآخر من اهل الدولة في ذلك الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية وينسوا بعزتها وشوكتها ويصيروا أوجز على الحماية ويقلون لذلك فتقل الحامية التي تنزل بالاطراف والثغور فيتجاسر الرعايا على بعض الدعوة في الاطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الاعياص وغيرهم الى تلك الاطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة اهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الاماكن

فغفر الله لي وقال رجل لابي بكر الصديق رضي الله عنه لاسبنك سبا يدخل معك في قبرك فقال أبو بكر معك والله يدخل لا معي وقال رجل للاحنف بن قيس ان قلت كلمة لتسمعن عشرا فقال له الاحنف لكنك لو قلت عشرا لم تسمع مني واحدة ويروى ان رجلا سب الاحنف وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال يا هذا ان كان بقي معك شئ فقله ههنا فاني اخاف ان سمعك فتيان الحي ان يؤذوك وسب رجل بعض الحكماء فقال له الحكيم لست أدخل في حرب الغالب فيه شر من المغلوب وقال لقيط ابن زرارة شعرا

فقل لبني سعد فالي ومالكم ترقون مني ما استطعتم واعتق
أغركم اني باحسن شيمة بصير واني بالفواحش أخرق
وانك قد ساببتني فقهرتني هنيئا مريئا انت بالفحش أحذق

وقال رجل لابي ذر رضي الله عنه أنت الذي نفاك معاوية من الشام لو كان فيك خير ما نفاك فقال يا ابن أخي ان ورائي عقبة كؤدا ان نجوت منها لم يضرني ما قلت وان لم أنج منها فانا شر مما قلت وقال لقمان لابنه يا بني ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا أخوك الا عند الحاجة اليه وسب رجل بعض الحكماء فاعرض عنه فقال له اياك اعني فقال الحكيم وعنك أعرض وفي هذا المعنى قيل

قل ما بدا لك من زور ومن كذب * حلمي أصم وأذني غير صماء

وقيل يوما للاحنف ما أحلمك فقال لست بحليم ولكني أتحالم والله اني

الى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين او ثلاثة على قدر قوتها فى الاصل كما قلناه ويقوم بامرها غير أهل عصبيتها لكن اذعانا لاهل عصبيتها ولغلبهم المعهود واعتبر هذا فى دولة العرب فى الاسلام انتهت اولا الى الاندلس والهند والصين وكان أمر بنى أمية نافذا فى جميع العرب بعصبية بنى عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد أمره ثم تلاشت عصبية بنى أمية بما اصابهم من الترف فانقرضوا وجاء بنو العباس فغضوا من اعنة بنى هاشم وقتلوا الطالبيين وشردوهم فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فاستبد عليهم اهل القاصية مثل بنى الاغلب بافريقية واهل الاندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بامرهم اذعانا للعصبية التى لهم وامنا ان تصلهم مقاتلة او حامية للدولة فاذا خرج الدعاة آخرا فيتغلبون على الاطراف والقاصية وتحصل لهم هنالك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصا الى ان ينتهى الى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال امدها بعد ذلك فتستغنى عن العصبية بما حصل لها من الصبغة فى نفوس اهل ايالتها وهى صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التى لا يعقل احد من الاجيال مبدأها ولا اوليتها فلا يعقلون الا التسليم لصاحب الدولة فيستغنى بذلك عن قوة العصائب ويكفى صاحبها بما حصل لها فى تمهيد امرها الاجراء على الحامية من جندى ومرتزق ويعضد ذلك ما وقع فى النفوس عامة من التسليم فلا يكاد أحد ان يتصور عصيانا او خروجا والجمهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدر على التصدى لذلك ولو جهد جهده وربما كانت الدولة فى هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا يختلج فى ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون اسلم من الهرج والانتقاض الذى يحدث من العصائب والعشائر ثم لا يزال امر الدولة كذلك وهى تتلاشى فى ذاتها شأن الحرارة الغريزية فى البدن العادم للغذاء الى ان تنتهى الى وقتها المقدور ولكل اجل كتاب ولكل دولة امد والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار *

وأما الخلل الذى يتطرق من جهة المال فاعلم ان الدولة فى أولها تكون بدوية كما مر فيكون خلق الرفق بالرعايا والقصد فى النفقات والتعفف عن الاموال فتتجافى عن الامعان فى الجباية والتحذلق والكيس فى جمع الاموال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ الى الاسراف فى النفقة فلا تحتاج الدولة الى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو الى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك الى أهل المصر ويدعو ذلك الى الزيادة فى أعطيات الجند وأرزاق اهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الاسراف فى النفقات وينتشر ذلك فى الرعية لان الناس على دين ملوكها وعوائدها ويحتاج السلطان الى ضرب المكوس على أثمان البياعات فى الاسواق لادرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو اليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده ثم تزيد عوائد الترف فلا تفى بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت فى الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا فتمتد أيديهم الى جمع المال من اموال الرعايا من مكس او تجارة او نقد فى بعض الاحوال بشبهة او بغير شبهة ويكون الجند فى ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم فى العصبية فتتوقع ذلك منهم وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الانفاق فيهم ولا تجد عن ذلك وليجة وتكون جباة الاموال فى الدولة قد عظمت ثروتهم فى هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بايديهم وبما اتسع لذلك من

لا اسمع الكلمة فاجم لها ثلاثا ما يمنعنى من جوابها الا الخوف من أن اسمع ما هو شر منها وقال الشاعر
وليس يتم الحلم للمرء راضيا * اذا كان عند السخط لا يتحلم
كما لا يتم الجود للمرء موسرا * اذا كان عند العسر لا يتجشم
وروى ان رجلا سب جعفر بن محمد رضى الله عنه فقال اما ما قلت مما هو فينا فانا نستغفر الله منه وما قلت مما ليس فينا فانا نكلك فيه الى الله تعالى وقال بعض الحكماء احذروا الغضب فرب غضب استحق الغضبان به غضب الله تعالى وقال اكثم بن صيفى لا يكون الرجل حليما حتى يقول السفيه انه لضعيف مستذل ولا يكون مخلصا حتى يقول الاحمق انه لمفسد ومن أشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير
اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى * أصبت حليما او اصابك جاهل
ووصف اعرابى رجلا فقال احلم من فرخ طائر وقال اعرابى ان الغضب عدو العقل ولذلك يحول بين صاحبه وبين العقل والفهم وقال صعصعة بن صوحان الغضب مقدحة العقل فربما أصلد وربما ازند وقال اعرابى اذا جاء الغضب تسلط العطب وكان ابن عوان اذا غضب على أحد من أهله قال سبحان الله بارك الله فيك وقال الاصمعى دفع اردشير الى رجل كان يقوم على رأسه كتابا وقال له اذا رأيتنى اشتد غضبى فادفعه الى فكان فيه اسكن فلست جاههم
بإله انما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا وتصير عن قريب للدود والتراب وهذه السيرة أول من سنها ملك تبع امر أن يكتب

فى كتاب اسكن فلست باله وقال لصاحبه اذا غضبت فاعرضه على فكان اذا غضب عرضه عليه فاذا قرأه سكن غضبه وقال معاوية أفضل ما أعطى الرجل العقل والحلم فاذا ذكر ذكر واذا اعطى شكر واذا ابتلى صبر واذا غضب كظم واذا قدر عفا واذا أساء استعتب واذا وعد انجز وفى الحكمة مكتوب من اطاع الغضب حرم السلامة ومن عصى الحق فى ثمره الذل وقال بعض الحكماء كظم الغيظ حلم والحلم صبر والتشفى ضرب من الجزع وقال آخر اول الغضب جنون وآخره ندم وقال بعض الحكماء اذا غلب على الرجل أربع خصال فقد عطب الرغبة والرهبة والشهوة والغضب (وقيل) لبعض الصالحين ان فلانا يقع فيك فقال لاغيظن من أمره يغفر الله لى وله قيل له ومن امره قال الشيطان وقال رجل لاخيه انى مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكرك باشياء رحمتك منها قال فهل سمعتنى اذكره بشئ قال لا قال اياه فارحم وقال الفضيل ثلاثة لا يلامون على الغضب المريض والصائم والمسافر وقال الاحنف بن قيس لقد تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقرى انى جالس معه فى فناء وهو يحدثنا اذ جاؤا بجماعة يحملون قتيلا ومعهم رجل ماسور فقيل له هذا ابنك قتله أخوك فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ من منطقه ثم أنشد أقول للنفس تأسيا وتعزية * احدى يدى أصابتنى ولم ترد كلاهما خلف من فقد صاحبه * هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى ثم التفت الى بعض ولده فقال قم فاطلق عمك ووار أخاك وسق الى

جاههم فيتوجه اليهم باحتجان الاموال من الجباية وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد فتعمهم النكبات والمصادرات واحدا واحدا الى ان تذهب ثروتهم وتتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الابهة والجمال بهم واذا اصطلمت نعمتهم تجاوزتهم الدولة الى اهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن فى هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر فتنصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ الى مداراة الامور ببذل المال ويراه أرفع من السيف لقلة غنائه فتعظم حاجته الى الاموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند ولا يغنى فيما يريد ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها اهل النواحى والدولة تنحل عراها فى كل طور من هذه الى أن تفضى الى الهلاك وتتعوض من الاستيلاء الكلال فان قصدها طالب انتزعها من أيدى القائمين بها والا بقيت وهى تتلاشى الى ان تضمحل كالذبال فى السراج اذا فنى زيته وطفئ والله مالك الامور ومدبر الاكوان لا اله الا هو

٤٩ *(فصل فى حدوث الدولة وتجددها كيف يقع)*

اعلم ان نشأة الدول وبدايتها اذا أخذت الدولة المستقرة فى الهرم والانتقاص يكون على نوعين اما بأن يستبد ولاة الاعمال فى الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وملك يستقر فى نصابه يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون فى الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه وينتزع ما فى يده كما وقع فى دولة بنى العباس حين أخذت دولتهم فى الهرم وتقلص ظلها عن القاصية واستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكما وقع بالدولة الاموية بالاندلس وافترق ملكها فى الطوائف الذين كانوا ولاتها فى الاعمال وانقسمت دولا وملوكا أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون فى رياساتهم ولا يطمعون فى الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وانما الدولة ادركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثانى بأن يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الامم والقبائل اما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا اليه او يكون صاحب شوكة وعصبية كبيرا فى قومه قد استفحل امره فيسمو بهم الى الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة الى ان يظفروا بها ويزنون (١) أمرها كما يتبين والله سبحانه وتعالى أعلم

٥٠ *(فصل فى أن الدولة المستجدة انما تستولى على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة)*

قد ذكرنا ان الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الاطراف اذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة فى الاكثر كما قدمناه لان قصاراهم القنوع بما فى أيديهم وهو نهاية قوتهم والنوع الثانى نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انما يكون فى نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك وواف به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل الى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم فى الغالب ظفر بالمناجزة والسبب فى ذلك ان الظفر فى الحروب انما يقع كما قدمناه بامور نفسانية وهمية وان كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلا به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما مر ولذلك كان الخداع

(١) قوله ويزنون فى نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء اه

أمه مائة من الابل فانها غريبة ومن أنبل بيت قالته العرب قول بعضهم فصيح بالخير خرس بالخنى * رجح الاحلام ذيال الازر وقال غيره باحلام عادلا يخاف جليسهم * (١٧٨) اذا نطق العوراء عرب لسان اذا احدثوا لم يخش سوء استماعهم * وان حدثوا أدوا بحسن بيان

من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكثر من همم أتباعه وأهل شوكته وان كان الاقربون من بطانته على بصيرة في طاعته وموازرته الا أن الآخرين أكثر وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع الى الصبر والمطاولة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة فيضمحل عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وأيضا فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع من النعيم واللذات واختصوا به دون غيرهم من أموال الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الاسلحة وتعظم فيهم الابهة الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختيارا واضطرارا فيرهبون بذلك كله عدوهم وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق الى قلوبهم أوهام الرعب بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك فيصير أمرهم الى المطاولة حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عباده وأيضا فأهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم ثم هم مفاخرون لهم ومنابذون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليه فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سرا وجهرا ولا يصل الى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة (١) باطنا وظاهرا لانقطاع المداخلة بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم في احجام وينكلون عن المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها ووفور الخلل في جميع جهاتها واتضح لاهل الدولة المستجدة مع الايام ما كان يخفى منهم من هرمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها فتنبعث هممهم يدا واحدة للمناجزة ويذهب ما كان بث في عزائمهم من التوهمات وتنتهي المطاولة الى حدها ويقع الاستيلاء آخرا بالمعاجلة واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الاموية وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما انقضى أمر العلوية وسما الديلم الى ملك فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أصبهان ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي ببني كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد تطاول بني الاغلب بافريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله وسموا الى ملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهزون اليها العساكر والاساطيل في كل وقت ويجيء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام وملكوا الاسكندرية والفيوم والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك الى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بني طغج من أصولها واختط القاهرة فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني سامان وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحوا من ثلاثين سنة يطاولون بني سبكتكين بخراسان

(١) قوله غرة بكسر الغين أي غفلة اهـ

وقال المسيح عليه السلام ما حلم من لم يصبر عند الجهل وما قوة من لم يرد الغضب وما عبادة من لم يتواضع للرب تعالى وقيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينتقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهم فقال هم بعد العقوبة أعذر في ثلبي وتنقيصي (وبروى) ان جرير بن عبد الله بينما هو راكب قد أردف ابنه اذ لقيه رجل فنال منه وجرير ساكت فلما ولى قال له ابنه يا أبت لم سكت عنه قال يا بني أفاوسع جرحي وقال بعض الحكماء متى أشفي غيظي أحين أقدر فيقال لو عفوت أم حين أعجز فيقال لو صبرت وسئل بعض أصحاب الاحنف أكان الاحنف يغضب فقال نعم لو لم يغضب ما بان حلمه كان يغضبه الشيء يبين في وجهه اليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم ومن لم يغضب من الاشياء التي مثلها يغضب فقد فقد من الفضائل الشجاعة والانفة والحمية والدفاع والاخذ بالثار والغيرة لان هذه الخصال نتائج الغضب ومن فقد الغضب فقد فقد سائر الفضائل على ما سنذكر في باب الشجاعة ان شاء الله تعالى وعند فقد الشجاعة تكون المهانة ومن المهانة يكون سفساف الاخلاق ورذالة الطباع فلا يبقى لسائر فضائله موقع وكان يقال من لم يغضب فليس بحليم لان الحليم انما يعرف عند الغضب وقال الشعبي الجاهل خصم والحليم حاكم وقال الشافعي من

بخراسان حتى استولوا على دولته ثم زحفوا الى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة أعوام سبع عشر وستمائة فلم يتم لهم الاستيلاء الا بعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحوا من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسيهم بمراكش حسبما نذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاولة سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الاسلامية وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واعلم ان ذلك انما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبعادا بالايمان وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله خارقا للعادة المقررة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة واذا كان ذلك خارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة الاسلامية والمعجزات لا يقاس عليها الامور العادية ولا يعترض بها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٥١ *(فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات)*

اعلم انه قد تقرر لك فيما سلف ان الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في ايالتها اما من الدين ان كانت الدعوة دينية او من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول واذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران واسبابه فتوفر ويكثر التناسل واذا كان ذلك كله بالتدريج فانما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الاقل وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولن انه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الاجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لان الاجحاف وان حدث حينئذ وقلت الجبايات فانما يظهر اثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدريج في الامور الطبيعية ثم ان المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الاكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة فيقل احتكار الزرع غالبا وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الامطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبته الا ان الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فاذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه اولوا الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع واما كثرة الموتان فلها اسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه او كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة واذا فسد الهواء وهو غذاء لروح الحيواني وملابسه دائما فيسري الفساد الى مزاجه فان كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وامراضها مخصوصة بالرئة وان كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الامزجة وتمرض الابدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في

استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو جبار وقد كان النبي عليه السلام يغضب ولكنه انما كان يغضب لا لنفسه بل عند انتهاك حرمة ربه واعلم ان الله تعالى ما مدح من لا يغضب وانما مدح من كظم الغيظ فقال والكاظمين الغيظ وقد أنشد النابغة الجعدي بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام

ولا خير في حلم اذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم قوله وكان ابن عمر اذا سافر استتبع سفيها ويقول أستدفع به شر السفهاء عني واعلموا ارشدكم الله ان احسن خصال الملوك واجلها قدرا وهي حلية الانبياء ولبسة الاصفياء وجمال السوقة والرؤساء وأعظمها في النفوس موقعا وأعمها على الرعايا نفعا وأخلدها على مر الايام ذكرا وأجملها في المحافل والمحاسن نشرا وهي الفضيلة التي تعم سائر الفضائل وتكمل بها سائر المحاسن الحلم وها أنا أتلو عليك من ذلك ما يقضي فيه العجب (هذه) دولة آل العباس أولهم أبو العباس السفاح والى يومنا هذا لم يكن فيهم أجل من المأمون بلغ من حلمه انه كان يقول لو علم الناس ما لي في لذة العفو ما تقربوا الي الا بالجرائم فاق حلمه سائر خلفاء بني العباس حتى صار يضرب المثل بحلمه وبهذه الخصلة تهيأ ملكه وقهر أخاه الامين (ومنها) دولة بني امية اولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم مروان الجعدي لم يكن فيهم احلم من معاوية ولا جرم دانت له الدنيا وملك بها رقاب العرب والعجم وصار حلمه يضرب به المثل ويقتدي به الخلق ويتخلق به العقلاء حتى حكي عنه انه كان يقول لو كان بيني وبين الناس خيط

أو اثالها من حسن الملكة ورفقها او قلة المغرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة ان تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات و يأتي بالهواء الصحيح ولهذا أيضا فان الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء

٥٢ *(فصل في أن العمران البشري لابد له من سياسة ينتظم بها أمره)*

اعلم انه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه وأنه لابد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالاولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة والثانية انما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وانما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأسا ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها اهل الاجتماع بالمصالح العامة فان هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وانما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم ان السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لان الاحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآفات وأحكام الملك مندرجة فيها * الوجه الثاني ان يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعا وهذه السياسة التي يحمل عليها اهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر الا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية بحسب جهدهم فقوانينها اذا مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أولا ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك واودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب اليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة * ونص الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) اما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه واحفظ رعيتك في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر اليه وموقوف عليه ومسؤل عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فان الله سبحانه قد أحسن اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك امرهم من عباده والزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والامن لسربهم وادخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك

عنكبوت أوشعرة ما انقطعت اذا جذبوا ارسلت واذا ارسلوا جذبت (وهذه) دولة الفرس وكانت اعظم دول الارض وأشدها باسا واكثرها علوما وحكاما لم يكن في اكاسرها احلم (١٨٠) من كسرى انوشروان وصار يضرب بحلمه المثل وتطرز بسيرته الكتب والمصنفات فيروى ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضوان الله عليه لقي كبيرا من كبراء فارس فقال له ما احمد خصال ملوككم فقال السبق لشيرويه واحدهم سيرة انوشروان فقال له علي وما كان اغلب خصاله عليه قال الحلم والاناة قال علي هما توأم ينتجهما علو الهمة وبلغ من حلمه انه كان يضيق صدره بحلمه فقال في خصلتان لولا انهما ظاهرتان عند الرعية لصقت بهما ادرعا الحلم والاناة فأخلق بخصلة تعم منفعتها ويبقى على الدهر جمالها وتخاذ في العلماء والعقلاء والملوك والسوقة بهجتها وحسن مصادرها ومواردها ان يتخذها الملوك شعارا ودثارا وانما قصدت الحكماء من الملوك خاصة فاما من سواهم من الرعية كالاحنف ونظرائه فلا يحصون كثرة

(الباب التاسع والعشرون فيما يسكن الغضب)

فاول ذلك انك اذا نظرت الى تغير اشكالك وتبدل صورتك واحمرار وجهك وانتفاخ اوداجك وذهاب جنانك وسقط كلامك وفحش ما يخرج من فيك لامسكت عن الغضب ولطالما كنت تستحي ان تتكلم بين يدي ولا الجلساء باليسير الجائز فعمدت تهذر بالكثير الفاحش ولو ان من غضب استذكر اذا صحا وسكن غربه انقلاب صورته وتغير وجهه

ولا يشغلك عنه شاغل وانه رأس أمرك وملاك شأنك واول مايوفقك الله عليه وليكن أول ماتلزم به نفسك وتنسب اليه فعالك المواظبة على مافرض الله عزوجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عزوجل فيها ورتل فى قراءتك وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها فانها كما قال الله عزوجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم أتبع ذلك بالاخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عزوجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله عزوجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ماجاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عزوجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أوكرهت لقريب من الناس اولبعيد وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عزوجل والعاملين به فان أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الى الله عزوجل فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ومع توفيق الله عزوجل يزداد المرء معرفة واجلالا له ودركا للدرجات العلى فى المعاد مع مافى ظهوره للناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانسة بك والثقة بعدلك وعليك بالاقتصاد فى الامور كلها فليس شئ أبين نفعا ولا أخص أمنا ولا أجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا فى دنياك كلها ولا تقصر فى طلب الآخرة والأجر والاعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعى له اذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته وموافقة أولياء الله فى دار كرامته اما تعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح امورك بافضل منه فأته واهتد به تتم امورك وتزد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عزوجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه فى الامور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فان ايقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم آثم اثم فاجعل من شأنك حسن الظن باصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ولا تتخذن عدو الله الشيطان فى أمرك معمدا فانه انما يكتفى بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ماينقص لذاذة عيشك واعلم انك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس الى محبتك والاستقامة فى الامور كلها ولا يمنعك حسن الظن باصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لامور الاولياء وحياطة الرعية والنظر فى حوائجهم وحمل مؤناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحيى للسنة واخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤل عما صنع ومجزى بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فان الله عزوجل جعل الدنيا حرزا وعزا ورفع من اتبعه وعززه واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الاهدى واقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر عقوبة اهل العقوبة فان فى تفريطك فى ذلك مايفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروأتك واذا عاهدت عهدا فأوف به واذا وعدت الخير فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن عيب كل ذى عيب من

واضطراب شفتيه وارتعاد أطرافه وسقط كلامه وخفوى خطابه والتفاف لسانه وخفة عقله وطيشه ووثوبه من مجلسه كانه نمر وسرعة التفاته يمينا وشمالا كانه قرد وعدم فهمه لما يسمع وقلة التفاته الى من يعظه وينصحه كانه أحمق ومن شؤم الغضب وعظيم بليته انه قد يقتل النفوس ويسلب الروح وكان سبب موت مروان بن عبد الملك انه وقع بينه وبين أخيه سليمان كلام فعجل عليه سليمان فقال يا من يلحق امه ففتح فاه ليجيبه واذا بجنبه عمر بن عبد العزيز فامسك على فيه ورد كلمته وقال يا ابن عبد الملك أخوك وأمامك وله السن عليك فقال يا أبا حفص قتلتنى قال وما صنعت بك قال رددت فى جوفى أحر من الجمر ومال لجنبه فمات ولعمرى انه يزيد على الحمق (ومنها) أن ينتقل من الحالة التى كان عليها الى غيرها كانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا كان جالسا فليقم وبهذا المذهب كان يأخذ المأمون نفسه (ويروى) شكى الى النبى صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع فى القبور واعتبر بالنشور (وكان) بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقى بين يديه مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه (وكان) عكرمة يقول فى قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت يعنى اذا غضبت فانه اذا ذكر الله خاف منه فيزول غضبه (وفى) التوراة يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ولا أمحقك فيمن أمحق (ومنها) أن يذكر نفرة القلوب عنه وسقوط منزلته عند أبناء جنسه ووصفهم له بالجهل وطيشه ونحفه فيكون ذلك سببا لزوال غيظه (ومنها) أن يتذكر انعطاف

القلوب عليه وانطلاق الالسنة بالثناء عليه وميل النفوس اليه وان الحلم عز وفوز وان السفه ذل وشين (روى) أبو سعيد الخدري ان
النبي صلى الله عليه وسلم قال ما ازداد رجل (١٨٢) بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله (وقال) بعض الحكماء من تذكر قدرة الله لم يستعمل
قدرته في ظلم عباده
(وكتب) بعض ملوك
الفرس كتابا ودفعه الى
وزيره وقال له اذا غضبت
فناولنيه وفيه مكتوب
مالك وللغضب انما أنت
بشر ارحم من في الارض
يرحمك من في السماء
(وكان) معاوية كثيرا ما
ينشد

انا اذا مالت دواعي الهوى
وانصت السامع للقائل
واعتلج الناس بألبابهم
نقضي بحكم عادل فاصل
نخاف أن تسفه احلامنا
فنخمل الدهر مع الخامل

(وقال) بعض الحكماء
اياك وعزة الغضب فانها
تفضي الى ذلة العذر وقال
الشاعر

واذا ما اعترتك في الغضب العز
زة فاذكر تذلل الاعتذار

وقال غيره

زررنا على غير الفواحش قمصنا
ولم نستجز الا الذي هو أجوز

(وقال) عبد الله بن مسلم
ابن محارب لهرون الرشيد
يا امير المؤمنين اسألك
بالذي أنت بين يديه أذل
مني بين يديك وبالذي
هو أقدر على عقابك منك
على عقابي لما عفوت عني
فعفا عنه لما ذكره قدرة الله عليه (وقال) رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الاشعث
ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله تعالى ما يحب من العفو (وقال) المأمون لعمه ابراهيم بن المهدي وكان مع أخيه عليه الى

رعيتك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض أهل النميمة فان أول فساد أمورك في عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجراءة على الكذب لان الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها الا ان النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر واحبب أهل الصلاح والصدق وأعن الاشراف بالحق واعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رأيك واظهر براءتك من ذلك لرعيتك وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك الى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار واياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله واياك ان تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء فان ذلك سريع الى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل وأخلص لله وحده النية فيه واليقين واعلم ان الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء وان تجد تغير النعمة وحلول النقمة الى احد أسرع منه الى جهلة النعمة من اصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة اذا كفروا نعم الله واحسانه واستطالوا بما اعطاهم الله عز وجل من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لامورهم والحفظ لدمائهم والاغاثة لملهوفهم واعلم ان الاموال اذا كنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو واذا كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الاذية عنهم نمت وزكت وصلحت به العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال في عمارة الاسلام واهله ووفر منه على أولياء امير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية اموال رعيتك وخراجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك اساس لطاعتك وطب نفسا بكل ما ازدت واجهد نفسك فيما احدثت لك في هذا الباب وليعظم حقك فيه وانما يبقى من المال ما انفق في سبيل الله وفي سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم واثبهم عليه واياك ان تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب فان الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا واحسانا فان الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين ولا تحقرن ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تداهنن عدوا ولا تصدقن نماما ولا تأمنن عدوا ولا توالين فاسقا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن مرائيا ولا تحقرن انسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن وعدا ولا تذهبن فخرا ولا تظهرن غضبا ولا تباين رجاء ولا تمشين مرحا ولا تزكين سفيها ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع للنمام عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه او محاباة ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا واكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن اهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة ولا تدخلن في مشورتك اهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهما اكثر من نفعهم وليس شئ اسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح واعلم انك اذا كنت حريصا كنت كثير الاخذ قليل العطية واذا كنت كذلك لم يستقم امرك الا قليلا فان رعيتك انما تعتقد على محبتك بالكف عن اموالهم وترك الجور عليهم ووال من صفا لك من اوليائك بالاتصال اليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح واعلم انه اول ما عصى به الانسان ربه وان العاصي بمنزلة الخزي وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح

شاورت فى أمرك فاشاروا على بقتلك الان وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال يا أمير المؤمنين ان المشير اشار بما جرت به العادة فى السياسة الا أنك أبيت أن تطلب النصر الا من حيث عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وأنشأ يقول

البر بى منك وطا العذر عندك لى
فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى
مقام شاهد عدل غير متهم

(وقال) بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم (ومنها) ان يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذلة الانتقام وشروع القصاص فى بدنه بين يدى من لا يرحمه فان ذلك مما يرده من الغضب

(الباب الثلاثون فى الجود والسخاء وهذه الخصلة الجليل قدرها العظيم موقعها الشريف موردها ومصدرها)

وهى احدى قواعد المملكة وأساسها وتاجها وجمالها تعنو لها الوجوه وتذل لها الرقاب وتخضع لها الجبابرة ويسترق بها الاحرار ويستمال بها الاعداء ويستكثر بها الاولياء ويحسن بها الثناء ويملك بها القرباء والبعداء ويسود بها فى غير عشائرهم الغرباء (وهذه) الخصلة بالعزائم الواجبات أشبه منها بالجمال والمتممات وكم قد رأينا من كافر ترك دينه والتزم دين الاسلام ابتغاء عرض قليل من الدنيا يناله وكم قد سمعنا من مسلم ارتد فى أرض الشرك افتتانا بيسير من عرض الدنيا واخلاق بخصلة يترك لها الانسان دينه الذى يبذل دونه نفسه ان تكون جليلة القدر عظيمة

شح نفسه فأولئك هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم فى بيتك حظا ونصيبا وأيقن ان الجود أفضل اعمال العباد فاعده لنفسك خلقا وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتبهم وأدر عليهم ارزاقهم ووسع عليهم فى معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك امرهم وتزيد قلوبهم فى طاعتك وامرك خلوصا وانشراحا وحسب ذى السلطان من السعادة ان يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه احد البابين باستشعار فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا واعلم ان القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شئ من الامور لانه ميزان الله الذى يعدل عليه احوال الناس فى الارض وباقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح احوال الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجرى السنن والشرائع فى مجاريها واشتد فى امر الله عز وجل وتورع عن النطف وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك واسدد فى منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ فى الحجة ولا يأخذك فى احد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن الى سفك الدماء فان الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولاهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا فوزعه بين اصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن شيأ منه عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لاحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف امرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على امر الحق فان ذلك اجمع لالفتهم والزم لرضاء العامة واعلم انك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وانما سمى اهل عملك رعيتك لانك راعيهم وقيمهم تأخذ منهم ما اعطوك من عفوهم ونفذه فى قوام امرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت واسند اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة فى عملك واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلادك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك وكثر خراجك وتوفرت اموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيأ تحمد عاقبة أمرك ان شاء الله تعالى واجعل فى كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معاينا لاموره كلها واذا اردت ان تأمرهم بامر فانظر فى عواقب ما اردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه والا فتوقف عنه وراجع اهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل فى امره وقد أتاه على ما يهوى فاغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم فى كل ما اردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة واكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره واكثر مباشرته

الخطر وأحوج خلق الله اليها أفقرهم الى عطف القلوب عليه وصرف الوجوه اليه وهم الملوك والولاة (واعلموا) يامعشر من وسع الله عليه دنياه وأسبغ عليه آلاءه ونعماءه انه ليس في الجنة لا وحسبك بكلمة لا تدخل الجنة سعة وطاوضعة وانما أسست الجنة على

بنفسك فان لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي اخرت واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا اخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه واذا امضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت امر سلطانك وانظر احرار الناس وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على امرك فاستخلصهم واحسن اليهم وتعاهد اهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم واصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم منافرا وافرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه اخفى مسئلة ووكل بامثاله اهل الصلاح في رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم لتنظر فيما يصلح الله به امرهم وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وارامالهم واجعل لهم ارزاقا من بيت المال اقتداء بامير المؤمنين اعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة واجر للاعماء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لاكثره في الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم وقواما يرفقون بهم واطباء يعالجون اسقامهم واسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك الى سرف في بيت المال واعلم ان الناس اذا اعطوا حقوقهم وفضل اماناتهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لامور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به مؤنة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن اموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقبل ما يقربه الى الله تعالى ويلتمس به رحمته واكثر الاذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك واظهر لهم بشرك ولن لهم في المسئلة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من اهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والامم البائدة ثم اعتصم في احوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وباقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من الاموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا واكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن واقامتها وايثار مكارم الاخلاق ومعاليها وليكن اكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك في ستر واعلامك بما فيه من النقص فان أولئك انصح اوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم فامضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى المسئلة عنه والتثبت ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من احد الا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين ولا تضعن من المعروف الا على ذلك وتفهم كتابي اليك وامعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فان الله عز وجل مع الصلاح واهله وليكن اعظم سيرتك وافضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضا ولدينه نظاما ولاهله عزا وتمكينا وللملة والذمة عدلا وصلاحا وأنا اسأل الله عز وجل ان يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام * وحدث الاخباريون ان هذا الكتاب لما ظهر وشاع امره أعجب به الناس واتصل بالمأمون فلما قرئ عليه قال ما ابقى ابو الطيب يعني طاهرا شيئا من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة

ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين (وهذه) الخصلة أعني الكرم والجود والسخاء والايثار بمعنى واحد يوصف الباري تعالى بالجود ولا يوصف بالسخاء كما يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل لعدم التوقيف (وحقيقة) الجود هي ان لا يصعب عليه البذل ويقال السخاء هو الرتبة الاولى ثم الجود ثم الايثار فمن أعطى البعض وامسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضر فهو صاحب ايثار (قال) ذو النون بداية السخاء ان تسخو نفسك بما في يديك ونهايته أن تسخو نفسك بما في ايدي الناس وان لا تبالي من كل الدنيا (وتذاكر) قوم من الزهاد عند رابعة العدوية فجعلوا يذمون الدنيا ويكثرون من ذلك فقالت رابعة من أحب شيأ أكثر من ذكره وأصل السخاء هو السماحة وان يؤتي ما يؤتيه من طيبة نفس (وقد يكون) المعطي بخيلا اذا صعب عليه البذل والممسك سخيا اذا كان لا يستصعب العطاء وان منع ولهذا قال علماؤنا ان الله تعالى لم يزل جوادا وان لم يقع منه عطاء في الازل لان العطاء فعل والفعل في الازل مستحيل (وقالت) الحكماء أيها الجامع لا تخدعن فالمأكول للبدن

والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه واوصى به ثم أمر المأمون فكتب به الى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به و يعملوا بما فيه هذا احسن ما وقفت عليه في هذه السياسة والله اعلم

٥٣ *(فصل في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه و كشف الغطاء عن ذلك)*

(اعلم) ان المشهور بين الكافة من اهل الاسلام على ممر الاعصار أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين و يظهر العدل و يتبعه المسلمون و يستولي على الممالك الاسلامية و يسمى بالمهدي و يكون خروج الدجال وما بعده من اشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره وان عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال او ينزل معه فيساعده على قتله و يأتم بالمهدي في صلاته و يحتجون في الباب باحاديث خرجها الائمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الاخبار وللمتصوفة المتأخرين في امر هذا الفاطمي طريقة أخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم * ونحن الآن نذكر هنا الاحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في انكارهم من المستند ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة و رأيهم ليتبين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة من الائمة خرجوا احاديث المهدي منهم الترمذي وابو داود والبزار وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي واسندوها الى جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وابي هريرة وانس وابي سعيد الخدري وام حبيبة وام سلمة وثوبان وقرة بن اياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحرث بن جزء باسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره الا ان المعروف عند اهل الحديث ان الجرح مقدم على التعديل فاذا وجدنا طعنا في بعض رجال الاسانيد بغفلة او بسوء حفظ او ضعف او سوء رأي تطرق ذلك الى صحة الحديث وأوهن منها ولا تقولن مثل ذلك ربما يتطرق الى رجال الصحيحين فان الاجماع قد اتصل في الامة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما وفي الاجماع اعظم حماية واحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك فقد نجد مجالا للكلام في اسانيدها بما نقل عن ائمة الحديث في ذلك * ولقد توغل ابو بكر بن ابي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للاحاديث الواردة في المهدي فقال ومن اغربها اسنادا ما ذكره ابو بكر الاسكاف في فوائد الاخبار مسندا الى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب وحسبك هذا غلوا والله أعلم بصحة طريقه الى مالك بن أنس على ان أبا بكر الاسكاف عندهم متهم وضاع * واما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما الى ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة الى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني او من اهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم ابي هذا لفظ ابي داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة ان ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطئ اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتى يلي رجل من اهل بيتي وكلاهما حديث حسن صحيح ورواه ايضا من طريق موقوفا على ابي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من ائمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما اصلته من الاحتجاج باخبار عاصم اذ هو امام من ائمة المسلمين انتهى الا ان عاصما قال فيه احمد بن حنبل كان رجلا

بعثك بالحق ما عندنا الا الماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما عند رسول الله ما يطعمك الليلة ثم قال من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله فقال رجل من الانصار أنا يا رسول الله فحمله الى منزله وقال لاهله هذا ضيف النبي صلى الله عليه وسلم فاكرميه ولا تدخري عنه شيأ فقالت ما عندنا الا قوت الصبية فقال قومي فعلليهم عن قوتهم حتى يناموا ثم أسرجي وابرزي فاذا أخذ الضيف يأكل قومي كأنك تصلحين السراج فاطفئيه وتعالي نمضغ ألسنتنا لضيف النبي صلى الله عليه وسلم ففعلت وجعلا يمضغان ألسنتهما والضيف يظن أنهما يأكلان وباتا طاويين فلما أصبحوا ونظر النبي صلى الله عليه وسلم اليهما تبسم ثم قال لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة ونزلت و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة الآية (وقال) أنس اهدى لبعض الصحابة رأس شاة مشوية وكان مجهودا فوجهه الى جار له فوجهه به الجار الى أهل بيت آخر فتداولته سبعة

 أبيات حتى عاد الى الاول فنزلت و يؤثرون على أنفسهم (وقال) حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به بين القتلى فقلت أسقيك فاذا رجل يقول آه فاشار

صالحا قارئا للقرآن خيرا ثقة والاعمش احفظ منه وكان شعبة يختار الاعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف عليه في زر وابي وائل يشير بذلك الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان ثقة الا انه كثير الخطا في حديثه وقال يعقوب بن سفيان في حديثه اضطراب وقال عبد الرحمن بن ابي حاتم قلت لابي ان ابا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن علية فقال كل من اسمه عاصم سيئ الحفظ وقال ابو حاتم محله عندي محل الصدق صالح الحديث ولم يكن بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائي وقال ابن خراش في حديثه نكرة وقال ابو جعفر العقيلي لم يكن فيه الا سوء الحفظ وقال الدارقطني في حفظه شئ وقال يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم الا وجدته رديء الحفظ وقال ايضا سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم بن ابي النجود وفي الناس ما فيها وقال الذهبي ثبت في القراءة وهو في الحديث دون الثبت صدوق فهم وهو حسن الحديث وان احتج احد بان الشيخين أخرجا له فنقول أخرجا له مقرونا بغيره لا اصلا والله اعلم وخرج ابو داود في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية قطن بن خليفة عن القاسم بن أبي مرة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لو لم يبق من الدهر الا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا كما ملئت جورا وقطن بن خليفة وان وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم الا ان العجلي قال حسن الحديث وفيه تشيع قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال أحمد بن عبد الله بن يونس كنا نمر على قطن وهو مطروح لا نكتب عنه وقال مرة كنت أمر به وأدعه مثل الكلب وقال الدارقطني لا يحتج به وقال أبو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه الا لسوء مذهبه وقال الجرجاني زائغ غير ثقة انتهى وخرج أبو داود أيضا بسنده الى علي رضي الله عنه عن مروان بن المغيرة عن عمر بن ابي قيس عن شعيب بن أبي خالد عن ابي اسحق النسفي قال قال علي ونظر الى ابنه الحسن ان ابني هذا سيد كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق يملأ الارض عدلا وقال هرون حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف عن ابي الحسن عن هلال بن عمر سمعت عليا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحرث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطئ او يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على كل مؤمن نصره أو قال اجابته سكت أبو داود عليه وقال في موضع آخر في هرون هو من ولد الشيعة وقال السليماني فيه نظر وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس لا بأس به في حديثه خطأ وقال الذهبي صدوق له أوهام وأما أبو اسحق السبيعي وان خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره وروايته عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة * وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن الا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة وكذا ابن ماجه والحاكم في المستدرك من طريق علي بن نفيل عن سعيد بن المسيب عن ام سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من ولد فاطمة ولفظ الحاكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نعم هو حق وهو من بني فاطمة ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال لا يتابع على ابن نفيل عليه ولا يعرف الا به وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة من رواية صالح بن الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا الى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام فيبعث اليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فاذا رأى الناس ذلك اتاه ابدال اهل الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه

ابن عمي ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع آخر يقول آه فاشار هشام ان انطلق اليه فجئته فاذا هو قد مات ثم رجعت الى هشام فوجدته قد مات ثم رجعت الى ابن عمي فاذا هو قد مات (وروت) عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة والجاهل السخي أحب الى الله من العابد البخيل (وروى) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن آدم انما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت او اعطيت فامضيت (واعلم) ان السخاء على وجوه سخاء في الدين وسخاء في الدنيا فالسخاء في الدنيا البذل والعطاء والايثار وسماحة النفس قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وعلامته ترك الادخار وبغض جمع المال وتعاهد الاخوان مسرورا قلبه بذلك والسخاء في الدين ان تسخو نفسك ان تتلفها لله تعالى وتريق دمك في الله سماحة من غير كراهة لا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا وان كنت غير مستغن عن الثواب لان الغالب على قلبك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله تعالى حتى يفعل الله بك ما لا تحسن ان تختاره لنفسك (وقيل) لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من السيد قال الجواد اذا سئل الحليم اذا استجهل الكريم ثم المجالسة لمن جالسه الحسن الخلق لمن جاوره (وقال) النعمان بن المنذر يوما لجلسائه من أفضل الناس عيشا وانعمهم بالا واكرمهم

طاعوا احلامهم فى النفوس قدرا فسكت القوم فقال فتى ابيت اللعن افضل الناس من عاش الناس فى فضله قال صدقت (وقال) الحسن
باع طلحة بن عثمان ارضا بسبعمائة الف درهم فلما جاءه المال قال ان رجلا يبيت هذا عنده لا يدرى ما يطرقه لغرير بالله

ثم ينشأ رجل من قريش اخواله كلب فيبعث اليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل فى الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ويلقى الاسلام بجرانه على الارض فيلبث سبع سنين وقال بعضهم تسع سنين ثم رواه ابو داود من رواية ابن الخليل عن عبد الله بن الحرث عن أم سلمة فتبين بذلك المبهم فى الاسناد الاول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال انه من رواية قتادة عن أبى الخليل وقتادة مدلس وقد عنعنه والمدلس لا يقبل من حديثه الا ما صرح فيه بالسماع مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدى نعم ذكره أبو داود فى أبوابه وخرج ابو داود ايضا وتابعه الحاكم عن ابى سعيد الخدرى من طريق عمران القطان عن قتادة عن ابى نضرة عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدى منى اجلى الجبهة اقنى الانف يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا يملك سبع سنين هذا لفظ ابى داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدى منا اهل البيت اشم الانف اقنى اجلى يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش هكذا وبسط يساره واصبعين من يمينه السبابة والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه اه وعمران القطان مختلف فى الاحتجاج به انما اخرج له البخارى استشهادا لا اصلا وكان يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوى وقال مرة ليس بشئ وقال احمد بن حنبل ارجو ان يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريا وكان يرى السيف على اهل القبلة وقال النسائى ضعيف وقال ابو عبيد الآجرى سألت ابا داود عنه فقال من اصحاب الحسن وما سمعت الا خيرا وسمعته مرة اخرى ذكره فقال ضعيف افتى فى ايام ابراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء وخرج الترمذى وابن ماجه والحاكم عن ابى سعيد الخدرى من طريق زيد العمى عن ابى صديق الناجى عن ابى سعيد الخدرى قال خشينا أن يكون بعض شئ حدث فسألنا نبى الله صلى الله عليه وسلم فقال ان فى امتى المهدى يخرج يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا زيد الشاك قال قلنا وما ذاك قال سنين قال فيجئ اليه الرجل فيقول يا مهدى اعطنى قال فيحثى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمله لفظ الترمذى وقال هذا حديث حسن وقد روى من غير وجه عن ابى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجه والحاكم يكون فى أمتى المهدى ان قصر فسبع والا فتسع فتنعم امتى فيه نعمة لم يسمعوا بمثلها قط تؤتى الارض أكلها ولا يدخر منه شئ والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدى اعطنى فيقول خذ انتهى وزيد العمى وان قال فيه الدارقطنى وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين انه صالح وزاد أحمد أنه فوق يزيد الرقاشى وفضل بن عيسى الا أنه قال فيه ابو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به وقال يحيى بن معين فى رواية اخرى لا شئ وقال مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجرجانى متماسك وقال أبو زرعة ليس بقوى واهى الحديث ضعيف وقال أبو حاتم ليس بذاك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائى ضعيف وقال ابن عدى عامة ما يرويه ومن يروى عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل شعبة لم يرو عن اضعف منه وقد يقال ان حديث الترمذى وقع تفسيرا لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون فى آخر امتى خليفة يحثى المال حثيا لا يعده عدا ومن حديث ابى سعيد قال من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا ومن طريق اخرى عنهما قال يكون فى آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده انتهى واحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدى ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم ايضا من طريق عوف الاعرابى عن ابى الصديق الناجى عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تملأ الارض جورا

ثم جعل رسوله يختلف حتى قسمها وما أصبح عنده منها درهم (وكان) اسماء بن خارجة يقول ما أحب ان أرد أحدا عن حاجة لانه ان كان كريما أصون عرضه وان كان لئيما أصون عنه عرضى (وكان) مروان العجلى يتلطف فى ادخال الرفق على اخوانه فيضع عند أحدهم ألف درهم ويقول امسكوها حتى أعود اليكم ثم يرسل اليهم أنتم منها فى حل (وقال العتبى) أعطى الحكم بن عبد المطلب جميع ما يملكه فلما نفذ ما عنده ركب فرسه وأخذ رمحه يريد الغزو ومات بمنبج فاخبرنى رجل من أهل منبج قال قدم علينا الحكم وهو مملق لا شئ معه فاغنانا قيل كيف أغناكم وهو مملق فقال ما اغنانا بمال ولكنه علمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض فاستغنينا (قيل) وا كرم العرب فى الاسلام طلحة بن عبيد الله جاءه رجل فسأله برحم بينه و بينه فقال هذا حائطى بمكان كذا وكذا وقد أعطيت به ستمائة الف درهم يراح بالمال الى العشية فان شئت فالمال وان شئت فالحائط

(ويروى) أن رجلا بعث الى حنظلة بجارية فوافته بين أصحابه فقال قبيح ان آخذها لنفسى وأنتم حضور وأكره ان أخص بها واحدا منكم وكلكم له حق وحرمة وهذه لا تحتمل القسمة وكانوا ثمانين رجلا فأمر لكل واحد منهم بجارية أو وصيف (وقيل) لقيس بن سعد

وظلما وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال فيه الحاكم هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم ايضا من طريق سليمان بن عبيد عن ابي الصديق الناجي عن ابي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج في آخر امتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الارض نباتها ويعطى المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الامة يعيش سبعا وثمانيا يعني حججا وقال فيه حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع ان سليمان بن عبيد لم يخرج له احد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم ير دان احدا تكلم فيه ثم رواه الحاكم ايضا من طريق اسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وابي هرون العبدي عن ابي الصديق الناجي عن ابي سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الارض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعا او تسعا فيملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال الحاكم فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم وانما جعله على شرط مسلم لانه اخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق واما شيخه الآخر وهو ابو هرون العبدي فلم يخرج له وهو ضعيف جدا متهم بالكذب ولا حاجة الى بسط اقوال الائمة في تضعيفه * واما الراوي له عن حماد بن سلمة وهو اسد بن موسى ويلقب اسد السنة وان قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به ابو داود والنسائي الا انه قال مرة اخرى ثقة لو لم يصنف كان خيرا له وقال فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبراني في معجمه الاوسط من رواية ابي الواصل عبد الحميد بن واصل عن ابي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي احد بني بهدلة عن ابي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من امتي يقول بسنتي ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج الارض بركتها وتملأ الارض منه قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعمل على هذه الامة سبع سنين وينزل بيت المقدس وقال الطبراني فيه ورواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحدا الا أبا الواصل فانه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن ابي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الاسناد من روايته عن أبي سعيد ورواية ابي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان انه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما أبو الواصل الذي رواه عن ابي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروي عن انس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر وخرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن ابي زياد عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ اقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقلت ما نزال نرى في وجهك شيأ نكرهه فقال انا اهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وان اهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من اهل بيتي فيملؤها قسطا كما ملؤها جورا فمن ادرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج انتهى * وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات ويزيد بن ابي زياد راويه قال فيه شعبة كان رفاعا يعني يرفع الاحاديث التي لا تعرف مرفوعة وقال محمد بن الفضيل كان من كبار ائمة الشيعة وقال احمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حديثه ليس بذلك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال العجلي جائز الحديث وكان بآخره يلقن وقال ابو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابو حاتم ليس بالقوي وقال الجرجاني سمعتهم يضعفون

هل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها فقالت له انه نزل بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان الغد جاء باخرى ونحرها وقال شأنكم فقلنا ما أكلنا من التي نحرت البارحة الا اليسير فقال اني لا أطعم اضيافي الغاث فاقمنا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة اعتذري لنا منه ومضينا فلما متع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتموني ثمن القرى ثم انه لحقنا وقال لتأخذنها والا طعنتكم برمحي فاخذناها وانصرف (وقال) ميمون بن مهران من طلب مرضاة الاخوان بلا شئ فليصحب أهل القبور (وقال) ابن عباس لا يتم المعروف الا بثلاثة تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجله فقد هناه واذا اصغره فقد عظمه واذا ستره فقد تممه (وقال) الحسن كان أحدهم يشق ازاره لاخيه بنصفين (وقال) المعيرة في كل شئ سرف الا في المعروف (وقيل) للحسن ابن سهل لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير فقلب اللفظ واستوفى المعنى ونظمه محمد بن حازم فقال

لا الفقر عار ولا الغنى شرف ولا سخاء في طاعة سرف
مالك الا شئ تقدمه وكل شئ أخرته تلف

واما طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطلحات وانما سمي بهذا الاسم لانه كان عظيم البذل في كل وجه وكان يبتاع الرقاب فيعتقها وكان كل معتق يولد له ولد ذكر سماه طلحة فبلغ عددهم ألف رجل كل يسمى طلحة فسمي طلحة الطلحات ثم ولي سجستان وفيه يقول الشاعر

نقمر الله أعظما دفنوها * بسجستان طلحة الطلحات فقد بلغه ان معلمه كان فى الكتاب بالحجاز قد قعد به الدهر فارسل اليه مع غلامه
مائة الف فقال سلمها اليه فان يكن مات وله ولد فادفعها الى ولده وان لم يكن له ولد ففرقها (١٨٩) على قومه فوافقه الرسول قد مات
ولم يعقب ففرقها فى قومه (وقال) زيد بن أسلم وكان من الخاشعين يا ابن آدم أمرك الله ان تكون كريما وتدخل الجنة ونهاك ان تكون لئيما وتدخل النار (وقال) حكيم بن حزام ما أصبحت قط صباحا لم أر ببابى طالب حاجة الا عددتها مصيبة ارجو ثوابها (ولما) مات وجد عليه مائتا ألف دينار ووجد مكتوبا على حجر انتهز الفرص عند امكانها ولا تحمل على نفسك هم مالم يأتك * واعلم ان تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك فكم من جامع لبعل حليلته (وقال) على بن أبى طالب رضى الله عنه ما جمعت من المال فوق قوتك فانما أنت خازن لغيرك (وروى) مالك فى الموطا ان مسكينا سأل عائشة وهى صائمة وليس فى بيتها الا رغيف فقالت لمولاة لها أعطيه اياه فقالت ليس لك ما تفطرين عليه فقالت أعطيه اياه ففعلت فلما أمست أهدى لها أهل بيت شاة وكفنها يعنى ملفوفة بالزعفران فقالت لى عائشة كلى هذا خير من قرصك (وقال) عبد
الله بن عمر ما كان أحدنا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يحسب ان له فى الفضل شيأ (وقال) الحسن كنا نعد البخيل من يقرض أخاه
الدرهم (ومن عجائب) ماروى فى الايثار ماذكره أبو محمد الازدى قال لما احترق المسجد بمصر وظن المسلمون ان النصارى أحرقوه فاحرقوا

يضعفون حديثه وقال ابو داود لا اعلم احدا ترك حديثه وغيره احب الى منه وقال ابن عدى هو من شيعة اهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره وبالجملة فالاكثرون على ضعفه وقد صرح الائمة بتضعيف هذا الحديث الذى رواه عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات وقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشئ وكذلك قال احمد بن حنبل وقال ابو قدامة سمعت ابا اسامة يقول فى حديث يزيد عن ابراهيم فى الرايات لو حلف عندى خمسين يمينا قسامة ماصدقته اهذا مذهب ابراهيم اهذا مذهب علقمة أهذا مذهب عبد الله واورد العقيلى هذا الحديث فى الضعفاء وقال الذهبى ليس بصحيح وخرج ابن ماجه عن على رضى الله عنه من رواية ياسين العجلى عن ابراهيم بن محمد ابن الحنفية عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدى منا اهل البيت يصلح الله به فى ليلة وياسين العجلى وان قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخارى فيه نظر وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية فى التضعيف جدا واورد له ابن عدى فى الكامل والذهبى فى الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به وخرج الطبرانى فى معجمه الاوسط عن على رضى الله عنه انه قال للنبى صلى الله عليه وسلم امنا المهدى ام من غيرنا يا رسول الله فقال بل منا بنا يختم الله كما بنا فتح وبنا يستنقذون من الشرك وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة لما بنا الف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك قال على أمؤمنون ام كافرون قال مفتون وكافر انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال وفيه عمر بن جابر الحضرمى وهو أضعف منه قال احمد بن حنبل روى عن جابر مناكير وبلغنى انه كان يكذب وقال النسائى ليس بثقة وقال كان ابن لهيعة شيخا احمق ضعيف العقل وكان يقول على فى السحاب وكان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول هذا على قد مر فى السحاب وخرج الطبرانى عن على رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون فى آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب فى المعدن فلا تسبوا اهل الشأم ولكن سبوا أشرارهم فان فيهم الابدال يوشك ان يرسل على اهل الشأم صيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتى فى ثلاث رايات المكثر يقول بهم خمسة عشر الفا والمقلل يقول بهم اثنا عشر الفا وامارتهم امت امت يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعا ويرد الله الى المسلمين الفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ورأيهم اه وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه فى روايته ثم يظهر الهاشمى فيرد الله الناس الى الفتهم الخ وليس فى طريقه ابن لهيعة وهو اسناد صحيح كما ذكر وخرج الحاكم فى المستدرك عن على رضى الله عنه من رواية ابى الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كنا عند على رضى الله عنه فسأله رجل عن المهدى فقال على هيهات ثم عقد بيده سبعا فقال ذلك يخرج فى آخر الزمان اذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له قوما قزع (١) كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون الى احد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة اهل بدر لم يسبقهم الاولون ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد اصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال ابو الطفيل قال ابن الحنفية اتريده قلت نعم قال فانه يخرج من بين هذين الاخشبين قلت لا جرم والله لا ادعها حتى اموت ومات بها يعنى مكة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وانما هو على شرط مسلم فقط فان فيه عمارا الذهبى ويونس بن ابى اسحق ولم يخرج لهما البخارى وفيه عمرو بن

(١) قوله قزع بضم اوله وفتح الزاى ممنوع من الصرف كآخر اه

محمد العبقرى ولم يخرج له البخارى احتجاجا بل استشهادا مع ماينضم الى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وان وثقه احمد وابن معين وابو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال على بن المدنى عن سفيان ان بشر بن مروان قطع عرقوبيه قلت فى اى شئ قال فى التشيع وخرج ابن ماجه عن انس بن مالك رضى الله عنه فى رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن على بن زياد اليمامى عن عكرمة بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن انس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات اهل الجنة انا وحمزة وعلى وجعفر والحسن والحسين والمهدى انتهى وعكرمة بن عمار وان اخرج له مسلم فانما اخرج له متابعة وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون وقال ابو حاتم الرازى هو مدلس فلا يقبل الا ان يصرح بالسماع وعلى بن زياد قال الذهبي فى الميزان لاندرى من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن ابى شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثورى قالوا لانه رآه يفتى فى مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش غلطه فلا يحتج به وقال احمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدعى انه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا ببغداد لم يحج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم فى مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لى ابن عباس لو لم اسمع انك مثل اهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فانه فى ستر لا اذكره لمن يكره قال فقال ابن عباس منا اهل البيت اربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدى قال فقال مجاهد بين لى هؤلاء الاربعة فقال ابن عباس اما السفاح فربما قتل انصاره وعفا عن عدوه واما المنذر أراه قال فانه يعطى المال الكثير ولا يتعاظم فى نفسه ويمسك القليل من حقه واما المنصور فانه يعطى النصر على عدوه الشطر مما كان يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر واما المهدى الذى يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم السباع وتلقى الارض افلاذ كبدها قال قلت وما افلاذ كبدها قال امثال الاسطوانة من الذهب والفضة اه وقال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن ابيه واسمعيل ضعيف وابراهيم ابوه وان خرج له مسلم فالاكثرون على تضعيفه اه وخرج ابن ماجه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير الى واحد منهم حتى تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر شيأ لا احفظ قال فاذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فانه خليفة الله المهدى اه ورجاله رجال الصحيحين الا ان فيه ابا قلابة الجرمى وذكر الذهبى وغيره انه مدلس وفيه سفيان الثورى وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهورا بالتشيع وعمى فى آخر وقته فخلط قال ابن عدى حدث بأحاديث فى الفضائل لم يوافقه عليها احد ونسبوه الى التشيع انتهى * وخرج ابن ماجه عن عبد الله ابن الحرث بن جزء الزبيدى من طريق ابن لهيعة عن ابى زرعة عن عمر بن جابر الحضرمى عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدى يعنى سلطانه قال الطبرانى تفرد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا فى حديث على الذى خرجه الطبرانى فى معجمه الاوسط أن ابن لهيعة ضعيف وان شيخه عمر بن جابر أضعف منه وخرج البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه الاوسط واللفظ للطبرانى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يكون فى أمتى المهدى ان قصر فسبع والا فتسع

ثمانا لهم فقبض السلطان جماعة من الذين أحرقوا الخان وكتب رقاعا فيها القتل وفيها القطع وفيها الجلد ونثرها عليهم فمن وقعت عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال ما كنت أبالى لولا أم لى وكان بجانبه بعض الفتيان فقال له فى رقعتى الجلد وليست لى أم فادفع الى رقعتك وخذ رقعتى ففعلا فقتل ذاك وتخلص هذا (وحكى) ان أبا العباس الانطاكى اجتمع عنده نيف وثمانون رجلا بقرية بقرب الرى ولهم أرغفة لم تسع جميعهم فكسروا الرغفان واطفؤا السراج وجلسوا للطعام الى ان كفوا فلما رفع اذا الطعام بحاله لم يأكل منه واحد منهم ايثارا لصاحبه على نفسه (وروى) انه اجتمع بالرملة جماعة من أرباب القلوب فحضر طبق فيه تين أخضر وقد غسق الليل فكان الواحد يمد يده فاذا ظفر بحبة حصرم يأكلها وان ظفر بطيب دفعه الى صاحبه ولم يأكله فلما رفع الطبق اذا الطيب كله فى الطبق لم يأكلوا منه شيأ (وقال) بعض الرواة دخلت على بشر الحافى فى يوم شديد البرد وقد تعرى من الثياب فقلت يا أبا نصر الناس يزيدون الثياب فى مثل هذا اليوم وأنت تنقص فقال ذكرت الفقراء وما هم فيه ولم يكن لى ما أواسيهم به فاردت ان أوافقهم بنفسى فى مقاساة البرد (وقال) الاستاذ ابو على لما سعى غلام خليل بالصوفية الى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم فاما الجنيد فانه تستر بالفقه وكان يفتى على مذهب أبى ثور واما الشحام والرقام والنورى وجماعة فقبض عليهم وبسط النطع لضرب أعناقهم

والا فتسع تنعم فيها امتي نعمة لم ينعموا مثلها ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تدخر الارض شيأ من النبات والمال كدوس يقوم الرجل يقول يا مهدي اعطني فيقول خذ قال الطبراني والبزار تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا نعلم انه تابعه عليه أحد وهو وان وثقه أبو داود وابن حبان أيضا بما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال أبو زرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل رأيت محمد بن مروان العجلي حدث باحاديث وأنا شاهد لم أكتبها تركتها على عمد وكتب بعض أصحابنا عنه كانه ضعفه وخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي هريرة وقال حدثني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا الى الحق قال قلت وكم يملك قال خمسا واثنين قال قلت وما خمس واثنين قال لا أدري اه وهذا السند وان كان فيه بشير بن نهيك وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا الى قول أبي حاتم لا يحتج به الا أن فيه رجاء بن أبي رجاء اليشكري وهو مختلف فيه قال أبو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال أبو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق له البخاري في صحيحه حديثا واحدا وخرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير والاوسط عن قرة بن اياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتملأن الارض جورا وظلما فاذا ملئت جورا وظلما بعث الله رجلا من امتي اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي يملؤها عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما فلا تمنع السماء من قطرها شيأ ولا الارض شيأ من نباتها يلبث فيكم سبعا أو ثمانيا او تسعا يعني سنين اه وفيه داود بن المحبر بن محرم عن ابيه وهما ضعيفان جدا وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والانصار وعلي بن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه اذ تلاحى العباس ورجل من الانصار فاغلظ الانصاري للعباس فاخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس وبيد علي وقال سيخرج من صلب هذا حتى يملأ الارض جورا وظلما وسيخرج من صلب هذا حتى يملأ الارض قسطا وعدلا فاذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمي فانه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي اه وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان اه وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستكون فتنة لا يسكن منها جانب الا تشاجر جانب حتى ينادي مناد من السماء ان أميركم فلان اه وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جدا وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وانما ذكروه في ابوابه وترجمته استئناسا (فهذه) جملة الاحاديث التي خرجها الائمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد الا القليل والاقل منه وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن ابان بن صالح بن ابي عياش عن حسن البصري عن انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا مهدي الا عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي انه ثقة وقال البيهقي تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل مجهول واختلف عليه في اسناده فمرة يروى كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن ادريس الشافعي ومرة يروى عن محمد بن خالد عن ابان عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا قال البيهقي فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن ابان بن ابي عياش وهو متروك عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب وقد قيل في ان لا مهدي الا عيسى أي لا يتكلم في المهد الا عيسى يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع بحديث جريج ومثله من الخوارق * وأما المتصوفة فلم يكن

فتقدم النوري امامهم فقال له السياف أتدري لماذا تتقدم وتسابق قال نعم قال وماذا يعجلك قال أوثر أصحابي بحياة ساعة فتحير السياف
وأنهى الخبر الى الخليفة فردهم الى القاضي ليتعرف حالهم فالقى القاضي على أبي الحسن النوري مسائل فقهية فأجاب

عن الكل ثم أخذ يقول ان لله عبادا اذا قاموا قاموا بالله واذا نطقوا نطقوا بالله وسرد الفاظا حتى أبكى القاضي فارسل الى الخليفة وقال ان كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الارض مسلم (ولما) مرض قيس بن سعد ابن عبادة استبطأ اخوانه في العيادة فسأل عنهم فقال انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ثم أمر من ينادي من كان لقيس عنده مال فهو منه في حل فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد (ويروى) ان عبد الله ابن جعفر وكان أحد الاجواد خرج الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيها غلام أسود يقوم عليها فاتى بقوته ثلاثة أقراص ودخل كلب ودنا من الغلام فرمى اليه بقرص فأكله ثم رمى اليه بالثاني والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت هذا الكلب قال ما هي بارض كلاب وانه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت رده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوي يومي

هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء وهذا أسخى مني فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فاعتق الغلام ووهب ذلك له
(وقال) النوري رأيت محمد بن سوقة بالغداة صاحب مائة ألف وبالعشي سأل الله من أصحابه خبزة (وقال) أبو عبد الرحمن دخل أبو عبيد

الله الروذبارى الى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وهناك بيت مقفل فكسر القفل وأمر بجميع ما وجد فيه من المتاع فانفذوه الى
السوق فباعوه وأصلحوا به وقتا من الثمن فجاء صاحب الروذبارى فلم يقل شيأ فدخلت امرأته بعدهم الدار وعليها

المتقدمون منهم يخوضون فى شئ من هذا وانما كان كلامهم فى المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والاحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة فى تفضيل على رضى الله تعالى عنه والقول بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبى صلى الله عليه وسلم والتبرى من الشيخين كما ذكرناه فى مذاهبهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالامام المعصوم وكثرت التآليف فى مذاهبهم وجاء الاسماعيلية منهم يدعون ألوهية الامام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة من مات من الائمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم وآخرون منتظرون عود الامر فى اهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الاحاديث فى المهدى وغيرها ثم حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية الكلام فى الكشف وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الامامية والرافضة لقولهم بألوهية الائمة وحلول الاله فيهم وظهر منهم أيضا القول بالقطب والابدال وكانه يحاكى مذهب الرافضة فى الامام والنقباء وأشربوا اقوال الشيعة وتوغلوا فى الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند طريقهم فى لبس الخرقة ان عليا رضى الله عنه ألبسها الحسن البصرى واخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن على من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلى كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة فى طرق الهدى وفى تخصيص هذا بعلى دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم فى التشيع وانخراطهم فى سلكه وظهر منهم أيضا القول بالقطب وامتلأت كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك فى الفاطمى المنتظر وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض وكانه مبنى على اصول واهية من الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين فى القرانات وهو من نوع الكلام فى الملاحم ويأتى الكلام عليها فى الباب الذى يلى هذا واكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين فى شأن الفاطمى ابن العربى الحاتمى فى كتاب عنقاء مغرب وابن قسى فى كتاب خلع النعلين وعبد الحق بن سبعين وابن ابى واطيل تلميذه فى شرحه لكتاب خلع النعلين واكثر كلماتهم فى شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون فى الاقل او يصرح مفسر وكلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن ابى واطيل ان النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبرا وتكبرا وباطلا قالوا ولما كان فى المعهود من سنة الله رجوع الامور الى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا الموقع من شأن النبوة والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التى هى لهذا الفاطمى والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك فهى ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الاولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة قالوا ولما كان امر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالاجماع الذى لا يوهنه انكار من لم يزاول علمه وجب ان تكون الامامة فيمن هو أخص من قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم اما ظاهرا كبنى عبد المطلب واما باطنا ممن كان من حقيقة الآل والآل من اذا حضر لم يغب من هو آله وابن العربى الحاتمى سماه فى كتابه عنقاء مغرب من تآليفه خاتم الاولياء وكنى عنه بلبنة الفضة اشارة الى حديث البخارى فى باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم مثلى فيمن قبلى من الانبياء كمثل رجل ابتنى بيتا وأكمله حتى اذا لم يبق منه الا موضع لبنة فانا تلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البنيان ومعناه النبى الذى حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون الولاية فى

كساء فدخلت بيتا ورمت بالكساء وقالت يا أصحابنا هذا أيضا من جملة المتاع فبيعوه فقال زوجها لم تكلفت هذا باختيارك فقالت اسكت مثل هذا الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شئ نذخره عنه (واما) عبد الملك بن بحر فورث خمسة آلاف درهم فبعث بها الى اخوانه صررا وقال ما كنت لأسأل لاخوانى الجنة فى صلاتى وابخل عليهم بمالى (ويروى) ان الاشعث ابن قيس أرسل الى عدى ابن حاتم يستعير منه قدورا كانت لابيه حاتم فملأها وبعث بها اليه وقال انا لا نعيرها فارغة (وقال) بزرجمهر لا عز أثبت اركانا ولا أبذخ بنيانا من بث الكرم واكتساب الشكر وذلك ان عز التعظيم بالفعل الجميل باق فى قلوب الرجال ومن تحصن بالجود وتحرز بالمعروف فقد ظفر بن بأوفر ربح الشكر والثواب (ويروى) ان عبد الله ابن ابى بكر وكان احد الاجواد عطش يوما فى طريقه فاستسقى من منزل امرأة فاخرجت كوزا وقامت خلف الباب وقالت تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم فانى امرأة من العرب مات زوجى منذ ايام فشرب عبد الله وقال يا غلام احمل اليها عشرة آلاف فقالت سبحان الله تسخر بى فقال يا غلام احمل اليها عشرين الفا فقالت اسأل الله العافية فقال يا غلام

احمل اليها الثلاثين الفا فقالت اف لك فحمل اليها ثلاثين الف درهم فما امست حتى كثر خطابها (وقال) بعض الرواة قصد رجل الى صديق له فدق عليه الباب فلما خرج قال ما حاجتك قال اربعمائة درهم على دين فدخل الدار واخرجها اليه ثم دخل الدار

تفاوت مراتبها بالنبوة و يجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الاولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الانبياء حائزا للرتبة التي هي خاتمة النبوة فكنى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيها فهي لبنة واحدة في التمثيل ففي النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبتين كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الانبياء وهذا خاتم الاولياء وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضي خ ف ج من الهجرة ورسم حروفا ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهو الخاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة والفاء أخت القاف بثمانين والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة وهي في آخر القرن السابع ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده وعبر بظهوره عن مولده وأن خروجه يكون بعد العشر والسبعمائة فانه الامام الناجم من ناحية المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيكون عمره عند خروجه ستا وعشرين سنة قال وزعموا ان خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدي وابتداء اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى تمام ألف سنة قال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب خلع النعلين الولي المنتظر القائم بامر الله المشار اليه بمحمد المهدي وخاتم الاولياء وليس هو بنبي وانما هو ولي ابتعثه روحه وحبيبه قال صلى الله عليه وسلم العالم في قومه كالنبي في أمته وقال علماء أمتي كانبياء بني اسرائيل ولم تزل البشرى تتابع به من أول اليوم المحمدي الى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته وازدلاف زمانه منذ انقضت الى هلم جرا قال وذكر الكندي أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر و يجدد الاسلام و يظهر العدل و يفتح جزيرة الاندلس و يصل الى رومية فيفتحها و يسير الى المشرق فيفتحه و يفتح القسطنطينية و يصير له ملك الارض فيتقوى المسلمون و يعلو الاسلام و يظهر دين الحنيفية فان من صلاة الظهر الى صلاة العصر وقت صلاة قال عليه الصلاة والسلام ما بين هذين وقت وقال الكندي أيضا الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتتح بها سور القرآن جملة عددها سبعمائة وثلاثة وأربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب ثم يبقى ملك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة وستين عاما عدد حروف المعجم وهي ق ي ن دولة العدل منها أربعون عاما قال ابن أبي واطيل وما ورد من قوله لا مهدي الا عيسى فمعناه لا مهدي تساوي هدايته ولايته وقيل لا يتكلم في المهد الا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريج وغيره وقد جاء في الصحيح انه قال لا يزال هذا الامر قائما حتى تقوم الساعة او يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني قرشيا وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الاسلام ومنهم من سيكون في آخره وقال الخلافة بعدي ثلاثون او احدى وثلاثون او ستة وثلاثون وانقضاؤها في خلافة الحسن وأول امر معاوية فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذا باوائل الاسماء فهو سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله انك لذو قرنيها يريد الامة أي انك لخليفة في أولها وذريتك في آخرها وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالاول هو المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في

باكيا فقالت له امرأته هلا تعللت حين شقت عليك الاجابة قال انما ابكي لاني لم اتفقد حاله حتى احتاج الى مكاشفتي (وقال) اكثم ابن صيفي صاحب المعروف لا يقع فان وقع وجد متكأ (وقال) الفضيل ما كانوا يعدون القرض معروفا (ويروى) عن امرأة من المتعبدات انها قالت لحبان ابن هلال وهو في جماعة من اصحابه ما السخاء عندكم قال البذل والايثار قالت فما السخاء في الدين قال ان تعبدي الله تعالى سخية به نفسك غير مكرهة قالت افتريدون على ذلك جزاء قالوا نعم لان الله تعالى وعد على الحسنة بعشر امثالها قالت فاذا اعطيتم واحدة واخذتم عشرا فاي شئ سخيتم به وانما السخاء ان تعبدوا الله تعالى متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون بذلك اجرا الا تستحيون ان يطلع على قلوبكم فيعلم منها انها تريد شيأ بشئ (وقالت) بعض المتعبدات لبعض المتعبدين أتظن السخاء في الدينار والدرهم فقط انما السخاء في بذل مهج النفوس لله تعالى (وقال) أبو بكر الدقاق وليس السخاء ان يعطي الواجد المعدم انما السخاء ان يعطي المعدم الواجد (وقال) الشيخ أبو عبد الرحمن كان الاستاذ أبو سهل الصعلوكي من الاجواد لم يكن يناول احدا شيأ بيده وانما كان يطرحه على الارض

سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فنعم الامير اميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل الى عشر وجاء ذكر اربعين وفي بعض الروايات سبعين واما الاربعون فانها مدته ومدة الخلفاء الاربعة الباقين من اهله القائمين بامره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات ان مدة بقاء امره واهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون الامر على هذا جاريا على الخلافة والعدل اربعين او سبعين ثم تختلف الاحوال فتكون ملكا انتهى كلام ابن ابي واطيل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المحمدي حين تمضي ثلاثة ارباعه قال وذكر الكندي يعقوب بن اسحق في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرانات انه اذا وصل القران الى الثور على رأس ضح بحرفين (١) الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الارض ما شاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث ان عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعا كفيه على اجنحة الملكين له لمة كانما خرج من ديماس اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربوع الخلق والى البياض والحمرة وفي آخر انه يتزوج في الغرب والغرب دلو البادية يريد انه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد اربعين عاما وجاء ان عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى جانب عمر بن الخطاب وجاء ان ابا بكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن ابي واطيل والشيعة تقول انه هو المسيح مسيح المسايح من آل محمد قلت وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا مهدي الا عيسى أي لا يكون مهدي الا المهدي الذي نسبته الى الشريعة المحمدية نسبة عيسى الى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ الى كلام من امثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بادلة واهية وتحكمات مختلفة فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون الى تجديد رأي آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخييلية وأحكام نجومية في هذا انقضت اعمار الاول منهم والآخر وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون الى ظهور رجل مجدد لاحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الاولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا ابو يحيى زكريا عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي ابي يعقوب المذكور هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما اورده اهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا والحق الذي ينبغي ان يتقرر لديك انه لا تتم دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم امر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي اريناك هنالك وعصبية الفاطميين بل وقريش اجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد امم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش الا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وامارتهم وآرائهم يبلغون آلافا من الكثرة فان صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته الا بأن يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها واما على غير هذا الوجه مثل ان يدعو فاطمي

(١) قوله الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين قاله نصر اهـ

فيتناوله الآخذ من الارض وكان يقول الدنيا أقل خطرا من أن يرى من أجلها يدي فوق يد أخرى وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وكان يتوضأ يوما في صحن داره فدخل عليه انسان وسأله شيأ فلم يحضره شيء فقال اصبر حتى افرغ فلما فرغ قال خذ القمقمة واخرج فلما خرج وعلم انه بعد صاح وقال دخل انسان وأخذ القمقمة فتشوا خلفه فلم يدركوه وانما فعل ذلك لأنهم كانوا يلومونه على البذل (وفي معناه قال الشاعر)

ملأت يدي من الدنيا مرارا فما طمع العواذل في اقتصادي
ولا وجبت علي زكاة مال وهل تجب الزكاة على جواد

(وكان) ابو مرثد احد الكرام فمدحه بعض الشعراء فقال ما عندي ما اعطيك ولكن قدمني الى القاضي وادع علي عشرة آلاف درهم حتى اقر لك بها ثم احبسني فان اهلي لا يتركوني مسجونا ففعل ذلك فلم يمسوا حتى دفع اليه عشرة آلاف درهم (وقال) زياد بن جرير رأيت طلحة ابن عبيد الله فرق مائة الف في مجلس وانه ليخيط ازاره بيده (ولما) دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها يا ام المؤمنين أصابتني فاقة فقالت ما عندي شيء فلو كانت عندي عشرة آلاف لبعثت بها اليك فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف من عند خالد بن اسيد فارسلت بها في اثره فاشترى جارية بالف درهم فولدت له ثلاثة اولاد فكانوا عباد المدينة منهم محمد وابو بكر وعمر بنو المنكدر (وقال) يحيى بن معين كان جرير بن يزيد في دار المطلب فجاء انسان يسأله فقال الغلام

منهم الى مثل هذا الامر في افق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة الا مجرد نسبة في اهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما اسلفناه من البراهين الصحيحة واما ما تدعيه العامة والاغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك الى عقل يهديه ولا علم يفيده فيجيبون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الامر كما بيناه واكثر ما يجيبون في ذلك القاصية من الممالك واطراف العمران مثل الزاب بافريقية والسوس من المغرب ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم انه منهم او قائمون بدعوته زعما لا مستند لهم الا غرابة تلك الامم وبعدهم على يقين المعرفة باحوالها من كثرة او قلة او ضعف او قوة ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام في ظهوره هناك بخروجه عن ربقة الدولة ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك الا هذا وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة يمنيه تمامها وسواسا وحمقا وقتل كثير منهم اخبرني شيخنا محمد بن ابراهيم الابلي قال خرج برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتويزري نسبة الى توزر مصغرا وادعى انه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من اهل السوس من ضالة وكزولة وعظم امره وخافه رؤساء المصامدة على امرهم فدس عليه السكسوي من قتله بياتا وانحل امره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى انه الفاطمي واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق اسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم امره وكثير من هذا النمط واخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا وهو انه صحب في حجه في رباط العباد وهو مدفن الشيخ ابي مدين في جبل تلمسان المطل عليها رجلا من اهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلميذ والخادم قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في اكثر البلدان قال وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي امرهم وانهم انما جاؤا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الامر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه ارجعوا فقد ازرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا ويدل هذا القول من هذا الرجل على انه مستبصر في ان الامر لا يتم الا بالعصبية المكافئة لاهل الوقت فلما علم انه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وان عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها احد من اهل المغرب استكان ورجع الى الحق واقصر عن مطامعه وبقي عليه ان يستيقن ان عصبية الفواطم وقريش اجمع قد ذهبت لا سيما في المغرب الا ان التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وانتم لا تعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة الى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعوه واكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما ان اكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا الا ان الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما ان توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم واقبالهم الى مناحي الديانة غير ذلك لانها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة ومنها توبتهم فتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب والبغي وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش باقصى جهدهم وشتان بين هذا الامر من اصلاح الخلق ومن طلب الدنيا فاتفاقهما ممتنع لا تستحكم له صبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن

فبعثت وانا غلام الى ضرار ابن القعقاع بن حازم فاستأذنت عليه فاذن لي فاذا هو عليه شملة يخبط نوى لعنز له حلوب فخبرته بمجتمع القوم فامهل حتى اكلت العنز ثم غسل القصعة وقال يا جارية غدينا فاتته بزيت وتمر قال فدعاني فقذرته ان آكل معه حتى اذا قضى من اكله حاجته وثب الى طين ملقى في الدار فغسل به يده ثم صاح بالجارية فقال اسقني ماء فاتته بماء فشرب ومسح فضله على وجهه ثم قال الحمد لله ماء الفرات بتمر البصرة بزيت الشام متى تؤدي شكر هذه النعم ثم قال علي بردائي فاتته برداء عدني فارتدى به على تلك الشملة قال الاصمعي فتجافيت عنه استقباحا لزيه فدخل المسجد وصلى ركعتين ومشى الى القوم فلم تبق حبوة الا حلت اعظاما له ثم جلس فتحمل ما كان بين الاحياء من الديات في ماله وانصرف (و كان) البهلول بن راشد الفقيه لما سجن يعطى كل يوم السجان دينارا فاستكثره اصحابه وكلموه في ذلك فقال لهم

حفص بن ميسرة سمعت سفيان الثوري يقول اذا كمل صدق الصادق لم يملك ما في يديه فغر بهلول على يديه وقبلها وجعل يقول سألتك بالله انت سمعته يقول هذا فحلف بالله لقد سمعته يقوله (وقال الشاعر) ذريني اكن للمال ربا ولا يكن * لي المال ربا تحمدي غبه غدا

الباطل على الجملة ولا يكثرون ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم ابن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد دينا من الاول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم انتهى

٥٤ *(فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر)*

اعلم ان من خواص النفوس البشرية التشوف الى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا ومعرفة مدد الدول او تفاوتها والتطلع الى هذا طبيعة البشر مجبولون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون الى الوقوف على ذلك في المنام والاخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة ولقد نجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الامصار لما تقرر في الشرع من ذم ذلك وان البشر محجوبون عن الغيب الا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع اليه الأمراء والملوك في آماد دولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم اليه وكل أمة من الامم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم او ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لاسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدثان وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون اليهم في ذلك وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حين بعث اليه كسرى بها مع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن ويقال من غمرة وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير ومعظمه فيما يكون لزناتة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجيل وهم يزعمون تارة انه ولي وتارة انه كاهن وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا لان تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله أعلم وقد يستند الجيل الى خبر الانبياء ان كان لعهدهم كما وقع لبني اسرائيل فان أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يعنونهم في السؤال عنه * وأما في الدولة الاسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع الى الدولة وأعمارها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثارا منقولة عن الصحابة وخصوصا مسلمة بني اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهما وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله أعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية واذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الاولياء

ار بني جواد امات هزلا العلى * ارى ماتر بني او بخيلا مخلدا (وكان) عبدالله بن ابي بكر ينفق على اربعين دارا من جيرانه عن يمينه وار بعين عن يساره وار بعين امامه وار بعين خلفه ويبعث اليهم بالاضاحي والكسوة في الاعياد ويعتق في كل عيد مائة مملوك واشترى يوما جارية بعشرة آلاف فطلب دابة يحملها عليها فقال رجل هذه دابتي فقال احملوها على دابته الى داره (وقال عبدالله بن زهير)

وعاذلة تخشى الردى ان يصيبني * تروح وتغدو بالملامة والقسم
تقول هلكنا ان هلكت وانما * على الله ارزاق العباد كما زعم
واني احب الخلد لو استطيعه * وكالخلد عندي ان اموت ولم الم

(وروي) ان اعرابيا اقدم على علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال يا امير المؤمنين لي اليك حاجة الحياء يمنعني ان اذكرها قال خطها في الارض فخط في الارض اني فقير فقال لغلامه يا قنبر اكسه حلتي فكساه الحلة فقال

كسوتني حلة تبلى محاسنها * فسوف اكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه * كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
ان نلت حسن ثناء نلت مكرمة * لا تبتغين بما قد نلته بدلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به * كل امرئ سوف يجزى بالذي فعلا

قال علي زده مائة دينار فاعطاه اياها فلما ولى الاعرابي قال قنبر يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لاصلحت بها من شأنهم فقال مه يا قنبر فاني سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول اشكر والمن أثنى عليكم واذا أتاكم كريم قوم فاكرموه (وقال) مطرف بن الشخير اذا أراد أحدكم مني حاجة فليرفعها في رقعة فاني أكره ان أرى في وجهه ذل الحاجة (قرئ) على القاضي أبي الوليد وأنا أسمع (١٩٧) وآمرة بالبخل قلت لها اقصري *

الاولياء في ذويهم واعقابهم وقد قال صلى الله عليه وسلم ان فيكم محدثين فهم اولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة واما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء الى اللسان العربي فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الامور العامة من القرانات وفي المواليد والمسائل وسائر الامور الخاصة من الطوالع لها وهي شكل الفلك عند حدوثها فلنذكر الآن ماوقع لاهل الاثر في ذلك ثم نرجع لكلام المنجمين * أما أهل الاثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ماوقع في كتاب السهيلي فانه نقل عن الطبري مايقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس ان الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلا وسره والله اعلم تقدير الدنيا بايام خلق السموات والارض وهي سبعة ثم اليوم بالف سنة لقوله وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون قال وقد ثبت في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجلكم في اجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى غروب الشمس وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وقدر مابين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شئ مثليه يكون على التقريب نصف سبع وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لن يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه انها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي وليس في الحديثين مايشهد لشئ مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فأما قوله لن يعجز الله ان يؤخر هذه الامة نصف يوم فلا يقتضي نفي الزيادة على النصف وأما قوله بعثت انا والساعة كهاتين فانما فيه الاشارة الى القرب وانه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي الى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في اوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفا يجمعها قولك (الم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة (١) اضافه الى المنقضي من الالف الآخرة قبل بعثته فهذه هي مدة الملة قال ولا يبعد ذلك ان يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها قلت وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه والذي حمل السهيلي على ذلك انما هو ماوقع في كتاب السير لابن اسحق في حديث ابني أخطب من أحبار اليهود وهما ابو ياسر وأخوه حيي حين سمعا من الاحرف المقطعة الم وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت احدى وسبعين فاستقلا المدة وجاء حيي الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم استزاد الر ثم استزاد المر فكانت احدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال قد لبس علينا أمرك يامحمد حتى لاندري اقليلا اعطيت أم كثيرا ثم ذهبوا عنه وقال لهم ابو ياسر مايدريكم لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين قال ابن اسحق فنزل قوله تعالى منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات اه ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الاعداد ليست طبيعية ولا عقلية وانما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم انه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس ابو ياسر وأخوه حيي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلا ولا من

(١) قوله هذا العدد غير مطابق كما ان المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وانما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣ وهو الموافق لما سيذكره عن يعقوب الكندي قاله نصر اه

فليس اليه ماحييت سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى
بخيلا له في العالمين خليل
واني رأيت البخل يزري باهله
فأكرمت نفسي أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته
اذا نال خيرا ان يكون ينيل
(ولعروة بن الورد)
واني امرؤ عافي انائي شركة
وأنت امرؤ عافي انائك واحد
أتضحك مني أن سمنت وان ترى
بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
اقسم جسمي في جسوم كثيرة
واحسو قراح الماء والماء بارد
(وقال) بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما ملكت على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه (وروى) انه كان عند البهلول بن راشد طعام فغلا السعر فأمر به فبيع له ثم أمر ان يشترى له ربع القفيز فقيل له تبيع وتشتري فقال نفرح اذا فرح الناس ونحزن كما حزنوا (ولبيم حاتم طي فقال)
لعمري لقدما عضني الجوع عضة * فآليت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائم الآن أعفني * فان أنت لم تسطع فعض الاصابعا
فهل ماترون الآن الا طبيعة

علماء اليهود لانهم كانوا بادية بالحجاز غفلا عن الصنائع والعلوم حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم وانما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة فلا ينهض للسهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك ووقع في الملة في حدثان دولتها على الخصوص مستند من الاثر اجمالي في حديث خرجه ابو داود عن حذيفة ابن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبي عن سعيد بن أبي مريم عن عبد الله بن فروخ عن أسامة ابن زيد الليثي عن أبي قبيصة بن ذؤيب عن أبيه قال قال حذيفة بن اليمان والله ما ادري انسي اصحابي ام تناسوه والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة الى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم ابيه وقبيلته وسكت عليه ابو داود وقد تقدم انه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه فهو صالح وهذا الحديث اذا كان صحيحا فهو مجمل ويفتقر في بيان اجماله وتعيين مبهماته الى آثار اخرى يجود اسانيدها وقد وقع اسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة ايضا قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا فما ترك شيأ يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدث عنه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه اصحابه هؤلاء اه ولفظ البخاري ما ترك شيأ الى قيام الساعة الا ذكره وفي كتاب الترمذي من حديث ابي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما صلاة العصر بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع شيأ يكون الى قيام الساعة الا أخبرنا به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه اه وهذه الاحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من احاديث الفتن والاشراط لا غير لانه المعهود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات وهذه الزيادة التي تفرد بها ابو داود في هذا الطريق شاذة منكرة مع أن الائمة اختلفوا في رجاله فقال ابن أبي مريم في ابن فروخ أحاديثه مناكير وقال البخاري يعرف منه وينكر وقال ابن عدى احاديثه غير محفوظة واسامة بن زيد وان خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين فانما خرج له البخاري استشهادا وضعفه يحيى بن سعيد واحمد بن حنبل وقال ابن حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لابي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر وقد يستندون في حدثان الدول على الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون اصل ذلك ولا مستنده واعلم ان كتاب الجفر كان أصله أن هرون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب منه لان الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه وانما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح السند الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه او من رجال قومه فهم أهل الكرامات وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف واذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علما ودينا وآثارا من النبوة وعناية من الله بالاصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب الى أحد وفي أخبار دولة العبيديين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي

عبد

* فكيف يترك يا ابن ام الطباثعا * (وقال آخر) * اصون عرضي بمالي لا ادنسه * لا بارك الله بعد العرض في المال
احتال للمال ان اودى فأجمعه * ولست للعرض ان اودى بمحتال (ويروى) ان رجلا سأل الحسن بن علي رضي الله عنه شيأ فاعطاه خمسين الف درهم وخمسمائة دينار وقال ائت بحمال يحمله لك فاتاه بحمال فاعطاه طيلسانه وقال يكون كراء الحمال من قبلي (ويروى) ان الليث بن سعد سألته امرأة سكرجة عسل فامر لها بزق عسل فقيل له في ذلك فقال انها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر نعمتنا (وروى) ان رجلا استضاف لعبد الله بن عامر بن كريز فلما اراد الرحيل لم يعنه غلمانه فسئل عن ذلك فقال عبد الله انهم لا يعينون من ارتحل عنا (وفي معناه يقول المتنبي)

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ان لا تفارقهم فالراحلون هم

(الباب الحادي والثلاثون في بيان الشح والبخل وما يتعلق بهما) *

الشح في كلام العرب البخل ومنع الفضل كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم اني اعوذ بك من شح نفسي واسرافها ووسواسها (وروى) جابر ان النبي عليه السلام قال اتقوا الشح فان الشح اهلك من كان قبلكم حملهم على ان سفكوا الدماء واستحلوا محارمهم وقد فرق بينهما مفرقون فقالوا الشح اشد من البخل فان البخل أكثر ما يقال في النفقة وامساكها قال الله تعالى سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال تعالى ومن

يبخل فانما يبخل عن نفسه وقال تعالى فى الشح أشحة على الخير اولئك لم يؤمنوا وقال تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون فالشح
يبنى على الكزازة والامتناع فهو يكون فى المال وفى جميع منافع البدن (وقال) ابن عمر (١٩٩) ليس الشح ان يمنع الرجل ماله

وانما الشح ان يطمع فيما ليس له ولهذا قال ابن المبارك سخاء النفس عما فى أيدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل (وقال) رجل لابن مسعود انى اخاف أن أكون قد هلكت سمعت الله تعالى يقول ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وانا رجل شحيح لا يكاد ان يخرج من يدى شئ فقال له ابن مسعود هذا ليس بالشح الذى ذكره الله تعالى فانه ان تأكل مال اخيك ظلما ولكن ذلك البخل وبئس الشئ البخل ففرق بينهما كما ترى (وقال) ابن عباس الشح ان يتبع هواه فلم يقبل الايمان وقال طاوس الشح ان يبخل المرء بما فى ايدى الناس والبخل ان يبخل بما فى يديه (وروى) انس أن النبى عليه الصلاة والسلام قال برئ من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف واعطى فى النائبة (وقال) ابن زيد من لم يأخذ شيأ نهاه الله عنه ولم يدعه الشح الى ان يمنع شيأ امر الله به فقد وقاه شح نفسه (وقال) ابو التياح الاسدى رأيت رجلا فى الطواف يقول

اللهم قنى شح نفسى لا يزيد على ذلك شيأ فسألته عن ذلك فقال اذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم ازن ولم أفعل شيأ يكرهه الله تعالى واذا
الرجل عبد الرحمن بن عوف (واعلم) ان البخل يكون من سوء الظن بالله أن لا يخاف ولا يثيب وهذا يوهن التصديق بما تكفل الله به

عبد الله الشيعى لعبيد الله المهدى مع ابنه محمد الحبيب وما حدثاه به وكيف بعثاه الى ابن حوشب داعيتهم باليمن فأمره بالخروج الى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لقنه ان دعوته تتم هنالك وان عبيد الله لما بنى المهدية بعد استفحال دولتهم بافريقية قال بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار وأراهم موقف صاحب الحمار ابى يزيد بالمهدية وكان يسأل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه الى المكان الذى عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحية الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الاخبار عندهم كثيرة وأما المنجمون فيستندون فى حدثان الدول الى الاحكام النجومية اما فى الامور العامة مثل الملك والدول فمن القرانات وخصوصا بين العلويين وذلك ان العلويين زحل والمشترى يقترنان فى كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران الى برج آخر فى تلك المثلثة من التثليث الايمن ثم بعده الى آخر كذلك الى أن يتكرر فى المثلثة الواحدة ثنتى عشرة مرة تستوى بروجه الثلاثة فى ستين سنة ثم يعود فيستوى بها فى ستين سنة ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوى فى المثلثة بثنتى عشرة مرة وأربع عودات فى مائتين وأربعين سنة ويكون انتقاله فى كل برج على التثليث الايمن وينتقل من المثلثة الى المثلثة التى تليها أعنى البرج الذى يلى البرج الاخير من القران الذى قبله من المثلثة وهذا القران الذى هو قران العلويين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين فى درجة واحدة من الفلك الى ان يعود اليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين فى كل مثلثة اثنتى عشرة مرة وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل الى مثلثة أخرى والصغير هو اقتران العلويين فى درجة برج وبعد عشرين سنة يقترنان فى برج آخر على تثليثه الايمن فى مثل درجه او دقائقه مثال ذلك وقع القران أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون فى أول دقيقة من القوس وبعد عشرين يكون فى أول دقيقة من الاسد وهذه كلها نارية وهذا كله قران صغير ثم يعود الى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية الى الترابية لانها بعدها وهذا قران وسط ثم ينتقل الى الهوائية ثم المائية ثم يرجع الى أول الحمل فى تسعمائة وستين سنة وهو الكبير والقران الكبير يدل على عظام الامور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها ويقع أثناء هذه القرانات قران النحسين فى برج السرطان فى كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القران فى الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك او ينتهى على قدر السعادة والنحوسة فى وقت قرانهما على قدر تيسير الدليل فيه قال جراس بن أحمد الحاسب فى الكتاب الذى ألفه لنظام الملك ورجوع المريخ الى العقرب له أثر عظيم فى الملة الاسلامية لانه كان دليلها فالمولد النبوى كان عند قران العلويين ببرج العقرب فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض فى أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم وربما انهدم بعض بيوت العبادة وقد يقال انه كان عند قتل على رضى الله عنه ومروان من بنى أمية والمتوكل من بنى العباس فاذا روعيت هذه الاحكام مع احكام القرانات كانت فى غاية الاحكام * وذكر شاذان البلخى أن الملة تنتهى الى ثلثمائة وعشرين وقد ظهر كذب هذا القول وقال ابو معشر يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراس رأيت فى كتب القدماء ان المنجمين اخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وان دليلهم الزهرة

و يطرق الخلل والامتناع الى جميع الاوامر بين العبد و بين الخالق و بين العبد و بين الخالق في ترك معاونتهم والنصح لهم (وقال) كسرى لاصحابه أي شئ أضر بابن آدم قالوا الفقر فقال كسرى الشح أضر من الفقر لان الفقير اذا وجد اتسع والشحيح لا يتسع ابدا ولما قدم الشافعي من صنعاء الى مكة كان معه عشرة آلاف دينار فقالوا له تشتري بها ضيعة فضرب خيمته خارج مكة وصب الدنانير فكل من دخل عليه كان يعطيه قبضة قبضة فلما جاء وقت الظهر قام ونفض الثوب ولم يبق شئ (ولما) قربت وفاته قال مروا فلانا يغسلني وكان الرجل غائبا فلما قدم أخبر بذلك فدعا بتذكرته فوجد عليه سبعين ألف درهم دينا فقضاها وقال هذا غسلي اياه (وروي) ان رجلا اراد ان يؤذي عبد الله بن عباس فاتى وجوه البلد وقال يقول لكم ابن عباس تغدوا اليوم عندي فاتوه فملؤا الدار فقال ما هذا فاخبر الخبر فامر أن تشتري الفواكه في الوقت وأمر بالخبز والطبخ فاصلح القرى فلما فرغ قال لوكلائه اموجود لنا هذا كل يوم قالوا نعم قال فليتغد هؤلاء كلهم كل يوم عندنا

(ومن الخصال الجارية مجرى الكمال والجمال ولعلها من الاصول الصبر)

(الباب الثاني والثلاثون في الصبر) الصبر زمام سائر الخصال وزعيم الغنم والظفر وملاك كل فضيلة و به ينال كل خير ومكرمة قال الله تعالى من وتمت كلمت ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فعظم وظائف الدين ذكر الله

وكانت في شرفها فبقي الملك فيهم أربعين سنة وقال ابو معشر في كتاب القرانات القديمة اذا انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي و يكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي احدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة و وقوع القسمة أول الحمل وصاحب الحد المشتري وقال يعقوب ابن اسحق الكندي ان مدة الملة تنتهي الى ستمائة وثلاث وتسعين سنة قال لان الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقي احدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثا وتسعين سنة قال وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء و يعضده الحروف الواقعة في اول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب ان الاول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال جراس سأل هرمز افريد الحكيم عن مدة أردشير و ولده وملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطي أطول السنين واجودها اربعمائة وسبعا وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة و تكون في شرفها وهي دليل العرب فيملكون لان طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها فدل انهم يملكون الف سنة وستين سنة وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس الى العرب فاخبره ان القائم منهم يولد لخمس واربعين من دولته و يملك المشرق والمغرب والمشتري يغوص الى الزهرة و ينتقل القران من الهوائية الى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب فهذه الادلة تقضي للملة بمدة دور الزهرة وهي الف وستون سنة وسأل كسرى ابرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر وقال نوفيل الرومي المنجم في ايام بني امية ان ملة الاسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة فاذا عاد القران الى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة فحينئذ اما ان يفتر العمل به او يتجدد من الاحكام ما يوجب خلاف الظن قال جراس واتفقوا على ان خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكونات وذلك عندما يقطع قلب الاسد أربعا وعشرين درجة التي هي حد المريخ وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة وذكر جراس ان ملك زابلستان بعث الى المأمون بحكيمه ذوبان اتحفه به في هديته وانه تصرف للمأمون في الاختيارات بحرب اخيه و بعقد اللواء لطاهر وان المأمون اعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم فاخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد اخيه وان العجم يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين و يكون ما يريده الله ثم يسوء حالهم ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكونه الى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم و يكون ما يريده الله فقال له المأمون من اين لك هذا فقال من كتب الحكماء ومن احكام صصه بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج قلت والترك الذين اشار الى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية وقد انقضت دولتهم اول القرن السابع قال جراس وانتقال القران الى المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزدجرد وبعدها الى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي في الحوت هو اول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال وتحويل السنة الاولى من القران الاول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك * وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص فمن القران الاوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لان له دلالة عندهم على حدوث الدولة وجهاتها

ورسوله جزاءه معلوما لان أقامها الا الصبر فانه بغير حساب وقال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا اقيل عن الدنيا وقال ابن عيينة لما أخذوا برأس الامر جعلهم الله رؤساء وقال تعالى ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون وقال تعالى قد نعلم انه ليحزنك

من العمران والقائمين بها من الامم وعدد ملوكهم واسمائهم واعمارهم ونحلهم واديانهم وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات وقد توجد هذه الدلالة من القران الاصغر اذا كان الاوسط دالا عليه فمن هذا يوجد الكلام في الدول * وقد كان يعقوب بن اسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتابا سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس وانها نهايته واشار الى انقراضها والحادثة على بغداد انها تقع في انتصاف المائة السابعة وان بانقراضها يكون انقراض الملة ولم نقف على شئ من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكو ملك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء منسوب الى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر انه وضع لبني عبد المؤمن لذكر الاولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان وانظر مانقله الطبري في اخبار المهدي عن ابي بديل من اصحاب صنائع الدولة قال بعث الى الربيع والحسن في غزاتهما مع الرشيد أيام ابيه فجئتهما جوف الليل فاذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان واذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته مامضى فاذا وقف عليه كنتم قد نعيتم اليه نفسه قالا فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله لولا اني رأيت العشرة في تلك الورقة والاربعين في هذه ما كنت أشك انها هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوما ومنثورا ورجزا ماشاء الله أن يكتبوه وبايدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة الى مشاهير من اهل الخليقة وليس منها اصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روي الراء وهي متداولة بين الناس وتحسب العامة انها من الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا انها مخصوصة بدولة لمتونة لان الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من يد موالي بني حمود وملكهم لعدوة الاندلس ومن الملاحم بيد أهل المغرب ايضا قصيدة تسمى التبعية أولها

طربت وماذاك مني طرب * وقد يطرب الطائر المغتضب
وماذاك مني للهو أراه * ولكن لتذكار بعض السبب

قريبا من خمسمائة بيت او ألف فيما يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين واشار فيها الى الفاطمي وغيره والظاهر انها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب ايضا ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها احكام القرانات لعصره العلويين والنحسين وغيرهما وذكر ميتته قتيلا بفاس وكان كذلك فيما زعموه واوله

في صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا * فافهموا يا قوم هذي الاشارا
نجم زحل اخبر بذي العلاما * وبدل الشكلا وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العماما * وشاش ازرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي * يصلب ببلدة فاس في يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادي * وقتله يا قوم على انفراد

وابياته نحو الخمسمائة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب ايضا قصيدة

الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وقال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا ثم ندبهم الى الصبر مع وجود الاذى فقال وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور فالصبر حبس النفس على الاوامر والمكاره وعن النواهي والمعاصي الاترى ان أهل الجنة نودوا فقيل لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار فاخبر الله تعالى انه آتاهم جنته بصبرهم يعني صبرتم على طاعة الله وصبرتم عن معصية الله قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي أي احبس نفسك الآية فمن امارات حسن التوفيق وعلامات السعادة الصبر في الملمات والرفق عند النوازل (وفيما يروى) ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام يا داود من صبر علينا وصل الينا (وقال سفيان) بلغنا ان لكل شئ ثمرة وثمرة الصبر الظفر قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا [illegible]وا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فعلق الفلاح على الصبر والتقوى يعني اصبروا على ماافترض الله عليكم وصابروا اعدوكم ورابطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد والثاني رابطوا على انتظار الصلوات بدليل ماروى أبو هريرة رضي

الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أدلكم على ما يحط الله به الخطايا و يرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط (وقال) الحسن فى قوله تعالى

واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال ابتلاه بالكوكب فصبر وابتلاه بذبح ابنه فصبر وقال سبحانه وتعالى استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم قال قولا عظيما فجعل نفسه مع الصابرين دون المصلين وقال النبى عليه الصلاة والسلام للانصار ما يكن عندى من خير فلن ادخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر (وقال ابن مسعود) قسم النبى صلى الله عليه وسلم قسما فقال رجل من الانصار والله انها القسمة ما اريد بها وجه الله فاخبرت النبى عليه الصلاة والسلام فشق عليه وتغير وجهه وغضب حتى وددت انى لم اكن اخبرته ثم قال قد اوذى موسى باكثر من هذا فصبر (وروى) ان النبى عليه الصلاة والسلام مر على امراة تبكى عند قبر فقال لها اتقى الله واصبرى فقالت اليك عنى فانك لم تصب بمثل مصيبتى فلما قيل لها هذا رسول الله جاءت اليه

من عروض المتقارب على روى الباء فى حدثان دولة بنى ابى حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الابار وقال لى قاضى قسنطينة الخطيب الكبير أبو على بن باديس وكان بصيرا بما يقوله وله قدم فى التنجيم فقال لى ان هذا ابن الابار ليس هو الحافظ الاندلسى الكاتب مقتول المستنصر وانما هو رجل خياط من اهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والدى رحمه الله تعالى ينشد هذه الابيات من هذه الملحمة وبقى بعضها فى حفظى مطلعها

عذيرى من زمن قلب * يغر ببارقه الاشنب

ومنها

ويبعث من جيشه قائدا * ويبقى هنالك على مرقب

فتأتى الى الشيخ اخباره * فيقبل كالجمل الاجرب

ويظهر من عدله سيرة * وتلك سياسة مستجلب

ومنها فى ذكر احوال تونس على العموم

فاما رأيت الرسوم امحت * ولم يرع حق لذى منصب

فخذ فى الترحل عن تونس * وودع معالمها واذهب

فسوف تكون بها فتنة * تضيف البرىء الى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة اخرى فى دولة بنى ابى حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان ابى يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر محمد اخيه من بعده يقول فيها

وبعد أبى عبد الاله شقيقه * ويعرف بالوثاب فى نسخة الاصل

الان هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه وكان يمنى بذلك نفسه الى ان هلك ومن الملاحم فى المغرب أيضا الملعبة المنسوبة الى الهوثنى على لغة العامة فى عروض البلدا التى اولها

دعنى بدمعى الهتان * فترت الامطار ولم تفتر

واستقت كلها الوديان * وانى غلى وتنغدر

البلاد كلها تروى * فاولى ما مبل ما تدرى

ما بين الصيف والشتوى * والعام والربيع تجرى

قال حين صحت الدعوى * دعنى نبكى ومن عذر

انادى من ذى الازمان * ذا القرن اشتد وعرى

وهى طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الاقصى والغالب عليها الوضع لانه لم يصح منها قول الا على تأويل تحرفه العامة او الحارف فيه من ينتحلها من الخاصة ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربى الحاتمى فى كلام طويل شبه الغاز لا يعلم تأويله الا الله تتخلله اوفاق عددية ورموز ملغوزة واشكال حيوانات تامة ورؤس مقطعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفى آخرها قصيدة على روى اللام والغالب انها كلها غير صحيحة لانها لم تنشأ عن اصل علمى من نجامة ولا غيرها وسمعت أيضا ان هنالك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب وليس فى شئ منها دليل على الصحة لان ذلك انما يؤخذ من القرانات ووقفت بالمشرق أيضا على ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة الى رجل من الصوفية يسمى

قوله فاما رأيت أصله فان رأيت فزيدت ما وادغمت فى ان الشرطية المحذوف نونها خطأ وفى نسخة فلما رأيت والاولى هى الموجودة فى النسخة التونسية قاله نصر اه

تعتذر انها لم تعرفه وقالت سأصبر فقال النبى عليه الصلاة والسلام انما الصبر عند الصدمة الاولى .الباجريقى
ويحتمل هذا الحديث وجهين اما الطابى فقال معناه ان الصبر المحمود عند اول نزول المصيبة وقد فاتك بالجزع واما القابسى فقال معناه

الباجريقي وكلها ألغاز بالحروف اولها

ان شئت تكشف سر الجفر ياسائلي * من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعيا حرفا وجملته * والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصري لست أذكره * لكنني أذكر الآتي من الزمن
بشهر بيبرس يبقى بحاء بعد خمستها * وحاء ميم بطيش نام في الكفن
شين له أثر من تحت سرته * له القضاء قضى أي ذلك المنن
فمصر والشأم مع ارض العراق له * وأذربيجان في ملك الى اليمن
ومنها وآل بوران لما نال طاهرهم * الفاتك الباتك المعني بالسمن
مخلع سين ضعيف السن سين اتى * لالوفاق ونون ذى قرن
قرم شجاع له عقل ومشورة * يبقى بحاء وابن بعد ذو سمن
ومنها من بعد باء من الاعوام قتلته * يلي المشورة ميم الملك ذو اللسن
ومنها هذا هو الاعرج الكلبي فامن به * في عصره فتن ناهيك من فتن
يأتي من الشرق في جيش يقدمهم * عار عن القاف قاف جد بالفتن
بقتل دال ومثل الشأم أجمعها * أبدت بشجو على الاهلين والوطن
اذا أتى زلزلت ياويح مصر من الزلزال مازال حاء غير مقتطن
طاء وظاء وعين كلهم حبسوا * هلكا ويتقي أموالا بلاثمن
يسير القاف قافا عند جمعهم * هون به ان ذاك الحصن في سكن
وينصبون أخاه وهو صالحهم * لاسلم الالف سين لذاك بني
تمت ولايتهم بالحاء لا أحد * من السنين يداني الملك في الزمن

يقال انه أشار الى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر

يأتي اليه أبوه بعد هجرته * وطول غيبته والشظف والزون

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعتها كان في القديم كثيرا ومعروف الانتحال (حكى) المؤرخون لاخبار بغداد أنه كان بها أيام مقتدر وراق ذكى يعرف بالدانيالي يبل الاوراق ويكتب فيها بخط عتيق برمز فيه بحروف من أسماء اهل الدولة ويشير بها الى مايعرف ميلهم اليه من أحوال الرفعة والجاه كانها ملاحم ويحصل على مابيده منهم من الدنيا وأنه وضع في بعض دفاتره ميم مكررة ثلاث مرات وجاء به الى مفلح مولى المقتدر فقال له هذا كناية عنك وهو مفلح مولى المقتدر وذكر عنه مايرضاه وينال من الدولة ونصب لذلك علامات يموه بها عليه فبذل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير ابن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولا فجاءه باوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة للثاني عشر من الخلفاء وتستقيم الامور على يديه ويقهر الاعداء وتعمر الدنيا في أيامه وأوقف مفلحا هذا على الاوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه الى دانيال فأعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الامور والعلامات الى ابن وهب وكان ذلك سببا لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الالغاز والظاهر ان هذه الملحمة التي ينسبونها الى الباجريقي من هذا النوع * ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار

ان الصدمة الاولى وقت امرها النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر وكان هذا تعليما لكل من فاته الصبر بذهول اونسيان اوغلبة (ويروى) ان النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة (وفي منثور الحكم) قالت الصحة انا لاحقة بأرض المغرب قال الجوع وانا معك قال الايمان انا لاحق بارض الحجاز قال الصبر انا معك قال الملك انا لاحق بارض العراق قال القتل انا معك (واعلم) ان العجلة خرق ومخرجها من قلة العقل واخرق من ذلك التفريط في الامر بعد القدرة ومثل ذلك كالقدر على النار ان كان ماؤه قليلا غلت بيسير من النار وان كانت مملوءة لم تغل حتى تكثر نارها وتطول مدتها وفي كتاب جاويدان خرد وليس للعجم كتاب مثله قال محرم على السامع تكذيب القائل الا في ثلاث هن غير الحق صبر الجاهل على مضض المصيبة وعاقل أبغض من أحسن اليه وحماة أحبت كنة *(فصل)* واعلم ان الصبر على أقسام صبر على ماهو كسب للعبد وصبر على ماليس بكسب فالصبر على الكسب على قسمين صبر على ما أمر الله تعالى به وصبر على مانهى الله عنه فاما الصبر على ماليس بكسب للعبد فكصبره على مقاساة مايتصل به من حكم الله تعالى فيما له فيه مشقة وينقسم من وجه آخر على اربعة اقسام فأول أقسامه وأولاها الصبر على امتثال امر الله سبحانه والانتهاء عما نهى عنه والثاني الصبر على مافات ادراكه من مسرة أوتقضت اوقاته من مصيبة والثالث الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها ويخشى حدوثه من رهبة يخافها والرابع

الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف وجميع اقسامه محمود بكل لسان وفي كل ملة وعند كل أمة مؤمنة او كافرة (وقال أكثم بن صيفي) من صبر ظفر (وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه) الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو

المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب اليه من الصوفية وهو الباجربقي وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية وكان يحدث عما يكون بطريق الكشف ويومي الى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم وربما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو أمر ممتنع اذ الرز انما يهدي الى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

(الفصل الرابع من الكتاب الاول)
في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق

(فصل) في أن الدول اقدم من المدن والامصار وانها انما توجد ثانية عن الملك وبيانه ان البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضا فالمدن والامصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج الى اجتماع الايدي وكثرة التعاون وليست من الامور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطرارا بل لابد من اكراههم على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعصا الملك او مرغبين في الثواب والاجر الذي لا يفي بكثرته الا الملك والدولة فلا بد في تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم اذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية والارضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فان كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وان كان امد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح الى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها * ذكر الخطيب في تاريخه ان الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لافراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الاسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فاما ان يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال لان أهل البداوة اذا انتهت أحوالهم الى غاياتها من الرفه والكسب تدعو الى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والامصار ويتأهلون وأما اذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيأ فشيأ الى أن يبذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الاولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قرارا وكرسيا يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد احوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمرا آخر كما وقع

(وقال اردشير) الصبر الدرك (وقال) عليه الصلاة والسلام الصبر ضياء وبالصبر يتوقع الفرج (وقال) عليه الصلاة والسلام الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب (وقال ابن عباس) أفضل العدة الصبر عند الشدة (وقال عبد الحميد الكاتب) لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو كان الصبر والشكر مطيتين ما باليت أيهما ركبت (وقال) بعض الحكماء بالصبر على مواقع المكروه تدرك الحظوظ (وقال) ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام أصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون قوي الجسد على الكد والعمل فان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور محتملا ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا (وفي منثور الحكمة) من أحب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا (وقال) بزرجمهر لم أر ظهيرا على نقل الدول كالصبر ولا مذلا للحساد كالتحمل ولا مكسبة للاجلال كتوقي المزاح ولا مجلبة للمقت كالاعجاب ولا منافية للمروءة كاستعمال الهزل في موضع الجد (فاما القسم الاول) وهو الصبر على امتثال أوامر الله تعالى والانتهاء عن محارمه فبه يصح اداء الفرائض واستكمال السنن ويدخل في قوله تعالى انما يوفى الصابرون

بفاس

بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢ *(فصل في أن الملك يدعو الى نزول الامصار)*

وذلك ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار لامرين احدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وحط الاثقال واستكمال ما كان ناقصا من امور العمران في البدو والثاني دفع ما يتوقع على الملك من امر المنازعين والمشاغبين لان المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سموا اليه من أيديهم فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصابة انما احتيج اليها في الحرب للثبات لما يقع من بعد كرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون الى كبير عصابة ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت في عضد الامة التي تروم الاستيلاء ويخضد شوكة استيلائها فاذا كانت بين أجنابهم امصار انتظموها في استيلائهم للامن من مثل هذا الانخرام وان لم يكن هنالك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم اولا وحط أثقالهم وليكون شجا في حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم فتعين ان الملك يدعو الى نزول الامصار والاستيلاء عليها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

٣ *(فصل في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير)*

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها وذلك أن تشييد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في ذلك في أكثر الامر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس اذا نظر الى آثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى واهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب انما كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم اجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الاجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عيانا واكثر آثار الاقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة الى قوم عاد لتوهمهم ان مباني عاد ومصانعهم انما عظمت لعظم اجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الامم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كايوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بافريقية والصنهاجيين وأثرهم باد الى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الاغالبة في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان ابي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بازاء تلمسان وكذلك الحنايا التي جلب اليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضا لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت الينا أخبار أهلها قريبا وبعيدا وتيقنا انهم لم يكونوا بافراط في مقادير أجسامهم وانما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة الى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها

أجرهم بغير حساب ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد (وقال الجنيد) المسير من الدنيا سهل هين على المؤمن وهجر الخلق في جنب الله شديد والمسير من النفس الى الله شديد والصبر مع الله تعالى شديد وسئل عن الصبر فقال تجرع المرارة من غير تعبيس (وكان حبيب بن أبي حبيب) اذا قرأ هذه الآية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب بكى ثم قال واعجباه أعطى وأثنى (وقال الخواص) الصبر الثبات على احكام الكتاب والسنة (وقال عبد الواحد بن زيد) من نوى الصبر على طاعة الله تعالى صبره الله تعالى عليها وقواه ومن عزم على الصبر عن معصية الله تعالى أعانه الله تعالى وعصمه منها (وقال عمر بن عبد العزيز) للقاسم بن محمد أوصني فقال القاسم عليك بالصبر في مواضع الصبر (وقال الحسن) الصبر صبران صبر عند المصيبة وصبر عما نهى الله عنه وهو الافضل وانما يختلف الصبر بالخوف والرجاء فان من خاف شيأ صبر على الفرار منه وصبر عند الكراهية لما يحذر من ضرره ومن رجا شيأ صبر على طلبه لظفر به (وأما القسم الثاني) وهو الصبر على ما فات ادراكه من مسرة أو نقضت أوقاته من مصيبة فانه يتعجل به الراحة مع اكتساب المثوبة فان صبر طائعا استراح واحرز الثواب وان لم يصبر حمل الهم والوزر (وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه) للاشعث بن قيس ان تجزع فقد استحق ذلك منك بالرحم وان تصبر ففي ثواب الله تعالى خلف من ابنك ان تصبر جرى عليك القلم وأنت مأجور وان جزعت جرى عليك

على المتعاهد وانهم لما يغلون فيما يعتقدون من ذلك حتى انهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريا فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الارض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وانما هي كوكب مضيء لا مزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد

٤ *(فصل في أن الهياكل العظيمة جدا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة)*

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشرية وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج الى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة الى ان تتم فيبتدئ الاول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الايدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلا للعيان يظنه من يراه من الآخرين انه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وان الذي بناه سبأ بن يشجب وساق اليه سبعين واديا وعاقه الموت عن اتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها وتأسيسها فاذا لم يتبع اثره من بعده من الملوك في اتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك ايضا انا نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع ان الهدم ايسر من البناء بكثير لان الهدم رجوع الى الاصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الاصل فاذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا ان القدرة التي أسسته مفرطة القوة وانها ليست أثر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في ايوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث الى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيره في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لاهل ذلك الهيكل فاتهمه في النصيحة وقال اخذته النعرة للعجم والله لاصرعنه وشرع في هدمه وجمع الايدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الخل حتى اذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيره ثانيا في التجافي عن الهدم فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك لئلا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه وكذلك اتفق للمأمون في هدم الاهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نقبه فانتهوا الى جو بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهنالك كان منتهى هدمهم وهو الى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازا بين تلك الحيطان والله اعلم وكذلك حنايا المعلقة الى هذا العهد تحتاج اهل مدينة تونس الى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الايام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها الا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباي كثيرا والله خلقكم وما تعملون

٥ *(فصل فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة)*

(اعلم) ان المدن قرار يتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من

القلم وأنت مأزور ونظمه أبو تمام فقال   وقال علي في التعازي لاشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم   أتصبر للبلوى عزاء وحسبة * فتؤجر أم تسلو سلو البهائم   خلقنا رجالا للتجلد والعزا * وتلك الايامى للبكا والمآتم (وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل ان صبرت مضى أمر الله وكنت مأجورا وان جزعت مضى أمر الله وكنت مأزورا (وقال الحسن) والله لو كلفنا الجزع ما قنا به فالحمد لله الذي آجرنا على ما لو نهانا عنه لصرنا اليه وعن هذا قالت الحكماء الجزع أتعب من الصبر ففي الجزع التعب والوزر وفي الصبر الراحة والاجر ولو صور الصبر والجزع لكان الصبر أحسن صورة وأكرم طبيعة وكان الجزع أقبح صورة وأخور طبيعة ولكان الصبر أولاهما بالغلبة لحسن الخلقة وكرم الطبيعة (وقال بعض العلماء) لو وكل الناس بالجزع للجؤا الى الصبر (وقال) شبيب بن شيبة للمهدي ان المرء أحق ما صبر عليه ما لم يجد سبيلا الى دفعه وأنشد

وإذا تصبك مصيبة فاصبر لها
عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

(وقال آخر)

وعوضت أجرا من فقيد فلا تكن
فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

(وقال) بعض الحكماء ليس بمجموع له الرشد من تابع التلهف على فائت أو أكثر الفرح عند مستطرق طوارقها
(وقال) الحكيم ان كنت جازعا على ما تفلت من يديك فاجزع على ما لم يصل اليك ومن أيقن أن كل فائت الى نقصان حسن عزاؤه عند

نزول القضاء (وقال الشاعر) اذا طال بالمحزون أيام صبره * كساه صنا طول المقام على الصبر ولا شك ان الصبر محمد غبه *
ولكن انفاقي عليه من العمر (وقال بعض القدماء) الصبر على أربع مراتب على الشوق والاشفاق والزهد والترقب

طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فأما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وان يكون وضع ذلك في متمنع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة بحر او نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا او مجاورا للمياه الفاسدة او مناقع متعفنة او مروج خبيثة اسرع اليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بافريقية فلا يكاد ساكنها او طارقها يخلص من حمى العفن بوجه ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه اناء من نحاس مختوم بالرصاص فلما فض ختامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه وأراد بذلك ان الاناء كان مشتملا على بعض أعمال الطلسمات لوبائه وانه ذهب سره بذهابه فرجع اليها العفن والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعه والذي يكشف لك الحق في ذلك ان هذه الاهوية العفنة أكثر ما يهيئها لتعفين الاجسام وأمراض الحميات ركودها فاذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يمينا وشمالا خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات والبلد اذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معينا له على الحركة والتموج واذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه وبقي ساكنا راكدا وعظم عفنه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عند ما كانت افريقية مستبحرة العمران كثيرة الساكن تموج باهلها موجا فكان ذلك معينا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض فهذا وجهه لا غير وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولا قليلة الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد ما قلته لك وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بازائها عيون عذبة ثرة فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم اذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى فاذا كان قريبا طيبا كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده ومما يراعى أيضا المزارع فان الزروع هي الاقوات فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فان الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والخشب أيضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم وقد يراعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية الا ان ذلك ليس بمثابة الاول وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو اليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي أو انما يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لاول الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية فانهم لم

فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات ومن راقب الموت اقصر عن الخطيئات (وأما القسم الثالث) وهو الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها او يخشى حدوثه من رهبة يخافها فالصبر والتلطف تدفع عادية ما يخاف وينال نفع ما يرجو (قال) النبي عليه السلام انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة (وقال محمد بن بشير)

ان الامور اذا اشتدت مسالكها
فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبه
اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته
ومدمن القرع للابواب ان يلجا

(وقال بعض الرواة) دخلت مدينة يقال لها اذفا رفبينا انا أطوف في خرابها اذ رأيت مكتوبا على قصر خراب

يا من ألح عليه الهم والفكر
وغيرت حاله الايام والغير
اما سمعت بما قد قيل في مثل
عند الاياس فاين الله والقدر *
نم للخطوب اذا أحداثها طرقت *
واصبر فقد فاز أقوام بما صبروا
فكل ضيق سيأتي بعده سعة *
وكل فوت وشيك بعده الظفر

(وتحته مكتوب بخط آخر) لو كان كل من صبر أعقب الظفر صبرت ولكنا نجد الصبر في العاجل يفني العمر

ويدفنى من القبر ما كان أصلح لذى العقل موته وهو طفل والسلام (قلت) لو رأيته لكنت تحثه فى الصبر استعمال الراحة وانتظار الفرج وحسن الظن بالله وأجر بغير حساب وفى الجزع استعمال الهم ونهك البدن واستشعار الخيبة وسوء الظن بالله وحل الاثم

يراعوا فيها الا الاهم عندهم من مراعى الابل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها ولهذا كانت أقرب الى الخراب لما لم تراع فيها الامور الطبيعية

(فصل) ومما يراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر ان تكون فى جبل او تكون بين امة من الامم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب فى ذلك ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت فى غرة للبيات وسهل طروقها فى الاساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنعير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها فى هضاب الجبال وعلى أسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريخها كما فى سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره فى اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع ان الدعوة من ورائها ببرقة وافريقية وانما اعتبر فى ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس فى الملة مرات متعددة والله تعالى أعلم

(فصل فى المساجد والبيوت العظيمة فى العالم)

(اعلم) ان الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الاجور وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم *وكانت المساجد الثلاثة هى أفضل بقاع الارض حسبما فى الصحيحين وهى مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام الذى بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وان يؤذن فى الناس بالحج اليه فبناه هو وابنه اسمعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه وسكن اسمعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى ان قبضهما الله ودفنا بالحجر منه *وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواليه *والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف فى تربتها فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفى الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب فى مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر الى شئ من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها الى ان كمل ظهورها فى العالم *(فأما مكة) فأوليتها فيما يقال ان آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وانما اقتبسوه من محل الآية فى قوله واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ثم بعث الله ابراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف واوحى الله اليه ان يترك ابنه اسمعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما فى مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من اللطف فى نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا اليهما ونزلوا معهما حوالى زمزم كما عرف فى موضعه فاتخذ اسمعيل بموضع الكعبة بيتا يأوى اليه وادار عليه سياجا من الردم وجعله زربا لغنمه وجاء ابراهيم صلوات الله عليه مرارا لزيارته من الشأم أمر فى آخرها ببناء الكعبة

مع العقوبة وما أحسن بذى العقل اجتناب هذا والسلام (وقال بعض البلغاء) من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعماء (وقال الشاعر)

الصبر مفتاح كل خير
وكل شر به يهون
اصبر وان طالت الليالى
فربما ساعد الحرون
وربما نيل باصطبار
ما قيل هيهات لا يكون

(وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله) ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه صبرا الا كان ما عوضه أفضل مما انتزعه منه وقرأ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (وروى) ان جارية كانت لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه تتصرف فى حوائجه فكلما خرجت تصدى لها خياط كان بقرب دار على ويقول لها والله انى لأحبك لله فلما أكثر من ذلك شكته الى على فقال لها على اذا قال لك مرة أخرى فقولى له والله انى لاحبك فما الذى تريد فعاد فقال لها ذلك فقالت له وأنا والله احبك فيه فقال لها تصبرين واصبر حتى يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فرجعت الجارية وأخبرت مولاها فدعا على رضى الله عنه الخياط فوجد امرءا على الصحة فوهبها مكان له مع نفقة يستعينان بها (وقال) على رضى الله عنه الصبر كفيل بالنجاح والتوكل لا يخيبه والعاقل لا يذل باول نكبة ولا يفرح باول رفعة

مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس الى حجه وبقي اسمعيل سا كنابه ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بامر البيت مع اخوالهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل أفق من جميع اهل الخليقة لامن بني اسمعيل ولامن غيرهم ممن دنا اونأى فقد نقل ان التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وان تبعا كساها الملاء والوصائل وامر بتطهيرها وجعل لها مفتاحا ونقل أيضا ان الفرس كانت تحجه وتقرب اليه وان غزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابينهم ولم يزل لجرهم الولاية عليه من بعد ولد اسمعيل من قبل خؤلتهم حتى اذا خرجت خزاعة واقاموا بها بعدهم ماشاء الله ثم كثر ولد اسمعيل وانتشروا وتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على امره واخرجوهم من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل وقال الاعشى

خلفت بثوبي راهب الدور والتي * بناها قصي والمضاض بن جرهم

ثم اصاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم واعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من اموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا اخشبها للسقف وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالارض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة اذرع وشبرا أداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر وبقي البيت على هذا البناء الى ان تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت اليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين ابن نمير السكوني ورمى البيت سنة اربع وستين فاصابه حريق يقال من النفط الذي رموا به على ابن الزبير فاعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلفت عليه الصحابة في بنائه واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابراهيم ولجعلت له بابين شرقيا وغربيا فهدمه وكشف عن اساس ابراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والاكابر حتى عاينوه واشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس فادار على الاساس الخشب ونصب من فوقها الاستار حفظا للقبلة وبعث الى صنعاء في الفضة والكلس فحملها وسأل عن مقطع الحجارة الاول فجمع منها ما احتاج اليه ثم شرع في البناء على اساس ابراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصقين بالارض كما روى في حديثه وجعل فرشها وازرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب * ثم جاء الحجاج لحصاره ايام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات الى أن تصدعت حيطانها ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت فامره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال انه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت اني كنت حملت ابا خبيب في امر البيت وبنائه ماتحمل فهدم الحجاج منها ستة اذرع وشبرا مكان الحجر وبناها على اساس قريش وسد الباب الغربي وماتحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي وترك سائرها لم يغير منه شيأ فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان بلحمة ظاهرة بين البناءين والبناء متميز عن البناء بمقدار أصبع شبه الصدع وقد لحم * ويعرض ههنا اشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في امر الطواف ويحذر الطائف ان يميل على الشاذروان الدائر على اساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على ان الجدر انما قامت على بعض الاساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الاسود لابد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائما لئلا

وكان يقال الصبر سلامة والطيش ندامة (وأما القسم الرابع) وهو الصبر على مانزل من مكروه اوحل من أمر مخوف فالصبر فيه تنفتح وجوه الآراء وتتوقى مكايد الاعداء قال الله تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال تعالى واصبر وما صبرك الابالله وقال تعالى واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور وروى ابن عباس ان النبي عليه السلام قال ان استطعت ان تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ماتكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب واليسر مع العسر (وقال علي رضي الله عنه) الصبر مناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان * وقال الحكيم بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور (وأنشدوا)

انما أجزع ممـا أتقي
فاذا حل فمالي والجزع

ولما حبس أبو أيوب في الحبس خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وقل صبره وكتب الى بعض اخوانه يشكو طول حبسه وقلة صبره فرد عليه جواب رقعته

صبرا أبا أيوب صبر مبرح
فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذي عقد الذي انعقدت به
عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة
فلعلها ان تنجلي ولعلها

فلما وقف عليها أبو أيوب كتب اليه

صبرتني ووعظتني فانا لها * وستنجلي بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها

فما لبث بعد ذلك الا أياما حتى أطلق مكرما (ولتميم بن المعز)

سأسكت صبرا واحتسابا فانني *

أري الصبر سيفنى النفس فيه فأول عذابي ان اشكو الى الناس انني * عليل ومن أشكو اليه عليل وان الذي يشكو الى غير نافع *
و يصغو عما في نفسه لجهول

(وأنشدوا) دع الدهر يجري بأقداره * و يقضي عجائب أوطاره

يقع بعض طوافه داخل البيت واذا كان الجدران كلاهما من بناء ابن الزبير وهو انما بنى على اساس ابراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من هذا الا باحد أمرين اما ان يكون الحجاج هدم جميعه واعاده وقد نقل ذلك جماعة الا ان العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من اعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك واما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على اساس ابراهيم من جميع جهاته وانما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد ابراهيم وهذا بعيد ولا محيص من هذين والله تعالى اعلم ثم ان مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وابي بكر من بعده ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دورا هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جدارا دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعمد الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا * وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به اكثر من ان يحاط به وكفى من ذلك أن جعله مهبطا للوحي والملائكة ومكانا للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه واوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره فمنع كل من خالف دين الاسلام من دخول ذلك الحرم واوجب على داخله ان يتجرد من المخيط الا ازارا يستره وحمى العائذ به والراتع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال الى التنعيم ومن طريق العراق سبعة أميال الى الثنية من جبل المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال الى بطن نمرة ومن طريق جدة سبعة أميال الى منقطع العشائر * هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها أيضا بكة قال الاصمعي لان الناس يبك بعضهم بعضا اليها اي يدفع وقال مجاهد باء بكة أبدلوها ميما كما قالوا لازب ولازم لقرب المخرجين وقال النخعي بالباء البيت وبالميم البلد وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث اليه بالاموال والذخائر كسرى وغيره وقصة الاسياف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر لابي بكر فلم يحركه هكذا قال الازرقي وفي البخاري بسنده الى أبي وائل قال جلست الى شيبة بن عثمان وقال جلس الى عمر بن الخطاب فقال هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت ما أنت بفاعل قال ولم قلت لم يفعله صاحباك فقال هما اللذان يقتدى بهما وخرجه ابو داود وابن ماجه واقام ذلك المال الى ان كانت فتنة الافطس وهو الحسن بن الحسين بن علي بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكة عمد الى الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به نحن احق به نستعين به على حربنا واخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ *(وأما بيت المقدس)* وهو المسجد الاقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزهرة وكانوا يقربون اليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على الصخرة التي هناك ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم وذلك ان موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني اسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم

اسرائيل

وتم نومة عن ولاة الامور
وخل الزمان بتدواره
فانك ترحم من قد غبطت
وتعجب من قبح آثاره
(وأنشدني بعضهم)
ويمنعني بالشكوى الى الناس أنني
عليل ومن أشكو اليه عليل
ويمنعني الشكوى الى الله أنه
عليم بما ألقاه قبل أقول
(ولآخر)
اذا ابتليت فثق بالله وارض به
ان الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه
لا تيأسن فان الصانع الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته
ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
وصرف من هذه اللفظة صابر وصبور وصبار ومتصبر فالمتصبر من صبر في الله على المكاره فتارة يعجز وتارة يصبر والصابر من لا يشكو ولا يعجز والصبار الذي لو دفع عليه جميع البلايا والمحن لم يتغير وجهه في الحقيقة وان تغير من وجهه الرسم والبشرية والخلقة كما قال القائل
صابر الصبر فاستغاث به الصبر
فصاح الصبور يا صبر صبرا
وهذا أقوى بيت قيل في الصبر واحسنه وقريب منه قول القائل صبرت على الايام صبرا أصارني * الى ان ينادي الحال لا صبر للصبر والصبور هو الثابت على هذه المقامات وقيل اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق باخلاق

اسرائيل وأباه اسحق من قبله واقاموا بارض التيه امره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عين بالوحي مقدارها وصفتها وهيآ كلها وتماثيلها وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها وأن يصنع مذبحا للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الالواح المصنوعة عوضا عن الالواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها وعهد الله الى موسى بان يكون هرون صاحب القربان ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون اليها ويتقربون في المذبح امامها ويتعرضون للوحي عندها ولما ملكوا الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة ببيت المقدس وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به الى ابنه سليمان فبناه لاربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله واوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب وجعل في ظهره قبرا ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الالواح وجاء به من صهيون بلد أبيه داود تحمله الاسباط والكهونية حتى وضعه في القبر ووضعت القبة والاوعية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد وأقام كذلك ماشاء الله ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهياكل ونثر الاحجار ثم لما اعادهم ملوك الفرس بناه عزير نبي بني اسرائيل لعهده باعانة بهمن ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني اسرائيل عليه من سبي بختنصر وحد لهم في بنائه حدودا دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبني اسرائيل في هذه المدة ثم لبني حشمان من كهنتهم ثم لصهرهم هيردوس ولبنيه من بعده وبنى هيردوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم في الاخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى الى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانه وارتحلت الى المقدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم فأخبرها القساوسة بانه رمي بخشبته على الارض وألقي عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم وخربت ماوجدت من عمارة البيت وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح ثم بنو بازاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام وبقي الامر كذلك الى ان جاء الاسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة فأرى مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وماسبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بماشاء الله من الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفي مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد والزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها وكانت في ملكة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم زحف الفرنجة الى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها حتى اذا استقل صلاح الدين بن أيوب

وان من اخلاقي اني انا الصبور ويقال الصبر لله غنى والصبر بالله تقى والصبر في الله بلاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وانشدوا

اذا لعب الرجال بكل شئ * رأيت الحب يلعب بالرجال
وكيف الصبر عمن حل مني * بمنزلة اليمين مع الشمال

وقال المحاسبي بين الصبر والتصبر حالة هي التنعم وذلك اذا رفع الله له علما من أعلام الآخرة يدله على منازل الصابرين عنده فيتنعم القلب بسرور النعيم وقال أبو محمد الحريري الصبر هو ان لا تفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما والصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان اثقال المحنة وأنشدوا

صبرت ولم أطلع هواك على صبري
وأخفيت ما بي منك عن موضع الصبر
مخافة ان يشكو ضميري صبابتي
الى دمعتي سرا فتجري ولا أدري

وقيل للمحاسبي بماذا يقوى الصابر على صبره فقال اذا علمت ان في صبرك رضا مولاك أما سمعت قول الحكيم

رضيت وقد أرضى اذا كان مسخطي
من الامر ما فيه رضا صاحب الامر

وفي معناه

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة
وحسبي ان ترضى ويتلفني صبري

قال شيخنا وتشكلك لمن تحبه اعظم من تشكلك لنفسك هذا أيوب لما أصيب بنفسه قال مسني الضر ويعقوب لما أصيب بحبيبه قال واأسفا على يوسف قال أحمد قال لي أبو سليمان الداراني اتدري بماذا أزال العقلاء اللائمة عن أنفسهم

قلت لا قال لعلمهم بان الله تعالى ابتلاهم بذلك فصبروا و يروى ان الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه اذا أنزلت بعبد من بلائي فدعاني فماطلته بالاجابة فشكاني فقلت عبدي أرحمك من شيء به أرحمك وقيل في قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذي

الكردي ملك مصر والشام ومحا أثر العبيديين و بدعهم زحف الى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة و بنى المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد ولا يعرض لك الاشكال المعروف في الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع فقال مكة قيل ثم أي قال بيت المقدس قيل فكم بينهما قال اربعون سنة فان المدة بين بناء مكة و بين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين ابراهيم وسليمان لان سليمان بانيه وهو ينيف على الالف بكثير * واعلم ان المراد بالوضع في الحديث ليس البناء وانما المراد اول بيت عين للعبادة ولا يبعد ان يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فلعل ذلك انها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الاصنام والتماثيل حوالي الكعبة وفي جوفها والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد ابراهيم عليه السلام فلا تبعد مدة الاربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وان لم يكن هناك بناء كما هو المعروف وان اول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهمه ففيه حل هذا الاشكال * (وأما المدينة) * وهي المسماة بيثرب فهي من بناء يثرب بن مهلائيل من العمالقة وملكها بنو اسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله بها فهاجر اليها ومعه ابو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها و بنى مسجده و بيوته في الموضع الذي كان الله قد أعده لذلك وشرفه في سابق أزله وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سموا الانصار وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكة وملكها وظن الانصار أنه يتحول عنهم الى بلده فاهمهم ذلك فخاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم انه غير متحول حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم كان ملحده الشريف بها وجاء في فضلها من الاحاديث الصحيحة ما لا خفاء به ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة و به قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المدينة خير من مكة نقل ذلك عبد الوهاب في المعونة الى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو حنيفة والشافعي * وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام وجنح اليها الامم بافئدتهم من كل أوب فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها وتفهم سر الله في الكون وتدريجه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا * وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الارض الا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه وقد كانت للامم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان و بيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها في غزواته وقد ذكر المسعودي منها بيوتا لسنا من ذكرها في شيء اذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني ولا يلتفت اليها ولا الى الخبر عنها و يكفي في ذلك ما وقع في التواريخ فمن أراد معرفة الاخبار فعليه بها والله يهدي من يشاء سبحانه

٧ * (فصل في أن المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة) *

والسبب في ذلك ان هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الاسلام وكان عمرانها كله بدويا ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم من الافرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا اليها أقرب فلم تكثر مبانيهم وأيضا

لا شكوى فيه ولا بث قال أنس ما صبر من بث وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تستغزروا الدموع بالتذكر وقال الشاعر

ولا يبعث الاحزان مثل التذكر

ومما يعين على عظم الاسى وشدة الجزع تذكر المسار المنقضية وتصور المضار الذاهبة وكثرة الشكوى والاسف وقال الشاعر

لا تكثر الشكوى الى الصديق
وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق

وفي منثور الحكم المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين واعلم انه قل من صبر على شدة الا نال ما يرجوه من فرج و ينبغي لمن نزلت به مصيبة أو كان في شدة أن يسهلها على نفسه ولا يغفل عن تذكر ما يتيقنه من وجوب الفناء وتقضي المسار فان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له من صح فيها سقم ومن سقم فيها برم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتتن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب لا خيرها يدوم ولا شرها يبقى ولا فيها المخلوق بقاءه فاذا تصور حقيقتها فحينئذ يرى الحوادث سهلة والمصائب هينة وقال الشاعر

يمثل ذو اللب في نفسه * مصائبه من قبل ان تنزلا

فالصنائع

فالصنائع بعيدة عن البربر لانهم أعرق في البدو والصنائع من توابع الحضارة وانما تتم المباني بها فلابد من الحذق في تعلمها فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف الى المباني فضلا عن المدن وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والانساب والعصبية اجنح الى البدو وانما يدعو الى المدن الدعة والسكون و يصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد اهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة او الاقامة بها ولا يدعو الى ذلك الا الترف والغنى وقليل ماهو في الناس فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا اهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصارا ورساتيق من بلاد الاندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها لان العجم في الغالب ليسوا بأهل انساب يحافظون عليها و يتناغون في صراحتها والتحامها الا في الاقل وأكثر ما يكون سكنى البدو لاهل الانساب لان لحمة النسب أقرب وأشد فتكون عصبيته كذلك وتنزع بصاحبها الى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة و يصيره عيالا على غيره فافهمه وقس عليه والله سبحانه وتعالى اعلم و به التوفيق

٨ (فصل في أن المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول)*

والسبب في ذلك ماذكرناه مثله في البربر بعينه اذ العرب أيضا اعرق في البدو وابعد عن الصنائع وايضا فكانوا اجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الاسلام ولما تملكوها لم ينفسح الامد حتى تستوفي رسوم الحضارة مع انهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم وأيضا فكان الدين أول الامر مانعا من المغالاة في البنيان والاسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن احد على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة وعهد الى الوفد وتقدم الى الناس ان لا يرفعوا بنيانا فوق القدر قالوا وما القدر قال مالا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلما بعد العهد بالدين والتحرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس واخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم اليها احوال الدعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ولم ينفسح الامد لكثرة البناء واختطاط المدن والامصار الا قليلا وليس كذلك غيرهم من الامم فالفرس طالت مدتهم آلافا من السنين وكذلك القبط والنبط والروم وكذلك العرب الاولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على الايام أثرا واستبصر في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها

٩ *(فصل في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل)*

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أمس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي فانه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وانما يراعون مراعي ابلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والاهوية لانتقالهم في الارض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح انما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الا

فان نزلت بغتة لم ترعه * لما كان في نفسه مثلا رأى الامر يفضي الى آخر * فصير آخره أولا وقال بعض الحكماء من حاذر لم يخدع ومن راقب لم يهلع ومن كان متوقعا لم يلف متوجعا ومن لم يشعر نفسه ماذكرنا من أحوال الدنيا وتقضي المسار ثم الثواء في اللحود بين اطباق الترب والجنادل قد فارقه الاحباء وهجره القرباء والبعداء الفته الحوادث وابقا فسلبته الصبر وضاعفت عليه الاذى وقال ابن الرومي

أن البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف فهو غير مطاق

وأنشدوا

تعودت مس الضر حتى ألفته * واسلمني حسن العزاء الى الصبر

ووسع صدري للاذى كثرة الاذى * وان كنت احيانا يضيق به صدري

وحسن لي يأسي من الناس كلهم * لعلمي بصنع الله من حيث لا أدري

ولبعض الاعراب

تعزفان الصبر بالحر اجمل * وليس على ريب الزمان معول

فلو كان يغني ان يرى المرء جازعا * لنائبة أو كان يغني التبذل

لكان التعزي عند كل مصيبة * ونازلة بالحر أولى وأجمل

فكيف وكل ليس يعدو حمامه * وما لامرئ عما قضى الله مرحل

فان تكن الايام فينا تبدلت * ببؤس ونعمى والحوادث تفعل

فما لينت منا قناة صليبة * ولا ذللتنا للذي ليس يجمل

ولكن وجدناها نفوسا كريمة * تحمل مالا تستطيع فتحمل

وقينا بفضل الله منا نفوسنا *

مراعى ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمناه أنه يحتاج اليه فى حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن فى وسط الامم فيعمرها الناس فلاول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كان لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه

١٠ *(فصل فى مبادى الخراب فى الامصار)*

اعلم ان الامصار اذا اختطت اولا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنق كالزليج والرخام والربج والزجاج والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الاعمال حينئذ وكثرة الصناع الى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق شأنها فاذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لاجل ذلك ففقدت الاجادة فى البناء والاحكام والمعالاة عليه بالتنميق ثم تقل الاعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التى فى مبانيهم فينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء اكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولا ثم لا تزال تنقل من قصر الى قصر ومن دار الى دار الى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة فى البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة والقصور عن التنميق بالكلية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشر ويظهر عليها سيما البداوة ثم تمر فى التناقص الى غايتها من الخراب ان قدر لها به سنة الله فى خلقه

١١ *(فصل فى ان تفاضل الامصار والمدن فى كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة)*

والسبب فى ذلك انه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته فى معاشه وأنهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الاكثر من عددهم أضعافا فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه واذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرات فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم فأهل مدينة او مصر اذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف فى حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من أهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظ من الغنى وقد تبين لك فى الفصل الخامس فى باب الكسب والرزق أن المكاسب انما هى قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التأنق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها فتنفق أسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلى ذلك من قبل اعمالهم ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية

ونفقت

ما حل وفى الحديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود واعلم ان كتمان السر من الخصال المحمودة فى جميع الخلق ومن اللوازم فى حقوق الملوك ومن الفرائض الواجبة على الوزراء وجلساء الملوك والاتباع قال على رضى الله عنه سرك أسيرك فاذا تكلمت به صرت أسيره واعلم ان أمناء الاسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من أمناء الاموال وحفظ الاموال أيسر من كتم الاسرار فان أحراز الاموال منيعة بالابواب والاقفال وأحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وعبء الاسرار أثقل من عبء الاموال وان الرجل يستقل بالحمل الثقيل يحمله ويمشى به ويقله ولا يستطيع كتم السر وان الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه بحمل الاثقال فاذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره وكأنما ألقى عن نفسه حملا وقال عمر بن عبد العزيز القلوب أوعية والشفاه أقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن أعجب الامور ان اغلاق الدنيا كلما كثرت خزانها كان أوثق لها الا السر فانه كلما كثر خزانه كان أضيع له وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن من سطواته قال انوشروان من

حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وقال بعض الحكما سرك من دمك فلا تجره في غير أوداجك
فاذا تكلمت به فقد أرقته وكان لعثمان بن عفان رضي الله عنه كاتب يقال له حمران فاشتكى عثمان فقال اكتب العهد

ونفقت سوق الاعمال بها أكثر من الاول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لان الاعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصلية التي تختص بالمعاش فالمصر اذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعوائده من الترف لا توجد في الآخر فما كان عمرانه من الامصار أكثر وأوفر كان حال اهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الاصناف القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والامير مع الامير والشرطي مع الشرطي واعتبر ذلك في المغرب مثلا بحال فاس مع غيرها من امصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاضي بفاس اوسع من حال القاضي بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف اهله وكذا أيضا حال تلمسان مع وهران او الجزائر وحال وهران والجزائر مع مادونهما الى أن تنتهي الى المداشر الذين اعتمالهم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها وماذاك الا لتفاوت الاعمال فيها فكأنها كلها أسواق للاعمال والخرج في كل سوق على نسبته فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الاحوال أعظم وهم بفاس أكثر لنفاق سوق الاعمال بما يدعو اليه الترف فالاحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه الى الامصار التي لا توفي أعمالها بضروراتها ولا تعد في الامصار اذ هي من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجد اهل هذه الامصار الصغيرة ضعفاء الاحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم ولا يفضل ما يتأثلونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مساكين محاويج الا في الاقل النادر واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال فان السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أووهران ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الاضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا من احوال الترف واقتراح المآكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أووهران لاستنكر وعنف وزجر ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضي منه العجب حتى ان كثيرا من الفقراء بالمغرب ينزعون من النقلة الى مصر لذلك ولما يبلغهم من ان شأن الرفه بمصر اعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس ان ذلك لزيادة ايثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وايثارا من جميع أهل الامصار وليس كذلك وانما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الامصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم * وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ في جميع الامصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر كل شئ يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف تختلف احوالها في هجرانها وغشيانها فان بيوت اهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنيتها بنثر الحبوب وسواقط الفتات فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش ويحلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانا وتمتلئ شبعا وريا وبيوت اهل الخصاصة والفقراء الكاسدة ارزاقهم لا يسري بساحتها دبيب ولا يحلق بجوها طائر ولا تأوي الى زوايا بيوتهم فارة ولا هرة كما قال الشاعر

تسقط الطير حيث تلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الاناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات

بعدي لعبد الرحمن بن عوف فقال حمران لعبد الرحمن البشرى فقال عبد الرحمن لك البشرى بماذا فأخبره الخبر فانطلق عبد الرحمن فاخبر عثمان فقال عثمان أعاهد الله أن لا يساكنني حمران أبدا ونفاه الى البصرة فلم يزل بها حتى قتل عثمان رضي الله عنه واعلم ان كتمان الاسرار يدل على جواهر الرجال وكما انه لا خير في آنية لا تمسك مافيها فلا خير في انسان لا يمسك سره ويروى ان رجلا أودع سره عند رجل فقال له افهمت قال بل جهلت قال احفظت قال بل نسيت وقيل لبعضهم كيف كتمك للسر قال اجحد المخبر واحلف للمستخبر وقال الشاعر

ولو قدرت على كتمان ما اشتملت
مني الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت أول من يخفي سرائره
اذ كنت من نشرها يوما على خطر

قال شيخنا ومن أحسن شئ سمعته في كتمان السر ما أنشدنيه بعض فقهاء البصرة بالبصرة فقال

ولها سرائر في الضمير طويتها
نسي الضمير بأنها في طيه

وفي معناه

ومستودعي سرا كتمت مكانه * عن الحس خوفا ان ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهرة * فاودعته في حيث لا تبلغ النفس

قال العتبي أسر معاوية رضي الله عنه الى عثمان بن عنبسة

حديثا فقلت لابى ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا أفاحدثك به قال لا من كتم حديثا كان الخيار له ومن أظهره كان الخيار عليه فلا تجعل نفسك مملوكا بعد أن كنت مالكا قالت يا أبت أفيدخل هذا بين الرجل وأبيه قال لا يا بني ولكن أكره ان تذلل لسانك بافشاء

الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الاكثر لوجود أمثالها لديهم واعلم ان اتساع الاحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرته والله سبحانه وتعالى اعلم وهو غني عن العالمين

١٢ *(فصل في اسعار المدن)*

اعلم ان الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الاقوات من الحنطة وما في معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجي والكمالي مثل الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضروري من القوت وما في معناه وغلت اسعار الكمالي من الادم والفواكه وما يتبعها واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها اذ كل احد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها اهل المصر أجمع أو الاكثر منهم في ذلك المصر او فيما اقرب منه لا بد من ذلك وكل متخذ لقوته فتفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسد خلة كثير من أهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب الا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران وأما سائر المرافق من الادم والفواكه وما اليها فانها لا تعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها اعمال اهل المصر أجمعين ولا الكثير منهم ثم ان المصر اذا كان مستبحرا موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها على الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الاغراض ويبذل اهل الرفه والترف أثمانها باسراف في الغلاء لحاجتهم اليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه * وأما الصنائع والاعمال ايضا في الامصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها امور ثلاثة الاول كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه والثاني اعتزاز أهل الاعمال لخدمتهم وامتهان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم الى امتهان غيرهم والى استعمال الصناع في مهنهم فيبذلون في ذلك لاهل الاعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات اهل المصر في ذلك * وأما الامصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه واما مرافقهم فلا تدعو اليها ايضا حاجة بقلة الساكن وضعف الاحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل ايضا في قيمة الاقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الاسواق وابواب المصر والجباة في منافع وصولها عن البيوعات لانفسهم وبذلك كانت الاسعار في الامصار اغلى من الاسعار في البادية اذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم او معدومة وكثرتها في الامصار لا سيما في آخر الدولة وقد تدخل ايضا في قيمة الاقوات قيمة علاجها في الفلح ويحافظ على ذلك في اسعارها كما وقع بالاندلس لهذا العهد وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى الى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الارض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا الى علاج المزارع والفدن لاصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج باعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم واختص قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطرهم

النصارى

السر قال فحدثت به معاوية فقال اعتقك أخي من رق الخطا وقيل لبعض الملوك ما أصعب الاشياء على الانسان قال ان يعرف نفسه و يكتم سره وقال قيس بن الحطيم

أجود بمكنون التلاد وانني ... بسرك عمن سالني لضنين
اذا جاوز الاثنين سر فانه ... بنث وتكثير الوشاة قمين
وان ضيع الاقوام سرا فانني ... كتوم لاسرار العشير أمين
يكون له عندي اذا ما ضمنته ... مكان سويداء الفؤاد مكين

قال شيخنا قالت الناس يقولون أرادوا بالاثنين المودع والمودع ولا يبعد أن يريد به الشفتين وكان يقال أصبر الناس من صبر على كتمان سره فلم يبده لصديقه فيوشك ان يصير عدوا وقد روى في الحديث عن النبي عليه السلام أنه قال اذا حدث الرجل الرجل ثم التفت فهي امانة قالت واذا كانت امانة حرمت فيها الخيانة كالامانة في الاموال وقال ابو بكر بن حزم انما يتجالس المتجالسان بامانة الله فلا يحل لاحدهما ان يفشي على صاحبه ما يكره وقال هشام بن عروة ما من رجل ينتقص من امانته الا نقص ايمانه وقال جعفر بن عثمان

يا ذا الذي اودعني سره * لا ترج ان تسمعه مني
لم أجره قط على فكرتي * كانه لم يجر في اذني

وكان عمرو بن العاص يقول ما افشيت سري الى رجل فافشاه

على فلمته اذا كان صدري أضيق به وقال الاحنف بن قيس يضيق صدر احدهم بسره حتى يحدث به ثم يقول اكتمه علي وفي منثور الحكم انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون وأنشدوا

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه *

النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواحلها الاجل ذلك و يحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار في قطرهم انها لقلة الاقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم اكثر أهل المعمور فلحا فيما علمناه واقومهم عليه وقل ان يخلو منهم سلطان أوسوقة عن فدان أو مزرعة او فلح الاقليل من أهل الصناعات والمهن او الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع وانما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب ارضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته وعمومه فصار ذلك سببا لرخص الاقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه

١٣ *(فصل في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران)*

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الاعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها من أجل الترف وبالمغارم السلطانية التي توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والاقوات والأعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوي لم يكن دخله كثيرا اذ كان ساكنا بمكان كاسد الاسواق في الاعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأثل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدوه يسد خلته باقل الاعمال لانه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر الى المال وكل من يتشوف الى المصر وسكناه من أهل البادية فسريعا ما يظهر عجزه و يفتضح في استيطانه الامن يقدم منهم تأثل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجري الى الغاية الطبيعية لاهل العمران من الدعة والترف فحينئذ ينتقل الى المصر وينتظم حاله مع احوال أهله في عوائدهم وترفهم وهكذا شأن بداية عمران الامصار والله بكل شئ محيط

١٤ *(فصل في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار)*

(اعلم) ان ما توفر عمرانه من الاقطار وتعددت الامم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما سيأتي ذكره من انها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسبا يتأثلونه حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فيتزيد الرفه لذلك وتتسع الاحوال ويجيء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الاسواق فيكثر مالها و يشمخ سلطانها وتتفنن في اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد الامصار واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الامم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع احوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف وكذا تجار اهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند والصين فانه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها وربما تتلقى بالانكار في غالب الامر

فصدر الذي يستودع السر أضيق

وفي منثور الحكم من أفشى سره كثر عليه المتآمرون

وقال الشاعر

وسرك ما كان عند امرئ
وسر الثلاثة غير الخفي

(وقال آخر)

ولا تنطق بسرك كل سر
اذا ما جاوز الاثنين فاشي

(وقال آخر)

تبوح بسرك ضيقا به
وتبغي لسرك من يكتم
وكتمانك السر فيما تخاف
وفيما تحاذره أحزم
اذا ذاع سرك من مخبر
فانت اذا لمته الوم

(وقال آخر)

اذا ما ضاق صدرك من حديث
وأفشته الرجال فمن تلوم
وان عاتبت من أفشى حديثي
وسري عنده فانا الملوم

وقال الحكيم ما كتمته من عدوك فلا تطلعن عليه صديقك فان لم يكن لك بد من اذاعته لقرينة تقتضيه من صديق مساهم او استشارة ناصح مسالم فن صفات أمين الاسرار أن يكون ذا عقل ودين ونصح ومروءة فان هذه أمور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة ومن كملت فيه فهو عنقاء مغرب ولا تودع سرك عند من يستدعيه فان طالب الوديعة خائن قال صالح بن عبد القدوس لا تذع سرا الى طالبه منك فالطالب للسر مذيع وفي الجملة اذا زال سرك من عذبة لسانك فالاذاعة مستولية عليه وان أودعته قلب ناصح محب

و يحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في اموالهم أو لان المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم أو لان ذهب الاقدمين من الامم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان وهي الى المغرب أقرب وجميع ما في أرضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا بضائعهم الى سواهم يبتغون بها الاموال ولاستغنوا عن اموال الناس بالجملة ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور اموالها فقالوا بان عطايا الكواكب والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصا في مواليد اهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية كما قلناه وهم انما اعطوا في ذلك السبب النجومي وبقي عليهم ان يعطوا السبب الارضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بارض المشرق واقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لا ان ذلك لمجرد الاثر النجومي فقد فهمت مما اشرنا لك اولا انه لا يستقل بذلك وان المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعته أمر لا بد منه واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر افريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال اهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت اموال دولها بعد ان كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الاحوال في نفقاتهم واعطياتهم حتى لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى صاحب مصر لحاجاته ومهماته وكانت اموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره الى فتح مصر الف حمل من المال يستعد بها لارزاق الجنود واعطياتهم ونفقات الغزاة وقطر المغرب وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل في ذلك وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده نقصا ظاهرا محسوسا وكاد ان يلحق في أحواله بمثل احوال افريقية بعد ان كان عمرانه متصلا من البحر الرومي الى بلاد السودان في طول ما بين السوس الاقصى وبرقة وهي اليوم كلها او أكثرها قفار وخلاء وصحارى الا ما هو منها بسيف البحر او ما يقاربه من التلول والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٥ *(فصل في تأثل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها)*

(اعلم) ان تأثل العقار والضياع الكثيرة لاهل الامصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التي تخرج قيمها على الحد ولو بلغت احوالهم في الرفه ما عسى ان تبلغ وانما يكون ملكهم وتأثلهم لها تدريجا اما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم الى الواحد وأكثر لذلك أو ان يكون بحوالة الاسواق فان العقار في آخر الدولة وأول الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر الى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الاحوال فترخص قيمها وتتملك بالاثمان اليسيرة وتتخطى بالميراث الى ملك آخر وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له احوال رائقة حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحوالة فيها ويصبح مالكها من اغنى أهل المصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك وأما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه اذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه وانما هي في

الغالب

فاحتمال حرارة الكتمان على قلبك أسهل عليك من التململ بتقليك سرك غيرك واعلم ان افشاء سر غيرك أقبح من اظهار سر نفسك لانه يبوح باحدى وصمتين اما الخيانة ان كان مؤتمنا او النميمة ان كان مستخبرا وقال بعض الحكماء لابنه يابني كن جوادا بالمال في مواضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان أحمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر وكان يقال صدور الاحرار قبور الاسرار وقال الشاعر

ألم تر ان وشاة الرجا ل لا يتركون أديما صحيحا
فلا تفش سرك الا اليك فان لكل نصيح نصيحا

(وقال غيره)

ما كل مكتوم يباح به احذر لسانك من حوائبه
ليس الهوى ما كنت تعرفه أيام تلعب في جوانبه
هذا هوى لو قد قحت به ضحك الحسام الى مضاربه

(الباب الرابع والثلاثون في بيان الخصلة التي هي رهن بسائر الخصال وزعيم بالمزيد من النعماء والآلاء من ذي الجلال)

وهي الشكر قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وقد آتاه الله ملك الدنيا والجن والانس والطير والوحش والرياح تجري بامره كيف أراد فلما استمكن ملكه قال صلى الله عليه وسلم هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر فاعدها نعمة كما عدها ملوك الارض ولا حسبها كرامة من الله تعالى عليه كما ظنها ملوك الارض بل خاف ان تكون استدراجا من حيث لا يعلم كما قال تعالى في أمة اراد هلاكهم سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم ان كيدي متين جاء في التفسير أصبغ

الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلدان ان القصد باقتناء الملك من العقار والضياع انما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشوءهم بفائدته ماداموا عاجزين عن الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بانفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواما لحاله هذا قصد المترفين في اقتنائه واما التمول منه واجراء أحوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه القليل او النادر بحوالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمته في المصر الا ان ذلك اذا حصل ربما امتدت اليه اعين الامراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو ارادوه على بيعه منهم ونالت اصحابه منه مضار ومعاطب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم

١٦ *(فصل في حاجات المتمولين من أهل الامصار الى الجاه والمدافعة)*

وذلك ان الحضري اذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأثله واصبح اغنى اهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت احواله في الترف والعوائد زاحم عليها الامراء والملوك وغصوا به ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم الى تملك ما بيده و ينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في ربقة حكم سلطاني وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله واكثر الاحكام السلطانية جائرة في الغالب اذ العدل المحض انما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوضا فلابد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك أو خاصة له أو عصبية يتحاماها السلطان فيستظل بظلها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي وان لم يكن له ذلك أصبح نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكام والله يحكم لا معقب لحكمه

١٧ *(فصل في أن الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها)*

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الامم في القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر وتقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها واصنافها فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها الى القومة عليه والمهرة فيه وبقدر مايتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها ويتلون ذلك الجيل بها ومتى اتصلت الايام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصناع في صناعتهم ومهروا في معرفتها والاعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاما ورسوخا وأكثر مايقع ذلك في الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها وذلك كله انما يجيء من قبل الدولة لان الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع احوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من اهل المصر وهم الاكثر فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وماذاك الا لمجاورة السلطان لهم وفيض أموال الدولة فيهم كالماء يخضر ماقرب منه فما قرب من الارض الى ان ينتهي الى الجفوف على البعد وقد قدمنا ان السلطان والدولة سوق للعالم فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق

عليهم النعم وأنسيهم الاستغفار وانما الفرح بما أوتي من الدنيا والغبطة بزهرتها والاغترار بزخرفها من شعار الكفار ألا ترى الى قول قارون اللعين انما أوتيته على علم عندي وكان جوابه ماقال الله تعالى فخسفنا به وبداره الارض ولما خاف سليمان عليه السلام ان يكون استدراجا كان جوابه ماقال الله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب واعلم أرشدك الله ان الشكر ليس هو حافظا للنعم فقط بل هو مع حفظه لها زعيم بزيادة النعم وأمان من حلول النقم والشكر على ثلاث مراتب شكر بالقلب وشكر باللسان وشكر بالجوارح فاما الشكر الواجب على جميع الخلق فشكر القلب وهو ان يعلم ان النعمة من الله وحده ولا نعمة على الخلق من أهل السموات والارض الا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله تعالى عن نفسك وعن غيرك بمعرفة نعم الله تعالى عليك وعلى غيرك وهذا النوع هو الذي يقال فيه يجب على العبد أن يشكر الله على نعمة اسديت الى غيره والدليل على ان الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أي ايقنوا انها من الله والى هذه الكلمة انتهى جميع ماقاله الخلق في الشكر والدليل عليه أيضا قوله تعالى ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون أي اتقوني فانه شكر نعمتي وخلق الله تعالى الحياة نعمة على العبد قال الله تعالى ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون والعبارة عنه ان يقال الشكر اعتراف القلب بانعام الله تعالى على وجه الخضوع و يقال فيه الشكر اعتكاف على بساط الشهود بادامة

حفظ الحرمة وقال أبو عثمان الشكر معرفة العجز عن الشكر وروي أن داود عليه السلام قال الهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك فأوحى الله تعالى اليه الآن قد شكرتني وقال وهب بن منبه قال داود عليه السلام الهي ابن آدم ليس منه شعرة الا وتحتها نعمة وفوقها منك نعمة فمن أين يكافئها فأوحى الله تعالى اليه يا داود اني أعطي الكثير وأرضى باليسير وان شكر ذلك ان تعلم ان ما بك من نعمة فمني وفي هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر وذلك بان ترى شكرك بتوفيقه ويكون ذلك التوفيق من أجل النعمة فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر الى ما لا يتناهى وهذا الشكر أيضا واجب ولمحمود الوراق

اذا كان شكري نعمة الله نعمة
علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله
وان طالت الايام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها
وان مس بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما الا له فيه نعمة
تضيق بها الاوهام والسر والجهر

ومن أقر بنعم الله واحسانه فقد أقر بقدر ما كاف لان أحدا لا يمكنه ان يوازي شكر نعم الله تعالى وفي مناجاة موسى عليه السلام الهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال أن يعلم أن ذلك مني فكان معرفته بذلك شكره لي

(فصل) * وأما شكر اللسان فقال الله تعالى فيه وأما بنعمة ربك فحدث قيل يعني النبوة وقيل يعني القرآن وحكم الآية عام في جميع النعم

افتقدت الصنائع جملة ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحدا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحوا من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتى انها لتؤخذ عنهم في الغالب الى اليوم ورسخت الحضارة أيضا وعوائدها في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة وكذلك أيضا القبط دام ملكهم في الخليقة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد الحضارة في بلدهم مصر وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الاسلام الناسخ للكل فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضا رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة آلافا من السنين وأعقبهم ملك مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافا من السنين فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضا رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها من ملك بني أمية آلافا من السنين وكلتا الدولتين عظيمة فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت وأما افريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع الافرنجة الى افريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأوفاز وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وانما كانوا يبعثون بطاعتهم الى القوط من وراء البحر ولما جاء الله بالاسلام وملك العرب افريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا أول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بافريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه اذ كانوا برابر منغمسين في البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الاقصى لاقرب العهود على يد ميسرة المطغري أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وان بايعوا لادريس فلا تعد دولته فيهم عربية لان البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عدد وبقيت افريقية للاغالبة ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها والى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف فتجد له من الحضارة في شؤون منزله وعوائد أحواله آثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا في أكثر أمصار افريقية وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بافريقية أكثر أمدا منذ عهد الاغالبة والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الاندلس ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة عفى عليه الخلاء ورجع على أعقابه وعاد البربر بالمغرب الى أديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بافريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب

عوائدهم

عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم فتفطن لهذا السر فانه خفى عن الناس واعلم انها أمور متناسبة وهى حال الدولة فى القوة والضعف وكثرة الامة او الجيل وعظم المدينة او المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والامصار وسائر الاحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم فى الغالب من أسواقهم ومتاجرهم واذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله فى أهلها انبثت فيهم ورجعت اليه ثم اليهم منه فهى ذاهبة عنهم فى الجباية والخراج عائدة عليهم فى العطاء فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرته فاعتبره وتأمله فى الدول تجده والله يحكم لا معقب لحكمه

١٨ *(فصل فى ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده)*

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية وان الحضارة غاية للبداوة وان العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين فى المعقول والمنقول أن الاربعين للانسان غاية فى تزايد قواه ونموها وأنه اذا بلغ سن الاربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشو والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحطاط فلتعلم أن الحضارة فى العمران أيضا كذلك لانه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة اذا حصلا لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هى التفنن فى الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس او المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج اليها عند البداوة وعدم التأنق فيها واذا بلغ التأنق فى هذه الاحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التى يعسر نزعها وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤنات التى تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها * وبيانه ان المصر بالتفنن فى الحضارة تعظم نفقات اهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وقد كنا قدمنا ان المصر الكثير العمران يختص بالغلاء فى أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء لان الحضارة انما تكون عند انتهاء الدولة فى استفحالها وهو زمن وضع المكوس فى الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والمكوس تعود على البياعات بالغلاء لان السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى فى مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلا فى قيم المبيعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد الى الاسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات ويتتابعون فى الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضائع فتكسد الاسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف وهذه مفسدات فى المدينة على العموم فى الاسواق والعمران وأما فساد أهلها فى ذاتهم واحدا واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد والتلون بألوان الشر فى تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس الى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم اجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور فى الايمان والربا فى البياعات ثم تجدهم ابصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه

وروى النعمان بن بشير ان النبى عليه الصلاة والسلام قال من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وقال تعالى حكاية عن أهل الجنة انهم قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده قال عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما حفر نهر البصرة الذى يقال له نهر عمر انى حفرت لاهل البصرة نهرا عذبا لهم مشربه وجادت عنه ولم أر لهم على ذلك شكرا فان أذنت لى قسمت عليهم ما انفقت عليه فكتب اليه عمر بن عبد العزيز انى لا احسب أهل البصرة خلوا من رجل قال الحمد لله حين حفر لك هذا النهر وان الله قد رضيها شكرا من جنته فارض بها شكرا من نهرك والسلام وحقيقة الشكر فى هذا القسم الثناء على المحسن بذكر احسانه وعلى هذا القول يوصف الرب تعالى بأنه شكور وحقيقة فشكر العبد لله ثناؤه عليه بذكر احسانه وشكر الله للعبد ثناؤه عليه باحسانه واحسان الرب للعبد انعامه عليه وهذه اللفظة مأخوذة من قولهم دابة شكور واذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف ويقال وجه شكور واذا كان ممتلئ المحاسن ظاهرها وفى الحديث يقول الله تعالى أنا والجن والانس فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى وقال بعضهم انما أتى الناس لانهم فى موضع صبرهم يحسبون انهم فى موضع شكر *(فصل واما الشكر الذى على الجوارح فقال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور فجعل العمل شكرا وقال عطاء دخلت على عائشة رضى الله عنها مع عبيد بن عمير فقال لها عبيد يا أم

المؤمنين حدثينا باعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأي شأنه لم يكن عجبا انه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي قالت قلت اني أحب قربك فاذنت له

واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الاقارب وذوي المحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الاقذاع بذلك وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقا لا كثرهم الا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الاخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوار وان كانوا أهل أنساب وبيوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وانما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل باي وجه كان وفسد خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيرا من أعقاب البيوت وذوي الاحساب والاصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنية في معاشهم بما فسد من اخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة واذا كثر ذلك في المدينة او الامة تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ووجهه حينئذ ان مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم احوالهم واذا فسدت أحوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض اهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتى ان كثيرا من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور وليس المراد ذلك ولا أنه خاصية في النارنج وانما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم ان النارنج والليم والسرو وامثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة اذ لا يقصد بها في البساتين الا أشكالها فقط ولا تغرس الا بعد التفنن في مذاهب الترف وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب اذ الدفلى لا يقصد بها الا تلون البساتين بنورها ما بين احمر وأبيض وهو من مذاهب الترف * ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات البطن في المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بانواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي ذلك الى فساد النوع اما بواسطة اختلاط الانساب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنه اذ هو لغير رشدة لان المياه مختلطة في الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون ويؤدي ذلك الى انقطاع النوع او يكون فساد النوع كاللواط اذ هو يؤدي الى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدي الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله في اللواط أظهر من مذهب غيره ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح فافهم ذلك واعتبر به ان غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد واخذ في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوانات بل نقول ان الاخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته اما عجزا لما حصل له من الدعة أو ترفعا لما حصل له من المربي في النعيم والترف وكلا الامرين ذميم وكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري بما قد فقد من خلق الانسان بالترف والنعيم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه ثم هو فاسد ايضا غالبا بما فسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس من مكانتها كما قررناه الا في الاقل النادر واذا فسد الانسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته وصار مسخا على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودين في كل دولة فقد تبين ان الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم

فقام الى قربة من ماء فتوضأ واكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا فلم لا أفعل وقد انزل علي ان في خلق السموات والارض فجعل النبي عليه الصلاة والسلام الشكر بالعمل ويتبين به مراد الكتاب قال الله تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر أو أراد شكورا أي كل واحد منهما يخلف الآخر فمن فاته العمل في أحدهما عمله في الآخر فجعل الاوراد والاعمال بالجوارح شكرا وروى ان النبي عليه السلام قام حتى انتفخت قدماه فقيل يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا وقال أبو هرون دخلت على ابي حازم فقلت له رحمك الله ما شكر العينين

قال اذا رأيت بهما خيرا أذعته وان رأيت بهما شرا سترته قلت له فما شكر الاذنين فقال اذا سمعت بهما خيرا حفظته واذا سمعت بهما شرا سترته قلت فما شكر اليدين قال ان لا تأخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع حق الله تعالى فيهما قلت فما شكر

العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم في شأن لا يشغله شأن عن شأن

١٩ *(فصل في أن الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها)*

قد استقرينا في العمران ان الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصر الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه الى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف والسبب فيه أمور (الاول) ان الدولة لابد في أولها من البداوة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار المصر الذي كان كرسيا للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر لان الرعايا تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة اما طوعا لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم او كرها لما يدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الاحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر *(الامر الثاني)* ان الدولة انما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وانما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر احداهما على الاخرى في العوائد والاحوال وغلب احد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر فتكون احوال الدولة السابقة منكرة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة وخصوصا أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الاولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصر *(الامر الثالث)* أن كل امة لابد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم واذا ملكوا ملكا آخر صار تبعا للاول وامصاره تابعة لامصار الاول واتسع نطاق الملك عليهم ولابد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لانه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الاول وتهوى افئدة الناس اليه من اجل الدولة والسلطان فينتقل اليه العمران ويخف من مصر الكرسي الاول والحضارة انما هي توفر العمران كما قدمناه فتنتقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد الى اصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن الى الكوفة والبصرة ولبني العباس في العدول عن دمشق الى بغداد ولبني مرين بالمغرب في العدول عن مراكش الى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الاول *(الامر الرابع)* ان الدولة الثانية لابد فيها من تبع اهل الدولة السابقة واشياعها بتحويلهم الى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصر الكرسي اشياع الدولة اما من الحامية الذين نزلوا به اول الدولة أو أعيان المصر لان لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم بل اكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها وان لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي الى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي الى النفرة حتى لا يبقى في مصر الكرسي الا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة وينزل مكانهم حاميتها واشياعها من يشتد به المصر واذا ذهب من مصر اعيانهم على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لابد من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وانما ذلك بمثابة من له بيت على اوصاف مخصوصة فأظهر من قدرته على تغيير تلك الاوصاف واعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه

البطن قال ان يكون أسفله صبرا واعلاه علما قالت فما شكر الفرج قال كما قال الله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم او ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فان أنت فعلت فانت الشاكر حقا وفي حكمة ادريس عليه السلام لن يستطيع أحد ان يشكر الله تعالى على نعمة بمثل الانعام على خلقه ليكون صانعا الى الخالق مثل ما صنع به الخالق تعالى واذا ثبت ان فعل الطاعات شكر فان فيها ما هو أشد ملازمة من غيره فالطاعة في مواساة الفقراء اشكل بالشكر على الغنى من غيرها لانها من جنس النعمة فاذا أردت ان تحرس دوام نعم الله تعالى عليك فادم مواساة الفقراء والطاعة في رفع ذوي الضعة والخمول والمسكنة بغير معصية أشبه بالشكر على رفع قدرك والتنويه باسمك والطاعة في تمريض الفقراء وتلطيف أغذيتهم اشبه بالشكر على العافية من سائر الطاعات والطاعة في الشفاعات عند السلطان وقضاء حوائج الغرباء والاخوان أشبه بذوي الجاه من سائر الطاعات وعلى هذا المثال ينبغي ان يقال سائر نعم الله تعالى على العبد ومن العبارات الجامعة للشكر ان يقال معرفة بالجنان وذكر باللسان وعمل بالجوارح *(فصل)* في الكلام على الزيادة قال الله تعالى لئن شكرتم لازيدنكم فقال قوم انما خاطب الله تعالى بهذا وبقوله ادعوني أستجب لكم قوما دون قوم والدليل عليه انا نرى من يشكر على الغنى ثم يبتلى بالفقر ومن يشكر على العافية ثم يبتلى بالمرض والله تعالى لا يخلف وعده وقال قوم معناه لازيدنكم نعمة الآخرة فان قيل انما تكون

الزيادة من جنس المزيد عليه فاجابوا ان النعم الدنيوية والاخروية وان تفاضلت واختلفت فكلها متجانسة من حيث انها نعمة وقال قوم معناه لازيدنكم خيرا او الخير والصلاح قد يكون في كثير من الاوقات بالمنع والسقم ونحوهما فان من سأل الله تعالى ان يعطيه مالا أو يصحح جسمه وهو يعلم انه ان وهبه المال أنفقه في المعاصي أو وهبه الصحة صرف صحته الى المشي في الآثام فالمنع ههنا وهبة من الله تعالى جزيلة ومن هذا قال العلماء منع الله تعالى عطاء وقال قوم يمكن تقدير الاستثناء فيه أي لئن شكرتم لازيدنكم الا ان تعصوا فاعاقبكم بالحرمان فاجعل ذلك كفارة لكم وهو أصلح من ان أعاقبكم في الآخرة والناس لا يسلمون من الذنوب ولو تهيأ ان يسلموا من الذنوب لدرت الزيادات قال الله تعالى ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين وقال قوم الآية خاصة لا محالة اذ لو كانت على عمومها لوجب ان لا يموت من شكر على الحياة قال الشيخ قلت ان الله تعالى وعد الزيادة وقوله الحق وقد جعل الله العبادة علامة يعرف بها الشاكر فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا انه لم يشكر فاذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه وماله في نقصان علمنا انه قد أخل بالشكر الذي اخذ عليه اما ان لا يزكيه أو يزكيه لغير أهله أو يؤخره عن وقته أو يمنع حقا واجبا عليه فيه من كسوة عريان أو اطعام جائع وشبهه فيدخل في قول النبي

فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانيا وقد وقع من ذلك كثير في الامصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه والله يقدر الليل والنهار * والسبب الطبيعي الاول في ذلك على الجملة ان الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر في علوم الحكمة انه لا يمكن انفكاك احدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من العدوان الداعي الى الوازع فتتعين السياسة لذلك اما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة واذا كانا لا ينفكان فاختلال احدهما مؤثر في اختلال الآخر كما ان عدمه مؤثر في عدمه والخلل العظيم انما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس او العرب على العموم أو بني أمية او بني العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة انوشروان او هرقل او عبد الملك بن مروان او الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض فلا تؤثر كثير اختلال لان الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران انما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة فاذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهبت أهل الشوكة باجمعهم وعظم الخلل كما قررناه اولا والله سبحانه وتعالى أعلم

٢٠ * (فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض) *

وذلك انه من البين ان اعمال اهل المصر يستدعي بعضها بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الاعمال يختص ببعض اهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة اليه وما لا يستدعي في المصر يكون غفلا اذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وامثالها وما يستدعي لعوائد الترف واحواله فانما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والفراش والذباح وامثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي احوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لانها انما توجد في الامصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو اليه الترف والغنى من التنعم ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والرؤساء اليها فيختطها ويجري احوالها الا انها اذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتفر عنها القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

٢١ * (فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض) *

من البين ان الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر وان لم يكونوا اهل نسب واحد الا انه كما قدمناه اضعف مما يكون في النسب وانه تحصل به العصبية بعضا مما تحصل بالنسب واهل الامصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى ان يكونوا لحما لحما وقرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون شيعا وعصائب فاذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج اهل امصارها الى القيام على امرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا الى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاولة الى الغلب والرياسة فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة الى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيع والاحلاف ويبذلون ما في أيديهم للاوغاد والاوشاب

فيعصوصب

فيعصوصب كل اصاحبه ويتعين الغالب لبعضهم فيعطف على اكفائه ليقص من اعنتهم ويتتبعهم بالقتل او التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الاظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى انه قد استحدث ملكا يورثه عقبه فيحدث فى ذلك الملك الاصغر ما يحدث فى الملك الاعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء الى منازع الملوك الاعاظم اصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والاقطار والممالك فينتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة واعداد المواكب للسير فى اقطار البلد والتختم والحسبة والخطاب بالتهويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التى ليسوا لها باهل انما دفعهم الى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجرى على مذهب السذاجة فرارا من التعريض بنفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا بافريقية لهذا العهد فى آخر الدولة الحفصية لاهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب وما الى ذلك سموا الى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على امصارهم واستبدوا بامرها على الدولة فى الاحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة وأقطعوها جانبا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عنه وأورثوا ذلك اعقابهم لهذا العهد وحدث فى خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لاعقاب الملوك وخلفهم ونظموا انفسهم فى اعداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة حتى محا ذلك مولانا امير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بايديهم من ذلك كما نذكره فى اخبار الدولة وقد كان مثل ذلك وقع فى آخر الدولة الصنهاجية واستقل بامصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن على ونقلهم كلهم من امارتهم بها الى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر فى اخباره وكذا وقع بسبتة لآخر دولة بنى عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالبا فى اهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة فى المصر وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء واذا حصلت له العصبية والالتحام بالاوغاد لاسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية اذا كانوا فاقدين للعصابة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره

٢٢ *(فصل فى لغات اهل الامصار)*

(اعلم) ان لغات اهل الامصار انما تكون بلسان الامة او الجيل الغالبين عليها او المختطين لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وان كان اللسان العربى المضرى قد فسدت ملكته وتغير اعرابه والسبب فى ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم والدين والملة صورة للوجود وللملك وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة والدين انما يستفاد من الشريعة وهى بلسان العرب لما ان النبى صلى الله عليه وسلم عربى فوجب هجر ماسوى اللسان العربى من الالسن فى جميع ممالكها واعتبر ذلك فى نهى عمر رضى الله عنه عن بطانة الاعاجم وقال انها خب أى مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها فى جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الاسلام وطاعة العرب وهجر الامم لغاتهم والسنتهم فى جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربى بمخالطتها فى بعض أحكامه وتغير أواخره وان كان بقى فى الدلالات على اصله وسمى لسانا حضريا فى جميع

صلى الله عليه وسلم لو صدق السائل ما أفلح من رده قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم بترك أدب أو اخلال بحق أو المنام بذنب كما قال بعضهم أدنى الشكر أن لا تعصى الله بنعمه فان جوارحك كلها من نعم الله تعالى عليك فلا تعصه بها ويحتمل ان يكون معنى الآية لئن شكرتم لازيدنكم ان شئنا الا ترى انه قال ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وكثير من الخلق يريدون حرث الدنيا ولا يؤتونه فيكون التقدير نؤته منها لمن نشاء بدليل قوله فى الآية الاخرى عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وهكذا قوله تعالى ادعونى أستجب لكم ثم ان كثيرا من الناس يدعون فلا يستجيب لهم ولكن معنى الآية استجب لكم ان شئت ولمن شئت بدليل قوله تعالى فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وهذا من باب حمل المطلق على المقيد قال الجنيد كنت بين يدى السرى وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى يا غلام ما الشكر فقلت أن لا يعصى الله تعالى بنعمه قال يوشك ان يكون حظك من الله لسانك فلا ازال أبكى على هذه الكلمة فان قيل ما معنى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وما تحصل من الافعال فى الوجود يمكن احصاؤه قلنا نعم الله تعالى على وجهين دفع ومنع فالدفع يمكن احصاؤه ودفع البلايا نعم لا يمكن احصاؤها وما يدفع الله عنهم مما فى مقدوره من ذلك ومما يدفع تعالى عن العبد لا يحصى *(فصل)* ثم عدنا الى أقوال العلماء والحكماء فى الشكر فقال بعض الحكماء موضع الشكر من النعمة موضع القرى من الضيف ان وجده لم يرم وان عدمه

لم يقم وأجمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا الشكر قيد النعم وقالوا الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقالوا مصيبة وجب أجرها خير من نعمة لا يؤدي شكرها (٢٣٦) وقال بعض الحكماء من أعطى أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب وكان يقال اذا ارعيت النعم بالشكر فهي أطواق واذا ارعيت بالكفر فهي أغلال (قال حبيب)

نعم اذا رعيت بشكر لم تزل نعما فان لم ترع فهي مصائب

(وبعث) الحجاج الى الحسن بعشرين ألف درهم فقال الحمد لله الذي ذكرني (وقال) علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا تكن ممن يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويأمر الناس بما لا يأتي يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم ويبغض المسيئين وأنت منهم تكره الموت لكثرة ذنوبك ولا تدعها في طول حياتك وقال المغيرة بن شعبة اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعمة اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت وان الشكر زيادة من النعم وأمان من النقم (وكان) الحسن يقول ابن آدم متى تنفك من شكر النعم وانت مرتهن بها كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فانت لا تنفك بالشكر من نعمة الا الى ما هو أعظم منها وقال سفيان لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام قال على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الحمد لله الآن تمت النعمة (وروى) ان عثمان بن

أمصار الاسلام وأيضا فأكثر أهل الامصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها الهالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على حيال لغة الآباء وان فسدت أحكامها بمخالطة الاعجام شيأ فشيأ وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى أهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو من العرب فانها كانت أعرق في العروبية ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق وزناتة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا بالامصار فلما ملك التتر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين طلبا لها فانحفظت بعض الشيء وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له أثر ولا عين حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله اعلم بالصواب

(الفصل الخامس من الكتاب الاول)

(في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل)

(فصل) في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية * اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوءه الى أشده الى كبره والله الغني وأنتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للانسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من شواهده ويد الانسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر الا بعوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الاعواض عنها قال الله تعالى فابتغوا عند الله الرزق وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله الا انها انما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له تلك المكاسب معاشا ان كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشا ومتمولا ان زادت على ذلك ثم ان ذلك الحاصل أو المقتنى ان عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من انفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقا قال صلى الله عليه وسلم انما لك من مالك ما أكلت فأفنيت او لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وان لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة الى المالك رزقا والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسبا وهذا مثل التراث فانه يسمى بالنسبة الى الهالك كسبا ولا يسمى رزقا اذ لم يحصل به منتفع وبالنسبة الى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقا ان يكون بحيث يصح تملكه وما لا يتملك عندهم لا يسمى رزقا وأخرجوا الغصوبات والحرام كله عن ان يسمى شيء منها رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص برحمته وهدايته

وهداية من يشاء ولهم فى ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها * ثم اعلم ان الكسب انما يكون بالسعي فى الاقتناء والقصد الى التحصيل فلابد فى الرزق من سعى وعمل ولو فى تناوله وابتغائه من وجوهه قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق والسعي اليه انما يكون باقدار الله تعالى والهامه فالكل من عند الله فلابد من الاعمال الانسانية فى كل مكسوب ومتمول لانه ان كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر وان كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلابد فيه من العمل الانسانى كما تراه والا لم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول وهما الذخيرة والقنية لاهل العالم فى الغالب وان اقتنى سواهما فى بعض الاحيان فانما هو لقصد تحصيلهما بما يقع فى غيرهما من حوالة الاسواق التى هما عنها بمعزل فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة * واذا تقرر هذا كله فاعلم ان ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية اذ ليس هناك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية وقد يكون مع الصنائع فى بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل الا ان العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر وان كان من غير الصنائع فلابد فى قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذى حصلت به اذ لولا العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة فى الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما فى أسعار الاقوات بين الناس فان اعتبار الاعمال والنفقات فيها ملاحظ فى أسعار الحبوب كما قدمناه لكنه خفى فى الاقطار التى علاج الفلح فيها ومؤنته يسيرة فلا يشعر به الا القليل من أهل الفلح فقد تبين ان المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها انما هى قيم الاعمال الانسانية وتبين مسمى الرزق وانه المنتفع به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما * واعلم أنه اذا فقدت الاعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ألا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها او يفقد لقلة الاعمال الانسانية وكذلك الامصار التى يكون عمرانها أكثر يكون اهلها اوسع احوالا واشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة فى البلاد اذا تناقص عمرانها انها قد ذهب رزقها حتى ان الانهار والعيون ينقطع جريها فى القفر لما ان فور العيون انما يكون بالانباط والامتراء الذى هو بالعمل الانسانى كالحال فى ضروع الانعام فما لم يكن انباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع اذا ترك امتراؤه وانظره فى البلاد التى تعهد فيها العيون لايام عمرانها ثم يأتى عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كانها لم تكن والله يقدر الليل والنهار

٢ *(فصل فى وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه)*

اعلم ان المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي فى تحصيله وهو مفعل من العيش كانه لما كان العيش الذى هو الحياة لا يحصل الا بهذه جعلت موضعا له على طريق المبالغة ثم ان تحصيل الرزق وكسبه اما أن يكون باخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية واما أن يكون من الحيوان الوحشى باقتناصه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا واما ان يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس فى منافعهم كاللبن من الانعام والحرير من دوده والعسل من نحله او يكون من النبات فى الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلحا واما ان يكون الكسب من الاعمال الانسانية اما فى مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وفروسية وامثال ذلك او فى مواد غير معينة وهى جميع الامتهانات والتصرفات واما أن

عفان رضى الله عنه دعى الى قوم ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل ان يبلغهم فاعتق عثمان رقبة شكرا لله تعالى ان لا يكون جرت على يديه فضيحة رجل مسلم (ويروى) ان الحسن بن على التزم الركن وقال الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا وابتليتنى فلم تجدنى صابرا فلا انت سلبت النعمة بترك الشكر ولا انت أدمت النقمة بترك الصبر الهى ما يكون من الكريم الا الكرم ولا من الجافى الا الجفا وقال عون ابن عبد الله الخير الذى لا شر فيه الشكر مع العافية والصبر عند المصيبة (وروى) ان نملة قالت لسليمان بن داود عليه السلام يا نبى الله أنا على قدرى أشكر لله منك وكان راكبا على فرس ذلول فخر عنه ساجدا اشكر الله ثم قال لولا انى اجلك لسألتك ان تنزع منى ما اعطيتنى (وقال صدقة بن يسار بينا داود عليه السلام فى محرابه اذ مرت به دودة فتفكر فى خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه فانطقها الله تعالى فقالت له يا داود تعجبك نفسك لانا على قدر ما آتانى الله أذكر لله وأشكر له منك فيما آتاك (ولمحمود الوراق)

الهى لك الحمد الذى انت أهله
على نعمة ما كنت منك لها أهلا
متى ازددت تقصيرا تزدنى تفضلا
كانى بالتقصير أستوجب الفضلا

(وكان) لبعضهم صديق فحبسه السلطان فارسل اليه فقال له صاحبه اشكر الله تعالى فضرب الرجل فكتب اليه اشكر الله تعالى فجىء بمجوسى مبطون فقيد فجعل حلقة فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى يقوم بالليل مرات ويحتاج هذا الى أن يقوم معه ويقف على رأسه

حتى يفرغ فكتب الى صاحبه فقال اشكر الله تعالى فقال الى متى تقول واى بلاء فوق هذا فقال له صاحبه لو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك كما وضع القيد الذى (٢٣٨) فى رجله فى رجلك ماذا كنت تصنع ولبعضهم ومن الرزية أن شكرى صامت * عما فعلت وأن برك ناطق أأرى الصنيعة منك ثم أسرها انى اذا الندى الكريم لسارق (وقال) رجل لسهل بن عبد الله ان اللص دخل دارى واخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان فاخذ التوحيد ماذا كنت تصنع (ولما) بشر ادريس عليه السلام بالمغفرة سأل المغفرة فقيل له فيه فقال لاشكره فانى كنت أعمل قبله للمغفرة فبسط الملك جناحه فرفعه الى السماء (ويروى) أن نبيا من الانبياء عليهم السلام مر بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير فتعجب منه فانطقه الله تعالى فقال منذ سمعت الله يقول وقودها الناس والحجارة فانا ابكى من خوفه فدعا النبى عليه السلام ربه أن يجيره من النار فأوحى الله تعالى اليه انى أجرته من النار فر النبى عليه السلام ثم عاد فوجد الحجر يتفجر منه مثل ما كان فتعجب فانطق الله تعالى الحجر فقال له لم تبكى فقال ذلك بكاء الحزن والخوف وهذا بكاء الشكر والسرور

يكون الكسب من البضائع واعدادها للاعواض اما بالتقلب بها فى البلاد واحتكارها وارتقاب حوالة الاسواق فيها ويسمى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش واصنافه وهى معنى ما ذكره المحققون من اهل الادب والحكمة كالحريرى وغيره فانهم قالوا المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة فاما الامارة فليست بمذهب طبيعى للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدم شئ من احوال الجبايات السلطانية واهلها فى الفصل الثانى واما الفلاحة والصناعة والتجارة فهى وجوه طبيعية للمعاش أما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات اذ هى بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج الى نظر ولا علم ولهذا تنسب فى الخليقة الى آدم ابى البشر وانه معلمها والقائم عليها اشارة الى انها اقدم وجوه المعاش وأنسبها الى الطبيعة وأما الصنائع فهى ثانيتها ومتأخرة عنها لانها مركبة وعلمية تصرف فيها الافكار والانظار ولهذا لا توجد غالبا الا فى اهل الحضر الذى هو متأخر عن البدو وثان عنه ومن هذا المعنى نسبت الى ادريس الاب الثانى للخليقة فانه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحى من الله تعالى وأما التجارة وان كانت طبيعية فى الكسب فالاكثر من طرقها ومذاهبها انما هى تحيلات فى الحصول على ما بين القيمتين فى الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة ولذلك اباح الشرع فيه المكاسبة لما انه من باب المقامرة الا انه ليس أخذ المال الغير مجانا فلهذا اختص بالمشروعية

٣ *(فصل فى ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعى)*

اعلم ان السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة فى سائر ابواب الامارة والملك الذى هو بسبيله من الجندى والشرطى والكاتب ويستكفى فى كل باب بمن يعلم غناءه فيه ويتكفل بارزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج فى الامارة ومعاشها اذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها ان أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزا عنها لما ربى عليه من خلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه أجرا من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للانسان اذ الثقة بكل أحد عجز ولانها تزيد فى الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث اللذين ينبغى فى مذاهب الرجولية التنزه عنهما الا ان العوائد تقلب طباع الانسان الى مألوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه ومع ذلك فالخديم الذى يستكفى به ويوثق بغنائه كالمفقود اذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات اما مضطلع بامره وموثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فيهما وهو ان يكون غير مضطلع بامره ولا موثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فى احداهما فقط مثل أن يكون مضطلعا غير موثوق أو موثوقا غير مضطلع فاما الاول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحد استعماله بوجه اذ هو باضطلاعه وثقته غنى عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الاجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك فلا يستعمله الا الامراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه واما الصنف الثانى وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغى لعاقل استعماله لانه يجحف بمخدومه فى الامرين معا فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطمع أحد فى استعمالهما ولم يبق الا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس فى الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجيحين وجه الا ان المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لانه يؤمن من تضييعه ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة وأما المضيع ولو كان مأمونا فضرره بالتضييع أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذه قانونا فى الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

ويروى ان الله تعالى اوحى الى موسى عليه السلام ارحم عبادى المبتلى والمعافى فقال الهى ما بال المعافى فقال لقلة شكرهم على عافيتى اياهم وبلا رجل اعرابيا بلاء حسنا فقال لا أبلاك الله بلاء يعجز عنه صبرك

فصل

٤ *(فصل فى ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعى)*

اعلم ان كثيرا من ضعفاء العقول فى الامصار يحرصون على استخراج الاموال من تحت الارض و يبتغون الكسب من ذلك و يعتقدون ان أموال الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفض ختامها ذلك الامن عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان فاهل الامصار بافريقية يرون ان الافرنجة الذين كانوا قبل الاسلام بها دفنوا أموالهم كذلك وأودعوها فى الصحف بالكتاب الى ان يجدوا السبيل الى استخراجها واهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك فى امم القبط والروم والفرس و يتناقلون فى ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك الى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا او معمورا بالديدان او يشاهد الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم او تميد به الارض حتى يظنه خسفا أو مثل ذلك من الهذر وتجد كثيرا من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعى واسبابه يتقربون الى اهل الدنيا بالاوراق المتخرمة الحواشى اما بخطوط عجمية او بما ترجم بزعمهم منها من خطوط اهل الدفائن باعطاء الامارات عليها فى اماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب و يموهون عليهم بانهم انما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه فى مثل هذا من منال الحكام والعقوبات و ربما تكون عند بعضهم نادرة اوغريبة من الاعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقى من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الايدى على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون اهل الدول فاذا لم يعثروا على شئ ردوا ذلك الى الجهل بالطلسم الذى ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن اخفاق مطامعهم والذى يحمل على ذلك فى الغالب زيادة على ضعف العقل انما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجرى الطبيعى من هذا وامثاله عجزا عن السعى فى المكاسب وركونا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب فى تحصيله واكتسابه ولا يعلمون انهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه فى نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الاول و يعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات و ربما يحمل على ذلك فى الاكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى يقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفى بمطالبها فاذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعى لم يجد وليجة فى نفسه الا التمنى لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفى له ذلك بالعوائد التى حصل فى اسرها فيحرص على ابتغاء ذلك و يسعى فيه بجهده ولهذا فاكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من اهل الدولة ومن سكان الامصار الكثيرة الترف المتسعة الاحوال مثل مصر وما فى معناها فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء هكذا بلغنى عن أهل مصر فى مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز و يزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون ان غالب هذه الاموال الدفينة كلها فى مجارى النيل وانه أعظم ما يستر دفينا او مختزنا فى تلك الآفاق و يموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة فى الاعتذار عن الوصول اليها بجرية النيل تسترا بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على تضويب الماء بالاعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفا بشأن السحر متوارثا فى ذلك القطر عن أوليه فعلومهم السحرية وآثارها باقية بارضهم فى البرارى وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها الى حكماء

وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك (وأنشد بعضهم) سأشكر لا انى أجازيك منعما * بشكرى ولكن كى يرى ذلك الشكر وأذكر ايامالدى اصطنعتها * وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر *(وانشدوا)* أوليتنى نعما أبوح بشكرها * وكفيتنى كل الامور باسرها فلاشكرنك ما حييت وان أمت فلتشكرنك أعظمى فى قبرها *(ولبعض الاعراب)* الهى قد أحسنت عودا وبدأة الى فلم ينهض باحسانك الشكر فمن كان ذا عذر لديك وحجة فعذرى اقرارى بان ليس لى عذر (وكان) مطرف يقول الهى منك تكون النعمة وعليك تمامها وانت تعين على شكرها وعليك ثوابها وهذا باب عظيم من النعم على العباد وقد أثنى الله على بعض عباده فقال انه كان عبدا شكورا (وقال) تعالى شاكرا لانعمه اجتباه وكذلك سائر ما أثنى الله تعالى به على عباده ثم قال فمن شكر فانما يشكر لنفسه ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ليس للرب تعالى فيها الا قليل ولا كثير فانه أجل من أن ينال الحظوظ وأجل من أن يلحقه ثناء مثن اوشكر شاكر فاخبران العلو والجلال له دونهم وانه يتقدس عن الناس بثناء مثن او كفر كافر قال الله تعالى يدعوكم ليغفر لكم فوا عجبا أعطى ثم أثنى وقال على رضى الله عنه كفر النعمة داعية المقت ومن جازاك بالشكر فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك وحقيق بمن أسديت اليه نعمة او قضيت له حاجة ان يكافئ فان لم يقدر فليشكر فان شكرها فقد

أدى حقها (قال الشاعر)

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد * لرفعة حال او علو مكان
لما أمر الرحمن بالشكر خلقه * فقال اشكروني أيها الثقلان

(وقال البستي)

لئن عجزت عن شكر برك قوتي * واقوى الورى عن شكر برك عاجز
فان ثنائي واعتقادي وطاعتي * لافلاك ما اوليتنه مراكز

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلي وقفت علينا امراة فقالت يا قوم تغير علينا الدهر اذ قل منا الشكر وفارقنا الغنى وحالفنا الفقر فرحم الله امرأ فهم بعقل واعطى من فضل وواسى من كفاف واعان على عفاف (وانشدوا)

فلو كان للشكر شخص يبين * اذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه * فتعلم اني امرؤ شاكر
ولكنه ساكن في الضمير * يحركه الكلم السائر

(وقيل) لكسرى ما الشكر فقال المكافاة على قدر الطاعة قيل فما الكفر قال ترك الجزاء ولو بالثناء قيل وهل يكون أحد أبخل ممن يبخل بالثناء قال نعم من عادى على الصنيعة

(الباب الخامس والثلاثون في بيان السيرة التي يصلح عليها الامير والمأمور ويستريح اليها الرئيس والمرؤس مستخرجة من القرآن العظيم)*

قال الله تعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم فاثبت الله تعالى المماثلة بيننا وبين سائر البهائم ومعلوم انهم لا يماثلونا في خلقنا واشكالنا وسائر ما تدركه العين منهم ومنا فبقي المماثلة في الاخلاق فلا احد من الخلق الا وفيه خلق من أخلاق البهائم ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة فاذا

المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي هذه

يا طالبا للسر في التغوير * اسمع كلام الصدق من خبير
دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم * من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي * ان كنت ممن لا يرى بالزور
فاذا أردت تغور البئر التي * حارت لها الاوهام في التدبير
صور كصورتك التي أوقفتها * والرأس رأس الشبل في التقوير
ويداه ماسكتان للحبل الذي * في الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها * عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطأ على الطاآت غير ملامس * مشي اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط دائر * تربيعه أولى من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به * واقصده عقب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميعة * والقسط والبسه بثوب حرير
من احمر أواصفر لا ازرق * لا أخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض * اواحمر من خالص التحمير
والطالع الاسد الذي قد بينوا * ويكون بدء الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد * في يوم سبت ساعة التدبير

يعني ان تكون الطاآت بين قدميه كانه يمشي عليها وعندي ان هذه القصيدة من تمويهات المتخرفين فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة وتنتهي التخرفة والكذب بهم الى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة لمثل هذه ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم ثم يقصدون ضعفاء العقول بامثال هذه الصحائف ويبعثون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمون أن به دفينا من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبون بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ويعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بانفسهم ومن فعلهم فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا اصل له في علم ولا خبر واعلم أن الكنوز وان كانت توجد لكنها في حكم النادر وعلى وجه الاتفاق لا على وجه القصد اليها وليس ذلك بامر تعم به البلوى حتى يدخر الناس أموالهم تحت الارض ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية انما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب وأيضا فمن اختزن ماله وختم عليه بالاعمال السحرية فقد بالغ في اخفائه فكيف ينصب عليه الادلة والامارات لمن يبتغيه ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته اهل الاعصار والآفاق هذا يناقض قصد الاخفاء وايضا فافعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع ومن اختزن المال فانه يختزنه لولده اوقريبه أو من يؤثره واما ان يقصد اخفاءه بالكلية عن كل أحد وانما هو للبلاء والهلاك او لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الامم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه *وأما قولهم اين اموال الامم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن الاموال من الذهب والفضة

والفضة والجواهر والامتعة انما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالاعمال الانسانية و يزيد فيها او ينقصها وما يوجد منها بايدى الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر الى قطر ومن دولة الى اخرى بحسب اغراضه والعمران الذى يستدعى له فان نقص المال فى المغرب وافريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والافرنج وان نقص فى مصر والشأم فلم ينقص فى الهند والصين وانما هى الآلات والمكاسب والعمران يوفرها او ينقصها مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع الى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع الى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب باعيانها لاقرب وقت وأما ما وقع فى مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر فى ملكة القبط منذ آلاف او يزيد من السنين وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك فى قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالاهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها فى كثير من الاوقات اما ما يدفنونه من أموالهم او ما يكرمون به موتاهم فى الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عنى اهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى انهم حين ضربت المكوس على الاصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الاطماع الذريعة الى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا الا على الخيبة فى جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج من وقع له شئ من هذا الوسواس وابتلى به ان يتعوذ بالله من العجز والكسل فى طلب معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

(فصل فى أن الجاه مفيد للمال)

وذلك انا نجد صاحب المال والحظوة فى جميع اصناف المعاش أكثر يسارا وثروة من فاقد الجاه والسبب فى ذلك ان صاحب الجاه مخدوم بالاعمال يتقرب بها اليه فى سبيل التزلف والحاجة الى جاهه فالناس معينون له باعمالهم فى جميع حاجاته من ضرورى او حاجى او كمالى فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه أن تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الاعمال عليه فهو بين قيم للاعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة الى اخراجها فتتوفر عليه والاعمال لاصحاب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لاقرب وقت ويزداد مع الايام يسارا وثروة ولهذا المعنى كانت الامارة احد أسباب المعاش كما قدمناه وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجار ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون ايسر بكثير ومما يشهد لذلك أنا نجد كثيرا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملة الله فى ارفادهم فأخلص الناس فى اعانتهم على احوال دنياهم والاعتمال فى مصالحهم أسرعت اليهم الثروة واصبحوا مياسير من غير مال مقتنى الا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التى وقعت المعونة بها من الناس لهم رأينا من ذلك اعدادا فى الامصار والمدن وفى البدو يسعى لهم الناس فى الفلح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح

رأيت من الانسان خلقا خارجا عن الاعتدال فابصر ما يماثل ذلك الخلق من خلق سائر الحيوان فالحقه به وعامله كما كنت تعامله فحينئذ تستريح من منازعتهم و يستريحون منك وتدوم الصحبة فاذا رأيتا الرجل الجاهل فى خلائقه الغليظ فى طباعه القوى فى بدنه لا يؤمن طغيانه وافراطه فالحقه بعالم النمور والعرب تقول أجهل من نمر وأنت اذا رأيت النمر بعدت عنه ولم تخاصمه ولا تسابه فاسلك بالرجل كذلك واذا رأيت الرجل الغالب على أخلاقه السرقة خفية والنقب ليلا على وجه الاستسرار قلنا هذا يماثل عالم الجرذ فدع ملاحاته ومخاصمته كما تدع سباب الجرذ اذا أفسد رحلك ثم أحي رحلك بما يصلح له واذا رأيت هجاما على اعراض الناس وثلبهم فقد ماثل عالم الكلاب فان دأب الكلب ان يجفو من لا يجفوه ويبتدئ بالاذية من لا يؤذيه فعامله بما كنت تعامل به الكلب اذا نبحك ألست تذهب فى شأنك ولا تخاصمه ولا تسبه فافعل بمن يهتضم عرضك مثل ذلك واذا رأيت انسانا قد جبل على الخلاف ان قلت لا قال نعم وان قلت نعم قال لا فالحقه بعالم الحمير فان دأب الحمار ان أدنيته بعد وان أبعدته قرب وانت تستمتع بالحمار ولا تسبه ولا تفارقه فاستمتع أيضا بهذا الانسان ولا تسبه ولا تفارقه واذا رأيت رجلا يطلب عثرات الناس وسقطاتهم فمثله فى الآدميين كمثل الذباب فى عالم الطير فان الذباب يقع على الجسد فيتحامى صحيحه ويطلب المواضع النغلة منه وذوات المادة والدم والنجاسة واذا بليت بسلطان يهجم على الاموال والارواح فالحقه بعالم الاسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك

من الاسد وليس الا الهرب منه كما قال النابغه * ولا قرار على زأر من الاسد * واذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان والمفاخرة فالحقه بعالم الثعالب واذا بليت بمن يغشى بالنمائم و يفرق بين الاحبة فالحقه بعالم الظربان وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة فسا بينهم ظربان فتفرقوا وخاصة هذه الدويبة اذا حصلت وسط جماعة أن يتفرقوا وكما ان الجماعة اذا أقبلت نحوهم هذه الدابة طردوها ومنعوها الدخول بينهم كذلك ينبغي اخراج النمام من بين الجماعة فان لم يفعلوا يوشك ان يفرق مابينهم و يفسد قلوب بعضهم على بعض واذا رأيت انسانا لا يسمع العلم والحكمة و ينفر من مجالس العلماء والحكماء و يألف سماع أخبار أهل الدنيا وسائر الخرافات وما يجري في مجالس العوام فالحقه بعالم الخنافس فانه يعجبه أكل العذرات و يألف روائح النجاسات ولا تراه الا ملابسا للأخلية والمراحيض و ينفر من روائح المسك والورد واذا طرح عليه المسك والورد مات واذا رأيت انسانا انما دأبه حفظ الدنيا لا يستحي في الوثوب عليها فالحقه بعالم الاحدية بان تنحي رجلك عنه واذا بليت بالرجل تظهر عليه الديانة والسكينة وقد نصب أشراكه لاقتناص الدنيا وأكل اموال الودائع والامانات والارامل واليتامى فالحقه بعالم الذئاب وهو كما قال فيه القائل ذئب تراه مصليا * فاذا مررت به ركع بهذا
يدعو وجل دعائه * ما للفريسة لا تقع * عجل بها ياذا العلا * ان الفؤاد قد انصدع احترز منه كما تحترز من الذئب واذا بليت بجهبذ

من مكانه فينمو ماله و يعظم كسبه و يتأثل الغنى من غير سعي و يعجب من لا يفطن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه و يساره والله سبحانه و تعالى يرزق من يشاء بغير حساب

٦ * (فصل في أن السعادة والكسب انما يحصل غالبا لاهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من أسباب السعادة) *

قد سلف لنا فيما سبق ان الكسب الذي يستفيده البشر انما هو قيم اعمالهم ولو قدر احد عطل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه او نقصانه وقد بينا آنفا أن الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه باعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضا عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الاغراض في صالح أو طالح وتصير تلك الاعمال في كسبه وقيمها أموال وثروة له فيستفيد الغنى واليسار لاقرب وقت ثم ان الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو الى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفل الى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه و بين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم و يتم بقاؤهم لان النوع الانساني لا يتم وجوده الا بالتعاون وانه وان ندر فرض ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه ثم ان هذا التعاون لا يحصل الا بالاكراه عليه لجهلهم في الاكثر بمصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار وان افعالهم انما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع وقد يمتنع من المعاونة فيتعين حمله عليها فلا بد من حامل يكره ابناء النوع على مصالحهم لتتم الحكمة الالهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون فقد تبين ان الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل باحكام الشرائع والسياسة وعلى اغراضه فيما سوى ذلك ولكن الاول مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الالهي لانه قد لا يتم وجود الخير الكثير الا بوجود شر يسير من اجل المواد فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة فتفهم ثم ان كل طبقة من طباق اهل العمران من مدينة او اقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بذي الجاه من أهل الطبقة التي فوقه و يزداد كسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش و يتسع و يضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه فان كان الجاه متسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وان كان ضيقا قليلا فمثله وفاقد الجاه وان كان له مال فلا يكون يساره الا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهبا وآيبا في تنميته كاكثر التجار واهل الفلاحة في الغالب واهل الصنائع كذلك اذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة في الاكثر ولا تسرع اليهم ثروة وانما يرمقون العيش ترميقا و يدافعون ضرورة الفقر مدافعة واذا تقرر ذلك وان الجاه متفرع وان السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت أن بذله وافادته من اعظم النعم واجلها وان باذله من أجل المنعمين وانما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع وتملق كما يسأل اهل العز والملوك والا فيتعذر حصوله فلذلك قلنا ان الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وان اكثر اهل الثروة والسعادة

انسان كذاب فاعلم ان الانسان الكذاب كالميت فى الحكم لانه لا يقبل له خبر كما لا خبر للميت وكما لا تصحب الموتى لا تصحب الكذاب (وقيل)
فى المثل كل شئ شئ وصحبة الكذاب لا شئ ويجوز ان يلحق بعالم النعام فانه يدفن جميع بيضه تحت الرمل ثم يترك واحدة على

بهذا التملق ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون فى التكسب على اعمالهم و يصيرون الى الفقر والخصاصة * واعلم ان هذا الكبر والترفع من الاخلاق المذمومة انما يحصل من توهم الكمال وان الناس يحتاجون الى بضاعته من علم او صناعة كالعالم المتبحر فى علمه او الكاتب المجيد فى كتابته او الشاعر البليغ فى شعره وكل محسن فى صناعته يتوهم ان الناس محتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك وكذا يتوهم أهل الانساب ممن كان فى آبائه ملك او عالم مشهور او كامل فى طور يعبرون بما رأوه او سمعوه من حال آبائهم فى المدينة و يتوهمون انهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم اليهم ووراثتهم عنهم فهم مستمسكون فى الحاضر بالامر المعدوم وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالامور قد يتوهم بعضهم كمالا فى نفسه بذلك واحتياجا اليه وتجد هؤلاء الاصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو اعلى منهم و يستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك و يعده مذلة وهوانا وسفها و يحاسب الناس فى معاملتهم اياه بمقدار ما يتوهم فى نفسه و يحقد على من قصر له فى شئ مما يتوهمه من ذلك وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم فيه و يستمر فى عناء عظيم من ايجاب الحق لنفسه واباية الناس له من ذلك و يحصل له المقت من الناس لما فى طباع البشر من التأله وقل ان يسلم احدهم لآخر فى الكمال والترفع عليه الا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله فى ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين له مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من احسانهم وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التى هى أعلى منه لاجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه و بقى فى خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل وأما الثروة فلا تحصل له أصلا ومن هذا اشتهر بين الناس ان الكامل فى المعرفة محروم من الحظ وانه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه ومن خلق لشئ يسر له والله المقدر لا رب سواه ولقد يقع فى الدول اضطراب فى المراتب من أهل هذا الخلق و يرتفع فيها كثير من السفلة و ينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك ان الدول اذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم و يئس من سواهم من ذلك وانما صاروا فى مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنهم خول له فاذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ فى المنزلة عند السلطان كل من انتمى الى خدمته و تقرب اليه بنصيحة واصطنعه السلطان لغنائه فى كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسعى فى التقرب من السلطان بجده ونصحه و يتزلف اليه بوجوه خدمته و يستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه حتى يرسخ قدمه معهم و ينظمه السلطان فى جملته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة و ينتظم فى عدد أهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا أضغانهم ومهدوا أكنافهم مغترون بما كان لآبائهم فى ذلك من الآثار لم تسمح به نفوسهم على السلطان و يعتدون بآثاره و يجرون فى مضمار الدولة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك و يباعدهم و يميل الى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون الى دالة ولا ترفع انما دأبهم الخضوع له والتملق والاعتمال فى غرضه متى ذهب اليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف اليهم الوجوه والخواطر بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده و يبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك الا بعدا من السلطان ومقتا وايثارا لهؤلاء المصطنعين عليهم الى أن تنقرض الدولة وهذا أمر طبيعى

وجه الرمل وأخرى تحت طاقة من الرمل وسائر بيضه فى قعر الحفرة فاذا رآه الغر يأخذ تلك البيضة و ينصرف أو يكشف عن وجه الرمل فيجد الاخرى فيظن انه ليس ثم شئ آخر والخبير بحالة النعام اذا رأى البيضة لا يزال يحفر حتى يصل الى حاجته ولا يغتر بتلك البيضة كذلك الكذاب اذا سمعت منه خبرا لا تصدقه حتى تبلغ الغاية فى الكشف عنه واذا رأيت الرجل انما دأبه أن يصنع نفسه كما تصنع العروس لبعلها يبيض ثيابه و يعدل عمامته و يتقى ان يمسه شئ غيره و ينظر فى عطفيه و يطرح القذى عن ثوبه ليس له همة بين الجلساء الا النظر الى نفسه واصلاح ما انثنى من ثيابه فالحقه بعالم الطواويس الذى هذه صفته فانه يتبختر فى مشيته و ينظر الى نفسه و يفرش ذنبه فتتخذه الملوك استحسانا له واذا بليت بانسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازى بعد المدة على السقطات فالحقه بعالم الجمال والعرب تقول فلان أحقد من جمل وتجنب قرب الجمل الحقود

فاجتنب صحبة الرجل الحقود واذا بليت بانسان منافق يبطن خلاف ما يظهر فالحقه بعالم اليربوع فان اليربوع وهو فأر يكون فى البرية يتخذ جحرا تحت الارض يقال له النافقاء وله فوهتان يدخل من احداهما ويخرج

فى الدولة ومنه جاهاً فان المصطنعين فى الغالب والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

٧ *(فصل فى أن القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب)*

والسبب لذلك ان الكسب كما قدمناه قيمة الاعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة اليها فاذا كانت الاعمال ضرورية فى العمران عامة البلوى به كانت قيمتها اعظم وكانت الحاجة اليها اشد وأهل هذه البضائع الدينية لا تضطر اليهم عامة الخلق وانما يحتاج الى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه وان احتيج الى الفتيا والقضاء فى الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء فى الاكثر وانما يهتم باقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر فى المصالح فيقسم لهم حظا من الرزق على نسبة الحاجة اليهم على النحو الذى قررناه لا يساويهم باهل الشوكة ولا بأهل الصنائع من حيث الدين والمراسم الشرعية لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة اهل العمران فلا يصح فى قسمهم الا القليل وهم أيضا لشرف بضائعهم اعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لاهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ اوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لاهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك فلذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب ولقد باحثت بعض الفضلاء فنكر ذلك على فوقع بيدى اوراق مخرقة من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه ارزاق القضاة والائمة والمؤذنين فوقفته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من اسرار الله فى خلقه وحكمته فى عوالمه والله الخالق القادر لا رب سواه

٨ *(فصل فى أن الفلاحة من معاش المستضعفين واهل العافية من البدو)*

وذلك لانه أصيل فى الطبيعة وبسيط فى منحاه ولذلك لا تجده ينتحله احد من أهل الحضر فى الغالب ولا من المترفين ويختص منتحله بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخله الذل وحمله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع اوتجاوز الحد الذى أمر به والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضى الى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلا بائسا بما تتناوله أيدى القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما اشارة الى الملك العضوض القاهر للناس الذى معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى فى المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغرما للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ *(فصل فى معنى التجارة ومذاهبها واصنافها)*

اعلم ان التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أياما كانت السلعة من رقيق اوزرع اوحيوان اوقماش وذلك القدر النامى يسمى ربحا فالمحاولة لذلك الربح اما ان يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الاسواق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه واما بأن ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذى اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمها لك فى كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالى فقد حصلت التجارة اشارة له بذلك

صحبة الناس وسكنت نفسى واستراحت من مكايدة أخلاقهم الا من حيث سرت معهم بهذه السيرة (وقال) الرياح يابنى رياح لا تحقروا صغيرا تأخذون عنه فانى أخذت من الثعلب روغانه ومن القرد مكايده ومن السنور مارعه ومن الكلاب نصرته ومن ابن آوى حذره وقد تعلمت من القمر مشى الليل ومن الشمس الظهور فى الحين بعد الحين

(الباب السادس والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان وشفاء الصدور وراحة القلوب وطيبة النفوس)*

اعلم أيها الملك انه متى كانت فيك الخصال المحمودة والأخلاق المشكورة والسيرة المستقيمة وملكت نفسك وقهرت هواك ووضعت الاشياء مواضعها ثم ان الرعية اهتضمت حقك وجهلت قدرك ولم توفك حظك فبلغك منهم ما يسوءك ورأيت منهم ما لا يعجبك فاعلم انك لست بالله فلا تطمعن ان يصفو لك منهم ما لا يصفو منهم للاله وفصل الخطاب فى هذا الباب ان تعلم ان الله تعالى خلق الخلائق أجمعين وأنعم عليهم بانواع النعم فاكمل حواسهم وخلق فيهم الشهوات الى

ثم أفاض عليهم نعمه وكملت لهم اللذات وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق عظمته بل قالوا فيه ما لا يليق به ووصفوه

الى المعنى الذى قررناه والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق لارب سواه

١٠ *(فصل فى أى اصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغى له اجتناب حرفها)*

قد قدمنا ان معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها باغلى من ثمن الشراء امابانتظار حوالة الاسواق اونقلها الى بلد هى فيه انفق واغلى او بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى اصل المال يسير الأان المال اذا كان كثيرا اعظم الربح لان القليل فى الكثير كثير ثم لابد فى محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بايدى الباعة فى شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم فى تقاضى اثمانها واهل النصفة قليل فلابد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل فى الاثمان المجحف بالربح كتعطيل المحاولة فى تلك المدة وبها نماؤه ومن الجحود والانكار المسحت لرأس المال ان لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغناء الحكام فى ذلك قليل لان الحكم انما هو على الظاهر فيعانى التاجر من ذلك أحوالا صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح الا بعظم العناء والمشقة اولا يحصل او يتلاشى رأس ماله فان كان جريئا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المماحكة مقداما على الحكام كان ذلك اقرب له الى النصفة بجراءته منهم ومماحكته والافلابد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من معامليه فيحصل له بذلك النصفة فى ماله طوعا فى الاول وكرها فى الثانى وأمامن كان فاقدا للجراءة والاقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغى له ان يجتنب الاحتراف بالتجارة لانه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير ماكلة للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لان الغالب فى الناس وخصوصا الرعاع والباعة شرهون الى مافى ايدى الناس سواهم متوثبون عليه ولولا وازع الاحكام لاصبحت أموال الناس نهبا ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين

١١ *(فصل فى ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك)*

وذلك ان التجار فى غالب أحوالهم انما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من المكايسة ضرورة فان اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها وهى أعنى خلق المكايسة بعيدة عن المروأة التى تتخلق بها الملوك والاشراف وأما ان استرذل خلقه بما يتبع ذلك فى أهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والغش والخلابة وتعاهد الايمان الكاذبة على الاثمان ردا وقبولا فاجدر بذلك الخلق ان يكون فى غاية المذلة لما هو معروف ولذلك تجد أهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لاجل ما يكسب من هذا الخلق وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم جلاله الا انه فى النادر بين الوجود والله يهدى من يشاء بفضله وكرمه وهو رب الاولين والآخرين

١٢ *(فصل فى نقل التاجر للسلع)*

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الا ما تعم الحاجة اليه من الغنى والفقير والسلطان والسوقة اذ فى ذلك نفاق سلعته واما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه البعض فقط فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ باعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسد سوقه وتفسد أرباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها فان العالى من كل صنف من السلع انما يختص به اهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس اسوة فى الحاجة الى الوسط من كل صنف فليتحر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته او كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة او فى شدة الخطر فى الطرقات يكون اكثر فائدة

بما يستحيل عليه وأضافوا اليه ما يتقدس عنه وسلبوه ما يجب له من الاسماء الحسنى والصفات العلى فمنهم من قال هو ثالث ثلاثة ومنهم من قال له زوجة ومنهم من قال له ابن ومنهم من قال له البنات ومنهم من يجسمه ومنهم من يشبهه ومنهم من أنكره رأسا وقال مالِلخالق صانع كما حكاه الخالق عنه فقال نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وهو مع ذلك يحييهم ويبقيهم ويصح أجسامهم وحواسهم ويرزقهم وينعشهم ويقضى مآربهم واوطارهم ويمتعهم متاعا حسنا ويبلغهم آمالهم فى معظم ما يحتاجون اليه فعاصيهم اليه صاعدة وبركاته عليهم نازلة كل يعمل على شاكلته وينفق مما عنده وكل ذى حال اولى بها (وفى مناجاة) موسى عليه السلام انه قال الهى أسالك أن لا يقال فى ماليس فى فاوحى الله تعالى اليه ذلك شئ مافعلته لنفسي فكيف أفعله بك وفى هذه السيرة عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن ادكر مع انك ان التمست رضا جميع الناس التمست مالا يدرك وكيف يدرك رضا المختلفين فيا أيها الملك الذى قد كتب الله عليه الفناء والعمر القصير والزمان اليسير والايام المعدودة والانفاس المحصورة كيف أردت ان يصفو لك من الرعية مالم يصف منهم لخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم هيهات هيهات بعد ما أملت ومستحيل ما طلبت فلك فى الله اسوة حسنة ان ترضى منهم بما رضى منهم خالقهم وتسير فيهم بسيرة ربهم فيهم ألم تر كيف أحسن اليك فرضى منك باليسير من العمل وا كثر لك من النعم من الاموال والخول فانظر كيف يستر زلاتك ويتغمد سيآتك ولا يفضحك فى خلواتك ففى هذا ما يهذب النفوس

الخصلة التي فيها ملجأ الملوك عند الشدائد ومعقل السلاطين عند اضطراب الامور وتغير الوجوه والاحوال)* أيها الملك اذا اعتلجت الامور في صدرك واضطربت عليك القواعد ومرجت في قلبك وجوه الرأي وتنكرت عليك المعارف واكفهر لك وجه الزمان فلا يغلبنك خصلتان اترك للناس دينهم ودنياهم ولك الامان من طوارق الحدثان ومايأتي به الملوان وقد روي أن المأمون قال في آخر موافقة مع أخيه الامين وقد نفدت بيوت الاموال والحت الاجناد في طلب أرزاق المأمون بقيت لأخي خصلة لوفعلها ملك موضع قدمي هاتين قيل له وماهي فقال والله اني لاضن بها على نفسي فكيف على غيري فلما خلص له الامر سئل عن تلك الخصلة فقال لوان الامين نادى في جميع بلاده انه قد حط الخراجات والوظائف السلطانية وسائر الجبايات عشر سنين لملك الامر علي ولكن الله غالب على أمره ولما خشي المأمون انتقاض بيعته مع أهل خراسان في أمر فتنته مع أخيه الامين استشار الفضل بن سهل وكان وزيره فقال له الفضل قد قرأت القرآن وحديث الرسول عليه السلام والذي عندي ان تجمع الفقهاء وتدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السيرة وبسط العدل والقعود على

للتجار وأعظم ارباحا وأكفل بحوالة الاسواق لان السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها اوشدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذا قلت وعزت غلت أثمانها وأما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء الافي أماكن معلومة يهتدي اليها أدلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من أجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى المشرق لبعد الشقة أيضا واما المترددون في أفق واحد مابين امصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وارباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها والله هو الرزاق ذو القوة المتين

١٣ *(فصل في الاحتكار)*

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الامصار ان احتكار الزرع لتحين اوقات الغلاء مشؤوم وانه يعود على فائدته بالتلف والخسران وسببه والله أعلم ان الناس لحاجتهم الى الاقوات مضطرون الى ما يبذلون فيها من المال اضطرارا فتبقى النفوس متعلقة به وفي تعلق النفوس بما لها سر كبير في وباله على من يأخذه مجانا ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن مجانا فالنفوس متعلقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره وما عدا الاقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس اليها وانما يبعثهم عليها التفنن في الشهوات فلا يبذلون أموالهم فيها الا باختيار وحرص ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذه من اموالهم فيفسد ربحه والله تعالى اعلم * وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب أخبرني شيخنا أبو عبد الله الابلي قال حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليلي وقد عرض عليه أن يختار بعض الالقاب المخزنية لجرايته قال فاطرق مليا ثم قال لهم من مكس الخمر فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك فقال اذا كانت الجبايات كلها حراما فاختار منها مالا تتابعه نفس معطيه والخمر قل أن يبذل فيها أحد ماله الا وهو طرب مسرور بوجدانه غير أسف عليه ولا متعلقة به نفسه وهذه ملاحظة غريبة والله سبحانه وتعالى يعلم ماتكن الصدور

١٤ *(فصل في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص)*

وذلك ان الكسب والمعاش كما قدمناه انما هو بالصنائع أو التجارة والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حوالة الاسواق بالزيادة في اثمانها ويسمى ربحا ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائما فاذا استديم الرخص في سلعة او عرض من مأكول او ملبوس او متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الاسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف فقعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤس اموالهم واعتبر ذلك اولا بالزرع فانه اذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته او فقده فيفقدون النماء في اموالهم او يجدونه على قلة ويعودون بالانفاق على رؤس اموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين ايضا بالطحن والخبز وسائر مايتعلق بالزراعة من الحرث الى صيرورته مأكولا وكذا يفسد حال الجند اذا كانت ارزاقهم من السلطان على اهل الفلح زرعا فانها تقل جبايتهم من

ذلك ويعجزون عن اقامة الجندية التى هم بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتفسد احوالهم وكذا اذا استديم الرخص فى السكر او العسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا الملبوسات اذا استديم فيها الرخص فاذا الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذا الغلاء المفرط أيضا وانما معاش الناس وكسبهم فى التوسط من ذلك وسرعة حوالة الاسواق وعلم ذلك يرجع الى العوائد المتقررة بين اهل العمران وانما يحمد الرخص فى الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة اليه واضطرار الناس الى الاقوات من بين الغنى والفقير والعالة من الخلق هم الاكثر فى العمران فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة فى هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

١٥ *(فصل فى ان خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروأة)*

قد قدمنا فى الفصل قبله ان التاجر مدفوع الى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والارباح ولا بد فى ذلك من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج وهى عوارض هذه الحرفة وهذه الاوصاف نقص من الذكاء والمروأة وتجرح فيها لان الافعال لا بد من عود آثارها على النفس فافعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء وافعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ ان سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة فى النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت اصناف التجار فى اطوارهم فمن كان منهم سافل الطور مخالفا الاشرار الباعة اهل الغش والخلابة والفجور فى الاثمان اقرارا وانكارا كانت رداءة تلك الخلق عنه أشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروأة واكتسابها بالجملة والا فلا بد له من تأثير المكايسة والمماحكة فى مروأته وفقدان ذلك منهم فى الجملة ووجود الصنف الثانى منهم الذى قدمناه فى الفصل قبله انهم يدرعون بالجاه ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر واقل من النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب او ورثه عن احد من اهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال باهل الدولة وتكسبه ظهورا وشهرة بين اهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه الى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ويسهل له الحكام النصفة فى حقوقهم بما يؤنسونه من بره واتحافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الافعال المقتضية لها كما مر فتكون مروأتهم أرسخ وابعد عن تلك المحاجاة الا ما يسرى من آثار تلك الافعال من وراء الحجاب فانهم يضطرون الى مشارفة احوال أولئك الوكلاء ووفاقهم او خلافهم فيما يأتون او يذرون من ذلك الا انه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خلقكم وما تعملون

١٦ *(فصل فى ان الصنائع لا بد لها من المعلم)*

(اعلم) ان الصناعة هى ملكة فى امر عملى فكرى وبكونه عمليا هو جسمانى محسوس والاحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل لان المباشرة فى الاحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الاصل تكون الملكة ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه أكمل وارسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذى يختص بالضروريات والمركب هو الذى يكون للكماليات والمتقدم منها فى التعليم هو البسيط لبساطته اولا ولانه مختص

البلد وتواصل النظر فى المظالم وتكرم القواد والملوك وابناء الملوك وتعهد بالمواعيد الكريمة والمراتب السنية والولايات المشاكلة ففعل ذلك وحط عن أهل خراسان ربع الخراج فمالت وجوه الخلائق اليه وكانوا يقولون ابن أختنا وابن عم نبينا عليه السلام وانقاد اليه رافع بن الليث وكان من عظماء الملوك بخراسان ويدخل تحت هذه الترجمة أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند وهو أن تصطنع وجوه كل قبيلة والمتقدمين من كل عشيرة وتحسن الى حملة القرآن والعلم وحفاظ الشريعة وتدنى مجالسهم وتقريب الصالحين والمتزهدين وكل متمسك بعروة الدين وكذلك فليفعل بالاشراف من كل قبيلة والرؤساء المتبوعين من كل نمط فهؤلاء هم أزمة الخلق وبهم يملك من سواهم فمن كمال السياسة والرياسة أن تبقى على كل ذى رياسة رياسته وعلى كل ذى عز عزته وعلى كل ذى منزل منزلته فحينئذ يكون الرؤساء لك اعوانا ومن دانت له الفضلاء من كل قبيلة فاخلق به أن يدوم سلطانه والعامة والاتباع دون مقدميهم وساداتهم واتباعهم أجساد بلا رؤس واشباح بلا أرواح ولما قامت العامة على السلطان بقرطبة ولبسوا السلاح كان شيخ جالس على كيره يعالج صنعته فقال ما بال الناس قالوا قامت العامة على السلطان قال ولهم رأس قالوا لا قال شق الكير يا صبى فذهبت مثلا *(الباب الثامن والثلاثون فى بيان الخصال الموجبة لذم الرعية للسلطان)* قال حكيم الفرس ذم الرعية للملك على ثلاثة أوجه اما كريم قصر به عن قدره فاورثه ذلك ضغنا واما لئيم

بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط شيأ فشيأ على التدريج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في ازمان واجيال اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الامور الصناعية فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط فاذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل وتنقسم الصنائع أيضا الى ما يختص بامر المعاش ضروريا كان او غير ضروري والى ما يختص بالافكار التي هي خاصية الانسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الاول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وامثالها ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وامثال ذلك ومن الثالث الجندية وامثالها والله اعلم

١٧ *(فصل في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته)*

والسبب في ذلك ان الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة انما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الاعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش ثم ان الصنائع والعلوم انما هي للانسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة واما العمران البدوي او القليل فلا يحتاج من الصنائع الا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط او حائك أو جزار واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وانما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها وسائل الى غيرها وليست مقصودة لذاتها واذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصائغ وامثال ذلك وقد تنتهي هذه الاصناف اذا استبحر العمران الى ان يوجد منها كثير من الكمالات والتأنق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الاعمال لما يدعو اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والسفاج والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فان هذه الصناعة انما يدعو اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الانسية وتخييل أشياء من العجائب بايهام قلب الاعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الاثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لان عمران امصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة ادام الله عمرانها بالمسلمين

١٨ *(فصل في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امدها)*

والسبب في ذلك ظاهر وهو ان هذه كلها عوائد للعمران والوان والعوائد انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ولهذا نجد في الامصار

بلغ به فوق قدره فاورثه ذلك بطرا واما رجل منع حظه من الانصاف وفي الامثال احسانك الى الحر يبعثه على المكافأة واحسانك الى اللئيم الخسيس يبعثه على معاودة المسئلة (وقيل) للاسكندر ان فلانا ينتقصك ويسيء الثناء عليك فقال أنا أعلم انه ليس بشرير فينبغي أن نعلم هل ناله من ناحيتنا أمر دعاه الى ذلك فبحث عن حاله فوجد هارثة فامر له بصلة سنية فبلغه بعد ذلك انه بسط لسانه بالثناء عليه فقال أما ترون ان الامر الينا ان يقال فينا خير أو شر ينبغي للسلطان ان لا يتخذ الرعية مالا وقنية فيكونوا عليه بلاء وفتنة ولكن يتخذهم أهلا واخوانا فيكونون له جندا وأعوانا وقد سبق المثل اصلاح الرعية خير من كثرة الجنود

(الباب التاسع والثلاثون في مثل السلطان العادل والجائر)

مثل السلطان العادل مثل الياقوتة النفيسة الرفيعة في وسط العقد ومثل الرعية مثل سائر الشذر فلا تلحظ العيون الا الواسطة واول ما يبصر المقلبون وينقد الناقدون الواسطة وانما يثني المثنون على الواسطة وكلما حسنت الواسطة عمرت سائر الشذر فلا يكاد يذكر كما قال ابن صعدة لقيت بالحجاز بين مكة والمدينة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما فسفرت لي عن وجه ابنتها واذا وجه كأنه قطعة قمر وقد أثقلتها بالجواهر واليواقيت وأنواع الدرر فالتفتت الي وقالت والله ما ألبسته عليها الا لتفضحه وكان ان جمال التي السلك أن يلي الواسطة الافضل فالافضل من الشذر وان كان على خلاف ذلك كان سيئ النظم كذلك السلطان ينبغي أن يكون الاقرب

التى كانت استبحرت فى الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الامصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها فى الوفور والكثرة وماذاك الا لان أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال فى الاندلس لهذا العهد فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها كالمبانى والطبخ واصناف الغناء واللهو من الآلات والاوتار والرقص وتنضيد الفرش فى القصور وحسن الترتيب والاوضاع فى البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجمع المواعين واقامة الولائم والاعراس وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار وان كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوى عمران غيرها من بلاد العدوة وماذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الاموية وماقبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم جرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر الا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران لا تفارقه الى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ اذا رسخ فى الثوب وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها فى ذلك من الصنائع فى سائر الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الا أنه متضاعف برسوم منها تنقل اليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى قطر مصر فى كل سنة وربما سكن أهلها هناك عصورا فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها فى ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الاندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وان كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد الا أن الصبغة اذا استحكمت فقليلا ما تحول الا بزوال محلها وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثرا باقيا من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا أو فى حكم الخراب ولا يتفطن لها الا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثارا تدله على ما كان بها كأثر الخط الممحو فى الكتاب والله الخلاق العليم

١٩ *(فصل فى ان الصنائع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها)*

والسبب فى ذلك ظاهر وهو أن الانسان لا يسمح بعمله أن يقع مجانا لانه كسبه ومنه معاشه اذ لا فائدة له فى جميع عمره فى شئ مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة فى مصره ليعود عليه بالنفع وان كانت الصناعة مطلوبة وتوجه اليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التى تنفق سوقها وتجلب للبيع فتجتهد الناس فى المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها فاختصت بالترك وفقدت للاهمال ولهذا يقال عن على رضى الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن بمعنى أن صناعته هى قيمته أى قيمة عمله الذى هو معاشه وأيضا فهنا سر آخر وهو أن الصنائع واجادتها انما تطلبها الدولة فهى التى تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها ومالم تطلبه الدولة وانما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها لان الدولة هى السوق الاعظم وفيها نفاق كل شئ والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما نفق منها كان أكثر بالضرورة والسوقة وان طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

فالاقرب اليه أهل العلم والعقل والادب والرأى والاصالة والشرف والحصافة وذوى الكمال من كل قبيلة وان كان على خلاف ذلك كان نقصا فى التدبير وكما أن جمال العقد بواسطته كذلك جمال الرعية بكمال

سلطانهم وفضله وبراعته وعدله ومثل السلطان الجائر مثل الشوكة فى الرجل فصاحبها تحت ألم وقلق ويتداعى لها سائر الجسد ولا يزال صاحبها يروم قلعها ويستعين بما فى مسوره من الآلات والمناقيش والابر على اخراجها لانها فى غير موضعها الطبيعى ويوشك ان تقلع بالاجرة فاين غرز الياقوت من شوك القتاد

(الباب الموفى أربعين فيما يجب على الرعية اذا جار السلطان)

اعلم أرشدك الله ان الزمان وعاء لاهله ورأس الوعاء أطيب من أسفله كما ان رأس الجرة ارق وأصفى من أسفلها فلئن قلت ان الملوك اليوم ليسوا كمن مضى من الملوك فالرعية أيضا ليسوا كمن مضى من الرعية ولست بان تذم أميرك اذا نظرت آثار من مضى منهم باولى من يذملك أميرك اذا نظر آثار من مضى من الرعية فاذا جار عليك السلطان فعليك الصبر وعليه الوزر (روى) البخارى عن عبادة بن الصامت قال بايعنا النبى عليه السلام فكان فيما أخذ علينا ان بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وان لا ننازع الامر أهله الا ان تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان ومنه قال ابن عباس من كره من أميره شيأ فليصبر عليه فانه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية . ومنه قال ابن مسعود قال لنا

٢٠ *(فصل في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع)*

وذلك لما بينا أن الصنائع انما تستجاد اذا احتيج اليها وكثر طالبها واذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاص عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لان صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر الى غيرها أو يموت ولا يكون خالف منه فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصناعات في التناقص ما زال المصر في التناقص الى أن تضمحل والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى

٢١ *(فصل في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع)*

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لانهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها ولهذا تجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الامم من عندهم وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الامصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه ودبغه فانهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الامم الاقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني اسرائيل ويونان والروم أحقابا متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكه العرب الا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين في أمم كثيرين منهم واختطوا امصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٢ *(فصل فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعدها ملكة في اخرى)*

ومثال ذلك الخياط اذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء الا أن تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا لحصولها فاذا تلونت النفس بالملكة الاخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الاخرى أضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى أن أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل ان يجيد ملكة

علم

النبي عليه السلام انكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال أدوا لهم حقوقهم واسألوا الله حقكم (وروى) أبو داود في سننه ان النبي عليه السلام قال سيأتيكم ركب مبغضون يطلبون منكم ما لا يجب عليكم فاذا سألوا ذلك فاعطوهم ولا تسبوهم ولا تدعوا لهم وهذا حديث عظيم الموقع في هذا الباب فتدفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا ننازعهم فيه ونكف ألسنتنا عن سبهم يا عبد الله لا تجعل سلاحك على من ظلمك الدعاء عليه ولكن الثقة بالله فلا محنة فوق محنة ابراهيم عليه السلام لما جعلوه في كفة المنجنيق ليقذف به في النار قال اللهم انك تعلم انما في بك وعداوة قومي فيك فانصرني عليهم واكفني كيدهم (وقال) مالك بن دينار وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى اني انا الله ملك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا الى الله أعطفهم عليكم وفي بعض الكتب ابن آدم تدعو على من ظلمك ويدعو عليك من ظلمته فان شئت أجبناك وأجبنا عليك وان شئت أخرت الامر الى يوم القيامة فيسعكم العفو (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام لا تجعل مجالك في الاعداء المكافاة ولكن الثقة بالله وروى أبو داود في السنن قال سرقت ملحفة لعائشة رضي الله عنها فجعلت تدعو على من أخذها فسمعها النبي عليه السلام فقال لا تسبخي عنه يعني لا تخففي عنه فنهاها عن الدعاء على الظالم كما ترى فاذا قال المظلوم في دعائه اللهم لا توفقه فقد دعا على نفسه

وعلى سائر الرعية لانه من قلة توفيقه ظالمك ولو كان موفقا ما ظلمك فان استجيب دعاؤك فيه زاده الله ظلما ومن الالفاظ المروية عن سلف هذه الامة قولهم لو كانت عندنا دعوة مستجابة ما جعلناها الا في السلطان (وقال) (٢٤١) الفضيل لو ظفرت ببيت المال لاخذت من

علم آخر على نسبته بل يكون مقصرا فيه ان طلبه الا في الاقل النادر من الاحوال ومبنى سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

٢٣ *(فصل في الاشارة الى امهات الصنائع)*

اعلم ان الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في العمران فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد الا أن منها ما هو ضروري في العمران او شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ماسواها فاما الضروري فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب فاما التوليد فانها ضرورية في العمران وعامة البلوى اذ بها تحصل حياة المولود ويتم غالبا وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهاتهم وأما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني وأما الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك الاعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وماسوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعي والله اعلم بالصواب

٢٤ *(فصل في صناعة الفلاحة)*

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على اثارة الارض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل أسبابه ودواعيه وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالبا اذ يمكن وجوده من دون جميع الاشياء الا من دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو اذ قدمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها لان أحوالهم كلها ثانية على البداوة فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد

٢٥ *(فصل في صناعة البناء)*

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكن والمأوى للابدان في المدن وذلك أن الانسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الاذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها والبشر مختلف في هذه الجبلة الفكرية فمنهم المعتدلون فيها يتخذون ذلك باعتدال أهل الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم من ادراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طروق بعضهم بعضا فيحتاجون الى حفظ مجتمعهم بادارة ماء او أسوار تحوطهم ويصير جميعا مدينة واحدة ومصرا واحدا ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الى الانتصاف ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الامراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف احوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ

حلاله وصنعت منه أطيب الطعام ثم دعوت الصالحين وأهل الفضل من الاخيار والابرار فاذا فرغوا قلت لهم تعالوا ندعو ربنا ان يوفق ملوكنا وسائر من يلي علينا وجعل اليه أمرنا ولما قدم معاوية المدينة دخل دار عثمان فقالت عائشة ابنة عثمان واأبتاه فقال معاوية يا بنت أخي ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا وأظهرنا لهم حلما تحت غضب واظهروا لنا طاعة تحتها حقد ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره فان نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري اعلينا تكون ام لنا ولان تكوني ابنة عم امير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض المسلمين (وروى) ان رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له فاستعدى عليه الى المنصور فقال له اصلحك الله اذكر حاجتي ام اضرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب لي قبلها مثلا قال اصلحك الله ان الطفل الصغير اذا نابه امر يكرهه فانه يفر الى امه اذ لا يعرف غيرها وظنا منه انه لا ناصر فوقها فاذا ترعرع واشتد فاوذي كان فراره وشكواه الى ابيه لعلمه

بان اباه اقوى من امه على نصرته فاذا بلغ وصار رجلا وحزبه امر شكا الى الوالي لعلمه بانه اقوى من ابيه فاذا زاد عقله واشتدت شكيمته شكا الى السلطان لعلمه بانه اقوى من سواه فان لم ينصفه السلطان شكا الى الله عز وجل وقد نزلت بي نازلة

وليس فوقك احد اقوى منك فان انصفتني والا رفعت امرها الى الله في الموسم فاني متوجه الى بيته وحرمه اذ ليس فوقك احد الا الله

تعالى قال بل ننصفك وامر بان يكتب الى واليه برد ضيعته اليه

لم ازل اسمع الناس يقولون أعمالكم عمالكم كما تكونوا يولى عليكم الى ان ظفرت بهذا المعنى في القرآن قال الله تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا وكان يقال ما أنكرت من زمانك فانما أفسده عليك عمالك وقال عبد الملك بن مروان أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرتهما نسأل الله أن يعين كلا على كل (وقال) قتادة قالت بنو إسرائيل الهنا أنت في السماء ونحن في الارض فكيف نعرف رضاك من سخطك فاوحى الله تعالى الى بعض أنبيائهم اذا استعملت عليكم خياركم فقد رضيت عنكم واذا استعملت عليكم شراركم فقد سخطت عليكم وقال عبيدة السلماني لعلي رضي الله عنه يا أمير المؤمنين ما بال أبي بكر وعمر انطاع الناس لهما والدنيا عليهما أضيق من شبر فاتسعت عليهما ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم ينطاعوا لكما وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر فقال لان رعية أبي بكر

وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان ورعيتي أنا اليوم مثلك وشبهك (وكتب) اخ لمحمد بن يوسف يشكو اليه جور ومن

العمال فكتب اليه محمد بن يوسف بلغني كتابك تذكر ما أنتم فيه وليس ينبغي لمن يعمل بالمعصية ان ينكر العقوبة وما أرى ما أنتم فيه الا من

القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالاصبغة والجص ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق اظهارا للبسطة بالعناية في شأن المأوى ويهيئ مع ذلك الاسراب والمطامير للاختزان لاقواته والاصطبلات لربط مقرباته اذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالامراء ومن في معناهم ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضا عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون في اتقان الاوضاع وعلو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الاقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه اذ الاقاليم المنحرفة لا بناء فيها وانما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وانما يوجد في الاقاليم المعتدلة وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعا كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الاساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه ويختلط أجزاؤه ثم يزاد التراب ثانيا وثالثا الى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة ويركز كذلك الى أن يتم وينظم الالواح كلها سطرا من فوق سطر الى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب ومن صنائع البناء أيضا أن تجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية المفسدة للالحام فاذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك الى أن يلتحم ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت ومن فوقها الالواح كذلك موصولة بالدساتر ويصب عليها التراب والكلس ويبسط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالي عليها الكلس كما يعالي على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع الى التنميق والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الاشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسدا وفيه بقية البلل فيشكل على التناسب تخريما بمثاقب الحديد الى أن يبقى له رونق ورواء وربما عولي على الحيطان أيضا بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السبج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة الى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسفح الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة الخرط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري الى الصهريج يجلب اليه من خارج في القنوات المفضية الى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون وربما يرجع الحكام الى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء وذلك أن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء الاعلى والاسفل

ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر فى الحيطان فيمنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضا فى استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة فى القنوات وربما يدعى بعضهم حق بعض فى حائطه أو علوه او قناته لتضايق الجوار أو يدعى بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو يحتاج الى قسمة دار أو عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معها فساد فى الدار ولا اهمال لمنفعتها وأمثال ذلك ويخفى جميع ذلك الا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه فى القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر والخبرة التى ليست لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور فى الاجيال باعتبار الدول وقوتها فانا قدمنا ان الصنائع وكمالها انما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك عندما تكون الدولة بدوية فى أول أمرها تفتقر فى أمر البناء الى غير قطرها كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية فى الفعلة المهرة فى البناء فبعث اليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياه باخذ الارتفاع وامثال ذلك فيحتاج الى البصر بشئ من مسائله وكذلك فى جر الاثقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها الى مكانها من الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بادخاله فى المعالق من اثقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وهذا انما يتم باصول هندسية معروفة متداولة بين البشر وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التى يحسب الناس انها من بناء الجاهلية وان ابدانهم كانت على نسبتها فى العظم الجسمانى وليس كذلك وانما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

٢٦ *(فصل فى صناعة النجارة)*

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك ان الله سبحانه وتعالى جعل للآدمى فى كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته او حاجاته وكان منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل احد ومن منافعها اتخاذها خشبا اذا يبست واول منافعه ان يكون وقودا للنيران فى معاشهم وعصيا للاتكاء والذود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم لما يخشى ميله من اثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لاهل البدو والحضر فاما اهل البدو فيتخذون منها العمد والاوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسى والسهام لسلاحهم واما اهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاغلاق لابوابهم والكراسى لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها ولا تصير الى الصورة الخاصة بها الا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب اولا اما بخشب اصغر منه او ألواح ثم تركيب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو فى كل ذلك يحاول بصنعته اعداد تلك الفصائل بالانتظام الى ان تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضرورى فى العمران ثم اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف او باب او كرسى او ماعون حدث التأنق فى صناعة ذلك

شؤم الذنوب والسلام

(الباب الثانى والاربعون فى بيان الخصلة التى تصلح بها الرعية)

اعلم ان ادمى خصال السلطان الى اصلاح الرعية وأقواها أثرا فى تمسكهم باديانهم وحفظهم لمروآتهم اصلاح السلطان نفسه وتنزهه عن سفساف الاخلاق وبعده عن مواضع الريب وترفيعه نفسه عن استصحاب البطالة والمجون واللعب واللهو والاعلان بالفسوق وقد كانت صحبة محمد الامين لذلك الرجل الخليع والماجن الرقيع أبى نواس الشاعر وصمة عظيمة عليه اوهن بها سلطانه ووضع عند الخاص والعام قدره وأطلق السنة الخلق بالشتم والثناء القبيح على نفسه فخلعه بذلك أخوه المأمون عن الولاية ووجه طاهر بن الحسين لمحاربته ببغداد وحاربه حتى قتله وانفذ برأسه الى المأمون وكان يعمل كتبا تقرأ على المنابر من خراسان ويقف الرجل فيذم اهل العراق فيقول اهل فسوق وفجور وماخور ويعيب الامين بذلك فيقول استصحب ابا نواس شاعرا ماجنا كافرا استخلصه معه لشرب الخمور وارتكاب المآثم ونيل المحارم وهو القائل

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سرا اذا امكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعنى من الكنى
فلا خير فى اللذات من دونها ستر

حتى تغيرت عليه نفوس الخلق وتنكرت له وجوه الورى فلما بلغ الامين حبسه ثم اطلقه بعد ان اخذ عليه ان لا يشرب خمرا ولا يقول فيه شعرا فمتى اراد السلطان اصلاح رعيته وهو متماد على سيئ اخلاقه كان كمن اراد بقاء الجسد مع فقد

واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الأبواب والكراسي ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يحكم بريها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدسائر فتبدو لرأي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجيء آنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدسر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير إما عموما وخصوصا وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجارا وبها كان يعرف وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال إن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكنا أعني كونه نجارا إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة لأنه لم يصح حكايتها عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٧ * (فصل في صناعة الحياكة والخياطة) *

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سدا في الطول وإلحاما في العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل أولا بالمقراض قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو تنبيتا أو تفسحا على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالا وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه لا طيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفا ولا تعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقه مع أنه يفقدها بالموت ضرورة وإنما يجيء كأنه وارد إلى المحشر ضارعا بقلبه مخلصا لربه وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه سبحانك ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم إليك * وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام وهو أقدم الأنبياء وربما ينسبونها إلى هرمس وقد يقال إن هرمس هو إدريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

جده بلغ كنه أمانيه (وسئل) بعض الحكماء بم ينتقم الإنسان من عدوه فقال بإصلاح نفسه ولأبي الفتح البستي

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا * فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وصحبة الأشرار تورث الشر كالريح إذا مرت على النتن حملت نتنا وإذا مرت على الطيب حملت طيبا فمحال استصلاح رعيتك وأنت فاسد وإرشادهم وأنت غاو وهدايتهم وأنت ضال وقد سبق المثل ومن العجائب أعمش كحال وتقول العرب يا طبيب طب نفسك وكيف يقدر الأعمى على أن يهدي والفقير على أن يغني والذليل على أن يعز فبعدك عن تطهير غيرك من العيوب قبل تطهير نفسك كبعد الطبيب عن إبراء غيره من داء به مثله (وقال) بعض حكماء الهند لأن يبلغ ألف رجل في إصلاح رجل واحد بحسن القول دون حسن الفعل كما يبلغ رجل واحد في إصلاح ألف رجل بحسن الفعل دون القول وفيه قال القائل

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء من السقام لذي الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم
ما زلت تلقح بالرشاد عقولنا * عظة وأنت من الرشاد عديم

فصل

٢٨ *(فصل في صناعة التوليد)*

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن امه من الرفق في اخراجه من رحمها وتهيئة اسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الامر لما انهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الاعطاء والقبول كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله وذلك ان الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم واطواره وبلغ الى غايته والمدة التي قدر الله لمكثه وهي تسعة اشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان في الاغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الاسافل تساوق بذلك فعل الدافعة في اخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدي الى معرفة عسره ثم اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي او بما تراه من وجوه الاندمال ثم ان الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح حتى يرجع كل عضو الى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويا ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج اغشية الجنين لانها ربما تتأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك ان تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الاغشية وهي فضلات فتعفن ويسري عفنها الى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في اعانة الدفع الى ان تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تأخرت ثم ترجع الى المولود فتمرخ اعضاءه بالادهان والذرورات القابضة لتشده وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق ثم تداوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي اصابها بالطلق وما لحق رحمها من الم الانفصال اذ المولود ان لم يكن عضوا طبيعيا فحالة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فلذلك كان في انفصاله الم يقرب من الم القطع وتداوي مع ذلك ما يلحق الفرج من الم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج وهذه كلها ادواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من ادواء في بدنه الى حين الفصال نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر وما ذلك الا لان بدن الانسان في تلك الحالة انما هو بدن انساني بالقوة فقط فاذا جاوز الفصال صار بدنا انسانيا بالفعل فكانت حاجته حينئذ الى الطبيب أشد فهذه الصناعة كما تراه ضرورية في العمران للنوع الانساني لا يتم كون اشخاصه في الغالب دونها وقد يعرض لبعض اشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة اما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما في حق الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم او بالهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة فاما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا ومنه ما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم ولد مسرورا مختونا واضعا يديه على الارض شاخصا ببصره الى السماء وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك واما شأن الالهام فلا ينكر واذا كانت الحيوانات العجم تختص بغرائب من الالهامات كالنحل وغيرها فما

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم فهناك يقبل ما تقول ويقتدى * بالرأي منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم ولكن أقوى الاسباب (٢٤٥) في صلاحهم عند فوت صلاحه استعماله عليهم الخاصة منهم وذوي الاحلام والمروآت القائمة والاذيال الطاهرة فني رأس العامة سراتهم فهو الطريق الى حفظ اديانهم ومروآتهم وتماسكهم عن الانهماك في المحظورات وملابسة المحرمات وقال الشاعر

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

(وقال) مردك الفارسي خلتان في السلطان أقرب الى صلاح الرعية مما سواهما ثقة الرأي وشدة الرحمة وما أحق السلطان أن يسلك بالرعية كل سبيل يصلحون عليه ويسودون معه فحينئذ يكون رئيس الرؤساء وأميرا على السادة والفضلاء وان أهملهم وركوب شهواتهم وتوسط لذاتهم ذهبت اديانهم وسقطت مروآتهم وبقوا كما جاء المثل في الجماعة المذمومة تقول العرب في القوم لا رؤساء فيهم ولا سروات بينهم هم سواسية كاسنان الحمار وتقول سواسية كاسنان المشط وفيهم يقول الشاعر

سواس كاسنان الحمار فلا ترى
لذي شيبة منهم على ناشئ فضلا

ولان يكون أميرا على الفضلاء والرؤساء خير من أن يكون أميرا على الاخساء والرمادية والغوغاء والادنياء (وقد قال) عبد الملك بن مروان يوما وقد استقام له الامر من يعذرني من عبد الله بن عمر فانه أبى ان يدخل في سلطاني فقال بعض جلسائه تستحضره وتضرب عنقه وتستريح

ظنك بالانسان المفضل عليها وخصوصا بمن اختص بكرامة الله * ثم الالهام العام للمولودين في الاقبال على الثدي اوضح شاهد على وجود الالهام العام لهم فشأن العناية الالهية أعظم من أن يحاط به ومن هنا يفهم بطلان رأي الفارابي وحكماء الاندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكونات وخصوصا في النوع الانساني وقالوا لو انقطعت اشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك لتوقفه على هذه الصناعة التي لا يتم كون الانسان الا بها اذ لو قدرنا مولودا دون هذه الصناعة وكفالتها الى حين الفصال لم يتم بقاؤه اصلا ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لانها ثمرته وتابعة له وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته اياه وذهابه الى امكان انقطاع الانواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانيا لاقتضاآت فلكية وأوضاع غريبة تندر في الاحقاب بزعمه فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه انسانا ثم يقيض له حيوان يخلق فيه الهام لتربيته والحنو عليه الى أن يتم وجوده وفصاله وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وان كنا نوافقه على انقطاع الانواع لكن من غير ما استدل به فان دليله مبني على اسناد الافعال الى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الافعال والقدرة القديمة ولا حاجة الى هذا التكلف * ثم لو سلمناه جدلا فغاية ما ينبني عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الالهام لتربيته في الحيوان الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك واذا كان الالهام يخلق في الحيوان الاعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه اولا وخلق الالهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررته لك والله تعالى أعلم

٢٩ *(فصل في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية)*

هذه الصناعة ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للاصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من امراضهم واعلم ان اصل الامراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة فاما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الدواء فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام والمعنى ان الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الادوية وأما قوله اصل كل داء البردة فمعنى البردة ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الاول وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالاكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية الى أن يصير دما ملائما لاجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذه النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى يصير جزأ بالفعل من البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل في الفم ولاكته الاشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشئ كما تراه في اللقمة اذا تناولتها طعاما ثم أجدتها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى ان يصير كيموسا وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله الى الكبد وترسل ما رسب منه في المعا ثفلا ينفذ الى المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس الى ان يصير دما عبيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء وترسب منه أجزاء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشئ عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزي هنالك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون

منه فقال عبد الملك ويلك اذا قتلت ابن عم رغل من أكون أميرا ولما صار داود الى الحجاز في الدولة العباسية ليقتل من هنالك من بني أمية قال له عبد الله بن الحسن يا ابن عم اذا اسرعت في قتل أكفائك فمن تباهي بسلطانك اعف يعف الله عنك فعفا (وقال) ارسطاطاليس للاسكندر استصلح الرعية وأذهب شرهم تكون رئيس الاخيار ممدوحين ولا تكون رئيسا لاشرار مذمومين فتكون كراعي البقر

(الباب الثالث والاربعون فيما يملك السلطان من الرعية)*

كتب ارسطاطاليس الى الاسكندر املك الرعية بالاحسان تظفر منهم بالمحبة فان طلب ذلك منهم بالاحسان هو أدوم بقاء منهم بالاعتساف واعلم انك انما تملك الابدان فتخطاها الى القلوب بالمعروف (واعلم) انه اذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية واذا جار لم يملك منهم الا الرياء والتصنع وفي سير المتقدمين قلوب الرعية خزائن ملوكها فما أودعوها من شئ فليعلموا أنه فيها (واعلم) ان الرعية اذا قدرت على ان تقول قدرت على ان تفعل فاجتهد أن لا تقول تسلم من ان تفعل وليس هذا خلاف ما روي عن معاوية ان رجلا اغلظ له فحلم عليه فقيل له أتحلم على مثل هذا فقال اني لا احول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا وذلك ان تفسير قوله فاجتهد أن لا تقول يعني اذا عدلت لم يتكلموا بشئ وهذه السيرة أحسن من سيرة اردشير لما رفع اليه أن جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم فوقع نحن معاشر الملوك انما نملك الاجساد لا النيات ونحكم بالعدل لا بالرضا ونفحص

عن الاعمال لا عن السرائر (قلت) وانما تحسن هذه السيرة لمن عجز عن الاولى لان ملك الاجساد قد يكون بالعدل والظلم وملك القلوب
لا يكون الا بالعدل وأين هذا من قوله وقد رفع اليه انك ركبت أمس فى عدة قليلة وتلك حالة لا يؤمن اغتيال الاعداء فيها
فوقع من عم احسانه أمن أعداءه وما أحسن ما قال عبد الملك بن مروان يا أهل الشام انما أنا لكم كالظليم الرائح على فراخه ينفى عنهم القذر ويباعد عنهم الحجر ويكنهم من المطر ويحميهم من الضباب ويحرسهم من الذئاب يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء وقالت العجم أسوس الملوك من قاد رعيته الى طاعته بقلوبها ولا ينبغى للوالى أن يرغب فى الكرامة التى ينالها من العامة كرها ولكن فى التى يستحقها بحسن الاثر وصواب التدبير وقال عمر بن عبد العزيز انى لاجمع أن أخرج للمسلمين أمرا من العدل فاخاف أن لا تحمله قلوبهم فاخرج معه طمعا من طمع الدنيا فان نفرت القلوب من هذا سكنت الى هذا وقال معاوية لزياد من أسوس الناس انا أو أنت فقال يا أمير المؤمنين ما جعل الله رجلا حفظ الناس بسيفه كمن أسمع الناس وأطاعوه باللين ويروى ان سلما مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية
اسكت فما أدرك صاحبك بسيفه أدركت أكثر منه بلسانى * (الباب الرابع والاربعون فى التحذير من صحبة السلطان) * اتفقت
حكماء العرب والعجم ووصاياهم على النهى عن صحبة السلطان قال فى كتاب كليلة ودمنة ثلاثة لا يسلم عليها الا القليل صحبة السلطان .

الجسد ثم غلظه عظاما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحما ثم ان أصل الامراض ومعظمها هى الحميات وسببها ان الحار الغريزى قد يضعف عن تمام النضج فى طبخه فى كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء فى المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزى او ادخال الطعام الى المعدة قبل أن تستوفى طبخ الاول فيستقل به الحار الغريزى ويترك الاول بحاله او يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضا على انضاجه وربما بقى فى الكبد من الغذاء الاول فضلة غير ناضجة وترسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا أخذ البدن حاجته الملائمة ارسله مع الفضلات الاخرى من العرق والدمع واللعاب ان اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى فى العروق والكبد والمعدة وتتزايد مع الايام وكل ذى رطوبة من الممتزجات اذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هى المسماة فى بدن الانسان بالحمى واعتبر ذلك بالطعام اذا ترك حتى يتعفن وفى الزبل اذا تعفن أيضا كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحميات فى الابدان وهى رأس الامراض وأصلها كما وقع فى الحديث وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض اسابيع معلومة ثم يتناوله الاغذية الملائمة حتى يتم برؤه وذلك فى حال الصحة علاج فى التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع فى الحديث وقد يكون ذلك العفن فى عضو مخصوص فيتولد عنه مرض فى ذلك العضو ويحدث جراحات فى البدن اما فى الاعضاء الرئيسة او فى غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الامراض وأصلها فى الغالب من الاغذية وهذا كله مرفوع الى الطبيب ووقوع هذه الامراض فى أهل الحضر والامصار اكثر لخطب عيشهم وكثرة مآكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الاغذية وعدم توقيتهم لتناولها وكثيرا ما يخلطون بالاغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسا فى سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون فى ذلك على نوع او انواع فربما عددنا فى اليوم الواحد من ألوان الطبخ اربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون غريبا عن ملاءمة البدن وأجزائه ثم ان الاهوية فى الامصار تفسد بمخالطة الابخرة العفنة من كثرة الفضلات والاهوية منشطة للارواح ومقوية بنشاطها الاثر الحار الغريزى فى الهضم ثم الرياضة مفقودة لاهل الامصار اذ هم فى الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيأ ولا تؤثر فيهم أثرا فكان وقوع الامراض كثيرا فى المدن والامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة وأما أهل البدو فأكولهم قليل فى الغالب والجوع اغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما يظن انها جبلة لاستمرارها ثم الادم قليلة لديهم او مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه انما يدعو اليه ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه فيتناولون اغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا آهلين او لاختلاف الاهوية ان كانوا ظواعن ثم ان الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة فى ركض الخيل او الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم فى حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد ادخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الامراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد الطبيب فى البادية بوجه وما ذاك الا للاستغناء عنه اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون له بذلك فى البدو معاش يدعوه الى سكناه سنة الله التى قد خلت فى

وائتمان النساء على الاسرار وشرب السم على التجربة وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطراً صحبة السلطان وقال مردك احق الامور بالتثبت فيها (٢٤٨) أمر السلطان فانه من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور وفي حكم الهند أيضا صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر وانما تشبه بالجبل الوعر فيها الثمار الطيبة والسباع العادية والثعابين المهلكة فالارتقاء اليه شديد والمقام فيه أشد وليس يتكافأ خير السلطان وشره لان خير السلطان لا يعدو مزيد الحال وشر السلطان قد يزيل الحال ويتلف النفس التي لها طلب المزيد ولا خير في الشئ الذي في سلامته مال وجاه وفي نكبته الجائحة والتلف ولهذا ما قيل للعتابي لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الادب قال اني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شئ ويردي من السور في غير شئ ولا أدري أي الرجلين أكون (وأخبرني) أبو العباس الحجازي وكان ممن دوخ أرض الهند والصين وانتهى الى صين الصين الى جبل الياقوت بالهندوان فيه ثعابين ليس في معمور الارض أعظم منها فان الواحد منها يبلع الثور صحيحا فلا يصل أحد الى ذلك الجبل ولا يقربه فاذا كثرت الامطار أحدرت السيول منه الحصى وسائر ما فيه من المنافع الى مستقر المياه على مسير أيام من الجبل فيبحث الناس ذلك الحصى فيوجد فيه الواحدة بعد الواحدة من أحجار الياقوت وقال معاوية لرجل من قريش اياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبي

عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

٣٠ *(فصل في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية)*

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التي يميز بها عن الحيوان وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الاغراض الى البلد البعيد فتقضى الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع وخروجها في الانسان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا ان هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤن ومن قرأ منهم او كتب فيكون خطه قاصرا وقراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الامصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه وانما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال وقد كان الخط العربي بالغا مبالغه من الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر يقال ان الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب الى أنهم تعلموها من اياد أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا * ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد لان ايادا وان نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية وانما معنى قول الشاعر انهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار وضواحيها فالقول بأن اهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها اهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الاليق من الاقوال وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها الا باذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية الا انهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة الى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الاكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل او قريبا من كتابتهم لهذا العهد ونقول ان كتابتهم لهذا العهد احسن صناعة لان هؤلاء أقرب الى الحضارة ومخالطة الامصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وابعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشأم ومصر فكان الخط العربي لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى

التابعون

و يرضى رضا الصبي و يبطش بطش الاسد وقال المأمون لو كنت رجلا من العامة ماصحبت السلطان وقال الاحنف بن قيس ثلاثة
لا أقولهن الا ليعتبر بهن لا أخالف جليسي الا بما أحضره به ولا أدخل فى أمر لا أدخل فيه ولا آتى السلطان الا أن يرسل الى

التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولى او عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسما ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن فى ذلك الى مايزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وان مايتخيل من مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه ويقولون فى مثل زيادة الالف فى لا أذبحنه انه تنبيه على ان الذبح لم يقع وفى زيادة الياء فى بأييد انه تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له الا التحكم المحض وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم ان فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص فى قلة اجادة الخط وحسبوا ان الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح * واعلم ان الخط ليس بكمال فى حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر والكمال فى الصنائع اضافى وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الخلال وانما يعود على اسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل دلالته على ما فى النفوس وقد كان صلى الله عليه وسلم اميا وكان ذلك كمالا فى حقه وبالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها وليست الامية كمالا فى حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة الى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الاجادة فيه واستحكم وبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الا أنها كانت دون الغاية والخط الكوفى معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب فى الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحرت فى العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادى معروف الرسم وتبعه الافريقى المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقرب من أوضاع الخط المشرقى وتحيز ملك الاندلس بالامويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسى كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بحر العمران والحضارة فى الدول الاسلامية فى كل قطر وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له وتنافس اهل الاقطار فى ذلك وتناغوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل اسواقه بها نافقة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين فى وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الاوضاع وقد لقنها حسنا وحذق فيها دربة وكتابا وأخذها قوانين علمية فتجىء أحسن ما يكون وأما أهل الاندلس فافترقوا فى الاقطار عند تلاشى ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا فى عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقى وعفى عليه ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الاندلسى بتونس وما اليها لتوفر أهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس وبقى منه رسم ببلاد

وقال ابن المقفع لا بد لمن وجدت من السلطان وصحبته غنى فاغن عن نفسك واعتزله جهدك فانه من يأخذه السلطان بحقه يحل بينه وبين لذة الدنيا ومن لا يأخذه بحقه يكسبه الفضيحة فى الدنيا والوزر فى الآخرة وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعا لا تصحب سلطانا وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولا تخلون بامرأة وان قرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فانه لك أقطع ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا (وفى منثور الحكم) كثرة الاشغال مذهلة عن وجود اللذات بكنهها وكم قد رأينا و بلغنا من صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قال الاول

عدوى البليد الى الجليد سريعة
والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ومثل من يصحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فاهلكه وفى كتاب كليلة

ودمنة لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك فانه لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ولا يكرم عليهم احد الا أن يطمعوا فيما عنده فيقربوه عند ذلك فاذا قضوا حاجتهم تركوه ولا ود ولا اخاء الا البلاء يجزى والذنب لا يغفر له وقال بزرجمهر لا تصلح

الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم انما كان يغدون على دار الملك بتونس فصار خط أهل افريقية من احسن خطوط أهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشئ وتراجع امر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من ان الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الاقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعمالهم اياهم سائر الدولة ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها الا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

٣١ *(فصل في صناعة الوراقة)*

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد ان كان منه في الملة الاسلامية بحر زاخر بالعراق والاندلس اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق اسواق ذلك لديهما فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والاعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الامور الكتبية والدواوين واختصت بالامصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التآليف صدر الملة كما نذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفا للمكتوبات وميلا بها الى الصحة والاتقان ثم طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية اهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة الى مؤلفيها وواضعيها لانه الشأن الاهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الاقوال الى قائلها والفتيا الى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها ومالم يكن تصحيح المتون باسنادها الى مدونها فلا يصح اسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والاجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط اذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الاحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمخضت زبدة في ذلك الامهات المتلقاة بالقبول عند الامة وصار القصد الى ذلك لغوا من العمل ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها الا في تصحيح تلك الامهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والاندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الاتقان والاحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم اصول عتيقة

باب السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطراح الاذى وصل الى حاجته كالكرم لا يتعلق بأكرم الشجر لكن بأدناها وكانت العرب تقول ان لم تكن من قرباء الملك فكن من بعدائه (وفي) حكم الهند انما مثل السلطان في قلة وفائه مع أصحابه وسخاء نفسه عمن فقده منهم كمثل الصبي والمكتب كلما ذهب واحد جاء آخر والعرب تقول السلطان ذو عدوات وذو بدوات وذو تدرا وتريد أنه سريع الانصراف كثير البدوات هجام على الامور وأصله من الدرء وهو الدفع

(الباب الخامس والاربعون في صحبة السلطان)

قال ابن عباس قال لي أبي يا بني اني أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الاكابر من أصحاب محمد عليه السلام واني أوصيك بخلال ثلاث لا تفشين له سرا ولا يجربن عليك كذبا ولا تغتابن عنده أحدا (قال) الشعبي قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف قال اي والله ومن عشرة آلاف وقالوا صحبة السلطان بالحذر والصديق بالتواضع والعدو بالحجر والعامة بالبشر ولا تحكم لاحد بحسن رأي الملك تشهد الا بحسن أثره (قال) بعض الحكماء لا تستطلع السلطان ما كتمك ولا تفش ما أطلعك عليه من أدل على السلطان استثقله ومن امتن

عليه عاداه ومن أظهر أنه يستشيره باعده (وقال) بعض الحكماء اذا زادك السلطان تأنسا فزده اجلالا واذا جعلك السلطان أخا فاجعله
أبا وان زادك احسانا فزده فعل العبد مع سيده وان ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فأخذوا في الثناء عليه فعليك

تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها الى الآن ويشدون عليها يد الضنانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله وصارت الامهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة الا في الاقل النادر وأيضا فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فان غالب الاقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وانما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضا ما يتصدى اليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالاندلس الا اثارة خفية بالامحاء وهي على الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من الغرب والله غالب على أمره ويبلغنا لهذا العهد ان صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق اسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد الا ان الخط الذي بقي من الاجادة في الانتساخ هنالك انما هو للعجم وفي خطوطهم وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب واشد والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

٣٢ (فصل في صناعة الغناء)

هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لاجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات وذلك انه تبين في علم الموسيقى ان الاصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزأ من احد عشر من آخر واختلاف هذه النسب عند تأديتها الى السمع يخرجها من البساطة الى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السماع بل تراكيب خاصة هي التي حصرها اهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع اصوات أخرى من الجمادات اما بالقرع او بالنفخ في الآلات تتخذ لذلك فترى لها لذة عند السماع فمنها لهذا العهد اصناف منها ما يسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الابخاش ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الابخاش وضعا متعارفا حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بادراكها للتناسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لاجل ائتلافها من قطعتين منفردتين كذلك بأبخاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها اليها وتصوت بنغمة حادة يجري فيها من تقطيع الاصوات من تلك الابخاش بالاصابع مثل ما يجري في الشبابة ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يتسع الى ان يكون انفراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل برى القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم اليه فيخرج الصوت ثخينا دويا وفيه ابخاش ايضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالاصابع على التناسب فيكون ملذوذا ومنها آلات الاوتار وهي جوفاء كلها اما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب او على شكل مربع كالقانون توضع الاوتار على بسائطها مشدودة في رأسها الى دساتر جائلة ليتأتى شد الاوتار ورخوها عند الحاجة اليه بادارتها ثم تقرع الاوتار اما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في امراره

بالدعاء له وان نزلت منه منزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة الا ان تكلمه على رؤس الناس فلا تألوا ما عظمته وذكرته وقال ابن المقفع لتكن حاجتك في سلطانك ثلاث خلال رضا ربك ورضا سلطانك ورضا من تلي عليه ولا عليك ان تلهو عن المال والذخر فسيأتيك منهما ما يكفي ويطيب (وقال) مسلم بن عمرو ان خدم السلطان لا تغتر بالسلطان اذا أدناك ولا تتغير اذا أقصاك وروى أن بعض الملوك استصحب حكيما فقال له أصحبك على ثلاث خلال قال وما هن قال لا تهتك لي سترا ولا تشتم لي عرضا ولا تقبل في قول قائل حتى تستشيرني قال هذا لك فما لي عندك قال لا أفشي لك سرا ولا أدخر عنك نصيحة ولا أوثر عليك أحدا قال نعم الصاحب المستصحب أنت وقيل لعبد الله بن جعفر ما الخرق قال الدالة على السلطان والوثبة قبل الامكان وقال ابن المقفع أولى الناس بالملكة

القاحشة المقدم على السلطان بالدالة وقال يحيى بن خالد الدالة تفسد الحرمة القديمة وتضر بالمحبة المتأكدة وقال برزجمهر اذا خدمت ملكا
من الملوك فلا تطعه في معصية خالقك فان احسانه اليك فوق احسان الملك وايقاعه بك أغلظ من ايقاعه أعجب الملوك بالهيبة لهم

اونقله من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك فى جميع آلات الاوتار توقع باصابعها على اطراف الاوتار فيما يقرع او يحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع فى الطسوت بالقضبان او فى الاعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه ما التذاذ بالمسموع ولنبين لك السبب فى اللذة الناشئة عن الغناء وذلك ان اللذة كما تقرر فى موضعه هى ادراك الملائم والمحسوس انما تدرك منه كيفية فاذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة واذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق فى مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفى الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبى البخارى لانه المدرك واليه تؤديه الحاسة ولهذا كانت الرياحين والازهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التى هى مزاج الروح القلبى وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الاوضاع فى أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملائمة لها فاذا كان المرئى متناسبا فى اشكاله وتخاطيطه التى له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن فى كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذ بادراك ملائمها ولهذا تجد العاشقين المستهترين فى المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب وفى هذا سر تفهمه ان كنت من أهله وهو اتحاد المبدأ وان كل ما سواك اذا نظرته وتأملته رأيت بينك وبينه اتحادا فى البداية يشهد لك به اتحاد كما فى الكون ومعناه من وجه آخر ان الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود ان تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم الى الحقيقة التى هى اتحاد المبدأ والكون ولما كان أنسب الاشياء الى الانسان وأقربها الى ان يدرك الكمال فى تناسب موضوعها هو شكله الانسانى فكان ادراكه للجمال والحسن فى تخاطيطه وأصواته من المدارك التى هى أقرب الى فطرته فيلهج كل انسان بالحسن من المرئى او المسموع بمقتضى الفطرة والحسن فى المسموع أن تكون الاصوات متناسبة لا متنافرة وذلك ان الاصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذى يوجب لها الحسن فاولا ان لا يخرج من الصوت الى مده دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك وهكذا الى المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فانه من بابه وثانيا تناسبها فى الاجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت الى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل مناسبا على ما حصره أهل الصناعة فاذا كانت الاصوات على تناسب فى الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعا عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة كما تجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه المثابة يقرؤن القرآن فيجيدون فى تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوى فى معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها فى العمل به اذا علم وهذا هو التلحين الذى يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعى رضى الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعى فانه لا ينبغى ان يختلف فى حظره اذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه لان القراءة والاداء تحتاج الى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات فى موضعها او مقدار المد عند

والوقار لانهم انما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة فلا تترك الهيبة وان طال أنسك بهم فهو حسبهم منك لا تعط السلطان مجهودك فى أول صحبتك له فلا تجد بعد للمزيد موضعا (٢٥٢) ولكن دع للمزيد موضعا علم السلطان وكانك تتعلم منه وأشر عليه وكانك تستشيره اذا أخلاك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك فاياك والدخول بينه وبين بطانته فانك لا تدرى متى يتغير لك فيكون عونا عليك اياك ان تعادى من اذا شاء يطرح ثيابه ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل وفى الامثال القديمة احذر رماة المخدة وفيه قيل

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا
مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

وفى الامثال لا تدل فتمل ولا توجف فتجف وقال الرشيد لاسمعيل بن صبيح اياك والدالة فانها تفسد الحرمة وقال سليمان بن داود عليهما السلام لا تغش السلطان ولا تقعد عنه وقال الحكماء شدة الانقباض عن السلطان تورث التهمة وشدة الانبساط تفتح باب الملالة واعلم ان من طلب العز بلا ذل كانت ثمرة سعيه الذل أحرز منزلتك عند السلطان بمثل ما اكتسبتها من الجد والمناصحة واحذران يحطك التهاون عما رقاك اليه التحفظ ان أشقى الناس بالسلطان صاحبه كما ان أقرب الاشياء الى النار أسرعها احتراقا من لزم باب السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطراح الاذى وصل الى حاجته (وقال الاحنف بن قيس) لا تنقبضوا عن السلطان ولا تهالكوا عليه فانه من أشرف على السلطان أرداه ومن تضرع له تخطاه وقال ابن عباس رضى الله عنه من

من يطلقه او يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم الا به من أجل التناسب الذى قلناه فى حقيقة التلحين واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر اذا تعارضا وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة فى القرآن فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعتبر فى القرآن بوجه وانما مرادهم التلحين البسيط الذى يهتدى اليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه فيردد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره ولا ينبغى ذلك بوجه كما قاله مالك هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب اليه الامام رحمه الله تعالى لان القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده وليس مقام التلذذ بادراك الحسن من الاصوات وهكذا كانت قراءة الصحابة رضى الله عنهم كما فى أخبارهم واما قوله صلى الله عليه وسلم لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود فليس المراد به الترديد والتلحين انما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والابانة فى مخارج الحروف والنطق بها واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم انه يحدث فى العمران اذا توفر وتجاوز حد الضرورى الى الحاجى ثم الى الكمالى وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننا فى مذاهب الملذوذات وكان فى سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر فى أمصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام باهل هذه الصناعة ولهم مكان فى دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد فى كل أفق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم وأما العرب فكان لهم اولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام فى تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزئة اولا ثم بتناسب الاجزاء فى المقاطع والمبادى ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لاخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكا لقرائحهم فى اصابة المعانى واجادة الاساليب واستمروا على ذلك وهذا التناسب الذى من اجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى الا انهم لم يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب نحلهم ثم تغنى الحداة منهم فى حداء ابلهم والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل او نوع القراءة تغبيرا بالغين المعجمة والباء الموحدة وعللها أبو اسحق الزجاج بانها تذكر بالغابر وهو الباقى أى باحوال الآخرة وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه السناد وكان أكثر ما يكون منهم فى الخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته فى ترك احوال الفراغ وما ليس بنافع فى دين ولا معاش فهجروا ذلك شيأ ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ

ثلاثة من عاداهم عادت عزته ذلة السلطان والولد والغريم واعلم أنه انما يستطيع صحبة السلطان أحد رجلين اما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته واما مغفل مهين لا يحسده أحد فاما من اراد ان يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف فقلما تستقيم له صحبته لانه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد اما الصديق فينافسه فى منزلته فيطعن عليه لنصيحته له فاذا اجتمع عليه هذان الصنفان كان قد تعرض للهلاك وقال بعض الحكماء من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة لا يوحشك من السلطان اكرام الاشرار فان ذلك للضرورة اليهم كما يضطر الملك الى الحجام فيشرط قفاه ويخرج دمه (وفى الامثال) لا حلم لمن لا سفيه له وكان ابن عمر اذا سافر الى مكة استصحب معه رجلا فيه مافيه يستدفع به شر السفهاء وأهل الوغادة والدعارة وقال المعتصم ان للسلطان لسكرات فمنها الرضا عمن استوجب السخط والسخط على من استوجب الرضا ومنه قول الحكماء خاطر من لجج فى البحر واعظم منه خطرا من صحب السلطان وقال ابن المقفع لابنه لا تعدن شتم السلطان شتما ولا اغلاظه اغلاظا فان ريح العزة تبسطه فى غير بأس ولا سخط (وقال سابور) احد حكماء الفرس اربعة اشياء ينبغى ان تقسم للفهم كما تقسم للبليد ولا يتكل فيها على زكاء احد تأويل الدين واخلاط الادوية وصفة الطريق المخوف والراى فى السلطان واعلم ان السلطان اذا انقطع منك فى الآخر نسى الاول فارحامهم مقطوعة وحبالهم مصرومة الا من رضوا عنه فى

وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها اشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا اشعار العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدى وابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد وأمعنوا فى اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والاشعار التى يترنم بها عليه وجعل صنفا وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون وامثال ذلك من اللعب المعد للولائم والاعراس وأيام الاعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وامصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل امير الاندلس فبالغ فى تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لانها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهى أيضا اول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه والله أعلم

٣٣ *(فصل فى ان الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب)*

قد ذكرنا فى الكتاب ان النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات عن المحسوسات أولا ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى ان يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضا فتكون ذاتا روحانية ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك ان يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا والصنائع ابدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمى مستفاد من تلك الملكة فلهذا كانت الحنكة فى التجربة تفيد عقلا والملكات الصناعية تفيد عقلا والحضارة الكاملة تفيد عقلا لانها مجتمعة من صنائع فى شأن تدبير المنزل ومعاشرة ابناء الجنس وتحصيل الآداب فى مخالطتهم ثم القيام بامور الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنتظم علوما فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين الصنائع اكثر افادة لذلك لانها تشتمل على العلوم والانظار بخلاف الصنائع وبيانه ان فى الكتابة انتقالا من الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية فى الخيال ومن الكلمات اللفظية فى الخيال الى المعانى التى فى النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الادلة الى المدلولات وهو معنى النظر العقلى الذى يكسب العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكيس فى الامور لما تعودوه من ذلك الانتقال ولذلك قال كسرى فى كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال ديوانه اى شياطين وجنون قالوا وذلك اصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان فى صناعة الحساب نوع تصرف فى العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كثير فيبقى متعودا للاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله اعلم

وقتهم وساعتهم واذا رايت من الوالى خلالا لا تنبغى فلا تكابده على ردها فانها رياضة صعبة لكن أحسن مساعدته على أحسن رأيه فاذا استحكمت منه ناحية من الصواب (٢٠٤) كان ذلك الصواب هو الذى يبصره الخطايا اللطيفة اكثر من تبصيرك واجعل العدل من حكمتك فان العدل يدعو بعضه الى بعض فاذا تمكن اقتلع الخطأ ولا تطلب ما قبل الوالى بالمسئلة ولا تستبطئه وان أبطأ ولكن اطلب ما قبله بالاستحقاق والاستئناء فانك اذا استحققته أتاك من غير طلب واذا لم تستبطه كان أعجل له وقال يحيى بن خالد اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة القبيحة للزوج الاحمق المبغض وقال يحيى بن خالد لبعض اخوانه تنكر لى هرون الرشيد فقال له ارض بقليله من كثيره واياك ان تسخط فيكون أسخط منك

(الباب السادس والاربعون فى سيرة السلطان مع الجند)

اعلم ان الجند عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده وهم حماة البيضة والذابون عن الحرمة والدافعون عن العورة وهم جنن الثغور وحراس الابواب والعدة للحوادث وأمداد المسلمين والحد الذى يلقى العدو والسهم الذى يرمى به والسلاح المدفوع فى نحره فبهم يذب عن الحريم وتؤمن السبل وتسد الثغور وهم عز الارض وحماة الثغور والذادة عن الحريم والشوكة على العدو وعلى الجند الجد عند اللقاء والصبر عند البلاء فان كانت لهم الغلبة فليمعنوا فى الطلب وان تكن عليهم فليكسروا الاعنة وليجمعوا الاسنة وليذكروا أخبار غد وينبغى للملك ان يتفقد

الفصل

جنده كتفقد صاحب البستان بستانه فيقلع العشب الذى لا ينفعه فمن العشب مالا ينفع ومع ذلك يضر بالنبات النافع فهو بالقلع اجدر ولا يستصلح الجند الا بادرار أرزاقهم وسد حاجاتهم والمكافأة لهم على قدر عنائهم وبلائهم (٢٥٥) وجنود الملوك وعددها وقف على سعود الائمة

(الفصل السادس من الكتاب الاول)

فى العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض فى ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

١ *(فصل فى ان العلم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى)*

وذلك ان الانسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكر فى ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر اسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغبا فى تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة او ادراك او أخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم ان فكره ونظره يتوجه الى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيفزعون الى أهل معرفته ويجيء التعليم من هذا فقد تبين بذلك ان العلم والتعليم طبيعى فى البشر

٢ *(فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع)*

وذلك ان الحذق فى العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انما هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمباديه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله ومالم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك الفن المتناول حاصلا وهذه الملكة هى فى غير الفهم والوعى لانا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين من شدا فى ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العامى الذى لم يحصل علما وبين العالم النحرير والملكة انما هى للعالم أو الشادى فى الفنون دون من سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعى والملكات كلها جسمانية سواء كانت فى البدن او فى الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند فى التعليم فى كل علم او صناعة الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل ويدل ايضا على ان تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على ان ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان واحدا عند جميعهم الا ترى الى علم الكلام كيف تخالف فى تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا اصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته تجد الاصطلاحات فى تعليمه متخالفة فدل على انها صناعات فى التعليم والعلم واحد فى نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم ان سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتى المغرب والاندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع اسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب الا قليلا كان فى دولة الموحدين بمراكش مستفادا منها ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية فى أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم تتصل

ونحوسها وقال ابرويز لابنه شيرويه لاتوسعن على جندك فيستغنوا عنك ولا تضيق عليهم فيضجوا منك واعطهم عطاء قصدا وامنعهم منعا جميلا ووسع عليهم فى الرجاء ولا توسع عليهم فى العطاء ولما أفضى الامر الى ابى جعفر المنصور انفذ جيشا وقال لقواده سيروا بمثل هذه السيرة ثم قال صدق الاعرابى اجمع كلبك يتبعك فقام أبو العباس الطوسى فقال يا أمير المؤمنين أخشى أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك (ويروى) أن كسرى صنع طعاما فى سماط فلما فرغوا ورفعت الآلات وقعت عينه على رجل من أصحابه قد أخذ جاما له قيمة كثيرة فسكت عنه وجعل الخدم يرفعون الآلات فلم يجدوا الجام فسمعهم كسرى يتكلمون فقال مالكم فقالوا فقدنا جاما من الجامات فقال لا عليكم أخذه من لا يرده ورآه من لا يفضحه فلما كان بعد أيام دخل الرجل على كسرى وعليه حلة جديدة وحال مستجدة فقال له كسرى هذا من ذاك قال نعم ولم يقل له شيأ (وسئل عمرو بن معاذ) وكان على الصوائف بم قدرت على جيوش الصائفة وكان يغزو فى كل سنة ويجر الجيوش الى بلاد الروم فقال بسمانة الظهر والقديد وكثرة الكعك (وروى) أن بعض امراء العرب كان ظالما لرعيته

احوال الحضارة فيها الا فى الاقل و بعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل الى المشرق من افريقية القاضى أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق فى العقليات والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من المشرق ابو عبد الله بن شعيب الدكالى كان ارتحل اليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع الى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما فى تلاميذهما جيلا بعد جيل حتى انتهى الى القاضى محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس الى تلمسان فى ابن الامام وتلميذه فانه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفى مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الامام بتلمسان لهذا العهد الا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة فى آخر المائة السابعة أبو على ناصر الدين المشدالى وأدرك تلميذ أبى عمرو بن الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافى فى مجالس واحدة وحذق فى العقليات والنقليات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سند تعليمه فى طلبتها وربما انتقل الى تلمسان عمران المشدالى من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل او اقل من القليل وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق فى العلوم وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة فى علمه ان فاوض او ناظر أو علم وما أتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده والا فحفظهم ابلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك فى المغرب ان المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهى بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هى اقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية او اليأس من تحصيلها فطال امدها فى المغرب لهذه المدة لاجل عسرها من قلة الجودة فى التعليم خاصة لا مما سوى ذلك وأما أهل الاندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والادب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على امره واما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل اسواقه نافقة و بحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت الامصار العظيمة التى كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة الا ان الله تعالى قد أدال منها بامصار اعظم من تلك وانتقل العلم منها الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم بها قائما فأهل المشرق على الجملة أرسخ فى صناعة تعليم العلم بل وفى سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة اهل المغرب الى المشرق فى طلب العلم ان عقولهم على الجملة أكمل من عقول اهل المغرب وانهم اشد نباهة واعظم كيسا بفطرتهم الاولى وان

نفوسهم

شديد الاذى لهم فى أموالهم فعوتب فى ذلك فقال اجع كلبك يتبعك فوثبوا عليه فقتلوه فمر به بعض الحكما فقال ربما أكل الكلب صاحبه اذا لم يشبعه أيها الملك من طال عدوانه زال سلطانه واعلم ان المال قوة السلطان وعمارة المملكة ولقاحه الامن ونتاجه العدل وهو حصن السلطان ومادة الملك والمال أقوى العدد على العدو وهو ذخيرة الملك وعمارة المملكة وحياة الارض ومن حقه ان يؤخذ من حقه ويوضع فى حقه ويمنع من سرف ولا يؤخذ من الرعية الا ما فضل عن معاشها ومصالحها ثم ينفق ذلك فى الوجوه التى يعود عليها نفعها فيا أيها الملك احرص كل الحرص على عمارة الارضين والسلام أيها الملك مرجباة الاموال بالرفق ومجانبة الخرق فان العلقة تنال من الدم بغير أذى ولا سماع صوت ما لا تناله البعوضة بلسعتها وهول صوتها (ولما عزل عثمان) عمرو بن العاص عن مصر استعمل عليها ابن أبى السرح فحمل من المال أكثر مما كان يحمله عمرو فقال عثمان يا عمرو أشعرت ان اللقاح درت بعدك فقال عمرو وذلك لانكم أعجفتم أولادها وقال زياد احسنوا الى المزارعين فانكم لم تزالوا سمانا ما سمنوا وفى منثور الحكمة من جاوز فى الحلب حلب الدم (وفى الامثال) اذا استقصى العجل فى مص أمه رفسته
وقال جعفر بن يحيى الخراج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل ولا استنزر بمثل الظلم وأسرع الامور فى خراب البلاد تعطيل الارضين وهلاك

الرعية وانكسار الخراج بالجور والتحامل ومثل السلطان اذا حمل على أهل الخراج حتى ضعفوا عن عمارة الارضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو وان قوي من ناحية فقد ضعف من ناحية وما أدخل على نفسه من الوجع والضعف أعظم مما

نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوس اهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم الا الاقاليم المنحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر وانما الذي فضل به اهل المشرق اهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع ونزيده الآن تحقيقا وذلك ان الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الاول منهم ولا شك ان كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة اخرى ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك للمعارف ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويعجز أهل المغرب عن فهمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء في عقله واضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدمنا ان النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع الى النفس من الآثار العلمية فيظنه العامي تفاوتا في الحقيقة الانسانية وليس كذلك الا ترى الى أهل الحضر مع اهل البدو كيف تجد الحضري متحليا بالذكاء ممتلئا من الكيس حتى ان البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك الا لاجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والاحوال الحضرية مالا يعرفه البدوي فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات انها لكمال في عقله وأن نفوس اهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته وليس كذلك فانا نجد من أهل البدو من هو في اعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته انما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم فان لهما آثارا ترجع الى النفس كما قدمناه وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع ارسخ رتبة واعلى قدما وكان اهل المغرب أقرب الى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا ظن المغفلون في بادي الرأي انه لكمال في حقيقة الانسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو اله السموات والارض

٣٠ * (فصل في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة) *

والسبب في ذلك ان تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا ان الصنائع انما تكثر في الامصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لانه أمر زائد على المعاش فمتى فضلت أعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ في القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم واصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين

دفع عن نفسه من ألم الجوع ومثل من كلف الرعية من الخراج فوق طاقتها كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته ومن يدمن خزالعمود يوشك ان يضعف فتقع الخيمة واذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الارضين فيتركونها فتخرب الارض ويهرب الزراع فتضعف العمارة فيضعف الخراج وينتج ذلك ضعف الاجناد واذا ضعف الجند طمع الاعداء في السلطان أيها الملك لكن بما يبقى في يد رعيتك أفرح منك بما تأخذ منها لا يقل مع الصلاح شئ ولا يبقى مع الفساد شئ وصيانة القليل اولى من تربية الجليل فلا مال لاخرق ولا عيلة لمصلح (وروى) ان المأمون ارق ليلة فاستدعى سميرا يحدثه بحديث فقال يا امير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل الى بومة البصرة بنتها لابنها فقالت بومة البصرة لا انكحك ابنتي الا ان تجعل لي في صداقها مائة ضيعة خراب فقالت بومة الموصل لا اقدر عليها الآن ولكن ان دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت لك ذلك قال فاستيقظ المأمون وجلس للمظالم وانصف الناس بعضهم من بعض وتفقد امر الولاة (وسمعت) بعض شيوخ الاندلس من الاجناد وغيرهم يقولون مازال اهل

ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى ان العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما ان عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا وذلك ان امراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق او الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو نصيب منها مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والتماس الاجور فى المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل اليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها اسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

٤ *(فصل فى اصناف العلوم الواقعة فى العمران لهذا العهد)*

(اعلم) ان العلوم التى يخوض فيها البشر و يتداولونها فى الامصار تحصيلا وتعليما هى على صنفين صنف طبيعى للانسان يهتدى اليه بفكره وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه والاول هى العلوم الحكمية الفلسفية وهى التى يمكن ان يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره (١) وبحثه على الصواب من الخطا فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثانى هى العلوم النقلية الوضعية وهى كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل الا فى الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلى بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسى الا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الاصل وهو نقلى فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم النقلية كلها هى الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيؤها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى هو لسان الملة وبه نزل القرآن واصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لان المكلف يجب عليه ان يعرف احكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهى مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالاجماع او بالالحاق فلابد من النظر فى الكتاب ببيان الفاظه اولا وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبى صلى الله عليه وسلم الذى جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء فى قراءته وهذا هو علم القراآت ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام فى الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق باخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هى علوم الحديث ثم لابد فى استنباط هذه الاحكام من أصولها من وجه قانونى يفيدنا العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو اصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة احكام الله تعالى فى أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم ان التكاليف منها بدنى ومنها قلبى وهو المختص بالايمان وما يجب ان يعتقد مما لا يعتقد وهذه هى العقائد الايمانية فى الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالادلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر فى القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية لانه متوقف عليها وهى أصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الادب حسبما نتكلم عليها كلها وهذه العلوم

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعديا فتقول وقفته على كذا أى اطلعته عليه قاله نصر اه

الاسلام ظاهرين على عدوهم وامر العدو فى ضعف وانتقاص لما كانت الارض مقطعة فى ايدى الاجناد فكانوا يستغلونها و يرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربى التاجر تجارته وكانت الارض عامرة والاموال وافرة والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه الى ان كان الامر فى آخر أيام ابن أبى عامر فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الاموال على النطع وقدم على الارض جباة يجبونها فاكلوا الرعايا واجتاحوا اموالهم واستضعفوهم فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان وضعفت الاجناد وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العدو فى ظهور الى أن دخلها المتلثمون فردوا الاقطاعات كما كانت فى الزمان القديم ولا أدرى ما يكون وراء ذلك

(الباب الثامن والاربعون فى سيرة السلطان فى بيت المال)

هذا باب سلكت فيه سلوك الطوائف والهند والصين والسند و بعض ملوك الروم خلاف سيرة الانبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين فكانت الملوك تدخر الاموال وتحتجبها دون الرعية وتعدها اليوم كريهة على ما بينا فى الباب قبله وكانت الرسل والخلفاء بعدهم تبذل الاموال ولا تدخرها وتصطنع الرعية وتوسع عليها فكانت الرعية هم الاجناد والحماة وهذه سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد علمتم ان جوعه كان أكثر من شبعه وانه مات ودرعه مرهونة فى صاع شعير عند يهودى وكذلك الخلفاء الراشدون بعده أبو بكر

وعمر وعثمان وعلى وابنه الحسن وعمر بن عبد العزيز وان النبي عليه السلام لما فتح الله عليه اليمن كان تجبى له الاموال فيفرقها اليوم ما
وقد توضع في المسجد وتفرش الانطاع ويفرقها من الغد ولم يكن له بيت مال (وروى) ابو داود في السنن ان النبي

النقلية كلها مختصة بالملة الاسلامية واهلها وان كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث انها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها واما على الخصوص فباينة لجميع الملل لانها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضى الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال الم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعي ثم ان هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت اسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين الى الغاية التي لا فوقها وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكل فن رجال يرجع اليهم فيه واوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد اسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله وما أدرى ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الاعانة لطالب العلم بالجراية من الاوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد وبيده التوفيق والاعانة

(علوم القرآن من التفسير والقرا آت)

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الامة الا ان الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوقل ذلك واشتهر الى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القرا آت السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قرا آت أخر لحقت بالسبع الا انها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القرا آت السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لانها عندهم كيفيات للاداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن وأباه الاكثر وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الاداء منها كالمد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداولون هذه القرا آت وروايتها الى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلما منفردا وتناقله الناس بالمشرق والاندلس في جيل بعد جيل الى ان ملك بشرق الاندلس مجاهد من موالي العامريين وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان سهمه في ذلك وافرا واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما وبالقرا آت خصوصا فظهر لعهده أبو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت الى روايته أسانيدها وتعددت تآليفه فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والاجيال أبو القاسم ابن فيره من أهل شاطبة فعمد الى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف ا ب ج د ترتيبا أحكمه

عليه السلام صلى العشاء الآخرة ثم دخل حجرته وخرج مسرعا وفي يديه خريقة فيها ذهب ففرقه ثم قال ماظن آل محمد لو أدركه الموت وهذا عنده ولم يكن للنبي عليه السلام بيت مال ولا للخلفاء الراشدين بعده وانما كانت الخلفاء تقسم الاموال التي جبيت من حلها بين المسلمين وربما يفضل منها فضلات فيجعل في بيت فمن حضر من غائب او احتاج من حاضر قسم له حظه ثم يفرق حتى لا يبقى في البيت منه درهم كما روى ان أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه اشرف على بيت المال وفيه مال فقال يا بيضاء ويا حمراء ابيضي واحمري وغري غيري ثم أمر فقسم جميع ما فيه على المسلمين وأمر قنبرا أن يكنسه ويرشه ثم دخل فصلى فيه ثم كثير من الملوك ساروا في الاموال على نحو هذه السيرة من ملوك الاسلام وملوك الروم ومعظم ما أهلك بلاد الاندلس وسلط عليها الروم ان الروم التي كانت تجاورنا لم تكن لهم بيوت أموال وكانوا يأخذون

الجزية من سلاطين الاندلس ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس ويأخذ مثل ما يأخذون وقد لا يأخذ شيئا منها
وانما كانوا يصطنعون بها الرجال وكانت سلاطينها تجتعب الاموال وتضيع الرجال فكان للروم بيوت رجال وللمسلمين بيوت

ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ لاجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا وعني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والاندلس وربما أضيف الى فن القراآت فن الرسم أيضا وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية لان فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في بأييد وزيادة الالف في لااذبحنه ولااوضعوا والواو في جزاؤا الظالمين وحذف الالفات في مواضع دون أخرى وما رسم فيه من التاآت ممدودا والاصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط فلما جاءت هذه المخالفة لاوضاع الخط وقانونه احتيج الى حصرها فكتب الناس فيها أيضا عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب الى أبي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتبا من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روي الراء وولع الناس بحفظها ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشتهر بحمل علومه ورواية كتبه ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافا كثيرا وعزاه لناقليه واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم *(وأما التفسير)* فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع ومنها ما هو في العقائد الايمانية ومنها ما هو في أحكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه كما علم من قوله تعالى اذا جاء نصر الله والفتح أنها نعي النبي صلى الله عليه وسلم وأمثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الاول والسلف حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الاعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب فتنوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان فاحتيج الى ذلك في تفسير القرآن لانه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير على صنفين تفسير نقلي مسند الى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا الا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود والسبب في ذلك ان العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وانما غلبت عليهم البداوة والامية واذا تشوقوا الى معرفة شئ مما تشوق اليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم

أموال فبهذه الخلة قهرونا وظهروا علينا وكان من يذهب هذا المذهب ولا يدخر الاموال تضرب فيه الامثال ويقال عدو الملك بيت المال وصديقه جنده فاذا ضعف أحدهما قوي الآخر واذا ضعف بيت المال ببذله للحماة قوي الناصر واشتد باس الجند وقوي الملك واذا قوي بيت المال وامتلأ بالاموال قل الناصر وضعفت الحماة فضعف الملك فوثبت عليه الاعداء وقد شاهدنا ذلك في بلاد الاندلس مشاهدة واذا كان الدفاع في الرجال لا في الاموال وانما يدفع بالاموال بواسطة الرجال فلاشك ان بيت رجال خير من بيت مال وقد قال بعض الملوك لابنه يابني لا تجمع الاموال لتتقوى بها على الاعداء فان في جمعها تقوية الاعداء يعني اذا جمعت الاموال أضعفت الرجال فيطمع فيك الصديق ويثب عليك العدو وانما مثل الملك في مملكته مثل رجل له بستان فيها عين معينة فان هو قام على البستان فاحسن تدبيرها فهندس أرضها وغرس أشجارها وحظر على جوانبها ثم أرسل عليها الماء اخضر عودها فقويت أشجارها واينعت ثمارها وزكت بركاتها فكانوا جميعا في أمان من الضيعة ولا يخافون فقرا ولا شتاتا وان هو رغب في غلتها وجناها ولم ينفق فيها ما يكفيها ولا ساق اليها من الماء ما يرويها رغبة في الغلة وضنة بالمال ضعفت عمارتها ووقف أشجارها وقلت ثمارها وذهبت غلتها ومحق الدهر ما جنى من غلتها فافتقر القوم وهلكوا وتشتتوا ومثال الملك في جمع المال ليتقوى به على عدوه مثل طائر ينتف

مما

ريشه ويمص أصولهـا ويأكل ما نجم منها فلذلك طابها وأعجبه خصب جسمه على ذلك وقوته على عدوه فلم يزل كذلك حتى خف ريشه فسقط الى الارض فأكلته الهوام والحشرات (ورأيت) في أخبار بعض الملوك ان وزيره أشار عليه بجمع الاموال واقتناء

مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل اخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك وهؤلاء مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الاغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى الاحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل ويتساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك الا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب الى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والاندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق * والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قل ان ينفرد عن الاول اذ الاول هو المقصود بالذات وانما جاء هذا بعد ان صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد يكون في بعض التفاسير غالبا ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق الا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع اقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ولقد وصل الينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من اهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها ويبين أن البلاغة انما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما شاء مع امتاعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

٦ *(علوم الحديث)*

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لان منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفا من الله بعباده وتخفيفا عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها فاذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين ان المتأخر ناسخ ومعرفة الناسخ والمنسوخ من اهم علوم الحديث وأصعبها قال الزهري أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة ومن علوم الاحاديث النظر في الاسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الاحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لان العمل انما وجب بما يغلب على الظن صدقه من اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط وانما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة ويكون لنا ذلك دليلا على القبول او الترك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحدا واحدا وكذلك الاسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بان يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت الى طرفين

الكنوز وقال ان الرجال وان تفرقوا عنك اليوم ففي احتجتهم عرضت عليهم الاموال فتهافتوا عليك فقال له الملك هل لهذا من شاهد قال نعم هل بحضرتنا الساعة ذباب قال لا قال فأمر باحضار جفنة فيها عسل فحضرت فتساقط عليها الذباب لوقتها فاستشار السلطان بعض أصحابه في ذلك فنهاه عن ذلك وقال لا تغير قلوب الرجال فليس في كل وقت أردتهم حضروا فسأل هل لذلك من دليل قال نعم اذا أمسينا أخبرك فلما أظلم الليل قال للملك هات الجفنة فحضرت ولم تحضر ذبابة واحدة (وقد روينا) عن سيرة بعض السلاطين في أرض مصر وكان قد ملكها وكان اسمه يلدقو وانه كان يجمع الاموال ولا يحفل بالرجال فقال له أصحابه ان أمير الجيوش بالشام وهو يتواعدك وكانه قد قدم عليك فاستعد الرجال وأنفق فيهم الاموال فأومأ الى صناديق موضوعة عنده وقال الرجال في الصناديق فغزا أمير الجيوش ذلك الملك في مصر وقتله وتسلم الصناديق والملك فكان رأيه رأيا فاسدا لان رجالا يقيمهم لوقته ويصطنعهم لحاجته انما يكونون أجنادا مجتمعين وشرذمة ملفقين ليس فيهم غناء ولا عندهم دفاع ولا ممارسة للحروب (ومن السير) المروية في هذا الباب انه لما فتحت العراق جيء بالمال الى عمر فقال صاحب بيت المال

أخذ له بيت المال فقال لا ورب الكعبة لا يؤوى تحت سقف بيت حتى نقسمه فغطى في المسجد بالانطاع وحرسه رجال من المهاجرين والانصار فلما أصبح نظر الى الذهب

والفضة والياقوت والزبرجد والدر يتلألأ فبكى فقال له العباس او عبد الرحمن ابن عوف يا أمير المؤمنين والله ما هذا بيوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور فقال اني والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما كثر هذا في قوم الا وقع بأسهم بينهم ثم أقبل على القبلة ورفع يديه وقال اللهم اني أعوذ بك ان أكون مستدرجا فاني أسمعك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم قال أين سراقة بن جعشم فأتى به أشعر الذراعين دقيقهما فأعطاه سواري كسرى وقال البسهما ففعل فقال قل الله أكبر قال الله أكبر قال قل الحمد لله الذي سلبهما كسرى والبسهما سراقة بن جعشم اعرابيا من بني مدلج ثم قبلهما وقال ان الذي أدى هذا الامين فقال له رجل أنا أخبرك أنت أمين الله تعالى وهم يؤدون اليك ما أديت لله تعالى فاذا رتعت رتعوا قال صدقت وانما ألبسهما سراقة لان النبي صلى الله عليه وسلم قال لسراقة ونظر الى ذراعيه كأني بك قد لبست سواري كسرى ولم يجعل له الا السوارين (ولما ولي أبو بكر الصديق) رضي الله عنه جاءه مال من العمال فصب في المسجد وأمر فنادى من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليحضر وكفاتهم قال أبو أيوب الانصاري فجئته فقلت يا خليفة رسول الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لي لو قد جاء في مال أعطيتك هكذا وهكذا وأشار

فيحكم بقبول الاعلى ورد الاسفل ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو الوفاق ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو اجازة وتفاوت رتبها وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم اتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلاده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الاسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتجافيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الامام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الامام محمد بن ادريس الشافعي والامام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان علم الشريعة في مبدإ هذا الامر نقلا صرفا شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ أودعه أصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الاحاديث وأسانيدها المختلفة وربما يقع اسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين وقد يقع الحديث أيضا في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن اسمعيل البخاري امام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الاحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال انه اشتمل (١) على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والاسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الامام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح حذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والاسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه ومع ذلك فلم يستوعبا الصحيح كله وقد استدرك الناس عليهما في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل اما من الرتبة العالية في الاسانيد وهو الصحيح كما هو معروف واما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك اماما للسنة والعمل وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات كتب الحديث في السنة فانها وان تعددت ترجع الى هذه في الاغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فنا برأسه وكذا الغريب وللناس فيه تآليف مشهورة ثم المؤتلف والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن فحول علمائه وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة وتلاه محيي الدين النووي بمثل ذلك والفن شريف في مغزاه لانه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين اذ العادة تشهد بأن هؤلاء الائمة على تعددهم وتلاحق عصورهم

(١) قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين فحرره اه

وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيأ من السنة او يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم وانما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها والنظر في اسانيدها الى مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والاحكام لتتصل الاسانيد محكمة الى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية باكثر من هذه الامهات الخمسة الا في القليل * فأما البخاري وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه من اجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من اهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة احوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج الى امعان النظر في التفقه في تراجمه لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة الى أن يتكرر الحديث في ابواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الامة يعنون ان أحدا من علماء الامة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار * وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التراجم وأملى الامام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا وسماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه اكمال المعلم وتلاهما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاء شرحا وافيا * وأما كتب السنن الاخرى وفيها معظم مأخذ الفقهاء فاكثر شرحها في كتب الفقه الا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج اليه من علم الحديث وموضوعاتها والاسانيد التي اشتملت على الاحاديث المعمول بها من السنة * واعلم ان الاحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وضعيف ومعلول وغيرها تنزلها ائمة الحديث وجهابذته وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما يصح من قبل ولقد كان الائمة في الحديث يعرفون الاحاديث بطرقها واسانيدها بحيث لو روى حديث بغير سنده وطريقه يفطنون الى انه قد قلب عن وضعه ولقد وقع مثل ذلك للامام محمد بن اسماعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا اسانيدها فقال لا أعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم اتى بجميع تلك الاحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن الى سنده واقروا له بالامامة * واعلم ايضا ان الائمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار من هذه الصناعة والاقلال فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثا او نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في كتاب الموطا وغايتها ثلثمائة حديث او نحوها واحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده خمسون الف حديث ولكل ما اداه اليه اجتهاده في ذلك وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين الى ان منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فلهذا قلت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الائمة لان الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن اصول صحيحة ويتلقى الاحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قال منهم من

قوله الذي في شرح الزرقاني على الموطا حكاية أقوال خمسة في عدة أحاديثه أولها خمسمائة ثانيها سبعمائة ثالثها ألف ونيف رابعها ألف وسبعمائة وعشرون خامسها ستمائة وستة وستون وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوريني اه

بكفيه فسكت أبو بكر فانصرفت ثم عاودته فسكت عني ثم انصرفت وعاودته فقلت اما أن تعطيني واما أن تبخل عني فقال ما أبخل عنك اذهب فخذ فغرفت حفنة قال عدها فعددتها فوجدت فيها خمسمائة دينار وأبو أيوب من أغنياء الانصار وهو نزيل النبي صلى الله عليه وسلم ذل الحديث على أن بيت المال للغني والفقير ودل أيضا انه لا يجب أن يساوي فيه جميع المسلمين بل ذلك موكول الى اجتهاد الامام

(فصل) قال الحسن ابن علي الاسدي اخبرني أبي قال وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف من أموال مصر بحق الخراج مما يؤخذ من وجوه الجبايات السنة واحدة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظر الاماملين وتقوية لحالهم من العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف دينار من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد لحفر الخليج والانفاق على الجسور وسد الترع واصلاح المناشئات ثم تقويته من يحتاج الى تقويته من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة في البذار وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحمل البذار وسائر نفقات تطبيق الارضين ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف في أرزاق الاولياء الموسومين بالسلاح ومن في جملتهم من الشاذية والغلمان وأشياعهم وعدة جميعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوى اتباعهم من الخزان ومن يجري مجراهم مائة ألف

واحدى عشر ألف دينار وثمانية ألف ألف درهم ولما ينصرف للأرامل والايتام يرضون به من بيت المال وان كانوا غير محتاجين حتى
لا يخلوا امثالهم من برفرعون اربعمائة ألف دينار ولما ينصرف فى كهنة برابيهم وسائر بيوت صلواتهم مائتا ألف دينار ولما

قال الرواية لأجل المطاعن التى تعترضه فيها والعلل التى تعرض فى طرقها سيما والجرح مقدم عند الاكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الاخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد و يكثر ذلك فتقل روايته لضعف فى الطرق هذا مع ان اهل الحجاز اكثر رواية للحديث من اهل العراق لان المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان شغلهم بالجهاد اكثر والامام ابو حنيفة انما قلت روايته لما شدد فى شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقينى اذا عارضها الفعل النفسى وقلت من اجلها روايته فقل حديثه لا انه ترك رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك ويدل على انه من كبار المجتهدين فى علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا فى الشروط و كثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع أصحابه من بعده فى الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوى فاكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر الا انه لا يعدل الصحيحين لان الشروط التى اعتمدها البخارى ومسلم فى كتابيهما مجمع عليها بين الامة كما قالوه وشروط الطحاوى غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره فلهذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن أجل هذا قيل فى الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها فلا تأخذك ريبة فى ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما فى حقائق الامور

٧ *(علم الفقه وما يتبعه من الفرائض)*

الفقه معرفة أحكام الله تعالى فى افعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة وهى متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الادلة فاذا استخرجت الاحكام من تلك الادلة قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الادلة على اختلاف فيها بينهم ولا بد من وقوعه ضرورة ان الادلة غالبها من النصوص وهى بلغة العرب وفى اقتضاآت ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضا فالسنة مختلفة الطرق فى الثبوت وتتعارض فى الاكثر أحكامها فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف أيضا فالادلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص وما كان منها غير ظاهر فى المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها اشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم ثم ان الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وانما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبى صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أى الذين يقرؤن الكتاب لان العرب كانوا أمة أمية فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقى الامر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الامية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلما فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين طريقة اهل الرأى والقياس وهم اهل العراق وطريقة اهل الحديث وهم اهل الحجاز وكان الحديث قليلا فى اهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل أهل الرأى ومقدم جماعتهم الذى استقر المذهب فيه وفى اصحابه أبو حنيفة وامام اهل الحجاز مالك بن أنس والشافعى من بعده ثم انكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والاجماع وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة

ينصرف فى الصدقات مما يصب صبا و ينادى برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر فيحضر لذلك من يحضر ولا يرد احد والامناء جلوس فاذا رأوا انسانا لم يجر رسمه بان يأخذ أفردوه بعد قبضه ما قبضه حتى اذا فرق المال واجتمع من هذه الطائفة عدد دخل امناء فرعون اليه وهنؤه بتفرقة المال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والسلامة وانهى اليه حال تلك الطائفة فيأمر بتغيير شعثها بالحمام واللباس ثم يمد السماط فيأكلون بين يديه و يشربون و يستعلم من كل واحد سبب فاقته فان كان ذلك من آفة الزمان رد عليه مثل ما كان له وان كان سوء رأى وتدبير غير مستقيم ضمه الى من يشرف عليه و يأخذه بالادب والمعرفة التى لا يصلح الا بها مائتا ألف دينار ولما ينصرف من نفقات فرعون الراتبة لسنته مائتا ألف دينار تكون النفقات على ما تقدم تفصيلها تسعة آلاف ألف وثمانمائة ألف دينار و يحصل بعد ذلك ما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام و يحصله لفرعون فى بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف الى
ألف وثمانمائة ألف دينار (وقال ابو رهم) كانت ارض مصر ارضا مدبرة حتى ان الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسوه كيف

الى النص لان النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان امام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الامة وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الائمة ورفع الخلاف عن اقوالهم وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل اوسعوها جانب الانكار والقدح فلا نعرف شيأ من مذاهبهم ولا نروي كتبهم ولا اثر لشئ منها الا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب اهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وانكار الجمهور على منتحله ولم يبق الا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم اخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يحلو بطائل ويصير الى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالاندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار الى مذهب اهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف امامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين فنقم الناس ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا وانكارا وتلقوا كتبه بالاغفال والترك حتى انها ليحظر بيعها بالاسواق وربما تمزق في بعض الاحيان ولم يبق الا مذهب اهل الرأي من العراق واهل الحديث من الحجاز فاما اهل العراق فامامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم ابو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصا مالك والشافعي * وأما أهل الحجاز فكان امامهم مالك بن أنس الاصبحي امام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للاحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لانه رأى انهم فيما ينفقون عليه من فعل او ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا الى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الادلة الشرعية وظن كثير ان ذلك من مسائل الاجماع فأنكره لان دليل الاجماع لا يخص اهل المدينة من سواهم بل هو شامل للامة واعلم ان الاجماع انما هو الاتفاق على الامر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل اهل المدينة من هذا المعنى وانما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل الى أن ينتهي الى الشارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعم الملة ذكرت في باب الاجماع والابواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الاجماع الا أن اتفاق أهل الاجماع عن نظر واجتهاد في الادلة واتفاق هؤلاء في فعل او ترك مستندين الى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسئلة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره او مع الادلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان اليق ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن ادريس المطلبي الشافعي رحمهما الله تعالى رحل الى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الامام ابي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة اهل الحجاز بطريقة اهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكا رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه وجاء من بعدهما احمد بن حنبل رحمه الله وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الامام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد في الامصار

شاؤا ويرسلوه كيف شاؤا وذلك قول فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون وكان ملك مصر عظيما لم يكن في الارض اعظم من ملك مصر وكانت الجنات بحافتي النيل متصلة لا ينقطع منها شئ عن شئ والزرع كذلك من اسوان الى رشيد وكانت ارض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما دبروا في جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من اولها الى آخرها وذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين والمقام الكريم المنابر وكان بها الف منبر (وقال عبد الله بن عمرو) استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره فجعل أهل القرى يسألونه ان يجري الخليج تحت قريتهم ويعطوه مالا وكان يذهب به من قرية الى قرية من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى القبلة ويسوقه كيف أراد فليس في مصر خليج أكثر عطوفا منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة فحملها الى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون انه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بايديهم رد على أهل القرى ما أخذت منهم فرد عليهم أموالهم فهذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب فكيف يجب ان تكون سيرة من يقول لا اله الا الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب (وقال ابن عباس) رضي الله عنهما في قوله تعالى اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم قال هي خزائن مصر وكانت اربعين فرسخا في مثلها ولم يطع يوسف فرعون ويخالفه وينوب عنه الا بعد أن دعاه الى الاسلام فاسلم فحينئذ قال اجعلني على خزائن الارض (ولما استوثق) أمر يوسف الصديق

عند هؤلاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد ولما خشي من اسناد ذلك الى غير اهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والاعواز وردوا الناس الى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين وحظروا ان يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم يبق الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الاصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقه غير هذا ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الائمة الاربعة فأما احمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد واصالته في معاضدة الرواية وللاخبار بعضها ببعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وماوراء النهر وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافيات وجاؤا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله اليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهما وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وماوراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافيات بانواع استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق واقطاره وكان الامام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر اخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه اهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه اهل البيت وتلاشى من سواهم الى ان ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع اليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام فعاد الى احسن ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم محيي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الايوبية بالشام وعز الدين ابن عبد السلام أيضا ثم ابن الرفعة بمصر وتقي الدين بن دقيق العيد ثم تقي الدين السبكي بعدهما الى أن انتهى ذلك الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر كبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر * وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في غيرهم الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما ان رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع اليه أهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق فكانوا الى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب كل امام علما مخصوصا عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل في الالحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الاصول

المقررة

عليه السلام وكمل وصارت الاشياء اليه وأراد ربك أن يعوضه على صبره لما لم يركب محارمه وحلت سنو الغلاء والجوع ومات العزيز وذهبت الذخائر وافتقرت زليخا وعمي بصرها وجعلت تتكفف الناس فقيل لها لو تعرضت للملك لعله يرحمك ويغنيك فطالما حفظتيه وأكرمتيه ثم قيل لها لا تفعلي لانه ربما يتذكر ما كان منك اليه من المراودة والحبس فيسيء اليك ويكافئك فيما سبق منك اليه فقالت أنا أعلم بحلمه وكرمه وجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه وكان يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت وقالت سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم فقال يوسف ومن أنت قالت أنا التي كنت اخدمك على صدور قدمي وأرجل جمتك بيدي وأكرم مثواك بجهدي وكان مني ما كان وذقت وبال أمري وذهبت قوتي وتلف مالي وعمي بصري وصرت أسأل الناس فمنهم من يرحمني ومنهم من لا يرحمني بعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم هذا جزاء المفسدين فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدا وقال لها هل بقي في قلبك من حبك اياي شيء فقالت والذي اتخذ ابراهيم خليلا لنظرة اليك أحب الي من ملء الارض ذهبا وفضة فمضى يوسف وأرسل اليها ان كنت ايما تزوجناك وان كنت ذات بعل أغنيناك فقالت للرسول الملك أعرف بالله من أن يستهزئ بي هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت فتزوجها وأدخلت عليه فصف قدميه وجعل يصلي ودعا الله باسمه الاعظم فرد الله تعالى عليها شبابها وجمالها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها فاذا هي بكر فولدت له

افراثيم بن يوسف وميشا بن يوسف وطاب في الاسلام عيشهما حتى فرق الدهر بينهما فيجب للقوى أن لا ينسى الضعيف والغني أن
لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالبا ومرغوب اليه يصير راغبا ومسئول يصير سائلا وراحم يصير مرحوما (فهذا يوسف) الصديق عليه
السلام انظر الى ضعفه في يد اخوته يوم الجب ثم ضعفهم بين يديه يوم الصاع (وهذه زليخا) ملكة مصر وسيدة أهلها عادت

المقرة من مذاهب امامهم وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير والتفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله وقد كان تلامذته افترقوا بمصر والعراق فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته مثل ابن خويزمنداد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الابهري والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحرث بن مسكين وطبقتهم ورحل من الاندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الاندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية ورحل من افريقية اسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة اولا ثم انتقل الى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء الى القيروان بكتابه وسمي الاسدية نسبة الى اسد بن الفرات فقرأ بها سحنون على اسد ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لاسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الاندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه ايضا ابو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل افريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد أهل الاندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الامهات بالشرح والايضاح والجمع فكتب أهل افريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الاندلس على العتبية ما شاء الله ان يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفرع الامهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك الى ان جاء كتاب ابي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسئلة فجاء كالبرنامج للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحرث بن مسكين وابن المبشر وابن اللهيث وابن رشيق وابن شاس وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله ولم أدر عمن أخذها ابو عمرو بن الحاجب لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهاب فقه أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية ولما جاء كتابه الى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم ابو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه الى المغرب فانه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميذه ومنهم انتقل الى سائر الامصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هرون وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق حلبتهم في الاجادة في ذلك ابن عبد

تتكفف الناس في الطرقات قال الله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها فكان يوسف عليه السلام بعد هذا يجوع ويأكل خبز الشعير ولا يشبع فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض قال أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين (وقد رأيت) أن الحقه عنقية في مثلها يتنافس العقلاء ويرغب فيها الملوك والوزراء وذلك اني لما كنت بالعراق وكان الوزير نظام الملك والغالب على ألقابه خواجا بزرك رحمه الله تعالى قد وزر لابي الفتح ملك الترك ابن الب ارسلان وكان قد وزر لابيه من قبله فقام بدولتهما أحسن قيام فشد أركانها وشيد بنيانها واستمال الاعداء ووالى الاولياء واستعمل الكفاة وعم احسانه العدو والصديق والبغيض والحبيب والبعيد والقريب حتى ألقى الملك بجرانه وذل الخلق لسلطانه وكان الذي مهد له ذلك باذن الله تعالى وتوفيقه
أنه أقبل بكليته على مراعاة جمال الدين فبنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ثم أجرى لهم الجرايات والكساوي والنفقات وأجرى الخير والرزق لمن كان من أهل الطلب للعلم مضافا الى أرزاقهم وعم بذلك سائر أقطار مملكته فلم يكن من أوائل الشام وهي بيت المقدس الى سائر الشام الاعلى وديار بكر والعراقين وخراسان بأقطارها الى سمرقند

من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد في زاوية الا وكرامته شاملة له وسابغة عليه وكان الذي يخرج من بيوت أمواله في هذه الابواب ستمائة ألف دينار في كل سنة فوشى به الوشاة الى أبي الفتح الملك وأوغروا صدره عليه وقالوا ان هذا المال المخرج من بيوت الاموال يقيم به جيشا يركز رايته في سور قسطنطينية فخامر ذلك قلب أبي الفتح الملك فلما دخل

السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

٨ *(علم الفرائض)*

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة مما تصح باعتبار فروضها الاصول او مناسختها وذلك اذا هلك احد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فانه حينئذ يحتاج الى حساب يصحح الفريضة الاولى حتى يصل اهل الفروض جميعا في الفريضتين الى فروضهم من غير تجزئة وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد واثنين وتعدد لذلك بعدد أكثر وبقدر ما تتعدد تحتاج الى الحسبان وكذلك اذا كانت فريضة ذات وجهين مثل ان يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة وكل ذلك يحتاج الى الحسبان وكان غالبا فيه وجعلوه فنا مفردا وللناس فيه تآليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخري الاندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابي القاسم الحوفي ثم الجعدي ومن متأخري افريقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تآليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصا أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به الى الحقوق في الوراثات بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الامصار بها عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها الى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج الى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك فيملؤن بها تآليفهم وهو وان لم يكن متداولا بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتج الاكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه ان الفرائض ثلث العلم وانها اول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجه ابو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على ان المراد بالفرائض فروض الوراثة والذي يظهر ان هذا المحمل بعيد وان المراد بالفرائض انما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والمواريث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية وأما فروض الوراثة فهي اقل من ذلك كله بالنسبة الى علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد ان حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص او تخصيصه بفروض الوراثة انما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ولم يكن صدر الاسلام يطلق على هذا الا على عمومه مشتقا من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به في اطلاقه الا جميع الفروض كما قلناه وهي حقيقته الشرعية فلا ينبغي ان يحمل الا على ما كان يحمل في عصرهم فهو أليق بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

٩ *(أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات)*

(اعلم) ان اصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكثرها فائدة وهو النظر في الادلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الاحكام والتكاليف وأصول الادلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الاحكام تتلقى منه بما يوحى اليه من

القرآن

عليه قال يا أبت بلغني أنك تخرج من بيوت الاموال كل سنة ستمائة ألف دينار الى من لا ينفعنا ولا يغني عنا فبكى نظام الملك وقال يا بني أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا وأنت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهي مدى مرماه ثلثمائة ذراع وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون تخرق سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء والتضرع فبكى أبو الفتح الملك بكاء شديدا ثم قال شاباش يا أبت شاباش أكثر لي من هذا الجيش (ومن مناقب) هذا الرجل وفضائله ان رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفي فقال له يا أخي أنا أبني لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون في معمور الارض مثلها يخلد بها ذكرك الى أن تقوم الساعة قال افعل وكتب الى وكلائه

القرآن و يبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج الى نقل ولا الى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل الينا منها قولا أو فعلا بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلتهما لاجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون ذلك الا عن مستند لان مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الادلة بعصمة الجماعة فصار الاجماع دليلا ثابتا في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فاذا هم يقيسون الاشباه بالاشباه منهما و يناظرون الامثال بالامثال باجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فان كثيرا من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت والحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الالحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن ان حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلا شرعيا باجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الادلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الادلة وان خالف بعضهم في الاجماع والقياس الا أنه شذوذ والحق بعضهم بهذه الاربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا الى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان اول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه ادلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل الينا منها فالاجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضدا بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من انفاذ الكتب والرسل الى النواحي بالاحكام والشرائع آمرا وناهيا وأما الاجماع فلاتفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على انكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للامة واما القياس فباجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه اصول الادلة ثم ان المنقول من السنة محتاج الى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضا من قواعد الفن و يلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضا وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الالفاظ وذلك ان استفادة المعاني على الاطلاق من تراكيب الكلام على الاطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان وحين كان الكلام ملكة لاهله لم تكن هذه علوما ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج اليها لانها جبلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوما يحتاج اليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم أن هناك استفادات اخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الاحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الاطلاق بل لا بد من معرفة امور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة و بها تستفاد الاحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة مثل أن اللغة لا تثبت قياسا والمشترك لا يراد به معنياه معا والواو لا تقتضي الترتيب والعام اذا أخرجت افراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والامر للوجوب او الندب وللفور او التراخي والنهي يقتضي الفساد او الصحة والمطلق

ببغداد أن يمكنه من الاموال فابتاع بقعة على شاطئ دجلة وخط المدرسة النظامية وبناها احسن بنيان وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها وابتاع ضياعا وخانات وحمامات واوقفت عليها فكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسودد وذكر جميل طبق الارض خبره وعم المشارق والمغارب أثره وكان ذلك في سني عشر الخمسين وأربعمائة من الهجرة ثم رفع حساب النفقات الى نظام الملك فبلغ ما يقارب ستين ألف دينار ثم نمى الخبر الى نظام الملك من الكتاب وأهل الحساب أن جميع ما أنفق فيها نحو من تسعة عشر ألف دينار وأن سائر الاموال احتجبها لنفسه وخانك فيها فدعاه نظام الملك الى أصبهان للحساب فلما احس أبو سعيد بذلك أرسل الى الخليفة أبي العباس يقول هل لك في أن أطبق الارض بذكرك وأنشر لك فخر الا تمحوه الايام قال وما هو قال تمحو اسم نظام الملك عن هذه المدرسة ونكتب عليها اسمك وتزن له ستين ألف دينار فارسل اليه الخليفة يقول له أنفذ من يقبض المال فلما استوثق منه مضى الى أصبهان فقال له نظام الملك أنك قد رفعت الينا نحوا من ستين ألف دينار نفقة وأحب اخراج الحساب فقال له أبو سعيد لا تطل الخطاب ان رضيت والا محوت اسمك المكتوب عليها وكتبت عليها اسم غيرك وارسل معي من يقبض المال فلما أحس نظام الملك بذلك قال يا شيخ قد سوغناك جميع ذلك كله ولا تمح اسمنا ثم ان أبا سعيد بنى بتلك الاموال الرباطات للصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور ووقف جميع ذلك على الصوفية فالصوفية الى يومنا هذا في رباط أبي سعيد الصوفي واوقافه يتقلبون ببغداد ففي هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون فان فيها عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر فانما لم نجد شيأ

يبقى على الدهر الا الذكر حسنا كان او قبيحا وقال الشاعر ولا شيء يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا وتذكر بالصالحات كما ذكروا وادخر لنفسك في الآخرة كما ادخروا واعلم ان المأكول للبدن والموهوب للمعاد (٢٧٠) والمتروك للعدو فاختر أي الثلاث شئت والسلام (وكان) ابن ابي داود الوزير واسع النفس

هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعدد أم لا وامثال هذه فكانت كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم ان النظر في القياس من اعظم قواعد هذا الفن لان فيه تحقيق الاصل والفرع فيما يقاس ويماثل من الاحكام وينقح الوصف الذي يغلب على الظن ان الحكم علق به في الاصل من تبين اوصاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف والفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل اخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن (واعلم) ان هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه بما ان استفادة المعاني من الالفاظ لا يحتاج فيها الى ازيد مما عندهم من الملكة اللسانية واما القوانين التي يحتاج اليها في استفادة الاحكام خصوصا فمنهم أخذ معظمها واما الاسانيد فلم يكونوا يحتاجون الى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض السلف وذهب الصدر الاول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الاحكام من الادلة فكتبوها فنا قائما برأسه سموه اصول الفقه وكان اول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الاوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك الا أن كتابة الفقهاء فيها امس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الامثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلي ما أمكن لانه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم فكتب في القياس باوسع من جميعهم وتمم الابحاث والشروط التي يحتاج اليها فيه وكملت صناعة أصول الفقه بكماله وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الاشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لابي الحسين البصري وهما من المعتزلة وكانت الاربعة قواعد هذا الفن وأركانه ثم لخص هذه الكتب الاربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما الامام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي في كتاب الاحكام واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب أميل الى الاستكثار من الادلة والاحتجاج والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل وأما كتاب المحصول فاختصره تلميذ الامام سراج الدين الارموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الارموي في كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج وعني المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس * وأما كتاب الاحكام للآمدي وهو أكثر تحقيقا في المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف بالمختصر الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات * واما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا وكان من أحسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبو زيد الدبوسي وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الاسلام

البزدوي

مبسوط اليدين يعطي الجزيل ويستقل الكثير ولا يرد سؤالا ويبتدئ بالنوال فقال له الواثق امير المؤمنين يوما قد بلغني بسط يدك بالاعطاء وهذا يتلف بيوت الاموال فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال يا أمير المؤمنين ذخائر أجرها واصل اليك ومفاتيح شكرها موصولة بك وانما لي من ذلك تعشق في ايصال الثناء اليك فقال الواثق لله انت جد بالعطاء واكثر بالشكر والثناء

(الباب التاسع والاربعون في سيرة السلطان في الانفاق من بيت المال وسيرة العمال) *

اعلم ان يوسف الصديق عليه السلام لما ملك خزائن الارض كان يجوع ويأكل الشعير فقيل له تجوع وبيدك خزائن الارض فقال اخاف ان اشبع فانسى الجائعين (وروى) البيهقي باسناده قال لما استخلف ابو بكر الصديق رضي الله عنه غدا الى السوق فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه اين تريد قال السوق قال قد جاءك ما يشغلك عن السوق قال سبحان الله يشغلني عن عيالي قال نفرض لك بالمعروف قال فانفق في سنتين وبعض اخرى ثمانية آلاف درهم ووصى ان ترد من ماله في بيت المال (وروى) هذه القصة الحسن البصري قال لما حضرت ابا بكر الوفاة قال انظروا كم انفقت من مال الله فوجدوا قد انفق في سنتين ونصف ثمانية آلاف درهم قال اقضوها عني فقضوها عنه

البزدوى من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتى من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الاحكام وكتاب البزدوى فى الطريقتين وسمى كتابه بالبدائع فجاء من أحسن الاوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثا وولع كثير من علماء العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعديد التآليف المشهورة لهذا العهد فيه والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه انه على كل شئ قدير *(وأما الخلافيات)* فاعلم ان هذا الفقه المستنبط من الادلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافا لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك فى الملة اتساعا عظيما وكان للمقلدين ان يقلدوا من شاؤا منهم ثم لما انتهى ذلك الى الائمة الاربعة من علماء الامصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التى هى مواده باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الاربعة فاقيمت هذه المذاهب الاربعة أصول الملة وأجرى الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين باحكامها مجرى الخلاف فى النصوص الشرعية والاصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات فى تصحيح كل منهم مذهب امامه تجرى على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذى قلده وتمسك به وأجريت فى مسائل الشريعة كلها وفى كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون الخلاف بين الشافعى ومالك وأبو حنيفة يوافق احدهما وتارة بين مالك وأبى حنيفة والشافعى يوافق احدهما وتارة بين الشافعى وأبى حنيفة ومالك يوافق أحدهما وكان فى هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الائمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التى يتوصل بها الى استنباط الاحكام كما يحتاج اليها المجتهد الا ان المجتهد يحتاج اليها للاستنباط وصاحب الخلافيات يحتاج اليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من ان يهدمها المخالف بادلته وهو لعمرى علم جليل الفائدة فى معرفة مآخذ الائمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه وتآليف الحنفية والشافعية فيه اكثر من تآليف المالكية لان القياس عند الحنفية اصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك اهل النظر والبحث وأما المالكية فالاثر اكثر معتمدهم وليسوا باهل نظر وايضا فاكثرهم اهل المغرب وهم بادية غفل من الصنائع الا فى الاقل وللغزالى رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذ ولابى زيد الدبوسى كتاب التعليقة ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الادلة وقد جمع ابن الساعاتى فى مختصره فى أصول الفقه جميع ما ينبنى عليها من الفقه الخلافى مدرجا فى كل مسئلة ما ينبنى عليها من الخلافيات *(وأما الجدل)* وهو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين اهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا وكل واحد من المناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الائمة الى ان يضعوا آدابا واحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له ان يكون مستدلا وكيف يكون مخصوما منقطعا ومحل اعتراضه او معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه انه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل

ثم قال يا معشر المسلمين انه قد حضر من قضاء الله ما ترون ولا بد لكم من رجل يلى امركم ويصلى بكم ويقاتل عدوكم فان شئتم اجتمعتم وائتمرتم لكم وان شئتم اجتهدت لكم فوالذى لا اله الا هو ما آلوكم ونفسى خيرا فبكوا وقالوا انت خيرنا واعلمنا فاختر لنا فقال قد اخترت لكم عمر (وروى) مالك هذه القصة على غير هذا الوجه قال بلغنى ان ابا بكر لما ولى لم ينفق من مال الله شيأ وغدا يوما من بنى عمرو بن عوف وكانت له هناك امرأة من الانصار فى جمال له يريد أن يبيعها فلقيه بعض المسلمين فقال له ما تصنع هذا يشغلك عن الناس وعن النظر فى أمرهم قال فكيف أصنع قالوا تتفرغ للنظر فى أمورهم وتستنفق من هذا المال فباع تلك الابل وغيرها من ماله الا الارض ثم طرحه فى بيت المال فكان ينفق من المال على نفسه وعلى عياله * ثم كان عمر على مثل ذلك ثم وليه عمر بن عبد العزيز فلم ينفق منه فقيل له قد صنع أبو بكر وعمر ما قد علمت قال أجل ولكنى أخذت من هذا المال فان يكن لى فيه حق فقد استوفيت وزدت ولولا ذلك لفعلت (قال) ابن القاسم قلت لمالك فاين قولهم عن عمر انه رد ثمانين ألفا قال كذبوا انما يقول هذا أعداء الله هو لم يجز لولده سلف أبى موسى اياه حين أخذ منه نصفه فكيف يأخذ من مال الله ثمانين الفا فلما توفى أبو بكر استرجع على رضى الله عنه وجاء مسرعا باكيا وقال رحمك الله أبا بكر لقد كنت والله أول القوم اسلاما وأكملهم ايمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله تعالى وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشبههم به هديا وخلقا وسمتا وفضلا وأكرمهم عليه وأرفعهم عنده فجزاك الله عن الاسلام خيرا صدقت رسول الله حين كذبه الناس فسماك الله فى كتابه صديقا فقال تعالى والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وآسيته حين تخلفوا وقمت معه حين

بها الى حفظ رأى وهدمه كان ذلك الرأى من الفقه اوغيره وهى طريقتان طريقة البزدوى وهى خاصة بالادلة الشرعية من النص والاجماع والاستدلال وطريقة العميدى وهى عامة فى كل دليل يستدل به من أى علم كان واكثره استدلال وهو من المناحى الحسنة والمغالطات فيه فى نفس الامر كثيرة واذا اعتبرنا النظر المنطقى كان فى الغالب أشبه بالقياس المغالطى والسوفسطائى الا ان صور الادلة والاقيسة فيه محفوظة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغى وهذا العميدى هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة اليه ووضع الكتاب المسمى بالارشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفى وغيره جاؤا على اثره وسلكوا مسلكه وكثرت فى الطريقة التآليف وهى لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم فى الامصار الاسلامية وهى مع ذلك كمالية وليست ضرورية والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

١٠ *(علم الكلام)*

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف واهل السنة وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد فلنقدم هنا لطيفة فى برهان عقلى يكشف لنا عن التوحيد فى أقرب الطرق والمآخذ ثم نرجع الى تحقيق علمه وفيما ينظر ويشير الى حدوثه فى الملة وما دعا الى وضعه فنقول ان الحوادث فى عالم الكائنات سواء كانت من الذوات اومن الافعال البشرية اوالحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع فى مستقر العادة وعنها يتم كونه وكل واحد من هذه الاسباب حادث أيضا فلا بد له من اسباب أخر ولا تزال تلك الاسباب مرتقية حتى تنتهى الى مسبب الاسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا اله الا هو وتلك الاسباب فى ارتقائها تتفسح وتتضاعف طولا وعرضا و يحار العقل فى ادراكها وتعديدها فاذا لا يحصرها الا العلم المحيط سيما الافعال البشرية والحيوانية فان من جملة اسبابها فى الشاهد القصود والارادات اذ لا يتم كون الفعل الا بارادته والقصد اليه والقصود والارادات أمور نفسانية ناشئة فى الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضا وتلك التصورات هى أسباب قصد الفعل وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى وكل ما يقع فى النفس من التصورات مجهول سببه اذ لا يطلع أحد على مبادى الامور النفسانية ولا على ترتيبها انما هى أشياء يلقيها الله فى الفكر يتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة مباديها وغاياتها وانما يحيط علما فى الغالب بالاسباب التى هى طبيعية ظاهرة ويقع فى مداركها على نظام وترتيب لان الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها واما التصورات فنطاقها اوسع من النفس لانها للعقل الذى هو فوق طور النفس فلا تدرك الكثير منها فضلا عن الاحاطة وتأمل من ذلك حكمة الشارع فى نهيه عن النظر الى الاسباب والوقوف معها فانه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون وربما انقطع فى وقوفه عن الارتقاء الى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين الهالكين نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا تحسبن ان هذا الوقوف أو الرجوع عنه فى قدرتك واختيارك بل هو لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض فى الاسباب على نسبة لا نعلمها اذ لو علمناها لتحرزنا منها فلنتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة وأيضا فوجه تأثير هذه الاسباب فى الكثير من مسبباتها مجهول لانها انما يوقف عليها بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد الى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة وما أوتيتم من العلم الا

قعدوا وصبرت فى الشدة حين تفرقوا أكرم الصحبة ثانى اثنين وصاحبه فى الغار ورفيقه فى الهجرة والمنزل عليه السكينة وخلفته فى أمته أحسن الخلافة فقويت حين ضعف أصحابك وبرزت حين استكانوا وقمت بالامر حين فشلوا ومضيت بقوة اذ وقفوا كنت أطولهم صمتا وأبلغهم قولا وأشجعهم قلبا وأشدهم يقينا وأحسنهم عملا كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا فى بدنك قويا فى أمر دينك متواضعا فى نفسك عظيما محبوبا الى أهل السموات والارض فجزاك الله عنا وعن الاسلام خيرا (وقال) عمر رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده تعبا شديدا (وروى) البيهقى عن عمر رضى الله عنه انه قال انى أنزلت نفسى من مال الله تعالى بمنزلة ولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف (وفى رواية أخرى) ان احتجت أخذت منه فاذا أيسرت رددته (وفى رواية أخرى) أخبركم ما استحل من مال الله تعالى وما قال يحل لى أستحل منه حلتين حلة للشتاء وحلة للقيظ وما أحج عليه وأعتمر وقوتى وقوت عيالى كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ثم انا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم (وقال) انس بن مالك غلا الطعام على عهد عمر رضى الله عنه فأكل خبز الشعير وكان قبل ذلك لا يأكله فاستنكره بطنه فصوت فضربه بيده وقال هو والله ما ترى حتى يوسع الله على المسلمين (وقال) ابو عثمان النهدى رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف بالبيت وعليه جبة صوف قال لا فيها اثنتا عشرة رقعة احداها بادم أحمر (وقال) عطاء بن السائب استعمل عمر بن الخطاب السائب بن الاقرع على المدائن فدخل ايوانا من ايوان كسرى فاذا صنم يشير باصبعه الى الارض فقال والله ما يشير هذا الى الارض الا وثم شئ فاحتفروا فاستخرجوا

قلب. لا فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها والغائها جملة والتوجه الى مسبب الاسباب كلها وفاعلها وموجدها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فان وقف عند تلك الاسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وان سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحدا بعد واحد فانا الضامن له ان لا يعود الا بالخيبة فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الاسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من انه مقتدر على الاحاطة بالكائنات واسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك واعلم ان الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والامر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه الا ترى الاصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الاربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الاعمى أيضا يسقط عنده صنف المرئيات ولولا ما يردهم الى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به لكنهم يتبعون الكافة في اثبات هذه الاصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ولو سئل الحيوان الاعجم ونطق لوجدناه منكرا للمعقولات وساقطة لديه بالكلية فاذا علمت هذا فلعل هناك ضربا من الادراك غير مدركاتنا لان ادراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقا من ذلك والله من ورائهم محيط فاتهم ادراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لانه من طور فوق ادراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير انك لا تطمع ان تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع في محال ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع ان يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفطن في هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من ذلك واذا تبين ذلك فلعل الاسباب اذا تجاوزت في الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة فيضل العقل في بيداء الاوهام ويحار وينقطع فاذا التوحيد هو العجز عن ادراك الاسباب وكيفيات تأثيرها وتفويض ذلك الى خالقها المحيط بها اذ لا فاعل غيره وكلها ترتقي اليه وترجع الى قدرته وعلمنا به انما هو من حيث صدورنا عنه وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن الادراك ادراك ثم ان المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الايمان فقط الذي هو تصديق حكمي فان ذلك من حديث النفس وانما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما ان المطلوب من الاعمال والعبادات أيضا حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانيا والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه ان كثيرا من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله تعالى مندوب اليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء

منه سقطا فيه جوهر فكتب الى عمر بن الخطاب أما بعد فاني دخلت ايوانا من ايوان كسرى فرأيت كذا وكذا فاحتفرت فأخرجت سفطا فيه جوهر فلم أجد أحق به منك يا أمير المؤمنين لم يكن من فيء المسلمين فاقسمه بينهم انما أصبناه شيئا تحت الارض فلما قدم السفط على عمر وعليه خاتم السائب فرأى عمر فيما يرى النائم كأن نارا أججت وهو يراد يلقى فيها فكتب الى السائب أن اقدم علي قال فقدمت عليه وهو يطوف في ابل الصدقة فطفت معه الى نصف النهار ثم دعا بماء فاغتسل ودعا لي بماء فاغتسلت ثم ذهب الى منزله فأتى بلحم غليظ وخبز متمحش فقال انظر من على الباب فاذا سودان من الصوفية فاذن لهم فجعل يأكل معهم فاذا اللحم غليظ لا أستطيع أن أسيغه وقد كنت تعودت درمك أصبهان اذا وضعته في فيّ دخل بطني ثم دعا بالسفط وقال أتعرف خاتمك قلت نعم فقال كتبت ترفق لي تزعم اني أحق به من ابن أصبته فأخبرته قال اذهب فاجعله في بيت مال المسلمين حتى اقسمه بينهم (وقال) قتادة قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله فقال هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير قال خالد بن الوليد لهم الجنة فاغرورقت عينا عمر وقال لئن كان حظنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيدا (وقال) عبد الله ابن عمر العمري ان عمر بن

 الخطاب رضي الله عنه حين قدم الشام قال لابي عبيدة اذهب بنا الى منزلك قال وما تريد الى أن تعصر عينيك علي قال فدخل منزله فلم ير شيئا فقال عمر أين متاعك لا أرى الا لبدا وشنا وصحفة وأنت أمير أعندك طعام فقام أبو عبيدة الى جونة فأخرج منها كسيرات فبكى عمر فقال أبو عبيدة قد قلت لك انك ستعصر عينيك علي يا أمير المؤمنين يكفيك من الدنيا ما بلغك المقيل فقال عمر غرتنا

المستضعفين لفرعنه واستنكف ان يباشره فضلا عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بان رحمة المسكين قربة الى الله تعالى مقام آخر اعلى من الاول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها فمتى رأى يتيما او مسكينا بادر اليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقق ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة فان العلم الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع وهذا علم اكثر النظار والمطلوب انما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة * واعلم ان الكمال عند الشارع في كل ما كلف به انما هو في هذا فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقق بها ثم ان الاقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة فان الصلاة صارت له صفة وحالا يجد فيها منتهى لذته وقرة عينه واين هذا من صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقد تبين لك من جميع ما قررناه ان المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية وهو الذي تحصل به السعادة وان ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية ويتفهم منه ان الايمان الذي هو أصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الافعال كلها في طاعة ذلك التصديق الايماني وهذا أرفع مراتب الايمان وهو الايمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة اذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث هرقل لما سأل ابا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم واحواله فقال في أصحابه هل يرتد احد منهم سخطة لدينه قال لا قال وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ومعناه ان ملكة الايمان اذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات اذا استقرت فانها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة وهذه هي المرتبة العالية من الايمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة لان العصمة واجبة للانبياء وجوبا سابقا وهذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا لاعمالهم وتصديقهم وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الايمان كالذي يتلى عليك من اقاويل السلف وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الايمان كثير منه مثل أن الايمان قول وعمل ويزيد وينقص وان الصلاة والصيام من الايمان وان تطوع رمضان من الايمان والحياء من الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي أشرنا اليه والى ملكته وهو فعلي واما التصديق الذي هو أول

مراتبه

الدنيا بعدك يا أبا عبيدة (وقال) النخعي بعث عمر بن الخطاب مصدقين فابطؤا عليه وبالناس حاجة شديدة فاتوا بالصدقات فقام فيها متزر بعباءة يختلف في أولها وآخرها يقول هذه لآل فلان وهذه لآل فلان حتى انتصف النهار وجاع ودخل بيته حتى اذا أمكن أكله أكله ثم قال من أدخله بطنه ابعده الله (وقال) طاوس اجدب الناس على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فما اكل سمنا ولا سمينا حتى اكل الناس (وقال) سعيد ابن جبير ان عليا رضي الله عنه قدم الكوفة وهو خليفة وعليه ازار ان قطري قد رقع ازاره بخرقة لبست بقطرية من وراءه فجاءه اعرابي فنظر الى تلك الخرقة فقال يا امير المؤمنين كل من هذا الطعام والبس واركب فانك ميت أو مقتول قال ان هذا خير لي في صلاتي واصلح لقلبي واشبه بشبه الصالحين قبلي واحد ان يقتدي بي من اتى من بعدي (وقال) الحسن ان عمر بن الخطاب بينا هو يعس في المدينة بالليل أتى على امرأة من الانصار تحمل قربة فسألها فذكرت ان لها عيالا وانها ليس لها خادم وانها تخرج في الليل فتسقيهم الماء وتكره ان تخرج بالنهار فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها وقال اغدي على عمر غدوة يخدمك خادما قالت لا اصل اليه قال انك ستجديه ان شاء الله تعالى فغدت عليه فاذا هي به فعرفت انه الذي حمل قربتها فذهبت تولى فارسل في اثرها وامر لها بخادم ونفقة ولما حج عمر رضي الله عنه قال كم بلغت نفقتنا يا يرفأ قال ثمانية عشر دينارا يا امير المؤمنين قال ويحك اجحفنا ببيت مال المسلمين (وقال) شهر بن حوشب لما قدم عمر الشام طاف بكورها حتى نزل حمص فقال اكتبوا الى فقراءهم فرفعوا اليه الرقعة واذا فيها سعيد بن عامر فقال من سعيد بن عامر قالوا اميرنا فعجب عمر وقال كيف يكون اميركم

فقيرا فقالوا انه لايمسك شيأ فبكى عمرو بعث اليه بالف دينار يستعين بها في حاجته فجعل يسترجع فقالت له امرأته مالك اصابك أمير المؤمنين بشيء قال اعظم من ذلك اتتني الدنيا دخلت على الدنيا واني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل اغنيائهم بأربعين عاما فوالله ما يسرني اني حبست عن الرعيل

الاول وان لي به ما طلعت عليه

مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر اوائل الاسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر اواخر الاسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الايمان الكامل ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الاولى التي هي التصديق اذ التصديق موجود في جميع رتبه لانه اقل ما يطلق عليه اسم الايمان وهو المخلص من عهدة الكفر والفيصل بين الكافر والمسلم فلا يجزي أقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وانما التفاوت في الحال الحاصلة عن الاعمال كما قلناه فافهم * واعلم ان الشارع وصف لنا هذا الايمان الذي في المرتبة الاولى الذي هو تصديق وعين أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الاقرار بالسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان فقال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي العقائد الايمانية المقررة في علم الكلام ولنشر اليها مجملة لتتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول اعلم ان الشارع لما أمرنا بالايمان بهذا الخالق الذي رد الافعال كلها اليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا ان في هذا الايمان نجاتنا عند الموت اذا حضرنا لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود اذ ذاك متعذر على ادراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا أولا اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين والا لما صح انه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص والا لشابه المخلوقين ثم توحيده بالاتحاد والا لم يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاد انه عالم قادر فبذلك تتم الافعال شاهد قضيته لكمال الاتحاد والخلق ومريد والا لم يخصص شيء من المخلوقات ومقدر لكل كائن والا فالارادة حادثة وانه يعيدنا بعد الموت تكميلا لعنايته بالايجاد ولو كان لامر فان كان عبثا فهو للبقاء السرمدي بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف احواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الاتيان بذلك وبيان الطريقين وان الجنة للنعيم وجهنم للعذاب هذه أمهات العقائد الايمانية معللة بادلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة وعن تلك الادلة اخذها السلف وأرشد اليها العلماء وحققها الائمة الا انه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد اكثر مثارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى النقل فحدث بذلك علم الكلام ولنبين لك تفصيل هذا المجمل وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الايمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فاما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بان الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم اقرؤها كما جاءت اي آمنوا بانها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة لان معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من

الشمس قالت فاصنع فيه ماشئت قال هل عندك معونة قالت نعم فاتته بخمارها فصر الدنانير فيها صررا ثم جعلها في مخلاة و بات يصلي و يبكي حتى اصبح فاعرض جيشا من جيوش المسلمين فامضاها كلها فقالت امرأته رحمك الله لو حبست منها شيأ نستعين به فقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة الى الارض لملأت الارض من ريح المسك واني والله ما اختارك عليهن فسكتت (وروى) ان عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عمير بن سعد فلما مضت السنة كتب اليه ان يقدم عليه فلم يشعر به عمر الا ان قدم ماشيا حافيا معه عكازته واداوته ومزودته وقصعته على ظهره فلما نظر اليه عمر قال يا عمير اخبثتنا ام البلاد بلاد سوء فقال يا امير المؤمنين اما نهاك الله ان تجهر بالسوء وعن سوء الظن وماترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا اجرها بقرابها فقال

وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا ان لقيته ومزودي احمل فيه طعامي واداوتي هذه احمل فيها ماء لشربي ووضوئي وقصعتي هذه اتوضأ فيها واغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبع لما معي قال فقام عمر من مجلسه الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فبكى ثم قال اللهم ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد الى مجلسه ثم قال

ماصنعت فى عملك ياعمير قال أخذت الرقة من أهل الرقة والابل من أهل الابل وأخذت الجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى منها شئ عندى أتيتك به فقال عمر عد الى عملك فقال عمير أنشدك الله ان لاتردنى الى عملى فانى لم أسلم منه حتى قلت لذمى اخزاك الله ولقد خشيت ان يخصمنى له محمد صلى الله عليه وسلم

التعلق بظواهر هذه التى لنا عنها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالاجسام وليس ذلك بدافع عنهم لانه قول متناقض وجمع بين نفى واثبات ان كان بالمعقولية واحدة من الجسم وان خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا فى التنزيه ولم يبق الا جعلهم لفظ الجسم اسما من أسمائه ويتوقف مثله على الاذن وفريق منهم ذهبوا الى التشبيه فى الصفات كاثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم الى التجسيم فنزعوا مثل الاولين الى قولهم صوت لا كالاصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول يعنون من الاجسام واندفع ذلك بما اندفع به الاول ولم يبق فى هذه الظواهر الا اعتقادات السلف ومذاهبهم والايمان بها كما هى لئلا يكر النفى على معانيها بنفيها مع انها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا تنظر ماتراه فى عقيدة الرسالة لابن أبى زيد وكتاب المختصر له وفى كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم فانهم يحومون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك فى غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث فى سائر الانحاء وألف المتكلمون فى التنزيه حدثت بدعة المعتزلة فى تعميم هذا التنزيه فى آى السلوب فقضوا بنفى صفات المعانى من العلم والقدرة والارادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بان الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفى السمع والبصر لكونهما من عوارض الاجسام وهو مردود لعدم اشتراط البنية فى مدلول هذا اللفظ وانما هو ادراك المسموع أو المبصر وقضوا بنفى الكلام لشبه ما فى السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التى تقوم بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل لخلافهم ايسار كثير منهم ودماؤهم وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالادلة العقلية على هذه العقائد دفعا فى صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ ابو الحسن الاشعرى امام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ماقصره عليه السلف وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه فاثبت الصفات الاربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة فى ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والاصلح والتحسين والتقبيح وكمل العقائد فى البعثة وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام فى الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم انها من عقائد الايمان وانه يجب على النبى تعيينها والخروج عن العهدة فى ذلك لمن هى له وكذلك على الامة وقصارى أمر الامامة أنها قضية مصلحية اجماعية ولا تلحق بالعقائد فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموعه علم الكلام اما لما فيه من المناظرة على البدع وهى كلام صرف وليست براجعة الى عمل واما لان سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم فى اثبات الكلام النفسى وكثر أتباع الشيخ أبى الحسن الاشعرى واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاضى أبو بكر الباقلانى فتصدر للامامة فى طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الادلة والانظار وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء وان العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الايمانية فى وجوب اعتقادها لتوقف تلك الادلة عليها وأن بطلان الدليل

ولقد سمعته يقول أنا حجيج المظلوم فما حاججته حجته ولكن ائذن لى الى أهلى فاذن له فاتى أهله فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار فقال ائت عميرا فانزل عليه ثلاثا فان يك حاله يخف عليك فى عيشه وحال أهل بيته وان لم يك حاله يخف عليك فادفع اليه المائة فاتاه حبيب فنزل به ثلاثا فلم ير له عيشا الا الشعير والزيت فلما مضت ثلاث قال ياحبيب ان رأيت ان تحول الى جيراننا فلعل ان يكونوا اوسع عيشا منا أما نحن فوالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به (قال) فدفع اليه المائة وقال بعث بها اليك أمير المؤمنين فدعا بفرو وخلق لامرأته فصرها الخمسة والستة والسبعة فقسمها فقدم حبيب على عمر فقال يا أمير المؤمنين جئتك من عند أزهد الناس وماعنده من الدنيا الا قليل ولا كثير فبعث اليه عمر وقال ماصنعت فى المائة ياعمير قال لاتسألنى عنها قال لتخبرنى (قال) قسمتها بينى وبين اخوانى المهاجرين والانصار قال فامر له بوسقى طعام وثوبين قال يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبل وأما الوسقان فلا حاجة لى بهما عندأهلى صاع من بر هو كافيهم حتى ارجع اليهم (وروى) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صرار بعمائة دينار وقال للغلام اذهب بها الى عبيدة بن الجراح ثم تلكأ ساعة فى البيت حتى ترى مايصنع فذهب بها الغلام اليه وقال يقول لك أمير

الدليل يؤذن ببطلان المدلول وجاءت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية الا أن صور الادلة تعتبر بها الاقيسة ولم تكن حينئذ ظاهرة فى الملة ولو ظهر منها بعض الشئ فلم يأخذ به المتكلمون لملابستها العلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك ثم جاء بعد القاضى ابى بكر الباقلانى امام الحرمين ابو المعالى فأملى فى الطريقة كتاب الشامل واوسع القول فيه ثم لخصه فى كتاب الارشاد واتخذه الناس اماما لعقائدهم ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق فى الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه و بين العلوم الفلسفية بانه قانون ومعيار للادلة فقط يسبر به الادلة منها كما يسبر من سواها ثم نظر وافى تلك القواعد والمقدمات فى فن الكلام للاقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التى أدلت الى ذلك وربما ان كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة فى الطبيعيات والالهيات فلما سبروها بالمعيار المنطقى ردهم الى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار اليه القاضى فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم مباينة للطريقة الاولى وتسمى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الايمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم وأول من كتب فى طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالى رحمه الله وتبعه الامام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم فى مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع فى العلمين فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسائل فيهما * واعلم ان المتكلمين لما كانوا يستدلون فى أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود البارى وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعى ينظر فيه الفيلسوف فى الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات الا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم وهو ينظر فى الجسم من حيث يتحرك و يسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف فى الالهيات انما هو نظر فى الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم فى الوجود من حيث انه يدل على الموجد وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله انما هو العقائد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالادلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد واذا تأملت حال الفن فى حدوثه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرا بعد صدر وكلهم يفرض العقائد صحيحة و يستنهض الحجج والادلة علمت حينئذ ما قررناه لك فى موضوع الفن وأنه لا يعدوه ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوى فى الطوالع ومن جاء بعده من علماء العجم فى جميع تآليفهم الا أن هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والاغراق فى معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فانما هو للطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الارشاد وما حذا حذوه ومن أراد ادخال الرد على الفلاسفة فى عقائده فعليه بكتب الغزالى والامام ابن الخطيب فانها وان وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط فى المسائل والالتباس فى الموضوع ما فى طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغى ان يعلم ان هذا العلم الذى هو علم الكلام غير ضرورى لهذا العهد على طالب العلم اذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والائمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا والادلة العقلية انما احتاجوا

المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك قال وصله الله ورحمه (ثم قال) تعالى يا جارية اذهبى بهذه السبعة الى فلان و بهذه الخمسة الى فلان حتى أنفذها ورجع الغلام الى عمر فاخبره (ووجده) قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له اذهب بهذه الى معاذ بن جبل وتلكأ فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فيها فذهب بها اليه وقال ان أمير المؤمنين يقول لك اجعل هذه فى بعض حاجتك فقال رحمه الله واوصله (ثم قال) يا جارية اذهبى الى فلان بكذا والى فلان بكذا فقالت امرأة معاذ ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق فى الخرقة الا ديناران فرمى بهما اليها فرجع الغلام فاخبر بذلك عمر فقال عمر انهم اخوة بعضهم من بعض

* (الباب الموفى خمسين فى سيرة السلطان فى تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال) *

(اعلم) أرشدك الله تعالى ان أول من اتخذ الدواوين وأجرى الاعطية على ما روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان يفضل أهل السابقة ثم الذين يلونهم حتى أجرى على العامة شيأ واحدا ثلثمائة وار بعمائة وفرض للعيال مائة درهم فى كل سنة (وكان) ابو بكر رضى الله عنه يساوى بين الناس فى العطاء ولا يفضل اهل السابقة و يقول انما عملوا لله فاجورهم على الله وانما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمنا لاعمالهم (وكان) عمر يقول لا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ولم يقدر عمر الارزاق الا فى ولاية عمار فاجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلى معه فى كل شهر لما بعثه و بعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان) عطاؤه خمسة آلاف

درهم وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم فى كل شهر وربع شاة فى كل يوم وأجرى على شريح القاضى مائة درهم فى كل شهر وعشرة أجربة (وانما) فضل عمارا عليهم لانه كان على الصلاة (قال) مالك وكان عمر لا يفرض لصغير رضيع فاذا فطم فرض له فمر من الليل وصبي يبكي يبغي الرضاع وأمه لا ترضعه (٢٧٨) فقال لها عمر أرضعيه قالت اذا لا يفرض له عمر قال بلى هو يفرض له ثم فرض عمر بعد ذلك للمولود مائة درهم فى كل سنة (قال ابن) جبلة وفرض عمر للعيالات اكل عيل من ذكر وانثى جريبين من بر فى كل شهر وقسطين من زيت وقسطا من خل ومائة درهم فى كل سنة (قال) والجريب قفيز بالقرطبي والقسط قدوثمن ربع الزيت بالقرطبي (قال) الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين ألف من الناس (وكان) يخطب الناس فى عباءة يلبس نصفها و يفترش نصفها فاذا خرج عطاؤه أمضاه وكان يسف الخوص ويأكل من سفيف يده (وقال) الحسن قدم على عمر بن الخطاب وفد من البصرة مع أبي موسى الاشعري قال فكنا ندخل عليه وله كل يوم خبز ثلاث (فربما) وافقناها مأدومة بسمن واحيانا بزيت واحيانا باللبن وربما وافقنا القديد اليابس قد دق ثم أغلى عليه بماء وربما وافقنا اللحم الغريض وهو قليل فقال لهم يوما انى أرى والله تقذيركم وكراهيتكم لطعامى

اليها حين دافعوا وتصروا وأما الآن فلم يبق منها الا كلام تنزه البارى عن كثير ايهاماته واطلاقه ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه فقال ماهؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالادلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفى العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن فائدته فى آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة اذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها والله ولى المؤمنين

١١ *(علم التصوف)*

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة وأصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة وقال القشيرى رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر انه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء او من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى قال وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه * قلت والاظهر ان قيل بالاشتقاق انه من الصوف وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم وذلك ان الانسان بما هو انسان انما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك وادراكه نوعان ادراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وادراك للاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف فى البدن تنشأ من ادراكات وارادات وأحوال وهى التى يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة والفرح والحزن عن ادراك المؤلم او المتلذذ به والنشاط عن الجمام والكسل عن الاعياء وكذلك المريد فى مجاهدته وعبادته لابد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحالة اما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد واما ان لا تكون عبادة وانما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن اوسرور او نشاط او كسل اوغير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى أن ينتهى الى التوحيد والمعرفة التى هى الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فالمريد لابد له من الترقى فى هذه الاطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشأ عنها الاحوال والصفات نتائج وثمرات ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى الى مقام التوحيد والعرفان واذا وقع تقصير فى النتيجة اوخلل فنعلم انه انما أتى من قبل التقصير فى الذى قبله وكذلك فى الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا يحتاج المريد الى محاسبة نفسه فى سائر أعماله و ينظر فى حقائقها لان حصول النتائج عن الاعمال ضرورى وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على اسبابه ولا يشاركهم فى ذلك الا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا كأنها شاملة وغاية اهل العبادات اذا لم ينتهوا الى هذا النوع انهم يأتون بالطاعات مخلصة

فانى لو شئت لكنت اطيبكم طعاما وأرفهكم عيشا أما والله ما أجهل كراكر واسنمة وأعرف صلاء وصنابا وصلائق (قال) والصلاء الشواء والصناب الخردل والصلائق الخبز الرقاق ولكنى سمعت الله تعالى عير أقواما بأمر فعلوه فقال اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فكلمنا أبو موسى فقال لو كلمتم أمير المؤمنين لفرض لكم من بيت المال طعاما فأكلتموه

فكلمناه فقال يا معشر الامراء اهل ترضون لانفسكم ما أرضاه لنفسي فقلنا يا امير المؤمنين ان المدينة أرض العيش بها شديد ولا نرى طعامك يغنينا ولا يؤكل طعامك وانا بارض ذات ريف وان أميرنا يغنينا وان طعامه يؤكل قال فنظر ساعة ثم رفع رأسه فقال قد فرضت لكم من بيت المال شاتين وجريبين فاذا كان بالغداة فضع احدى الشاتين على احدى الجريبين (٢٧٩) وكل أنت وأصحابك ثم ادع بشراب ثم اسق الذي عن يمينك ثم اسق الذي عن شمالك ثم قم لحاجتك واذا كان العشاء فضع الشاة الغابرة على الجريب الآخر فكل أنت وأصحابك الا وأوسعوا الناس في بيوتهم وأطعموا عيالهم والله ما أظن رستاقا يؤخذ منه كل يوم شاتان وجريبان الا يسرعان في خرابه (وكان عمر) قد أطعم جريبين بالخل والزيت لثلاثين رجلا فكفاهم فاجراه على كل رجل في كل شهر ممن كان في الديوان مكان ما كانت فارس تجريه على خيولهم وأساورهم (وقال) سعيد ابن المسيب وأبو سلمة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا العيال يسلم على أبوابهن ويقول ألكن حاجة وأيتكن تريد أن تشتري شيأ فيرسل معه بحوائجهن ومن ليس عندها شيء اشترى لها من عنده واذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعهن بنفسه في منازلهن بكتب أزواجهن ويقول أزواجكن في سبيل الله وانتن في بلاد رسول الله ان كان عندكن من يقرأ والا فاقربن من الابواب حتى أقرأ لكن ثم يقول الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول هذه دواة وقرطاس فادنين من الابواب حتى أكتب لكن ويمر الى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها الى أزواجهن (وقال) الربيع بن زياد الحارثي كنت عاملا لابي موسى الاشعري على البحرين فكتب اليه عمر بن

من نظر الفقه في الاجزاء والامتثال وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ليطلعوا على انها خالصة من التقصير أولا فظهر ان أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الافعال والتروك والكلام في هذه الاذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاما ويترقى منها الى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في الفاظ تدور بينهم اذ الاوضاع اللغوية انما هي للمعاني المتعارفة فاذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من اهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء واهل الفتيا وهي الاحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الاذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه واصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من اهل هذه الطريقة في طريقتهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الاخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وامثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الامرين في كتاب الاحياء فدون فيه احكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط وكانت احكامها انما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والاصول وغير ذلك * ثم ان هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف ان الروح اذا رجع عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت احوال الحس وقويت احوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه واعان على ذلك الذكر فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد الى أن يصير شهودا بعد ان كان علما ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهي وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الافق الاعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لاهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منه اذا هاجمهم وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك اهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم * ثم ان قوما من المتأخرين انصرفت عنايتهم الى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في اماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوها وتغذيتها فاذا حصل ذلك زعموا ان الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وانهم

كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش الى الطش هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الاحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة * ثم ان هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا عندهم الا اذا كان ناشئا عن الاستقامة لان الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وان لم يكن هناك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين وليس مرادنا الا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله ان المرآة الصقيلة اذا كانت محدبة او مقعرة وحوذي بها جهة المرئي فانه يتشكل فيه معوجا على غير صورته وان كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحا فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الاحوال ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق ردا وقبولا اذ هي من قبيل الوجدانيات وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأتى بالاغمض فالاغمض بالنسبة الى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فانه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه ان الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الاحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلي وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بافاضة الايجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه كنت كنزا مخفيا فأحببت ان أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الايجاد المتنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الانبياء والرسل أجمعين والكمل من أهل الملة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الافلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتق فاذا تجلت فهي في عالم الفتق ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم الى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الاول في تعقله وتفاريعه يزعمون فيه ان الوجود له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر انما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم ان المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الانسانية مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الانسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الالهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو المفصل لها كالانسانية مع

الحيوانية

الخطاب يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعا فلما قدمت المدينة أتيت يرفا فقلت يا يرفا مسترشد وابن سبيل أي الهيآت أحب الى امير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأومأ الى الخشونة فاتخذت خفين مطارقين ولبست جبة صوف ولبست عمامتي على رأسي فدخلنا على عمر فصففنا بين يديه فصعد فينا وصوب فلم تأخذ عينه غيري فدعاني فقال من أنت قلت الربيع بن زياد الحارثي (قال) وما تتولى من أعمالنا قلت البحرين قال وكم ترزق قلت ألفا قال كثير فما تصنع بها قلت اتقوت منها شيأ وأعود على أقارب لي فما فضل لي عنهم فعلى فقراء المسلمين قال فلا بأس ارجع الى موضعك فرجعت الى موضعي من الصف فصعد فينا وصوب فلم تقع عينه الا علي فدعاني فقال كم سنك قلت خمس وأربعون سنة قال الآن حين استكملت (ثم دعا) بالطعام وأصحابي حديثو عهد بلين العيش وقد تجوعت له فأتي بخبز وأعضاء بعير فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل وجعلت أنظر اليه يلحظني من بينهم ثم سبقت مني كلمة تمنيت اني سخت في الارض ولم أقلها فقلت يا امير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى سلامتك فلو عمدت الى طعام ألين من هذا فزجرني ثم قال كيف قلت فقلت يا امير المؤمنين لو تنظر الى قوتك من الطحين ان يخبز لك قبل ارادتك اياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذا فتؤتى بالخبز لينا وباللحم غريضا فسكن غيظه ثم قال أههنا رعت قلت نعم (قال) يا ربيع انا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك يعني خبز الحوارى ولكني رأيت الله تعالى عاب على قوم شهواتهم فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ثم أمر أبا موسى باقراري على عملي وان يستبدل باصحابي (وقال) قبيصة بن ذؤيب دعا عمر بن الخطاب عبيد الله بن

ســعد وكان على أهل حمص فقال علام يحبك أهل الشام قال انى أحبهم فاحبونى قال مالك قلت عبدى وفرسى وبغلى وخادمى (قال) فــاذا تلبس فى الشــتاء قلت عصابة أشد بها رأسى وجبة وكساء قال فـما تلبس فى الصــيف قلت قميصا وريطة فاعطانى عمر ألف دينار (وقال) خذها واستنفق منها وأعط منها قلت لا ارب لى فيها وستجد من هو أحوج اليها منى (٢٨١) قال خذها فان النبي عليه السلام دفع الى مالا وهو دون الذى أعطيتك فقلت له كما قلت لى فقال ياعمر ما آتاك الله من هذا المال عطاء من غير ان تعرض له أو تشرف له نفسك فاقبله فأخذته فانطلق به الى امرأته فقال أترين رجلا له هذا من فقراء المهاجرين هو أم من الاغنياء فقالت بل من الاغنياء فقسمها حتى بقيت منها صرة أظن فيها ثلاثين أو نحو ذلك فقالت له امرأته أليس لى انا حق فاعطاها اياه (وقال) زياد ابن حيوة بينا نحن بخناصرة اذا بامرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فارشدناها الى الدار فرأت دارا متهشمة فقالت لخياط هناك استأذن لى على فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز قال فادخلى وصوتى بها فانها تأذن لك فــدخلت فلما أبصرت ماهنالك قالت جئت أرم فقرى من بيت الفقراء واذا رجل يعمل فى الطين فسألتها عن أمير المؤمنين فقالت هو ذلك يعمل فى الطين فقالت له يا أمير المؤمنين مات زوجى وترك ثمان بنات فبكى عمر بكاء شديدا ثم قال فما تريدين قالت تفرض لهن قال نفرض للكبرى ما اسمها قالت فلانة فكتبها قالت الحمد لله قال ما اسم الثانية قالت فلانة فكتبها قالت الحمد لله حتى كتب السابعة فقالت جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين فطرح القلم من يده وقال لها امالك لو وليت الحمد أهله لاتممناهن لك مرى السبع فليواسين هذه الثامنة

الحيوانية الاترى انها مندرجة فيها وكائنة بكونها فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع فى كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم فى هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وانما أوجبها عندهم الوهم والخيال والذى يظهر من كلام ابن دهقان فى تقرير هذا المذهب ان حقيقة ما يقولونه فى الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء فى الالوان من ان وجودها مشروط بالضوء فاذا عدم الضوء لم تكن الالوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسى بل والموجودات المعقولة والمتوهمة أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلى فاذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشرى فلو فرضنا عدم المدرك البشرى جملة لم يكن هنالك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة واللين بل والارض والماء والنار والسماء والكواكب انما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل فى المدرك من التفصيل الذى ليس فى الموجود وانما هو فى المدارك فقط فاذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل انما هو ادراك واحد وهو أنا لا غير ويعتبرون ذلك بحال النائم فانه اذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو فى تلك الحالة الا ما يفصله له الخيال قالوا فكذا اليقظان انما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشرى ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الوهم لا الوهم الذى هو من جملة المدارك البشرية هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو فى غاية السقوط لانا نقطع بوجود البلد الذى نحن مسافرون عنه واليه يقينا مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الاشياء الغائبة عنا والانسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه فى اليقين مع ان المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه الى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهى عقبة صعبة لانه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب اهل هذه الطريقة ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملؤا الصحف منه مثل الهروى فى كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربى وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلى فى قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول والهية الائمة مذهبا لم يعرف لاولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار الى ذلك ابن سينا فى كتاب الاشارات فى فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعى وانما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة فى النقباء حتى انهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم رفعوه الى على رضى الله عنه وهو من هذا المعنى أيضا والا فعلى رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة فى لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر

(الباب الحادى والخمسون فى أحكام أهل الذمة) (روى) عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا (٢٨٢) وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا نهار وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول فى الاسلام ان أراده وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شئ من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيأ من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وان نجز مقادم رؤسنا ونلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا فى شئ من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا الا ضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شئ من حضرة المسلمين أشرنا ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران فى شئ من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع على منازلهم (فلما أتيت) عمر رضى الله عنه بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدا

رضى الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم فى الدين بشئ يؤثر عنه فى الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة فى الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة فى امر الفاطمى وما شحنوا كتبهم فى ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفى او اثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم فى كتبهم والله يهدى الى الحق ثم ان كثيرا من الفقهاء واهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين فى هذه المقالات وامثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم فى الطريقة والحق ان كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم فى اربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق التى تصير مقاما و يترقى منه الى غيره كما قلناه وثانيها الكلام فى الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسى والملائكة والوحى والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان فى صدورها عن موجدها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات فى العوالم والاكوان بانواع الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها فى اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول فاما الكلام فى المجاهدات والمقامات وما يحصل من الاذواق والمواجد فى نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير فى اسبابها فامر لا مدفع فيه لاحد واذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة وأما الكلام فى كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم فى الكائنات فامر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحق الاسفراينى من أئمة الاشعرية على انكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدى وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع ان الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام فى الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجدانى عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطى دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغى أن لا نتعرض لكلامهم فى ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شئ من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة وأما الالفاظ الموهمة التى يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم ان الانصاف فى شأن القوم انهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لابى يزيد وامثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك اذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر فى حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضا ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لانه تكلم فى حضور وهو مالك لحاله والله أعلم وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين

من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شئ مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق فكتب اليه عمر رضي الله عنه ان أمض ما سألوه والحق فيه حرفين اشترطتهما عليهم مع ماشرطوا على أنفسهم ان لا يشتروا شيأ من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده (وروى) نافع عن سالم

اشرنا اليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شئ من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه و يرون انه من العوائق والمحن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله اوسع وخلقه اكبر وشريعته بالهداية املك فلا ينطقون بشئ مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء و يأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي ان يكون حال المريد والله الموفق للصواب

١٢ *(علم تعبير الرؤيا)*

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عند ما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا في السلف كما هو في الخلف وربما كان في الملوك والامم من قبل الا انه لم يصل الينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الاسلام والا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق ولا بد من تعبيرها فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضي الله عنه والرؤيا مدرك من مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وقال لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح او ترى له واول ما بدئ به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا انفتل من صلاة الغداة يقول لاصحابه هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين واعزازه واما السبب في كون الرؤيا مدركا للغيب فهو ان الروح القلبي وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية واحساسها فاذا أدركه الملال بكثرة التصرف في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد الليل انخنس الروح من سائر أقطار البدن الى مركزه القلبي فيستجم بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب ثم ان هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الانسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الامر بذاته اذ حقيقته وذاته عين الادراك وانما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع الى حقيقته وهو عين الادراك فيعقل كل مدرك فاذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من ادراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الاعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة من عالمه واذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع الى بدنه اذ هو ما دام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف الا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم انما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه ينتزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ثم يدفعها الى الحافظة تحفظها له الى وقت الحاجة اليها عند النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صورا أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس الى

مولى عمر بن الخطاب ان عمر كتب الى أهل الشام في النصارى أن يقطع ركبهم وان يركبوا على الاكف وان يركبوا في شق وان يلبسوا خلاف زي المسلمين ليعرفوا (وروى) ان بني تغلب دخلوا على عمر بن عبد العزيز فقالوا يا أمير المؤمنين انا قوم من العرب افرض لنا قال نصارى قالوا نصارى قال ادعوا الى حجاما ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزما يحتزمونها وأمرهم ان لا يركبوا السروج ويركبوا الاكف من شق واحد (وروى) ان أمير المؤمنين المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأقصاهم وخالف بين زيهم وزي المسلمين وجعل على أبوابهم مثالا للشياطين لانهم أهل ذلك وقرب منه أهل الحق وباعد عنه أهل الباطل والاهواء فأحيا الله به الحق وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا (وكان) عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم اهل رشا في دينهم ولا تحل في دين الله الرشا ولما استقدم عمر بن الخطاب أبا موسى الاشعري من البصرة وكان عاملا عليها للحساب دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيا فقال له عمر قاتلك الله وضرب بيده على فخذه وليت ذميا على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم الا اتخذت حنيفا فقال يا أمير

المؤمنين الى كتابته وله دينه فقال لا اكرمهم اذ اهانهم الله ولا اعزهم اذ اذلهم الله ولا ادنيهم اذ اقصاهم الله وكتب بعض العمال الى عمر بن الخطاب ان العدد قد كثر وان الجزية قد كثرت فنستعين بالاعاجم فكتب اليه عمر انهم اعداء الله وانهم لنا غششة فانزلهم حيث انزلهم الله ولا تردوا اليهم شيأ وقال عمران بن اسد اتانا كتاب عمر بن عبد العزيز الى محمد بن المنتشر اما بعد فانه بلغني ان في عمال

المعقول والخيال واسطة بينهما ولذلك اذا ادركت النفس من عالمها ما تدركه ألقته الى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه الى الحس المشترك فيراه النائم كانه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلي الى الحسي والخيال ايضا واسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث الاحلام الكاذبة فانها كلها صور في الخيال حالة النوم لكن ان كانت تلك الصور متنزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا وان كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال اودعها اياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام وأما معنى التعبير فاعلم ان الروح العقلي اذا أدرك مدركه وألقاه الى الخيال فصوره فانما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الاعظم فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية فاذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره الا انه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد ان يتيقن ان البحر صورة محسوسة وأن المدرك وراءها وهو يهتدي بقرائن اخرى تعين له المدرك فيقول مثلا هو السلطان لان البحر خلق عظيم يناسب ان يشبه به السلطان وكذلك الحية يناسب ان تشبه بالعدو لعظم ضررها وكذا الاواني تشبه بالنساء لانهن اوعية وأمثال ذلك ومن المرئي ما يكون صريحا لا يفتقر الى تعبير لجلائها ووضوحها او لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه ولهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان هي الاضغاث واعلم أيضا ان الخيال اذا ألقى اليه الروح مدركه فانما يصوره في القوالب المعتادة للحس ما لم يكن الحس ادركه قط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد اعمى أن يصور له السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالاواني لانه لم يدرك شيأ من هذه وانما يصور له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات وليتحفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الهم والامر الفادح ومثل ما يقولون الحية تدل على العدو وفي موضع آخر يقولون هي كاتم سر وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وأمثال ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو اليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل ميسر لما خلق له ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين وتناقلها الناس لهذا العهد والف الكرماني فيه من بعده ثم الف المتكلمون المتأخرون وأكثروا والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل الممتع وغيره وكتاب الاشارة للسالمي وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب

١٣ *(العلوم العقلية واصنافها)*

واما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان من حيث انه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجد النظر فيها لاهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان عمران

رجلا يقال له حسان بن مرذي على غير دين الاسلام والله تعالى يقول يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين واذا اتاك كتابي هذا فادع حسان الى الاسلام فان اسلم فهو منا ونحن منه وان ابى فلا تستعن به ولا تأخذ من غير اهل الاسلام على شيء من أعمال المسلمين فقرأ الكتاب عليه فاسلم (ولما) خرج النبي عليه السلام الى بدر تبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرة فقال اني اريد ان أتبعك وأصيب معك قال تؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه عند الشجرة ففرح به أصحاب النبي عليه السلام وكانت له قوة وجلد فقال جئتك لاتبعك وأصيب معك قال تؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه على ظهر البيداء فقال له مثل ذلك قال تؤمن

بالله ورسوله قال نعم فخرج به وهذا أصل عظيم في ان لا يستعان بكافر هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي عليه السلام ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين وكتب عمر بن عبد العزيز الى عماله ان لا تولوا على أعمالنا الا أهل القرآن فكتبوا اليه انا وجدنا فيهم خيانة فكتب اليهم ان لم يكن في أهل القرآن خير فاجدر ان لا يكون في غيرهم خير

الخليقة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على اربعة علوم الاول علم المنطق وهو علم يعصم الذهن عن الخطا في اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة وفائدته تمييز الخطا من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات من الاجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها واما ان يكون النظر في الامور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على اربعة علوم وتسمى التعاليم أولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الاطلاق اما المنفصلة من حيث كونها معدودة او المتصلة وهي اما ذو بعد واحد وهو الخط اوذو بعدين وهو السطح اوذو ابعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هذه المقادير ومايعرض لها اما من حيث ذاتها اومن حيث نسبة بعضها الى بعض وثانيها علم الارتماطيقي وهو معرفة مايعرض للكم المنفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الاشكال للافلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وادبارها فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم فالارتماطيقي اولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الالهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه فمن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الازياج وهي قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر في النجوم علم الاحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحدا بعد واحد الى آخرها واعلم ان أكثر من عني بها في الاجيال الذين عرفنا أخبارهم الامتان العظيمتان في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على مابلغنا لما كان العمران موفورا فيهم والدولة والسلطان قبل الاسلام وعصره لهم فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة ومايتبعها من الطلاسم وأخذ ذلك عنهم الامم من فارس ويونان فاختص بها القبط وطمى بحرها فيهم كما وقع في المتلو من خبر هاروت وماروت وشأن السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابي بصعيد مصر ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن الا بقايا يتناقلها منتحلو هذه الصنائع والله أعلم بصحتها مع ان سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان منهم حين قتل الاسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم مالا يأخذه الحصر ولما فتحت ارض فارس ووجدوا فيها كتبا كثيرة كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب اليه عمر ان اطرحوها في الماء

(فصل) ومتى نقض الذمي العهد بمخالفته لشيء من الشروط المأخوذة عليه لم يرد الى مأمنه والامام فيه بالخيار بين القتل والاسترقاق وقال أصحاب الشافعي و يلزمهم ان يتميزوا عن المسلمين في اللباس وان لبسوا قلانس ميزوها عن قلانس المسلمين بالخرق و يشدون الزنانير في اوساطهم و يكون في رقابهم خاتم من رصاص أو نحاس او جرس يدخل معهم الحمام وليس لهم ان يلبسوا العمائم والطيلسان وأما المرأة فتشد الزنار تحت الازار وقيل فوق الازار وهو الاولى و يكون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام و يكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ولا يركبون الخيل ويركبون البغال والحمير بالاكف عرضا ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدؤن بالسلام و يلجؤن الى أضيق الطريق و يمنعون ان يعلوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة وقيل لاتجوز بل يمنعون وان تملكوا دارا عالية أقروا عليها و يمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل و يمنعون من المقام في الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة و يجعل الامام على كل طائفة منهم رجلا يكتب أسماءهم وحلاهم و يستوفي جميع ما يؤخذون به من جميع الشروط وان امتنعوا من اداء الجزية والتزام احكام الملة انتقض عهدهم وان زنى احدهم بمسلمة اواصابها بنكاح اوآوى عينا للكفار اودل على عورة للمسلمين اوفتن مسلما عن دينه أوقتله اوقطع عليه الطريق اوذكر الله ورسوله بما لايجوز وقيل ينتقض وان فعل مايمنع منه مما لاضرر فيه كترك الغيار واظهار الخمر وما أشبههما عزر عليه ومتى فعل مايوجب نقض العهد رد الى مأمنه في أحد القولين وقتل في الحين في القول الآخر *(فصل)* في تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فقيل انها مقدرة الاقل والاكثر

على ما كتب به عمر الى عثمان بن حنيف بالكوفة فوقع على الغني ثمانية واربعون درهما وعلى من دونه اربعة وعشرون درهما وعلى من دونه اثنا عشر درهما وهذا مذهب ابي حنيفة وابن حنبل واحد قولي الشافعي وجعلوه كانه حكم امام فلا ينقض وقيل انها مردودة الى الامام في الزيادة والنقصان وهو الاقيس وقيل انها مقدرة الاقل دون الاكثر فيجوز للامام ان يزيد على ما قدره عمر ولا يجوز ان ينقص منه وقال بعضهم يجوز ان يساوي بينهم من كل واحد دينار وقال مالك يؤخذ من الموسر اربعون درهما ومن الفقير دينار وعشرة دراهم ويتخرج على مذهب مالك في وجوب تقديرها فيها قولان بناء على العشر المأخوذ منه هل هو تقدير شرعي لا تجوز فيه الزيادة والنقصان وعن مالك فيه روايتان ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين وكتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الحميد بن عبد الرحمن سلام عليك اما بعد فان اهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور من العمال وسنن سيئة سنها عليهم عمال السوء فاحرز عليهم ارضهم ولا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب ولا تأخذ من الخراب الا ما يطيقون ولا من العامر الا وظيفة الخراج الاوزن سبعة ليس لها اس ولا اجور الضرابين ولا اداة الفضة ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن المصحف ولا اجور البيوت ولا دراهم النكاح ولا خراج على من اسلم من اهل الارض والواجب ان يؤخذ ما ضرب به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من كل جريب كرم عشرة دراهم ومن كل جريب نخل ثمانية دراهم ومن كل جريب حنطة اربعة دراهم ومن كل جريب شعير درهمان *(فصل)* واما الكنائس فامر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان تهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ومنع ان تحدث

فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله باهدى منه وان يكن ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها في الماء او في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل الينا وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان اولا وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤون منهم اصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرؤن في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط الدن ثم الى تلميذه أفلاطون ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر الافرودسي وتامسطيون وغيرهم وكان ارسطو معلما للاسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسخهم في هذه العلوم قدما وأبعدهم فيها صيتا وكان يسمى المعلم الاول فطار له في العالم ذكر * ولما انقرض أمر اليونان وصار الامر للقياصرة واخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لاهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للامم وابتداء أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى اذا تبحبح السلطان والدولة واخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الامم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الاساقفة والاقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو اليه افكار الانسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصا وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فاوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من اهل الاسلام وحذقوا في فنونها وانتهت الى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء المعلم الاول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة ابو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير ابو بكر بن الصائغ بالاندلس الى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثير على انتحال التعاليم وما ينضاف اليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على مسلمة ابن احمد المجريطي من أهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا اليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه ثم ان المغرب والاندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما الا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويبلغنا عن أهل المشرق ان بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على ثبج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بان له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعا على العلوم الحكمية

وقدما

وقد ماثالية فى سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا لهذا العهد ان هذه العلوم الفلسفية ببلاد الافرنجة من أرض رومة وما اليها من العدوة الشمالية نافقة الاسواق وأن رسومها هنالك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها متكثرة والله أعلم بما هنالك وهو يخلق مايشاء ويختار

(العلوم العددية)

وأولها الارثماطيقى وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التأليف اما على التوالى او بالتضعيف مثل ان الاعداد اذا توالت متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعدد واحد ومثل ضعف الواسطة ان كانت عدة تلك الاعداد فردا مثل الافراد على تواليها والازواج على تواليها ومثل ان الاعداد اذا توالت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ او يكون اولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فان ضرب الطرفين أحدهما فى الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعدد واحد أحدهما فى الآخر ومثل مربع الواسطة ان كانت العدة فردا وذلك مثل اعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل مايحدث من الخواص العددية فى وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات اذا وضعت متتالية فى سطورها بان يجمع من الواحد الى العدد الاخير فتكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا فى سطر تحت الاضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذى قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذى قبله فتكون مخمسة وهلم جرا وتتوالى الاشكال على توالى الاضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض ففى عرضه الاعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها ثم المربعات ثم المخمسات الخ وفى طوله كل عدد واشكاله بالغا ما بلغ وتحدث فى جمعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقريت منها وتقررت فى دواوينهم مسائلها وكذلك مايحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد فان لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست فى غيره وهذا الفن اول أجزاء التعاليم واثبتها ويدخل فى براهين الحساب وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف وأكثرهم يدرجونه فى التعاليم ولا يفردونه بالتأليف فعل ذلك ابن سينا فى كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور اذ هو غير متداول ومنفعته فى البراهين لا فى الحساب فهجروه لذلك بعد ان استخلصوا زبدته فى البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء فى كتاب رفع الحجاب والله سبحانه وتعالى اعلم

(ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) وهى صناعة علمية فى حساب الاعداد بالضم والتفريق فالضم يكون فى الاعداد بالافراد وهو الجمع وبالتضعيف تضاعف عددا بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضا يكون فى الاعداد اما بالافراد مثل ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقى وهو الطرح أو تفصيل عدد باجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق فى الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد الى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون بالضم والتفريق فى الجذور ومعناها العدد الذى يضرب فى مثله فيكون منه العدد المربع فان تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة احتيج اليها للحساب فى المعاملات وألف الناس فيها كثيرا

كنيسة وأمران لاتظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد فى ذلك عمر بن عبد العزيز وأمران لايترك فى دار الاسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة وهكذا قال الحسن البصرى قال من السنة ان تهدم الكنائس التى فى الامصار القديمة والحديثة ويمنع أهل الذمة من بناء ماخرب قال الاصطخرى ان طينوا ظاهر الحائط منعوا وان طينوا داخله الذى يليهم لم يمنعوا ويمنعون ان يعلوا على المسلمين فى البناء وتجوز المساواة وقيل لاتجوز

(الباب الثانى والخمسون فى بيان الصفات المعتبرة فى الولاة)

اعلم أرشدك الله تعالى ان منزلة العمال من الوالى منزلة السلاح من المقاتل فاجتهد جهدك فى ابتغاء صالح العمال واذا فقد الوالى عمال الصدق كان كفقد المقاتل السلاح يوم الحرب ويحتاج الى طبقات الرجال كما يحتاج الحرب الى أصناف العدة فمنها الدرق للاستجنان والسيف للناجزة والرمح للطاعنة والسهم للمباعدة والدرع للتحصن ولكل منها موضع لبس للآخر والرجال كذلك كالاداة للصانع لايسد بعضها مسد بعض كذلك طبقات الرجال كذلك منهم للرأى والمشورة ومنهم لادارة الحرب ومنهم لمباشرة الحرب ومنهم لجمع الاموال ومنهم لحفظها ومنهم للحماية ومنهم للكتابة ومنهم للجمال والفخر ومنهم للمباهاة والذكر ومنهم للدعاء والوقار ومنهم للعلم والفتيا وحفظ أساس الملة فلا يكمل للملك ملك مالم يجمع هذه الطبقات وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما مات كسرى بلغ موته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من استخلفوا قالوا ابنته بوران قال لن يفلح قوم اسندوا أمرهم الى امرأة وقال ابن عباس لما كانت فتنة الجرة قيل من استعمل

القوم قالوا عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة الراهب على الانصار قال أمير ان هلك والله القوم وليس يشترط الا في الامامة العظمى دون سائر الولايات (ولما) استحضر هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وكان من الخطباء قال له هشام بلغني انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة قال زيد فقد كان اسمعيل بن ابراهيم ابن أمة واسحق بن حرة ومحمد عليه السلام من ولد اسمعيل ثم اتهمه في أمر فقال له زيد أنا أحلف لك قال هشام ومن يصدقك قال زيد انه ليس أحد فوق ان يأمر بتقوى الله ولا احد دون ان يؤمر بتقوى الله وقال بعض الخلفاء دلوني على رجل استعمله على امر قد أهمني قالوا وكيف تريده قال اذا كان في القوم وليس أميرهم كان كانه أميرهم واذا كان في القوم وهو أميرهم كان كانه رجل منهم قالوا ما نعلمه الا الربيع بن زياد الحارثي قال صدقتم هو لها ويروى ان عمر بن عبد العزيز استشار في قوم يستعملهم فقال له بعض اصحابه عليك باهل العدل قال ومن هم قال الذين ان عدلوا فهو ما رجوت وان قصروا قال الناس اجتهد عمر (ولما قدم البريد من بشر بن مروان على عبد الملك بن مروان سأله عن بشر قال يا امير المؤمنين هو الشديد في غير عنف اللين في غير ضعف فقال عبد الملك ذاك الاعسر الاجود الذي كان يامن عنده البريء ويخاف لديه السقيم ويعاقب على قدر الذنب ويعرف موضع العفو والشديد في غير ضعف اللين في غير ضعف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال الحكيم اعتبر الرجال بافعالهم لا بعظم اجسامهم فان النسر مع عظمه لا يأكل الا ميتا وطير الماء مع ضعفه يتحامى ميت السمك ويأكل الحي منها (وفي) حكم الهند السلطان الحازم ربما احب الرجل فاقصاه واطرحه مخافة ضره كالملسوع يقطع أصبعه لئلا ينتشر السم في جسمه

وتداولوها في الامصار بالتعليم للولدان ومن احسن التعليم عندهم الابتداء بها لانها معارف متضحة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب وقد يقال من اخذ نفسه بتعليم الحساب اول امره انه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا ومن احسن التآليف المبسوطة فيه لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين اعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر ادركنا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك وانما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لان مسائلها واعمالها واضحة كلها واذا قصد شرحها فانما هو اعطاء العلل في تلك الاعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في اعمال المسائل فتأمله والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوي المتين *(ومن فروعه الجبر والمقابلة)* وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض اذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب اولها العدد لان به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول اليه وثانيها الشيء لان كل مجهول فهو من جهة ابهامه شيء وهو أيضا جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال وهو أمرهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الاس في المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسئلة فتخرج الى معادلة بين مختلفين او اكثر من هذه الاجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحا ويحطون المراتب الى أقل الاسوس ان أمكن حتى يصير الى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال فان كانت المعادلة بين واحد وواحد تعين فالمال والجذر يزول ابهامه بمعادلة العدد ويتعين والمال وان عادل الجذور يتعين بعدتها وان كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهمة فيعينها ذلك الضرب المفصل ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين واكثر ما انتهت المعادلة بينهم الى ست مسائل لان المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة او مركبة تجيء ستة واول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن اسلم وجاء الناس على اثره فيه وكتابه في مسائله الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه وشرحه كثير من اهل الاندلس فاجادوا ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي وقد بلغنا ان بعض أئمة التعاليم من اهل المشرق أنهى المعاملات الى اكثر من هذه الستة اجناس وبلغها الى فوق العشرين واستخرج لها كلها اعمالا واتبعه ببراهين هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى *(ومن فروعه أيضا المعاملات)* وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في ذلك صناعتا الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المران والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب ولاهل الصناعة الحسابية من اهل الاندلس تآليف فيها متعددة من اشهرها معاملات الزهراوي وابن السمح وأبي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة المجريطي وامثالهم *(ومن فروعه ايضا الفرائض)* وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات اذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسرت

سهامه

وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغناء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه الا ان للاسلام شرطا فلا
تستقيم هذه السيرة عليها الاترى ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما افضت الخلافة اليه كان معاوية واليا على الشام من قبل عمر ثم
عثمان فاستشار في أمره فقال له بعضهم اقره على امرته وأرسل اليه بعهده فاذا دخل في بيعتك فاعزله فقال له رحمك

سهامه على ورثته او زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها على المال كله او كان في الفريضة اقرار وانكار من بعض الورثة فيحتاج في ذلك كله الى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصح وسهام الورثة من كل بطن مصححا حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الوراثة من الفروض والعول والاقرار والانكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها احاديث نبوية تشهد بفضلها مثل الفرائض ثلث العلم وانها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندي ان ظواهر تلك الاحاديث كلها انما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثات فانها اقل من ان تكون في كميتها ثلث العلم وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديما وحديثا وأوعبوا ومن احسن التآليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والصردي وغيرهم لكن الفضل للحوفي فكتابه مقدم على جميعها وقد شرحه من شيوخنا ابو عبد الله سليمان الشطي كبير مشيخة فاس فاوضح واوعب ولامام الحرمين فيها تآليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قدمه وكذا للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء بمنه وكرمه لا رب سواه

(العلوم الهندسية)

هذا العلم هو النظر في المقادير اما المتصلة كالخط والسطح والجسم واما المنفصلة كالاعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين ومثل ان كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا الى غير نهاية ومثل ان كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ومثل ان الاربعة مقادير المتناسبة ضرب الاول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى كتاب الاصول وكتاب الاركان وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين واول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة ايام ابي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين فمنها لحنين بن اسحق ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج ويشتمل على خمس عشرة مقالة اربعة في السطوح وواحدة في الاقدار المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها الى بعض وثلاث في العدد والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجذور وخمس في المجسمات وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء أفرد له جزأ منها اختصه به وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصار وغيرهم وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية باطلاق واعلم ان الهندسة تفيد صاحبها اضاءة في عقله واستقامة في فكره لان براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع وقد زعموا انه كان مكتوبا على باب افلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخلن منزلنا وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه

الله اتأمرني أن اطلب العدل بالجور ثم عزله فكان سبب عصيانه وهكذا أشاروا عليه فقالوا يا أمير المؤمنين لو فضلت هؤلاء الاشراف ومن تتخوف منهم وانما الناس أصحاب دنيا حتى اذا استوثق الامر عدت الى التسوية فقال أتأمروني ان أطلب العدل بالجور فيمن وليت عليه والله لو كان مالي لسويت بينهم ولم افضل بعضهم على بعض فكيف والمال لهم واعطاء المال في غير حقه تبذير وسرف وهو يرفع ذكر صاحبه في الدنيا ويضعه عند الله في الآخرة ولن يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله الا حرمه الله تعالى شكرهم ويصير لغيره ودهم فان بقي معه منهم من يظهر له الود والشكر فذلك ملق وخديعة لينال منه فان زلت به النعل يوما فاحتاج الى معونته ومكافاته ما سلف من مبرته فشر خليل والأم خدين واياك أيها الوالي وحب المدح فان من أحب المدح عد كمن مدح نفسه واذا علم ذلك

منك جعله الناس سلما لقضاء حوائجهم منك فحينئذ يكون قضاء الحوائج لنفسك لا لهم

وقال النبي عليه السلام أحثوا في وجوه المداحين التراب وسمع المقداد رجلا يمدح عثمان بن عفان فأخذ كفا من تراب فألقاه في وجهه
وسمع النبي عليه السلام رجلا يمدح رجلا فقال قطعت ظهر أخيك لو سمعها ما أفلح بعدها ووصف اعرابي أميرا فقال كان اذا ولي لم

يطابق بين جفونه وأرسل العيون على عيونه فهو غائب عنهم شاهد معهم فالمحسن راج والمسيء خائف وقال عبد الله بن الزبير يوما لا يبعدن ابن هندان كانت فيه لمخارج ما نجدها في أحد بعده أبدا والله ان كنا لنعرفه وما الليث الحرب على براثنه باجرأ منه فيتفارق لنا وان كنا لنخدعه وما ابن ليلة من الارض (٢٩٠) بأدهى منه والله لوددت أنا متعنا به مادام في هذا حجر وأشار الى أبي قبيس لا يتخون له عقل ولا ينتقص له قوة وقال الصنابحي كتب عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة كتابا في مثل أذن الفارة أما بعد فانه لا يقيم أمر الله في الناس الا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على الجرة ولا يخاف في الله لومة لائم (وقال) مالك جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله ان يكتب له كتابا في أمر فقال اذهب الى منزلنا فائتني بدواة وقرطاس فذهب فلم يجد فقال اطلبت عندهم شيئا فذهب فلم يجد عندهم الا اذن مزدود فكتب له في تلك الاذن (ولما) ولي المأمون يحيى ابن أكثم قضاء البصرة بعد ان استحسن عقله وعلمه وامتحنه بمسائل فوجده فوق ما يريد فتلقاه وجوه البصرة فرأوا شابا صبيا ما نبتت لحيته فتعجبوا ونظر بعضهم الى بعض يقلبون الاكف ويغمزون الحواجب فقال له بعضهم كم سن القاضي أصلحه الله قال مثل سن عتاب بن أسيد لما ولاه النبي عليه السلام مكة فهابوه لحدة جوابه وعرفوا فضله وكان لعتاب بن أسيد احدى وعشرون سنة لما ولي مكة وكان عمر يقول لا يصلح ان يلي أمور الناس الا حصيف العقل وافر العلم قليل الغرة بعيد الهمة شديد في غير عنف لين في غير ضعف جواد في غير سرف لا يخاف في الله لومة لائم وقال أيضا ينبغي ان يكون في الوالي من الشدة ما يكون ضرب الرقاب عنده في الحق كقتل عصفور ويكون

الاقذار ويتقيه من الاوضار والادران وانما ذلك لما اشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه *(ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات)* أما الاشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين لثاودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب ثاودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه ولا بد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة لان براهينها متوقفة عليهما فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر باسباب الحركات كما نذكره فقد يتوقف على معرفة احكام الاشكال الكرية سطوحها وقطوعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا وهو علم ينظر فيما يقع في الاجسام المخروطة من الاشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الاول وفائدتها تظهر في الصنائع العملية التي موادها الاجسام مثل النجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة وكيف يتحيل على جر الاثقال ونقل الهياكل بالهندام والمحال وامثال ذلك وقد افرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتابا في الحيل العملية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبة وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بايدي الناس ينسبونه الى بني شاكر والله تعالى اعلم *(ومن فروع الهندسة المساحة)* وهو فن يحتاج اليه في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار الارض المعلومة بنسبة شبر او ذراع او غيرهما او نسبة ارض من ارض اذا قويست بمثل ذلك ويحتاج الى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة وفي قسمة الحوائط والاراضي بين الشركاء او الورثة وامثال ذلك وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة والله الموفق للصواب بمنه وكرمه *(المناظر من فروع الهندسة)* وهو علم يتبين به اسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على ان ادراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه نقطة الباصر وقاعدته المرئي ثم يقع الغلط كثيرا في رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما والسلعة دائرة وامثال ذلك فيتبين في هذا العلم اسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية ويتبين به أيضا اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبني عليه معرفة رؤية الاهلة وحصول الكسوفات وكثير من امثال هذا وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين وأشهر من ألف فيه من الاسلاميين ابن الهيثم ولغيره فيه ايضا تآليف وهو من هذه الرياضة وتفاريعها

(علم الهيئة)

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على اشكال وأوضاع للافلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية كما يبرهن على أن مركز الارض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الاقبال والادبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الاعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكوكب الواحد بتعداد الميول له وأمثال ذلك وادراك الموجود من الحركات وكيفياتها واجناسها انما هو بالرصد فانا انما علمنا حركة الاقبال والادبار به وكذا تركيب الافلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك وكان اليونانيون

يعتنون

يعتنون بالرصد كثيرا ويتخذون له الآلات التى توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبراهين عليه فى مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بأيدى الناس وأما فى الاسلام فلم تقع به عناية الا فى القليل وكان فى أيام المأمون شئ منه وصنع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق وشرع فى ذلك فلم يتم ولما مات ذهب رسمه واغفل واعتمد من بعده على الارصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وان مطابقة حركة الآلة فى الرصد بحركة الافلاك والكواكب انما هو بالتقريب ولا يعطى التحقيق فاذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك بالتقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم فى المشهور انها تعطى صورة السموات وترتيب الافلاك والكواكب بالحقيقة بل انما تعطى ان هذه الصور والهيآت للافلاك لزمت عن هذه الحركات وانت تعلم انه لا يبعد ان يكون الشئ الواحد لازما لمختلفين وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطى الحقيقة بوجه على انه علم جليل وهو احد اركان التعاليم ومن احسن التآليف فيه كتاب المجسطى منسوب لبطليموس وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الائمة من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينا وادرجه فى تعاليم الشفاء ولخصه ابن رشد أيضا من حكماء الاندلس وابن السمح وابن الصلت فى كتاب الاقتصار ولابن الفرغانى هيئة ملخصة قربها وحذف براهينها الهندسية والله علم الانسان ما لم يعلم سبحانه لا اله الا هو رب العالمين *(ومن فروعه علم الازياج)* وهى صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى اليه برهان الهيئة فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب فى أفلاكها لاى وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والاصول لها فى معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الاوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها فى جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى الازياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلا وتقويما وللناس فيه تآليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتانى (١) وابن الكماد وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحق من منجمى تونس فى أول المائة السابعة ويزعمون ان ابن اسحق عول فيه على الرصد وان يهوديا كان بصقلية ماهرا فى الهيئة والتعاليم وكان قد عنى بالرصد وكان يبعث اليه بما يقع فى ذلك من احوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه على ما يزعمون ولخصه ابن البناء فى آخر سماه المنهاج فولع به الناس لما سهل من الاعمال فيه وانما يحتاج الى مواضع الكواكب من الفلك لتنبنى عليها الاحكام النجومية وهو معرفة الآثار التى تحدث عنها باوضاعها فى عالم الانسان من الملك والدول والمواليد البشرية كما نبينه بعد ونوضح فيه ادلتهم ان شاء الله تعالى والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه

(علم المنطق)

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد فى الحدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك ان

(١) قوله البتانى بفتح الموحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلكان فى ترجمته قبيل آخر المحمدين اهـ

فيه من الرقة والحنو والرأفة والرحمة ما يجزع من قتل عصفور بغير حق (ويروى) ان الرشيد أحضر رجلا ليوليه القضاء فقال له انى لا أحسن القضاء ولا انا فقيه فقال له الرشيد فيك ثلاث خلال لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ولك حلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه وأنت رجل تشاور فى أمرك ومن شاور كثر صوابه وأما الفقه فنضم اليك من تتفقه به فولى فما وجدوا فيه مطعنا وقال اياس بن معاوية استحضرنى عمر بن هبيرة فحضرت فسألنى فسكت فلما أطلت قال ايه قلت سل عما بدا لك قال أتقرأ القرآن قلت نعم قال فهل تفرض الفرائض قلت نعم قال فهل تعرف من أيام العرب شيأ قلت أنا بها أعلم قال فهل تعرف من أيام العجم شيأ قلت انا بها أعلم قال انى أريد أن أستعين بك قلت ان فى ثلاثا لا أصلح معهن للعمل قال ماهن قلت انا دميم كما ترى وأنا حديد وأنا عيى قال أما الدمامة فانى لا أريد ان احاسن بك وأما العى فانى أراك تعرب عن نفسك وأما سوء الخلق فيقومك السوط فولانى وأعطانى ألف درهم فهو أول مال تمولته وقال سليمان بن داود عليهما السلام ما ملاقاة لبوة سلبت أشبالها بأصعب من لقاء جاهل راض عن نفسه

(الباب الثالث والخمسون فى بيان الشروط والعهود التى تؤخذ على العمال)

اعلم أرشدك الله انه يجب أن يولى على الاعمال أهل الحزم والكفاية والصدق والامانة وتكون التولية للغناء لا للهوى وملاك الولايات وأساسها ان لا يولى الاعمال طالب لها ولا راغب فيها روى البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الاشعرى قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ومعى رجل فلما سلمنا عليه قال صاحبى يا رسول الله استعملنى فقال عليه السلام انا لا نستعمل على عملنا من أراده فقلت يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما عرفت الذى فى نفسه (وقد روى)

عن بزرجمهر وقد قيل له ما بال ملك آل ساسان صار أمره الى ما صار اليه فقال لانهم قلدوا كبار الاعمال صغار الرجال ولله در عمرو بن العاصي حيث قال موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة وقال العلاء بن أيوب غضب المأمون على بعض أصحابه غضبا شديدا ثم قال له لا أماتك الله او يبلغك دولة السفل وقال رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجل قد آذاه أدركتك امرة الصبيان

وقال المستوغر الاكبر وكان قد عمر في الجاهلية ثلاثمائة سنة

وما سقطت يوما من الدهر أمة ... الى الذل الا ان يسود ذميمها
اذا ساد فينا بعد ذل لئيمنا ... تصدى لنا ذل وقد أديها
وما قادها للخير الا مجرب ... عليم باقبال الامور كريمها
وما كل ذي لب يعاش بفضله ... ولكن لتدبير الامور حكيمها

واعلموا ان معظم ما يدخل على الدول من الفساد من تقليد الاعمال أهل الحرص عليها لانه لا يخطبها الا لص في ثوب ناسك وذئب في مسلاخ عابد حريص على جمع الدنيا نابذ لدينه ومروءته دليل على الخيانة يتخذون عباد الله خولا وأموالهم دولا واذا اهتضمت حقوق المسلمين وأكلت أموالهم فسدت نياتهم وقلت طاعاتهم فانتقضت الامور ودب الفساد الى الممالك وقد ذكرنا في أول الكتاب الآثار في كراهية الولايات (وقال المأمون) ما فتق على قط فتق في مملكتي الا وجدت سببه جور العمال ايضا

(فان قيل) فما معنى قول يوسف عليه السلام للملك اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (قلنا) يوسف كان نبيا من أنبياء الله تعالى واثقا من نفسه بالكفاية والامانة بين يدي من لا يتحقق بواطن أسراره ولا يعلم خصائصه وفضائله ويرى الامور والاعمال والولايات في

الاصل في الادراك انما هو المحسوسات بالحواس الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الادراك من الناطق وغيره وانما يتميز الانسان عنها بادراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بان يحصل في الخيال من الاشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الاشخاص المحسوسة وهي الكلي ثم ينظر الذهن بين تلك الاشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق ايضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقي في التجريد الى الكلي الذي لا يجد كليا آخر معه يوافقه فيكون لاجل ذلك بسيطا وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الانسان صورة النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما ثم بينهما وبين النبات الى أن ينتهي الى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كليا يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك عن التجريد ثم ان الانسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم اما تصورا للماهيات ويعني به ادراك ساذج من غير حكم معه واما تصديقا أي حكما بثبوت امر لامر فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات اما بان تجمع تلك الكليات بعضها الى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على افراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الاشخاص واما بان يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغايته في الحقيقة راجعة الى التصور لان فائدة ذلك اذا حصل انما هي معرفة حقائق الاشياء التي هي مقتضى العلم وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية ليتميز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملا جملا ومفترقا ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان ارسطو فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكمية وفاتحتها ولذلك يسمى بالمعلم الاول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب اربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وذلك ان المطالب التصديقية على انحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيده وما ينبغي ان تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم او من الظن وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة انتاجه خاصة ويقال للنظر الاول انه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين او ظن ويقال للنظر الثاني انه من حيث الصورة وانتاج القياس على الاطلاق فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية الاول في الاجناس العالية التي ينتهي اليها تجريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات والثاني في القضايا التصديقية واصنافها ويسمى كتاب العبارة والثالث في القياس وصورة انتاجه على الاطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية ويختص بشروط أخرى لافادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود اذ المطلوب فيها انما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا تحتمل غيرها فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وافحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص

ايدى من ليسوا اهلا لها او يحوز مثل هذا اليوم لمن حصل بين يدى جبار لا يعلم منزلته ولا ما عنده من الخصال والفضائل أن يذكر بعض ما يعلم من نفسه ليعلم قدره فيسلم بذلك من شره وعن هذا قال بعض أصحاب الشافعى اذا كان القضاء فى يد من لا يصلح له وجب أن يخطبه من يصلح له وكان ذلك فرضا عليه وفقهاء الامصار على خلاف هذا الرأى (۲۹۳) ويحتمل ان يكون يوسف عليه السلام

أيضا من جهة افادته لهذا الغرض بشروط اخرى من حيث افادته لهذا الغرض وهى مذكورة هنالك وفى هذا الكتاب يذكر المواضع التى يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذى يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا انما كتب ليعرف به القياس المغالطى فيحذر منه * والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب ان يستعمل فى ذلك من المقالات * والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذى يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال على الشئ أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه هى كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم ان حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا انه لا بد من الكلام فى الكليات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدى الفن فصارت تسعا وترجمت كلها فى الملة الاسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابى وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر فى الكليات الخمس ثمرته وهى الكلام فى الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لان نظر المنطقى فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا فى كتاب العبارة الكلام فى العكس لانه من توابع الكلام فى القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا فى القياس من حيث انتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهى الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها الماما وأغفلوها كان لم تكن وهى المهم المعتمد فى الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من حيث انه فن برأسه لا من حيث انه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الامام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده افضل الدين الخونجى وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد وله فى هذه الصناعة كتاب كشف الاسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر الموجز وهو حسن فى التعليم ثم مختصر الجمل فى قدر أربعة اوراق اخذ بمجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كان لم تكن وهى ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه والله الهادى للصواب

۱۸ *(الطبيعيات)*

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر فى الاجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وما يتكون فى الارض من العيون والزلازل وفى الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفى مبدا الحركة للاجسام وهو النفس على تنوعها فى الانسان والحيوان والنبات وكتب ارسطو فيه موجودة بين أيدى الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلاسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها وأوعب من الف فى ذلك ابن سينا فى كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمناه ثم لخصه فى كتاب النجاة وفى كتاب الاشارات وكانه يخالف ارسطو فى الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها واما ابن رشد فلخص كتب ارسطو وشرحها متبعا له غير مخالف والف الناس فى ذلك كثيرا لكن هذه هى المشهورة لهذا العهد والمعتبرة فى الصناعة ولاهل المشرق عناية

قد أوحى اليه بما يصيره أمره اليه من الملك والعدل ونشر كلمة الاسلام فلهذا نبه على نفسه ومن عجيب ما يروى فى هذا الباب ان لقمان الحكيم كان عبدا أسود حبشيا غليظ الشفتين مصفح القدمين لامرأة من بنى الحسحاس وكان جليسا لداود عليه السلام فأتاه جبريل عليه السلام بالنبوة من عند الله الذى يصطفى لنبوته من يشاء فقال لقمان يا جبريل ان أمرنى ربى فسمع وطاعة وان خيرنى اخترت الحكمة فرضى الله تعالى قوله فأعطاه الحكمة وصرف عنه الرسالة الى داود عليه السلام فكان داود يقول طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وأوتى داود البلية وروى أنه جالس داود عليه السلام وداود يعمل الدروع فأقام حولا يبصر صنعة الدرع ولا يعلم ما يصلح له ولا يسأل عن ذلك فلما تم حول لبس داود الدرع وقال درع حصينة ليوم حرب فقال لقمان الصمت حكمة وقليل فاعله وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا بعث عاملا اشترط عليه أن لا يركب البراذين ولا يلبس الرقيق ولا يأكل النقى ولا يتخذ حاجبا ولا يغلق بابا عن حوائج الناس وما يصلحهم ويقول له انى لا أستعملك على أبشارهم ولا أعراضهم ولا أعمالهم وانما استعملتك لتصلى بهم وتقضى بينهم بالعدل (وروى) عباية بن رفاعة قال بلغ عمر بن الخطاب أن سعد بن ابى وقاص اتخذ قصرا وجعل عليه بابا وقال انقطع الصويت فأرسل عمر محمد بن

بالكتاب الاشارات لابن سينا وللامام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدي وشرحه ايضا نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الامام في كثير من مسائله فأوفى على انظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

١٩ *(علم الطب)*

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالادوية والاغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الامراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الادوية مستدلين على ذلك بأمزجة الادوية وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولا في السحنة والفضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة في حالتي الصحة والمرض وانما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشئ بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب وربما افردوا بعض الاعضاء بالكلام وجعلوه علما خاصا كالعين وعللها واكحالها وكذلك ألحقوا بالفن من منافع الاعضاء ومعناها المنفعة التي لاجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيواني وان لم يكن ذلك من موضوع علم الطب الا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه وامام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الاقدمين جالينوس يقال انه كان معاصرا لعيسى عليه السلام ويقال انه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطاوعة اغتراب وتآليفه فيها هي الامهات التي اقتدى بها جميع الاطباء بعده وكان في الاسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤا من وراء الغاية مثل الرازي والمجوسي وابن سينا ومن أهل الاندلس ايضا كثير وأشهرهم ابن زهر وهي لهذا العهد في المدن الاسلامية كأنها انقصت لوقوف العمران وتناقصه وهي من الصنائع التي لا تستدعيها الا الحضارة والترف كما نبينه بعد

(فصل) وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه وربما يصح منه البعض الا انه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحرث بن كلدة وغيره والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شئ وانما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة لا من جهة ان ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ماوقع فقال أنتم أعلم بأمور دنياكم فلا ينبغي أن يحمل شئ من الطب الذي وقع في الاحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع فليس هناك مايدل عليه اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايماني فيكون له اثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب المزاجي وانما هو من آثار الكلمة الايمانية كما وقع في مداواة المبطون بالعسل والله الهادي الى الصواب لارب سواه

٢٠ *(الفلاحة)*

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشؤه بالسقي والعلاج

وتعهده

مسلمة وكان عمر اذا أحب أن يؤتى بالامر كما هو عليه بعثه فقال له ائت سعدا فاحرق عليه بابه فقدم الكوفة فلما أتى الباب أخرج زنده واستورى نارا ثم أحرق الباب فأتى سعد الخبر ووصف له بصفته فعرفه فخرج اليه سعد فقال له محمد انه قد بلغ أمير المؤمنين انك قلت انقطع الصويت فحلف سعد بالله ماقال ذلك فقال له محمد نفعل الذي أمرنا به ونؤدي عنك ماتقول ثم ركب راحلته فلما كان ببطن البرية أصابه من الخمص والجوع ما الله به أعلم فأبصر غنما فأرسل غلامه بعمامته فقال اذهب فابتع منهم شاة فجاء الغلام بالشاة وهو يصلي فاراد ذبحها فاشار اليه أن كف فلما قضى صلاته قال انظر فان كانت مملوكة مسبتها فاردد الشاة وخذ العمامة وان كانت حرة فاذبح الشاة فذهب فاذا هي مملوكة فرد الشاة وأخذ العمامة فاخذ بخطام ناقته فجعل لا يمر بقلة الا خطفها حتى آواه الليل الى قوم فاتوه بخبز وابن وقالوا لو كان عندنا شئ غير هذا اتيناك به فقال بسم الله كل حلال أذهب السغب خير من ماكل السوء حتى قدم المدينة فنزل بأهله فابترد من الماء ثم راح فلما أبصره عمر رضي الله عنه قال له لولا حسن الظن بك مارأينا انك أديت وذكروا أنه أسرع السير فقال قد فعلت وهو يعتذر ويحلف بالله ماقال فقال عمر هل آمر لك بشئ قال ما رأيت مكانا أن تأمر لي فقال عمر ان ارض العراق ارض رقيقة وان أهل المدينة يموتون حولي من الجوع فخشيت أن آمر لك بشئ فيكون لك بارده ولي الحار

وورى زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيا على الحمى فقال يا هني اضمم جناحك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فان دعوة المظلوم مستجابة وأدخل رب الصريمة والغنيمة واياك ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان فانهما ان تهلك ماشيتهما

وتعهده بمثل ذلك وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر فعظمت عنايتهم به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر اهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فاقتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الآخر منه مغفلا نقل منه مسلمة في كتبه السحرية امهات من مسائله كما نذكره عند الكلام على السحر ان شاء الله تعالى وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من جوائحه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة

٢١ *(علم الالهيات)*

وهو علم ينظر في الوجود المطلق فأولا في الامور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادي الموجودات وانها روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الاجسام وعودها الى المبدا وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وان ذلك عين السعادة في زعمهم وسيأتي الرد عليهم وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم ولذلك يسمونه علم ماوراء الطبيعة وكتب المعلم الاول فيه موجودة بين أيدي الناس ولخصه ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الاندلس ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رد منها ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والالهيات وخلطوهما فنا واحدا قدموا الكلام في الامور العامة ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها الى آخر العلم كما فعله الامام ابن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطا بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كأن الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب لان مسائل علم الكلام انما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه بمعنى انها لا تثبت الا به فان العقل معزول عن الشرع وانظاره وما تحدث فيه المتكلمون من اقامة الحجج فليس بحثا عن الحق فيها فالتعليل بالدليل بعد ان لم يكن معلوما هو شأن الفلسفة بل انما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الايمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه اهل البدع عنها الذين زعموا ان مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالادلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين وذلك ان مدارك صاحب الشريعة اوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الانظار العقلية فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الانوار الالهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها فاذا هدانا الشارع الى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتمد ما امرنا به اعتقادا وعلما ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه

يرجعان الى زرع ونخل وان رب الصريمة والغنيمة ان تهلك ماشيتهما يأتيني ببنيه فيقول يا أمير المؤمنين أفتاركهم انا لا أبا لك فالماء والكلأ أيسر علي من الذهب والورق وايم الله انهم ليرون اني قد ظلمتهم انها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الاسلام والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبرا (ومر) يوما ببناء يبنى بحجارة وجص فقال لمن هذا فذكروا له أنه لعامل من عماله على البحرين فقال أبت الدراهم ان لا تخرج أعناقها وقاسمه ماله (وكان) يقول لي على كل خائن أمينان الماء والطين وكان أنوشروان يكتب على عهد العمال سس خيار الناس بالمحبة وامزج للعامة الرغبة بالرهبة وسس سفلة الناس بالاخافة (وقال) سليمان ابن داود عليهما السلام كما يصلح المهماز للفرس والرسن للحمار كذلك يصلح القضيب لظهر الجهال وفي الامثال من لم يصلح باللين أصلح بالتليين وقال هلال ابن يساف استعمل النبي صلى الله عليه وسلم المقداد على سرية فلما رجع قال له النبي صلى الله عليه وسلم كيف رأيت الامارة أبا مغيرة قال خرجت يا رسول الله وما أدري أن لي فضلا على أحد من القوم فما رجعت الا وكأنهم عبيد لي قال وكذلك الامارة أبا مغيرة الا من وقاه الله شرها قال والذي بعثك بالحق لا أعمل على عمل أبدا (وقيل) لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يمنعك أن تفشي العمل في الافاضل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال هم أجل من أن أدنسهم بالعمل وقال ابراهيم النخعي كان عمر اذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض فان قالوا نعم حمد الله تعالى وان قالوا لا كتب اليه أن أقبل ومثل السلطان اذا ولي العمال الظالمين مثل من يسترعي غنمه الذئاب

ومثل من يربط الكلب العقور ببابه وان العامة لتشتم الحجاج بن يوسف والخاصة تلوم عبد الملك بن مروان لانه استرعاه الرعية وقد قيل
ومن يربط الكلب العقور ببابه * فعقر جميع الناس من رابط الكلب وكان العلاء بن أيوب لما ولي فارس من قبل المأمون
يكتب عهد العمال فيقرؤه على من يحضره من أهل ذلك العمل ويقول أنتم عيوني عليه فاستوفوه منه ومن تظلم الى منه

الى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون انما دعاهم الى ذلك كلام اهل الالحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا الى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها واما النظر في مسائل الطبيعيات والالهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس انظار المتكلمين فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين فانهما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وانما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج اهل الكلام كانه انشاء لطلب الاعتقاد بالدليل وليس كذلك بل انما هو رد على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق معلومه وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد ايضا فخلطوا مسائل الفنين بفنهم وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لانهم يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وابحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب

٢٢ *(علوم السحر والطلسمات)*

هو علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر اما بغير معين او بمعين من الامور السماوية والاول هو السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب او غيره كانت كتبها كالمفقودة بين الناس الا ما وجد في كتب الامم الاقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين فان جميع من تقدمه من الانبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤا بالاحكام انما كانت كتبهم مواعظ وتوحيد الله وتذكيرا بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في اهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي اهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التآليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية من اوضاع اهل بابل فاخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التآليف واكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لانها من توابعها لان احالة الاجسام النوعية من صورة الى اخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه * ثم جاء مسلمة بن احمد المجريطي امام اهل الاندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب احد في هذا العلم بعده * ولنقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك ان النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي اصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفوس الانبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر وما يتبع

فعلى انصافه ونفقته جائيا وراجعا ويأمر العمال ان يقرؤا عهده على اهل عمله في كل جمعة ويقول لهم هل استوفيتم

(الباب الرابع والخمسون في هدايا العمال والرشا على الشفاعات)

روى ابو داود في السنن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من شفع لاخيه شفاعة فاهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى بابا عظيما من ابواب الربا والسر فيه انك اذا قدرت على قضاء حاجة من عند السلطان الظالم او اليد القاهرة صار ذلك واجبا عليك وروى البخاري في صحيحه ان النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا يقال له ابن اللتبية فلما جاء قال يارسول الله هذا لكم وهذا لي قال فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال مابال الرجل نستعمله على عمل من اعمالنا فيقول هذا لكم وهذا لي افلا قعد في بيت ابيه وامه فينظر هل يهدى له * قال مالك وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاطر العمال فيأخذ نصف أموالهم وشاطر أبا هريرة وقال له من أين لك هذا المال فقال أبو هريرة دواب تناتجت وتجارات تداولت فقال اداد الشطر وانما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم * وروى مالك عن ابن عمر انه اشترى هو وعبيد الله أخوه ابلا فبعثا بها الى الحمى فرعت فقال عمر رعيتما في الحمى فشاطرهما وشاطر سعد بن أبي

ذلك

وقاص حين قدم من الكوفة كانه رأى ان ما أصاب العامل من غير رشوة وان كان حلالا فلا يستحق ذلك لان له بالامرة قوة على ان ينال
من الحلال مالا يناله غيره فجعله كالمضارب للمسلمين ولما دفع أبو موسى الاشعري مالا من بيت المال لعبد الله وعبيد الله ابني عمر بن
الخطاب بالبصرة اشتريا منه بضاعة فربحت بالمدينة فاراد عمر ان يأخذ جميع الربح فراجعه (٢٩٧) عبيد الله فحكم بينهم بنصف الربح

ذلك من التأثير في الاكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية او شيطانية فاما تأثير الانبياء فمدد الهي وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثة ياتي شرحها فاولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني بمعين من مزاج الافلاك او العناصر أو خواص الاعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الاول والثالث تأثير في القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التأثير الى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكات وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كانها في الخارج وليس هناك شئ من ذلك كما يحكى عن بعضهم انه يرى البساتين والانهار والقصور وليس هناك شئ من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وانما تخرج الى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها انما تكون بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بانواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجود له والوجهة الى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفرا والكفر من مواده واسبابه كما رأيت ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد في الاكوان والكل حاصل منه ولما كانت المرتبتان الاوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الاخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخييل فالقائلون بان له حقيقة نظروا الى المرتبتين الاوليين والقائلون بان لا حقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الاخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الامر بل انما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم * واعلم ان وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشئ ولا يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان فانزل الله عز وجل عليه في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها الا انحلت واما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الاخبار وكان للسحر في بابل ومصر زمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عينا أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعده لذلك تفاؤلا بالعقد واللزام وأخذ العهد

فاخذا جميعا نصف الربح وأخذ عمر النصف لبيت المال (وكتب) عمر بن عبد العزيز الى عماله اما بعد فانما هلك من كان قبلكم بمنعهم الحق حتى يشترى وبسطهم الباطل حتى يفتدى الملك بالدين يقوى والدين بالملك يبقى (وكان) عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر اذا قدم عليه العمال ان يدخلوا نهارا ولا يدخلوا ليلا كي لا يحتجبوا شيأ من الاموال وقال عتاب بن أسيد والله ما أصبت في عملي الذي ولاني النبي صلى الله عليه وسلم الا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان *وروي ان عليا رضي الله عنه استعمل أبا مسعود الانصاري على السواد فرجع الى داره وقد امتلأت فقال ما هؤلاء فقالوا كذلك يصنعون بالرجل اذا استعمل قال كل هؤلاء يريدون ان يأكلوا في أمانتي ويروي في امارتي فرجع الى علي وقال لا حاجة لي في العمل وقد ذكرنا ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة ليستعمله فقال يا رسول الله

(٣٨ – ابن خلدون) اختر لي قال اقعد في بيتك *وفي الامثال ان الهدية تعمي وتصم وقال بعض الحكماء الرشوة رشاء الحاجة وانشد بعضهم
اذا أتت الهدية دار قوم * تطايرت الامانة من كواها (ولبعضهم) ان الهدية حلوة * كالسحر تجتلب القلوبا تدني البعيد من الهوى *
حتى تصيره قريبا وترد مضطغن العدا * وبعد جفوته حبيبا (ومما قلته في الرشوة) وأكرم من يدق الباب شخص *

ثقيل الحمل مشغول اليدين ينوء اذا شي نفسا ونفخا * وينطح بابه بالركبتين وأكرم شافع يمشي عليها * أبو المنقوش فوق الصفحتين
(وقالت أيضا) اذا كنت في حاجة مرسلا * وأنت بانجازها مغرم فارسل باكمه خلابة * به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى * رسول يقال له الدرهم (وكتب) عبد الملك بن مروان الى قاضيه الحرث بن عامر وقد
ارتشى بكرمه
اذا رشوة من باب بيت تقحمت
لتسكن فيه والامانة فيه
سعت هربا منه وولت كانها
حليم تولى عن جواب سفيه

(الباب الخامس والخمسون في معرفة حسن الخلق)

اعلموا أرشدكم الله تعالى ان هذا الباب مما غلط الخلق فيه وقلبوا القوس ركوة فعمدوا الى أخلاق العامة وخلائق الغوغاء والادنياء وما يجري بينهم اذا تلاقوا وتعاشروا من الافراط في مدح بعضهم بعضا وتعاطيهم الكذب والتصنع والملق والمراآة والمعاريض من الامور المكنونة التي يسوء اظهارها والانخراط في سلك المزاح والمهاترة فهذا وما أشبهه عندهم من حسن الخلق وهو عندنا نقيض ما نص الله عليه ورسوله من حسن الخلق فاول ذلك أن تعلم أنه لم تحتو الارض على بشر أحسن خلقا من محمد صلى الله عليه وسلم فكل من تخلق باخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قاربها أو بعضها كان أحسن الناس خلقا وكل خلق ليس بعد من أخلاقه صلى الله عليه وسلم فليس من حسن الخلق وهذا فصل الخطاب في هذا الباب لمن عقل وانما أوتي الناس في هذا الباب لانهم استحسنوا الاخلاق العامية واستخشنوا الاخلاق النبوية لجهلهم باخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم وها أنا أتلو عليك من أخلاق الانبياء والمرسلين والاولياء

على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك استشعارا للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والاسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتنزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضا من المنتحلين للسحر وعمله من يشير الى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فاذا هو مقطوع متخرق ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فاذا امعاؤها ساقطة من بطونها الى الارض وسمعنا ان بارض الهند لهذا العهد من يشير الى انسان فيتحتت قلبه ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير الى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء وكذلك سمعنا ان بارض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الارض المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الاعداد المتحابة وهي رك رفد أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون ومعنى المتحابة ان أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلث وربع وسدس وخمس وأمثالها اذا جمع كان مساويا للعدد الآخر صاحبه فتسمى لاجل ذلك المتحابة ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الاعداد أثرا في الالفة بين المتحابين واجتماعهما اذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة الى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الاول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالاكثر الذي يراد ائتلافه أعني المحبوب ما أدري الاكثر كمية أو الاكثر أجزاء فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا طابع الاسد ويسمى أيضا طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب هند اصبع صورة أسد شائلا ذنبه عاضا على حصاة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه الى قبالة وجهه فاغرة فاها الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الاول أو الثالث من الاسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران محلولا بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فانهم يزعمون ان لممسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه وكذلك السلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضا أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون في مواليد الملوك من الادلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب فزعموا ان له أثرا في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها وذكر لنا ان الامام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالسر المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما نظن ولعل الامر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون الى الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون الى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لان أكثر ما ينتحل من السحر بعج الانعام يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم متسترون بذلك في

والاصفياء والعلماء والصالحين مانرجو ان ينفعنا الله واياك به قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم فخص الله نبيه من كريم الطباع ومحاسن الاخلاق من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشئ من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال وانك لعلى خلق عظيم وعن هذا قال الشيوخ (٢٩٩) ان الله سبحانه دعا الخلق الى حسن الخلق ودعا نبيه عليه السلام من حسن الخلق (قال عبيد الله بن عمير) قلت لعائشة أم المؤمنين صفي لي خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لي أما تقرأ القرآن كان خلقه القرآن وحسبك بهذا القول منقبة للرسول صلى الله عليه وسلم وتعريفا لك بحسن الخلق فاذا كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم القرآن فالقرآن يجمع كل فضيلة ويحث عليها وينهى عن كل نقيصة ورذيلة ويوضحها ويبينها ولذلك لما أنزل الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا يا جبريل قال ان الله تعالى يأمرك ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك فهذا من حسن الخلق كما ترى فانظر اين أخلاق العامة من هذا النمط وان أحدهم يقطع من وصله ويحرم من أعطاه ويظلم من سالمه ويغضب على من اتهمه وانما اقتصر على هذه الكلمات لانها أصول الفضائل وينبوع المناقب لان في أخذ العفو صلة القاطع والصفح عن الظالم واعطاء المانع وفي الامر بالمعروف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان وغض الطرف عن المحرمات وفي تقوى الله يدخل جميع آداب الشرع فرضها ونفلها وفي الاعراض عن الجاهلين الصفح والحلم وفتوة النفس عن مماراة السفه ومجازاة اللهو فهذه الاصول الثلاث تتضمن محاسن الشرع نصا وتنبيها وضمنا واعتبارا (وروى) أنس قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل قال

الغاية خوفا على أنفسهم من الحكام لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني ان لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية واشراك الروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وأن بهذه الرياضة والوجهة يصلون الى حصول هذه الافعال لهم وان التأثير الذي لهم انما هو فيما سوى الانسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم انما نفعل فيما تمشي فيه الدراهم اي ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فاخبرني به وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم فاما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعا أثر للنفس الانسانية واستدلوا على وجود الاثر للنفس الانسانية بان لها آثارا في بدنها على غير المجرى الطبيعي واسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الارواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل التوهم فان الماشي على حرف حائط او على حبل منتصب اذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك ولهذا تجد كثيرا من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت ان ذلك من آثار النفس الانسانية وتصورها السقوط من اجل الوهم واذا كان ذلك اثر النفس في بدنها من غير الاسباب الجسمانية الطبيعية فجائز أن يكون لها مثل هذا الاثر في غير بدنها اذ نسبتها الى الابدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لانها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت انها مؤثرة في سائر الاجسام واما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الاعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الامر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبامداد الشياطين في بعض الاحوال فبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الامر وانما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير وللنفوس المتمحضة للخير والتحدي بها على دعوى النبوة والسحر انما يوجد لصاحب الشر وفي أفعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وضرر الاعداء وأمثال ذلك وللنفوس المتمحضة للشر هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الالهيين وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضا في أحوال العالم وليس معدودا من جنس السحر وانما هو بالامداد الالهي لان طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الالهي حظ على قدر حالهم وايمانهم وتمسكهم بكلمة الله واذا اقتدر أحد منهم على افعال الشر فلا يأتيها لانه متقيد فيما يأتيه ويذره للامر الالهي فما لا يقع لهم فيه الاذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن

طريق الحق وربما سلب حاله ولما كانت المعجزة بامداد روح الله والقوى الالهية فلذلك لا يعارضها شئ من السحر وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى فى معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمحل كان لم يكن وكذلك لما أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى المعوذتين ومن شر النفاثات فى العقد قالت عائشة رضى الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التى سحر فيها الا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل المؤرخون ان زركش كاويان وهى راية كسرى كان فيها الوفق المئينى العددى منسوجا بالذهب فى أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الارض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم وهو فيما تزعم اهل الطلسمات والاوفاق مخصوص بالغلب فى الحروب وان الراية التى يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلا الا ان هذه عارضها المدد الالهى من ايمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فانحل معها كل عقد سحرى ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله بابا واحدا محظورا لان الافعال انما اباح لنا الشارع منها ما يهمنا فى ديننا الذى فيه صلاح آخرتنا او فى معاشنا الذى فيه صلاح دنيانا وما لا يهمنا فى شئ منهما فان كان فيه ضرر او نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات لان أثرهما واحد وكالنجامة التى فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الايمانية برد الامور الى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبته فى الضرر وان لم يكن مهما علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركه قربة الى الله فان من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيه من الضرر وخصته بالحظر والتحريم وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذى ذكره المتكلمون انه راجع الى التحدى وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه قالوا والساحر مصروف عن مثل هذا التحدى فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال فاذا لا تقع المعجزة مع الكاذب باطلاق وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر فى نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل فى أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل فى أسباب الشر وكانهما على طرفى النقيض فى أصل فطرتهما والله يهدى من يشاء وهو القوى العزيز لا رب سواه

(فصل) ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات او الاحوال ويفرط فى استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ انه يروم معه سلب ذلك الشئ عمن اتصف به فيؤثر فساده وهو جبلة فطرية اعنى هذه الاصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وان كان منها ما لا يكتسب ان صدورها راجع الى اختيار فاعلها والفطرى منها قوة صدورها لا نفس صدورها ولهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذلك الا لانه ليس مما يريده ويقصده او يتركه وانما هو مجبور فى صدوره عنه والله أعلم بما فى الغيوب ومطلع على ما فى السرائر

٢٢ *(علم أسرار الحروف)*

وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا نقل وضعه من الطلسمات اليه فى اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة

أحسنهم خلقا (وروى) أبو داود فى السنن ان النبى صلى الله عليه وسلم قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق اقتضى الحديث ان كل نبى مبعوث الى أمة انما بعث ليعلم الخلق حسن الخلق وان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بعث ليتمم مكارم الاخلاق فاذن حسن الخلق امتثال الشرائع باسرها (وروى) البخارى (٣٠٠) عن ابن عمر ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشا قال وان من أحبكم الى أحسنكم أخلاقا وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض اسفاره وعليه رداء نجرانى غليظ الحاشية فجبذه اعرابى جبذة شديدة حتى أثرت حاشية الرداء فى عنقه وقال يا محمد مر لى من مال الله الذى آتاك فلست تأمر لى بمالك ولا بمال ابيك فالتفت اليه النبى صلى الله عليه وسلم وقال مروا له ولم يكلمه بشئ (وروى) معاذ ابن جبل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال له حسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل * واعلموا ان الخلق الحسن أفضل مناقب العبد وبه يظهر جواهر الرجال والانسان مستور بخلقه مشهور بخلقه ألا ترى ان الله تعالى خص نبيه صلى الله عليه وسلم بما خصه به من الفضائل ثم لم يثن عليه بشئ من خصاله بمثل ما أثنى عليه بخلقه * وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم قال لا تخاصم ولا تخاصم من شدة معرفتك بالله تعالى وقيل لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد معرفتك بالحق وقال المحاسبى كظم الغيظ واظهار الطلاقة والبشر الا لمبتدع أو فاجر الا ان يكون فاجرا اذا انبسطت استحيا والعفو عن الزالين الا بادب أو اقامة حد وكف الاذى عن كل مسلم ومعاهد الا لتغيير منكر أو أخذ مظلمة لمظلوم فهذا حسن الخلق وقيل حسن الخلق ان لا تتغير عمن يقف فى الصف بجنبك (وقيل) للاحنف عمن تعلمت حسن الخلق قال من قيس بن عاصم المنقرى قال بينما هو ذات يوم جالس فى داره اذ جاءته فاستعمل

خادم له بسفود عليه شواء فسقط من يده فوقع على ابن له فمات فدهشت الجارية فقال لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى * وكان ابن عمر إذا رأى واحدا من عبيده يحسن الصلاة يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مراآة له فكان يعتقهم فقيل له في ذلك فقال من خدعنا في الله انخدعنا له * وقال الفضيل لو أن امرأ أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة وأساء إليها لم

يكن من المحسنين (وكان المحاسبي) يقول فقدنا ثلاثة أشياء حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الأمانة وحسن الإخاء مع الوفاء وقال الحسن بن علي رضوان الله عليه عنوان الشرف حسن الخلق * وكان عبد الله بن محمد الرازي يقول حسن الخلق استصغار ما منك واستعظام ما إليك (وقال سهل) حسن الخلق أن لا تطمع فيما ليس لك وليس بهذه الصفة أحد إلا الله تعالى * وقيل حسن الخلق تحمل أثقال الخلق * وقال شاه الكرماني علامة حسن الخلق كف الأذى واحتمال المؤن وقيل حسن الخلق أن تكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقيل حسن الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق وقيل الخلق الحسن احتمال المكروه بحسن المداراة (وقالت امرأة) لمالك بن دينار يا مرائي فقال يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن تسعوا

الناس بأموالكم ولكن سعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (وروي) أن أبا عثمان اجتاز بسكة وقت الهاجرة فألقي عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه وبسطوا ألسنتهم في الملقي فقال أبو عثمان لا تقولوا شيئا من استحق أن يصب عليه النار فصولح على الرماد لم يجز أن يغضب * وقيل لإبراهيم بن أدهم هل فرحت في الدنيا قط قال نعم مرتين أحدهما كنت قاعدا ذات يوم فجاء إنسان فبال علي والثانية

فاستعمل استعمال العام في الخاص وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه وزعموا أن الكمال الأسمائي مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء فهي سارية في الأكوان على هذا النظام والأكوان من لدن الإبداع الأول تنتقل في أطواره وتعرب عن أسراره فحدث لذلك علم أسرار الحروف وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله تعددت فيه تآليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن اتبع آثارهما وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف بما هو فمنهم من جعله للمزاج الذي فيه وقسم الحروف بقسمة الطبائع إلى أربعة أصناف كالعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكسير إلى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر فالألف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر إلى أن تنفد فتعين لعنصر النار حروف سبعة الألف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضا الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء وتعين لعنصر الماء أيضا سبعة الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والثاء والغين وتعين لعنصر التراب أيضا سبعة الدال والحاء واللام والعين والراء والخاء والشين والحروف النارية لدفع الأمراض الباردة ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها إما حسا أو حكما كما في تضعيف قوى المريخ في الحروب والقتل والفتك والمائية أيضا لدفع الأمراض الحارة من حميات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حسا أو حكما كتضعيف قوى القمر وأمثال ذلك ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية فإن حروف أبجد دالة على أعدادها المتعارفة وضعا وطبعا فبينها من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضا كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين كل في مرتبته فالباء على اثنين في مرتبة الآحاد والكاف على اثنين في مرتبة العشرات والراء على اثنين في مرتبة المئين وكالذي بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الأربعة وبين الأربعة والاثنين نسبة الضعف وخرج للأسماء أوفاق كما للأعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الأوفاق الذي يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف وامتزج التصرف من السر الحرفي والسر العددي لأجل التناسب الذي بينهما فأما سر التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والأعداد فأمر عسر على الفهم إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وإنما مستندهم فيه الذوق والكشف قال البوني ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلي وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي وأما التصرف في عالم

قوله ترتيب طبائع الحروف عند المغاربة غير ترتيب المشارقة ومنهم الغزالي كما أن الجمل عندهم مخالف في ستة أحرف فإن الصاد عندهم بستين والضاد بتسعين والسين المهملة بثلثمائة والظاء بثمانمائة والغين بتسعمائة والشين بألف اه

الطبيعة بهذه الحروف والاسماء المركبة فيها وتأثر الاكوان عن ذلك فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواترا وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد وليس كذلك فان حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من جوهر القهر تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية وهو عندهم كالخميرة المركبة من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاصلة في جملتها تحيل وتصرف ما حصلت فيه الى ذاتها وتقلبه الى صورتها وكذلك الاكسير للاجسام المعدنية كالخميرة تقلب المعدن الذي تسري فيه الى نفسها بالاحالة ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد لان الاكسير أجزاؤه كلها جسدانية ويقولون موضوع الطلسم روح في جسد لانه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية والطبائع السفلية جسد والطبائع العلوية روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الاسماء بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله انما هو للنفس الانسانية والهمم البشرية لان النفس الانسانية محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها بالذات الا أن تصرف أهل الطلسمات انما هو في استنزال روحانية الافلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته فعل الخميرة فيما حصلت فيه وتصرف أصحاب الاسماء انما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الالهي والامداد الرباني فيسخر الطبيعة لذلك طائعة غير مستعصية ولا يحتاج الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده أعلى منها ويحتاج أهل الطلسمات الى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الافلاك وأهون بها وجهة ورياضة بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم هي الرياضة الكبرى وليست لقصد التصرف في الاكوان اذ هو حجاب وانما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله لهم فان خلا صاحب الاسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف واقتصر على مناسبات الاسماء وطبائع الحروف والكلمات وتصرف بها من هذه الحيثية وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور كان اذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات بل صاحب الطلسمات أوثق منه لانه يرجع الى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة وأما صاحب أسرار الاسماء اذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه يكون حاله أضعف رتبة وقد يمزج صاحب الاسماء قوى الكلمات والاسماء بقوى الكواكب فيعين لذكر الاسماء الحسنى أو ما يرسم من أوفاقها بل ولسائر الاسماء أوقاتا تكون من حظوظ الكوكب الذي يناسب ذلك الاسم كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الانماط وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية وهي برزخية الكمال الاسمائي وانما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة واثبات هذه المناسبة عندهم انما هو بحكم المشاهدة فاذا خلا صاحب الاسماء عن تلك المشاهدة وتلقى تلك المناسبة تقليدا كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم بل هو أوثق منه كما قلناه وكذلك قد يمزج أيضا صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب الا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب الاسماء من الاطلاع في حال المشاهدة وانما

كنت جالسا فجاء انسان فصفعني (وكان أويس القرني) اذا رآه الصبيان رموه بالحجارة وكان يقول ان كان لا بد فارموني بالحجارة الصغار كي لا تدموا على ساقي فتمنعوني الصلاة (وروى) ان عليا رضي الله عنه دعا غلاما له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابي قال أمنت عقوبتك فتكاسلت قال امض فانت حر لوجه الله وهذا كما ترى قوة الهمة يفرغها الله على المصطفين من عباده وأهل الصفوة من أوليائه الا ترى الى قوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فجرده من حقائق البشرية وألبسه من نعوت الربوبية حتى قواه على صحبتهم وصبره على تبليغ الرسالة اليهم مع الذي كان يقاسيه من أخلاقهم مع كونه مستغرقا باستيلاء الحق تعالى عليه يختص برحمته من يشاء * وقال النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وانما سمي بالآدمي لانه تألف من الجواهر والالوان (وقال عليه السلام) لرجلين متباغضين آدم الله بينكما أي ألف بينكما ومنه سمي الادم المأكول لانه يؤلف الطعام ويحسنه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لرجل أراد ان يتزوج امرأة انظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما أي يؤلف بينكما (وروى) ان معروفا الكرخي نزل الدجلة يتوضأ ووضع مصحفه وملحفته فجاءت امرأة فأخذتهما فتبعها معروف وقال يا أختي أنا معروف

يرجع

لا بأس عليك ألك ابن يقرأ قالت لا قال فزوج قالت لا قال فهاتي المصحف وخذي الثوب (وروى) ان أبا ذر كان على حوض يسقي ابله فأسرع بعض الناس اليه فانكسر الحوض فجلس ثم اضطجع فقيل له في ذلك فقال ان النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا اذا غضب الرجل

يرجع الى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما فى عالم المكونات من جواهر واعراض وذوات ومعانى والحروف والاسماء من جملة ما فيه فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه و يبنون على ذلك مبانى غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطى فى الغاية والظاهر من حال البونى فى انماطه انه اعتبر طريقتهم فان تلك الانماط اذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التى تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التى فيها وهى الدعوات التى تختص بكل كوكب يسمونها قيامات الكواكب اى الدعوة التى يقام له بها شهد له ذلك اما بانه من مادتها او بان التناسب الذى كان فى أصل الابداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله وما أوتيتم من العلم الا قليلا وليس كل ما حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت ان السحر حق مع حظره لكن حسبنا من العلم ما علمنا ❊(ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الاجوبة من الاسئلة)❊ بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون انها أصل فى معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية وانما هى شبه المعاياة والمسائل السيالة ولهم فى ذلك كلام كثير من أدعية وأعجبه زايرجة العالم السبتى وقد تقدم ذكرها ونبين عنا ما ذكروه فى كيفية العمل بتلك الزايرجة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها ثم نكشف عن الحق فيها وانها ليست من الغيب وانما هى مطابقة بين مسئلة وجوابها فى الافادة فقط وقد أشرنا الى ذلك من قبل وليس عندنا رواية يعول عليها فى صحة هذه القصيدة الا اننا تحرينا أصح النسخ منها فى ظاهر الامر والله الموفق بمنه وهى هذه

يقول سبيتى و يحمد ربه ❊ مصل على هاد الى الناس أرسلا
محمد المبعوث خاتم الانبيا ❊ ويرضى عن الصحب ومن لهم تلا
الا هذه زايرجة العالم الذى ❊ تراه بحسكم و بالعقل قد خلا
فمن احكم الوضع فيحكم جسمه ❊ و يدرك أحكاما تدبرها العلا
ومن أحكم الربط فيدرك قوة ❊ ويدرك للتقوى وللكل حصلا
ومن احكم التصريف يحكم سره ❊ و يعقل نفسه وصح له الولا
وفى عالم الامر تراه محققا ❊ وهذا مقام من بالاذكار كملا
فهذى سرائر عليكم بكتمها ❊ اقمها دوائرا وللعماء عدلا
فطاء لها عرش وفيه نقوشنا ❊ بنظم ونثر قد تراه مجدولا
ونسب دوائر كنسبة فلكها ❊ وارسم كواكبا لادراجها العلا
واخرج لاوتار وارسم حروفها ❊ وكور بمثله على حد من خلا
أقم شكل زيرهم وسو بيوته ❊ وحقق بها سامهم ونورهم جلا
وحصل علوما للطباع مهندسا ❊ وعلما لموسيقى والارباع مثلا
وسو لموسيقى وعلم حروفهم ❊ وعلم بآلات فحقق وحصلا
وسودوائرا ونسب حروفها ❊ وعالمها الطلق والاقليم جدولا
أميرلنا فهو نهاية دولة ❊ زناتية آبت وحكم لها خلا

ان يجالس فان ذهب عنه والا فليضطجع (وقال على بن أبى طالب) رضى الله عنه انا لنصافح اكفا نرى قطعها❊ وقال أبو ذر انا لنكشر فى وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم وقال الحرث بن قيس يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك فاما الذى تلقاه ببشر و يلقاك بعبوس يمن عليك بعمله فلا أكثر الله فى المسلمين مثله❊ وقال عروة بن الزبير مكتوب فى الحكمة بنى لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك طلقا ولتكن أحب الى الناس ممن يعطيهم العطاء ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ومن يصحب صاحبا صالحا يغنم (وروى) ان ابراهيم بن أدهم خرج الى بعض البرارى فاستقبله جندى فقال له اين العمران فأشار الى المقبرة فضرب رأسه فاوضحه فلما جاوزه قيل له هذا ابراهيم بن أدهم زاهد خراسان فجاءه يعتذر اليه فقال انك لما ضربتنى سألت الله لك الجنة فقال لم فقال قد علمت انى أوجر على ذلك فلم أردان يكون نصيبى منك الخير ونصيبك منى الشر (وحكى) أن أبا عثمان الحيرى دعاه انسان الى ضيافة فلما وافى باب الدار قال يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك وقد ندمت فانصرف رحمك الله فرجع أبو عثمان فلما وافى منزله عاد اليه الرجل وقال يا استاذ ندمت وأخذ يعتذر وقال احضر الساعة فقام أبو عثمان ومضى معه فلما وافى داره قال مثل ما قال فى الاولى وأخذ يعتذر ثم كذلك فى الثالثة والرابعة وأبو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال يا أستاذ انما أردت اختبارك والوقوف على أخلاقك وجعل يعتذر اليه و يمدحه فقال أبو عثمان لا تمدحنى على خلق تجد مثله مع الكلاب فالكلب اذا دعى حضر واذا زجر انزجر (وروى) ان بعض الفقراء نزل على جعفر بن حنظلة وكان جعفر يخدمه والفقير يقول نعم الرجل أنت لو لم تكن يهوديا فقال له جعفر عقيدتى لا تقدح فيما تحتاج اليه من الخدمة

فسل لتقسك الشقا ولى الهداية (وروى) ان أباجعفر القمودي المتعبد لقيه بعض الاجناد ومعه كلب للصيد فقال له خذ هذا الكلب وقد خلق فأبى فضرب رأسه بالسوط حتى أوجعه فقال له بعض المارين ويحك هـذا أبوجعفر القمودي العابد فنزل عن فرسه وجعل يقبل يديه ويعتذر اليه فقال أنت في حل قال ابراهيم بن الحسن سمعت ابراهيم القمودي ليالي عديدة اذا فرغ من حزبه في جوف الليل يدعو ويقول اللهم اغفر لصاحب الكلب وارحمه (وقيل) مكتوب في الانجيل عبدي اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب وقال بعض المفسرين في قوله تعالى وقولوا للناس حسنا أي كل من لقيته فقل له حسنا من القول وقال لقمان لابنه ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة الحليم عند الغضب والشجاع في الحرب والاخ عند الحاجة اليه وروى ان عبدالله الخياط كان له مجوسي يخيط عنده الثياب ويدفع له دراهم زيوفا وكان عبدالله يأخذها فجاء المجوسي يوما بالدراهم فلم يجده فاعطاها التلميذ فلم يقبلها فدفع له صحاحا فلما رجع عبدالله قال تلميذه وهذه دراهم المجوسي وذكر قصته فقال عبدالله بئسما فعلت انه معاملي بهذه المعاملة منذ أعوام وأنا أصبر عليها والقيها في البئر لئلا يغر بها غيري (وروى) ان معاوية نظر الى ابنه يزيد يضرب أمة له فقال أتضرب من لا تمتنع منك لقد حالت

وقطـر لاندلس فابن لهودهـم * وجاء بنونصر وظفرهـم تلا
ملوك وفرسان واهل لحـكمة * فان شئت نصهم وقطرهم حلا
ومهدي توحيد بتونس حكمهم * ملوك وبالشرق بالاوفاق نزلا
واقسم على القطر وكن منققدا * فان شئت للروم فبالحرشكلا
ففنش وبرشنون الراء حرفهم * وافرنسهم دال وبالطاء كملا
ملوك كناوة ودلو اقافهم * واعراب قومنا بترقيق اعملا
فهند حباشي وسند قهرمس * وفرس ططاري ومابعدهم طلا
فقيصرهـم حاء ويزدجردهـم * لكاف وقبطيهم بلامه طولا
وعباس كلهـم شريف معظم * ولاكن تركي بذا الفعل عطلا
فان شئت تدقيق الملوك وكلهم * فختم بيوتاتم نسب وجدولا
على حكم قانون الحروف وعلمها * وعلم طبائعها وكله مثلا
فمن علم العلوم نعلم علمنا * ويعلم أسرارالوجود واكملا
فـبرمخ علمه ويعرف ربه * وعلم ملاحم بحسابهم فصلا
وحيث أتى اسم والعروض يشقه * فحكم الحكيم فيه قطعا ام قتلا
وتأتيك أحرف فسـولاضربها * وأحرف سيبويه تأتيك فصلا
فـكن بتكبير وقابل وعوضن * بتربعك العالي للاجزاء خللا
وفي العقد والمجزور يعرف غالبا * وزد لمطلع وصفه في العقل فعلا
واخـترلمطلع وسـويه رتبـة * واعكس بجذريه وبالدور عدلا
ويدركها المرء فيبلغ قصده * وتعطي حروفها وفي نظمها انجلا
اذا كان سعد والكواكب أسعدت * فسبلك في الملك ونيل اسمه العلا
وايقاع دالهم عزم وزمة * فنسب دناد بنا تجد فيه منهلا
وأوتار زيرهـم فللعساكرهم * ومثناهم المثلث بحمه قد جلا
وأدخل بافلاك وعدل بجدول * وارسم أباجاد وباقيه جملا
وجوز شذوذ النحو تجري ومثله * أتى في عروض الشعر عن جله ملا
فاصل لديننا واصل لفقهنا * وعلم لنحونا فاحفظ وحصلا
فادخل لقسطاط على الوفق جذره * وسبح باسمه وكبر وهللا
فتخرج ابياتا وفي كل مطلب * بنظم طبيعي وسر من العلا
وتفني بحصرها كذا حكم عدهم * فعلم القوانيج ترى فيه منهلا
فتخرج أبياتا وعشرون ضعفت * من الالف طبعيا فياصاح جدولا
تريك صنائعا من الضرب اكملت * فصح لك المنى وصح لك العلا
وسجع بزيرهم واثنى بنقرة * أقها دوائر الزير وحصلا

القديرة بيني وبين أولي الترات وقال بعضهم أصل سوء الخلق ضيق القلب وضيقه على قسمين أقهما أدناه وأهونه أن لا يتسع لمراد الخلق وأقصاه وشره أن لا يتسع لمراد الحق وقال المحاسبي أصل سوء الخلق الاعجاب وهل سوء خلق الرجل الا من عجبه وتكبره وانه لا يرى فوقه أحدا ولا يعرف قدر نفسه فقد دخله العزة وقال الحسن في قوله تعالى وثيابك فطهر أي وخلقك نفسن

فساد الاخلاق معاشرة السفهاء (وقيل) الخلق السيئ يضيق قلب صاحبه لانه لا يسع فيه غير مراده كالمكان الضيق لا يسع فيه غير صاحبه ويقال من سوء خلقك أن يقع بصرك على سوء خلق غيرك (وسئل النبى) صلى الله عليه وسلم عن الشؤم فقال سوء الخلق وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قيل له ادع الله على المشركين فقال انما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا ولما وصى يعقوب عليه السلام أولاده قال احفظوا عنى خصلتين ما انصفت من ظالم قط قولا ولا فعلا ومارأيت حسنة الا وأفشيتها ومارأيت سيئة الا وسترتها كذلك فافعلوا وقال ابن عمر اذا سمعتمونى أقول لمملوك أخزاه الله فاشهدوا انه حر ويقال السيئ الخلق هو الذى لا يملك نفسه عند الغضب وقيل أصل سوء الخلق مطالبة غيرك ان يوافقك دون أن تطالب نفسك بموافقة غيرك وعلامة حسن الخلق ان تحتمل معاملة سيئ الخلق

اتها باوفاق واصل لعدها * من اسرار أحرفهم فعذبه سلا

٤٣ ك ا ك و ك ح واه عم له ر لا سح ك ط ال م ن ح ع ف و ل منافرة

(الكلام على استخراج نسبة الاوزان وكيفياتها ومقادير المقابل منهما وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة الى موضع المعالق من امتزاج طبائع وعلم طب او صناعة الكيميا)

ايا طالب اللطب مع علم جابر * وعالم مقدار المقادير بالولا
اذا شئت علم الطب لابدنسبة * لاحكام ميزان تصادف منهلا
فيشفى عليك لكم والاكسير محكم * وامزاج وضعكم بتصحيح انجلا

(الطب الروحانى)

وشئت ايلاوش ٥٦٥ م ودهنه بجلا * لبهرام بر جيس وسبعة اكملا
لتحليل او جاع البوارد صححوا * كذلك والتركيب حيث تنقلا

كد منع مهم ٥ ٥ ٣ وهج ٦ صح لهاى ولج ١١١ وهج وى سكره لا ل ح مهمت مههم ع ع مى مر ح ٣ ٤ ٢ ٢ ٢ ل ك عاعر

(مطاريح الشعاعات فى مواليد الملوك وبنيهم)

وعلم مطاريح الشعاعات مشكل * وضلع قسيها بمنطقة جلا
ولكن فى ج مقام امامنا * ويبدوا اذا عرض الكواكب عدلا
بدال مراكز بين طول وعرضها * فمن أدرك المعنى علا ثم فوضلا
مواقع تربيع وسهمسقط * لتسديسهم تثليث بيت الذى تلا
يزاد التربيع وهذا قياسه * يقينا وحذره وبالعين أعملا
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك * بصاد وضعفه وتربيعه انجلا

اختص صح صه عـ ٨ سع و ى هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله ولم ير اعجب منه

مقامات الملوك المقام الاول ٥ المقام الثانى هج مههمه صع عر المقام الثالث ع ع والمقام الرابع للج المقام الخامس لاى المقام السادس عبر المقام السابع عره

خط الاتصال والانفصال ع ٥١ ط ى ى محج

خط الاتصال ١ ٨١ > ١ ~ ح

خط الانفصال ح د ١ ح ع ٥ ٦

الوتر للجميع وتابع الجزر التام ٢٢٢٢ و و مح ١١٠ دد > مح

الاتصال والانفصال ع محج

الواجب التام فى الاتصالات ع > ٥ = هج

اقامة الانوار ى عع ع

لتستر به سوء الخلق وقيل العارف يعاتب نفسه ولا يعاتب خلقه وعلامة من بينه وبين نفسه عتاب أن لا يكون بينه وبين خلقه عتاب (وروى) ان عبد الله بن عمر كان فى حجره يتيم سيئ الخلق فمات فحزن عليه فقيل له انك تجد غيره قال فمن لى بسوء خلقه وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له لم تمسك هذا الغلام قال لا تعلم عليه الحلم وقيل فى قوله تعالى

واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة الظاهرة تسوية الخلق والباطنة حسن الخلق وقال الفضيل لان يصحبني فاجر حسن الخلق أحب الي من أن يصحبني عابد سيئ الخلق (فان قيل) أليس قد روى ان عيسى ويحيى بن زكريا عليهما السلام التقيا فقال يحيى لعيسى تلقاني ضاحكا كانك آمن فقال عيسى (٣٠٦) وأنت تلقاني عابسا كانك آيس فاوحى الله اليهما ان أحبكما الى ابشكما بصاحبه قلنا كذلك

يستحب أن يكون المؤمن ولس اطلاق الوجه والتبسم في وجه أخيك منهيا عنه وانما المكروه ماذكرناه في أول الباب من التملق والتصنع وفصل الخطاب في هذا الباب ماروى هند بن أبي هالة في صفة مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال كان أصحابه كانما على رؤسهم الطير ومعلوم ان من كان على رأسه طائر لا يبرح فانه لا يتحرك ولا يتكلم ولا يطرف بعينه حذرا أن ينفر الطائر وقال ابن المقفع كان لي صديق من أعظم الناس في عيني وكان رأس ماعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه كان خارجا من سلطان فرجه فلا يدعو اليه مؤنة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدم أبدا الا على ثقة بمنفعة كان أكثر دهره صامتا فاذا قال بذ القائلين وكان متضاعفا مستضعفا فاذا جاء الجد فهو الليث عاديا كان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في مراء ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضيا عدلا وشهودا عدولا

الجزء المجيب في العمل صح ا ٥ هي عم ٥
اقامة السؤال من الملوك ٥١ لا خ لح ١١ ٣
ـع ـح
مقام الاولانور ه عو مقامها ه بج لا

(الانفصال الروحاني والانقياد الرباني)

ايا طالب السر لتهليل ربه * لدى اسمائه الحسنى تصادف منهلا
تطيعك أخيار الانام بقلبهم * كذلك يرسهم وفي الشمس أعملا
ترى عامة الناس اليك تقيدوا * وماقلته حقا وفي الغير أهملا
طريقك هذا السبل والسبل الذي * أقوله غيركم ونصركم واجتلى
اذا شئت تحافي الوجود مع التقى * ودينا متينا او تكن متوصلا
كذي النون والجنيد مع سر صنعة * وفي سر بسطام اراك مسربلا
وفي العالم العلوي تكون محدثا * كذا قالت الهند وصوفية الملا
طريق رسول الله بالحق ساطع * وما حكم صنع مثل جبريل أنزلا
فبطشك تهليل وقوسك مطلع * ويوم الخميس البدء والاحد انجلى
وفي جمعة أيضا بالاسماء مثله * وفي اثنين للحسنى تكون مكملا
وفي طائه سر وفي هائه اذا * اراك بها مع نسبة الكل أعطلا
وساعة سعد شرطهم في نقوشها * وعود ومصطكي بخور تحصلا
وتتلو عليها آخر الحشر دعوة * والاخلاص والسبع المثاني مرتلا

(اتصال أنوار الكواكب) يا ماني لا هي ى لا ظ غ ش لد ع ق صح ه ف و ى

وفي يدك اليمنى حديد وخاتم * وكل يراسك وفي دعوة فلا
وآية حشر فاجعل القلب وجهها * واتلو اذا نام الانام ورتلا
هي السر في الاكوان لاشئ غيرها * هي الآية العظمى فحقق وحصلا
تكون بها قطبا اذا جدت خدمة * وتدرك أسرارا من العالم العلا
سرى بها ناجي ومعروف قبله * وباح بها الحلاج جهرا فأعقلا
وكان بها الشبلي يدأب دائما * الى ان رقى فوق المريدين واعتلى
فصف من الادناس قلبك جاهدا * ولازم لاذكار وصم وتنفلا
فما نال سر القوم الا محقق * عليم باسرار العلوم محصلا

ع صح صح وسلم ع ه ه ك لم مه آا لمح ـــ سحاع و ه وح اح دف ك صرح دم

(مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلوة دائمة)

الانفعال الطبيعي

وكان لا يلوم أحدا على ما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره كان لا يشكو وجعا الا الى من يرجو عنده البرء ولا صاحبا الا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يشتكي ولا ينتقم من الولي على العدو ولا يغفل عن الولي ولا يخص نفسه دون اخوانه بشئ من اهتمامه وحيلته وقوته فاقتف هذه الاخلاق فان لم تطق فخذ القليل خير من ترك

ابر جيس

الجميع وروى ان حكيما سمع رجلا يذم الزمان واهله وانه قد فسد الناس ولم يبق أحد يصحب فقال له يا هذا أنت طلبت صاحبا تؤذيه فلا ينتصر وتنال منه فلا ينتصف وتأكل رحله ولا يرزؤك بشئ وتجفو عليه فيحلم فلم تنصف في الطلب فلم تجد حاجتك ولكن ان أردت صاحبا يؤذيك فلا تنتصر ويجفوك فلا تنتقم ويأكل رحلك فلا تنال منه شيأ وجدت اصحابا (٣٠٧) واخوانا وخلانا وانا اول من يصحبك

لبرجيس في المحبة الوفق صرفوا * بقزديرا ونحاس الخلط أكلا
وقيل بفضة صحيحا رأيته * فجعلك طالعا خطوطه ماعلا
توخ به زيادة النور للقمر * وجعلك للقبول شمسه أصلا
ويومه والبخور عود لهندهم * ووقت لساعة ودعوته الا
ودعوته بغاية فهي أعملت * وعن طسميان دعوة ولها جلا
وقيل بدعوة حروف لوضعها * بحر هواه اومطالب أهلا
فتنقش أحرفا بدال ولامها * وذلك وفق للربع حصلا
اذا لم يكن يهوى هواك دلالها * فدال ليدوواو زينب معطلا
فحسن لبائه وبائهم اذا * هواك وباقيهم قليلة جلا
ونقش مشاكل بشرط لوضعهم * ومازدت انسبه لفعلك عدلا
ومفتاح مريم ففعلهما سوا * فبورى وبسطامى بسورتها تلا
وجعلك بالقصد وكن متفقدا * ادلة وحشى لقبضة مبدلا
فاعكس بيوتها بالف ونيف * فباطنها سر وفي سرها انجلا

(فصل في المقامات للنهاية)

لك الغيب صورة من العالم العلا * وتوجدها دارا وملبسها الكلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه * بنشر وترتيل حقيقة انزلا
وفي يده طول وفي الغيب ناطق * فيحكى الى عود يجاوب بلبلا
وقد جن بهلول بعشق جمالها * وعند تجليها البسطام اخذلا
ومات احانه واشرب حبها * جنيد وبصري والجسم أهملا
فتطلب في التهليل غايته ومن * باسمائه الحسنى بلا نسبة خلا
ومن صاحب الحسنى له الفوز بالمنى * ويسهم بالزلفى لدى حيرة العلا
وتخبر بالغيب اذا جدت خدمة * تريك عجائبا بمن كان مؤثلا
فهذا هو الفوز وحسن تناله * ومنها زيادات لتفسيرها تلا

(الوصية والتختم والايمان والاسلام والتحريم والابهلية)

فهذا قصدنا وتسعون عده * ومازاد خطبة وختما وجدولا
عجبت لابيات وتسعون عدها * تولد ابياتا وما حصرها انجلا
فمن فهم السر فيفهم نفسه * ويفهم تفسيرا تشابه أشكلا
حرام وشرعي لاظهار سرنا * لناس وان خصوا وكان التأملا
فان شئت أهليه فغلظ يمينهم * وتفهم برحلة ودين تطولا
لعلك أن تنجو وسامع سرهم * من القطع والافشا فترأس بالعلا
فتجل لعباس اسره كاتم * فنال سعادات وتابعه علا

(فصل في الفرق بين المداهنة والمداراة) من دارى سلم ومن داهن اثم وهذا باب اختلط على معظم الخلق فداهنوا وهم يحسبون انهم يدارون فالمداهنة منهى عنها والمداراة مأمور بها قال الله تعالى في المداهنة ودوا لو تدهن فيدهنون وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المداراة راس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس وامرت بمداراة الناس كما امرت باداء الفرائض (واعلم) انه اذا سقمت المدارات صارت مداهنة فالمداهنة ان تدارى الناس على وجه يذهب فيه دينك والمداراة مخالقتهم على وجه يسلم لك دينك وذلك ان هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وقد قالت له قريش يا محمد اعبد آلهتنا سنة ونؤمن بك فأبى قالوا فشهرا فأبى قالوا فيوما فأبى قالوا فساعة فأبى قالوا فاستلمها بيدك ونؤمن بك فوقف النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك وطمع ان فعل ان يؤمنوا فانزل الله تعالى ودوا لو تدهن فيدهنون وقيل له ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ومثاله ان تقول للظالم أبقاك الله ومن دعا للظالم بالبقا فقد أحب أن يعصى الله سبحانه وهذا باب ينبغي لذوى الدين حفظه وقد رأى بعض الفقهاء الخروج من هذه العهدة بالتعريض وكان الفقيه بن الحصار بقرطبة له جار نصراني يقضي حوائجه وينفعه وكان الفقيه يكثر أن يقول أبقاك الله وتولاك

وقام رسول الله فى الناس خاطبا * فمن يراس عرشا فذلك أكملا
وقد ركب الارواح اجساد مظهر * فالت لقتلهم بدق تطولا
الى العالم العلوى يفنى فناؤنا * ويلبس اثواب الوجود على الولا
فقد تم نظما وصل المنا * على خاتم الرسل صلاة بها العلا
وصلى اله العرش ذو المجد والعلا * على سيد ساد الانام وكملا
محمد الهادى الشفيع امامنا * وأصحابه اهل المكارم والعلا

مرتبة باسه من الحله سرحاسع دعمم ٨ ـه ا سـ و ط ء ـ ٤ص٤ـ تصحيح النيرين

وتعديل الكواكب عند كل تاريخ مطلوب ـ سر كل و وه ا ة لوطرح الاوتار الكلية

ا ٢ ـه عم عم عم ا ا ه ح الاول تم ٨ عم س عم ٥ عم ح عو ه عو عو ٨ عو ح

ح ادعو ٥و عو ٥و صح كلمة الزايرجة

(كيفية العمل فى استخراج اجوبة المسائل من زايرجة العالم بحول الله منقولا عمن لقيناه من القائمين عليها)

السؤال له ثلثمائة وستون جوابا عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سؤال واحد فى طالع مخصوص باختلاف الاسئلة المضافة الى حروف الاوتار وتناسب العمل من استخراج الاحرف من بيت القصيد *(تنبيه)* تركيب حروف الاوتار والجدول على ثلاثة أصول حروف عربية تنقل على هيأتها وحروف برسم الغبار وهذه تتبدل فمنها ماينقل على هيئته متى لم تزد الادوار عن اربعة فان زادت عن أربعة نقلت الى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك المرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ومنها حروف برسم الزمام كذلك غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية فهى بمنزلة واحد ألف و بمنزلة عشرة ولها نسبة من خمسة بالعربى فاستحق البيت من الجدول ان توضع فيه ثلاثة حروف فى هذا الرسم وحرفان فى الرسم فاختصروا من الجدول بيوتا خالية فتى كانت اصول الادوار زائدة على اربعة حسبت فى العدد فى طول الجدول وان لم تزد على اربعة لم يحسب الا العامر منها *(والعمل فى السؤال يفتقر الى سبعة اصول)* عدة حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها اثنى عشر اثنى عشر وهى ثمانية ادوار فى الكامل وستة فى الناقص ابدا ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصلى وهو واحد ابدا ومايخرج من اضافة الطالع للدور الاصلى ومايخرج من ضرب الطالع والدور فى سلطان البرج واضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة ادوار مضروبة فى اربعة تكون اثنى عشر دورا ونسبة هذه الثلاثة الادوار التى هى كل دور من اربعة نشأة ثلاثية كل نشأة لها ابتداء ثم انها تضرب ادوارا رباعية ايضا ثلاثية ثم انها من ضرب ستة فى اثنين فكان لها نشأة يظهر ذلك فى العمل ويتبع هذه الادوار الاثنى عشر نتائج وهى فى الادوار اما ان تكون نتيجة او اكثر الى ستة فأول ذلك نفرض سؤالا عن الزايرجة هل هى علم قديم او محدث بطالع اول درجة من القوس اثناء حروف الاوتار ثم حروف السؤال فوضعنا حروف وتر راس القوس ونظيره من

أقر الله عينك يسرنى والله مايسرك جعل الله يومى قبل يومك لا يزيده على هذه الكلمات فيتهيج النصرانى بها وتسره فعوتب الفقيه فى ذلك فقال انما ادعو بمعاريض قد علم الله ذلك من نيتى أما قولى أبقاك الله وتولاك فاريد أن يبقيه الله لغرم الجزية وتولاه بالعذاب واما قولى أقر الله عينك فاريد أن تقر حركتها بستر يعرض لها فلا تتحرك جفونها واما قولى يسرنى والله مايسرك فان العافية تسرنى كما تسره وأما قولى جعل الله يومى قبل يومك فاريد أن يجعل الله تعالى اليوم الذى ادخل فيه الجنة برحمته قبل اليوم الذى يدخل فيه النار بكفره

(الباب السادس والخمسون فى الظلم وشؤمه وسوء عاقبته)*

قال الله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون وقال تعالى ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون وقال تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون فكل من لم يحكم بما جاء من عند الله ورسوله كانت فيه هذه الاوصاف الثلاثة الكفر والظلم والفسق وقال سبحانه وتعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون (وقال) أحمد بن خضرويه لو اذن لى فى الشفاعة مابدأت الا بالظالمين لانى تثبت لتعزية الله تعالى فى قوله ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قال ولا أغتنم سفرا لايكون فيه من لا يؤذينى ويظلمنى شوقا منى لتعزية الله تعالى للظلومين وقال ميمون بن مهران كفى بهذه الآية وعيد اللظالم وتعزية للظلوم وقال كعب لابى هريرة فى التوراة من يظلم يخرب بيته فقال أبو هريرة وذلك فى كتاب الله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا فالظلم أدعى شئ الى سلب النعم وحلول النقم (وروى) مسلم فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه قال ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما

فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي انكم تخطؤن بالليل والنهار وانا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا

راس الجوزاء ثالثة وتر راس الدلو الى حد المركز واضفنا اليه حروف السؤال ونظرنا عدتها واول ما تكون ثمانية وثمانين واكثر ما تكون ستة وتسعين وهي جملة الدور الصحيح فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين ويختصر السؤال ان زاد عن ستة وتسعين بان يسقط جميع ادواره الاثني عشرية ويحفظ ما خرج منها وما بقي فكانت في سؤالنا سبعة أدوار الباقي تسعة أثبتها في الحروف مالم يبلغ الطالع اثني عشرة درجة فان بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور ثم اثبت اعدادها ايضا ان زاد الطالع عن اربعة وعشرين في الوجه الثالث ثم تثبت الطالع وهو واحد وسلطان الطالع وهو اربعة والدور الاكبر وهو واحد واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية واضف السلطان للطالع فيكون خمسة فهذه سبعة اصول فما خرج من ضرب الطالع والدور الاكبر في سلطان القوس مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من اسفل الجدول صاعدا وان زاد على اثني عشر طرح ادوارا وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الاعلى من الجدول وتعد متواليا خمسات أدوارا وتحفظها الى أن يقف العدد على حرف من اربعة وهي ألف أو باء أو جيم او زاي فوقع العدد في عملنا على حرف الالف وخلف ثلاثة أدوار فضربنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة وهو عدد الدور الاول فأثبته واجمع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول وان وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها فلا يعتبر وتستمر على أدوارك وادخل بعدد ما في الدور الاول وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمعا فيه وهي ثمانية مارا الى جهة اليسار فوقع على حرف لام ألف ولا يخرج منها ابدا حرف مركب وانما هو اذن حرف تاء اربعمائة برسم الزمام فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر ادخل بها في حروف الاوتار واثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي وذلك ان تجمع حروف الدور الاول وهو تسعة لسلطان البرج وهو اربعة تبلغ ثلاثة عشر اضعفها امثالها تكون ستة وعشرين أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحروف الاول ثم ثلاثة وعشرون مرتين ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح الى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولا ثم ضع الدور الثاني واضف حروف الدور الاول الى ثمانية الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهيت في الدور الاول وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر ثم بخمسة ولا تعد الخالي والدور عشرين فوجدنا حرف ثاء خمسمائة وانما هو نون لان دورنا في مرتبة العشرات فكانت الخمسمائة خمسين لان دورها سبعة عشر فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مثينا فأثبت نونا ثم ادخل بخمسة أيضا من أوله وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحدا فقهقرا العدد واحدا يقع على خمسة أضف لها واحدا لسطح تكن ستة أثبت واوا وعلم عليها من بيت القصيد اربعة وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ اثني عشر اضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر وهو ما للدور الثاني فدخلنا بسبعة عشر في حروف الاوتار فوقع العدد على واحد أثبت الالف وعلم عليها من بيت القصيد واسقط من

على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيأ يا عبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيأ يا عبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فاعطيت كل انسان مسئلته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا دخل في البحر يا عبادي انما هي أعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه يرويه ابو ادريس الخولاني عن ابي ذر ومسندا الى النبي صلى الله عليه وسلم وكان ابو ادريس اذا حدثه جثى على ركبته وروى عبد الله بن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الظلم ظلمات يوم القيامة وروى ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب وروى ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانت لاخيه عنده مظلمة من عرض اوشئ فليتحلله منه قبل ان لا يكون درهم ولا دينار ان كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات اخذ من سيات صاحبه فحمل عليه وروى سعيد بن زيد قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول من ظلم من الارض شبرا طوقه من سبع ارضين قال ابو جعفر الطحاوي معناه انه يقلب شجاعا اقرع فيطوقه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في مانع الزكاة

حروف الاوتار ثلاثة حروف عـدة الخارج من الدور الثانى وضع الدور الثالث واضف خمسة الى ثمانية تكن ثلاثة عشر الباقى واحدا انقل الدور فى ضلع ثمـانية بواحد وادخل فى بيت القصيد بثلاثة عشر وخذ ماوقع عليه العدد وهو ق وعلم عليه وادخل بثلاثة عشر فى حروف الاوتار واثبت ماخرج وهو سين وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل عمـا يلى السين الخارجة بالباقى من دور ثلاثة عشر وهو واحـد فخذ ما يلى حرف سين من الاوتار فكان ب أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح وهو ان تضعف ثلاثة عشر بمثلها وتضيف اليها الواحد الباقى من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الاوتار من بيت القصـيد وادخل فى صـدر الجدول بثلاثة عشر وانظر ماقابله من السطح واضعفه بمثله وزد علـيه الواحـد الباقى من ثلاثة عشر فكان حرف جيم وكانت للجملة سبعة فذلك حرف زاى فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد وميزانه ان تضعف السبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقى من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر ادوار الثلاثيات وضع الدور الرابـع وله من العدد تسعة باضافة الباقى من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور فى السلطان وهذا الدور آخر العمل فى البيت الاول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الاوتار واصعد بتسعة فى ضلع ثمـانية وادخل بتسـعة من دور الحرف الذى اخذته آخرا من بيت القصيد فالتاسع حرف راء فاثبته وعلم عليه وادخل فى صدر الجدول بتسعة وانظر ماقابلها من السطح يكون ج فهقر العدد واحدا يكون الف وهو الثانى من حرف الراء من بيت القصيد فأثبته وعلم علـيـه وعد عمـا يلى الثانى تسعة يكون ألف ايضا اثبته وعلم عليه واضرب على حرف من الاوتار واضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر ادخل بها فى حروف الاوتار تقف على حرف راء اثبتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمـانية وأربعين وادخل بثمانية عشر فى حروف الاوتار تقف على س اثبتها وعلم عليها اثنين واضف اثنين الى تسعة تـكون احد عشر ادخل فى صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح الف أثبتها وعلم عليها سـتة وضع الدور الخامس وعدته سـبعة عشر الباقى خمسة اصعد بخمسة فى ضلع ثمـانيـة واضرب على حرفين من الاوتار واضعف خمسـة بمثلها واضفها الى سـبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون ادخل بها فى حروف الاوتار تقع على ب أثبتها وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التى هى فى أس اثنين وثلاثين الباقى خمسـة عشر ادخل بها فى حروف الاوتار تقف على ق اثبتها وعلم عليها ستة وعشرين وادخـل فى صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار وذلك حرف ب أثبتـه وعلم عليه اربعة وخمسـين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السادس وعدته ثلاثة عشر الباقى منه واحد فتبـين اذ ذاك ان دور النظم من خمسة وعشرين فان الادوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد فاضرب خمسة فى خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور فى نظم البيت فانقل الدور فى ضلع ثمـانيـة بواحد ولكن لم يدخل فى بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمنـاه لانه دور ثان من نشأة تركيبية ثانية بل اضفنا الاربعة التى من اربعة وخمسين الخارجة على حروف ب من بيت القصيد الى الواحد تـكون خمسة تضيف خمسة الى ثلاثة عشر التى للدور تبلغ ثمـانية عشر ادخل بها فى صدر الجدول وخـذ ماقابلها من السطح وهو الف أثبته وعلم عليه من بيت القصيد اثنى عشر واضرب على حرفين من الاوتار ومن هـذا الجـدول تنظر أحرف السؤال فـاخرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السؤال ليكون داخلا فى

العدد

يجئ ماله يوم القيامة شجاعا اقرع يتبعه و يقول انا مالك انا كنزك فكان هذا داخلا فى قوله تعالى سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة و روى ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال مطل الغنى ظلم و روى ابو موسى الاشعرى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته وقرا وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد وروى انس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال انصر اخاك ظالما اومظلوما قالوا يارسول الله كيف هـذا انصره مظلوما فكيف انصره ظالما قال تأخذ فوق يده وروى ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال صنفان من اهل النار لم ارهما ناس معهم سياط كاذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤسهن مثل اسنمة البخت لا يرين الجنـة ولا يجدن ريحها وقال الله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيهـا فحق عليهـا القول فدمرناها تدميرا وفى الآية تأويلان احدهما أمرناهم بالطاعة ففسقوا أى خرجوا عن الطاعة والثانى على قراءة المدنى أى كثرنا عددهم وأسبغنا النعم عليهم فعصوا وتباغوا ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة اى كثيرة النتاج (واعلموا) أن حشرات الارض وهوامها تلعن العصاة وقال مجاهـد اذا اشعثت الارض تقول البهائم هذا من اجل عصاة بنى آدم فذلك قوله تعالى اولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحسل لتموت بذنب ابن آدم يعنى ان بذنوب الخلق يمتنع القطر فلا تنبت الارض فتهلك الدواب والحشرات وسمع ابو هريرة رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسـه فقال بلى والله ان الحبارى لتموت هزلا فى وكرها بظلم الظالم وقال ابن

العدد في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف حرف بعد ذلك مناسبا لحروف السؤال فما خرج منها زده الى بيت القصيد من آخره وعلم عليه ثم أضف الى ثمانية عشر ما علمته على حرف الالف من الآحاد فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين ادخل بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء أثبته وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوترى فاضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السابع وهو ابتداء مخترع ثان ينشأ من الاختراعين ولهذا الدور من العدد تسعة تضيف لها واحدا تكون عشرة للنشأة الثانية وهذا الواحد تزيده بعد الى اثني عشر دورا اذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الاصل تبلغ الجملة خمسة عشر فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وادخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسمائة وانما هي خمسون نون مضاعفة بمثلها وتلك ق أثبتها وعلم عليهما من بيت القصيد اثنين وخمسين وأسقط من اثنين وخمسين اثنين وأسقط تسعة التي للدور الباقي واحد وأربعون فادخل بها في حروف الاوتار تقف على واحد أثبته وكذلك ادخل بها في بيت القصيد تجد واحدا فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين علامة على الالف الاخير الميزاني وأخرى على الالف الاولى فقط والثانية أربعة وعشرون واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة ادخل في ضلع ثمانية وخمسين وادخل في بيت القصيد بخمسة تقع على عين بسبعين أثبتها وعلم عليها وادخل في الجدول بخمسة وخذ ما قابلها من السطح وذلك واحد أثبته وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين واسقط واحدا من ثمانية وأربعين للاس الثاني وأضف اليها خمسة الدور والجملة اثنان وخمسون ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف ب غبارية وهي مرتبة مئينية لتزايد العدد فتكون مائتين وهي حرف راء أثبتها وعلم عليها من القصيد اربعة وعشرين فانتقل الامر من ستة وتسعين الى الابتداء وهو أربعة وعشرون فاضف الى اربعة وعشرين خمسة الدور وأسقط واحدا تكون الجملة ثمانية وعشرين ادخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية أثبت ٢ وعلم عليها وضع الدور التاسع وعدده ثلاثة عشر الباقي واحدا اصعد في ضلع ثمانية بواحد وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد ولانه من النشأة الثانية ولانه أول الثلث الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في اربعة التي هي مثلثات البروج السابقة الجملة اثنان وخمسون ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية وانما هي مئينية لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الآحاد والعشرات فاثبته مائتين راء وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين واضف الى ثلاثة عشر الدور واحد الاس وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية فعلم عليها ثمانية وعشرين واطرح من اربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب على حرفين من الاوتار وادخل بسبعة تقف على حرف لام أثبته وعلم عليه من البيت وضع الدور العاشر وعدده تسعة وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في ضلع ثمانية بتسعة تكون خلاء فاصعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء اضرب تسعة في اربعة لصعودنا بتسعين وانما كانت تضرب في اثنين وادخل في الجدول بستة وثلاثين تقف على اربعة زمامية وهي عشرية فاخذناها احادية لقلة الادوار فاثبت حرف دال وان أضفت الى ستة وثلاثين واحد الاس كان حدها من بيت القصيد فعلم عليها ولو دخلت بالتسعة لا غير من غير ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية فاطرح من ثمانية اربعة الباقي اربعة وهو المقصود ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية

مسعود خطيئة بني آدم قتلت الحسل (وروى) مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال الرجل وان كان شيأ يسيرا يا رسول الله قال وان كان قضيبا من اراك وقال ابن عباس ما ظهر الغلول في قوم قط الا فشا فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال والميزان الا انقطع عنهم الرزق (٣١١) ولا حكم قوم بغير حق الا فشا فيهم الدم ولا خفر قوم بالعهد الا سلط عليهم العدو وقال بعض الحكماء اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يعجبنك رحب الذراعين بسفك الدماء فان له قاتلا لا يموت (وروى) ان بعض الملوك رقم على بساطه

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا
فالظلم مصدره يفضي الى الندم
تنام عينك والمظلوم منتصب
يدعو عليك وعين الله لم تنم

أنشدنا قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني رحمه الله ببغداد

اذا ما هممت بظلم العباد
فكن ذاكرا هول يوم المعاد
فان المظالم يوم القصاص
لمن قد تزودها شر زاد

وقال سحنون بن سعيد كان يزيد بن حاتم الحكيم يقول ما هبت شيأ قط هيبتي رجلا ظلمته وأنا أعلم ان لا ناصر له الا الله فيقول لي حسبك الله بيني وبينك وقال بلال بن سعيد اتقوا الله فيمن لا ناصر له الا الله وقال أبو سليمان الداراني لما دخل اخوة يوسف عليه السلام عرفهم ولم يعرفوه وكان على وجهه برقع فجلا بكبيرهم وكان ابن خالته فقال له بم اوصاك أبوك قال بأربع قال وما هن قال يا بني لا تتبع هواك فتفارق ايمانك فان الايمان يدعو الى الجنة والهوى يدعو الى النار ولا تكثر منطقك بما لا يعنيك فتسقط من عينه ولا تسيء بربك الظن فلا يستجيب لك ولا تكن ظالما فان الجنة لم تخلق للظالمين (وبكى) علي بن الفضيل يوما

عشر التي هي تسعة في اثنين لو قف على واحد زمامي وهو عشري فاطرح منه اثنين تكرار التسعة الباقي ثمانية نصفها المطلوب ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضرب باقي ثلاثة لوقعت على عشرة زمامية والعمل واحد ثم ادخل بتسعة في بيت القصيد واثبت ما خرج وهو ألف ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية واسقط واحدا وادخل في صدر الجدول بستة وعشرين واثبت ما خرج وهو مائتان بحرف راء وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة اصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر عليه المشي في الدور الاول وادخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال فخذ ما قابله من السطح وهو واحد فادخل بواحد في بيت القصيد تكن سين أثبته وعلم عليه اربعة ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لاثبتنا الواحد ثلاثة وأضعف سبعة عشر مثلها واسقط واحدا وأضعفها مثلها او زدها اربعة تبلغ سبعة وثلاثين ادخل بها في الاوتار تقف على ستة أثبتها وعلم عليها واضعف خمسة مثلها وادخل في البيت تقف على لام اثبتها وعلم عليها عشرين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثاني عشر وله ثلاثة عشر الباقي واحدا اصعد في ضلع ثمانية بواحد وهذا الدور آخر الادوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية والواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية وانما هي آحاد ثمانية وليس معنا من الادوار الا واحد فلو زاد عن اربعة من مربعات اثني عشر او ثلاثة من مثلثات اثني عشر لكانت ح وانما هي د فاثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اربعة وسبعين ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن خمسة اضعفها مثلها للاس تبلغ عشرة اثبت ى وعلم عليها وانظر في أي المراتب وقعت وجدناها في الرابعة دخلنا بسبعة في حروف الاوتار وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفي فكانت ف اثبتها واضف الى سبعة واحد الدور الجملة ثمانية ادخل بها في الاوتار تبلغ س اثبتها وعلم عليها ثمانية واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور فانها آخر مربعات الادوار بالمثلثات تبلغ اربعة وعشرين ادخل بها في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون وهو نهاية الدور الثاني في الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الاولى ولها تسعة وهذا العدد يناسب أبدا الباقي من حروف الاوتار بعد طرحها ادوارا وذلك تسعة فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الاوتار واضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين فادخل بها في حروف الاوتار تبلغ الف اثبته وعلم عليه ستة وتسعين وان ضربت سبعة التي هي ادوار الحروف التسعينية في اربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك واصعد في ضلع ثمانية بتسعة وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية واضرب تسعة فيما ناسب من السطح وذلك ثلاثة وأضف لذلك سبعة عدد الاوتار الحرفية واطرح واحدا الباقي من دور اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ادخل بها في البيت تبلغ خمسة فاثبتها واضف تسعة مثلها وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر وخذ ما في السطح وهو واحد ادخل به في حروف الاوتار تبلغ م أثبته وعلم عليه واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر أضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة وادخل بستة عشر في بيت القصيد تبلغ ت

أثبته

فقيل له ما يبكيك فقال أبكي على من ظلمني اذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم يكن له حجة ولمحمود الوراق

اني وهبت لظالمي ظلمي * وتركت ذاك له على علمي
ورأيته أسدى الي يدا * لما ابان بجهله حلمي
رجعت اساءته عليه واحـ * سانى فآب مضاعف الجرم
وغدوت ذا أجر ومحمدة * وغدا بكسب الذم والاثم
مازال يظلمني وأرحمه * حتى رثيت له من الظلم
وكانما الاحسان كان له * وانا المسيء اليه في الحكم

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرا غيري (وقال) ابن مسعود لما كشف الله العذاب عن قوم يونس ترادوا المظالم حتى ان كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده الى صاحبه وقال ثور بن زيد الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه وقال غيره لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لاوشك أن تخرب وقال الحكيم العدل حرمة والظلم ظلمة فالعدل يجبر الملك الحوائج والجور يهجم عليك الحوائج فاحذر من لا جنة له الا الثقة بنزول الغير ولا سلاح له الا الابتهال الى مقلب الدول قال مالك بن دينار قرأت في بعض الكتب يا معشر الظلمة لا تجالسوا أهل الذكر فانهم اذا ذكروني ذكرتهم برحمتي واذا ذكروني ذكرتكم بلعنتي وقال أبو امامة يجيء الظالم يوم القيامة حتى اذا كان على جسر جهنم لقيه المظلوم وعرف ما ظلمه به فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات فان لم يجدوا حسنات حمل عليهم من سيئاتهم مثل ما ظلموا حتى يردوا الدرك الاسفل من النار ومن صحيح مسلم ان هشام بن حكيم مر بالشام على أناس وقد أقيموا في الشمس وصب على رؤسهم الزيت قال ما هذا قال يعذبون في الخراج قال اما اني سمعت النبي

اثبته وعلم عليه اربعة وستين وأضف الى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين وزد واحدا الباقى من الدور الثانى عشر يكن تسعة ادخل بها فى صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية وانظر ما فى السطح تجد واحدا اثبته وعلم عليه من بيت القصيد وهو التاسع أيضا من البيت وادخل بتسعة فى صدر الجدول تقف على ثلاثة وهى عشرات فاثبت لام وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقى واحد فانقل فى ضلع ثمانية بواحد وأضف الى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين وواحد الباقى من الدور الثانى عشر تبلغ سبعة عشر وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر ادخل بها فى حروف الاوتار تكن لا ما اثبتها فهذا آخر العمل والمثال فى هذا السؤال السابق اردنا ان نعلم ان هذه الزايرجة علم محدث أو قديم بطالع اول درجة من القوس اثبتنا حروف الاوتار ثم حروف السؤال ثم الاصول وهى عدة الحروف ثلاثة وتسعون ادوارها سبعة الباقى منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس أربعة الدور الاكبر واحد درج الطالع مع الدور اثنان ضرب الطالع مع الدور فى السلطان ثمانية اضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجد مثلا

حروف الاوتار ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن ص
ع ف ص و ر س ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ
ش ط ى ع ح ص ر و ح د و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه
و ز ح ط ى

(حروف السؤال) ا ل ز ا ى ر ج ة ع ل م م ح د ث ا م ق د ى م

الدور الاول ٩ الدور الثانى ١٧ الباقى ٥ الدور الثالث ١٣ الباقى ١ الدور الرابع ٩ الدور الخامس ١٧ الباقى ٥ الدور السادس ١٣ الباقى ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقى ٥ الدور التاسع ١٣ الباقى ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادى عشر ١٧ الباقى ٥ الدور الثانى عشر ١٣ الباقى ١ النتيجة الاولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقى ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقى ١

صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا وأخبرنى رجل ممن كان يقرأ العلم بالاسكندرية قال كان ههنا شيخ يكون عندنا الكاسين يدور حولهم فرأيته فى النوم بعد وفاته فقلت له من أين تجى فقال لى لا تسأل فاعدت عليه فقال لا تسأل فسألته فقال من الجحيم فقلت له فالى اين تذهب قال الى مثل الدار التى خرجت منها قلت فكيف لقيت قال وماذا لقيت كان يحيى قد جعل فى هاون ودق حتى صار مثل المخ (واخبرنى) رجل من أهل العلم والدين قال رأيت فلانا البياع فى النوم بعد وفاته فقلت ما فعل الله بك قال أنا محبوس عن الجنة قلت فبماذا قال كنت أبيع فى الدكان فيزدحم الناس على فآخذ دراهمهم فاضعها فى فى وكلما تفرغت وزنتها وأعطيت كل انسان حقه فاختلطت فى فى الفضلات فجاء اثنان فدفعت لاحدهما بفضة الآخر وكانت أنقص من فضته بحبة ثم حوسبت فبقى على حبة فقلت فادفع له الحبة وتخلص فجعل يقلب كفيه و يقول من أين ادفع له من أين أدفع له فكررها مرات (ويروى) ان يونس عليه السلام لما نبذ بالعراء وأنبت الله عليه شجرة من يقطين كان يأوى الى ظلها فيبست فبكى عليها فأوحى الله تعالى اليه تبكى على شجرة فقدتها ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت ان أهلكهم وقيل لابن السماك الاسدى أيام معاوية كيف تركت الناس قال بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهى وقال بعض الحكماء أفقر الناس أكثرهم كسبا من حرام لانه استدان بالظلم ما لا بد له من رده وقال رجل كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز فذكر الحجاج فسببته ووقعت فيه فقال عمر ان الرجل ليظلم بالمظلمة فلا يزال المظلوم يشتم الظالم و ينتقصه حتى يستوفى حقه فيكون للظالم حق عليه وقال

عمرو بن ينار نادى رجـل فى بنى اسرائيـل من رآنى فلا يظلمن أحدا واذا رجل قد ذهب ذراعه من عضده وهو يبكى و يقول من رآنى فلا يظلمن أحـدا فسـئل عن حاله فقال بينما أنا اسير على شاطئ البحر فى بعض سواحل الشام اذ مررت بنبطى قد اصطاد تسعة أنوان فأخذت منه نونا وهو كاره بعد ان ضربت رأسه فعض النون ابهامى عضة يسيرة ثم أكلناه فوقعت الاكلة فى ابهامى فاتفقت الاطباء على قطعه فقطعته فوقعت فى كفى ثم ساعـدى ثم عضدى فمن رآنى فلا يظلمن احدا فخرجت أسيح فى البلاد وأريد قطع عضدى اذ رفعت لى شجرة فأويت الى ظلها فنعست فقيل لى فى المنام لاى شئ تقطع اعضاءك رد الحق الى أهله فجئت الصياد فقلت ياعبـد الله انا مملوك لك فاعتقنى فقال ما أعرفك فاخـبرته فبكى وتضرع وقال أنت فى حـل فلما قالها تناثر الدود من عضدى وسكن الوجـع فقلت له بماذا دعوت على قال لما ضربت رأسى وأخذت السمكة نظرت الى السمـاء و بكيت فقلت يارب أشهد أنك عدل تحب العدل وهـذا منك عدل وانك الحق تحب الحق وخلقتنى وخلقتـه وجعلتـه قويا و جعلتنى ضعيفا فاسألك يامن خلقتنى وخلقته أن تجعله عبرة لخلقك (وقال معاوية) ان أولى الناس بالعفو أقدرهم على الانتقام وان أنقص الناس عقلا من ظلم من دونه. وقال بعض الحـكماء الظلم على ثلاثة أوجه ظلم لا يغفره الله وظلم لا يتركه الله وظلم لا يعبأ الله به شيأ فاما الظلم الذى لا يغفره الله فهو الشرك بالله وأما الظلم الذى لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضا وأما الظلم الذى لا يعبأ الله به فظلم العبد ما بينه و بين الله تعالى وقال ميمون بن مهران من ظلم رجلا مظلمة ففاته ان يخرج منها فاستغفر الله دبر كل صلاة رجوت أن يخرج من مظلمته (وقال يوسف بن اسباط) توفى رجل من الحواريين فوجدوا عليه وجدا شديدا وشكوا

هو

ه ع ح و ٦٦ فى اى ٤
و

س	١	غ	٢٣
و	٢	ر	٢٤
ا	٣	ا	٢٥
ل	٤	ى	٢٦
ع	٥	ب	٢٧
ظ	٦	ش	٢٨
ى	٧	ك	٢٩
م	٨	ض	٣٠
ا	٩	ب	٣١
ل	١٠	ط	٣٢
خ	١١	ه	٣٣
ل	١٢	ا	٣٤
ق	١٣	ل	٣٥
ح	١٤	ج	٣٦
ز	١٥	د	٣٧
ت	١٦	م	٣٨
ف	١٧	ث	٣٩
ص	١٨	ل	٤٠
ن	١٩	ا	٤١
ا	٢٠		
ذ	٢١		
ن	٢٢		

ف و ز ا و س ر د ا ا س ا ب ا ر ق ا ع ا ر ص ح ر ح ل د ا ر س ا ل د ى و س ر ا د م ن ا ل ل

دورها على خمسـة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين الى أن تنتهى الى الواحـد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعا والله أعلم ن ف ر و ح ر و ح ا ل و د س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ى س و ا ن س د ر و ا ب لا ا م ر ب و ا ا ل ع ل ل

هذا آخر الكلام فى استخراج الاجوبة من زايرجة العالم منظومة وللقوم طرائق اخرى من غير الزايرجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة وعندهم ان السر فى استخراج الجواب منظوما من الزايرجة انما

ذلك الى المسيح صلى الله عليه وسلم فوقف على قبره ودعا فاحياه الله تعالى وفى رجليه نعلان من نار فسأل عيسى عن ذلك فقال والله ما عصيت قط الا انى مررت بمظلوم فلم أنصره فتنعلت هاتين النعلين وأما أنا فاوصيك اذا فعلت باحد مكروها فادع الله تعالى له واستغفر له كما فعل موسى عليه السلام لما آذى هرون وأخذ بلحيته ورأسه ثم تبين له براءته وان بنى اسرائيل غلبوه عليه وعلى عبادة العجل

ه وغرجهم بيت مالك بن وهيب وهو * سؤال عظيم الخلق البيت ولذلك يخرج الجواب على رويه وأما الطرق الاخرى فيخرج الجواب غير منظوم فمن طرائقهم فى استخراج الاجوبة ما ننقله عن بعض المحققين منهم

(فصل فى الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية)

اعلم ارشدنا الله واياك ان هذه الحروف أصل الاسئلة فى كل قضية وانما تستنتج الاجوبة على تجزئته بالكلية وهى ثلاثة وأربعون حرفا كما ترى والله علام الغيوب ا و ل ا ع ظ س ا ل م خ ى د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ك ى ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا
وقد نظمها بعض الفضلاء فى بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين وسماه القطب فقال

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجد مثلا

فاذا أردت استنتاج المسئلة فاحذف ما تكرر من حروفها واثبت ما فضل منه ثم احذف من الاصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسئلة حرفا يماثله وأثبت ما فضل منه ثم امزج الفضلين فى سطر واحد تبدأ بالاول من فضله والثانى من فضل المسئلة وهكذا الى أن يتم الفضلان أو ينفذ أحدهما قبل الآخر فتضع البقية على ترتيبها فاذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقا لعدد حروف الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح فحينئذ تضيف اليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفا فتعمر بها جدولا مربعا يكون آخرها فى السطر الاول أول ما فى السطر الثانى وتنقل البقية على حالها وهكذا الى أن تتم عمارة الجدول ويعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف فى القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له وتضع الوتر مقابلا لاحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه صورته

	القوى	الموازين	الغرائز	الاسوس	و	الموازين
ا	القوى	الموازين	الغرائز	الاسوس	و	[illegible]
ب	٢٨ ه	٤ ه كـ لا	ـه ٤	صح ح		
ج	٤ لى طـ	ـه ـر لا	لا ٩ ٣	ر ج		
د	٤ لح كـ	ر سع	لا ٤ طـ	ر ٤ ٣		
ه	٨ لح	لا طـ	و طـ طـ	٤ سع	ط	[illegible]
و			ر طـ ج	٨ ه		
ز			كـ لح	٤ ه		كـ

[illegible]

فقال رب اغفر لى ولاخى وادخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين (وروى) ان قوم لوط كانت فيهم عشرة خصال فاهلكهم الله بها كانوا يتغوطون فى الطرقات وتحت الاشجار المثمرة وفى المياه الجارية وفى شطوط الانهار وكانوا يخذفون الناس بالحصى فيدمونهم واذا اجتمعوا فى المجالس أظهروا المنكر باخراج الريح منهم واللطم على رقابهم وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا ويأتون بالطامة الكبرى وهى اللواطة قال الله تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر والنادى المجلس ويلعبون بالحمام ويرمون بالجلاهق وضرب الدف وشرب الخمور وقص اللحية وتطويل الشارب والتصفيق ولبس الحمرة وتزيد عليهم هذه الامة باتيان النساء بعضهن بعضا وانما حملهم على اتيان الرجال انهم كانت لهم ثمار كثيرة فى منازلهم وحوائطهم فاصابهم قحط وقلة من الثمار فقالوا باى شئ نمنع ثمارنا حتى لا يطرقها احد من الناس فاصطلحوا على ان من وجدوه فيها نكحوه وغرموه أربعة دراهم ففعلوا وما سبقهم بها أحد من العالمين قال ابن عباس فكان بدء الفاحشة فيهم أنهم هموا بذلك فعلمهم ابليس فى هيئة صبى أجمل شئ رآه الناس فنكحوه وتجرؤا على ذلك وقال أبو العتاهية أما والله ان الظلم لؤم * ولكن المسئ هو الظلوم الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

ثم تأخذ وتركل حرف بعد ضربه فى أسوس أوتاد الفلك الاربعة واحذر ما يلى الاوتاد وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو اول رتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات يبقى اس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهى عناصر الامداد يخرج افق النفس الاوسط وتطرح اول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط فى أفق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع اول عناصر الامداد الاصلى يبقى ثالث رتبة السريان فتضرب مجموع أجزاء العناصر الاربعة أبدا فى رابع مرتبة السريان يخرج اول عالم التفصيل والثانى فى الثانى يخرج ثانى عالم التفصيل والثالث فى الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل والرابع فى الرابع يخرج رابع عالم التفصيل فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ويقسم المنكسر على الافق الاوسط يخرج الجزء الثانى وما انكسر فهو الثالث ويتعين الرابع هذا فى الرباعى وان شئت اكثر من الرباعى فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الاوفاق بعد الحروف والله يرشدنا واياك وكذلك اذا قسم عالم التجريد على اول رتب السريان خرج الجزء الاول من عالم التركيب وكذلك الى نهاية الرتبة الاخيرة من عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد المعين * ومن طريقهم ايضا فى استخراج الجواب قال بعض المحققين منهم اعلم ايدنا الله واياك بروح منه ان علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم وللعمل به شرائط تلتزم وقد يستخرج العالم اسرار الخليقة وسرائر الطبيعة فيطلع بذلك على نتيجتى الفلسفة أعنى السيميا وأختها ويرفع له حجاب المجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد شهدت جماعة بارض المغرب ممن اتصل بذلك فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف فى الوجود بتأييد الله واعلم ان ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر مفتاح كل خير كما أن الخرق والعجلة رأس الحرمان فاقول اذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الفابيطوس اعنى أبجد الى آخر العدد وهذا أول مدخل من علم الحروف فانظر ما لذلك الحرف من الاعداد فتلك الدرجة التى هى مناسبة للحرف هى قوته فى الجسمانيات ثم اضرب العدد فى مثله تخرج لك قوته فى الروحانيات وهى وتره وهذا فى الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة لان المنقوطة منها مراتب لمعان يأتى عليها البيان فيما بعد واعلم ان لكل شكل من اشكال الحروف شكلا فى العالم العلوى اعنى الكرسى ومنها المتحرك والساكن والعلوى والسفلى كما هو مرقوم فى أماكنه من الجداول الموضوعة فى الزايرج واعلم ان قوى الحروف ثلاثة أقسام الاول وهو أقلها قوة تظهر بعد كتابتها فتكون كتابته لعالم روحانى مخصوص بذلك الحرف المرسوم فمتى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت قوى الحروف مؤثرة فى عالم الاجسام الثانى قوتها فى الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها فهى قوة فى الروحانيات العلويات وقوة شكلية فى عالم الجسمانيات الثالث وهو ما يجمع الباطن أعنى القوة النفسانية على تكوينه فتكون قبل النطق به صورة فى النفس بعد النطق به صورة فى الحروف وقوة فى النطق واما طبائعها فهى الطبيعيات المنسوبة للمتولدات فى الحروف وهى الحرارة واليبوسة والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والبرودة والرطوبة

سل الايام عن أمم تقضت * فتخبرك المعالم والرسوم (وروى) ان أنوشروان كان له معلم حسن التأديب فعلمه حتى فاق فى العلوم فضربه المعلم يوما من غير ذنب فاوجعه فحقد أنوشروان عليه فلما ولى الملك قال له ما حملك على ما صنعت من ضربى يوم كذا وكذا ظلما قال لما رأيتك ترغب فى العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فاحببت ان أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان زه

(الباب السابع والخمسون فى تحريم السعاية والنميمة وقبحهما وما يؤول اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة) قال الله تعالى ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم فذكر الله تعالى فى القرآن أصناف أهل الكفر والالحاد والتثليث وأهل الدهر والظلم والفسوق وأشباههم ولم ينسب الله سبحانه أحدا منهم الا النمام فى هذه الآية وحسبك بها خسة ورذيلة وسقوطا وضعة وهذه الآية نزلت فى الوليد ابن المغيرة فى أصح الاقوال والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم وقال الحسن البصرى هو الذى يغمز باخيه فى المجلس وهو الهمزة اللمزة والعتل فى اللغة الغليظ وأصله من العتل وهو الدفع بالقوة والعنف وقال على رضى الله عنه والحسن البصرى العتل الفاحش السيئ الخلق وقال ابن عباس العتل الفاتك الشديد المنافق وقال عبيد بن عمير العتل الاكول الشروب القوى الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة وقال يمان هو الجافى القاسى اللئيم العسر وقال مقاتل العتل الضخم وقال الكلبى الشديد فى كفره وعند العرب عتل وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل والزنيم هو الذى لا يعرف من ابوه قال حسان بن ثابت وأنت زنيم نيط فى آل هاشم * كما نيط خلف الراكب القدح الفرد (وقال غيره)

والرطوبة فهذا اسر العدد اليماني والحرارة جامعة للهواء والنار وهما ا ه ط م ف ش ذ ج ز ك س ق ث ظ والبرودة جامعة للهواء والماء ب و ى ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ واليبوسة جامعة للنار والارض ا ه ط م ف ش ذ ب و ى ن ص ت ض فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات باسباب الامهات الاول اعني الطبائع الاربع المنفردة فتى اردت استخراج مجهول من مسئلة ما فحقق طالع السائل اوطالع مسئلته واستنطق حروف اوتادها الاربعة الاول والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة واستخرج أعداد القوى والاوتاد كما سنبين واجمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب امابصريح اللفظ أو بالمعنى وكذلك في كل مسئلة تقع لك بيانه اذا اردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع اعدادها بالجمل الكبير فكان الطالع الحمل رابعه السرطان سابعه الميزان عاشره الجدى وهو أقوى هذه الاوتاد فاسقط من كل برج حرفي التعريف وانظر ما يخص كل برج من الاعداد المنطقة الموضوعة في دائرتها واحذف اجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية كلها وأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك ثم اعداد حروف العناصر الاربعة وما يخصها كالاول وارسم ذلك كله أحرفا ورتب الاوتاد والقوى والقرائن سطرا ممتزجا وكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضمير وجوابه مثاله افرض ان الطالع الحمل كما تقدم ترسم ح م ل فللحاء من العدد ثمانية لها النصف والربع والثمن د ب ا الميم لها من العدد أربعون لها النصف والربع والثمن والعشر ونصف العشر اذا أردت التدقيق م ك ى ه د اللام لها من العدد ثلاثون لها النصف والثلثان والثلث والخمس والسدس والعشر ك ى و ه ج وهكذا تفعل بسائر حروف المسئلة والاسم من كل لفظ يقع لك واما استخراج الاوتاد فهو ان تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد له مثاله حرف دله من الاعداد اربعة مربعها ستة عشر اقسمها على أعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية ثم تضع كل وتر مقابلا للحرف ثم تستخرج النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق ولها قاعدة تطرد في استخراجها من طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح والله أعلم

(فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية)

وذلك لو سأل سائل عن علة لم يعرف مرضه ما علته وما الموافق لبرئه منه فمر السائل ان يسمى ما شاء من الاشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة ان أردت التدقيق في المسئلة والا اقتصرت على الاسم الذي سماه السائل وفعلت به كما تبين فأقول مثلا سمى السائل فرسا فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة بيانه ان للفاء من العدد ثمانين ولها م ك ى ح ب ثم الراء لها من العدد مائتان ق ن ك ى ثم السين لها من العدد ستون ولها م ل ك قالوا وعدد تامله د ج ب والسين مثله ولها م ل ك فاذا بسطت حروف الاسماء وجدت عنصرين متساويين فاحكم لاكثرهما حروفا بالغلبة على الآخر ثم اجل

قوله لعل هذه عبارة بعض المشارقة لان هذا ترتيب المشارقة لاترتيب المغاربة الذي قدمه اه

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغي الام ذو حسب لئيم وقال أكثر النقلة هذا رجل انما أدعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة وعن هذا قال القدماء لا يكون غماما الاوفي نسبه شئ وسعى رجل الى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له انصرف حتى أكشف عنك فكشف عنه فاذا هو لغير رشدة يعني ولد زنا وقال أبوموسى الاشعري لا يبغي على الناس الاولد بغي وقيل الزنيم الذي له زنمة في عنقه يعرف بها كما تعرف الشاة قال ابن عباس لما وصفه الله تعالى بتلك الحال المذمومة لم يعرف حتى قيل زنيم فعرف لانه كانت له زنمة يعرف بها كما تعرف الشاة بزنمتها (ومن ذلك) قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى بني المصطلق بعد الوقعة وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فخرجوا يتلقونه تعظيما لامر النبي صلى الله عليه وسلم ففزع ورجع الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال منعوني صدقاتهم وأرادوا قتلي فغضب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ثم كشف أمرهم فوجدما قاله كذبا فنزلت هذه الآية وسماه الله تعالى فاسقا (ومن ذلك) قول الله سبحانه سماعون للكذب أكالون للسحت فشرك الله تعالى بين السامع والقائل في القبح وساوى بينهم في الذم فكان فيه تنبيه على ان السامع نمام في الحكم (وأما ما روي فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم) فروى مسلم في الصحيح قال همام كنا مع حذيفة فقيل له ان رجلا يرفع الحديث الى عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال حذيفة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة قتات وفي لفظ آخر نمام وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الا أخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال من شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب

فكان يمشي بالنميمة فاخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين فغرز في كل قبر واحدة فقالوا يا رسول الله لم فعلت هذا قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا وذلك ابركة يده صلى الله عليه وسلم (وأما السعاية) الى السلطان والى كل ذي قدرة ومكنة فهي المهلكة والحالقة تجمع الى الخصال المذمومة الغيبة ولؤم النميمة والتغرير بالنفوس والاموال والقدح في المنازل والاحوال وتسلب العزيز عزه وتحط المكين عن مكانته والسيد عن مرتبته فكم من دم اراقه سعي ساع وكم حريم استبيح بنميمة باغ وكم من صفيين تقاطعا ومن متواصلين تباعدا ومن محبين تباغضا ومن القين تهاجرا ومن زوجين افترقا فليتق الله ربه رجل ساعدته الايام وتراخت عنه الاقدار ان يصيخ لساع او يسمع لنمام وروى ابن قتيبة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث والاقلاع فالديوث الذي يجمع بين النساء والرجال سمي بذلك لانه يدث بينهم

عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك اسم الطالب واحكم للاكثر والاقوى بالغلبة

وصفة قوى استخراج العناصر

بياض بالاصل

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة واليبوسة طبع السوداء فتحكم على المريض بالسوداء فاذا الفت من حروف الاستنطاق كلاما على نسبة تقريبية خرج موضع الوجع في الحلق و يوافقه من الادوية حقنة ومن الاشربة شراب الليمون هذا ما خرج من قوى أعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر وأما استخراج قوى العناصر من الاسماء العلمية فهو أن تسمي مثلا محمدا فترسم احرفه مقطعة ثم تضع اسماء العناصر الاربعة على ترتيب الفلك يخرج لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد ومثاله

ناري	ترابي	هوائي	مائي
ا ا ا	ب ب ب	ج ج ج ج ج ج	د د د د د د
ه ه ه	و و و	ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح ح
ط ط ط	ى ى ى	ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن	ص ص ص ص ص ص	ع ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض	ق ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر
س س س	ت ت ت	ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ظ ظ ظ	غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لان عدد حروفه عشرون حرفا فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور وهكذا يفعل بجميع الاسماء حينئذ تضاف الى اوتارها والوتر المنسوب للطالع في الزايرجة اولوتر البيت المنسوب لمالك بن وهيب الذي جعله قاعدة لمزج الاسئلة وهو هذا

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام واصحابه وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية وصفة العمل بهذا الوتر المذكور ان ترسمه مقطعا ممتزجا بالفاظ السؤال على قانون صنعة التكسير وعدة حروف هذا الوتر اعني البيت ثلاثة واربعون حرفا لان كل حرف مشدد من حرفين ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الاصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفا بما ثله وتثبت الفضلتين سطرا ممتزجا بعضه ببعض الحروف الاول من فضلة القطب والثاني من فضلة السؤال حتى يتم الفضلتان جميعا فتكون ثلاثة واربعين فتضيف اليها خمس نونات ليكون ثمانية واربعين لتعدل بها الموازين الموسيقية ثم تضع الفضلة على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الاصلي قبل الحذف

والقلاع الساعي الذي يقع في الناس عند الامراء لانه يقصد الرجل المتمكن عند السلطان فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه (وقال) كعب أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى صلى الله عليه وسلم فخرج موسى يستسقي ببني اسرائيل فلم يسقوا ثم خرج ثانية فلم يسقوا ثم خرج الثالثة فاوحى الله تعالى اليه اني لا استجيب لك ولا لمن معك فان فيكم نماما فقال يا رب من هو

الحذف فالعمل صحيح ثم عمر بما مزجت جدولا مربعا يكون آخر ما فى السطر الاول اول ما فى السطر الثانى وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف فى القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتركل حرف كما تقدم وتضعه مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الاول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذى حل فيه فان اتفقت فحسن والا فاستخرج بين الحرفين نسبة ويتسع هذا القانون فى جميع الحروف الجدولية وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر فى دوائرها الموسيقية ثم تأخذ وتركل حرف بعد ضربه فى أسوس اوتاد الفلك الاربعة كما تقدم واحذر ما يلى الاوتاد وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة وهذا الذى يخرج لك هو أول مراتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسواس المولدات يبقى اس عالم الخلق بعد عروضه للادالكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهى عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح اول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط فى افق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه اول رتب السريان ثم تطرح من الرابع اول عناصر الامداد الاصلى يبقى ثالث رتبة السريان ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الاربعة ابدا فى رابع رتب السريان يخرج اول عالم التفصيل والثانى فى الثانى يخرج ثانى عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ومن هنا يطرد العمل فى التامة وله مقامات فى كتب ابن وحشية والبونى وغيرهما وهذا التدبير يجرى على القانون الطبيعى الحكمى فى هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الالهية وعليه مدار وضع الزايرجة الحرفية والصنعة الإلهية والنيرجات الفلسفية والله الملهم وبه المستعان وعليه التكلان وحسبنا الله ونعم الوكيل

٢٤ *(علم الكيمياء)*

وهو علم ينظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذى يوصل الى ذلك فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة امزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلا عن المعادن ثم يشرح الاعمال التى تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الاجسام الى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وامهاء الصلب بالفهر والصلاية وامثال ذلك وفى زعمهم انه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعى يسمونه الاكسير وانه يلقى منه على الجسم المعدنى المستعد لقبول صورة الذهب او الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد ان يحمى بالنار فيعود ذهبا ابريزا ويكنون عن ذلك الاكسير اذا الغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذى يلقى عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعى الذى يقلب هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء ومازال الناس يؤلفون فيها قديما وحديثا وربما يعزى الكلام فيها الى من ليس من اهلها وامام المدونين فيها جابر بن حيان حتى انهم يخصونها به فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة

حتى تخرجه من بيننا فاوحى الله تعالى اليه يا موسى أنها كم عن النميمة وآتيها فتابوا فارسل الله سبحانه عليهم الغيث * ولما لقى أسقف نجران عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له يا أمير المؤمنين احذر قاتل الثلاثة قال ومن قاتل الثلاثة قال الرجل يأتى الامام بالحديث الكذب فيقبله الامام فيكون قد قتل نفسه وصاحبه وامامه فقال عمر ما أراك أبعدت ووجدنا فى حكم القدماء أبغض الناس الى الله المثلث قال الاصمعى هو الرجل يسعى بالنميمة باخيه الى الامام فيهلك نفسه وأخاه وامامه (وذكرت السعاية) عند المأمون فقال لو لم يكن من عيبهم الا انهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكون عند الله تعالى * وقال حكيم الفرس الصدق زين كل احد الا السعاة فان الساعى أذم وآثم ما يكون اذا صدق (وروى) ان رجلا سعى بجار له عند الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد أما انت فتخبرنا انك جار سوء ان شئت ارسلنا معك فان كنت صادقا أبغضناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان شئت تاركناك قال تاركنى يا أمير المؤمنين قال قد تاركناك * ولله در الاسكندر حين وشى اليه واش برجل فقال له الاسكندر ان شئت قبلناك على صاحبك بشرط ان نقبله عليك وان شئت أقلناك قال أقلنى قال قد أقلناك كف عن الشر يكف عنك الشر (ومن العجب) الذى لا عجب بعده ان الرجل يشهد عندك فى باقة بقل فلا تقبله حتى تسأل الناس عنه هل هو من أهل الثقة والعدالة والامانة والصيانة ثم ينم عندك بحديث فيه الهلاك وفساد الاحوال فتقبله * وقال يحيى ابن زيد قلت للحسن بن على رضى الله عنهما ما سقى السم أخبرنى من سقاك فدمعت عيناه وقال أنا فى آخر قدم من الدنيا وأول قدم من الآخرة تأمرنى ان اغمز * قال رجل للمهدى عندى نصيحة يا أمير المؤمنين قال لمن نصيحتك هذه النا أم لعامة المسلمين أم لنفسك قال لك

يا أمير المؤمنين قال المهدي ليس الساعي باعظم عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته ولا تخلو من ان تكون حاسد نعمة فلا نشفي لك غيظا اوعدوا فلا نعاقب لك عدوك ثم أقبل على الناس وقال أيها الناس لا ينصح لنا ناصح الا بما الله فيه رضا وللمسلمين فيه صلاح (وروى) ان ساعيا سعى برجل الى الفضل بن سهل فوقع على ظهر كتابه نحن نرى قبول السعاية أشر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شئ كمن قبل وأجاز لان من فعل أشر ممن قال (ويروى) ان رجلا رفع الى المنصور نصيحة فوقع على ظهرها هذه نصيحة لم يرد بها وجه الله تعالى ولا جواب عندنا لمن آثرنا على الله تعالى (وروى) ان رجلا قال للمأمون يا أمير المؤمنين الله الله في أصحاب الاخبار فانهم قوم ان أعطوا كذبوا وان حرموا كذبوا فان أعطوا مدحوا وهم كاذبون وان حرموا ذموا وهم كاذبون فقال المأمون لله درها من كلمة ما أقصدها وأبين فضلها وأمر ان تثبت في أمور أصحاب الاخبار (وقال مروان بن زنباع) العبسي يا بني عبس احفظوا عني ثلاثا من نقل اليكم نقل عنكم واياكم والتزويج في البيوتات السوء واستكثروا من الصديق ما استطعتم واستقلوا من العدو ما استطعتم فان استكثاره ممكن *وقال بعض الحكماء احذروا اعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون اذا سرق اللصوص المتاع سرقوا المودات *وقال حكيم العرب اياك والسعاة فانهم اعداء عقلك ولصوص عدلك فيفرقون بين قولك وفعلك (وفي المثل السائر) من اطاع الواشي ضيع الصديق وقد يقطع الشجر فينبت ويقطع اللحم بالسيف فيندمل واللسان لا يندمل جرحه واحق الناس برعاية ما رعيته من هذه الخلال ونقلته من هذه الحكم واستودعته من هذه السير من آتاه الله سلطانا

كلها شبيهة بالالغاز وزعم وانه لا يفتح مقفلها الا من احاط علما بجميع ما فيها والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع اهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسلمة المجريطي من حكماء الاندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قرينا لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة اجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تآليفهم هي الغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك ونحن نذكر سبب عدولهم الى هذه الرموز والالغاز ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من ابدع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الاحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح لان الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون اليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين ان خالدا من الجيل العربي والبداوة اليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن * وأنا أنقل لك هنا رسالة ابي بكر بن بشرون لابي السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على ماذهب اليه في شأنها اذا اعطيته حقه من التأمل قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الاولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الاحجار والجواهر وطباع البقاع والاماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج اليه فنبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم ان يعلموا أولا ثلاث خصال أولها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فاذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم فأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به اليك من الاكسير وأما من أي شئ تكون فانما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل موجودا من كل شئ بالقوة لانها من الطبائع الاربع منها تركبت ابتداء واليها ترجع انتهاء ولكن من الاشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك ان منها ما يمكن تفصيله ومنها ما لا يمكن تفصيلها فالتي يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة الى الفعل والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لانها فيها بالقوة فقط وانما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفقك الله أن تعرف أوفق الاحجار المنفصلة التي لا يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه الاصول التي هي عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير أبدا وينبغي لك ان تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره او يكتفى به وحده وهل هو واحد في الابتداء او شاركه غيره فصار في التدبير واحدا فسمي حجرا وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه وأزمانه وكيف تركيب الروح فيه وادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها فان لم تقدر فلأي علة وما السبب الموجب لذلك

فان

فان هذا هو المطلوب فافهم * واعلم ان الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت انها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك ان الجسد اذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره لانه لا حياة فيه ولا نور وانما ذكرت الجسد والنفس لان هذه الصفات شبيهة بجسد الانسان الذي تركيبه على الغداء والعشاء وقوامه وتمامه بالنفس الحية النورانية التي بها يفعل العظائم والاشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها وانما انفعل الانسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لسلمت من الاعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولكان خالدا باقيا فسبحان مدبر الاشياء تعالى * واعلم ان الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضية محتاجة الى الانتهاء وليس لها اذا صارت في هذا الحد ان تستحيل الى ما منه تركبت كما قلناه آنفا في الانسان لان طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضا وصارت شيئا واحدا شبيها بالنفس في قوتها وفعلها وبالجسد في تركيبه ومجسته بعد ان كانت طبائع مفردة باعيانها فيا عجبا من افاعيل الطبائع ان القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الاشياء وتركيبها وتمامها فلذلك قلت قوي وضعيف وانما وقع التغيير والفناء في التركيب الاول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق وقد قال بعض الاولين التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لان الحكيم أراد بقوله حياة وبقاء خروجه من العدم الى الوجود لانه ما دام على تركيبه الاول فهو فان لا محالة فاذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء والتركيب الثاني لا يكون الا بعد التفصيل والتقطيع فاذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة فاذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها وذلك انه لا وزن له فيه وسترى ذلك ان شاء الله تعالى وقد ينبغي لك أن تعلم ان اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ وانما أريد بذلك التشاكل في الارواح والاجساد لان الاشياء تتصل باشكالها وذكرت لك ذلك لتعلم ان العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجسمانية وقد يتصور في العقل ان الاحجار أقوى وأصبر على النار من الارواح كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الارواح فاقول ان الاجساد قد كانت أرواحا في بدئها فلما أصابها حر الكيان قلبها أجسادا لزجة غليظة فلم تقدر النار على أكلها لافراط غلظها وتلزجها فاذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحا كما كانت أول خلقها وان تلك الارواح اللطيفة اذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها فينبغي لك أن تعلم ما صير الاجساد في هذه الحالة وصير الارواح في هذا الحال فهو أجل ما تعرفه * أقول انما أبقت تلك الارواح لاشتعالها ولطافتها وانما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولان النار اذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لانها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتذي بها الى أن تفنى وكذلك الاجساد اذا أحست بوصول النار اليها لقلة تلزجها وغلظها وانما صارت تلك الاجساد لا تشتعل لانها مركبة من أرض وماء صابر على النار فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للاشياء وذلك ان كل متلاش انما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما وانما وصفت ذلك لتستدل به

ومكن له في الارض قدما فذو القدرة اذا أطاع الواشي هلك العالم (وكان) بعض الحكماء يقول من أراد أن يسلم من الاثم ويبقى له الاخوان فيجعل نفسه بينه وبينهم قاضيا عدلا ويحكم بالعدل ولا يقبل أحدا في أحد ولا في نفسه الا ببينة وتعديل فانا قد أحببنا بقول أقوام وأبغضنا بقول آخرين فاصبحنا نادمين * ومن لطيف حكمة الله تعالى في النميمة لما علم من شؤمها واستطارة شررها وعموم مضرتها في الورى حكم بفسق النمام حتى لا يقبل له قول فيستريح الخلق من شره (وقال) ابن عمر وفد الله الحاج ووفد الشيطان قوم يرسلهم السلطان الى الناس ويسألهم عن حالهم فيخبرونه ان الناس راضون وليسوا براضين واعلموا أن الله تعالى خلق الانسان على المحاشي لسنا نذكرها الآن لكثرتها وطول تتبعها فخلق الله الحواس الشريفة والاعضاء النافعة النفيسة في أفضل ما ركب فيه الانسان الذي هو آلة النطق والبيان وبه فصل بينه وبين البهائم ثم فضله على سائر الحيوان وامتن عليه في اول سورة الرحمن فقال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وخلق فيه أعضاء تذال وتستهان وجعلها مجرى لفضول الطعام والشراب فمن يتبع سقطات الكلام ويروي عثرات الانام التي هي كالعورات الواجب سترها ودفنها كان قد استعمل أشرف الآلات في أخص المستعملات فصار كمن لحس بلسانه سوأة أخيه وجعل أكرم جوارحه لاخس أجناس المستعرضين ورضي ان يقع من الناس موقع الذباب من الطير يتتبع ثقل الجسد ويتحامى صحيحه وقد كان له في نشر المحاسن شغل ولكن أهل كل ذي حال أولى بها وفي هذا سبق المثل ان لم تكن ملحا تصلح فلا تكن ذبابا تفسد ومن لم يقدر

على جميع الفضائل فلتكن همته ترك الرذائل واذا تتبع الامام عورات الناس أفسدهم (وروى) ان النبي صلى الله عليه وسلم هم بالخروج يوما فسمع قوما من أصحابه يضحكون فامتنع من الخروج اليهم حذرا أن لا يفسد قلبه عليهم ولو علم الذى يسمع أخبار الناس ما يجنى على نفسه لعلم ان الاصم كان أهنأ (٣٢٢) لعيشه وأنعم لباله من سماع الاخبار يا واحدا ماذا عمل نقلة الاخبار رحلوا اليك الصدق او الكذب فتكون فى سماع الكذب ممن قال الله تعالى فيه سماعون للكذب أكالون للسحت وتكون فى سماع الصدق حمالا للهم حرج الصدر على الخلق معاديا لهم متتبعا العثرات الخلق وخزانا لسقطاتهم قد وعيت منهم ما يجب ستره وحفظت ما يجب نسيانه ثم لا تستطيع النصفة من قائل لانك ان كنت ذا قدرة أهلكت الرعية ثم لا تستطيع ان تهلك جميع الرعية وان كنت سوقة لم يشف غيظك ثم أفسدت اخوانك وابغضت من يجب أن تحبه وأحببت من يجب أن تبغضه ثم لا تزال تحمل الحسائف وتزيد الاحقاد والضغائن وترصد لكل قائل يوما يشفى صدرك فيه فما أغنى العاقل عن هذه البلية ولله در عمرو بن العاص روى انه لاحاه رجل يوما فقال له الرجل أما والله ان عشت لاتفرغن لك فقال له عمرو بن العاص الآن وقعت فى الشغل يا ابن أخى

* (الباب الثامن والخمسون فى القصاص وحكمته) *

قال الله تعالى ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب يعنى اذا علم القاتل والقاطع انه يقتص منه أحجم ولم يقدم على الفعل فيكون فى ذلك حياته وحياة الذى هم به (وروى) ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اول ما يقضى بين الناس فى الدماء وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من كانت عنده لاخيه مظلمة فليتحلله منها فانه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل

على تركيب الطبائع وتقابلها فاذا علمت ذلك علما شافيا فقد أخذت حظك منها وينبغى لك أن تعلم ان الاخلاط التى هى طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها البعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب فى الجزء منه ولا فى الكل كما قال الفيلسوف انك اذا أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريبا فقد أحكمت ما اردت احكامه وقوامه اذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها فمن أدخل عليها غريبا فقد زاغ منها ووقع فى الخطا * واعلم ان هذه الطبيعة اذا حل لها جسد من قرائنها على ما ينبغى فى الحل حتى يشاكلها فى الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى لان الاجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاوج وحل الاجساد لا يكون بغير الارواح فافهم هداك الله هذا القول واعلم هداك الله أن هذا الحل فى جسد الحيوان هو الحق الذى لا يضمحل ولا ينتقص وهو الذى يقلب الطبائع ويمسكها ويظهر لها الوانا وازهارا عجيبة وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لانه مخالف للحياة وانما حله بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ وتنقلب الطبائع عن حالاتها الى ما لها أن تنقلب من اللطافة والغلظ فاذا بلغت الاجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق فى أوله فلا خير فيه واعلم ان البارد من الطبائع هو ييبس الاشياء ويعقد رطوبتها والحار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها وانما أفردت الحر والبرد لانهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الاجسام وتتكون وان كان الحر أكثر فعلا فى ذلك من البرد لان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت علة التكون وهو الحرارة لم يتم منها شئ أبدا كما انه اذا افرطت الحرارة على شئ ولم يكن ثم برد أحرقته واهلكته فمن أجل هذه العلة احتيج الى البارد فى هذه الاعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة أكثر شئ الا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والانفاس واخراج دنسها ورطوبتها ونفى آفاتها واوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم فانما عملهم انما هو مع النار أولا واليها يصير آخرا فلذلك قالوا اياكم والنيران المحرقات وانما أرادوا بذلك نفى الآفات التى معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون اسرع لهلاكه وكذلك كل شئ انما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه الا قهرته الآفة وأهلكته واعلم ان الحكماء كلها ذكرت ترداد الارواح على الاجساد مرارا ليكون ألزم اليها وأقوى على قتال النار اذا هى باشرتها عند الالفة أعنى بذلك النار العنصرية فاعلمه * ولنقل الآن على الحجر الذى يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم انه فى الحيوان ومنهم من زعم انه فى النبات ومنهم من زعم انه فى المعادن ومنهم من زعم انه فى الجميع وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة الى استقصائها ومناظرة اهلها عليها لان الكلام يطول جدا وقد قلت فيما تقدم ان العمل يكون فى كل شئ بالقوة لان الطبائع موجودة فى كل شئ فهو كذلك فنريد أن تعلم من أى شئ يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد الى ما قاله الحرانى ان الصبغ كله أحد صبغين اما صبغ جسد كالزعفران فى الثوب الابيض حتى يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب والصبغ الثانى تقليب الجوهر من جوهر نفسه الى جوهر غيره ولونه كتقليب الشجر بل التراب الى نفسه وقلب الحيوان والنبات الى نفسه حتى يصير التراب نباتا والنبات حيوانا

أن يؤخذ لاخيه من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيآت أخيه فطرحت عليه وهذا حديث صحيح رواه البخاري فان قيل
يعارضه قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى فكيف يؤخذ الظالم بذنب ركبه المظلوم قلنا معنى الآية لا يعاقب أحد بذنب أحد ابتداء
واما في مسئلتنا فظلمة بقيت عنده وليس له وفاء بها فهو الذي اكتسب هذا الوزر وهو المعنى بقوله تعالى وليحملن أثقالهم

حيوانا ولا يكون الا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الاجرام وقلب الاعيان فاذا كان هذا هكذا
فنقول ان العمل لا بد أن يكون اما في الحيوان واما في النبات وبرهان ذلك انهما مطبوعان على الغذاء
وبه قوامهما وتمامهما فاما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء
فيه وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك ان المعدن يستحيل نباتا والنبات يستحيل
حيوانا والحيوان لا يستحيل الى شئ هو ألطف منه الا أن ينعكس راجعا الى الغلظ وانه أيضا لا يوجد في
العالم شئ تتعلق به الروح الحية غيره والروح ألطف ما في العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان الا بمشاكلتها اياها
فاما الروح التي في النبات فانها يسيرة فيها اغلاظ وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لاغلاظها واغلاظ
جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلاظه وغلاظ روحه والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيرا وذلك
ان المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا تجري اذا قيست
بالروح الحية الا كالارض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل في الحيوان أعلى وارفع واهون
وايسر فينبغي للعاقل اذا عرف ذلك ان يجرب ما كان سهلا ويترك ما يخشى فيه عسرا واعلم ان الحيوان
عند الحكماء ينقسم اقساما من الامهات التي هي الطبائع والحديثة التي هي المواليد وهذا معروف متيسر
الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساما حية واقساما ميتة فجعلوا كل متحرك فاعلا حيا
وكل ساكن مفعولا ميتا وقسموا ذلك في جميع الاشياء وفي الاجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية فسموا
كل شئ يذوب في النار ويطير ويشتعل حيا وما كان على خلاف ذلك سموه ميتا فاما الحيوان والنبات
فسموا كل ما انفصل منها طبائع اربعا حيا وما لم ينفصل سموه ميتا ثم انهم طلبوا جميع الاقسام الحية فلم
يجدوا الوفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولا اربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوه غير الحجر الذي في الحيوان
فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه واخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذي أرادوا وقد يتكيف مثل هذا في
المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك فاما النبات فمنه ما ينفصل بعض هذه
الفصول مثل الاشنان وأما المعادن ففيها أجساد وارواح وانفاس اذا خرجت ودبرت كان منها ماله تأثير
وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وارفع وتدبيره اسهل وايسر فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر
الموجود في الحيوان وطريق وجوده انا بينا ان الحيوان ارفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه
كالنبات من الارض وانما كان النبات ألطف من الارض لانه انما يكون من جوهره الصافي وجسده
اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب وبالجملة فانه ليس
في الحيوان شئ ينفصل طبائع اربعا غيره فافهم هذا القول فانه لا يكاد يخفى الا على جاهل بين الجهالة ومن
لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر واعلمتك جنسه وأنا ابين لك وجوه تدابيره حتى يكمل الذي شرطناه
على انفسنا من الانصاف ان شاء الله سبحانه (التدبير على بركة الله) خذ الحجر الكريم فاودعه القرعة
والانبيق وفصل طبائعه الاربع التي هي النار والهواء والارض والماء وهي الجسد والروح والنفس
والصبغ فاذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارفع كل واحد في انائه على حدة وخذ الهابط
أسفل الاناء وهو الثقل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفاؤه وبيضه
تبييضا محكما وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه فانه يصير عند ذلك ماء ابيض لا ظلمة فيه ولا وسخ

وأثقالا مع أثقالهم وروى
أبو سعيد الخدري أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال
يخلص المؤمنون من النار
فيحبسون على قنطرة بين
الجنة والنار ليقتص لبعضهم
من بعض مظالم كانت بينهم
في الدنيا حتى اذا هذبوا
ونقوا أذن لهم في دخول
الجنة فوالذي نفسي بيده
لاحدهم اهدى لمنزله في
الجنة منه بمنزله في الدنيا
وروى أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال قبل موته
من كانت له عندي مظلمة
فليأت حتى اقصه من
نفسي فقام سواد بن غزية
فقال يا رسول الله انك
ضربتني على بطني ليلة
العقبة فاوجعتني فقال
النبي صلى الله عليه وسلم
دونك فاقتص فقال
يا رسول الله انك ضربتني
وأنا مكشوف البطن فكشف
النبي صلى الله عليه وسلم
بطنه فاذا هو كالقباطي
يعني ثياب مصر فاكب
عليه يقبله فقال يا سواد
ما حملك على هذا فقال
يا رسول الله دنا لقاء هؤلاء
المشركين ولا ندري فأردت
أن يكون آخر العهد بك

أن أقبل بطنك فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لعلمه ان الله تعالى
لا يدع القصاص في المظالم بين العباد لان الله تعالى أعدل من أن يدع مظلمة لاحد عند نبي ولا غيره وفي الحديث يقول الله تعالى يوم
القيامة أنا الظالم ان فاتني ظلم ظالم ويروى أن داود عليه السلام يقدمه خصمه الى الله يوم القيامة فيقضي له عليه فيدفعه الى أوريا سلما

ثم يستوهبه الله تعالى من أوزيا ثم يعوض أوزيا على ذلك الجنة وقال حبيب دخل عثمان بن عفان رضي الله عنه فوجد غلاما له يعلف
ناقة له وإذا في علفها شيء فأخذ بأذنه فعركها ثم ندم فقال للغلام قم فاقتص مني فأبى الغلام فلم يزل به حتى قام فأخذ بأذنه ثم قال يعركه
وهو يقول شد شد حتى عرف عثمان (٣٢٤) أنه قد بلغ منه ثم قال واها القصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة (روى) عون بن عبد
الله أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا خادما له فلم يجبه أو كان نائما فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا القصاص لأوجعتك ضربا وروى ابن وهب في موطئه عن ابن شهاب قال وقد أقاد النبي صلى الله عليه وسلم والخليفتان من أنفسهم ليستنبهم ولم يتعمدوا حيفا أو كانوا سلاطين ومن صحيح مسلم روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار قال مالك وبلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما ولي الخلافة ضرب رجلا ثم ندم وقال مالي ولهذا الا رددتها عليهم
فسمعته عائشة فأرسلت إلى عمر فجاءه عمر فقال له إني قد ضربت رجلا وقد كنت مغنى من هذا أمثال
أن أضرب فقال عمر كذلك الإمام فقال فما المخرج قال أن تأتي الرجل فتسأله أن يجعلك في حل فأتاه فاستحلاه دلت الآثار على أن
الآمر والمأمور في القصاص سواء إذا جنى أحدهما على الآخر وإن الأمير إذا ظلم المأمور زال تأمره عليه في ذلك المعنى وكان الأمير في

ولا تضاد ثم اعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه فطهرها أيضا من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلطف وترق وتصفو فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ بالتركيب الذي عليه مدار العمل وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير شيئا واحدا لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على إمساك اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتصبر عليها وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والدبيب فيها وإنما وجد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في بعض لتشاكلها فصار شيئا واحدا ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس إذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئا واحدا لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه فإذا لقي هذا المركب الجسد المحلول وألح عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فإذا أرادت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها فإن النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصا وكذلك الماء من شأنه النفور من النار فإذا ألحت عليه النار وأرادت تطييره حبسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران فكان الجسد علة لإمساك الماء والماء علة لبقاء الدهن والدهن علة لثبات الصبغ والصبغ علة لظهور الدهن وإظهار الدهنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضة وإياها يعنون لا بيضة الدجاج * واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوما وليس عنده غيري فقلت له أيها الحكيم الفاضل أخبرني لأي شيء سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة اختيارا منهم لذلك أم لمعنى دعاهم إليه فقال بل لمعنى غامض فقلت أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه فإنه سيظهر لك معناه فبقيت بين يديه مفكرا لا أقدر على الوصول إلى معناه فلما رأى ما بي من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة وقال لي يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الألوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها فلما قال ذلك انجلت عني الظلمة وأضاء لي نور قلبي وقوي عقلي على فهمه فنهضت شاكرا لله عليه إلى منزلي وأقمت على ذلك شكلا هندسيا يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة وأنا واضعه لك في هذا الكتاب مثال ذلك أن المركب إذا تم وكمل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء إلى ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار إلى ما في البيضة من طبيعة النار وكذلك الطبيعتان الأخريان الأرض والماء فأقول إن كل شيئين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوح فإذا أردنا ذلك فإنا نأخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة اليبوسة ونضيف إليها مثلها من طبيعة الرطوبة وندبرهما حتى تنشف طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة وتقبل قوتها وكان في هذا الكلام رمز ولكنه لا يخفى عليك ثم تحمل عليهما جميعا مثليهما من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة

امثال ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلا من طبيعة الهواء التى هى النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة بالقوة وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذى طبيعته محيطة بسطح المركب طبيعتين فتجعل أولا الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا ا ح د وسطح ابجد وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هزوح فأقول ان سطح ابجد يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء التى تسمى نفسا وكذلك بح من سطح المركب والحكماء لم تسم شيأ باسم شئ الا لشبهه به والكلمات التى سألت عن شرحها الارض المقدسة وهى المنعقدة من الطبائع العلوية والسفلية والنحاس هو الذى اخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم حمر بالزاج حتى صار نحاسا والمغنيسيا حجرهم الذى تجمد فيه الارواح وتخرجه الطبيعة العلوية التى تستجن فيها الارواح لتقابل عليها النار والفرفرة لون أحمر قان يحدثه الكيان والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة فالواحدة روحانية نيرة صافية وهى الفاعلة والثانية نفسانية وهى متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الاولى ومركزها دون مركز الاولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة الى مركز الارض لثقلها وهى الماسكة الروحانية والنفسانية جميعا والمحيطة بهما واما سائر الباقية فمبتدعة ومخترعة الباسا على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها فهذا جميع ما سألتنى عنه وقد بعثت به اليك مفسرا ونرجو بتوفيق الله ان تبلغ املك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطى شيخ الاندلس فى علوم الكيمياء والسيمياء والسحر فى القرن الثالث وما بعده وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها فى الصناعة الى الرمز والالغاز التى لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية * والذى يجب ان يعتقد فى أمر الكيمياء وهو الحق الذى يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها فى عالم الطبيعة اما من نوع الكرامة ان كانت النفوس خيرة او من نوع السحر ان كانت النفوس شريرة فاجرة فاما الكرامة فظاهرة واما السحر فلان الساحر كما ثبت فى مكان تحقيقه يقلب الاعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحرى فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب او الشعر او النبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون فى الحبال والعصى وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود فى قاصية الجنوب والترك فى قاصية الشمال انهم يسحرون الجو للامطار وغير ذلك * ولما كانت هذه تخليقا للذهب فى غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه من اعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الامم انما نحوا هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه ألغازا حذرا عليها من انكار الشرائع على السحر وأنواعه لا أن ذلك يرجع الى الضنانة بها كما هو رأى من لم يذهب الى التحقيق فى ذلك وانظر كيف سمى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه فى السحر والطلسمات غاية الحكيم اشارة الى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لان الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها فى الموضوعات ومن كلامه فى الفنين يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم ان مدارك هذا الامر بالصناعة الطبيعية والله العليم الخبير

٢٥ *(فصل فى ابطال الفلسفة وفساد منتحلها)*

ذلك المعنى كبعض المؤمر عليهم حتى يتحاكوا الى السلطان الاعظم وكان عمر يقول انما بعثت أمرائى ليعلموا الناس دينهم ويقسموا بينهم فيئهم ويعدلوا فيهم ولم أبعثهم ليضربوا أبشارهم ويحلقوا أشعارهم فمن ظلمه أمير فلا امرة عليه دونى حتى آخذ له بحقه قال عمرو بن العاص الله الله يا امير المؤمنين ان أدب رجل رجلا من رعيته انك لتقصه منه فقال عمر كيف لا اقصه منه وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه (فاما القصاص بين البهائم) فاختلف الناس فى حشرها وفى جريان القصاص بينها فكان ابن عباس يقول حشرها موتها قال وحشر كل شئ الموت الا الجن والانس فانهما يوقفان يوم القيامة وقال معظم المفسرين انها تحشر ويقتص منها قال ابن حبيب تحشر البهائم وقال قتادة يحشر كل شئ حتى الذباب وقال أبو الحسن الاشعرى لا نقطع باعادة البهائم والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة ويجوزان يعادوا ويدخلوا الجنة ويجوزان لا يعادوا والدليل على ثبوت الاعادة فى الجملة قوله تعالى واذا الوحوش حشرت وقال تعالى وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم الى ان قال ثم الى ربهم يحشرون (وروى) مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء وقال أبو ذر انتطحت شاتان عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أتدرون فيما انتطحتا قلت لا أدرى قال لكن الله يدرى وسيقضى بينهما قال أبو ذر لقد تركنا النبى صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه فى السماء الا ذكرنا منه علما وقال أبو ذر ان الحجر ليسئل عن نكبة اصبع الرجل وفى الحديث الصحيح فى مسلم والبخارى وغيرهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يأتينى أحدكم على رقبته بعير له رغاء على رقبته بقرة لها خوار او على رقبته شاة تيعر

ثم بسط لها بقاع قرقر فتطؤه باظلافها وتنطحه بقرونها كلما مرت عليه أولاها عادت أخراها والحديث وارد في مانع الزكاة وقال أبو الحسن
لا تجوز المقاصة بين البهائم لانها غير مكلفة ولا يجري عليها القلم قال وما ورد في ذلك من الاخبار نحو قوله صلى الله عليه وسلم يقتص للجماء
من القرناء ويسئل العود لم خدش العود فعلى سبيل المثل والاخبار عن شدة التقصي في الحساب وانه لابد ان يقتص للمظلوم
من الظالم وأبى ذلك الاستاذ

هذا الفصل وما بعده مهم لان هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير فوجب ان يصدع بشأنها و يكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك ان قوما من عقلاء النوع الانساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وماوراء الحسي تدرك ذواته واحواله باسبابها وعللها بالانظار الفكرية والاقيسة العقلية وان تصحيح العقائد الايمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فانها بعض من مدارك العقل وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على اصابة الغرض منه و وضعوا قانونا يهتدي به العقل في نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ومحصل ذلك ان النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل انما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها اولا صورا منطبقة على جميع الاشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين او شمع وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الاوائل ثم تجرد من تلك المعاني الكلية اذا كانت مشتركة مع معاني اخرى وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معاني أخرى وهي التي اشتركت بها ثم تجرد ثانيا ان شاركها غيرها وثالثا الى ان ينتهي التجريد الى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الاجناس العالية وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثواني فاذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة وطلب تصور الوجود كما هو فلا بد للذهن من اضافة بعضها الى بعض ونفي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل تصور الوجود تصورا صحيحا مطابقا اذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر وصنف التصديق الذي هو تلك الاضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم لان التصور التام عندهم هو غاية الطلب الادراكي وانما التصديق وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم ارسطو ثم يزعمون ان السعادة في ادراك الموجودات كلها ما في الحس وماوراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين * وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت اليه وهو الذي فرعوا عليه قضايا انظارهم انهم عثروا أولا على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس ثم ترقى ادراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ووقف ادراكهم فقضوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذات الانسانية و وجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للانسان ثم انهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد اول مفرد وهو العاشر و يزعمون أن السعادة في ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل وان ذلك ممكن للانسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الافعال بمقتضى عقله ونظره وميله الى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وان ذلك اذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وان الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة الى خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم وامام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الاحقاب هو ارسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندر و يسمونه

أبو اسحق الاسفرايني قال في الجامع الجلي يجري القصاص بينها قال و يحتمل انها كانت تعقل هذا القدر في دار الدنيا فلهذا أجرى فيه القصاص وكلام الاستاذ له وجه في الصحة لان البهيمة تعرف النفع والضر فتنفر من العصا وتقبل الى العلف و ينزجر الكلاب اذا زجر و يستأسد اذا أشلي والطير والوحش يفر من الجوارح استدفاعا لشرها ثم ان لم يجر عليها القتل في الدنيا فانما رفع القتل عنها في الاحكام فان قيل القصاص انتقام وهو جزاء على جناية وقعت من مخالفة الامر والبهائم ليست بمكلفة ولا لها عقول ولا جاءها رسول والعقول عندكم لا يجب بها شيء على العقلاء فضلا عن البهائم وفي هذا انفصال عن قول الاستاذ انها كانت تعقل هذا القدر اذ لا يجب بالعقل شيء و يشهد له قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فالجواب انها ليست مكلفة لان من ضرورة التكليف ان يعلم الرسول

والمرسل وذلك من خصائص العقلاء وهم الثقلان واذا لم تكن مكلفة كانت في المشيئة يفعل الله بها العلم
ما اراد كما سلط عليها في الدنيا الاستسخار والذبح فلا اعتراض عليه ولله تعالى ان يفعل في ملكه ما أراد من تنعيم وتعذيب واذا جاز أن يؤلم
البهيمة ابتداء جاز أن يؤلمها بعد حياتها والآية محمولة على من يعلم الرسول والمرسل ثم ان لم يجر عليهم القلم في الدنيا فانما رفع القلم عنها في

المعلم الاول على الاطلاق يعنون معلم صناعة المنطق اذ لم تكن قبله مهذبة وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها واحسن بسطها ولقد احسن في ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم في الالهيات ثم كان من بعده في الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا في القليل وذلك ان كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني الى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها وكان من أشهرهم ابو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه باصبهان وغيرهما * واعلم ان هذا الرأي الذي ذهبوا اليه باطل بجميع وجوهه فأما اسنادهم الموجودات كلها الى العقل الاول واكتفاؤهم به في الترقي الى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله فالوجود أوسع نطاقا من ذلك ويخلق ما لا تعلمون وكأنهم في اقتصارهم على اثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على اثبات الاجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل المعتقدين انه ليس وراء الجسم في حكمة الله شئ وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره ان المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والاقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لان تلك احكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين فأين اليقين الذي يجدونه فيها وربما يكون تصرف الذهن ايضا في المعقولات الاول المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات الثواني التي تجريدها في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينيا بمثابة المحسوسات اذ المعقولات الاول أقرب الى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك الا انه ينبغي لنا الاعراض عن النظر فيها اذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها * وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة رأسا ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عليها لان تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية انما هو ممكن فيما هو مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات اخرى بحجاب الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في اثبات وجودها على الجملة الا ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الانسانية واحوال مداركها وخصوصا في الرؤيا التي هي وجدانية لكل احد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل الى الوقوف عليه وقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا الى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لان مقدمات البرهان من شرطها ان تكون ذاتية وقال كبيرهم افلاطون ان الالهيات لا يوصل فيها الى يقين وانما يقال فيها بالاحق والاولى يعني الظن واذا كنا انما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان اولا فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن انما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات وهذه هي غاية الافكار الانسانية عندهم واما قولهم ان

الاحكام ولكن فيما بينها تؤاخذ وقد روى البخاري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اقتلوا الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم عليه السلام فهذه عجماء عوقبت على سوء صنيع جنسها وفيه دليل على ان الله تعالى ان يعذب بهلكه لا بالمعصية وقد ضرب موسى عليه السلام الحجر الذي مر بثوبه وبنو اسرائيل ينظرون عورته رواه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال فضربه بعصاه والحجر يفر وموسى يقول ثوبي حجر ثوبي حجر قال أبو هريرة فوالذي نفسي بيده انه لندب بالحجر ستة أو سبعة وروى في تفسير قوله تعالى وقودها الناس والحجارة انها الحجارة التي تكسر الناس في الدنيا وروى ان المسيح عليه السلام مر بجبل فسمع انينه فسأله عن ذلك فقال سمعت الله يقول وقودها الناس والحجارة فلا ادري أكون من تلك الحجارة أم لا وقد تأول بعضهم قول ابن عباس حشرها موتها تحشر لضرب من القصاص بينها ثم تصير ترابا قلت وتأويل ابن عباس بعيد لان الحشر الجمع وليس في موتها جمعها بل فيه تفرقتها وتفرقة اجزائها ثم قد قال والى ربهم يحشرون وانما يكون الحشر الى الرب تعالى باعادة الحياة اليها وجمعها الى ربها

(الباب التاسع والخمسون في الفرج بعد الشدة)

قال الله تعالى وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وقال سبحانه أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء وقال تعالى ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وقال الحسن لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم ابشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين وقال ابن مسعود والذي نفسي بيده لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر لن يغلب عسر يسرين ومعنى هذا أنه عرف العسر ونكر اليسر ومن عادة العرب اذا ذكرت اسما معرفا ثم أعادته كذلك فهو هو واذا نكرته ثم كررته كذلك فهما اثنان وقال بعضهم

ان يكن نالك الزمان ببلوى * عظمت عنده الخطوب وجلت   وتلتها قوارع ناكيات * سئمت دونها الحياة وملت
فاصطبر وانتظر بلوغ مداها * فالرزايا اذا توالت تولت   واذا أوهنت قواك وجلت * كشفت عنك جلة فتجلت
وقال ابن عباس اول ما اتخذ النساء النطق من قبل أم اسمعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وابنها

السعادة في ادراك الموجودات على ماهي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود وتفسيره ان الانسان مركب من جزأين احدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به ولكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية الا ان المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يبتهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلاشك ان الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون اشد وألذ فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الادراك لا يحصل بنظر ولا علم وانما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيرا ما يعنون بحصول هذا الادراك للنفس بحصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة اماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم فأما قولهم ان البراهين والادلة العقلية محصلة لهذا النوع من الادراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته اذ البراهين والادلة من جملة المدارك الجسمانية لانها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر ونحن اول شئ نعني به في تحصيل هذا الادراك اماتة هذه القوى الدماغية كلها لانها منازعة له قادحة فيه وتجد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والاشارات والنجاة وتلاخيص ابن رشد للفص من تأليف ارسطو وغيره يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن ارسطو والفارابي وابن سينا ان من حصل له ادراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الادراك العلمي وقد رأيت فساده وانما يعني ارسطو وأصحابه بذلك الاتصال والادراك ادراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا يحصل الا بكشف حجاب الحس وأما قولهم ان البهجة الناشئة عن هذا الادراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل ايضا لانا انما تبين لنا بما قرروه أن وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة وانها تبتهج بادراكها ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الاخروية ولا بد بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة وأما قولهم ان السعادة في ادراك هذه الموجودات على ماهي عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الاوهام والاغلاط في أن الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه وبينا فساد ذلك وان الوجود اوسع من أن يحاط به او يستوفى ادراكه بجملته روحانيا وجسمانيا والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم ان الجزء الروحاني اذا فارق القوى الجسمانية ادرك ادراكا ذاتيا له مختصا بصنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا وليس بعام الادراك في الموجودات كلها اذ لم تنحصر وانه يبتهج بذلك النحو من الادراك ابتهاجا شديدا كما يبتهج الصبي بمداركه الحسية في أول نشوه ومن لنا بعد ذلك بادراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع ان لم نعمل لها هيهات

اسمعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعها هنالك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفا ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ليس فيه أنيس ولا شئ فقالت ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل البيت بوجهه ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال رب اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي هل ترى أحدا فلم تر أحدا ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث

هيهات لما توعدون وأما قولهم ان الانسان مستقل بتهذيب نفسه واصلاحها بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فامر مبني على ان ابتهاج النفس بادراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها لان الرذائل عائقة للنفس عن تمام ادراكها بما يحصل لها من الملكات الجسمانية والوانها وقد بينا ان اثر السعادة والشقاوة من وراء الادراكات الجسمانية والروحانية فهذا التهذيب الذي توصلوا الى معرفته انما نفعه في البهجة الناشئة عن الادراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ماوراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ماامر به من الاعمال والاخلاق فامر لايحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب المبدا والمعاد ما معناه ان المعاد الروحاني واحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية والمقاييس لانه على نسبة طبيعية محفوظة و وتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما المعاد الجسماني واحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع في احواله اليها فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع مافيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا الا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك ان نظم المقاييس وتركيبها على وجه الاحكام والاتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم ومابعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الاتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات لانها وان كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الانظار وهذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب اهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي اليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

٢٦ *(فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها)*

هذه الصناعة يزعم أصحابها انهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك اوضاع الافلاك والكواكب دالة على ماسيحدث من نوع نوع من انواع الكائنات الكلية والشخصية فالمتقدمون منهم يرون ان معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الاعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله اذ التجربة انما

فاذاهي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه اوقال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ماتغرف فقال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أوقال لولم تغرف لكانت عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لاتخافوا الضيعة فان ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لايضيع أهله (ومنها قصة الثلاثة الذين خلفوا) وذلك ان كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية تخلفوا عن غزوة تبوك ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلام الثلاثة قال كعب فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لنا الارض بما رحبت فما هي التي أعرف وكنت أطوف في الاسواق وأشهد الصلاة مع المسلمين ولايكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا حتى اذا طال ذلك على من جفوة الناس تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس الي فسلمت عليه فوالله مارد على السلام فلما تمت خمسون ليلة من يوم نهى رسول الله عن كلامنا صليت صلاة الفجر وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحالة التي ذكرها الله تعالى قدضاقت على نفسي وضاقت على الارض بما رحبت وما كان من شئ أهم على من ان أموت فلا يصلي على النبي او يموت النبي صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس في تلك المنزلة لا يكلمني احد ولا يصلي على فأنزل الله توبتنا فسمعت صوت صارخ من أعلى الجبل يا كعب بن مالك ابشر فخررت ساجدا لله تعالى وعرفت ان قدجاء الفرج فجعلت ثوبي على الصارخ بشراه ووالله ما أملك غيرهما ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وهو يبرق وجهه من السرور فقال أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك فقلت يارسول الله ان من توبتي ان أنخلع من مالي صدقة الى الله تعالى والى رسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك (وروى) ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما شب ودرج في موضع ربي فيه فلما جن عليه الليل رأى كوكبا يقال انه رأى الزهرة فقال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل بعد طلوع الفجر قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما أصبح ورأى الشمس بازغة قال هذا ربي

هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين
وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان يعني الى الاسلام ولا أخاف ما تشركون به الا ان يشاء ربي شيأ وسع ربي كل شيء علما أفلا
تتذكرون قالوا يا ابراهيم أما تخاف من آلهتنا ان تصيبك بسوء ان أنت سببتها أو عبتها قال وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم
بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون وكان آزر يصنع أصناما يعبدها قومه ثم يعطيها ابراهيم يبيعها
فيكسرها ويذهب بها الى نهر لهم فيصب بها فيه على رؤسها ويقول لها اشربي استهزاء بها واظهارا لقومه فساد ما هم عليه ففشا ذلك عندهم
من غير ان يبلغ ذلك نمروذ فاول (٣٣٠) ما بدأ قومه ان نظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم يعني من الغيظ عليهم وعلى أصنامهم

فظنوا انه مطعون وكانوا يفرون من الطاعون اذا سمعوا به فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فدخل عليها وهم قد وضعوا لها طعاما وشرابا فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فأقبل عليهم ضربا باليمين وكسرها وقطع أيديها وأرجلها حتى جعلها جذاذا وأراق طعامها وشرابها وعمد الى الفأس فعلقه بيد الههم العظيم ثم خرج عنها وتركها فلما رجع قومه من عيدهم دخلوا بيت أصنامهم فلما رأوا ما صنع بها راعهم ذلك وأعظموه وقالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فقال بعضهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم سمعناه يسبها ويستهزئ بها فقال نمروذ فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون فلما أتى بابراهيم صلى الله عليه وسلم قالوا أأنت فعلت هذا

تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره الى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفاء منهم الى ان معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة ابطاله ومن أوضح الادلة فيه أن تعلم ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وانهم لا يتعرضون للاخبار عن الغيب الا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون ان دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحدا جحده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وانضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء وسائر أفعاله ثم قال ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان الاولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة الا انه غير مقنع للنفس الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها الى النير الاعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته ثم اذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا الى النير الاعظم واذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به النطف والبزر فتصير حالا للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الاحوال لأن كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما قال وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضا من القضاء الالهي يعني القدر انما هو من جملة الاسباب الطبيعية للكائن والقضاء الالهي سابق على كل شيء هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الاربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك ان العلم الكائن أو الظن به انما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه والقوى النجومية على ما قرروه انما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم ان القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للاب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي تميز بها صنف صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية اذا حصل كمالها وحصل العلم فيها انما هي فاعل واحد من جملة الاسباب الفاعلة للكائن ثم انه يشترط مع العلم بقوى

النجوم

بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا
انكم أنتم الظالمون قالوا انا قد ظلمناه مما نسبنا اليه ثم قالوا وقد عرفوا انها لا تضر ولا تنفع لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من
دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فقال له نمروذ حين سمع ذلك منه صف لنا الهك الذي
تعبد وتدعو الى عبادته قال ابراهيم ان ربي الذي يحيي ويميت قال نمروذ وأنا أحيي وأميت قال كيف ذلك قال آخذ رجلين قد استوجبا
القتل في حكمي فأقتل أحدهما فأكون قد أمته وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييته فقال ابراهيم ان كنت صادقا فأحي الذي قتلت
بزعمك وأخرج روحا من جسد من غير ان تقتله ان كنت صادقا وان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت عند ذلك

النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة فاذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت ادراجها عن الظن الى الشك هذا اذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها ولما ان اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطليموس في اثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها الى الشمس مدرك ضعيف لان قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها او النقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها قادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم ان تأثير الكواكب فيما تحتها باطل اذ قد تبين في باب التوحيد ان لا فاعل الا الله بطريق استدلالي كما رأيته واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من ان اسناد الاسباب الى المسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادئ الرأي من التأثير فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الالهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما والشرع يرد الحوادث كلها الى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والنبوات أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله ان الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته وفي قوله أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الانساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد اذا اتفق الصدق من احكامها في بعض الاحايين اتفاقا لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك فيقع في رد الاشياء الى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيرا في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الاعداء والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع اهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف باسباب حصولهما فيتعين السعي في اكتساب الخير باسبابه ودفع اسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك انها وان كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن احدا من اهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل ان نظر فيها ناظر وظن الاحاطة بها فهو في

نمروذ ولم يرد الى ابراهيم شيأ وأحزنه الى السجن فلبث فيه بضع سنين وجعل يدعو أهل السجن الى الله تعالى والى الاسلام حتى ظهر أمره وفشا واتبعه قوم كثير على دينه فلما أرادوا أن يحرقوا ابراهيم واجتمع امرهم على ذلك بنوا حيزا طول جداره ستون ذراعا ووضعوه الى بسفح جبل منيف لا يرام ولا يرقى وبلطوا الجدار فلا يمشي فيه أحد الا زلق عنه وأذن مؤذن نمرود يا أيها الناس احتطبوا لنار ابراهيم ولا يتخلفن عنها ذكر ولا أنثى ولا حر ولا عبد ولا شريف ولا وضيع ومن تخلف عن ذلك ألقي في تلك النار ففعلوا في ذلك أربعين ليلة حتى ان المرأة منهم تنذر ذلك على نفسها لئن رجع غائبها او افاق عليلها حتى اذا كمل ذلك وقذفوا فيه النار حتى انه كان يسمع وهج النار على المسافة البعيدة فلما بلغ ذلك وضع ابراهيم في كفة المنجنيق قال وهب بن منبه فبلغني ان السماء والارض والبحار وما فيها ضجوا الى الله تعالى ضجة وحدة قالوا يا ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غيره فائذن لنا في نصرته فاوحى الله تعالى اليهم ان استغاث بشئ منكم فانصروه وأغيثوه وان دعاني فانا وليه وناصره فلما وضعوه في كفة المنجنيق وقذفوه قال حسبي الله ونعم الوكيل اللهم انك تعلم ايماني بك وعداوة قومي فيك فانصرني عليهم ونجني من النار فاوحى الله تعالى الى النار ان كوني بردا وسلاما على ابراهيم فاطاعت النار ربها ولو لم يقل سلاما لماتت من شدة البرد ولبث ابراهيم في النار سبعة أيام وظن قومه انه قد احترق ثم قال نمروذ انظروا ماذا فعل ابراهيم فاني رأيت الليلة في نومي ان جدار هذا الحيز قد تهدم وخرج ابراهيم يمشي قال وذاب النحاس الذي سد به باب الحيز واحترق الجدار فصار رمادا فاطلعوا على ابراهيم فرأوه صحيحا سليما وخرج الى الناس ينظرون اليه على تلك الحال فلما رآهم خرج يمشي حتى قعد الى أمه وهي في الجمع وأقبلت سارة وكانت اول من آمن به حتى جلست اليه فقالت يا ابراهيم اني آمنت بالذي جعل النار بردا وسلاما قالت لها أم ابراهيم احذري القتل على نفسك فقالت اليك عني فاني لا أخاف شيأ وقد آمنت باله ابراهيم وحول ابراهيم جمع من الناس لا يحصى عددهم يأتمرون ليجددوا له عذابا فارسل الله تعالى ريحا عاصفا فسفت رماد تلك النار في وجوههم وعيونهم ففروا عنه وقام ابراهيم داعيا الى الله تعالى ومذكرا به * وقال مجاهد وقتادة وغيرهما ان نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام انطلق الى الحمام ومعه جني يقال له صخر ولم يكن سليمان عليه السلام يدخل الخلاء بالخاتم فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه في البحر

غاية القصور فى نفس الامر فان الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من اهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الاقل وأقل من الاقل انما يطالع كتبها ومقالاتها فى كسر بيته متسترا من الناس وتحت ربقة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذى عم نفعه دينا ودنيا وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها انما يحذق فيه الواحد بعد الواحد فى الاعصار والاجيال فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المأخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لاصوله وفروعه الى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر فاين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين اهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا اليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه احدا * ومما وقع فى هذا المعنى لبعض اصحابنا من اهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبى الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر ارجاف الفريقين الاولياء والاعداء وقال فى ذلك أبو القاسم الروحى من شعراء اهل تونس

أستغفر الله كل حين * قد ذهب العيش والهناء * أصبح فى تونس وأمسى * والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا * يحدثها الهرج والوباء * والناس فى مرية وحرب * وما عسى ينفع المراء
فاحمدى ترى عليا * حل به الهلك والتواء * وآخر قال سوف يأتى * به اليكم صبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا * يقضى لعبديه ما يشاء * يا راصد الخنس الجوارى * ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم * أنكم اليوم أملياء * مر خميس على خميس * وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثان * وثالث ضمه القضاء * ولا نرى غير زور قول * أذاك جهل أم ازدراء
انا الى الله قد علمنا * ان ليس يستدفع القضاء * رضيت بالله لى الها * حسبكم البدر أو ذكاء
ما هذه الانجم السوارى * الا عباديد أو اماء * يقضى عليها وليس تقضى * وما لها فى الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديما * ما شأنه الجرم والفناء * وحكمت فى الوجود طبعا * يحدثه الماء والهواء
لم ترحلوا ازاء مر * تغذوهمو تربة وماء * الله ربى ولست أدرى * ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهيولى التى تنادى * مالى عن صورة عراء * ولا وجود ولا انعدام * ولا ثبوت ولا انتفاء
ولست أدرى ما الكسب الا * ما جلب البيع والشراء * وانما مذهبى ودينى * ما كان والناس اولياء
اذ لا فصول ولا أصول * ولا جدال ولا ارتياء * ما تبع الصدر واقتفينا * يا حبذا كان الاقتفاء

فالتقمته سمكة ونزع ملك سليمان منه وألقى على الشيطان شبه سليمان فجاء فجلس على كرسيه وسلط على جميع ملك سليمان غير نسائه فجعل يقضى بين الناس والناس ينكرون قضاياه حتى قالوا لقد فتن نبى الله سليمان ومكث على ذلك أربعين يوما ثم أقبل فى حالة تلك وهو جائع نائع حتى انتهى الى صيادين فى البحر فاستطعم أحدهم من صيده وقال له أنا سليمان فقام اليه بعضهم فضربه بعصا فشج وجهه فجعل يغسل دمه على شاطئ البحر فلام الصيادون صاحبهم على ضربه اياه ثم اعطوا سليمان سمكتين مما قد تغير عندهم ونتن ولم يشغله ما كان فيه من الضرب عن ان يقوم الى شاطئ البحر فشق بطونهما وغسلهما فوجد خاتمه فى بطن أحدهما فاخذه فلبسه فرد الله عليه بهاءه وملكه وجاءت الطير فحامت عليه فعرف القوم انه سليمان فجاؤا يعتذرون اليه (وروى) وهب بن منبه ان الله تعالى وهب لابراهيم اسحق فلما كان ابن سبع سنين أوحى الله تعالى الى ابراهيم ان يذبحه وان يجعله قربانا فكتم ابراهيم ذلك من اسحق وأمه وجميع الناس وأسره الى خليل له يقال له العازر وكان أول من آمن به من قومه يوم أحرق فقال له ان الله سبحانه رفع اسمك فى الملأ الاعلى على جميع أهل البلاء حتى كنت أرفعهم بلية ليرفعك الله بقدر ذلك فى المنازل والفضائل وقد علمت ان الله تعالى لم يبتلك بذلك ليفتنك ولا ليضلك فلا يسوأن بالله ظنك وأعوذ بالله ان يكون ذلك حتما منى على الله تعالى أو سخطا بحكمه الذى حكم على عباده ولكن هذا حسن الظن بالله فان عزم ربك على ذلك فكن عند أحسن علمه بك ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فتعزى ابراهيم عليه السلام بقوله واسند له رأيه وبصيرته وانطلق باسحق فلما صعد الجبل كانوا ومعه السكين والحبل وأداة القربان فقال له اسحق يا أبت أرى معك اداة القربان ولا أرى قربانا قال ابراهيم يا بنى القربان بعين ربك ينظر اليه وان شاء رحم أباك فلم يفطن اسحق فلما وافى رأس الجبل قال ابراهيم يا بنى ان الله تعالى أمرنى ان أذبحك واجعلك قربانا يرفعك اليه ويتقبلك فانظر ماذا ترى فتهلل اسحق واستبشر فقال لوالده لقد فجعتك يا بنى بامر ما فجع به والد ولده وانى لارى من سرورك بذلك وشكرك لربك امرا أرجو به العافية والفرج فقال يا أبت لم يكن شئ من الدنيا أحب الى من البر بك وبامى وقد حرمنيه ربى فاذا أردت ذبحى فاشدد وثاقى فانى أخاف حين يفارقنى عقلى وأجد ألم الحديد ان يتحرك منى عضو فيؤذيك وأنا أكره ان أختم بذلك عملى فاذا

فرغت من امرى فاقرئ امى السلام وقل لها لاتجزعى فقدا كرم الله الك ابنك فى جنانه فلما فرغ من وصيته عمد ابراهيم صلى الله عليه وسلم اليه فعصبه بعمامته مابين منكبيه الى الكعبين ثم كبه لوجهه وكره ان يستقبل وجهه كى لاتدركه له رحمة اذاهو شحط فادخل يده من تحت حلقه فلما اراد ان يحز انقلب السكين فاوجس ابراهيم فى نفسه ثم عاد الثانية فلما اراد ان يحز انقلب السكين ونودى ياابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم هذا فداء ابنك قد فداه الله لك به فنظر ابراهيم خلفه فاذا بكبش قد لوى قرنه الايمن على ساق شجرة فوجه ابراهيم الى القبلة وقبلته يومئذ مكة فذبحه ابراهيم وقصبه اسحق فلما فرغا منه وضعا قربانا فرفعه الله اليه وتقبله (قال أبو هريرة) ولما صار يوسف عليه السلام الى مصر واسترق بعد الحرية جزع جزعا شديدا وجعل يبكى الليل والنهار على أبويه واخوته و وطنه ومابتلى به من الرق فاحيا ليلة من الليالى يدعو ربه تعالى وكان من دعائه ان قال يارب أخرجتنى من أحب البلاد الى وفرقت بينى و بين اخوتى وأبوى و وطنى فاجعل لى فى ذلك خيرا وفرجا ومخرجا من حيث احتسب ومن حيث لا أحتسب وحبب الى البلاد التى أنا فيها وحببها الى كل من يدخلها وحببنى الى أهلها وحببهم الى ولاتمتنى حتى تجمع بينى و بين أبوى واخوتى فى يسر منك ونعمة وسرور تجمع لنا به خير الدنيا والآخرة انك سميع الدعاء فاتى يوسف فى نومه فقيل له ان الله تعالى قد استجاب الك دعاك وأعطاك مناك وورثك هذه البلاد وسلطانها وجمع اليك أبويك واخوتك وأهل بيتك فطب نفسا واعلم ان الله تعالى لن يخلف وعده و بدعاء يوسف صارت مصر محبوبة يحبها من دخلها فلا يكاد يخرج منها قال قتادة ماسكنها نبى قبله ولما جمع الله شمله وتكاملت النعمة عليه اشتاق الى لقاء ربه فقال رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولبى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين * ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد الى العراق ليطلق أهل السجون و يقسم الاموال ضيق على يزيد بن أبى مسلم فلما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبى مسلم افريقية فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبى مسلم فاتى به فى شهر رمضان عند المغرب وفى يد ابن أبى مسلم عنقود عنب فقال له يزيد حين دنا منه محمد قال نعم قال اما والله لطالما سألت الله تعالى ان يمكننى منك بغير عهد ولاعقد

كانوا كما يعلمون منهم * ولم يكن ذلك الهذاء * ياأشعرى الزمان انى * أشعرنى الصيف والشتاء
أنا أجزى بالشر شرا * والخير عن مثله جزاء * وانى ان أكن مطيعا * فرب أعصى ولى رجاء
وانى تحت حكم بار * أطاعه العرش والثراء * ليس باستطاركم ولكن * اتاه الحكم والقضاء
لوحدث الاشعرى عمن * له الى رأيه انتماء * فقال اخبرهم بانى * مما يقولونه براء

٢٧ *(فصل فى انكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها ومانشأ من المفاسد عن انتحالها)*

اعلم ان كثيرا من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ويرون انها احد مذاهب المعاش ووجوهه وان اقتناء المال منها ايسر واسهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الاموال فى النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخرا اذا ظهر على خيبة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وانما اطمعهم فى ذلك رؤية ان المعادن تستحيل و ينقلب بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهبا والنحاس والقصدير فضة و يحسبون انها من ممكنات عالم الطبيعة ولهم فى علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم فى التدبير وصورته وفى المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هى العذرة اوالدم او الشعر اوالبيض اوكذا اوكذا مما سوى ذلك وجملة التدبير عندهم بعد تعين المادة ان تمهى بالفهر على حجر صلد املس وتسقى اثناء امهائها بالماء بعد ان يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها و يؤثر فى انقلابها الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقى او تطبخ بالنار او تصعد او تكلس لاستخراج مائها او ترابها فاذا رضى بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته اصول صنعته حصل من ذلك كله تراب اومائع يسمونه الاكسير و يزعمون انه اذا القى على الفضة المحماة بالنار عادت ذهبا او النحاس المحمى بالنار عاد فضة على حسب ماقصد به فى عمله و يزعم المحققون منهم ان ذلك الاكسير مادة مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذوقوى طبيعية تصرف ماحصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومزاجها وتبث فيه ماحصل فيها من الكيفيات والقوى كالخميرة للخبز تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ماحصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه فى المعدة و يستحيل سريعا الى الغذاء وكذا اكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه اليهما و يقلبه الى صورتهما هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه و يتناقلون احكامه وقواعده من كتب لائمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم و يتناظرون فى فهم لغوزها وكشف اسرارها اذهى فى الاكثر تشبه المعمى كتآليف جابر بن حيان فى رسائله السبعين ومسلمة

ثم قال محمد وأنا والله فطالما سألت الله أن يجيرني منك ويعيذني فقال يزيد فوالله ما أجارك ولا أعاذك وان سابقني ملك الموت الى قبض روحك لسبقته والله لا كانت هذه الجبة حتى أقتلك فأقام المؤذن الصلاة فوضع يزيد العنقود وتقدم ليصلي وكان أهل افريقية قد اجتمعوا على قتله فلما ركع ضربه رجل على رأسه بعمود فقتله وقيل لمحمد بن يزيد اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الامير وأحيا الاسير سنة الله التي قد خلت في عباده طلوع الحياة من شفار الموت وحضور الموت من معدن الحياة (ويروى) ان سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم فأرسل الى قائد البحر وقال انفذ الآن مركبا الى افريقية يأتوني بأخبارها فعمر القائد المركب وأرسله لحينه فلما أصبحوا اذا بالمركب في موضعه لم يبرح فقال له الملك أليس قد فعلت ما أمرتك به قال نعم قد امتثلت أمرك وأنفذت المركب فرجع بعد ساعة وسيجد ثلث مقدم المركب فجاء ومعه رجل فقال الملك ما منعك أن تذهب حيث أمرتك قال ذهبت بالمركب فبينا أنا في جوف الليل والبحارون يجذفون اذا أنا بصوت يقول يا الله يا الله يا غياث المستغيثين يكررها مرارا فلما استقر صوته في أسماعنا ناديناه مرارا يا لبيك يا لبيك وهو ينادي يا الله يا غياث المستغيثين ونحن نجيبه يا لبيك يا لبيك وقذفنا المركب نحو الصوت فالفينا هذا الرجل غريقا في آخر رمق من الحياة فأخذناه من البحر وسألناه عن حاله فقال كنا مقلعين من افريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وما زلت أسبح حتى وجدت الموت فلم أشعر الا بالغوث من ناحيتكم فسبحان من أسهر سلطانا وأرق جبارا في قصره لغريق في البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحشة لا اله الا انت سبحانك (وأخبرني رجل كان أمام المسجد الجامع بالاسكندرية قال كنت بصقلية أيام فتن العدو فزحف الينا في البحر سفن تقارب ثلاثمائة سفينة وأرست في الساحل فرأينا أمرا مهولا وفينا الشيخ الصالح العابد ابن المستطاري فلجأ الناس اليه واستجمعوا حوله يتبركون به وينتظرون الفرج على يديه قال فنظر الى السماء حينا وسجد وعفر خديه بالارض يقلبهما يمينا وشمالا قال فوالله ما ذهبنا حتى هبت ريح فرقتها كل ممزق فلم يجتمع منها اثنان (وأخبرني) أبو القاسم بن فاتك رحمه الله قال كنت في طريق الحجاز فعطش الناس في مفازة تبوك ففقد الماء ولم يوجد الا عند صاحب الجمال فجعل يبيعه بالدنانير بارفع الاثمان فجاء رجل كان موسوما بالصلاح عليه مقطعة يحمل ركوة ومعه شئ من دقيق فتشفع

المجريطي في كتابه رتبة الحكيم والطغرائي والمغيربي في قصائده العريقة في اجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها * فاوضت يوما شيخنا أبا البركات البلفيقي كبير مشيخة الاندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التآليف فيها فتصفحه طويلا ثم رده الي وقال لي وأنا الضامن له أن لا يعود الى بيته الا بالخيبة ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط اما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب او النحاس بالفضة او خلطهما على نسبة جزء او جزأين او ثلاثة او الخفية كالقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق المصعد فيجيء جسما معدنيا شبيها بالفضة ويخفى الا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويها على الجمهور بالخلاص وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة اموال الناس فان صاحب هذه الدلسة انما هو يدفع نحاسا في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو أشر من السارق ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين باطراف البقاع ومساكن الاغمار يأوون الى مساجد البادية ويموهون على الاغنياء منهم بان بايديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة الى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون الى موضع آخر ويستجدون حالا أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا باطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لانهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم الا اشتداد الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لان فيه افساد السكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن افساد سكة المسلمين ونقودهم وانما يطلب احالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقزدير الى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالاكسير الحاصل عنده فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع انا لا نعلم أن أحدا من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية انما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلاية والتصعيد والتكليس واعتيام الاخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريبون في تصديقها شأن الكلفين المغرمين بوساوس الاخبار فيما يكلفون به فاذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه وقالوا انما سمعنا ولم نره هكذا شأنهم في كل عصر وجيل واعلم ان انتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين

والمتأخرين فلننقل مذاهبهم فى ذلك ثم نتلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذى عليه الامر فى نفسه منقول ان مبنى الكلام فى هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة وهى الذهب والفضة والرصاص والقزدير والنحاس والحديد والخارصين هل هى مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو انها مختلفة بخواص من الكيفيات وهى كلها أصناف لنوع واحد فالذى ذهب اليه أبو نصر الفارابى وتابعه عليه حكماء الاندلس أنها نوع واحد وان اختلافها انما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والالوان من الصفرة والبياض والسواد وهى كلها اصناف لذلك النوع الواحد والذى ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق انها مختلفة بالفصول وانها انواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الانواع وبنى أبو نصر الفارابى على مذهبه فى اتفاقها بالنوع امكان انقلاب بعضها الى بعض لامكان تبدل الاعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبنى ابو على ابن سينا على مذهبه فى اختلافها بالنوع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على ان الفصل لا سبيل بالصناعة اليه وانما يخلقه خالق الاشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق رأسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائى من أكابر اهل هذه الصناعة فى هذا القول ورد عليه بان التدبير والعلاج ليس فى تخليق الفصل وابداعه وانما هو فى أعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتى من بعد الاعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الاجسام بالصقل والامهاء ولا حاجة بنا فى ذلك الى تصوره ومعرفته قال واذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ماذكره اصحاب الفلاحة من تكوين النحل اذا فقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكرا بحشو القرون بالعسل بين يدى ذلك الفلح للقرون فما المانع اذا من العثور على مثل ذلك فى الذهب والفضة فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد ان يكون فيها استعداد اول لقبول صورة الذهب والفضة ثم تحاولها بالعلاج الى ان يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائى بمعناه وهذا الذى ذكره فى الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا فى الرد على اهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم اجمعين لا الطغرائى ولا ابن سينا وذلك ان حاصل علاجهم انهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الاول يجعلونها موضوعا ويحاذون فى تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة فى الجسم المعدنى حتى احالته ذهبا وفضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم فى زمان أقصر لانه تبين فى موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب انما يتم كونه

بى الى الجبال ليبيعه المساء بذلك الدقيق فكلمته فابى على ثم عاودته فابى قال فبسط الرجل النطع فى الارض ونثر عليه الدقيق ثم رمق السماء وقال الهى أنا عبدك وهذا دقيقك ولا املك غيره وقد ابى ان يقبله ثم ضرب بيده فى النطع وقال وعزتك لا برحت حتى أشرب فوالله ما تفرقنا حتى نشأ السحاب فامطر للحين فشرب الماء ولم يبرح فكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم رب أشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو اقسم على الله لابره (وأخبرنى) شيخ مسن ممن كان يصحب العلماء بالقيروان يقال له حريز قال أخبرنى عبد الكافى الدباجى قال رأيت بالقيروان آية عظيمة وذلك ان رجلا جاء بصبى له وقد أسكت فلا يتكلم فدخل به الى الفقيه أبى بكر بن عبد الرحمن وقال له ان ابنى هذا قد أسكت منذ أيام فلا يتكلم فادع الله ان يفرج ما نزل به قال فدعا الشيخ ساعة ثم مسح وجه الصبى فاستفاق الصبى فقال له قل لا اله الا الله فقال الصبى أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ثم التفت الى الرجل وقال اكتمها على الى الموت ثم التفت الى جاريته فقال اكتمى على هذا الى الموت وأنت حرة فلما كان يوم توفى الشيخ أبو بكر واجتمع الناس لجنازته وتكاثرت الامم قام الرجل فاستنصت الناس فسكتوا فقال يا أهل القيروان اسمعوا قصتى مع هذا الشيخ وذكر الحديث كما سقناه (وحدثنى) هذا الشيخ قال نزل عندنا بالقيروان قصة لم يسمع فى السالفين مثلها وذلك ان بعض الجزارين اضجع كبشا ليذبحه فتخبط بين يديه فافلت منه وذهب فقام الجزار يطلبه وجعل يمشى الى أن دخل خربة فاذا فيها رجل مذبوح يتخبط فى دمه ففزع وخرج هاربا واذا صاحب الشرطة والرجالة عندهم خبر القتيل وجعلوا يطلبون خبر القاتل والمقتول فأصابوا بيده السكين وهو ملوث بالدم والرجل مقتول بالخربة فقبضوه وحملوه الى السلطان فقال له أنت قتلت الرجل قال نعم قال فما زالوا يستنطقونه وهو يعترف اعترافا لا اشكال فيه فأمر به السلطان ليقتل فاخرج للقتل واجتمع الامم ليبصروا قتله فلما هموا بقتله اندفع رجل من الحلقة المجتمعين فقال لهم لا تقتلوه انا قاتل القتيل فقبض وحمل الى السلطان فاعترف وقال أنا قتلته فقال له السلطان قد كنت معافى من هذا فما حملك على الاعتراف قال رأيت هذا الرجل يقتل ظلما فكرهت ان القى الله تعالى بدم رجلين فأمر به السلطان فقتل ثم قالوا للرجل يا أيها الرجل ما دعاك الى الاعتراف بالقتل وأنت برىء قال الرجل فما حيلتى رجل مقتول بالخربة وأخذونى وأنا خارج من الخربة وبيدى السكين ملطخة بالدم فان أنكرت من

يقبلني وان اعتذرت من يعذرني فخلى سبيله وانصرف مكرما (ولما وزر فخر الملك) نظام الدين لسنجار الملك وكان لفخر الملك ابن عم يقال له شهاب الملك وكان يخاف منه على منزلته فقال للملك سنجار لا حياة لي معك الآن تقتل ابن عمي شهاب الملك فأبى سنجار فما زال يراجعه الى أن أمر به فحبس في بلد يقال لها بيهق وكان والي ذلك البلد يكرمه لجلالته وجلالة اهل بيته واخلى له دارا في القلعة مشرفة ثم جعل فخر الملك يفسد قلب سنجار ويحمله على قتل شهاب الملك الى أن أرسل سنجار الى واليه بقتل شهاب الملك فاستعظم الوالي قتله وأخره أياما ثم لم يجد بدا من قتله فعزم على قتله في يوم جمعة فبينا شهاب الملك يطلع من طاقات الدار اذا بفارس يركض فأوجس في نفسه خيفة منه وقال هذا يريد أن يقتلني فوصل الفارس (٣٣٦) وقال مات فخر الملك فخلى سبيل شهاب الملك ثم وزر لسنجار فسبحان الفعال لما يريد

(أخبرني) أبو الفضل المعبر بمصر قال كان بمصر ملوك بني حمدان وكان الرئيس ناصر الدولة وكان يشكو وجع القولنج فأعيا الأطباء ولم يوجد له شفاء ثم ان السلطان دس على قتله فارصد له رجل معه خنجر فلما جاء في بعض دهاليز القصر وثب عليه الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة في أسفل خاصرته فأصاب طرف الخنجر المعى الذي هو القولنج فخرج ما فيه من أخلاط ثم عافاه الله تعالى فصح وبرئ كأحسن ما كان (ولما كنت بالاسكندرية) نزلت سفن العدو بساحل مدينة برقة فأخذوا قوما من المسلمين وقتلوا بعضهم وأسروا بعضهم فأخذ رجل منهم وشد كتافه من خلفه فلما نهبوا السفينة عمد اليه بعض الاعلاج فرفسه والقاه في البحر ثم طعنه برمح كان معه فلم يخطئ نصل الرمح حبل الكتاف فقطعه وانحلت يد الرجل فسبح حتى لحق بالشاطئ سليما ووصل الى الاسكندرية وهو في عافية (وحدثني) بعض الشاميين ان رجلا خبازا بينما هو يخبز في تنوره بمدينة دمشق اذ عبر عليه رجل يبيع المشمش قال فاشترى منه وجعل يأكل بالخبز الحار فلما فرغ سقط مغشيا عليه فنظروا فاذا هو ميت فجعلوا يتربصون به ويحملون له الأطباء فيلمسون دلائله ومواضع الحياة منه فقضوا بأنه ميت فغسل وكفن وحمل الى الجبانة فبينما هم خارجون به من باب المدينة استقبلهم رجل طبيب يقال له اليبرودي وكان طبيبا ماهرا حاذقا بالطب فسمع الناس يلهجون بقصته فقال لهم حطوه حتى أراه قال فحطوه وجعل يقلبه وينظر في أمارات الحياة التي يعرفها ثم فتح فاه وسقاه شيئا أو قال حقنه فاندفع ما هنالك يسيل واذا الرجل قد فتح عينيه وتكلم وعاد كما كان الى

في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه اقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الافاعيل المطلوبة في احالته وذلك هو الاكسير على ما تقدم واعلم ان كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الاربعة على نسبة متفاوتة اذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ولا بد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف اطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور الى طور حتى ينتهي الى غايته وانظر شأن الانسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم ثم الى نهايته ونسب الاجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها والا لكان الطور بعينه الاول هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر الى الذهب ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الاحوال فيحتاج صاحب الكيمياء الى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه الى أن يتم ومن شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد اليه بالصنعة فمن الامثال السائرة للحكماء أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها انما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وانما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق انسان من المني ونحن اذا سلمنا له الاحاطة بأجزائه ونسبته واطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الانسان وأنى له ذلك * ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير انه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به الى أن يتم كون الجسم المعدني او تخليق مادة بقوى وافعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه الى صورتها والفعل الصناعي مسبوق بتصورات احوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها او فعل المادة ذات القوى فيها تصورا مفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الاحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الاحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان أو حيوان أو نبات هذا محصل هذا البرهان

وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة إنما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها وماذكره ابن سيناء بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك أن حكمة الله في الحجرين وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل احد من اقتنائهما على شئ وله وجه آخر من الاستحالة أيضا وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الاعوص والابعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وانه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها او اقل زمانا لما تركته الطبيعة الى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخلقهما وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لامثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى اليه العثور كما زعم وأما الكيميا فلم ينقل عن احد من أهل العلم انه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء الى هلم جرا ولا يظفرون الا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لاحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الاصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده الى أن ينتشر و يبلغ الينا والى غيرنا وأما قولهم ان الاكسير بمثابة الخميرة وانه مركب يحيل ما يحصل فيه و يقلبه الى ذلك فاعلم ان الخميرة انما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع بايسر شئ من الافعال والطبائع والمطلوب بالاكسير قلب المعدن الى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الاكسير بالخميرة وتحقيق الامر في ذلك ان الكيميا ان صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بامر صناعي وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات انما هو من منحى كلامهم في الامور السحرية وسائر الخوارق وما كان من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا الى شرحه و بالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشبا او حيوانا فيما عدا مجرى تخليقه كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته الا بارفاد مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيميا طلبا صناعيا ضيع ماله وعمله و يقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لان نيلها ان كان صحيحا فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الاجساد ونحو ذلك من كرامات الاولياء الخارقة للعادة أو مثل

دكانه (وكان رجل) يمشي ببغداد فبينما هو في الطريق اذا بدار قد وقعت عليه فخرت كالجبل العظيم واذا في الحائط طاقة فأخطأت رأسه فصارت الدار كوما وخرج الرجل من الطاقة سليما (وحدثني) أبو القاسم الحضرمي قال كنت باليمن في أرض الصليحي فوشي بي الى السلطان فأمر بقتلي فاخرجت وقدمت للقتل وتركني السياف ثم قال لي مد رقبتك فمددت عنقي لقضاء الله تعالى ثم قال لي السياف اشتد فقلت دونك يا هذا فبينا نحن كذلك اذا بصائح من داخل القصر لا تقتلوه لا تقتلوه فخلوا سبيلي (وجرت بقرطبة قصة غريبة) في أيام المنصور بن أبي عامر وذلك ان رجلا يعرف بقاسم بن محمد السنبسي شهد عليه بالزندقة فحبسه المنصور مدة مع جماعة من الادباء من وجوه قرطبة مرموقون بالانهماك والزندقة وكان ينادي عليهم في كل جمعة يوقفون اثر صلاة الجمعة بباب الجامع الاعظم من كانت عنده شهادة فيهم فليؤدها فثبت على قاسم عند القاضي سجل شهادات الشهود بأنواع منكرة تتضمن الزندقة والكفر فطلعوا الى القصر وعقدوا مجلسا عظيما واستشير الفقهاء فيه فاوجبوا قتله فاستحضر قاسم فحضر وحضر أبوه وحضر ابنان صغيران لقاسم ولبسوا ثياب الحداد وحمل أبوه معه نعشا وجالين وجعل أبوه والصبيان يبكون على باب القصر واحضر لضرب عنقه سياف يعرف بابن الجندي ودفعت اليه أسياف من القصر فجعل يبرزها و يلمس شفارها وأبوه وابناه ينظران وحضر الفقيه أبو عمر والمكودي الاشبيلي على كره منه وكان يأبى الحضور فاستفتوه فقال يا هؤلاء ان الدماء لا تسفك الا بالحق الواضح دون الشبه احسبوا ان السنبسي فر وجاءنا اذا تذبحونه فقال القاضي ابن الشرفي بما ثبت عندي وأمعنت النظر فيه قال الفقيه أوقفني عليه فاخذ السجل ونظر فيه فقال أخبرني بمن قتلته من هؤلاء الشهود فقال بهذا وهذا حتى عد خمسة قال الفقيه فبجميعهم تقتله قال نعم قال فلو شهد منهم اثنان خاصة كنت تقتله قال لا انما قوي بعضهم بعضا وزكى أكثرهم عندي فالتفت الفقيه الى الفقهاء المشاورين فقال يا هؤلاء بالدعائم يقتل المسلمون عندكم و يسفك دماؤهم فلست أرى قتله ولا أشير به فرجع الفقهاء الى قوله ولم يروا عليه شيأ بعد ما افتوا بقتله منذ ستة أشهر فانفض الجمع وشيم السيف وطار البشير الى ابن أبي عامر فاخبره بالمجلس فقال ابن ابي عامر مضيتم تقتلون ابن السنبسي فدفنتم القاضي قد اجتهدنا للدين ولا قاتل لموجل فحبس أياما ثم أطلق فكان ابن ذكوان الفقيه يقول للقاضي في مثل هذا قال

القائل اذا سئل بم عرفت الله قال بنقضه عزائمي ومعنى الدعائم على لسان الفقهاء هم الشهود الذين لو انفرد منهم اثنان لم يثبت الحكم ولا قبلا فيه فاذا كثروا قوى بعضهم بعضا فلا يثبت الحكم بهم (وفي نقيض هذا ما حدثني القاضي) أبو مروان الداني بطرطوشة وقد ولي قضاءها فتذاكرنا يوما فقال نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا الى دار خراب هناك ليستكنوا من الرياح والامطار واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم وقرب تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع فقال رجل منهم لاهل القافلة ياهؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا تدخلوا هذه البقعة فابوا الا دخولها وبات الرجل منتبذا خارجا منهم لم يقرب ذلك المكان ثم أصبحوا في عافية وجلوا دوابهم فبينما هم كذلك اذ دخل الرجل الخربة

ليستوقد ببقية النار فخر عليه الحائط فمات مكانه (وبلغني) عن بعض الفقهاء ان جيشا

تخليق الطير ونحوها من معجزات الانبياء قال تعالى واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وعلى ذلك فسبيل تسييرها مختلف بحسب حال من يؤتاها فربما أوتيها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربما أوتيها الصالح ولا يملك ايتاءها فلا تتم في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريا فقد تبين انها انما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة اما معجزة أو كرامة أو سحرا ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها ألغازا لا يظفر بحقيقته الا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد الى تحصيلها والله بما يعملون محيط وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية كالفلاحة والتجارة والصناعة فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالتها فان ابن سينا القائل باستحالتها كان علية الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة والفارابي القائل بامكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش واسبابه وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها والله الرزاق ذو القوة المتين لا رب سواه

٢٨ (فصل في ان كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل)

(اعلم) انه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الامر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلا ومأخذه قريبا ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين

من الجيوش كان بصقلية ناهضا من مكان الى مكان فقعدوا ساعة لبعض شأنهم فاذا عقرب يدب فضرب به بعض الاجناد بقرعة كانت معه ثم رفع القرعة الى نحو عنقه فاذا بالعقرب قد تشبث باهداب القرعة وهو لا يشعر فلدغته في عنقه فقضى مكانه (وأخبرني القاضي) أبو الوليد الباجي عن أبي ذر قال كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزأ من الحديث في حانوت رجل يبيع العطر فجاء رجل طواف بطبق يحمله في يده وأعطاه عشرة دراهم وقال له ادفع الى أشياء سماها من العطر فأخذها في طبقه ومشى فسقط الطبق من يده وتفرق جميع ما كان فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت لعلك تجبر لنا بعض هذه الاسباب قال نعم فنزل وجمع ما تجمع منها وجبر له ما نقص وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له لا تجزع فامر الدنيا أيسر من ذلك فقال الطواف أتظن أيها الشيخ ان جزعي لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى مني كنت في القافلة الفلانية فضاع لي هميان فيه أربعمائة دينار أو أربعة آلاف دينار الشك من أبي ذر ومعها فصوص قيمتها مثل ذلك فما جزعت لضياعها ولكن ولد لي في هذه الليلة مولود فاحتجت في البيت الى ما تحتاج اليه النفساء ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم فاشفقت ان أشتري بها حوائج النفساء فابقى بغير رأس مال ولا أقدر على التكسب فقلت أشتري بها شيأ وأطوف صدر نهاري فعسى أستفضل شيأ أسد به رمقي ويبقى رأس المال أتصرف فيه فلما قدر الله تعالى بضياعه جزعت فقلت لا عندي مال أرجع به اليهم ولا ما أكتسب به وعلمت انه لم يبق لي الا

والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب فى ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضى عمره دونه ولا يطمع أحد فى الغاية منه الا فى القليل النادر مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من اهل صناعة العربية من اهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل الا لسيبويه وابن جنى واهل طبقتهما لعظم ملكته وما احاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على ان الفضل ليس منحصرا فى المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والا فالظاهر ان المتعلم ولو قطع عمره فى هذا كله فلا يفى له بتحصيل علم العربية مثلا الذى هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون فى المقصود الذى هو الثمرة ولكن الله يهدى من يشاء

٢٩ *(فصل فى ان كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم)*

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء فى العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار فى الالفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم وربما عمدوا الى الكتب الامهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب فى الفقه وأصول الفقه وابن مالك فى العربية والخونجى فى المنطق وامثالهم وهو فساد فى التعليم وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لان فيه تخليطا على المبتدى بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتى ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لان ألفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع فى فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم فى تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهى ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع فى تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة واذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له والله سبحانه وتعالى اعلم

٣٠ *(فصل فى وجه الصواب فى تعليم العلوم وطريق افادته)*

(اعلم) ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيأ فشيأ وقليلا قليلا يلقى عليه

الفرار منهم وتركهم على هذه الحال يهلكون بعدى فهذا الذى أوجب جزعى قال الشيخ أبو ذر وكان رجل من الجند جالسا على باب داره يستمع الحديث فقال للشيخ أبى حفص أنا ارغب اذا تممتم أمره ان تدخل معه عندى وقام فظننا انه يريد ان يعطيه شيأ قال فدخلنا عليه فأذن لنا فقال الجندى للطواف عجبت من جزعك فأعاد عليه القصة فقال الجندى وكنت فى تلك القافلة قال نعم وكان بها من عظام الناس فلان وفلان فعلم الجندى صحة قوله فقال له وما علامة الهميان وفى أى موضع سقط منك فوصف المكان والعلامة فقال له الجندى لو رأيته كنت تعرفه قال نعم فاخرج الجندى هميان ووضعه بين يديه فقال هذا هميانى وعلامة صحة قولى ان فيه من الاحجار ماصفته كذا وكذا ففتح الهميان فوجد الاحجار على ماذكر فقال الجندى خذ مالك بارك الله لك فيه فقال الطواف هذه الاحجار قيمتها مثل الدنانير اوا كثر فخذ انت الدنانير فنفسى طيبة بذلك فقال الجندى لا آخذ على أمانتى شيأ فدخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الاغنياء فبكى الجندى بكاء شديدا وانتحب فقال له أبو حفص علام تبكى وقد أدى الله امانتك وقد بذل لك مالا كثيرا وان شئت عرضنا عليه ان يعيده عليك فقال ما أبكى لذلك وانما أبكى لانى اعلم انه قد حان أجلى فانه ما كان بقى أمل أؤمله ولا أمنية أتمناها الا ان يأتينى الله بصاحب هذا المال فيأخذه فلما قضى الله تعالى ذلك بفضله ولم يبق لى أمل علمت انه قد حان أجلى قال الشيخ أبو ذر فما انقضى شهر حتى توفى وصلينا عليه (قال القاضى) وحدثنى أبو القاسم ابن الحسين بالموصل قال لقد جرت ههنا فى هذا المسجد وهذه الدار والحانوت وأشار اليها قصة عجيبة كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر الى الكوفة فى تجارة الخز فبينما هو يحمل الخز فى خرجه على حماره وهو جميع ماله نزلت القافلة فأراد انزاله عن الحمار فثقل عليه فأمر انسانا هنالك فأعانه على انزاله ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فاجابه وأكل معه ثم سأله عن أمره فاخبره انه رجل خرج من الكوفة لامر ازعجه دون زاد فقال له الرجل تكون معى وتعيننى على سفرى ويكون طعامك عندى فقال الرجل انى حريص على خدمتك ومحتاج الى طعامك فسار معه فى طريقه وقدمه على أحسن حال قال فوصلا تكريت فنزلت الرفقة خارج المدينة ودخل الناس لقضاء حوائجهم فقال الرجل للخادم احفظ رحلنا حتى ادخل واشترى حاجتنا ثم دخل وقضى حوائجه فابطأ هنالك ثم خرج فلم يجد الرفقة ولا وجد صاحبه فظن انه لما رحلت الرفقة

رحل معها فلم يزل يسعى حتى وصل الى الرفقة بعد الجهد فسألهم عن صاحبه فقالوا ما جاء معنا ولا رأيناه ولكنه ارتحل الاسباب على الحمار ودخل على اثرك وظننا أمرته بذلك فكر الرجل راجعا الى تكريت وسأل عنه فلم يجد له أثرا ولا سمع له خبرا فيئس منه وسار الى الموصل مسلوب المال فوافاها نهارا جائعا عريانا فقيرا مجهودا فاستحيا أن يدخل نهارا فيشمت العدو ويحزن الصديق فبقي حتى أمسى ثم دخل فدق باب الدار فقيل من هذا فقال فلان يعني نفسه فاظهروا سرورا عظيما وحاجة اليه وقالوا الحمد لله الذي جاءبك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة والفاقة حملت جميع مالك وطال سفرك واحتاج أهلك وقد ولدت اليوم ولدا ووالله ما وجدنا ما نشتري به شيأ للنفساء ولقد كانت هذه الليلة طاوية على حالها فتحيل لنا في دقيق ودهن نسرج به فلا سراج عندنا فزاده ذلك غما وكره ان يخبرهم بحاله

أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم الا انها جزئية وضعيفة وغايتها انها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى أن ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شدفلا يترك عويصا ولا مهما ولا منغلقا الا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون المتعلم في أول تعلمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالقة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وانما أتى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان او منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل اغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره لان المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا وأقرب صبغة لان الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره واذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة

فيحزنهم وأخذ وعاء للزيت وجرابا للدقيق وخرج الى هذا الحانوت وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحوه وقد أغلق دكانه واطفأ مصباحه ونام فناداه فأجابه وعرفه وشكر الله على سلامته فقال التاجر لصاحب الحانوت اقدح زنادا أذن لك الدراهم في دقيق وزيت وعسل احتجت اليه الساعة وكره ان يخبره بتأخير الثمن فيمتنع منه فقدح البياع الزناد واستصبح فقال له التاجر زن لي من الدقيق كذا ومن الزيت كذا ومن العسل كذا ومن السمن كذا ومن الملح كذا وبينما هو كذلك اذ حانت منه التفاتة الى قعر الحانوت فرأى فيه خرجه الذي هرب به صاحبه فلم يملك ان وثب عليه والتزمه وألقى يده في أطواق صاحب الحانوت وجذبه الى نفسه وقال يا عدو الله أين مالي فقال له صاحب الحانوت مالك يا فلان فوالله ما علمتك متعديا ولا علمتني جنيت عليك ولا على سوالك فما هذا قال خرجي فرلي به خادم خدمني بجميع مالي وبحماري قال مالي علم غير ان رجلا ورد علي بعد العشاء واشترى مني عشاء واستضافني فأضفته وجعلت هذا الخرج في حانوتي وهذا الحمار في دار جارنا والرجل في المسجد بائت فقال له احمل معي الخرج وانهض الى الرجل فرفع الخرج معه وألقاه على عاتقه ومشى معه الى المسجد فاذا الرجل نائم في المسجد فركضه برجله فقام الرجل مذعورا فقال له مالك فقال له أين مالي يا خائن قال هو ذا على عنقك والله ما تغادر منه ذرة قال فأين الحمار قال هو عند هذا الجاني معك فنهض الى داره فوجد متاعه سليما واستخرج الحمار من الموضع الذي كان فيه ووسع على أهله وأخبرهم بقصته فزاد أهله فرحا وتبركا بذلك المولود ولما وفى موسى عليه السلام اصهره شعيب عليه

السلام الاجل الذى أجلاه لرعى غنم شعيب التى رعاها موسى عوضا عن مهر ابنته أخذ موسى عليه السلام زوجته وكر راجعا من مدين فلما وافى الوادى المقدس عند جانب الطور أجنهم الليل بظلمته فامسوا باثنين فبينما هم كذلك اذ ضرب زوجته الطلق وكانت حاملا وليس عندهم ما تحتاج اليه النفساء من الغذاء والدواء وما يصلح به شأنهم فبقوا فى ضيق من الحال وقلة من الحيلة فخرج موسى عليه السلام يلتفت وينظر يمينا وشمالا عسى فرج لما امسوا فيه من الضر اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها أضيق ما يكون ذرعا وأحرجه قلبا وآيسه عن رفق نودى من شاطئ الوادى الايمن ياموسى انى أنا ربك وهكذا الطائف الحق سبحانه مع من سلم لامره ورجا فضله وتكلم بالهدى والبشرى يفتح الله فيه أمله ويعطيه فوق ماسأله هذا موسى عليه السلام خرج يقتبس نارا نودى بالنبوة ومن هذا قال علماؤنا ليس فى خصال الخير وان جلت ولا فى أنواع الاعمال وان عظمت أعلى من حسن الظن بالله تعالى ونظمه بعض الشعراء فقال

أيها العبد كن لما لست ترجو
من نجاح أرجى لما أنت راج
ان موسى مضى ليقبس نارا
من ضياء رآه والليل داج
فأتى أهله وقد كلم الله
وناجاه وهو خير مناج
وكذا الكرب كلما اشتد بالعبـ
ـد دنت منه راحة الانفراج

(وروى) ان العدو نزل بساحة افريقية فى عدد كثير من المراكب ففنى ماؤهم وعطشوا وافتقر المسلمون لهم فى خلق عظيم من تلك السواحل والحصون فمنعوهم النزول لاستقاء الماء وأرسلوا الى المسلمين ان يخلوهم واستقاء الماء فأبوا فاقتضاه عطشهم حتى أشرفوا على الهلاك ففتحوا اناجيلهم وأخذوا فى الدعاء والاستسقاء الى الله تعالى والتضرع اليه فلم يلبث وشك من السماء ان القت باوراقها ثم أرخت ماء كثيرا فبسط القوم انطاعهم وجفانهم وآلاتهم فشربوا وملؤا أوانيهم ففضح المسلمون عند ذلك وقالوا هؤلاء كفار واعداء الله ورسوله قد أخلصوا الى ربهم وأنابوا اليه وسألوه ما يحيون به رمقهم فأغاثهم فنحن أحق بالدعاء والتضرع الى الله سبحانه وأولى بالاجابة منهم ثم جد المسلمون فى الدعاء والصلاة والابتهال الى الله تعالى فى أن يريهم آية يقوى بها قلوب الضعفاء ويتزايد شكر أهل المعرفة والاولياء فبينما هم كذلك اذ أرسل الله عليهم ريحا فبددتهم ومزقتهم كل ممزق وكسرت مراكبهم ولم يجتمع منهم اثنان ومن عجائب صنع الله تعالى فى هذا الباب ان رجلا من ديار بكر جاء الى بيت المقدس وزار

الملكة الناشئة عنه والله علمكم مالم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب

(فصل) واعلم أيها المتعلم انى أتحفك بفائدة فى تعلمك فان تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك فى فهمها وذلك ان الفكر الانسانى طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس فى البطن الاوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للافعال الانسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ العلم مالم يكن حاصلا بأن يتوجه الى المطلوب وقد تصور طرفيه ويروم نفيه أو اثباته فيلوح له الوسط الذى يجمع بينهما أسرع من لمح البصر ان كان واحدا وينتقل الى تحصيل آخر ان كان متعددا ويصير الى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التى تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هى كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطئه لانها وان كان الصواب لها ذاتيا الا انه قد يعرض لها الخطأ فى الاقل من تصور الطرفين على غير صورتهما من اشتباه الهيآت فى نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد اذا عرض فالمنطق اذا أمر صناعى مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمرا صناعيا استغنى عنه فى الاكثر ولذلك تجد كثيرا من فحول النظار فى الخليقة يحصلون على المطالب فى العلوم دون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فان ذلك أعظم معين ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضى بالطبع الى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الامر الصناعى الذى هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهى معرفة الالفاظ ودلالتها على المعانى الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها الى الفكر فى مطلوبك فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الالفاظ المقولة وهى أخفها ثم دلالة الالفاظ المقولة على المعانى المطلوبة ثم القوانين فى ترتيب المعانى للاستدلال فى قوالبها المعروفة فى صناعة المنطق ثم تلك المعانى مجردة فى الفكر اشتراطا يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب فى التعليم بسهولة بل ربما وقف الذهن فى حجب الالفاظ بالمناقشات أو عثر فى اشتراك الادلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة الا قليلا ممن هداه الله فاذا ابتليت بمثل ذلك

قبر الخليل صلى الله عليه وسلم وأكل من ضيافته فطارت حبة عدس من ذلك الطعام في خيشومه ورام خروجها بكل حيلة فأعجزته حتى تركته مضني ثم رجع الى بلاده فبينما هو جالس اذ عطس فطارت العدسة في الارض فاذا طائر قد التقطها وقتها وبرئ الرجل فسبحان من جعل أنف هذا الرجل حرز القوت هذا الطائر على بعد الشقة والمسافة وأما أنا فلما هممت بالرحيل من بلدي الى المشرق في طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ولا لي حرفة ارجع اليها فجزعت من الخروج وكنت أقول ان ذهبت نفقتي ماذا أفعل وكان أقوى الآمال في نفسي ان أحفظ البساتين بالاجرة وأدرس العلم بالليل ثم استخرت الله تعالى فرحلت وكانت معي نفقة وافرة في هميان على وسطي وكنت أسمع المسافرين يقولون من نام بالليل (٣٤٢) في القيافي وله نفقة على وسطه فليحلها فان اللصوص اذا كابرت الخلق يبتدرون أوساطهم فخرجت من بلاد السويدية الى انطاكية وهي اذ ذاك حرب للروم فسرينا ليلتنا وأصبحنا على باب انطاكية فأخذتني عيني وحللت الهميان ونمت ولم أستيقظ الا ضحوة النهار فاستيقظت ومددت يدي الى الهميان فلم اجده فجعلت أنظر الى القافلة وألتفت الى الناس وقد أسقط في يدي ولم يبق لي حيلة فاسترجعت ورفعت أمري الى الله سبحانه واذا رجل من أهل القافلة ملتفتا الى فوقع وجهي في وجهه فاذا هو يضحك لما رأى ما بي فقام مالك أيها الفقيه قلت خير فراجعني فقلت خير فقام الي وقال خذ هميانك عافاك الله فسألته كيف ظفرت به فقال وراسك قد تدحرجت ذراعين أو ثلاثة والتفت فرأيت سوادا في الموضع الذي كنت فيه نائما فسرت اليه واخذته فاذا هو الهميان رحمة الله عليه ورضوانه لديه

(الباب الستون في بيان الخصلة التي هي ام الخصال وينبوع الفضائل ومن فقدها لم يكمل فيه خصلة وهي الشجاعة ويعبر عنها بالصبر ويعبر عنها بقوة النفس) قالت الحكماء أصل الخيرات كلها في ثبات القلب ومنه تستمد جميع الفضائل وهو الثبوت والقوة على ما يوجبه العدل والعلم والجبن غريزة يجمعها سوء الظن بالله تعالى والشجاعة غريزة يجمعها حسن الظن بالله تعالى سئل الاحنف عن الشجاعة فقال صبر ساعة وسئل ابو جهل عن الشجاعة فقال تصبرون على حر السيوف فواق ناقة وهو ما بين الحلبتين واعلم ان القادم للقتال طريدة من طرائد الموت فاستقبال الموت خير من استدباره وقد قال الاول رب حياة سببها التعرض للوفاة ووفاة سببها طلب الحياة ومن حرص على الموت في الجهاد وهبت له الحياة وقالوا الهزيمة شغرة من شفار الموت والفار

وعرض لك ارتباك في فهمك او تشغيب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك وانتبذ حجب الالفاظ وعوائق الشبهات واترك الامر الصناعي جملة واخلص الى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه واضعا لها حيث وضعها أكابر النظار قبلك مستعرضا للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمته وعلمهم مالم يكونوا يعلمون فاذا فعلت ذلك اشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الامام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطره عليه كما قلناه وحينئذ فارجع به الى قوالب الادلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعي ثم اكسه صور الالفاظ وأبرزه الى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان * وأما ان وقفت عند المناقشة والشبهة في الادلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها المتعددة وتتشابه لاجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها اذ جهة الحق انما تستبين اذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتياب وتسدل الحجب على المطلوب وتقعد بالناظر عن تحصيله وهذا شأن الاكثرين من النظار والمتأخرين سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت عن ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي تعصب له فاعتقد انه الذريعة الى ادراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الادلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة الى درك الحق بالطبع انما هو الفكر الطبيعي كما قلناه اذا جرد عن جميع الاوهام وتعرض الناظر فيه الى رحمة الله تعالى واما المنطق فانما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقه لذلك في الاكثر فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك انواره بالالهام الى الصواب والله الهادي الى رحمته وما العلم الا من عند الله

٣١ *(فصل في أن العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل)*

(اعلم) ان العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والالهيات من الفلسفة وعلوم هي آلية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات وكالمنطق للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولاصول الفقه على طريقة المتأخرين فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الادلة والانظار فان ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وايضاحا لمعانيها المقصودة واما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وامثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها الا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لان ذلك مخرج لها عن المقصود اذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها

ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع ان شأنها اهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعا للعمر وشغلا بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق واصول الفقه لانهم اوسعوا دائرة الكلام فيها واكثروا من التفاريع والاستدلالات بما اخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها انظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضا مضرة بالمتعلمين على الاطلاق لان المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فاذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية ان لا يستبحروا في شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده فمن نزعت به همته بعد ذلك الى شئ من التوغل فليرق له ما شاء من المراقي صعبا او سهلا وكل ميسر لما خلق له

٣٢ *(فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه)*

(اعلم) ان تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين اخذ به اهل الملة ودرجوا عليه في جميع امصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الاحاديث وصار القرآن اصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك ان تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لان السابق الاول للقلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شئ من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب اهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة وكذا في الكبير اذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم وأما أهل الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا

يمكن من نفسه والمقاتل يدفع عن نفسه وقالوا ثمرة الشجاعة الامن من العدو واعلم أن من قتل في الحرب مدبرا أكثر ممن قتل مقبلا وقالوا تأخيرا الاجل حصن المحارب وقيل لبعضهم في أي جنة تحب ان تلقى عدوك قال بادبار دولته وانقضاء مدته واعلم أن الشجاعة لمن كانت له الدولة واذا انقضت المدة لم تغن كثرة العدد وقال على رضي الله عنه اذا انقضت المدة كانت الهلكة في الحيلة واعلم ان كل كريهة ترفع أو مكرمة تكتسب لا تتحقق الا بالشجاعة ألا ترى انك اذا هممت ان تمنع شيأ من مالك خار طبعك ووهن قلبك وعجزت نفسك فشححت به واذا حققت عزمك وقويت نفسك وقهرت ذلك العجز أخرجت المال المضنون به وعلى قدر قوة القلب وضعفه تكون طيبة النفس باخراجه أو كراهية النفس لاخراجه مع اخراجه وعلى هذا النمط جميع الفضائل مهما لم يقارنها قوة نفس لم تتحقق وكانت مخدوعة وروى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال الشجاعة والجبن غرائز يضعها الله تعالى فيمن يشاء من عباده فالجبان يفر عن أمه وأبيه والشجاع يقاتل عمن لا يؤب به الى رحله فبقوة القلب يصاب امتثال الاوامر والانتهاء عن الزواجر وبقوة القلب يصاب اكتساب الفضائل وبقوة القلب ينتهى عن اتباع الهوى والتضمخ بالرذائل قال الشاعر

جمع الشجاعة والخضوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب

وبقوة القلب يصبر الجليس على اذى الجليس وجفاء الصاحب وبقوة القلب يكتم الاسرار ويدفع العار وبقوة القلب يقتحم الامور الصعاب وبقوة القلب يتحمل أثقال المكاره وبقوة القلب يصبر على اخلاق الرجال وبقوة القلب تنفذ كل عزيمة ورويه أوجبها الحزم والعدل وبقوة القلب يضحك الرجال في وجوه الرجال وقلوبهم مشحونة بالضغائن والاحقاد كما قال أبو ذر وانا لنكشر في وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم وقال على رضي الله عنه انا لنصافح أكفا نرى قطعها وليس الصبر والشجاعة وقوة النفس ان تكون مصرا في المحال لجوجا في الباطل ولا ان تكون جلدا عند الضرب صبورا على التعب مصمما على التعزير والتهور فان هذه صفة الحمير والخنازير ولكن ان تكون صبورا على أداء الحقوق عليك صبورا على سماعها والقائها اليك غالبا للهوى مالكا لشهواتك ملتزما للفضائل بجهدك عاملا في ذلك على الحقيقة التي لا يحيلك عنها حياة ولا موت حتى يكون عندك موتك على الخير الذي اشار به العلم وأوجبه العدل خيرا من البقاء على ما أوجب رفض العلم والعدل كما قال على بن الحسين رضوان الله عليهما آباني ونابيا الى ابولك

بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق باذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بايديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الاول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعد اذا وجد المعلم وأما أهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الاندلس لان سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين اجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان واذا كتبوا لهم الالواح فبخط قاصر عن الاجادة ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه و يبتغيه من أهل صنعته فأما أهل افريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة وذلك ان القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على اساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة في غير اساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام وربما كان أهل افريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل الا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما ان أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله وأما أهل الاندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من اول العمر حصول ملكة صاروا بها اعرف في اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو اصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل حظ وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته الى طريقة غريبة في وجه التعليم وأعاد في ذلك وأبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الاندلس قال لان الشعر ديوان العرب و يدعو الى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه

لو ان الخاني خالفوه اذا كان على الحق وهل الخير كله للمحق الا بعد الموت ومن هذا قالت حكماء الهند اذا لم يكن للملك من نفسه معين كان في جميع اموره ضعيفا مخذولا واعلم ان الجبن مقتلة والحرص محرمة والعجز ذل والجبن ضعف والجبان يعين على نفسه يفر عن أمه وأبيه وصاحبته و بنيه واعلم ان كل كريهة ما بين الحابتين والشجاع يحمي عمن لا يناسبه و يقي مال الجار والرفيق بمهجته والجبان يخاف مالا يحس به والجبان حتفه من فوقه واعلم ان الشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه رجل اذا التقى الجمعان وتزاحف الزحفان واكتحلت الاحداق بالاحداق برز من الصف الى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي هل من مبارز والثاني اذا التحم القوم واختلطوا ولم يدر أحد من أين يأتيه الموت يكون رابط الجاش ساكن القلب حاضر اللب لم يخامره الدهش ولا خالطته الحيرة فينقلب بقلب المالك لامره القائم على نفسه والثالث اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة و يضرب في وجوه القوم و يحول بينهم وبين عدوهم و يقوي قلوب أصحابه و يرجي ضعيفهم ويمدهم بالكلام الجميل و يشجع نفوسهم فمن وقع اقامه ومن وقف حمله ومن كردس فرسه كشف عنه حتى ييئس العدو منهم وهذا أحمدهم شجاعة ومن هذا قالوا المقاتل وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم (وقالوا) لكل واحد يومان لا بد منهما احدهما لا يعجل عليه والثاني لا يغفل عنه فما للجبان والفرار وكان شيوخ الجند يحكون في بلادنا قالوا دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا في المعترك قطعة من بيضة الحديد قدر ثلثها بما حوته من الرأس فقال انه لم يرقط ضربة اقوى منها وكان شيوخ الجند في بلدنا طرطوشة

يحكون انهم خرجوا في أيام سيف الملة في سرية الى بلاد العدو فبينما هم يسيرون اذ لقيتهم سرية للروم يريدون مثلما نريد فهم قال وعرف بعضهم بعضا وكان فينا صناديد الفرسان وفيهم صناديد الروم فتواقفنا ساعة ثم شددنا وشدوا فالتقينا وتجالدنا ساعة ثم منحنا الله تعالى اكتافهم فجعلناهم حصيدا كانهم جزروا على الاوضام وكان هناك بقربهم قرية فيها شيء من الخمر فشربناه وسكرنا ثم اشتهينا شرائح اللحم فقمنا نقطع من لحومهم ونجعل على النار واكلنا منها فزع من كنا أسرناه منهم و بلغ الحديث الى الروم فقضت النصارى تعجبا منا وقذف الرعب في قلوبهم (وروي) ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي عمرو بن معديكرب فقال له يا عمرو اي السلاح افضل في الحرب فقال عن

المقدمة ثم قال وياغفلة أهل بلادنا في ان يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه ثم قال ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان الا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن الا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثارا للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لأنه ما دام في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه سبحانه

٣٣ *(فصل في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم)*

وذلك ان ارهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به وتجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى انهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ان لا يستبدوا عليهم في التأديب وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين لا ينبغي لمؤدب الصبيان ان يزيد في ضربهم اذا احتاجوا اليه على ثلاثة أسواط شيئا ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصا على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلما بان المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فانه أعلم بمصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الامين فقال يا أحمر ان أمير المؤمنين

أيها تسأل قال ما تقول في السهام قال منها ما يخطئ و يصيب قال فما تقول في الرمح قال أخوك وربما خانك قال فما تقول في السيف قال ذاك الذي لا أم لك قال فما تقول في الترس قال هو الدائرة وعليه تدور الدوائر وكان عمرو هذا من شجعان العرب وأبطالها نزل يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه اني عابر على الجسر فان أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي وقد عقرني القوم وأنا قائم بينهم وان أبطأتم وجدتموني قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم والله ما أرى ان تدركوه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها وان الفارس ليضرب فرسه فما يقدر الفرس ان يتحرك فلما غشيناه رمى الرجل بنفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوني قالوا أين فرسك قال رمى بنشابة فعار وشب فصرعني (ويروى) ان عمرا حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي قدمه يزدجرد ملك الفرس على قتال المسلمين فاستقبل عمرو رستما على فيل فقطع عرقوبيه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان عليه فيه أربعون ألف دينار فقتل رستما وانهزمت العجم وروى ان قاتل رستم زنيم بن فلان وأما الضربة التي حكيناها التي حازت ثلث البيضة بما حوته من الرأس فلم يسمع بمثلها في جاهلية ولا اسلام فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم وكانوا اذا عيروا بانهزامهم يقولون لقينا أقواما هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم اليها ليروها وانما كانت العرب تفخر في هذا الباب بقول الغمر بن تولب يصف ضربة بسيف

أبقى الحوادث والأيام من نمر * آثار سيف قديم أثره بادي
تظل تحفر عنه ان ضربت به * بعد الذراعين والقيدين والهادي

وينشد قول النابغة في السيف أيضا

يقد السلوقي المضاعف نسجه * ويوقد بالصفاح نار الحباحب

وأين هذا من قد الحديد بما حواه من الرأس وأين الثريا من الثرى وأين الحسام من المنجل ولولا كراهة التطويل لذكرنا من أمثال هذا ما فيه العجب وقد قالوا السيف ظل الموت السيف لعاب المنية والرمح رشاء المنية والسهام رسل لا تؤامر من أرسلها والرمح أخوك وربما خانك والدرع مشغلة للراجل ومتعبة للفارس وانها لحصن حصين والترس مجن وعليه تدور الدوائر

(الباب الحادي والستون في ذكر الحرب وتدبيرها وحيلها وأحكامها)

من حزم الملك أن لا يحتقر عدوه وان كان ذليلا ولا يغفل عنه وان كان حقيرا فكم من

برغوث أسهر فيلا ومنع الرقاد ملكا جليلا وقال الشاعر فلا تحقرن عدوا رماك * وان كان فى ساعديه قصر فان السيوف تحز الرقاب * وتعجز عما تنال الابر وفى الامثال لا تحقرن الذليل فربما شرق بالذباب العزيز ومثل العدو مثل النار ان تداركت أولها سهل اطفاؤها وان تركت حتى استحكم ضرامها صعب مرامها وتضاعفت بليتها ومثله أيضا مثل الجرح الردى ان تداركته سهل برؤه وان أغفلته حتى نغل عظمت بليته وأعيا الاطباء برؤه (واعلموا) ان الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبا فلا يسع اهل سائر الاقاليم جهلها اذ لكل أمة فى الغالب نوع من التدبير وصنف من الحيلة وضرب من المكيدة وجنس من اللقاء والكر والفر وتعبية المواكب وحمل بعضهم على بعض ولكن نصف منه أشياء (٣٤٦) تجرى مجرى المعاقد لا تكاد تختلف فى انهاء أزمة الحروب ونبدأ أولا بما ذكره الله تعالى فى القرآن قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبى صلى الله عليه وسلم القوة فرأى أناس يرمون فقال الا ان القوة الرمى الا ان القوة الرمى ألا ان القوة الرمى وكان بعض أصحابه اذا أراد الغزو لا يقص أظفاره ويتركها عدة ويراها قوة فأول ذلك أن يقدم بين يدى اللقاء عملا صالحا من صدقة وصيام ورد مظلمة وصلة رحم ودعاء مخلص وأمر بمعروف وتغيير منكر وأمثال ذلك فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر بذلك ويقول انما تقاتلون بأعمالكم وروى ان بريدا ورد عليه بفتح للمسلمين فقال له عمر أى وقت لقيتم العدو قال غدوة قال ومتى انهزم قال عند الزوال فقال عمر انا لله وانا اليه راجعون وقام الشرك للايمان من غدوة الى الزوال لقد أحدثتم بعدى حدثا او احدثت بعدكم حدثا والشأن كل الشأن فى استجادة القواد وانتخاب الامراء واصحاب الولاية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلا ينبغى ان يقدم على الجيش الا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجراءة ثبت الجنان صارم القلب جرىء رابط الجأش صادق البأس ممن قد توسط الحروب ومارس الرجال ومارسوه ونازل الاقران وقارع الابطال عارفا بمواضع الفرص خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب وما الذى يجب شحنه بالحماة والابطال من ذلك بصيرا بصنوف العدو ومواقع الغرة منه ومواقع الشدة منه فانه اذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كان جميعهم كانه مثله فان

قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك الا فى أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة اهـ

٣٤ *(فصل فى أن الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم)*

والسبب فى ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا فى تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم انها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك الا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء اهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم انها انحاء تعليم وطرق توصيل وتنهض قواه الى الرسوخ والاستحكام فى الملكات ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

٣٥ *(فصل فى أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها)*

والسبب فى ذلك انهم معتادون النظر الفكرى والغوص على المعانى وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها فى الذهن أمورا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ويطبقون من بعد ذلك الكلى على الخارجيات وايضا يقيسون الامور على اشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهى فلا تزال احكامهم وانظارهم كلها فى الذهن ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ من البحث والنظر ولا تصير بالجملة الى مطابقة وانما يتفرع ما فى الخارج عما فى الذهن من ذلك كالاحكام الشرعية فانها فروع عما فى المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة ما فى الخارج لها عكس الانظار فى العلوم العقلية التى تطلب فى صحتها مطابقتها لما فى الخارج فهم متعودون فى سائر أنظارهم الامور الذهنية والانظار الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة ما فى الخارج وما يلحقها من الاحوال ويتبعها فانها خفية ولعل ان يكون فيها ما يمنع من الحاقها بشبه أو مثال وينافى

الـكلى

الـكلى الذى يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس شئ من أحوال العمران على الآخر اذ كما اشتبها فى أمر واحد فلعلهما اختلفا فى أمور فتكون العلماء لاجل ما تعودوه من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض اذا نظروا فى السياسة افرغوا ذلك فى قالب انظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون فى الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم ويلحق بهم اهل الذكاء والكيس من أهل العمران لانهم ينزعون بثقوب اذهانهم الى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعانى والقياس والمحاكاة فيقعون فى الغلط والعامى السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده اياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفى كل صنف من الاحوال والاشخاص على ما اختص به ولا يعدى الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق فى أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها فى ذهنه كالسابح لا يفارق البر عند الموج قال الشاعر

فلا توغلن اذا ما سبحت * فان السلامة فى الساحل

فيكون مأمونا من النظر فى سياسته مستقيم النظر فى معاملة ابناء جنسه فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذى علم عليم ومن هنا يتبين ان صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس فانها تنظر فى المعقولات الثوانى ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الاحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقينى وأما النظر فى المعقولات الاول وهى التى تجريدها قريب فليس كذلك لانها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

٢٦ *(فصل فى أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم)*

من الغريب الواقع ان حملة العلم فى الملة الاسلامية اكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا فى القليل النادر وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته مع ان الملة عربية وصاحب شريعتها عربى والسبب فى ذلك ان الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة وانما احكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء اى الذين يقرؤن الكتاب وليسوا اميين لان الامية يومئذ صفة عامة فى الصحابة بما كانوا عربا فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء اشارة الى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله لانهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذى هو فى غالب موارده تفسير له وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما

رأى اقراع الكتائب وجها والارتد الغنم للزريبة (واعلم) ان الحرب خدعة عند جميع العقلاء وآخر ما يجب ركوبه قرع الكتائب وحمل الجيوش بعضها على بعض فليبدأ بتصريف الحيلة فى نيل الظفر (قال) نصر بن سيار كنت أمير خراسان من قبل مروان الجعدى آخر ملوك بنى أمية قال وكان عظماء الترك يقولون ينبغى للقائد العظيم القياد أن يكون فيه عشرة أخلاق من أخلاق البهائم شجاعة الديك وبحث الدجاجة وقلب الاسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وحراسة الكركى وغارة الذئب وسمن تغير وهى دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء وكان يقال اشد خلق الله تعالى عشرة الجبال والحديد ينحت الجبال والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار والسحاب يحمل الماء والريح تصرف السحاب والانسان يتقى الريح بحاجته والسكر يصرع الانسان والنوم يذهب السكر والهم يمنع النوم فاشد خلق ربك الهم فاول ذلك ان يبث جواسيسه فى عسكر عدوه ويستعلم اخباره مع الساعات ويستعلم رؤساءهم وقادتهم وذوى الشجاعة منهم ويدس اليهم ويعدهم وعدا جميلا ويوجه اليهم بضروب الخدعة ويقوى أطماعهم فى ان ينالوا ما عنده من الهبات الفاخرة والولايات السنية وان راى وجها عاجلهم بالهدايا والتحف وسألهم اما الغدر بصاحبهم واما اعتزاله وقت اللقاء ويفشى على السنتهم كتبا مدلسة اليه ويبثها فى عسكره ويكتب على السهام اخبارا مزورة ويرمى بها فى جيوشهم ويضرب بينهم بما فى المسو ومن ذلك فان جميع ما ذكرنا تنفق فيه الاموال والحيل واللقاء تنفق فيه الارواح والرؤس ووجوه الخداع فيه لا تحصى والحاضر فيها أبصر من الغائب ولله در المهلب لما كتب اليه الحجاج يستعجله فى حرب الازارقة رد الجواب فقال ان من البلاء أن يكون الرأى عند من يملكه لا عند من يبصره وقال المختار ليزيد بن أنس حين ولاه الجزيرة وأمره بقتال عبيد الله بن زياد امض الى عدوك برأى غير مستبد وبحزم غير متكل ولا تركن الى الدولة فربما انقلبت واستشر من لا يطمع فى عملك ولا تسر بقلبك واستخر الله تعالى قبل اقدامك توفق * وأوصت أم الذيال العبسية ابنها القتال وهو من أشد العرب يا بنى لا تنشب فى حرب ان وثقت بشدتك حتى تعرف وجه المهرب منها فان النفس أقوى شئ اذا وجدت سبيل الحيلة واضعف شئ اذا يئست منها وأجد الشدة ما كانت الحيلة مدبرة لها اذا لم يكن النصر من الله تعالى فابذلها واختلس من المحارب خلسة الذئب وطر منه طيران الغراب فان الحذر زمام الشجاعة والتهور عدو

كتاب الله وسنتي فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج الى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج الى معرفة الاسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الاسانيد وما دونه ثم كثر استخراج احكام الواقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت الى علوم أخرى وهي وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الايمانية بالادلة لكثرة البدع والالحاد فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع وقد كنا قدمنا ان الصنائع من منتحل الحضر وان العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أومن في معناهم من الموالي واهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة واحوالها من الصنائع والحرف لانهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وانما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن اهل الاسلام أكثرهم عجم او مستعجمون باللغة والمربى وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم باكناف السماء لناله قوم من اهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية ومادفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا اهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها مع ما يلحقهم من الانفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر اليها ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولدين ومازالوا يرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار حتى اذا خرج الامر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند اهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يغني ولا يجدى عنهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في ان حملة الشريعة او عامتهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في الملة الا بعد ان تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها الا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا فلم يزل ذلك في الامصار مادامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان

الشدة * وقال ابو السرايا وكان أحد القتاك لابنه يابني كن بحيلتك اوثق منك بشدتك وبحذرك أوثق منك بشجاعتك فان الحرب حرب المتهور وغنيمة الحذر واعلم ان الدول اذا زالت صارت حيلها وبالا عليها واذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة * وقالت الحكماء اذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة واذا انقضت مدة الدول أدبرت سنة الغفلة عن سنة الحذر ويغلب الضعيف باقبال دولته كما يغلب القوى بفناء مدته * وقالوا سعود الدول ونحوسها مقرونة بسعود الملك ونحوسه وقالوا أبهى زى على كل امرئ دولته فاذا انقضت بدت عورته وقالوا رب حيلة اهلكت المحتال فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال وكماة الابطال في القلب فانه مهما انكسر الجناحان فالعيون ناظرة الى القلب فاذا كانت راياته تخفق وطبوله تضرب كانت حصنا للجناحين يأوى اليه كل منهزم واذا انكسر القلب تمزق الجناحان مثال ذلك الطائر اذا انكسر احدى جناحيه يرجى عوده ولو بعد حين وان انكسر الرأس ذهب الجناحان ولا تحصى كثرة انكسار جناحى العسكر وثبات القلب ثم يرجع الفارون الى القلب ويكون الظفر لهم وقل عسكر انكسر قلبه فافلح او تراجع اللهم الا ان يكون مكيدة من صاحب الجيش فيخلى القلب قصدا وتعمدا ولا يغادر به كبير أمر حتى اذا توسطه العدو اشتغل بنهبه واطبقت عليه الجناحان ومن أعظم المكايد في الحرب الكمناء ولا يحصى كثرة كمين عسكر استبيحت بيضته وقل عزمه بالكمناء وذلك ان الفارس لا يزال على جنبة في الدفاع وحمى الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندا منشورا او يسمع ضرب الطبول فحينئذ همته خلاص نفسه ولتكن همتك وراء ذلك وعليه مدار الحروب في اصطناع الشجعان واختيار الابطال فاصطنع ذوى البسالة والاقدام والجراءة ولا عليك أن لا يكثروا وبعد فعليك أن يكثروا ولا تنس بيت الشاعر

والناس ألف منهم كواحد * وواحد كالالف ان أمر عنا

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد منهم خيرا من عشرة آلاف وسأحكي لك من ذلك ما تقضى منه العجب فهم في الجيش وان قلوا كالانفحة في اللبن * فمن ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن ردمير النصراني على مدينة وشقة في ثغور بلاد الاندلس وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يراهق عشرين الف مقاتل بين خيل ورجل فحدثني رجل ممن حضر الوقعة من الاجناد قال لما دنا اللقاء قال الطاغية بن ردمير لمن يثق

وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالامصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هنالك من الحضارة بالدولة التي فيها فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تآليف وصلت الينا الى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يعول على نهايته في الاصابة فاعتبر ذلك وتأمله تر عجبا في أحوال الخليقة والله يخلق ما يشاء لا اله الا هو وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله

٣٧ *(فصل في علوم اللسان العربي)*

أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فنا فنا والذي يتحصل ان الاهم المقدم منها هو النحو إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الاوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(علم النحو)

اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالافعال الى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى وليس يوجد ذلك الا في لغة العرب وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا فصار

بعقله وممارسته للحروب من رجاله استعلم من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم ويعرفونا ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع فقال فيهم فلان وفلان حتى عد سبعة رجال قال انظر الآن من في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم فعدوهم فوجدوهم ثمانية رجال لا يزيدون فقام الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول يا بياضك من يوم ثم ناشب الحرب بينهم فلم تزل المصابرة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فني أكثر العسكرين ولم يبق واحد منهم فلما كان وقت العصر نظروا الينا ساعة ثم حملوا علينا حملة وداخلونا مداخلة ففرقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا وصاروا بيننا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تقم الحرب الا ساعة ونحن في خسارة معهم فأشار مقدموا العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم وملك العدو مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوي على اربعين الف مقاتل ولا يحضره من الشجعان المعدودين الا خمسة عشر رجلا وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد (وسمعت) أستاذنا القاضي أبا الوليد الباجي رحمه الله يحكي قال بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته إذ وقف على نشز من الارض مرتفع فرأى جيوش المسلمين بين يديه ومن خلفه وعن يمينه ويساره قد ملؤا السهل والجبل فالتفت الى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المصحفي فقال كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير قال ابن المصحفي أرى جما كثيرا وجيشا واسعا فقال له المنصور لا يعجزنا ان يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة فسكت ابن المصحفي فقال المنصور وما سكوتك أليس في هذه الجيوش ألف مقاتل قال لا قال فتعجب المنصور ثم انعطف عليه فقال أفيهم خمسمائة رجل من الابطال المعدودين قال لا تخفى على المنصور ثم انعطف عليه فقال أفيهم مائة رجل من الابطال قال لا قال أفيهم خمسون من الابطال قال لا فسبه المنصور واستخف به وأمر به فأخرج على أقبح صفة فلما توسطوا بلاد المشركين اجتمعت الروم وتصاف الجمعان فبرز علج من الروم بين الصفين شاك في سلاحه يكر ويفر وهو ينادي هل من مبارز فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ففرح المشركون وصاحوا واضطرب لها المسلمون ثم جعل العلج يمرح بين الصفين وينادي هل من مبارز اثنين لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا

ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل وينادي هل من مبارز ثلاثة لواحد فبرز اليه رجل فقتله العلج فصاح المشركون وذل المسلمون وكادت تكون كسرة فقيل للمنصور ما لها غير ابن المصحفي فبعث اليه فحضر فقال له المنصور ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم قال بعيني جميع ما جرى قال فما الحيلة فيه قال وما الذي تريد قال ان تكفي المسلمين شره قال نعم الآن ثم قصد الى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تشرت أوراكها هزالا وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل في نفسه وحليته غير متصنع فقال له ابن المصحفي ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رأيته فماذا ترى فيه قال اريد رأسه الآن قال نعم فحمل القربة الى رحله ولبس لأمته وبرز اليه فتجاولا ساعة (٣٥٠) فلم ير الناس الا المسلم خارجا اليهم يركض ولا يدرون ما هنالك واذا الرجل يحمل رأس العلج فألقى الرأس بين يدي المنصور فقال له ابن المصحفي من هؤلاء الرجال أخبرتك انه ليس في عسكرك منهم ألف ولا خمسمائة ولا مائة ولا خمسون ولا عشرون ولا عشرة فرد ابن المصحفي الى منزلته وأكرمه (واعلم) ان أول الحرب شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى الحرب شعثاء عابسة شوهاء كالحة خرور في حياض الموت شموس في الوطيس تتغذى بالنفوس الحرب أولها الكلام وآخرها الحمام الحرب مرة المذاق اذا قلصت عن ساق من صبر فيها عرف ومن ضعف عنها تلف جسم الحرب الشجاعة وقلبها التدبير وعينها الحذر وجناحها الطاعة ولسانها المكيدة وقائدها الرفق وسائقها النصر وقال الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقالوا الحرب غشوم سميت بذلك لانها تتخطى الى غير الجاني قال الشاعر لم أكن من جناتها علم الله واني بحرها اليوم صالي

الدين

وقال آخر رأيت الحرب يجنيها اناس * ويصلى حرها قوم براء وقال آخر الحرب أول ما تكون فتية * تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا اضطرمت وشب ضرامها * عادت عجوزا غير ذات خليل شمطاء ينكر لونها وتغيرت * مكروهة للشم والتقبيل

(وقال بعض الحكماء) قد جمع الله تعالى آداب الحرب في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين * واستوصى قوم أكثم بن صيفي في حرب أرادوها فقال أقلوا الخلاف على امرائكم واعلموا ان كثرة الصياح فشل ولا جماعة لمن اختلف وتثبتوا فان أحزم الفريقين الركين

للحروف في لغتهم والحركات والهيئات أي الاوضاع اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه صناعة يستفيدون ذلك منها انما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر من الاول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الامم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات التي للمتعربين والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقي اليها مما يغايرها لجنوحها اليه باعتياد السمع وخشي أهل العلوم منهم ان تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر انواع الكلام ويلحقون الاشباه بالاشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته اعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو وأول من كتب فيها أبو الاسود الدؤلي من بني كنانة ويقال باشارة علي رضي الله عنه لانه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ثم كتب فيها الناس من بعده الى ان انتهت الى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أحوج ما كان الناس اليها لذهاب تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل أبوابها وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار اماما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الامام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب وكثرت الادلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في اعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادي للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك في الارجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الارجوزة الالفية وبالجملة فالتآليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران ووصل الينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال

(وقال) عتبة بن ربيعة يوم بدر لاصحابه الا ترون أصحاب محمد جثيا على الركب كأنهم خرس يتلمظون تلمظ الحيات (ورأيت) غير واحد ممن ألف في الحرب يكره رفع الصوت بالتكبير ويقولون يذكر الله في نفسه واعلم أرشدك الله تعالى ان الله تعالى قد أوضح لنا في كتابه علة النصر وعلة الهزيمة والفرار فقال يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم يعني ان تنصروا رسوله ودينه وأما الفرار فعلته المعاصي قال الله تعالى ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا أي بشؤم ذنوبهم وتركهم المركز الذي رسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه صلى الله عليه وسلم رتب الرماة يوم أحد على ثلمة الجبل ليمنعوا قريشا أن يخرجوا عليهم كميناً من ذلك الموضع ثم التقى المسلمون فانهزم الكفار فقال الرماة

لاتفوتنا الغنائم فأقبلوا على الغنائم وتركوا المركز الاول فخرجت خيل المشركين من هنالك وأقبلوا على المسلمين فكانت مقتلة أحد وليحذف قائد الجيش العلامة التي هو مشهور بها فان عدوه قد يستعلم حليته وألوان خيله ورايته ولا يلزم خيمته ليلا ونهارا وليبدل زيه ويغير خيمته ويعمي مكانه كي لا يلتمس عدوه غرته واذا سكنت الحرب فلا يمش في النفر اليسير من قومه خارج عسكره فان عيون عدوه قد انكبت عليه وعلى هذا الوجه كسر المسلمون جيوش افريقية عند فتحها وذلك ان الحرب سكنت في وسط النهار فخرج مقدم العدو يمشي خارج العسكر بتمييز عساكر المسلمين فجاء الخبر الى عبد الله بن أبي السرح وهو نائم في قبته فخرج فيمن وثق به من رجاله وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح

ولما عبر طارق مولى موسى بن نصير الى بلاد الاندلس ليفتحها وموسى اذ ذاك بافريقية نزحوا الى الجزيرة الخضراء وتحصنوا في الجبل الذي يسمى اليوم جبل طارق وهم في ألف وتسعمائة رجل فطمعت الروم فيهم فاقتتلوا ثلاثة أيام وكان على الروم تدمير استخلفه لذريق ملك الروم وكان قد كتب الى لذريق يعلمه ان قوما لا ندري أمن الارض أم من السماء قد وصلوا الى بلادنا وقد لقيتهم فانهض الي بنفسك فأتاه لذريق في تسعين ألف عنان ولقيهم طارق وعلى خيله مغيث الرومي مولى للوليد بن عبد الملك فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة فقام فحضهم على الصبر ورغبهم في الشهادة وبسط في آمالهم ثم قال أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس الا الصبر منكم والنصر من ربكم وأنا فاعل شيأ فافعلوا كفعلي فوالله لأقصدن طاغيتهم فاما أن أقتله واما أن أقتل دونه

الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الاعراب وأشار الى نكت اعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء

(علم اللغة)

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالاعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد الى موضوعات الالفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي اليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوه عددية حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الاعداد على التوالي من واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لان الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فتكون كلها اعدادا على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لاجل قلب الثنائي لان التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد الى ستة وعشرين لان كل ثنائية يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من

فاستوثق طارق من خيله وعرف حيلة لذريق وعلامته وخيمته ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد فقتل الله تعالى لذريق بعد قتل ذريع فى العدو ونجى الله تعالى المسلمين فلم يقتل منهم كثير وانهزم الروم فأقام المسلمون يقتلونهم ثلاثة أيام واحتز طارق رأس لذريق وبعث بها الى موسى وبعث بها موسى الى الوليد بن عبد الملك وسار مغيث الى قرطبة وسار طارق الى طليطلة ولم يكن همه غير المائدة التى تذكر أهل الكتاب أنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام فدفع اليه ابن اخت لذريق المائدة والتاج فقومت المائدة بمائتى ألف لما فيها من الجواهر التى لم ير مثلها وبهذه الحيلة قهر البارسلان ملك الترك ملك الروم ووقعه وقتل رجاله وأباد جمعه وكانت الروم قد جمعت جيوشا يقل ان يجمع (٣٥٢) لمن بعدهم مثلها وكان مبلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل كتائب متواصلة وعساكر مترادفة وكراديس يتلو بعضها بعضا لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق والآلات المعدة لفتح الحصون فى الحرب بما لا يحصى وكانوا اقتسموا بلاد المسلمين الشام ومصر والعراق وخراسان وديار بكر ولم يشكوا ان الدولة قد دارت لهم وان نجوم السعود قد خدمتهم ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت اخبارهم الى بلاد المسلمين واضطربت لها ممالك الاسلام فاحتشد للقائهم البارسلان التركى وهو الذى يسمى الملك العادل وجمع جموعه بمدينة اصبهان واستعد بما قدر عليه ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان الى ان عادت طلائع المسلمين الى المسلمين وقالوا للبارسلان غدا يتراءى الجمعان فبات المسلمون ليلة الجمعة والروم فى عدد لا يحصيهم الا الذى خلقهم وما المسلمون فيهم الا أكلة جائع فبقى المسلمون واجمين لما دهاهم فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم الى بعض فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو وقوتهم وآلاتهم فأمر البارسلان أن يعد المسلمون فبلغوا اثنى عشر ألف تركى واذا هم منهم كالرقمة فى ذراع الحمار فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر فى العواقب واستشارهم فى استخلاص صواب الرأى فتشاوروا برهة ثم أجمع رأيهم على اللقاء فتوادع القوم وتحالفوا وناصحوا الاسلام وأهله ثم تأهبوا أهبة اللقاء وقالوا للبارسلان نسمى الله ونحمل على القوم فقال البارسلان يا معشر أهل الاسلام امهلوا فان هذا يوم الجمعة والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها فاذا زالت

حروف الحلق ثم الاضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرا وهى الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين لانه الاقصى منها فلذلك سمى كتابه بالعين لان المتقدمين كانوا يذهبون فى تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والالفاظ ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل فى الرباعى والخماسى أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائى لقلة دورانه وكان الاستعمال فى الثلاثى أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله فى كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدى وكتب لهشام المؤيد بالاندلس فى المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهرى من المشارقة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس فى الاكثر الى أواخر الكلم وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل ثم ألف فيها من الاندلسيين ابن سيده من أهل دانية فى دولة على بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها فجاء من أحسن الدواوين ولخصه محمد بن أبى الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح فى اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانا توأمى رحم وسليلى أبوة هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه وهنالك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الابواب أو لكلها الا ان وجه الحصر فيها خفى ووجه الحصر فى تلك جلى من قبل التراكيب كما رأيت ومن الكتب الموضوعة أيضا فى اللغة كتاب الزمخشرى فى المجاز بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الالفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشئ على العموم ثم تستعمل فى الامور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج الى فقه فى اللغة عزيز المأخذ كما وضع الابيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالاشهب ومن الانسان بالازهر ومن الغنم بالاملح حتى صار استعمال الابيض فى هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب واختص بالتأليف فى هذا المنحى الثعالبى وأفرده فى كتاب له سماه فقه اللغة وهو من آكد ما يأخذ به اللغوى نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الاول بكاف فى التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج الى ذلك الاديب فى فنى نظمه ونثره حذرا من أن يكثر لحنه فى الموضوعات اللغوية فى مفرداتها وتراكيبها وهو أشد من اللحن فى الاعراب وأفحش وكذلك ألف بعض المتأخرين فى الالفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وان لم

تبلغ

الشمس وفاءت الافياء وعلمنا ان المسلمين قد صلوا ودعوا النا وصلينا نحن علمنا أمرنا فصبروا الى أن زالت الشمس ثم صلوا ودعوا والله تعالى أن ينصر دينه وان يربط على قلوبهم بالصبر وان يوهن عدوهم وأن يلقى فى قلوبهم الرعب وكان البارسلان قد استوثق من خيمة ملك الروم وعلامته وفرسه وزيه ثم قال لرجاله لا يتخلف أحد كم أن يفعل كفعلى و يضرب بسيفه و يرمى بسهمه حيث أضرب بسيفى وأرمى بسهمى ثم حمل جميعهم حملة رجل واحد الى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها فخلصوا اليه وقتل من حوله واسروا ملك الروم وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك فسمعت الروم ان ملكهم قد قتل فتبددوا وتمزقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون اموالهم وغنائمهم واستحضر ملك الروم بين يدى البارسلان بحبل فى عنقه فقال له البارسلان ما كنت تصنع (٣٥٣) بى لو اخذتنى قال فهل تشك انى كنت اقتلك فقال له البارسلان انت أقل فى عينى من ان أقتلك اذهبوا به و بيعوه فمن يزيد فكان يقاد بالحبل فى عنقه و ينادى عليه من يشترى ملك الروم ومازالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين و ينادى عليه بالدراهم والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيأ حتى باعوه من انسان بكلب فأخذ الذى كان تولى ذلك من أمره الكلب والملك وحملهما الى البارسلان وقال قد طفت جميع العسكر وناديت عليه فلم يبذل فيه أحد شيأ الا رجل واحد دفع لى فيه كلبا فقال قد أنصف لان الكلب خير منه فاقبض الكلب وادفع اليه هذا الكلب ثم انه أمر بعد ذلك باطلاقه فذهب الى قسطنطينية فعزلته الروم وكحلته بالنار فانظر ماذا يأتى على الملوك اذا عزفوا فى الحروب من الحيلة والقصد فى المكيدة (واعلم) أن القدماء قالوا الكثرة للرعب والقلة للنصر وقد قال تعالى و يوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين فالكثرة أبدا يصحبها الاعجاب ومع الاعجاب الهلاك وخير الاصحاب أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يغلب جيش يبلغ اثنى عشر ألفا من قلة اذا اجتمعت كلمتهم فاما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا وهو أرجى تدبير نفعله فى لقاء عدونا أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم و يركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الارض وصدورهم شارعة الى عدوهم وهم جاثون فى الارض وكل رجل منهم قد ألقم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق

تبلغ الى النهاية فى ذلك فهو مستوعب للاكثر واما المختصرات الموجودة فى هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلا لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الالفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما و بعضها اقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم فى الاهم على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم لا رب سواه

(علم البيان)

هذا العلم حادث فى الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق بالالفاظ وما تفيده و يقصد بها الدلالة عليه من المعانى وذلك ان الامور التى يقصد المتكلم بها افادة السامع من كلامه هى اما تصور مفردات تسند و يسند اليها و يفضى بعضها الى بعض والدالة على هذه هى المفردات من الاسماء والافعال والحروف واما تمييز المسندات من المسند اليها والازمنة ويدل عليها بتغير الحركات وهو الاعراب وابنية الكلمات وهذه كلها هى صناعة النحو ويبقى من الامور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين او الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج الى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة واذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة فى كلامه واذا لم يشتمل على شئ منها فليس من جنس كلام العرب فان كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة ألا ترى أن قولهم زيد جاءنى مغاير لقولهم جاءنى زيد من قبل ان المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم فمن قال جاءنى زيد أفاد ان اهتمامه بالمجئ قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاءنى أفاد ان اهتمامه بالشخص قبل المجئ المسند وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول او مبهم او معرفة وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا لقائم متغايرة كلها فى الدلالة وان استوت من طريق الاعراب فان الاول العارى عن التأكيد انما يفيد الخالى الذهن والثانى المؤكد بان يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر فهى مختلفة وكذلك تقول جاءنى الرجل ثم تقول مكانه بعينه جاءنى رجل اذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وانه رجل لا يعادله أحد من الرجال ثم الجملة الاسنادية تكون خبرية وهى التى لها خارج تطابقه اولا وانشائية وهى التى لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين اذا كان للثانية محل من الاعراب فيشرك بذلك منزلة التابع المفرد نعتا وتوكيدا و بدلا بلا عطف أو يتعين العطف اذا لم يكن للثانية محل من الاعراب ثم يقتضى المحل الاطناب والايجاز فيورد الكلام عليهما ثم قد يدل باللفظ ولا يريد منطوقه و يريد لازمه ان كان مفردا كما تقول زيد اسد فلا تريد حقيقة الاسد المنطوقة وانما تريد شجاعته اللازمة وتسندها الى زيد وتسمى هذه استعارة وقد تريد باللفظ المركب

سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة فاذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيآتها ولا يقوم رجل منهم على قدميه فاذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاءهم فأخذوا يمنة ويسرة فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله ولقد حدثني من حضر مثل هذه الوقعة في بلدي طرماوشة قال صافقت الروم على هذا الترتيب فحملوا علينا فبينا رجل منا كان في آخر الصف فقام على قدميه فحمل عليه علج من العدو فاصاب غرته فقتله ولما برز المقتدر بالله بن هود ملك الاندلس من سرقسطة في ثغور بلاد الاندلس للقاء الطاغية ردميل عظيم الروم وكان كل واحد منهم قد احتشد بما في ميسوره فالتقى المسلمون والكفار ثم تنازلوا للقتال وتصافقوا ودام القتال بينهم صدرا كبيرا من النهار وكان المسلمون في خسران فأفزع المقتدر ذلك وفرق المسلمون من شر ذلك اليوم فدعا المقتدر رجلا من المسلمين لم يكن في الثغور أعرف بالحرب منه يسمى سعداره فقال له المقتدر كيف ترى في هذا اليوم فقال سعداره هذا يوم أسود ولكن قد بقيت لي حيلة فذهب سعداره فزيه زي الروم وكلامه كلامهم لمجاورتهم وكثرة مخالطتهم فانغمس في عسكر الكفار ثم صعد الى الطاغية ردميل فألفاه شاكا في السلاح مكفنا في الحديد لا يظهر منه الا عيناه فجعل يتحيله ويترصد غرته الى أن أمكنته الفرصة فحمل عليه فطعنه في عينه فخر صريعا لليدين والفم ثم جعل ينادي بلسان الروم قتل السلطان يا معشر الروم فشاع قتله في العسكر فتخاذلوا وولوا منهزمين وكان الفتح باذن الله تعالى

الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير الرماد وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف لان كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة عليهما وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الالفاظ المفرد والمركب وانما هي هيآت واحوال لواقعات جعلت للدلالة عليها احوال وهيآت في الالفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيآت والاحوال والمقامات وجعل على ثلاثة اصناف الصنف الاول يبحث فيه عن هذه الهيآت والاحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمى علم البيان والحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق اما بسجع يفصله او تجنيس يشابه بين الفاظه او ترصيع يقطع اوزانه او تورية عن المعنى المقصود بايهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع وأطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لان الاقدمين أول ما تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاآت غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيأ فشيأ الى أن محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذه المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الايضاح والتلخيص وهو اصغر حجما من الايضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كمالي في العلوم اللسانية والصنائع الكمالية توجد في العمران والمشرق اوفر عمرانا من المغرب كما ذكرناه أو نقول لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله وانما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الادب الشعرية وفرعوا له القابا وعددوا أبوابا ونوعوا أنواعا وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب وانما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وان علم البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة انظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما وممن ألف في البديع من أهل افريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور وجرى كثير من أهل افريقية والاندلس على منحاه واعلم ان ثمرة هذا الفن انما هي في فهم الاعجاز من القرآن لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع

ولما استضعف الروم صقلية وضربوا عليهم الخراج فكانوا يحملون اليهم الخراج ويحملون الاموال الى العرب بافريقية ويستنجدون بهم على الروم فقال لهم ملك الروم انما مثلي ومثلكم يا أهل صقلية مثل رجل له زوجتان عجوز وصبية فكان اذا بات عند الصبية تلقط الشيب من لحيته لتصبيه فيزهد في العجوز واذا بات عند العجوز تلقط الشعر الاسود من لحيته لتشيخه فتزهد الصبية فيه فيوشك ان دام هذا به ان يصبح املس كذلك حالكم معي ومع العرب اذا اديتم المال لي ولهم يوشك أن تنفد اموالكم فتبقوا فقراء ضعفاء فاستلمكم واتسلم البلاد وروي انه لما هم بحصار صقلية امر أن يبسط بساط في الارض ثم جعل في وسطه دينارا ثم قال لوجوه رجاله من اخذ منكم هذا الدينار ولم يطأ البساط علمنا انه يصلح للملك فوقفوا حوله ولم يصل احد اليه

الكمال فيما يختص بالالفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن دركه وانما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما في ذلك لانهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود باوفر مايكون وأصحه واحوج مايكون الى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن باحكام هذا الفن بما يبدي البعض من أعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد اهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولاجل هذا يتحاماه كثير من اهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه او يعلم انه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الاعجاز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء الى سواء السبيل

(علم الادب)

هذا العلم لاموضوع له ينظر في اثبات عوارضه اونفيها وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الكملة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به مايقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة والمقصود بذلك كله ان لايخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه لانه لاتحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع مايتوقف عليه فهمه ثم انهم اذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الادب هو حفظ اشعار العرب وأخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذ لامدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ماذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علي القالي البغدادي وماسوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الاول من أجزاء

فلما اعياهم ذلك طووا ناحية من البساط من عنده وامر كل واحد ان يطوي مما يليه حتى طوي البساط فمدوا ايديهم فلحقوا الدينار فحينئذ قال لهم اذا اردتم مدينة صقلية خذوا ماحولها من الحصون والمدن الصغار والضياع والقرى حتى اذا ضعفت اخذتموها ، وكان بسرقسطة فارس يقال له ابن فتحون وكان يناسبني فيقع خال والدتي وكان اشجع العرب والعجم وكان المستعين ابو المقتدر يرى له ذلك ويعظمه وكان يجري عليه في كل عطية خمسمائة دينار وكانت النصرانية باسرها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه فحكي ان الرومي اذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له اشرب هل ابن فتحون رأيت في الماء فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان فأوغروا به صدر المستعين فنفاه اياما ثم ان المستعين انشأ غزوة الى بلاد الروم فتوافقت المسلمون والمشركون (٣٥٥) صفوفا ثم برز علج الى وسط الميدان ينادي هل من مبارز فخرج اليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومي وصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الرومي يكر بين الصفين وينادي هل من اثنين لواحد فخرج اليه فارس من المسلمين فقتله الرومي فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل يجول بين الصفين وينادي ويقول ثلاثة لواحد فلم يستجري احد من المسلمين ان يخرج اليه وبقي الناس في حيرة فقيل للسلطان مالها الا ابو الوليد ابن فتحون فدعاه وتلطف به وقال له اماترى مايصنع هذا العلج فقال هو بعيني قال فما الحيلة فيه فقال ابو الوليد فماذا تريد فقال أكف المسلمين شره فقال الساعة يكون ذلك ان شاء الله تعالى فلبس قميص كتان واستوى على سرجه بلا سلاح واخذ بيده سوطا طويل الطرف وفي طرفه عقدة معقودة ثم برز اليه فعجب منه النصراني ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخطئ طعنة النصراني سرج ابن فتحون واذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل الى الارض لاشيء منه في السرج ثم طفر على سرجه وحمل عليه وضربه بالسوط في عنقه فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه من سرجه وجاء به يجره فألقاه بين يدي المستعين فعلم المستعين انه كان قد أخطأ في صنيعه معه فأكرمه ورده الى أحسن احواله أيها الاجناد أقلوا الخلاف على الامراء فلا ظفر مع اختلاف ولا جماعة لمن اختلف عليه قال الله تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأول الظفر الاجتماع وأول الخذلان الافتراق وعماد الجماعة السمع والطاعة وانما أتي علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين من العصيان وكان قد ظهر اهل العراق على اهل

الشام وتضعضعت صفوف معاوية فاحس بالشر وانه مغلوب فقال لعمرو بن العاص اذهب فخذ لنا الامان من ابن عمك يعني عليا فأدار عمرو الحيلة فامرهم ان يرفعوا المصاحف فى أطراف الرماح و ينادون ندعوكم الى كتاب الله تعالى فلما رأى ذلك أصحاب على كفوا عن الحرب فقال لهم على رضى الله عنه أى قوم هذه مكيدة منهم ولم يبق فى القوم دفاع فعصوه وتركوا القتال وكان ذلك سبب الحكمين واعلموا ان من أحزم مكايد الحرب ذكاء العيون واستطلاع الاخبار وافشاء الغلبة واظهار السرور وابانة الحذر والاحتراس من العدو وان لا تخرج هاربا الى قتال ولا تضيق امانا على مستأمن وقال بعض المصنفين كثرة التكبير عند اللقاء فشل غضوا الاصوات وتجلببوا السكينة وأكملوا الوئام واحتموا الجبن وادرعوا الليل فانه أخفى للويل الليل يكفيك الجبان و يصف الشجاع الليل المدد الاعظم الحازم يحذر عدوه على كل حال المواثبة ان قرب والغارة ان بعد والكمين ان انكشف والاستطراد اذا ولى الجهل قوة الجرأة من اعتز بقوته فقد وهن ليس من القوة التورط فى الهوة لكن أشد ما كنت حذرا ما كنت عند نفسك أكثر قوة وعددا من استضعف عدوه اغتر ومن اغتر ظفر به عدوه اشعروا قلوبكم فى الحرب الجرأة فانها سبب الظفر واذكروا الضغائن فانها تبعث على الاقدام والتزموا الطاعة فانها حصن المحارب اذا وقع اللقاء برز القضاء اذا التقى السيف السيف زال الخيار رب مكيدة أبلغ من نجدة رب كلمة هزمت عسكرا الصبر سبب النصر الظفر مع الصبر اجعل قتال عدوك آخر حيلك النصر مع التدبير لا ظفر مع بغي ولا تغتر بالاقوياء الفضل قوتهم على الضعفاء لا تجبنوا عند اللقاء لا تميلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تغلوا عند الغنائم نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا

(الباب الثاني والستون فى القضاء والقدر والتوكل والطلب)

اعلم وفقك الله تعالى ان مذاهب الخلق فى القضاء والقدر وخلق الافعال وارادة الكائنات منتشرة ولا يخرج عن علمه وقضائه وقدره وحكمه حادث فمن خالفنا فى القضاء والقدر وافقنا فى العلم وقد تباين الخلق فيه وتشتت مذاهبهم وتقاطعوا فيه وتدابروا وكل حزب بما لديهم فرحون ولم نضع هذه الترجمة لاستيفاء ما قالوا والاحتجاج لكل فريق لان ذلك يستدعي مجلدات وأسفارا وانما نذكر فى هذا الكتاب احكاما ظاهرة قريبة من العقول لتقرب الفائدة على الناظر فيه فاعلم اولا ان كل ما يجري فى العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر

هذا الفن انما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحا فى العدالة والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الاصبهاني وهو ما هو كتابه فى الاغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمري انه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التى يسمو اليها الاديب و يقف عندها وأنى له بها ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الاجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادى للصواب

٣٨ *(فصل فى أن اللغة ملكة صناعية)*

(اعلم) ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات فى اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة فى تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع اولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال انها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة اى صفة راسخة فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام اهل جيله وأساليبهم فى مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات فى معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة و يكون كاحدهم هكذا تصيرت الالسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والاطفال وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع اى بالملكة الاولى التى اخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الاعاجم وسبب فسادها ان الناشئ من الجيل صار يسمع فى العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم و يسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من

تثقف

ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٩ * (فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير) *

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرف لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى بساط الحال محتاجا إلى ما يدل عليه وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة إني أجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا لقائم والمعنى واحد فقال له إن معانيها مختلفة فالأول لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فأنكره والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون

وإيمان وكفر وطاعة ومعصية بقضاء وقدر وكذلك لا يطير طائر بجناحيه ولا يدب حيوان على بطنه ورجليه ولا تطير بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به ثم اعلم أن القدر والطلب لا يتنافيان والتوكل والكسب لا يتضادان وذلك أن تعلم أن كل ما قضى الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة كما أن ما علم الله تعالى أنه يكون فهو كائن ومن خالفنا في القضاء والقدر وافقنا في العلم فرب أمر قدر الله تعالى وصوله إليك بغير طلب فهو واصل ورب أمر قدر وصوله إليك بعد الطلب فلا يصل إلا بالطلب والطلب أيضا من القدر ولا فرق بين الأمر المطلوب وبين الطلب في أنهما مقدوران فمن ههنا قلنا إنهما لا يتنافيان وكذلك التوكل مع الكسب لأن التوكل محله القلب والكسب محله الجوارح ولا يتضادان لأنهما شيآن في محلين بعد ما يتحقق العبد أن المقدور من قبل الله تعالى فإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق فبتيسيره قال أنس جاء رجل على ناقة له فقال يا رسول الله أدعها وأتوكل فقال اعقلها وتوكل والتوكل والاعتصام بالقدر يستمدان من العقل والطلب والكسب يستمدان من الأمر فالتوكل على الله تعالى هو الثقة بما ضمنه والقطع بكون ما حكم به فمن رام أمرا من الأمور ليس الطريق في تحصيله أن يغلق بابه عليه ويفوض أمره إلى ربه وينتظر حصول ذلك الأمر بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه الله فيه وقد ظاهر النبي صلى الله عليه وسلم بين درعين واتخذ خندقا حول المدينة يستظهر به ويحترس من العدو وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لأمة الحرب ويعبي الجيوش ويأمرهم وينهاهم بما فيه مصالحهم واسترقى وأمر بالاسترقاء وتداوى وأمر بالمداواة وقال أنزل الداء الذي أنزل الدواء (فإن قيل) قد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من استرقى أو اكتوى فقد برئ من التوكل (قلنا) أليس قد قال اعقلها وتوكل وظاهر بين درعين وسائر ما ذكرناه آنفا (فإن قيل) فما الجمع بين ذلك (قلنا) معناه من استرقى واكتوى متكلا على الرقية والكي وأن البرء من قبلهما خاصة فهذا يخرجه من التوكل وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله تعالى فأما من باشر الأسباب والأدوية وتعاطى تدبير الأمور بنفسه وأعوانه وماله على ما جرت به سيرة الله تعالى في أرضه وعادته في خلقه غير معتمد على شيء من ذلك بل هو واثق القلب أن ما حصل فبتقديره وما تعسر فبتقديره معتمدا في ذلك على المسبب لا على الأسباب فهذا هو المتوكل لكن شرطه أن يمشي في ذلك كله مع الأثر ولا يسلك

طريقافيه معصية فليس يستدرج ماعند الله بمعاصيه وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه من ابتغى أمرا بمعصية الله كان أبعد لما رجا وأقرب لمجىء ما اتقى ومن ظن أن الطلب والاكتساب يناقض التوكل فقعد فى بيته وأغلق بابه متكلا على الله تعالى فى زعمه كان عن العقل خارجا وفى تيه الجهل والجاو يقال له قبحت ياهذا اذجعت وحضر الطعام فهو الى الطعام احوج منه الى المعرفة وينبغى لاهله أن يداووه ألا ترى ان الله تعالى قال لمريم وهزى اليك بجزع النخلة فهلا أمرها بالسكون ثم حمل الرطب الى فيها وهكذا القول فيمن له دابة او بستان يؤمر بسقى البستان وحفره واصلاح شأنه ويؤمر بان يعلف الدابة ويسقيها وأنشدوا ألم تر أن الله قال لمريم * اليك فهزى الجذع تساقط الرطب ولوشاء أجنى الجذع من غير هزها * اليها ولكن كل شئ له سبب وهكذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا فلم يحمل ارزاقها اليها فى أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح وقد كان جهيل رئيس القندهارس يرى من تصديق القدر وتكذيب الطلب دون أهل زمانه من الملوك ماحجزه عن الطلب والتدبير فاخرجه اخوته من سلطانه وقهروه على مملكته فقال له بعض الحكماء ان ترك الطلب يضعف الهمة ويذل النفس وصاحبه سائر الى اخلاق ذوات الاجحرة من الحيوان كالضب وسائر الحشرات تنشأ فى أجحرتها وفيه يكون موتها ثم جمعوا بين القدر والطلب وقالوا انهما كالعدلين على ظهر الدابة ان حمل فى واحدهما أرجح مما حمل فى الآخر سقط وتعب ظهره وثقل عليه سفره وان عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته وضربوا فيه مثالا وهم صحيحا فقالوا ان أعمى ومقعدا كانا فى قرية بفقر وضر لا قائد للاعمى ولا حامل للمقعد وكان فى القرية رجل يطعمهما كل يوم احتسابا قوتهما من الطعام والشراب فلم يزالا فى عافية الى أن هلك المحتسب فاقاما بعده اياما فاشتد جوعهما وبلغ الضر منهما جهده فاجمعوا رأيهما على ان يحمل الاعمى المقعد فيدله المقعد على الطريق ببصره ويستقل المقعد بحمل الاعمى فيدوران فى القرية يستطعمان أهلها ففعلا فنجح امرهما ولو لم يفعلا هلكا فكذلك القدر سببه الطلب والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه فأخذ جهيل فى الطلب فظفر باعدائه ورجع الى ملكه فكان جهيل يقول لاتدع الطلب اتكالا على القدر ولا تجهدن نفسك فى الطلب معتمدا عليه مستهينا

الاحركات الاعراب فى اواخر الكلم فقط الذى لزم فى لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا وهو الاعراب وهو بعض من احكام اللسان وانما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التى كانت اولا فانقلب لغة أخرى وكان القرآن منزلا به والحديث النبوى منقولا بلغته وهما اصلا الدين والملة فخشى تناسيهما وانغلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذى تنزلا به فاحتيج الى تدوين احكامه ووضع مقايسه واستنباط قوانينه وصار علما ذا فصول وابواب ومقدمات ومسائل سماه اهله بعلم النحو وصناعة العربية فاصبح فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلما الى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافيا ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بامور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون فى اواخره على غير المنهاج الاول فى لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجانا ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته تشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على انهما لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقايس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم فى اشتقاق القيل فى اللسان الحميرى انه من القول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر الا ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد مايحملنا على مثل ذلك ويدعونا اليه ومما وقع فى لغة هذا الجيل العربى لهذا العهد حيث كانوا من الاقطار شأنهم فى النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الامصار كما هو مذكور فى كتب العربية انه من أقصى اللسان ومافوقه من الحنك الاعلى وماينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وان كان أسفل من موضع القاف ومايليه من الحنك الاعلى كما هى بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب اوشرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الامم والاجيال ومختصا بهم لا يشاركهم فيها غيرهم حتى ان من يريد التعرب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم فى النطق بها وعندهم انه انما يتميز العربى الصريح من الدخيل فى العروبية والحضرى بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك انها لغة مضر بعينها فان هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا فى ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بنى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد أكثر الامم فى المعمور وأغلبهم

وهم من اعقاب مضر وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف أسوة وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة و يظهر من ذلك انها لغة مضر الاولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء اهل البيت وزعموا ان من قرأ في أم القرآن اهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وافسد صلاته ولم أدر من اين جاء هذا فان لغة اهل الامصار أيضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح واهل الجيل أيضا لم يستحدثوها الا انهم ابعد من مخالطة الاعاجم من اهل الامصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم انه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق اهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها وانها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري فتفهم ذلك والله الهادي المبين

٤٠ *(فصل في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر)*

اعلم ان عرف التخاطب في الامصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة اهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد فاما انها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة اهل النحو لحنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم فلغة اهل المشرق مباينة بعض الشئ للغة اهل المغرب وكذا اهل الاندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته الى تادية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد واما انها أبعد عن اللسان الاول من لغة هذا الجيل فلان البعد عن اللسان انما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلي أبعد لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة و يربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى واعتبر ذلك في امصار افريقية والمغرب والاندلس والمشرق أما افريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها الغالب لما ذكرناه فهي عن اللسان الاول ابعد وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الاكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولا ودايات وأظئارا ومراضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى وكذا اهل الاندلس مع عجم الجلالقة والافرنجة وصار أهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم اهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر و يخالف أيضا بعضها بعضا كما نذكره وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها

بالقدر فانك اذا أجهدت نفسك بالطلب بوجوه التدبير المحمودة مصدقا بالقدر نلت ما تحاول ولم تلتو عليك الامور وان عملت بذلك فالتوى عليك أمر من مطلوبك فذلك من اعانة القدر وانك قد اتيت ذنبا فتفقد جوارحك واستكشف ظاهرك و باطنك وتب الى الله تعالى من كل ذنب اتيته بجارحة من جوارحك واخرج من كل مظلمة ظلمتها فاذا فعلت ذلك قابلك الحظ وساعدك القدر ان شاء الله تعالى *واعلم ان هذا الاصل الذي قررناه يخرج عليه ما ورد في القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم من الامر بالتوكل على الله والتسليم اليه والتفويض له من ذلك ان سلمان الخواص تلا يوما قوله تعالى وتوكل على الحي الذي لا يموت فقال ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية ان يلجأ الى احد غير الله قلنا معناه لا يلجأ الى الاسباب اعتمادا عليها ولكن يلجأ اليها واثقا بان الله تعالى يفعل ما يشاء كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعقل الناقة ولبس الدرعين الا ترى ان من يطلب الزرع والولد ثم قعد في بيته لم يطأ زوجته ولا بذر ارضه معتمدا في ذلك على الله تعالى واثقا به ان تلد امرأته من غير وقاع وتنبت أرضه الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجا ولامر الله تاركا وللائمة والحكماء في القدر ألفاظ بارعة على السبر والامتحان *منها ما روى ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل عن القدر فاعرض عن السائل فأبى الا الجواب فقال علي اخبرني أخلقك الله كما تشاء او كما يشاء فامسك الرجل فقال علي للحاضرين اترونه يقول كما أشاء اذا والله أضرب عنقه فقال الرجل كما يشاء فقال علي أيحييك كما تشاء او كما يشاء قال كما يشاء قال أيميتك كما تشاء او كما يشاء قال كما يشاء قال أفيحشرك كما تشاء او كما يشاء قال كما يشاء قال أفيدخلك حيث تشاء او حيث يشاء قال حيث يشاء قال قم فليس لك من الامر شئ وروى ان رجلا قدريا ومجوسيا تناظرا فقال القدري للمجوسي مالك لا تسلم فقال المجوسي لو أراد الله تعالى لاسلمت فقال القدري قد أراد الله أن تسلم ولكن الشيطان يمنعك قال المجوسي فانا مع اقواهما وروى في الاسرائيليات ان نبيا من انبياء الله تعالى مر بفخ منصوب واذا طائر قريب منه فقال الطائر يا نبي الله هل رأيت اقل عقلا من هذا نصب هذا الفخ ليصيدني فيه وأنا انظر اليه قال فذهب عنه ثم رجع فاذا الطائر في الفخ فقال له عجبا لك أولست القائل آنفا كذا وكذا فقال يا نبي الله اذا جاء الحين لم يبق اذن ولا عين وقال رجل من الخوارج لعلي رضي الله عنه أرأيت من جنبني سبل الهدى وسلك بي سبل الردى أأحسن الي ام اساء فقال له علي ان كنت استوجبت عليه

في اجرامهم والله يخلق ما يشاء ويقدر

٤١ *(فصل في تعليم اللسان المضري)*

اعلم ان ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة اهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن وانما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه الا ان اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكنا شأن سائر الملكات ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها ان يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على اساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في اسجاعهم واشعارهم وكلمات المولدين ايضا في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من اساليبهم وترتيب الفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب واساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الاحوال والذوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما نذكر وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظما ونثرا ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي ان يكون تعلمها والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه

٤٢ *(فصل في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم)*

والسبب في ذلك ان صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لا نفس كيفية فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا مثل ان يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التعبير عن بعض انواعها الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الابرة ثم يغرزها في لفقي الثوب مجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردها الى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الاول بمطرح ما بين الثقبين الاولين ثم يتمادى على ذلك الى آخر العمل ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو اذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيأ وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما واطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية الى أن ينتهي الى آخر الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفسها فان العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية

العمل

حقا فقد أساء وان كنت لم تستوجب عليه شيأ فهو يفعل ما يشاء (وقال) ميمون بن مهران لغيلان القدري سل فاقوى ما تكونون اذا سألتم فقال غيلان أشاء الله ان يعصى فقال ميمون أيعصى كارها فانقطع غيلان وروي ان رجلا قال لبزرجمهر تعال نتناظر في القدر فقال وما تصنع بالمناظرة في القدر رأيت ظاهرا استدللت به على الباطن ورأيت احمق مرزوقا وعاقلا محروما فعلمت ان التدبير ليس الى العباد وقال بعضهم

يخيب الفتى من حيث يرزق صاحبه * ويعطى المنى من حيث يحرم طالبه

ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الاندلس على سليمان بن عبد الملك فقال له يزيد بن المهلب انت ادهى الناس واعلمهم فكيف طرحت نفسك في يدي سليمان فقال موسى ان الهدهد يهندس الماء في الارض الفيافي ويبصر القريب منه والبعيد على بعده في التخوم ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة والحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وفي الاسرائيليات ان الهداهد كانت رائدة سليمان بن داود عليهما السلام الى الماء فتتقدم معسكره ثم تنظر الارض فتقول الماء ههنا على الف قامة او اقل او اكثر فتبادر الجن تحفره فلا يلحق سليمان الا وقد استعد الماء واعلموا ان المهارب عما هو مقضي مقدر كالمنقلب في كف الطالب وأنشد بعضهم

واذا خشيت من الامور مقدرا * وفررت منه فنحوه تتوجه

ولبشار

طبعت على ما في غير مخير * هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا اعطى وأعطى فلم ارد * وقصر علمي ان ينال المغيبا
واصرف عن قصدي وعلمي مقصر * وامسي وما أعطيت الا التعجبا

ولما وقع الطاعون بالكوفة فر ابن ابي ليلى على حمار له يطلب النجاة فسمع منشدا ينشد

لن يسبق الله على حمار * ولا على ذي منعة طيار
او يأتي الحتف على مقدار * قد يصبح الله امام الساري

فكر راجعا الى الكوفة وقال اذا كان الله امام الساري فلات حين مهرب وأنشد بعضهم

اقام على المسير وقد انيخت * مطاياه وغرد حادياها
وقال أخاف عادية الليالي * على نفسي وان ألقى رداها
ومن كتبت منيته بارض * فليس يموت في ارض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجدوا في منطقته كتابا فيه اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان الغدر في الناس طباعا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت بكل احد نازلا فالطمأنينة الى الدنيا حمق وقال ابن عباس وجعفر بن محمد والحسن البصري

العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده اخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيأ من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الافادة ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك الا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون انهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالاندلس ومعلموها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدي كثير من الملكة أثناء التعليم فتنقطع النفس لها وتستعد الى تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب وافريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب الا ان أعربوا شاهدا أو رجحوا مذهبا من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك الا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان وتلك القوانين انما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علما بحتا وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه وينزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر

في قوله تعالى وكان تحته كنز لهما انما كان الكنز لوحا من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وقال يحيى بن معاذ عجبت من ثلاث رجل يريد تناول رزقه بتدبيره وهو يرى تناقض تدبيره ورجل شغله هم غده وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط ومن عجيب ما نزل بالاسكندرية ان رجلا من خدمة السلطان غاب عن خدمته أياما فقبضه الشرط وجاؤا به الى دار السلطان فانساب منهم في بعض الطريق وترامى في بئر والمدينة مسربة تحت الارض بأسراب يمشي الماشي فيها فاذا شاء يخترقها ويدورها الان

في دورها آبارا على تلك السروب فما زال الرجل يمشي الى أن لاح له بئر مضيئة فطلع فيها واذا البئر في دار السلطان فطلع الرجل في دار السلطان فادبه السلطان فكان فيه المثل السائر الفار من القضاء الغالب كالمنفلت في يد الطالب وقال ابن مسعود ان الرجل ليشرف على الامر من الامارة والتجارة أو غيرها فذكره الله تعالى فوق سمواته فيقول للملك اصرف عن عبدي هذا الامر فاني ان أيسره له أدخله به جهنم فيظل يتغيظ على جيرانه فيقول سبقني فلان وحسدني فلان وما صرفه عنه الا الله تعالى وأنشدوا

قالوا اتقيم وقد أحا
ط بك العدو ولا تفر
فأجبتهم الشيخ ما
لم ينتفع بالعلم غر
لا انلت خير اما بقيـ
ـت ولا عداني الدهر شر
ان كنت أعلم أن غيـ
ـر الله ينفع أو يضر

استأذن العقل على الجد فقال اذهب لا حاجة لي بك فقال العقل ولم فقال انك تحتاج الي ولا احتاج اليك (واوصى) حكيم ابنه فقال يا بني رزقك الله جدا يخدمك به ذوو العقول ولا رزقك عقلا تخدم به ذوي الجدود وكان يقال افراط العقل مضر بالجد وروى ان رجلا خير في أمر فأبى ان يختار وقال أنا بجدي أوثق مني بعقلي فافرغوا وفي الامثال اسع بجد لا بكد اسع بجد أودع جدك لا كدك الجد لا الجد الجد أغنى من الكد واعلم ان زمام الامور التوفيق ولم ينزل من السماء الى الارض أقل من التوفيق وهو مقرون بالاجتهاد قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقد كنت جمعت فيه كتابا من جملة كتابي في الاسرار هل التوفيق مكتسب أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه ومن لطيف ما وقفت عليه في مجاري القضاء والقدر ان الهارب من المقدور

كالمنفلت في يد الطالب ما نزل في مدينة الاسكندرية في قضية الرجل الذي تقدم ذكره *(الباب الثالث والستون وهو جامع من اخبار ملوك العجم وحكاياتهم وهو يشتمل على خمسة فصول)* (الاول) يشتمل على اخبار رفعت الينا بعد الفراغ من الكتاب فالحقناها (والثاني) يشتمل على حكم الحكيم الفرس خاصة (والثالث) يشتمل على حكم حكيم السند خاصة (والرابع) يشتمل على حكم الحكيم العرب خاصة (والخامس) يشتمل على حكم مجموعة منتخبة رسمنا ذلك لتنظر في عقول القوم واغراضهم ومنتهى مرامهم من كتاب جاويدان خرد الفارسي قال ثلاثة لا يصلح فساده بشيء من الحيل العداوة بين الاقارب وتحاسد الاكفاء والركاكة في العقول وثلاثة لا يستفسد صلاحهن بنوع من المكر والحيل العبادة في العلماء والقنوع في المستبصرين والسخاء في ذوي الاخطار وثلاث لا يشبع منهن الحياة والعافية والمال وقال ابن لقمان لابيه يا ابت ما الداء العياء قال رعونة مولودة قال فما الجرح الدوى قال المرأة السوء قال فما الحمل الثقيل قال الغضب ولما قرأ هذه الحكاية أبو عباد الكاتب وكان ظريفا في اخباره قال والله الغضب أخف علي من ريشة وكان اسرع الناس غضبا فقيل له انما عنى لقمان ان احتمال الغضب ثقيل فقال لا والله لا يقوى على احتمال الغضب الا الجمل وغضب يوما على بعض اصحابه فرماه بدواة فشجه فجعل الدم يسيل فقال ابو عباد صدق الله العظيم حيث قال والذين اذا ما غضبوا هم يغفرون فاستدعاه المأمون وقال ويحك لا تحسن أن تقرأ آية من كتاب الله تعالى قال بلى والله يا امير المؤمنين اني لاقرأ من سورة واحدة الف آية فضحك المأمون وأمر باخراجه *وقيل لانوشروان ما العقل قال القصد في كل الامور وقيل فما المروءة قال ترك الريبة قيل فما السخاء قال ان تنصف من نفسك قيل فما الحمق قال الاغراق في الذم والحمد وقيل لبعض الحكماء ما الحزم قال سوء الظن وقال بعضهم في قوله الحزم سوء الظن قال انما اراد سوء الظن بنفسه لا بغيره قيل فما الصواب قال المشورة قيل فما الذي يجمع القلوب على المودة قال كف بذول وبشر جميل قيل فما الاحتياط قال الاقتصاد في الحب والبغض وقال معاوية لزياد حين ولاه العراق يا زياد ليكن حبك وبغضك قصدا فان العثرة كامنة واجعل للرجوع والنزوع بقية من قلبك واحذر صولة الانهماك فانها تؤدي الى المهالك وهو مثل قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه احبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك

الامور كلها والله أعلم بالغيب

٤٣ *(فصل في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل غالبا للمستعربين من العجم)*

اعلم ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة ذلك فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وانحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من حصول هذه الملكة فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده واذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية فان ذلك استدلالي بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وانما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في

جيلهم

جيلهم وربى بين أجيالهم والقوانين بمعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان وانما هو موضوع لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير لها اسمه وأيضا فهو وجدانى اللسان كما أن الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق واذا تبين لك ذلك علمت منه أن الاعاجم الداخلين فى اللسان العربى الطارئين عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم فى هذه الملكة التى قررنا أمرها لان قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى الى اللسان وهى لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم فى المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الامصار وبعدوا عنها كما تقدم وانما لهم فى ذلك ملكة أخرى وليست هى ملكة اللسان المطلوبة ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة فى الكتب فليس من تحصيل الملكة فى شئ انما حصل أحكامها كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب فان عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسى والزمخشرى وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم انما كانوا عجما فى نسبهم فقط وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها وكأنهم فى أول نشأتهم من العرب الذين نشؤا فى أجيالهم حتى ادركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها فهم وان كانوا عجما فى النسب فليسوا باعجام فى اللغة والكلام لانهم أدركوا الملة فى عنفوانها واللغة فى شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الامصار ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته واليوم الواحد من العجم اذا خالط أهل اللسان العربى بالامصار فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربى ممتحية الآثار ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربى ثم اذا فرضنا انه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدارسة والحفظ يستفيد تحصيلها فقل ان يحصل له ما قدمناه من أن الملكة اذا سبقتها ملكة اخرى فى المحل فلا تحصل الا ناقصة مخدوشة وان فرضنا عجميا فى النسب سلم من مخالطة اللسان العجمى بالكلية وذهب الى تعلم هذه الملكة بالمدارسة فربما يحصل له ذلك لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر وربما يدعى كثير ممن ينظر فى هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غالط او مغالط وانما حصلت له الملكة ان حصلت فى تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة فى شئ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

يوما ما وابغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما ومن ذلك قول الاول وأحبب حبيبك حبا رويدا * فليس يعولك أن تصرما وقال آخر ولا تيأسن الدهر من حب كاشح * ولا تأمنن الدهر صرم حبيب وسئل بزرجمهر عن العقل فقال ترك ما لا يعنى قيل فما الحزم قال انتهاز الفرصة قيل فما الحلم قال العفو عند المقدرة قيل فما الشدة قال ملك الغضب قيل فما الخرق قال حب مغرق وبغض مفرط وقيل لبعض الملوك وبلغ فى المنزلة والقدر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه ما الذى بلغ بك هذه المنزلة قال عفوى عند قدرتى ولينى بعد شدتى وبذلى الانصاف ولومى لنفسى وابقائى فى الحب والبغض مكانا لموضع الاستبدال وقال الاسكندر لبعض الحكماء وأراد سفرا أرشدنى لاحزم أمرى قال لا تملكن قلبك محبة الشئ ولا يستولين عليك بغضه واجعلهما قصدا فان القلب كاسمه يتقلب وله خاصية فى القلب تنزع وترجح واجعل وزيرك التثبت وسميرك التيقظ ولا تقدم الا بعد المشورة فانها نعم الدليل واذا فعلت ذلك ملكت قلوب رعيتك ملك استعباد قال الشاعر

وما سمى الانسان الا لانسه ولا القلب الا انه يتقلب

وقيل لبعض الحكماء ما الدليل الناصح قال غريزة العقل مع الطبع قيل فما القائد المشفق قال حسن المنطق قيل فما العناء المعى قال تطبيعك من لا طبع له وقال الفضل بن مروان سألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم قال بذل عرفه وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة لا ينقص جنده ولا يحرج رعيته سهل النوال حزن النكال الرجاء والخوف معقودان فى يده قلت فكيف حكمه قال يرد الظالم ويردع الظالم ويعطى كل ذى حق حقه فالرعية اثنان راض ومغتبط قلت فكيف هيبتهم له قال يتصور فى القلوب فتغضى له العيون قال فنظر رسول ملك الحبشة الى اصغائى اليه واقبالى عليه وكانت الرسل تنزل عندى فقال لترجمانه ما الذى يقول الرومى قال يصف له ملكهم ويذكر سيرته فكلم الترجمان بشئ فقال لى الترجمان يقول ان ملكهم ذو أناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب وذو سطوة عند المغالبة وذو عقوبة عند الاجترام قد كسا رعيته جميع نعمته وقصرهم تعنيف عقوبته فهم يتراءونه ترائى الهلال خيالا ويخافونه مخافة الموت نكالا وقد وسعهم عدله وردعتهم سطوته عقله فلا تمتهنه مزحة ولا تؤيسه غفلة اذا اعطى اوسع واذا عاقب اوجع فالناس اثنان راج وخائف فلا الراجى خائب الامل ولا الخائف بعيد الاجل قلت فكيف هيبتهم له قال لا ترفع اليه العيون اجفانها ولا

تبهره الابصار انسانها كان رعبه قطا فرقت ايام صغور صواله قال فحدثت المأمون بهذين الحديثين فقال لى كم قيمتهما عندك قلت الفا
درهم قال يا فضل ان قيمتهما أكثر من الخلافة أما علمت حديث امير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه قال قيمة كل امرئ ما يحسن
أفتعرف احدا من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف احدا من خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هذه الصفة قلت لا قال فقد أمرت لهما
بعشرين الف دينار معجلة لهما واجعل العدة مادة بيني و بينهما على العود فلولا حقوق الاسلام واهله لرأيت اعطاءهما ما فى بيت المال
الخاصة والعامة دون ما يستحقانه وقال الفضل بن سهل كان عندى رسول ملك الروم وكان يحدثنى عن أخت للملك يقال لها خاتون قال
اصابتنا سنة احتدم شواظها علينا بحرارة المصائب وصنوف الآفات ففزع الناس الى الملك فلم يدر ما يجيبهم به فقالت

له خاتون أيها الملك ان الحزم عاق لا يخلق جديده ولا يمتهن عزيزه وهو دليل الملك على استصلاح رعيته وزاجره عن استفسادها وقد فزعت رعيتك اليك لفضل العجز عن الالتجاء الى من لا تزيده الاساءة الى خلقه عزا ولا ينقصه العود بالاحسان اليهم ملكا وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصى ولا بركوب الدلالة من الدال ولا بحسن الرعاية من الراعى ولم تزل فى نعمة لم تغيرها نقمة وفى رضا لم يكدره سخط الى ان جرى القدر بما عمى منه البصر وذهل عنه الحذر فسلب الموهوب والسالب هو الواهب فعد اليه بشكر النعم وعذبه من قطيع النقم فى نفسه بنسك ولا تجعلن الحياء من التذلل للعز المذل شركا بينك و بين رعيتك فتستحق مذموم

٤٤ * (فصل فى ان أهل الامصار على الاطلاق قاصرون فى تحصيل هذه الملكة اللسانية التى تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربى كان حصولها له أصعب وأعسر) *

والسبب فى ذلك ما يسبق الى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق اليه من اللسان الحضرى الذى افادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الاولى الى ملكة أخرى هى لغة الحضر لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يذهبون الى المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك وانما هى بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم صناعة النحو أقرب الى مخالطة ذلك وما كان من لغات اهل الامصار اعرق فى العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ واعتبر ذلك فى اهل الامصار فأهل افريقية والمغرب لما كانوا اعرق فى العجمة وابعد عن اللسان الاول كان لهم قصور تام فى تحصيل ملكته بالتعليم ولقد نقل ابن الرقيق ان بعض كتاب القيروان كتب الى صاحب له يا أخى ومن لا عدمت فقده اعلمنى ابو سعيد كلاما انك كنت ذكرت انك تكون مع الذين تأتى وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج واما اهل المنزل الكلاب من امر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا وكتابى اليك وانا مشتاق اليك ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم فى اللسان المضرى شبيه ما ذكرنا وكذلك اشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف واكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم فى البلاغة حتى الآن مائلة الى القصور واهل الاندلس اقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا وكان فيهم ابن حيان المؤرخ امام أهل الصناعة فى هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبد ربه والقسطلى وامثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والادب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانفضاض والجلاء ايام تغلب النصرانية وشغلوا عن تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص ذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن المرحل من تلميذ الطبقة الاشبيليين بسبتة وكتاب دولة ابن الاحمر فى أولها وألقت الاندلس أفلاذ كبدها من اهل تلك الملكة بالجلاء الى العدوة لعدوة الاشبيلية الى سبتة ومن شرق الاندلس الى افريقية ولم يلبثوا الى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم فى هذه الصناعة لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم فى العجمة البربرية وهى منافية لما قلناه ثم عادت الملكة من بعد ذلك الى الاندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم ثم ابراهيم

الساحلى

العاقبة ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب الى الاقرار لله بكنه القدرة وتذليل الالسن فى الدعاء بمحض
الشكر فان الملك ربما عاقب عبده ليرجعه عن شئ فعل الى صالح عمل وليبعثه على دؤوب شكر يحوز به فضل أجر فأمرها الملك ان تقوم فيهم
فتنذرهم بهذا الكلام ففعلت فرجع القوم عن بابه وقد علم الله تعالى منهم الوعظ فى الامر والنهى فحال عليهما الحول وما بينهم مفتقد
نعمة كان سلبها وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع فاعترف الملك لها بالفضل فقلدها الملك بعده وجميع الرعية على الطاعة لها فى
المحبوب والمكروه فهذا فعل الله باعدائه وضرائر نعمته لما شكروه وأعاد لهم من نعمه ما كان قد استرجع وزادهم من فضله ما تمنوه فكيف
بمن يوحدونه و يؤمنون به لو صدقت نياتنا وصحت ضمائرنا وقال الواقدى توفى رسول بعض الملوك بدمشق فى خلافة هشام فوجد فى

جبينه لوح من ذهب مكتوب فيه اذا ذهب الوفاء نزل البلاء واذا مات الاعتصام عاش الانتقام واذا ظهرت الخيانات امتحقت البركات وقال
الوضاحي وجه انوشروان رسولاله الى ملك قد أجمع على محاربته وأمره أن يتعرف سيرته فى نفسه ورعيته فرجع اليه فقال وجدت عنده الهزل
أقوى من الجد والكذب أكثر من الصدق و الجور أرفع من العدل فقال انوشروان رزقت الظفر به سر اليه ولكن عملك فى محاربته بما هو
عنده أضعف واقل واوضع فانك منصور وهو مخذول فسار اليه فقتله واستولى على مملكته وقال بزرجمهر المزح آفة الجد والكذب عدو
الصدق والجور مفسدة الملك فاذا استعمل الملك الهزل ذهبت هيبته واذا استصحب الكذب استخف به واذا بسط الجور فسد سلطانه وكان
نقش خاتم رستم وهو أحد ملوك الفرس الهزل مبغضة والكذب منقصة والجور مفسدة وقيل لبعض اصحاب اسفنديار رجل من الترك فاصيب
فى عنقه لوح ذهب مكتوب فيه آفة الشدة التهيب وآفة المنطق الحياء وآفة كل شئ الكذب (٣٦٥) وقيل لبعض الحكماء ما قيمة الصدق
قال الخلد فى الدنيا قيل فما
قيمة الكذب قال موت
عاجل قيل فما قيمة العدل
قال ملك الابد قيل فما
قيمة الجور قال ذل الحياة
قال وسأل ملك الهند
الاسكندر وقد دخل بلاده
ما علامة الملك ودولته قال
له الجد فى كل الامور قال
فما علامة زواله قال
الهزل فيه قال فما سرور
الدنيا قال الرضا بما رزقت
قال فما غمها قال الحرص
على ما للملك لا تناله وقال
بزرجمهر ثلاث من سرور
الدنيا وثلاث من غمها فاما
السرور فالرضا بالقسم
والرضا بالطاعة فى النعم ونفى
الاهتمام بالرزق لغد وأما
الغم فحرص مسرف وسؤال
مجحف وتمنى ما يلهف ومر
بعض الملوك بغلام يسوق
حمارا غير منبعث وقد
عنف عليه فى السوق فقال
يا غلام ارفق به فقال
الغلام يا ايها الملك فى الرفق
به مضرة عليه قال وما
مضرته قال تطول طريقه ويشتد جوعه وفى العنف احسان اليه قال وما الاحسان اليه قال يخف حمله ويطول اكله فاعجب الملك بكلامه
وقال له قد أمرت لك بالف درهم قال رزق مقدور وواهب مأجور قال وقد أمرت باثبات اسمك فى حشمى قال كفيت مؤنة ورزقت بها
معونة قال لولا انك حديث السن لاستوزرتك قال ان يعدم الفضل من رزق العقل قال فهل تصلح لذلك قال انما يكون الحمد والذم بعد
التجربة ولا يعرف الانسان نفسه حتى يبلوها قال فاستوزره فوجده ذا رأى صليب وفهم رحيب ومشورة تقع مواقع التوفيق قال وكتب
الاسكندر الى ارسطاطاليس وقد نفذ فى الشرق والغرب وبلغ منهما ما لم يبلغه أحد قبله اكتب الى لفظا موجزا ينفع ويردع فكتب
اليه اذا استولت بك السلامة فجدد ذكر العطب واذا هنتك العافية فحدث نفسك بالبلاء واذا اطمأن بك الامن فاستشعر الخوف واذا

الساحلى الطريحى وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيدا بسعاية أعدائه وكان له فى اللسان ملكة لا تدرك واتبع اثره تلميذه بعده وبالجملة فشأن هذه الملكة بالاندلس أكثر وتعلمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الادب وسند تعليمها ولان أهل اللسان العجمى الذين تفسد ملكتهم انما هم طارئون عليهم وليست عجمتهم أصل اللغة اهل الاندلس والبربر فى هذه العدوة وهم اهلها ولسانهم لسانها الا فى الامصار فقط وهم فيها منغمسون فى بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الاندلس واعتبر ذلك بحال اهل المشرق لعهد الدولة الامويه والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الاندلس فى تمام هذه الملكة واجادتها لبعدهم لذلك العهد عن الاعاجم ومخالطتهم الا فى القليل فكان أمر هذه الملكة فى ذلك العهد اقوم وكان فحول الشعراء والكتاب اوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق وانظر ما اشتمل عليه كتاب الاغانى من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم له فلا كتاب اوعب منه لاحوال العرب وبقى أمر هذه الملكة مستحكما فى المشرق فى الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان فى الجاهلية كما نذكره بعد حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الامر للاعاجم والملك فى أيديهم والتغلب لهم وذلك فى دولة الديلم والسلجوقية وخالطوا أهل الامصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربى وملكته وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد فى فنى المنظوم والمنثور وان كانوا مكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق لا رب سواه

٤٥ * (فصل فى انقسام الكلام الى فنى النظم والنثر) *

اعلم ان لسان العرب وكلامهم على فنين فى الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذى تكون اوزانه كلها على روى واحد وهو القافية وفى النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب فى الكلام فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء واما النثر فمنه السجع الذى يؤتى به قطعا ويلتزم فى كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا ومنه المرسل وهو الذى يطلق فيه الكلام اطلاقا ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل فى الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم واما القرآن وان كان من المنثور الا انه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلا مطلقا ولا مسجعا بل تفصيل آيات ينتهى الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام فى الآية

بلغت نهاية الامل فاذكر الموت فان أحببت نفسك فلا تجعلن لها في الاساءة اليها نصيبا قال ووعظ بعض الحكماء ملكا فقال له أيها الملك ان الدنيا دار عمل والآخرة دار ثواب ومن لا يقدم لا يجد فهون نفسك حلاوة عيشها بترك الاساءة اليها واعلم ان زمام العافية بيد البلاء وأمن السلامة تحت جناح العطب وباب الامن مستور بالخوف فلا تكونن في حال من هذه الثلاثة غير متوقع لاضدادها ولا تجعل نفسك غرضا للسهام المهلكة فان الدهر عدو ابن آدم فاحترز من عدوك بغاية الاستعداد واذا فكرت في نفسك وعدوها استغنيت عن الوعظ (قال) وكتب الاسكندر على باب الاسكندرية أجل قريب في يد غيرك وسوق حثيث من الليل والنهار واذا انتهت المدة حيل بينك وبين العدة فاحتل قبل المنع واكرم أجلك بحسن صحبة السائقين واذا آنستك السلامة فاستوحش بالعطب فانه الغاية واذا فرحت للعافية فاحزن للبلاء فاليه تكون الرجعة واذا بسطك الامل فاقبض نفسك عنه بذكر الاجل فهو الموعد واليه المورد (وقال) ابن الاعرابي حدثني من رأى بين اصبهان وفارس حجرا مكتوبا عليه العافية مقرونة بالبلاء والسلامة مقرونة بالعطب والامن مقرون بالخوف ولما ضرب أنوشروان عنق بزرجمهر لما رغب عن دين المجوسية وانتقل الى دين المسيح عليه السلام وجد في منطقته كتابا فيه ثلاث كلمات اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان الغدر في الناس طباعا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة الى الدنيا حمق ولما تاب الله تعالى على النبي سليمان عليه السلام ورد عليه ملكه كتب على كرسيه اذا صحبت العافية نزل البلاء واذا تمت السلامة نجم العطب واذا تم الامن عان الخوف (وحفر) حفير بفارس فوجد فيه لوح رخام فيه أربعة أسطر محفورة أولها أيها المعافى ابشر بالبلاء والثاني ايها السالم توقع العطب والثالث أيها الآمن تخذ أهبة الخوف والرابع ايها الموسر لن يبعد عنك العسر ولما نزل أبو مسلم مدينة سمرقند أتاه اسبهندها فقال ايها الملك ان بالقندهار حجرا مدفونا فيه ثلاثة أسطر وجدت في الكتب ان سليمان بن داود عليهما السلام بعث به ودفن في هذا الموضع وجدانك أنت الذي تستخرجه وتعمل بما فيه فأمر به فاخرج فاذا أول سطر منه الحزم انتهاز الفرصة وترك الونا فيما يخاف عليه الفوت والسطر الثاني الرياسة لا تتم الا بحسن السياسة والسطر الثالث لم يقتل الآباء من ترك الابناء ولم يصب من لم يخب فكان أبو مسلم يقول علم جليل به

الاخرى بعدها ويثني من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل اذ ليست اسجاعا ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضا قواف واطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بام القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه واعلم ان لكل واحد من هذه الفنون اساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وامثال ذلك وقد استعملت المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي أشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب ان تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام التقفية أيضا من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من اطناب او ايجاز او حذف او اثبات او تصريح او اشارة وكناية واستعارة وأما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد امده في البلاغة وانفساح خطوه وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعة ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر انحاء

كلامهم

كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى انهم ليخلون بالاعراب فى الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتأمل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بمنه وكرمه والله تعالى أعلم

٤٦ *(فصل فى أنه لا تتفق الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور معا الا للاقل)*

والسبب فى ذلك انه كما بيناه ملكة فى اللسان فاذا تسبقت الى محله ملكة اخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة لان تمام الملكات وحصولها للطبائع التى على الفطرة الاولى اسهل وأيسر واذا تقدمتها ملكة اخرى كانت منازعة لها فى المادة القابلة وعائقة عن سرعة القبول فوقعت المنافاة وتعذر التمام فى الملكة وهذا موجود فى الملكات الصناعية كلها على الاطلاق وقد برهنا عليه فى موضعه بنحو من هذا البرهان فاعتبر مثله فى اللغات فانها ملكات اللسان وهى بمنزلة الصناعة وانظر من تقدم له شئ من العجمة كيف يكون قاصرا فى اللسان العربى أبدا فالاعجمى الذى سبقت له اللغة الفارسية لا يستولى على ملكة اللسان العربى ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربرى والرومى والافرنجى قل ان تجد احدا منهم محكما لملكة اللسان العربى وما ذلك الا لما سبق الى السنتهم من ملكة اللسان الآخر حتى ان طالب العلم من أهل هذه الالسن اذا طلبه بين أهل اللسان العربى جاء مقصرا فى معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى الا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل ان الالسن واللغات شبيهة بالصنائع وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم وان من سبقت له اجادة فى صناعة فقل ان يجيد اخرى أو يستولى فيها على الغاية والله خلقكم وما تعملون

٤٧ *(فصل فى صناعة الشعر ووجه تعلمه)*

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد فى سائر اللغات الا انا الآن انما نتكلم فى الشعر الذى للعرب فان أمكن ان تجد فيه أهل الالسن الاخرى مقصودهم من كلامهم والا فلكل لسان أحكام فى البلاغة تخصه وهو فى لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى اذ هو كلام مفصل قطعا قطعا متساوية فى الوزن متحدة فى الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ويسمى الحرف الاخير الذى تتفق فيه رويا وقافية ويسمى جملة الكلام الى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بافادته فى تراكيبه حتى كانه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاما فى بابه فى مدح أو تشبيب او رثاء فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل فى افادته ثم يستأنف فى البيت

تتم هذه الدولة ان لم ينزل القدر بما يحول بيننا وبين الحذر فلم يزل يستعمل هذا الكلام الى ان قدم العراق فاعماه القدر عن الاستعانة بالحذر فقتله ابو جعفر المنصور ولما هاج ابو مسلم قيل له ان بالحيرة نصرانيا قد أتت عليه مائتا سنة وعنده علم من العلم الاول فوجه اليه فأتى به فلما نظر الشيخ الى أبى مسلم قال قدمت بالكفاية ولم تأل فى العناية وقد بلغت النهاية احرقت نفسك لمن سبكت حسك وكان قد عاينت ومسك فبكى ابو مسلم فقال لا تبك فانك لم تؤت من حزم وثيق ولا من رأى رتيق ولا تدبير نافع ولا من سيف قاطع ولكن ما استجمع احد لامله الا أسرع فى تقريب اجله قال فمتى تراه يكون قال اذا تواطأ الخليفتان على امركان والتقدير فى يدى من يبطل معه التدبير وان رجعت الى خراسان سلمت وهيهات فاراد الرجوع فكتب اليه السلطان بالمضى ووجه اليه من يحثه فلولا ان البصر يعمى اذا نزل القدر لكانت هذه دلالة تقع موقع العيان وتبعث على التيقظ فى الحذر والاحتيال فى الهرب على ان لكل نفس غاية ولكل امر نهاية (وقيل) لجالينوس وهو حكيم الطب وفيلسوفه وقد نهكته العلة الا تتعالج فقال اذا كان الداء من السماء بطل الدواء واذا قدر الرب بطل حذر المربوب ونعم الدواء الاجل و بئس الداء الامل وقال بعض الغزاة فتحنا حصنا من بلاد الروم فرأينا فيه صورة الاسد من حجر مكتوب عليه الحيلة خير من الشدة والتأنى أفضل من العجلة والجهل فى الحرب أحزم من العقل والتفكر فى العاقبة مادة الجزع (وقال) أحمد بن سهل وجه ملك الروم الى هرون الرشيد بثلاثة اسياف مع هدايا كثيرة وعلى سيف منها مكتوب ايها المقاتل احمل تغنم ولا تفكر فى العاقبة فتهزم وعلى الثانى منها مكتوب اذا لم تصل ضربة سيفك فصلها بالقائه خوفك وعلى الثالث مكتوب التأنى فيما لا يخاف عليه الفوات افضل من العجلة الى ادراك الامل وقال الحسن بن سهل قرأت فى كتاب جاويدان خرد ثلاث تبطل مع ثلاث الشدة مع الحيلة والعجلة مع التأنى والاسراف مع القصد (وقال) الخضر بن على رأيت بعدن حجرا عليه مكتوب بالحميرية ايها الشديد احذر الحيلة ايها العجول احذر التأنى ايها المحارب تايس من الفكر فى العاقبة ايها الطالب موجود الا تقطع املك من بلوغه (وكتب) قيصر الى كسرى أخبرنى بأربعة أشياء لم أجد من يعرفها اخالها عندك اخبرنى ما عدو الشدة وصديق الظفر ومدرك الامل ومفتاح الفقر فكتب اليه الحيلة عدو الشدة والصبر صديق الظفر والتأنى مدرك الامل والجود مفتاح الفقر (وقال) بعض الملوك لحكيم واراد سفرا أوقفنى

الا خر كلاما آخر كذلك و يستطرد للخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بان يوطئ المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب المقصود الثانى و يبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من التشبيب الى المدح ومن وصف البيداء والطلول الى وصف الركاب او الخيل أو الطيف ومن وصف الممدوح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء فى الرثاء الى التأثر وأمثال ذلك و يراعى فيه اتفاق القصيدة كلها فى الوزن الواحد حذرا من أن يتساهل الطبع فى الخروج من وزن الى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق فى الطبع استعملته العرب فى هذا الفن وانما هى أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها فى خمسة عشر بحرا بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب فى غيرها من الموازين الطبيعية نظما واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلا يرجعون اليه فى الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانية كلها انما تكتسب بالصناعة والارتياض فى كلامهم حتى يحصل شبه فى تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بانه كلام تام فى مقصوده و يصلح ان ينفرد دون ماسواه فيحتاج من أجل ذلك الى نوع تلطف فى تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعرى فى قوالبه التى عرفت له فى ذلك المنحى من شعر العرب و يبرزه مستقلا بنفسه ثم يأتى ببيت آخر كذلك ثم ببيت و يستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت فى موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التى فى القصيدة ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكا للقرائح فى استجادة أساليبه وشحذ الافكار فى تنزيل الكلام فى قوالبه ولا يكفى فيه ملكة الكلام العربى على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تلطف ومحاولة فى رعاية الاساليب التى اختصته العرب بها واستعمالها ولنذكر هنا سلوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها فى اطلاقهم فاعلم انها عبارة عندهم عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب او القالب الذى يفرغ فيه ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها و يصيرها فى الخيال كالقالب او المنوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب

على أشياء من حكمتك اعمل بها فى سفرى فقال اجعل تأنيك زمام عجلتك وحيلتك رسول شدتك وعفوك ملك قدرتك وأنا ضامن لك قلوب رعيتك ان لم تخرجهم بالشدة او تبطرهم بالاحسان اليهم وقال الخضر بن على قرأت فى كتاب جاو يدان خرد وهو أجل كتاب للفرس الحيلة أنفع من أقوى الشدة وأقل التأنى اجل من اكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد الانسان برأيه عميت عليه المراشد وكان التجت كان ابو بزرجمهر خامل القدر وضيع الحال مفهمه المنطق فلما اتت لبزرجمهر خمس عشرة سنة وحضر فى مجلس الملك وقد جلست الوزراء على كراسيها والمرازبة فى مجالسها وقف بحيال الملك ثم قال الحمد لله المأمول نعمه المرهوب نقمه الدال عليه بالرغبة اليه المؤيد الملك بسعوده فى الفلك حتى رفع شأنه وعظم سلطانه وانار به البلاد واعاش به العباد وقسم له فى التقدير وجوه التدبير فرعى رعيته بفضل نعمته وحماها المؤيدات واوردها المعشبات وذادها عن الا كلين والفها بالرفق واللين انعاما من الله تعالى عليه وتثبيتا لما فى يديه واسأله ان يبارك له فيما آتاه و يخيرله فيما استرعاه و يرفع قدره فى السماء و ينشر ذكره تحت الماء حتى لا يبقى له بينهما مناوى ولا يجد له فيهما مدانى واستوهب له حياة لا تنغيص فيها وقدرة لا شاذ عنها وملكا لا بؤس فيه وعافية تديم له البقاء وتكثر له النماء وعزا يؤمنه من انقلاب رعيه او هجوم بليه فانه مولى الخير ودافع الشر فأمر الملك فحشى فمه بثمين الجواهر ورفيعه ولم يدفع حداثة سنه مع نبل كلامه ان استوزره وقلده خيره وشره فكان أول داخل وآخر خارج (وقال) عمر بن عبد العزيز مالله على العاقل نعمة بعد الاسلام أفضل من مباينته هذه السفلة بالفهم والعقل ولو لم يكن هذا ماعرف الله تعالى الا بالجهل الاترى ان الله تعالى خاطب اولى النهى وذوى الالباب وذوى البصائر و يجب على العلية ان يحمدوا الله تعالى على مباينتهم هذه السفلة بالعقول والافهام كما يحمدونه على جميع النعم (وقيل) لمروان بن محمد وهو آخر ملوك بنى أمية ما الذى أصارك الى هذا قال الاستبداد برأيى لما كثرت على كتب نصر بن سيار ان أمده بالاموال والرجال قلت فى نفسى هذا رجل يريد الاستكثار من الاموال والجند بما يظهر لى من فساد الدولة قبله وهيهات ان ينتقض على خراسان فانتقضت دولته من خراسان وقال الواقدى قال الفضل بن سهل لما دعى للمأمون فى كور خراسان بالخلافة جاءتنا هدايا الملوك سرورا بمكانه من الخلافة ووجه ملك

العربي باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب او النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فان لكل فن من الكلام اساليب تختص به وتوجد فيه على انحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله * يادارمية بالعلياء فالسند * ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله قفا نسأل الدار التي خف أهلها * أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله * ألم تسأل فتخبرك الرسوم * ومثل تحية الطلول بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله

حي الديار بجانب الغزل * أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله

اسقى طلولهم أجش هزيم * وغدت عليهم نضرة ونعيم

أوسؤاله السقيا لها من البرق كقوله

يا برق طالع منزلا بالابرق * واحد السحاب لها حداء الانيق

اومثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء كقوله

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر * وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله * أرأيت من حملوا على الاعواد * أو بالتسجيل على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لا حام ولا راع * مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

او بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألقى الرماح ربيعة بن نزار * أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل انشائية وخبرية اسمية وفعلية متفقة وغير متفقة مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الاخرى يعرفك فيه ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فان مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فان خرج عن القالب في بنائه أو على المنوال في نسجه كان فاسدا ولا تقولن ان معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لانا نقول

كابلستان شيخا يقال له ذوبان وكتب بذكر انه قد وجه بهدية ليس في الارض اسنى منها ولا ارفع ولا انبل ولا افخر منها فعجب المأمون وقال سل الشيخ ما معه فسألته فقال ما معي شئ أكثر من علمي قلت وأي شئ علمك قال رأي ينفع وتدبير يقطع ودلالة تجمع قال فسر المأمون بذلك فأمر بانزاله واكرامه وكتمان امره فلما اجمع على التوجه الى العراق لقتال اخيه قال لذوبان ماترى في التوجه الى العراق قال رأي وثيق وحزم مصيب وملك قريب فالسير ماض فاقض ما انت قاض قال له فمن نوجه قال الفتى الاعور الطاهر الاطهر يسير ولا يعثر قوي مرهوب مقاتل غير مغلوب قال فكم نوجه معه من الجند قال اربعة آلاف صوارم الاسياف لا ينتقصون العدد ولا يحتاجون الى المدد فسر المأمون بذلك ووجه بطاهر بن الحسين قال وفي اي وقت يخرج قال مع طلوع الفجر يجمع لك الامر ويصير الى النصر نصر سريع وقتل ذريع وتفريق تلك الجموع والنصر له لا عليه ثم يرجع الامر اليك واليه فظفر طاهر وكان له النصر وقتل علي بن عيسى وزير الامين واستولى على عسكره وحاز امواله فامر الملك لذوبان بمائة الف درهم فلم يقبلها وقال ايها الملك ان ملكي لم يوجهني اليك لانقصك مالك فلا تجعل ردي لنعمتك تسخطا وساقبل ما في هذا المال ويزيد عليه قال المأمون وما هو قال كتاب يوجد بالعراق فيه مكارم الاخلاق وعلوم الآفاق من كتب عظيم الفرس فيه شفاء النفس من صنوف الآداب ما ليس في كتاب عند عاقل لبيب ولا فطن اريب يوجد تحت ايوان بالمدائن فيقاس بالذرعان في وسط الايوان لا زيادة ولا نقصان فاحفر المدر واقلع الحجر فاذا وصلت الى

الساجة فاقلعها تجد الحاجة ولا تلزم لغيرها فيلزمك غب ضرها فارسل المأمون الى ايوان كسرى فحفروا في وسطه فوجدوا صندوقا صغيرا من زجاج عليه قفل منه فحمل الى المأمون فقال لذوبان هذا بغيتك قال نعم ايها الملك قال خذها وانصرف فتكلم بلسانه ونفخ في القفل فانفتح فاخرج منه خرقة ديباج فنشرها فاسقط منها اوراقا فعدها مائة ورقة ولم يكن في الصندوق شئ غيرها فأخذ الاوراق وانصرف الى منزله قال الفضل بن سهل فجئته فسألته فقال هذا كتاب جاويدان خرد تأليف كنجور وزير ملك ايران شهر فطلبت منه شيأ فدفع الي ورقات منه وترجمها الى الخضر بن علي ثم أخبرت المأمون فقال احمل الي الورقات فحملتها اليه فقرأها فقال والله هذا الكلام لا ما نحن فيه من اللي بألسنتنا * (فصل في نوادر بزرجمهر حكيم الفرس نصحي النصحاء ووعظ الوعاظ شفقة

ونصيحة وتأديبا فلم يعظني أحد مثل شيبي ولا نصحني مثل فكري ولقد استضأت بنور الشمس وضوء القمر فلم استضئ بشئ أضوأ من نور قلبي وكنت عند الاحرار والعبيد فلم يملكني أحد ولا قهرني غير هواي وعاداني الاعداء فلم أر أعدى لي من نفسي اذا جهلت واحترزت لنفسي بنفسي من الخلائق كلهم حذرا عليها وشفقة فوجدتها أشر الانفس لنفسها ورأيت انه لا يأتيها الفساد الا من قبلها وزحمني المضايق فلم يزحمني مثل الخلق السوء ووقعت من أبعد البعد وأطول الطول فلم اقع في شئ أضر علي من لساني ومشيت على الجمر ووطئت على الرمضاء فلم ار نارا أحر من غضبي اذا تمكن مني وطالبني الطلاب فلم يدركني مدرك مثل اساءتي ونظرت ما الداء القاتل ومن أين نالني فوجدته من معصية ربي سبحانه والتمست الراحة

لنفسي فلم اجد شيأ أروح لها من تركها مالا يعنيها وركبت البحار ورأيت الاهوال

قوانين البلاغة انما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الاعرابية وهذه الاساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شئ انما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام باطلاق وان القوانين العلمية من العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه وانما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فاذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الاساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظرا في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس ولهذا قلنا ان المحصل لهذه القوالب في الذهن انما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور فان العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاؤا به مفصلا في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالبا وقد يقيدونه بالاسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه الا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال فلهذا كان من تأليف الكلام منفردا عن نظر النحوي والبياني والعروضي نعم ان مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها فاذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب ولا يفيده الا حفظ كلام العرب نظما ونثرا واذا تقرر معنى الاسلوب ما هو فلنذكر بعده حدا أو رسما للشعر به تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض فانا لم نقف عليه لاحد من المتقدمين فيما رأيناه وقول العروضيين في حده انه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له وصناعتهم انما تنظر في الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم ان حدهم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والاوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به فقولنا الكلام البليغ جنس وقولنا المبني على الاستعارة والاوصاف فصل عما يخلو من هذه فانه في الغالب ليس بشعر وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروى

فلم اره ولا مثل الوقوف على سلطان جائر وتوحشت في البرية والجبال فلم أر مثل القرين السوء وعالجت السباع والضباع والذئاب وعاشرتها وعاشرتني وغلبتها فغلبني صاحب الخلق السوء وأكلت الطيب وشربت المسكر وعانقت الحسان فلم أجد شيأ ألذ من العافية والامن وتوسطت الشياطين والجبال والسباع فلم أجزع الا من الانسان السوء وأكلت الصبر وشربت المر فلم ارشيأ أمر من الفقر وشهدت الحروب وتعبية الجيوش وباشرت السيوف وصارعت الاقران فلم أر قرنا أغلب من المرأة السوء وعالجت الحديد ونقلت الصخر فلم أر حملا أثقل من الدين ونظرت فيما يذل العزيز ويكسر القوي ويضع الشريف فلم أر أذل من ذي فاقة وحاجة ورشقت بالنشاب ورجمت بالحجارة فلم أر انفذ من الكلام السوء يخرج من فم مطالب بحق وعمرت السجن وشددت في الوثاق وضربت بعمد الحديد فلم يهدمني مثل ما هدمني الغم والهم والحزن واصطنعت الاخوان وانتخبت الاقوام للعدة والشدة والنائبة فلم ار شيأ أخير من التكرم عندهم وطلبت الغنى من وجوهه فلم أر أغنى من القنوع وتصدقت بالذخائر فلم أر صدقة انفع من رد ذي ضلالة الى هدى ورأيت الوحدة والغربة والمذلة فلم أر أذل من مقاساة الجار السوء وشيدت البنيان لاعز به واذكر فلم ار شرفا أرفع من اصطناع المعروف ولبست الكساء الفاخرة فلم ألبس شيأ مثل الصلاح وطلبت احسن الاشياء عند الناس فلم اجد شيأ احسن من حسن الخلق وسررت بعطايا الملوك وحباتهم فلم أسر بشئ أكثر من الخلاص منهم * (فصل) * ومن حكم شاناق السندي

من كتابه الذى سماه منتحل الجواهر للملك بن فايض الهندى يا ايها الملك اتق عثرات الزمان وتخش تسلط الايام ولوم غلبة الدهر واعلم ان للاعمال جزاء فاتق العواقب وللايام عثرات فكن على حذر والاقدار مغيبات فاستعد لها والزمان منقلب فاحذر دولته لئيم الكرة مخوف سطوته سريع الغرة فلا تأمن دولته واعلم ان من لم يداو نفسه من سقام الآثام فى أيام حياته فما ابعده من الشفاء فى دار لا دواء لها بها ومن أذل حواسه واستعبدها فيما يقدم من خير لنفسه بان فضله وظهر نبله ومن لم يضبط نفسه وهى واحدة لم يضبط حواسه وهى خمس واذا لم يضبط حواسه مع قلتها وذلتها صعب عليه ضبط الاعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم فكانت عامة الرعية فى قواصى البلاد وأطراف المملكة أبعد من الضبط فليبدأ الملك بسلطانه على نفسه فليس من عدو احق ان يبدأه بالقهر من نفسه ثم يشرع فى قهر حواسه الخمس لان قوة الواحدة منهن دون صواحبها قد تأتى على النفس القوية الحذرة فكيف اذا اجتمعت خمس أنفس على واحدة واعلم ان لكل واحدة منهن شرة ليست للاخرى فيزها تسلم من شرها وانما يهلك الحيوان بالشهوات الاترى أن الفراش يكره الشمس فيسكن من حرها و يعجبه ضياء النار فيدنو منها فتحرقه والظبى على نفار قلبه وشدة حرصه ينصت للسماع المونق الملهى فيمكن القانص من نفسه وذباب الورد المتبع لطيب الارايح يطلب ما يقطر من اذن الفيل لطيب رائحته فانه فى طيب رائحة المسك فيلهيه طيب الرائحة عن الاحتراس من تحريك الفيل اذنه فيتولج فى أصل اذنه فتقع عليه ضربة الاذن فتقتله والسمك فى البحر تحمله لذة الطعم ان يبتلعه فتحصل الصنارة فى جوفه فيكون فيه حتفه (وذكر الحكيم) ان خصالا معروفة قتلت بالافراط فيها ملوكا معروفين فالصيد مات فيه قيد الملك والافراط فى العمارات مات منه سنيب الملك والافراط فى السكر مات فيه حاذق الملك وشدة الحرص مات منه مهريق الملك والغضب أخرج محى الملك والطمع واثل والفرح واطبات والانفة بوليس والتوانى زميرنهر واخلاق بخصال اهلكت ملوكا كان يجتنبها الملوك * واعلم ان الرعية تستطلى الى الملك العادل استطلاء اهل الجدب الى الغيث و يتعشون بطلعته عليهم كما تنتعش النبات بما يناله من القطر بل الرعية بالملك العادل اتم نفعا منها بالغيث لان لمنفعة الغيث وقتا معلوما وعدل الملك على الدوام لا يتعين له وقت و يحسن بالملك ان يشبه تصاريف تدبيره بطباع ثمانية أشياء وهى الغيث والشمس والقمر والريح

والروى فصل له عن الكلام المنثور الذى ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله و بعده بيان للحقيقة لان الشعر لا تكون أبياته الا كذلك ولم يفصل به شئ وقولنا الجارى على الاساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على اساليب العرب المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم لان الشعر له اساليب تخصه لا تكون للمنثور وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يكون شعرا و بهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا فى هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبى والمعرى ليس هو من الشعر فى شئ لانهما لم يجريا على اساليب العرب من الامم عند من يرى ان الشعر يوجد للعرب وغيرهم ومن يرى انه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج الى ذلك و يقول مكانه الجارى على الاساليب المخصوصة واذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام فى كيفية عمله فنقول * اعلم ان لعمل الشعر واحكام صناعته شروطا أولها الحفظ من جنسه أى من جنس شعر العرب حتى تنشأ فى النفس ملكة ينسج على منوالها و يتخير المحفوظ من الحر النقى الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفى فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين مثل ابن ابى ربيعة وكثير وذى الرمة وجرير وابى نواس وحبيب والبحترى والرضى وابى فراس وأكثره شعر كتاب الاغانى لانه جمع شعر أهل الطبقة الاسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر ردئ ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه او عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم و بالاكثار منه تستحكم ملكته وترسخ و ربما يقال ان من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة اذ هى صادة عن استعمالها بعينها فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كانه منوال يأخذ بالنسج عليه بامثالها من كلمات أخرى ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط فذلك اجمع له وأنشط للقريحة أن تأتى بمثل ذلك المنوال الذى فى حفظه قالوا وخير الاوقات لذلك اوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفى هؤلاء الجمام وربما قالوا ان من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق فى كتاب العمدة وهو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة واعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا فان استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه الى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من اول صوغه ونسجه بعضها و يبنى الكلام عليها الى آخره لانه

ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها فى محلها فربما تجىء نافرة قلقة واذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذى عنده فليتركه الى موضعه الاليق به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم تبق الا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضن به على الترك اذا لم يبلغ الاجادة فان الانسان مفتون بشعره اذ هو نبات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام الا الافصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان عن المولد ارتكاب الضرورة اذ هو فى سعة منها بالعدول عنها الى الطريقة المثلى من الملكة ويجتنب أيضا المعقد من التراكيب جهده وانما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الفهم وكذلك كثرة المعانى فى البيت الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وانما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقا على معانيه او أوفى فان كانت المعانى كثيرة كان حشوا واستعمل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى بكر بن خفاجة شاعر شرق الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبى والمعرى بعدم النسج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضا الحوشى من الالفاظ والمقصر وكذلك السوقى المبتذل بالتداول بالاستعمال فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضا فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الافادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الافادة يبعد عن رتبة البلاغة اذ هما طرفان ولهذا كان الشعر فى الربانيات والنبويات قليل الاجادة فى الغالب ولا يحذق فيه الا الفحول وفى القليل على العسر لان معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك واذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فان القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى فى كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن اراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس فى أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن أحسن ما قيل فى ذلك وأظنه لابن رشيق

لعن الله صنعة الشعر ماذا * من صنوف الجهال منه لقينا * يؤثرون الغريب منه على ما
كان سهلا للسامعين مبينا * ويرون المحال معنى صحيحا * وخسيس الكلام شيأ ثمينا
يجهلون الصواب منه ولا يد * رون للجهل انهم يجهلونا * فهم عند من سوانا يلامو

والنار والارض والماء والموت فاما شبه الغيث فتواتره فى أربعة اشهر من السنة ومنفعته لجميع السنة كذلك ينبغى للملك ان يعطى جنده وأعوانه فى الاربعة أشهر تقدير التتمة السنة فيجعل رفعهم ووضعهم فى الحق الذى يستوجبونه بمنزلة كما يسوى المطر بين كل أكمة مشرفة وغائط مستقل ويغمر كلا من مائه بقدر حجمه ثم يستجبى الملك فى الثمانية الاشهر حقوقه من غلاتهم وخراجهم كما تسخن الشمس بحرها وشدة فعلها انداوة الغيث والامطار فى الاربعة الاشهر وأما شبه الريح فان الريح لطيفة المداخل تسرح فى جميع المنافذ حتى لا يفوتها مكان كذلك الملك ينبغى ان يتولج قلوب الناس بجواسيسه وعيونه لا يختفون عنه بشئ حتى يعرف ما يأتمرون به فى بيوتهم وأسواقهم وكالقمر اذا استهل أيامه فأضاء واعتدل نوره على الخلق وسر الناس بضوئه ينبغى ان يكون الملك ببهجته وزينته واشراقه فى مجلسه وايناسه رعيته بشره فلا يخص شريفا دون وضيع بعدله وكالارض فى كتمان السر والاحتمال والصبر والامانة وكالنار على أهل الدعارة والفساد وكعاقبة الموت فى الثواب والعقاب يكون ثوابه لا يقصر عن اقامة حد ولا يتجاوزه وكالماء فى لينه لمن لاينه وهدمه واتلافه عظيم الشجر لمن حاربه واعلم انه قد يكتنف السلطان من شرار الناس والاعوان على الحاجة اليهم من يستبشع ويستكره كالحيات تكتنف بالصندل فيقتلها الصندل بطيب رائحته وبرده ويبسه وينتفع الصندل بها اذ لا يقرب منه من يريد أن يقطعه * ليكن فيك مع تلطفك تشديد البلاء فلا يتجرأ عليك فان القمر يستنار بضوئه ويظهر له لكن الشمس يستظل من حرها ويسكن لها وقد قالت العرب فى مثل هذا لا تكن حلوا فتسترط ولا مرا فتلفظ اجعل لكل طبقة من أعدائك أشباههم من أعوانك يسوسونهم فانهم كالماء فى الاذن لا حيلة فى اخراجه الا بارفق من الماء الذى هو من جنسه اذا عاديت رجلا فلا تعاد جنسه واستبق من دونه أحدا فعسى تنتفع به فان السيف القاتل من جنس الدرع الواقى ولا تطمعن فى الكذوب والمطبوع على الشر أن تعطفهما بالاحسان فانهما كالقرد كلما سمن باطعام الحلاوة والنعم ازداد وجهه قبحا * قد يرد الواحد ركبة الجمع اذا كان عاقلا كما يرد الظل حر شعاع الشمس اذا كان وافيا غايته رمى الناس ان يقتل بسهمه واحدا لكن رمية عاقل ذهن تقتل الجيش بأسره والملك الشريف العاقل لا ينتقد فيه قدح أهل البغى من انقطع اليه ولزمه كان كالجوهر المضىء بنوره لا تطفئه

ن وفى الحق عندنا يعذرونا * انما الشعر ما يناسب فى النظ * م وان كان فى الصفات فنونا
فاتى بعضه يشاكل بعضا * وأقامت له الصدور المتونا * كل معنى أتاك منه على ما
تتمنى ولم يكن او يكونا * فتناهى من البيان الى أن * كاد حسنا يبين للناظرينا
فكان الالفاظ منه وجوه * والمعانى ركبن فيها عيونا * ان ما فى المرام حسب الامانى
يتحلى بحسنه المنشدونا * فاذا ما مدحت بالشعر حرا * رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلا قريبا * وجعلت المديح صدقا مبينا * وتعلمت ما يهجن فى السم
ع وان كان لفظه موزونا * واذا ما عرضته بهجاء * عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلت التصريح منه دواء * وجعلت التعريض داء دفينا * واذا ما بكيت فيه على الغا
دين يوما للبين والظاعنينا * حلت دون الاسى وذللت ما كا * ن من الدمع فى العيون مصونا
ثم ان كنت عاتبا جئت بالوع * د وعيدا وبالصعوبة لينا * فتركت الذى عتبت عليه
حذرا آمنا عزيزا مهينا * وأصح القريض ما قارب النظ * م وان كان واضحا مستبينا
فاذا قيل أطمع الناس طرا * واذا ريم أعجز المعجزينا

ومن ذلك أيضا قول بعضهم

الشعر ما قومت زيغ صدوره * وشددت بالتهذيب أس متونه
ورأبت بالاطناب شعب صدوعه * وفتحت بالايجاز عور عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده * وجمعت بين مجمه ومعينه
واذا مدحت به جوادا ماجدا * وقضيته بالشكر حق ديونه
أصفيته بنفيسه ورصينه * وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جزلا فى مساق صنوفه * ويكون سهلا فى اتفاق فنونه
واذا بكيت به الديار وأهلها * أجريت للمحزون ماء شؤونه
واذا أردت كناية عن ريبة * باينت بين ظهوره وبطونه
فجعلت سامعه يشوب شكوكه * بثبوته وظنونه بيقينه

٤٨ *(فصل فى ان صناعة النظم والنثر انما هى فى الالفاظ لا فى المعانى)*

(اعلم) ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هى فى الالفاظ لا فى المعانى وانما المعانى تبع لها وهى أصل فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر انما يحاولها فى الالفاظ بحفظ أمثالها من كلام

عصوف الرياح من كان قابلا لما يورد عليه فى اصغائه الى كل قول يسمعه كان كالسراج يميل به كل ريح لينة ثم لا يلبث ان عصفت الرياح ان يطفأ * تدبير الملك الحازم فى سلطانه كتعاهد صاحب البستان ببستانه يخرج ناحل عيدانه وشوك شجره فيحيط به على ثمره وذرعه ليقيه من الشر والفساد كما ينتخب الملك اهل الشكيمة والشوكة فيجعلهم فى اقاصيه وحدوده ردا للملكة * وليكن الملك احذر ما يكون آمن ما يكون (قلت) وقد صدق الشاعر أأمنتم ريب المنون فنمتم * رب خوف مكمن فى أمان قال الاترى ان بهرشان الملك انامت المرأة على فراشه رجلا فلما رام فراشه وثب عليه فقتله وباسراج الملك قتلته بخلخال مسموم ودروف الملك قتلته امرأته بمدية خبأتها فى عقاصها واعلم ان العدو قد علم منك مواضع الحذر وحالات الامن وانما ترصد لك فى حالات الامن والمواضع التى تظن العدو لا يكمن فيها فكن احذر ما يكون فيها وسائر حكم هذا الباب قد قدمتها فى تراجم كتابنا * (فصل) * قال غيره لا ينبغى للملك ان يكون له ايام معلومة يظهر فيها فان فى ذلك خصالا مذمومة منها انه قد يعوق عن ذلك اليوم عسك بهم او بعض كسل أو لذة مغتنمة فيلزمه الخروج على كره ومنها أنه اذا تخلف عن الظهور فى ذلك اليوم لامر ما تطاولت الاعناق من الرعية وكثر كلامها وقالوا امرض اومات اواصابته آفة فيكسب العدو جرأة وسرورا ويكسب الولى حزنا وجبنا ومنها انه قد يواعد عدوه ليوم يلتقيان فيه فلا يتم له ذلك ولا ينبغى ان يكون الملك كثير التصرف عند فساد الزمان وخبث الرعية وعن هذا قالت الحكماء اذا كان الجمل كثير القفز كان نصيب الذئب *(فصل)* من نوادر كلام العرب من حكم اكثم بن صيفى وهذا رجل كان له عقل وعلم ومعرفة وتجربة وقد علق الناس عنه حكما لطيفة والفوا فيها تصانيف فمن حكمه قال من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء أفضل من السؤال ركوب الاهوال من حسد الناس بدأ بمضرة نفسه العديم من احتاج الى لئيم من لم يعتبر فقد خسر ما كل عثرة تقال ولا كل فرصة تنال لا وفاء لمن ليس له حياء قد يشهر السلاح فى بعض المزاح من وفى بالعهد فاز بالحمد الموت يدنو والمرء يلهو طول الغضب يورث الوصب رب عنق شر من رق من اصطنع قوما احتاج اليهم يوما ما الكذب بهت والحلف مقت من لم يكف اذاه لقى ما ساءه الحر يتقاضى للمن نفسه واللئيم يستحسن تسويفه وحبسه ليس بانسان من ليس له اخوان أنت مزر بنفسك ان صحبت من هو دونك عليك بالمجاملة لمن لا تدوم له مواصلة فى

العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد نشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك انا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر وأيضا فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج الى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني المملوأة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتأليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه والله يعلمكم مالم تكونوا تعلمون

٤٩ *(فصل في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ)*

قد قدمنا انه لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هرون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابي تكون ملكته أجود وأعلى مقاما ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبيه أو ترسل البيساني أو العماد الاصبهاني لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم اجادة الملكة من بعدهما فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لان الطبع انما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها وذلك ان النفس وان كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الادراكات واختلافها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان التي تكيفها من خارج فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها انما تحصل على التدريج كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الاسجاع والترسيل والعلمية بمخالطة العلوم والادراكات والابحاث والانظار والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الاصول والتصوفية الربانية بالعبادات

الاسفار يبذو الاختبار أفسد كل حسب من ليس له أدب افضل الفعال صيانة العرض بالمال ليس من حادث الجهول بذي معقول ليس للملحف مثل الرد من جالس الجهال فليستعد لقيل وقال ما جلا عنك النسيان مثل البيان ولا نفى عنك البهتان مثل البرهان لم ينج من الموت غني لماله ولا فقير لاقلاله اذا أردت طرد الحر فسعه الهوان كثرة العلل آية البخل كفر النعمة لؤم وصحبة الاحمق شؤم ان من الكرم لين الشيم اياك والخديعة فانها خلق لئيم أمحض أخاك النصيحة حسنة كانت او قبيحة رب سباب قد هاجه العتاب الصدود آفة المقت سبب الحرمان التواني من سأل فوق قدره استحق الحرمان ليس كل طالب يصيب ولا كل غائب يؤب ان من الفساد اضاعة الزاد من حلم ساد ومن تفهم ازداد لا ترغب فيمن يزهد فيك رب بعيد أقرب من قريب المزاح يورث الضغائن سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار غناك خير من تمين غيرك من أجد المسير أدرك المقيل استر عورة اخيك لما يعلم فيك لا تكثر من المزاح فتذهب هيبتك ولا من الضحك فيستخف بك من أكثر من شيء عرف به كفى بالحلم ناصرا المنة تهدم الصنيعة نعم الشيء الهدية بين يدي الحاجة ربما نصح غير الناصح وربما غش المنصح الكلام فيما ينفعك خير من السكوت والسكوت عما يضرك خير من الكلام لا يغرنك من جاهل قرابة ولا جوار ولا الف فان أقرب ما تكون من النار قربا اقرب ما تكون منها تالها بارفض أهل الدناءة تلزمك المهابة دع مجالسة أهل الريب على كل حال فانك ان يسلم دينك لم تسلم من سوء المقال الكرم شكر البلاء واللؤم كفر النعمة اكرم الصنائع سلامة الصدور لن تسلم من الناس حتى يسلموا منك من عدم الايمان والاذكار لم تزده الرواية فقها الحزن مفسدة للعقل ومقطعة للحيلة كثرة النوم اماتة للقلب شدة الحذر تدل على ضعف اليقين محادثة الحمقى والسفهاء تورث سوء الخلق الدليل على الحمق اعجاب المرء بعقله من لم يسمع الحديث فارفع عنه مؤنته من حدث من لا يفقه كمن قدم مائدة لاهل القبور من قطع عليك الحديث فلا تحدثه فليس بصاحب ادب من عرف بالصدق جاز كذبه ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقه من وصل من يحسده قوي عدوه وقصر بنفسه اغتفر زلة صديقك من غضب من غير شيء رضي من لا شيء من غضب على من لا يقدر عليه طال حزنه الرجل عبد هواه لولا جهل الجاهل ما عرف عقل العاقل من خاف ربه كف ظلمه كسل الفقير هلاكه شح

الغنى فضحته من لم يتورع في كلامه أظهر فجوره كل شيء لا يوافق الاحمق فاعلم انه صواب اذا غلبتك امرأتك فجاهدها فانها عدوك من لم يعرف الخير من الشر فالحقه بالبهائم من طلب ما عند البخيل مات جوعا جار الرجل الجواد كجار البحر لا يخاف العطش وجار البخيل في المفازة هالك اذا لم تنتفع بمصادقة الاحياء فأت اهل القبور من عادى من فوقه ابغضه من تحته الرزق مقسوم والحريص محروم من كثر كلامه على المائدة غش بطنه وابغضه أصحابه العلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة الجاهل يستطعم الشر والعاقل يمنع نفسه من الشر من لم يرتح للثناء فليس له نصيب في المروءة اذا كان لك جار وصديق لا ينتفع به فصوره مثله في الحائط فانه أزين للحائط واخف للمؤنة العاقل يرغب في الادب والجاهل يهرب منه العاقل اذا فاته الادب لزم الصمت لا تستنطق من تكذبه العاقل يتهم رأيه في نفسه

والاذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع الى حسه الباطن وروحه وينقلب ربانيا وكذا سائرها وللنفس في كل واحد منها لون تتكيف به وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها انما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء واهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لان العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب (أخبرني) صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذاكرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالاطلال * ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين لك ذلك قال من قوله ما الفرق اذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له لله أبوك انه ابن النحوي وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقائهم له الجيد من الكلام ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الاحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعابا علي في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وان كان محفوظي قليلا وانما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الاشعار العلمية والقوانين التأليفية فاني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراآت وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والاصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيرا من قوانين التعليم في المجالس فامتلأ محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق القريحة عن بلوغها فنظر الي ساعة معجبا ثم قال لله أنت وهل يقول هذا الا مثلك ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو اعطاء السبب في أن كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم فانا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة

والجاهل يقيم على جهله من لم يملكه عقله لم يملك نفسه من أظهر محاسنه ودفن مساويه كمل عقله من غلب هواه عقله افتضح من استشاره عدوه في صديقه أمر بقطيعته مصادقة الكرام غنيمة ومصادقة اللئام ندامة لا تدخل على صديقك التهمة فيرجع لك عن النصيحة اذا انقطع رجاؤك من صديقك فالحقه بعدوك من طلب مرضاة الاخوان بغير شيء فليصادق أهل القبور العاقل ليس في مصادقته مخادعة رأس مال الاحمق الخديعة وفائدتها الغضب والحليم رأس ماله الصمت وفائدته الحلم اذا جهل عليك الاحمق فالبس له سلاح الرفق واللطف صديق كل امرئ عقله وعدو كل امرئ جهله من أنزل نفسه عاقلا أنزله الناس جاهلا من قنع بكذب الثناء أظهر للناس رقاعته السكوت عن الاحمق جوابه السكوت يزين الاحمق والكلام يشينه من استطال عليك بملبسه وتحلى بفضله فلا كثر الله في الناس مثله الجواد محبب والبخيل مبغض اذا جمعت البخيل مؤنة أبدى لك الحرمان والعداوة البخيل يمنع ما عنده ويبخل على الجواد بجوده من طلب من البخيل حاجة فهو شر منه من بذل لبخيل صلته ورفع عنه مؤنته دامت له مودته ضيف البخيل آمن من التخمة من طلب من لئيم حاجة كمن طلب السمك في المفازة عدة الكريم نقد وعدة اللئيم تسويف الكريم يواسي اخوانه في دولته واللئيم يقطعهم لا تخضع للئيم فانه لا يطيعك انما الصديق الذي يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند البلية ويحفظك عند المغيب وينفعك عند الرجاء اذا صادقت الوزير فلا تخش الامير من لم ينصحك في الصداقة فعاده من غشك في العداوة فلا تلمه من كان

وجريروالفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والاحوص و بشارثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصدرا من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك ان هؤلاء الذين أدركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثليهما الكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك وأرصف مبنى وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك ان كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة ولقد سألت يوما شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسألته يوما ما بال العرب الاسلاميين اعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قال لي والله ما ادري فقلت اعرض عليك شيأ ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت معجبا ثم قال لي يا فقيه هذا كلام من حقه ان يكتب بالذهب وكان من بعدها يؤثر محلي و يصيخ في مجالس التعليم الى قولي و يشهد لي بالنباهة في العلوم والله خلق الانسان وعلمه البيان

٥٠ *(فصل في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر)*

(اعلم) أن الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب منافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم و بيت ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع فانه انما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه وكان

للناس عنده سواء لم يكن له أصدقاء من صادق الاخوان بالمكر كافؤه بالغدر من لم يواس الاخوان في دولته خذل عند عدمه أمنه اياك ان تبغي مودة من يحسدك فانه لا يقبل اخاءك من حسدك على علمك لم يستمع حديثك الحاسد يفرح بزلتك و يعيب صوابك اذا رأيت من يحسدك و يسرك ان تسلم منه فعم عليه أمورك من صبر على مودة الكاذب فهو مثله وكل شئ شئ ومودة الكاذب لا شئ من بذلك بجهله فكافئه بحلمك نعمه اول المروءة طلاقة الوجه والثانية التودد والثالثة الفصاحة الفاجر لا يبالي ما قال والورع يتعاهد كلامه من شغل مشغولا فقد أظهر ثقله من صبر على شغل سوء فقد نظر الى سخنة عينه من لم يغلب الحزن بالصبر طال غمه من استطال على الناس بغير سلطان فليصبر على الذل والهوان لا تحقر الفقير السري ولا ترغب في الغني الدني من تشبه بالسراة وغلبت عليه الدناءة فلا تكرمه من اغضبته انكرته من أغنيته اعطفته من تعرض لصاحب الدولة انقلب بهزيمة من صانع بماله لم يحتشم من طالب حاجته من صاحب الكتاب ملوه ومن عاداهم أنكروه من شمخ عليك بانفه وطمح ببصره ولم يدخل عليك فضله فليهن عليك سلبه السفيه يقطع مودة لم تزل و يكتسب عداوة لم تكن جل المروءة ثقيل من سالم الناس غنم خذلان الجار لؤم ورجال البلاء قليل احفظ اخوانك تذل اعداءك ما أجمل الصبر على ما لا بد لك منه المحروم من طال نصبه وكان لغيره نشبه لا أقوى أقوى ممن قوى على نفسه ولا عاجز اعجز ممن عجز عنها الخير في أهله غريب ما أضعف قوة من يغالب من لا يغالب

(الباب الرابع والستون مشتمل على حكم منثورة)

اعلم ايها المريد ان الله تعالى يمتحن أنبياءه واصفياءه باعدائه و يضطر أولياءه واحباءه الى لامر أعدائه رفعة وتقريبا الانبيائه وتمحيصا الهفوات أوليائه وذخرا لهم عنده وزلفى لديه تعظيما لاقدارهم وتشريفا لمنازلهم وترفيعا لدرجاتهم قال الله سبحانه وتعالى تعزية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لعظيم ما كان يلقاه من سطوات أعدائه وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين يا محمد لا تستوحش منا ولا تتهمنا في سير تنافين تحبه و يحبنا فالبلاء على وجهين احدهما الذنب والاخر رفع درجة وتوفير أجر ولذلك كان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل فالبلاء بلاآن بلاء رحمة لتضعيف درجة وتمحيص سيئة و بلوغ فضيلة وعلو منزلة و بلاء عقوبة

لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملك والدولة العزيزة وتقرب اليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها ويجيزهم الخلفاء باعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والاخبار واللغة وشرف اللسان والعرب يطالبون وليدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدرا من دولة بني العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للاصمعي في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والتبصر بجيد الكلام ورديئه وكثرة محفوظه منه ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان وانما تعلموه صناعة ثم مدحوا باشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هانئ ومن بعدهم الى هلم جرا فصار غرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاولين كما ذكرناه آنفا وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال وأصبح تعاطيه هجنة في الرياسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار

٥١ *(فصل في أشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد)*

(اعلم) ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية او عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق اوميروس الشاعر واثنى عليه وكان في حمير ايضا شعراء متقدمون ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت تجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضر اهل الامصار نشأت فيهم لغة اخرى خالفت لسان مضر في الاعراب واكثر الاوضاع والتصاريف وخالفت ايضا لغة الجيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات اهل الآفاق فلاهل المشرق وامصاره لغة غير لغة اهل المغرب وامصاره وتخالفهما ايضا لغة اهل الاندلس وامصاره ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع في اهل كل لسان لان الموازين على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين اهل الخليقة بل كل جيل واهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر اهل الامصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ووصف بنائه على مهيع كلامهم فاما العرب اهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم واكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فاهل امصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات نسبة الى الاصمعي راوية العرب في اشعارهم واهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي وربما يلحنون فيه الحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة الى حوران من اطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم الى هذا العهد ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف

لانتهاك حرمة واقتراف معصية لن تخلو المكاره ان تكون لحادث رحمة فلا رغبة عما أنعم الله به منها والسيئة من اضاعة فلا غنى عن زاجرعنها فلاى ذلك كان حلولها عظمت به المنة ووجبت لله به النعمة (وكان جعفر بن محمد) رضي الله عنه اذا وقع في شئ يكرهه يقول اللهم اجعله ادبا ولا تجعله غضبا وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لو كان المؤمن في رأس جبل لقيض الله له من يؤذيه يا من ضاق صدره وحرج قلبه وساء خلقه من عدو أقلقه وحاسد حسده طب نفسا وقر عينا وانعم عيشا بشهادة الرسول لك بالايمان وعدوك بالنفاق بخ بخ ان عقلتها أمالك في الانبياء اسوة أما لك في الصالحين قدوة فلو لم نلق الله عز وجل من الحسنات الا بما اقترفناه اختيارا للقينا الله تعالى فقراء من الحسنات ثقلاء من السيئات قال الشاعر

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

قال بعض الحكماء الذي رأيناه مما نحب فيما نكره اكثر مما رأيناه مما نحب فيما نحب وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما أهمني ذنب امهلت بعده حتى أصلي ركعتين السجون قبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء واسعد الناس من كان القضاء له مساعدا وكان لمساعدته اهلا غاب على الكريم من بدر اليه الشماتة لؤم عوام الناس عدة لخواصهم مجيء القدر يسبق الحذر من سخر من شئ حاق به من عير بشئ ابتلي به الخلق نهب المصائب مذاكرة الرجال تلقيح لالبابها

آخرها الثلاثة فى روية و يلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت الى آخر القصيدة شبيها بالمربع والمخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين ولهؤلاء العرب فى هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التى لهم اذا سمعها ويمج نظمهم اذا أنشد و يعتقد أن ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها وهذا انما أتى من فقدان الملكة فى لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها ان كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره والافالاعراب لامدخل له فى البلاغة انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فاذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر صحت الدلالة واذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ماعدا حركات الاعراب فى أواخر الكلم فان غالب كلماتهم موقوفة الآخر و يتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لابحركات الاعراب فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكى الجازية بنت سرحان و يذكر ظعنها مع قومها الى المغرب

قال الشريف بن هاشم على * ترى كبدى حراشكت من زفيرها
يعز للاعلام أين مارأت خاطرى * يرد اعلام البدو يلقى عصيرها
وماذا شكات الروح مما طرا لها * عذاب وداثع تلف الله خبيرها
بحسن قطاع عامرى ضميرها * طوى وهند جافى ذكيرها
وعادت كما خوارة فى يد غاسل * على مثل شوك الطلح عقدوا يسيرها
تجابدوها اثنين والنزع بينهم * على شول لعنه والمعانى جريرها
و باتت دموع العين ذارفات لشانها * شبيه دوار السوانى يديرها
تدارك منها الجم حذراو رادها * مروان يجى مترا كبا من صبيرها
اصب من القيعان من جانب الصفا * عيون ولحمان البرق فى غديرها
هاأيقنى منى سنابلت غدوة * بغداد ناحت منى حتى فقيرها
ونادى المنادى بالرحيل وشددوا * وعرج غاربها على مستعيرها
وشدلها الادهم دياب بن غانم * على يدماضى وليد مقرب ميرها
وقال لهم حسن بن سرحان غربوا * وسوقوا النجوع ان كان تاه غيرها
و يدلص وسدسها بالتسامح * وباليمين لايجحدوا فى صغيرها
غدرنى زمان السفح من عابس الوغى * وما كان يرمى من حمير وميرها
غدرنى وهو زعما صديقى وصاحبى * وناليه مامن درى مايديرها
و رجع يقول لهم بلاد ابن هاشم * لخير البلاد المعطشة مايخيرها
حرام على باب بغداد وأرضها * داخل ولا عائدله من يعيرها
فصدق درى من بلاد ابن هاشم * على الشمس اوحول الغطا من هجيرها
و باتت نيران العذارى قوادح * بجروا بجرحان فيبروا أسيرها

أقل ما فى طالب الحيلة الخروج من الاستكانة جانى العقوبة على نفسه اعظم جرما عليها من المعاقب له عليها قرابة بغير منفعة بلية عظيمة النعمة متعة كفاك أدبا لنفسك ما كرهته من غيرك الحمية شؤبوب الجهل الانفة قوام السفه قل انف لم يعقب ذلا الغادر كمين لا يؤمن من ازدحام الكلام مضلة الصواب عجلوا القرى قبل سوء الظن والخلق السيئة أعجب ما فى هذا الانسان قلبه وله مواد من الحكمة واضداد من خلافها فان سنح له الرجاء اذله الطمع وان هاج به الطمع أهلكه الحرص وان ملكه اليأس قتله الاسف وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ وان استعد بالرضا نسى التحفظ وان ناله الخوف شغله الحذر وان اتسع له الامن استلبته الغرة وان حدثت له نعمة اخذته العزة وان امتحن بمصيبة فضحه الجزع وان افاد مالا أطغاه الغنى وان عضته فاقة أشغله البلاء وان أجهده الجوع قعد به الضعف وان أفرط فى الشبع كظته البطنة فكل تقصير به مضر وكل افراط له مفسد أفضل القول بديهة امرئ وردت فى مقام خوف اشد الناس غما الذى يرى غيره فى الموضع الذى هو فيه اولا ما اخذ الله طاقة احد الا رفع عنه طاعته من العجب ان لا ترضى عمن ابتغى رضاك وأعجب من ذلك ان تسخط عليه زئير الاسد يشبه صولته علامة العلم العمل بالاعراض عند المنادهة ومن لا تعادوا حتى تروا الا تغيروا حتى تفعلوا الا تأنفوا حتى تظلموا أوجه الشفعاء براءة الساحة من لزم الصحة والاستقامة لزمته الغبطة والسلامة

قصص الاولين مواعظ الآخرين البحث يوضح الحق كما يورى النار القدح ليس مع الحسد سرور ولا مع الحرص راحة ولا مع السخط غناء (قال جعفر بن محمد الصادق) عجبت لمن بلى بأربع كيف يغفل عن أربع لمن ابتلى بالضر كيف يذهب عنه

ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعدى اليفرني مقارعهم بافريقية وأرض الزاب ورثاؤهم له على جهة التهكم

تقول فتاة الحي سعدى وهاضها * ولها في ظعون الباكين عويل
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفه * خذ النعت مني لا تكون هبيل
تراه العالي الواردات وفوقه * من الربط عيساوي بناه طويل
وله ميل القور من سائر النقا * به الواد شرقا والبراع دليل
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفه * قد كان لاعقاب الجياد سليل
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم * جراحه كأفواه المزاد تسيل
ياجار نامات الزناتي خليفه * لا ترحل الا ان يريد رحيل
وبالامس رحلناك ثلاثين مرة * وعشرا وستا في النهار قليل

ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتابا وقع بينه وبين ماضي بن مقرب

تبدى لي ماضي الجياد وقال لي * أيا شكر ما احناشي عليك رضاش
أيا شكر ردى ما بقي ود بيننا * وراناعريب عر بالابسين غماش
نحن ردينا فصادفوا ماقضى لنا * كما صادفت طعم الزناد طشاش
باعدنا ياشكر ردى لبرسلامه * لنجد ومن عمر بلاده عاش
ان كانت بنت سيدهم بأرضهم * هي العرب ماردنالهن طياش

ومن قولهم في ذكر رحلتهم الى الغرب وغلبهم زناتة عليه

وأي جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم * وأي جميل ضاع قبلي جميلها
أنا كنت انا واياه في زهو بيتنا * عنانى نجمه ماعنانى دليلها
وعدت كأني شارب من مدامة * من الخمر قهوة ماقدرمن يميلها
أومثل شعطامات مضيون كبدها * غريبا وهي مدوخه عن قبيلها
أتاها زمان السوء حتى ادوخت * وهي بين عرب غافلا عن نزيلها
كذلك انا مما لحاني من الوحي * شاكي بكبد باديا من عليلها
وأمرت قومي بالرحيل وبكروا * وقوّوا وشدادالحوايا حميلها
قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا * والبدو ماترفع عمود يقيلها
تظل على احداث الثنايا سوارى * يضل الحر فوق التصاوى نصيلها

ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رياح وأهل الرياسة فيهم يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الامير أبي ذكريا بن أبي حفص أول ملوك افريقية من الموحدين

يقول وفي نوح الدجا بعد ذهبة * حرام على أجفان عيني منامها
أيا من لقي حالف الوجد والاسى * وروحا هيامي طال مافي سقامها
حجازية بدوية عربية * عداوية ولها بعيد امرامها
مولعة بالبدو لا تألف القرى * سواعايل الوعسا والى خيامها
عمان ومشتيها بهما كل سرية * محجونة بها ولها صحيح غرامها
ومرباعها عشب الاراضي من الحيا * لوانى من الحور الحلا يا حسامها

ان يقول مسني الضر وأنت ارحم الراحمين والله تعالى يقول فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وعجبت لمن بلى بالغم كيف يذهب عنه ان يقول لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين والله تعالى يقول فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين وعجبت لمن خاف شيأ كيف يذهب عنه ان يقول حسبي الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وعجبت لمن مكر به كيف يذهب عنه ان يقول وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد والله تعالى يقول فوقاه الله سيآت مامكروا وعجبت لمن أنعم عليه بنعمة خاف زوالها كيف يذهب عنه ان يقول ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة الا بالله كذا سنة الله سبحانه فمن صدق في التجائه اليه ولم يتوكل في مهماته الا عليه أعين مائة أو مذمة الذا موارد منجاة من متلفة أو قدوم غائب بعد ان جاءت باليأس منه الركائب وأشر المصادر ظفر على قنوط الطبيعة مخالفة للروية فاصبر لحق وجب عليك وان خالف هواك بهاء المجالس الشريف بالرجل الفاضل اليقين راحة وروح العمل النافذ بالرجل المدبر كبهاء الياقوت واللؤلؤ في تيجان الملوك ما أنور الهدى ما أظلم العمى ما أكرم التقى ما أخدع الهوى ما أسرع البلا ما أجلد الصبا الجود ان يهضم الروح حظ

الحسد والاسراف ان يهضم الجسد حظ الروح والعدل ان يعطى كل واحد منهما حظه والشح ان تكف حظوظهما عنهما عدو يخاف الله فيما تكره خير من صديق لايخافه فيما تحب من العجب ان نطاب فى صحة كل علم ماينفعنا ونكل العلم الى الله تعالى

تسوق بسوق العين مماتداركت * عليها من السحب السوارى غمامها
وماذا بكت بالما وماذا تبلجطت * عيون عذارى المزن عذبا جمامها
كان عروس البكر لاحت ثيابها * عليها ومن نو رالاقاحى حزامها
فلاة ودهنا واتساع ومنسة * ومرعى سوى مافى مراعى نعامها
ومشروبها من محض أليان شولها * عليهم ومن لحم الحوارى طعامها
تعاتب على الابواب والموقف الذى * يشيب الفتى مما يقاسى زحامها
سقى الله ذا الوادى المشجر بالحيا * عو بلا و يحيى مابلى من رمامها
فكافاتها بالود منى وليتنى * ظفرت بأيام مضت فى ركامها
ليالى أقواس الصبا فى سواعدى * اذاقت لاتخطى من أيدى سهامها
وفرسى عديدا تحت سرجى مسافة * زمان الصبا سرجاو بيدى لجامها
وكم من رداح أسهرتنى ولم أرى * من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
وكم غيرها من كاعب مرجحنة * مطرزة الاجفان باهى وشامها
وصفقت من وجدى عليها طريحة * بكفى ولم ينسى جدااها ذمامها
ونار بحطب الوجد توهج فى الحشى * وتوجج لايطفامن الماضرامها
أيامن وعدتى الوعد هذا الى متى * فنى العمر فى دار عمانى ظلامها
ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة * و يغمى عليها ثم يبرى غمامها
بنود ورايات من السعد اقبلت * الينا بعون الله يهفو علامها
أرى فى الفلا بالعين أظعان عزوتى * ورمحى على كتفى وسيرى امامها
بجرعاعتاق النوق من عوذشامس * أحب بلاد الله عندى حشامها
الى منزل بالجعفرية للذى * مقيم بها مالذ عندى مقامها
وتلقى سراة من هلال بن عامر * يزيل الصدا والغل عنى سلامها
بهم تضرب الامثال شرقا ومغربا * اذاقاتلوا قوما سريع انهزامها
عليهم ومن هو فى حماهم تحية * من الدهر ماغنى بقبة حمامها
فدع ذا ولاتأسف على سالف مضى * ترى الدنيا مادامت لاحد دوامها

ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أبى الليل يعاتب أقتالهم أولاد مهلهل و يجيب شاعرهم شبل بن مسكيانة بن مهلهل عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه

يقول وذاقول المصاب الذى نشا * قوارع قيعان يعانى صعابها
يريح بها حادى المصاب اذا انتقى * فنونا من انشاد القوافى عرابها
محبرة مختارة من نشادنا * تحدى بها تام الوشا ملتهابها
مغربلة عن ناقد فى غضونها * محكمة القيعان دالى ودابها
وهيض بتذكارى لها ياذوى الندى * قوارع من شبل وهذى جوابها
اشبل جنينا من حبالك طرائفا * فراح بريح الموجعين الغنسابها
فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم * سوى قلت فى جهورها ما اعابها

من غير بحث عن صحته لا يرعك الباطل مما ترمى به ولكن احذر ان يصدع عليك بالحق فيشهد عليك عيناك ووجهك من بطل رشاؤه بطل منجه الراغب فقير بقدر رغبته الحق يعطى و يمنع تجاوز عن ذنوب الناس لتحتج عليهم واجتنب الذنوب لتقل حجتهم عليك الفراغ الفاضل من الجسام مفسدة الحمية احدى العلتين الفرق يشى الحجة حابى العلية فى كلامك وسو بينهم و بين السفلة فى أحكامك موت فى عز خير من حياة فى ذل الاكفاء من كل نمط متباغضون ماضاع امرؤ عرف قدر نفسه الدعة الهنية تكون بعد انقضاء العمل لن يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه خير الناس من تواضع عن رفعة وعفا عن قدرة الحاسد يظهر وده فى كلامه وبغضه فى أفعاله فاسم الصديق ومعنى العدو الرياء يفسد العلانية والعجب يفسد عمل السريرة اذا كثرت القدرة قلت الشهوة من عرف قدره كفاك نفسه كفى بالظفر شفيعا للمذنب الى الحليم لسان الجاهل دليل حتفه لاخلة مع بغى ولا صحة مع نهم ولا ثناء مع كبر ولا صداقة مع خب من لم يعرف قدره فاكفه لقولك

تفتنك أدنى ماردما خالف شهادة العقل قطع ظهرى وأفسد الدين رجلان جاهل ناسك وعالم فاجر هذا يدعو الناس الى جهله بنسكه

لقولك فى أم المتين بن حمزة * وحامى حماها عاديا فى حرابها
أما تعلم انه قامها بعد مالقى * رصاص بنى يحيى وعلاق دابها
شهابا من اهل الامر ياشبل خارق * وهل رأيت من جا للوغى واصطلى بها
شواهد طفاها أضرمت بعد طفيه * وأثنا طفاها حاسرا لا أهابها
واضرم بعد الطفيتين التى صحت * تعاسا الى بيت المنا يقتدى بها
كما كان هو يطلب على داتجنبت * رجال بنى كعب الذى يتقى بها

ومنها فى العتاب
وليدا تعاتبتوا انا أغنى لاننى * غنيت بعلاق الثنا واغتصابها
على وناندفع بها كل مبضع * بالاسياف ننتاش العدا من رقابها
فان كانت الاملاك بغت عرايس * علينا باطراف القنا اختضابها
ولا نقر ما الارهاف ودبل * و زرق السبايا والمطايا ركابها
بنى عمنا ماترتضى الذل عـلة * تسير كالسنة الحناش انسلابها
وهى عالما بان المنايا تقيلها * بلاشك والدنيا سريع انقلابها

ومنها فى وصف الظعائن
يظعن قطوع البيد لاتختشى العدا * فتون بحربات مخوف جنابها
ترى العين فيها قل لشبل عرائف * وكل مهاة محتظيها ربابها
ترى أهلها غض الصباح أن يقلها * بكل حلوب الجوف ماسد بابها
لها كل يوم فى الارامى قتائل * وراالفاجر المزوح عفوا صبابها

ومن قولهم فى الامثال الحكمية
وطلبك فى الممنوع منك سفاهة * وصدك عمن صد عنك صواب
اذا رايت ناسا يغلقوا عنك بابهم * ظهور المطايا يفتح الله باب

ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب الى برجم
فشايب وشباب من اولاد برجم * جميع البرايا تشتكى من ضهادها

ومن قوله يعاتب اخوانه فى موالاة شيخ الموحدين ابى محمد بن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانها مكفولة ابى اسحق ابن السلطان أبى يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا
يقول بلا جهل فتى الجود خالد * مقالة قوال وقال صواب
مقالة حيران بذهن ولم يكن * هريجا ولا فيما يقول ذهاب
تهجست معنانا بها لا لحاجة * ولا هرج ينقاد منه معاب
وليت بها كبدى وهى نعم صاحبه * خزينة فكر والحزين يصاب
تقوهت بادى شرحها عن ما ارب * جرت من رجال فى القبيل قراب
بنى كعب أدنى الاقربين لدمنا * بنى عمنا منهم شايب وشباب
جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم * مصافاة ود واتساع جناب
و بعضهم ملنا له عن خصيمه * كما يعلموا قولى بقينه صواب
وبعضهم مرهوب من بعض ملكنا * ضرابا وفى حر الظهير كتاب

وهذا نفر الناس عن علمه بفسقه من قوى هواه ضعف حزمه من ظهر غيظه قل كيده كفى بالظلم طاردا للنعمة وداعيا للنقمة من قبل صلتك فقد باعك مروءته المدية تفقأ عين الحكيم عفو الرأى خير من استكراه الفكر من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ومن جحد الله فقد كفر ما اكتسب عقل الكبر من استغنى بالله افتقر الناس اليه التقصير يخذل عن الصواب الافراط يقحمك فى الخطا ثلاث خصال ما اجتمعن الا فى كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملالة وكفى مخبرا عما بقى مامضى وكفى عبرا لذوى الالباب ماجربوا التهاون بالمطلوب اول اسباب حرمانه الشبه ظلمة لن يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل خير الامور ماسر عاجله وحسنت عاقبته لاشرف مع سوء أدب ولا بر مع شح ولا اجتناب محرم مع حرص ولا محبة مع زهو باجالة الفكر يستخرج الرأى المصيب وبحسن التأنى تدرك المطالب وبالنصفة يكثر المتواصلون الفاحشة عار الابد وعقوبة غد الشماتة تعقب الندامة من سخر ابتلى قال الله تعالى ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون اذا فقد المتفضلون هلك المتجملون رب صبابة غرست من لحظة وحرب جنيت من لفظة ما شاهد على غائب بادل من طرف على قلب شر المال مالا ينفق منه أفضل المال ماصين به العرض و بالافضال تشرف الاقدار الذى يكون سببا لفساد نفسه اذل ممن يفسده عدوه اودهره لا تعدن وديعة مالا الشهوة رق الحريص كلب يعبر على الانسان اللسان وعلى المودة العينان لا شرف اعلى من الاسلام ولا كرم

و بعضهمو جانا جريحا تسمحت * خواطرمنا للتنزيل وهاب
و بعضهمو نظار فينا بسوة * نقهناه حتى ما عنابه سباب
رجع ينتهى عما سفهنا قبحه * مرارا وفى بعض المرار يهاب
و بعضهمو شاكى من اوغادقادر * غلق عنه فى احكام السقائف باب
فصمناه عنه واقتضى منه مورد * على كره مولى البالقى وذياب
ونحن على دانى المدا نطلب العلا * لهم ماحططنا للفجور نقاب
وخزناجى وطن بترشيش بعدما * نفقنا عليها سبقا ورقاب
ومهدتم من الاملاك ما كان خارج * على أحكام والى أمرها له ناب
بردع قروم من قروم قبيلنا * بنى كعب لاواها الغريم وطاب
جرينا بهم عن كل تأليف فى العدا * وقنالهم عن كل قيد مناب
الى ان عادمن لا كان فيهم بهمة * ربيها وخيراته عليه نصاب
وركبوا السبايا المثمنات من أهلها * ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
وساقوا المطايا بالشر الانسواله * جماهير مايغلو بها بجلاب
وكسبوا من أصناف السعايا دخائر * ضخام لحزات الزمان تصاب
وعادوا نظير البرمكيين قبل دا * والا هلالا فى زمان دياب
وكانوا لنا درعا لكل مهمة * الى ان بان من نار العدو شهاب
خلوا الدار فى جنح الظلام ولا اتقوا * ملامه ولا دار الكرام عتاب
كسوا الحى جلباب البهيم لستره * وهم لو درو البسو اقبح جباب
لذلك منهم حابس مادار القنا * ذهل حلى ان كان عقله غاب
يظن ظنونا ليس نحن باهلها * تنى يكن له فى السماح شعاب
خطاهو ومن واتاه فى سوظنه * بالاثبات من ظن القبايح عاب
فواعزوتى ان الفتى بو محمد * وهوب لالاف بغير حساب
و برحت الاوغاد منه و يحسبوا * بروحه مايحيى بروح سحاب
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع * لقوا كل مايستأملوه سراب
وهو لو عطى ما كان للراى عارف * ولا كان فى قلة عطاه صواب
وان نحن ما نستأملوا عنه راحة * وانه باسهام التلاف مصاب
وان ما وطا ترشيش بضياق وسعها * عليه ويمشى بالقزوع لزاب
وانه منها عن قريب مفاصل * خنوج عنازه والها وقباب
وعن فاتنات الطرف بيض غوانج * دبو اخلف استار وخلف حجاب
يتيه اذا تاهوا ويصبو اذا صبوا * بحسن قوانين وصوت رباب
يضلوه من عدم اليقين وربما * يطارح حتى ما كأنه شاب
بهم حازله زمه وطوع أوامر * ولذة ما كول وطيب شراب
حرام على ابن تافراكين مامضى * من الود الا مابدل بخراب

أقلى من التقوى ولاشفيع اعنى من التوبة أولى الناس بامر من حافظ عليه الخير موضوع لمن أراده موفور لمن عمل لله الرغبة مفتاح الطلب ومطية الحسرة الحرص داع الى الحرمان التنفل بالحسنة ينفى السيئة المكافأة بالسيئة دخول فيها البغى سائق الى الحين اصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود حق المذموم التأنيب وحق المرحوم المعونة من الجهل والجفاء اظهار الفرح عند المحزون المحزون يحقد على الفرح ويشكر للكتئب من ظل السلامة تدب افاعى الآفات اعظم الناس قدرا من لم يجعل الدنيا لنفسه قدرا ما احدث محدث بدعة الاترك بها سنة عزائم الامور خيارها ومحدثاتها شرارها الملك يكتسب من انفاقه والعامة تنفق من تكسبها من أفنى عمره فى جمع المال مخافة العدم فقد أسلم نفسه للعدم (قال الشاعر)

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله
مخافة فقر فالذى فعل الفقر

من لم يقدر على جمع الفضائل فلتكن فضائله ترك الرذائل اذا لم تكن ملحا تصلح فلا تكن ذبابا تفسد استصلاح بعض العدو أفضل من اهلاكه من سعادة المرء ان يطول عمره و يرى فى عدوه ما يسره خير الكتب ما اذا أعاد قارئه النظر فيه زاد حسنه أو وقف على خبره أثقل الاجمال من اتسعت مروءته وقلت مقدرته استحى من الله بقدر قربه من عقلك وأطعه بقدر حاجتك اليه وخفه بقدر قدرته عليك واعصه بقدر صبرك على النار واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها الملك ينفق ليكتسب وان

وان كان له عقـل رجيح وفطنـة * يلجج فى اليم الغريق غراب
وأما البـد الابدها من فياعـل * كبارالى أن تبقى الرجال كباب
ويحـمى بهاسوق علينا سـلاعه * ويحمارموصوف القناوجعاب
ويمسى غـلام طالب ريح ملـكنا * ندوما ولايمسى صحيح بناب
أياوا كلـين الخـبز تبغوا ادامـه * غلطتوا أدمتوا فى السموم لباب

ومن شـعر على بن عمر بن ابراهيم من رؤساء بنى عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بنى عمه المتطاولين الى رياسته

محـبرة كالدر فى يد صانع * اذاكان فى سـلك الحـرير نظام
اباحها منها فيـه أسباب مامضى * وشاء تبارك والضـعون تسام
غدا منه لام الحى حين وانشطت * عصاها ولاصيد ناعليه حكام
ولـكن ضميرى يوم بان بهم الينا * تـبرم عـلى شـوك القتـادبرام
والا كابراص التهامى قـوادح * وبين عواج الكانفات ضرام
والالـكان القلب فى يد قابض * أتاهـم بمنشار القـطيع غشـام
لما قلت سمامن شقا البين زارنى * اذا كان ينـادى بالفـراق وخام
ألايار بوع كان بالامس عامر * بيحـيى وحـله والقطـين لمـام
وغيـد تدانى للغطا فى ملاعب * دجى الليـل فيهم ساهـر ونيام
ونم يشوف الناظرين التحامها * لنامابدا من مهرق وكظام
وعرود باسمها البـدو لسر بها * واطـلاق مـن شرب المها ونعام
واليوم مافيها سوى البوم حولها * ينـوح على اطـلال لهـا وخيام
وقفنا بها طو راطو يلا نسالهـا * بعـين سخيـفا والدموع سجام
ولاصح لى منها سوى وحش خاطرى * وسقمى من اسبـاب ان عرفت اوهام
ومن بعد ذا تدى لمنصور بوعلى * سـلام ومن بعد السلام سـلام
وقـولوا له يابوالوفا كلع رايـكم * دخلـتم بحـو رغامقات دهـام
زواخر ما تنقـاس بالعـود انما * لهـا سـيلات على الفضاو أكام
ولاقستمواقيهـا قياسا يدلـكم * وليس البحـو رالطاميات تعام
وعانوا على هلـكاتكم فى ورودها * من الناس عدمان العقول لئام
أيا عزوة ركبوا الضـلالة ولاهـم * قـرار ولا دنيـا لهـن دوام
الاعناهـم ولوترى كيف رأيهم * مثـل سرور قلاه مالهـن تمـام
خـلوا القنا وبقوا فى مرقب العلا * مواضـع ماهيـالهـم مقـام
وحق النبى والبيت واركانه الذى * ومازارها فى كل دهر وعام
لـبر الليالى فيـه ان طالت الحيـا * يذوقون من خمط الكساع مدام
ولابرها تبقى البوادى عوا كف * بكل ردينى مطرب وحسام
وكل مسافه كالسداياه عابر * عليها من اولاد الـكرام غـلام
وكل كـميت يكنعص مض نابه * يظـل بصـارع فى العنان لجام

والعامة تكتسب لتنفق الطاعة بقدر الفاقة يفحش زوال النعم اذا زال معها التجمل اولى الامور بك أوجبها عليك الدنيا العافية والشباب الصحة اذا أقبل الامر أسربه واذا ادبر صرح اذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية واذا جار لم يملك منهم الا الرياء والتصنع الصدقة من سعة وابدأ بمن تعول اذا أضرت النوافل بالفرائض تركت النوافل وقدمت الفرائض قدر الرجل على قدر همته وصدقته على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته من اطاع الواشى ضيع الصديق ومن جعل لنفسه حظا من حسن الظن روح قلبه شر المال ما لزمك اثم مكتسبه وحرمت منفعة انفاقه رب مغبوط بليلة قامت بواكيه فى آخرها لاترج خير من لا يرجو خيرك ولا تأمن جانب من لا يأمن جانبك تارك الطلب ضجرا أرجى للعودة من تاركه نحورا ثمرات الشهوات المخازى الخصومة تمرض القلب أعم الاشياء نفعا فقد الاشرار من استكفى الـكفاة كفى الاعداء خير مالك ما اغناك وخير منه ما وقاك صولة الكريم سلمة ذنب أسد خير من رأس كلب بجبهة العير يفدى حافر الفرس من استبد برايه خفت وطأته على اعدائه انما لك من دنياك ما اصلحت به مثواك من امن الزمان خانه ومن تعزز عليه اهانه كما يجب أن تكون المرآة أضوأ من الناظر فيها فكذلك يجب ان يكون المؤدب أفضل ممن يؤدب من ترك العمل بما ينبغى عومل بما لا ينبغى ليس فى الشراسة ولا فى الخطا قدوة ان تكون لله ناصحا خير من تحبب عدوك اذا أطاع الله فى عداوتك على عداوته وتقلع عنها

وتحمل بنا الارض العقيمة مدة * وتولدنا من كل ضيق كظام
بالابطال والقود الهجان وبالقنا * لهاوقت وجنات البدو رزحام
أتجحدني وانا عقد نقودها * وفي سن رمحي للعروب علام
ونحن كاضراس الموافي بجمكم * حتي يقاضوا من ديون غرام
متى كان يوم القحط يا ميرابو على * يلتقي سعايا صاير بن قدام
كذلك بوجه والى اليسر ابعته * وخلى الجياد العاليات تسام
وخلى رجالا لا يرى الضيم جارهم * ولا يجمعوا بدهى العدو زمام
الا يقيموها وعقد بؤسهم * وهم عذرهم داعا ودوام
وكم ثارطعنها على البدو سابق * ما بين صحاصيح وما بين حسام
فتى ثار قطار الصوى يومنا على * لنا ارض ترك الطاعنين زمام
وكم ذا يجيبوا اثرها من غنيمة * حليف النبا سماع كل غيام
وان جافا جفوه الملوك ووسعوا * غدا طبعه يجدي عليه قيام
عليكم سلام الله من لسن فاهم * ما غنت الورقا وناح حمام

ومن شعر عرب غربنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت الى احلافه من قيس تغريهم بطلب ثاره تقول

تقول فتاة الحي أم سلامه * بعين أراع الله من لا رثى لها
تبيت بطول الليل ما تالف الكرى * موجعة كان الشقا في مجالها
على ما جرى في دارها وبوعيالها * بلحظة عين البين غير حالها
فقد تاوى شهاب الدين يا قيس كلهم * وقتوا عن اخذ التار ماذا مقالها
أنا قلت اذا ورد الكتاب يسرني * ويبرد من نيران قلبي ذبالها
أيا حين تسريح الذوائب واللحى * وبيض العذارى ماحميتوا اجمالها

(الموشحات والازجال للاندلس)

وأما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطا اسماطا واغصانا اغصانا يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عند قوافي تلك الاغصان واوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على اغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر القريري من شعراء الامير عبد الله بن محمد المرواني واخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية وقد ذكر الاعلم البطليوسي انه سمع أبا بكر ابن زهير يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله

بدرتم * شمس ضحا * غصن نقا * مسك شم
ما اتم * ما أوضحا * ما أورقا * ما أنم
لا جرم * من لمحا * قد عشقا * قد حرم

عاداك عليه وتبغض وليك اذا عصى الله في موالاتك وتنزع عما والاك عليه لا تتكن على الاساءة أقوى منك على الاحسان الشقي من جمع لغيره وضيق على نفسه شر أخلاق الكريم أن يمنع خيره من كانت الآخرة رأس ماله كانت الدنيا بحره ومن كانت الدنيا رأس ماله كانت الآخرة خسارته أفضل العلم وقوف الرجل عند علمه أفضل المال ما قضيت به الحقوق البدع فخاخ مخبوءة قد علقت عليها ألفاظ ظاهرة رجاء العامة امنية على ضلالة ورجاء الخاصة يقين على ثقة القليل من الملك كالكثيرة من غيره عطاء الملوك زينة وسؤالهم شرف وفي الامثال جاور بحرا أو ملكا اذا كذب السفير بطل التدبير أخبث الازمنة زمن لا يتميز فيه الصواب لا تعطوا في الفضول ما تخفتم العجز عن الحقوق الآذان أقماع تؤدي والقلوب قوابل تعي من أحب أن يسمى داهيا لم يظهر دهاءه لا دليل أهدى من التوفيق الجلاء البلاء من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن الحفظ قيد العلم المدارسة اذكاء للفهم المقايسة احياء الفطن استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة بالتأليف والنصر بالتواصل لله والرحمة للخلق استقلال الكثير تعرض للتغيير ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها الكتاب يدل على عقل كاتبه والرسول يدل على عقل مرسله والهدية تدل على عقل مهديها لم يحكم على العقول حاكم كالعبر ولم يحكم بها محكم كالتجربة من عاب سفلة فقد رفعه ومن عاب سيدا فقد وضع نفسه أحق الناس أن يؤمن على الدنيا أهل الآخرة وزعموا

صح من صحت سرائره وسقم من سقمت ظواهره بالكلام يعرف فضل العقل كما بالرسول يعرف قدر المرسل ملاك أموركم الدين
وعصمتكم التقوى وزينتكم الادب وحصن أعراضكم الحلم اذا أعطيت مالا ترضى فارض بما أعطيت كلما ازداد الخير

وزعموا انه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف * وجاء مصليا خلفه منهم ابن ارفع راسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة قالوا وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول

العود قد ترنم * بابدع تلحين * وسقت المذانب * رياض البساتين

وفي انتهائه حيث يقول

تخطر ولا تسلم * عساك المأمون * مروع الكتائب * يحيى بن ذي النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين فظهرت لهم البدائع وسابق فرسان حلبتهم الاعمى الطليطلي ثم يحيى بن بقي وللطليطلي من الموشحات المهذبة قوله

كيف السبيل الى * صبري وفي المعالم أشجان
والركب في وسط الفلا * بالخرد النواعم قد بان

وذكر غير واحد من المشايخ ان أهل هذا الشأن بالاندلس يذكرون ان جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس باشبيلية وكان كل واحد منهم اصطنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الاعمى الطليطلي للانشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله

ضاحك عن جمان * سافر عن در * ضاق عنه الزمان * وحواه صدري

صرف ابن بقي موشحته وتبعه الباقون وذكر الاعلم البطليوسي انه سمع ابن زهير يقول ما حسدت قط وشاحا على قول الا ابن بقي حين وقع له

أما ترى أحمد * في مجده العالي لا يلحق * أطلعه الغرب * فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الموشحين المطبوعين أبو بكر الابيض وكان في عصرهما أيضا الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فالقى على بعض قيناته موشحته

جرر الذيل أيما جر * وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك فلما ختمها بقوله

عقد الله راية النصر * لامير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالايمان المغلظة لا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهبا في نعله ومشى عليه * وذكر أبو الخطاب بن زهر انه جرى في مجلس أبي بكر بن زهير ذكر أبي بكر الابيض الوشاح المتقدم الذكر فغض منه بعض الحاضرين فقال كيف تغض ممن يقول

ما لذ لي شرب راح * على رياض الاقاح * لولا هضيم الوشاح * اذا أسى في الصباح
أو في الاصيل * أضحى يقول * ما للشمول * لطمت خدي
وللشمال * هبت فمال * غصن اعتدال * ضمه بردي
مما أباد القلوبا * يمشي لنا مستريبا * يا لحظه ردنوبا * ويا لماه الشنيبا
برد غليل * صب عليل * لا يستحيل * فيه عن عهدي
ولا يزال * في كل حال * يرجو الوصال * وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف قال الحسن بن دويدة رأيت حاتم

كثرة كان الخارج منه أشد حسرة وبقدر السمو في الرفعة تكون وجبة الوقعة الابقاء على العمل أشد من العمل من التوقي ترك الافراط في التوقي وتوريث الحرمة والذمام سنة في المروءة كما ان وراثة التركة فريضة في الديانة لا تمدحن امرأ بأكثر من قدره فتكون مهينا لنفسك كذابا على غيرك لا تفرحن بسقطة عدوك فانك لا تدري متى يحدثها الزمان بك من الجفاء الكلام في الامر الجسيم من غير مشاورة أكثر الناس مخادعة لنفسه في أمر جسده عند الحمية وفي أمر مروءته عند الشهوة وفي أمر دينه عند الشبهة المصائب بغتات العاقل المدبر أرجى من الاحمق المقبل أشرف الصنائع ما لم يكن مكافأة لماض ولا رجاء لباق أرض النظير ثم كافئه وآنس الملهي ثم استمع منه لم تكن غواية ولا هداية الا واليهما سائق وعنهما ناكص احسانك الى الحر يحرضه على المكافأة واحسانك الى الخسيس يبعثه على معاودة المسألة ليس يمتحن الادب بان يكون فاعلا للخير انما يمتحن بان يكون تاركا للشر من

 صنع معك خيرا فاضعفه له والا فلا تعجزن ان تكون مثله الاشرار يتبعون مساوي الناس ويغفلون
من محاسنهم كما يتبع الذباب المواضع النغلة من الجسد ويدع صحيحه الظرف فطنة مازجتها عبادة مع حذر وتوقي فاذا خلت الفطنة من

التوقي فصاحبها لا يستمتع به أهل المروءة وإذا خلت الفطنة من العبادة وقارنتها فصاحة فصاحبها غير طيب الطرف الالفاظ التي يرتفع عنها أهل الجلالة من المخلصين في باطن الدنيا والمترفين في ظاهر الحال (وسمعت القاضي) أبا العباس الجرجاني رحمه الله

ابن سعيد على هذا الافتنا — شمس قاربت بدرا * راح ونديم
وابن بهرودس الذي له — يا ليلة الوصل والسعود * بالله عودي
وابن مؤهل الذي له — ما العيد في حلة وطاق * وشم طيب
وانما العيد في التلاقي * مع الحبيب

وأبو اسحق الرويني قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن بن سهل بن مالك يقول انه دخل على ابن زهير وقد أسن وعليه زي البادية اذ كان يسكن بحصن استبه فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرت المحاضرة فانشد لنفسه موشحة وقع فيها — كحل الدجى يجري * من مقلة الفجر * على الصباح
ومعصم النهر * في حلل خضر * من البطاح
فتحرك ابن زهير وقال أنت تقول هذا قال اختبر قال ومن تكون فعرفه فقال ارتفع فوالله ما عرفتك قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهير وقد شرقت موشحاته وغربت قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول قيل لابن زهير لو قيل لك ما أبدع وأرفع ما وقع لك في التوشيح قال كنت أقول — ما للموله * من سكره لا يفيق * يا له سكرانا
من غير خمر * ما للكئيب المشوق * يندب الاوطانا
هل تستعاد * أيامنا بالخليج * ولياليـنا
أو نستفاد * من النسيم الاريج * مسك دارينا
وإذ يكاد * حسن المكان البهيج * أن يحيينا
ونهر ظله * دوح عليه أنيق * مورق فينان
والماء يجري * وعائم وغريق * من جنى الريحان
واشتهر بعده ابن حيون الذي له من الزجل المشهور قوله
تفوق بينهم كل حين * بما يدب من يدوعين
وينشد في القصيد — علقت مليح علمت رامي * فليس يخل ساع من قتال
ويعمل بذي العينين مناحي * ما يعمل فينا بذي النبال
واشتهر معهما يومئذ بغرناطة المهر بن الفرس قال ابن سعيد ولما سمع ابن زهير قوله
لله ما كان من يوم بهيج * بنهر حمص على تلك المروج * ثم انعطفنا على فم الخليج
نفض في حانه مسك الختام * عن عسجد زانه صافي المدام * وردا الاصيل ضمه كف الظلام
قال ابن زهير كنا نحن عند هذا الرداء وكان معه في بلده مطرف * أخبر ابن سعيد عن والده ان مطرفا هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه فقال لا تفعل فقال ابن الفرس كيف لا أقوم لمن يقول
قلوب مصاب * بالحاظ تصيب * فقل كيف يبقى بلا وجد
وبعد هذا ابن جرمون بمرسية * ذكر ابن الراسين ان يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فانشده موشحة لنفسه فقال له ابن جرمون لا يكون الموشح بموشح حتى يكون عاريا عن التكلف قال على مثل ماذا قال على مثل قولي — يا هاجري هل الى الوصال * منك سبيل
أو هل ترى عن هواك سالي * قلب العليل
وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة * قال ابن سعيد كان والدي يعجب بقوله

بالبصرة يقول أول من نطق بهذه الكلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك انه أتي بسارق فقال له أسرقت قل لا فقال الرجل لا فقال عمر انك لظريف بهذا البلاء الاقلال والعيال ينبغي للعالم ان يتطامن للجاهل بقدر ما رفعه الله عليه العقل أفقر الى الحكمة والادب من الجسد الى الطعام والشراب أعظم الناس غما من زالت نعمته وبعثت شهوته وضاقت مقدرته قلة العيال أحد اليسارين معالجة الموجود خير من انتظار المفقود من عدم الحياء عند الفضيحة والصبر عند النصيحة سهلت عليه المعاصي كلها العالم مثل السراج من مر به اقتبس منه من تقدم بحسن النية نصره التوفيق لن تكون لله ناصحا حتى تحب أن يكون عدوك مطيعا من آذى الناس بلا سلطان كان مصيره الى الهوان ما دحك عما ليس فيك مخاطب لغيرك فجوابه وثوابه ساقطان عنك المكر والخديعة في النار الاحداث تأتي من على مأمنه يؤتى الحذر المأكول للبدن والموهوب للمادو المحفوظ للعدو من غضب على من لا يقدر على غمه عذب نفسه واشتد غيظه اطلب ما يعنيك واترك ما لا يعنيك فان في ترك ما لا يعنيك ان دركا لما يعنيك من أنكى الاشياء لعدوك أنك تريه أنك لا تعاديه كل آت قريب الاستغناء عن الشئ خير من الاستغناء به ومن خير خبر ان

ان سيل الصباح في الشرق * عاد بحرا في اجمع الافق * فتداعت نوادب الورق
أتراها خافت من الغرق * فبكت سحرة على الورق

واشتهر باشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعت سهل بن مالك يقول يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

واحسرتا لزمان مضى * عشية بان الهوى وانقضى * وأفردت بالرغم لا بالرضى
وبت على جمرات الغضى * أعانق بالفكر تلك الطلول * وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت ابا بكر بن الصابوني ينشد الاستاذ أبا الحسن الزجاج موشحاته غير مامرة فما سمعته يقول له لله درك الا في قوله

قسما بالهوى لذي حجر * ماللليل مشوق من فجر
خمد الصبح ليس يطرد * ماللليالي فيما أظن غد * صح ياليل انك الابد
أوقطعت قوادم النسر * فنجوم السماء لا تسري

ومن موشحات ابن الصابوني قوله

ماحال صب ذي ضنى واكتئاب * أمرضه ياويلتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتناب * ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفا جفوني النوم لكنني * لم أبكه الا لفقد الخيال
وذا الوصال اليوم قد غرني * منه كما شاء وساء الوصال
فلست باللائم من صدني * بصورة الحق ولا بالمثال

واشتهر بين أهل العدوة ابن خلف الجزايري صاحب الموشحة المشهورة

يد الاصباح قد قدحت * زناد الانوار * في مجامر الزهر

وابن هزر البجائي وله من موشحة ثغر الزمان موافق * حياك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسبتة من بعدها فنها قوله

هل دري ظبي الحمى أن قد حمى * قلب صب حله عن مكنس
فهو في نار وخفق مثل ما * لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الاندلس والمغرب لعصره وقدمر ذكره فقال

جادك الغيث اذا الغيث هما * يازمان الوصل بالاندلس * لم يكن وصلك الا حلما
في الكرى أو خلسة المختلس * اذ يقود الدهر أشتات المنى * تنقل الخطو على ما ترسم
زمرا بين فرادى وثنى * مثل ما يدعو لوفود الموسم * والحيا قد جلل الروض سنا
فسنا الازهار فيه تبسم * وروى النعمان عن ماء السما * كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما * يزدهي منه بأبهى ملبس * في ليال كتمت سر الهوى
بالدجى لولا شموس الغرر * مال نجم الكاس فيها وهوى * مستقيم السير سعد الاثر
وطر مافيه من عيب سوى * انه مر كلمح البصر * حين لذ النوم منا أو كما
هجم الصبح نجوم الحرس * غارت الشهب بنا او ربما * أثرت فينا عيون النرجس
أي شيء لامرئ قد خلصا * فيكون الروض قد كنن فيه * تنهب الازهار فيه الفرصا

رب أمر له ما بعده من سبق . البلى كان له صفوه من شروط المروءة التغابن للضعيف المروءة ترك الريبة يكاد استقصاء القوي على الضعيف أن يكون ظلما يكاد استيفاء الغني من الضعيف أن يكون جورا القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق أوله حكم وآخره علم الحادثة على الطعام تزيد في الشهوة وتذهب الحشمة وتزيل الانقباض لن تنال ما تحب حتى تصبر على كثير مما تكره ولن تنجو مما تكره حتى تصبر عن كثير مما تحب ذهاب البصر خير من كثير من النظر لا تعقد العزم عزما اذا ساق عما مع الرأي الاول الوهم النظرة بعد النظرة تعقب لما قبلها وتزيد لما بعدها لبس مدح الرجل بما فيه تزكية أنعم الناس من كفي أمر دنياه ولم يهمه دينه الغريب من فقد اخوانه ونظراءه وان كان في وطنه الغريب من لاصديق له الغريب الفقير الغريب الاحمق الغريب من لاناصر له شيآن لا يستحي العاقل منهما المرض وذوا القرابة الفقير من كانت الدنيا

أمنت من مكره ما تتقيه * فاذا الماء تناجى والحصا * وخلا كل خليل باخيه
تبصر الورد غيورا بدما * يكتسي من غيظه مايكتسي * وترى الآس لبيبا فهما
يسرق الدمع بادنى فرس * ياأهيل الحى من وادى الغضى * وبقلبي مسكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا * لاأبالى شرقه من غربه * فاعيدوا عهد أنس قدمضى
تنقذوا عائذكم من كربه * واتقوا الله واحيوا مغرما * يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما * افترضون خراب الحبس * وبقلبي فيكمو مقترب
باحاديث المنى وهو بعيد * قمر اطلع منه المغرب * شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أومذنب * فى هواه بين وعد ووعيد * ساحر المقلة معسول اللمى
جال فى النفس مجال النفس * سدد السهم وسمى ورمى * بفؤادى نهبة المفترس
ان يكن جار وخاب الامل * وفؤاد الصب بالشوق يذوب * فهو للنفس حبيب أول
ليس فى الحب لمحبوب ذنوب * أمره معتمل ممتثل * فى ضلوع قدبراها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما * لم يراقب فى ضعاف الانفس * ينصف المظلوم ممن ظلما
ويجازى البر منها والمسى * مالقلبي كلما هبت صبا * عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتتبا * قوله ان عذابى لشديد * جلب الهم له والوصبا
فهو للاشجان فى جهد جهيد * لاعج فى أضلعى قد اضرما * فهى نار فى هشيم اليبس
لم تدع من مهجتى الا الذما * كبقاء الصبح بعد الغلس * سلمى يانفس فى حكم القضا
واعمرى الوقت برجعى ومتاب * واتركى ذكرى زمان قدمضى * بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرفى القول الى المولى الرضى * ملهم التوفيق فى أم الكتاب * الكريم المنتهى والمنتمى
اسد السرح وبدر المجلس * ينزل النصر عليه مثل ما * ينزل الوحى بروح القدس

وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ماعانوه من الموشحات ومن احسن ماوقع لهم فى ذلك موشحة ابن سنا الملك المصرى اشتهرت شرقا وغربا وأولها

ياحبيبي ارفع حجاب النور * عن العذار
تنظر المسك على الكافور * فى جلنار
كالى ياسحب تيجان الربى بالحلى * واجعلى سوارها منعطف الجدول

ولما شاع فن التوشيح فى أهل الاندلس واخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع اجزائه نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعرابا واستحدثوه فناسموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد فجاؤا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة * وأول من ابدع فى هذه الطريقة الزجلية ابو بكر بن قزمان وان كانت قيلت قبله بالاندلس لكن لم يظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها الا فى زمانه وكان لعهد الملثمين وهو امام الزجالين على الاطلاق قال ابن سعيد ورايت أزجاله مروية ببغداد اكثر مما رايتها بحواضر المغرب قال وسمعت ابا الحسن بن جحدر الاشبيلى امام الزجالين فى عصرنا يقول ماوقع لاحد من أئمة هذا الشأن مثل ماوقع لابن قزمان شيخ الصناعة وقد خرج الى منتزه مع بعض اصحابه فجلسوا تحت عريش وامامهم تمثال اسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر مدرجة فقال

من عتب على الزمان طالت معتبته من تساق الى كل ما أنت لاق اذا صحب الارتياد الرشاد وجد المراد ما أعتق من الذم من ملكه الجهل ولا ظفر بالعزم من احتمل ما فى المعصية من الذل ولا خرج من الدناءة من صرف جميع عقله الى الدنيا أخو الظلماء مريب المسئلة آخر المكسبة ما عد من أهل الحجى من كان من أهل الهوى ولا كان من أهل التقى من حاد عن سبيل الهدى من ذم أدنى الاحسان لامتناع اقصاه لم يحمد شيأ منه من دواعى الهلكة اضاعة المعرفة واعجبا لمن يبنى داره وجسمه يهدم ولمن يبرم أمور الدنيا وأموره فى نفسه تختل (قال على رضى الله عنه) من لم يكن معنا كان علينا والساكت أخو الراضى الكاتم للعلم كمن لاعلم له أوهو غير واثق فيه بالصواب المرء مخبوء تحت لسانه قيمة كل امرئ ما يحسن العلم عما فى المصيبة من الثواب ينسى المصيبة شر من المصيبة سوء الخلق منها الحكمة ربيع القلوب الخصومة تكشف العورة وتورث المعرة بلاء المؤمن من عافيته كالنار حريقها من نورها قد يكون اليأس ادراكا اذا كان الطمع هلاكا من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل رفع الجاهل قدره عليه الذلة مع القلة تجوع الحرة ولاتأكل بثدييها موت عاجل خير من ضنى آجل الغضب عند المناظرة منساة للحجة الاختصار أثبت للمتكلم وأفهم للسامع الكلب فى الحاضرة ينبح الضيف ويدفع الزائر ويرد السائل والكلب فى البادية يعنين الصاحب وينذر بالضيف ويدفع السارق لاتغتر بقول الجاهل إن فى يدك لؤلؤة وانت تعلم انها بعرة

وعريش

وعريش قد قام على دكان * بحال رواق
واسد قد ابتلع ثعبان * في غلظ ساق
وفتح فمه بحال انسان * فيه الفواق
وانطلق يجري على الصفاح * ولقى الصباح

وكان ابن قرمان مع أنه قرطبي الدار كثيرا ما يتردد الى اشبيلية وينتاب نهرها فاتفق أن اجتمع ذات يوم جماعة من اعلام هذا الشأن وقد ركبوا في النهر للنزهة ومعهم غلام جميل الصورة من سروات اهل البلد وبيوتهم وكانوا مجتمعين في زورق للصيد فنظموا في وصف الحال وبدأ منهم عيسى البليدي فقال

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو * وقد ضمو عشقو بسهماتو
تراه قد حصل مسكين جلاتو * فقلق ولذلك أمر عظيم صاباتو
توحش الجفون الكحل اذا غاتو * وذيك الجفون الكحل ابلاتو

ثم قال ابو عمرو بن الزاهر الاشبيلي

نشب والهوى من لج فيه ينشب * ترى اش كان دعاه يشقى ويتعذب
مع العشق قام في مالو يلعب * وخلق كثير من ذا اللعب ماتو

ثم قال ابو الحسن المقرى الداني

نهار مليح تعجبني أوصافو * شراب وملاح من حولي طافو
والمعلمين يقولوا بصفصافو * والنورى أحرى بعقلاتو

ثم قال ابو بكر بن مرتين

الحق يريد حديث تعالى عاد * في الوادي الكبير والمنزه والصاد
تنبيه حيتان ذلك الذي يصطاد * قلوب الورى هي في شبيكاتو

ثم قال ابو بكر بن قرمان اذا شمرا كمامو يرميها * ترى النور يرشق لذيك الجيها
وليس مرادو أن يقع فيها * الا أن يقبل يديداتو

وكان في عصرهم بشرق الاندلس مخلف الاسود وله محاسن من الزجل منها قوله

قد كنت مشبوب واخشيت الشيب * وردني ذا العشق لامر صعب
يقول فيه حين تنظر الخد الشريف البهي * تشتهي في الحمره الى ما تشتهي
يا طالب الكيميا في عيني هي * تنظر بها الفضة ترجع ذهب

وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغيس وقعت له العجائب في هذه الطريقة فمن قوله في زجله المشهور

ورذاذ دق ينزل * وشعاع الشمس يضرب * فترى الواحد يفضض * وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر * والغصون ترقص وتطرب * وتريد تجي الينا * ثم تستحي وتهرب

ومن محاسن ازجاله قوله

لاح الضيا والنجوم حيارى * فقم بنا ننزع الكسل * شربت ممزوجا من قراعا
احلى هي عندي من العسل * يا من يلمني كما تقلد * قلدك الله بما تقول
يقول بأن الذنوب تولد * وأنه يفسد العقول * لارض الحجاز يكون لك أرشد
اش ما ساقك لذا الفضول * مر انت للحج والزيارا * ودعني في الشرب منهمل

مثل الصلاة مع سائر العبادات مثل السفينة مع جميع من فيها ان سلمت سلم الكل وان أصيبت أصيب الكل الحب والبغض فتنة طالب المطامع حزم وطالب المؤيس عجز قد ينظر المنطق من يعنى به اذا فسد الزمان كسدت الفضائل وضرت ونفقت الرذائل ونفعت وصار خوف الموسر أكثر من خوف المعسر لقاء اهل الخير عمارة القلوب لا يصيد الكثير من لا يصيد لنفسه الواحدة بالعمل يحسن المنطق وبالقوة يتم العمل الفكرة مرآة من أعظم الناس من قل ماله وكثر مجده الادب مع العقل كالشجرة المثمرة والعقل بلا ادب كالرجل العقيم الماء الين من القول والقلب أقسى من الحجر وقد يثلم الماء الحجر اذا كثر انحداره عليه أشد الاشياء اخفاء الفاقة أولى الناس بالرحمة عالم يجرى عليه حكم جاهل لم يغب من شهد رأيه ولم يفن من بقى أثره ولم يمت من خلد علمه وقد سبق المثل ليس بهالك من ترك مثل مالك كما انه قبيح اذا ركبنا الخيل أن تجرى بنا حيث أرادت دون أن نديرها كذلك قبيح أن يجرى البدن والنفس بالعقل حيث أرادت من الشهوات اشق الامور معرفة المرء بنفسه عائب المجتمع عليه محجوج ليس شئ من البر الا ودونه عقبة من الصبر ضرب الانسان عار باق وتر مطلوب

(قيل للحكيم) هل للغضب مادة تحسمه قال نعم أن يعلم الانسان انه ليس يجب أن يكون مطاعا ابدا ولا يجب أن يخدم ابدا ولا يجب أن يحتمل خطؤه ابدا ولا يجب ان يصبر عليه ابدا بل قد يطيع ويخدم ويحتمل الخطأ ويصبر على النوائب فاذا عقل ذلك لم يغضب وان

شقى فقيل السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه لاتنفع كثرة العلم لمن لا يعمل كما لا يغني ضوء الشمس عمن لا يبصر رضي بالذل من كشف ضره بترك التورع وأزرى بنفسه من استشعر الطمع البدع فخوخ يسترها زخرفة الكلام وخدع المال

من ليس لو قدره ولا استطاعا * النية أبلغ من العمل

وظهر بعد هؤلاء باشبيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل الذي أوله هذا

من عاند التوحيد بالسيف يمحق * أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه المعمع صاحب الزجل المشهور الذي أوله

يا ليتني ان رأيت حبيبي * أقبل اذنو بالرسيلا ليس اخذ عنق الغزيل * وأسرق فم الحجيلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك امام الادب ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب امام النظم والنثر في الملة الاسلامية من غير مدافع فمن محاسنه في هذه الطريقة

امزج الاكواس واملالي تجدد * ما خلق المال الا أن يبدد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششتري منهم

بين طلوع ونزول * اختلطت الغزول * ومضى من لم يكن * وبقي من لم يزول

ومن محاسنه أيضا قوله في ذلك المعنى

البعد عنك يا بني اعظم مصايبي * وحين حصل لي قربك نسيت قرايبي

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالاندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش وكان اماما في هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغيس في قوله * لاح الضياء والنجوم حيارى * بقوله

حل المجون يا أهل الشطارا * مذ حلت الشمس بالحمل * جددوا كل يوم خلاعا
لا تجعلوا اسمها عطل * اليها يتخلعوا في سبيل * على خضورة ذاك النبات
وصل بغداد واجتياز النيل * احسن عندي في ذيك الجهات * وطاقتها أصلح من أربعين ميل
ان مرت الريح عليه وجات * لم يلتق الغبار امارا * ولا يعقد ما يكتحل
وكيف ولا فيه موضع رقاعا * الا ويسرح فيه النحل

وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العامة بالاندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى انهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامية ويسمونه الشعر الزجلي مثل قول شاعرهم

لي دهر بعشق جفونك وسنين * وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبي من اجلك كيف رجع * صنعة السكة ما بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب * والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصارى للغزو * وأنت تغزو في قلوب العاشقين

وكان من المجيدين لهذه الطريقة لاول هذه المائة الاديب ابو عبد الله الالوسي وله من قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الاحمر

طل الصباح قم يا نديمي نشربوا * ونضحكو من بعد ما طربوا * سبيكة الفجر أحلت شفقا
في مياق الليل وقوم قلبو * ترى غبارا خالص أبيض نقي * فضة هو لكن الشفق ذهبو
وسكو سكتوا عند البشر * نور الجفون من نورها تكسبو * فهو النهار يا صاحبي للمعاش
عيش الفتى فيه بالله ما أطيبو * والليل نصا للقبل والعناق * على سرير الوصل يتقلبو
جاد الزمان من بعد ما كان بخيل * واش كدقلته من بر به عقربو * كما جرع مر وفيما قد مضى
يشر بسواد ويا كل طيبو * قال الرقيب يا ادبالاش ذا * في الشرب والعشق ترى تتعبو

الناس في الدنيا بالاخوان وفي الآخرة بالاعمال صديق الرجل عقله وعدوه حمقه من اجتمعت اليه النعمة أديمت له الرغبة يحفظ الاحمق من كل شيء الا من نفسه لا تجود الاعمال ولا صداقة الا بوفاء ولا فقه الا بورع العليل الذي يشتهي أرجى من الصحيح الذي لا يشتهي قلوب الرجال وحشية فمن تألفها أقبلت عليه اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال لقاء الرجل اخلاءه مسلاة للهم من لم يصلح على تدبير الله لم يصلح على تدبير نفسه والاحلام فرح وهم كاذب والعامل بها كالمعتمد على الظل الزائل الدنيا دول فما كان منها لك أتاك وما كان عليك لم تقو على دفعه العافية خير من الواقية الكريم لا يستحي من اعطاء القليل العفاف زينة الفقير الكرم حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل اختلاف كلام المرء دليل على ميل الهوى به من حق النعمة أن يرى أثرها من كان شبعه في الطعام لم يزل جائعا ومن كان غناه في المال لم يزل فقيرا ومن كان قصده بحوائجه الخالق لم يزل محروما ومن استعان في امره بغير الله لم يزل مخذولا من خاف من فوقه خافه من تحته ومن لم يخف من فوقه لم يخفه من دونه ما تحسنه وما تعمل به لا تغيرك نوره وعليك بوره وتعجبوا واعجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى على العز في طلب ما يبقى من حذرك كمن بشرك

وتعجبوا عـذالى من ذا الخـبر * قلت ياقـوم ممـاتتعجبـوا * يعشـق مليح الارقيق الطباع
علاش تـكفروابالله أو تـكتبوا * ليس بريح الحس الاشام اديب * يقض بـكـر وويدع ثيبو
اماالـكاس فحرام نعم هوحرام * على الذى مايدرى كيف يشربوا * و يدالذى يحسـن حسابه ولم
يقدر يحسـن القاظ ان يحلبوا * واهل العـقل والفـكر والمجون * يغـفرذنوبهم لهـذاان أذنبوا
ظبي بهـى فيهـا يطفى الجمـر * وقلـبي فى جمر الغضى يلهبـو * غزال بهى ينظر قلوب الاسود
وماهم قبـل النظـر يذهبوا * ثم يحييهم اذا ابتسم ضحـكوا * ويفرحوامن بعـدماينـدبوا
فويم كالخاتم وثغـر نقى * خطيـب الامـة للقبل يخطبو * جوهرومرجان اى عقد يافلان
قـدصـففه الناظم ولم يثقبو * وشارب اخضر يريدلاش نريد * من شبهه بالمسـك قدعيبو
يسبل دلال مثل جناح الغراب * ليالى هجرى منه يستغربوا * على بدن أبيض بلون الحليب
ماقـط راعى للغنم يحلبـو * وزوج هندات ماعلمت قبلها * ديك الصلايا ريت ماأصلبو
تحت العكا كن منها خصر ارقيق * من رقتـو يخـفى اذاتطلبـو * ارق هو من دينى فيمـاتقول
جـديدعتبـك حتى ماأكذبو * أى دين بقالى معاك وأى عقل * من يتبعـك من ذا وذاتسلبو
تحـمل ارداف ثقال كالرقيب * حين ينظر العاشق وحين يرقبو * ان لم ينفس غـدرأو ينقشح
فى طرف ديسـا والبشر تطلبـو * يصـير اليك المكان حين تجى * وحين تغيب ترجع فى عيني تبو
محاسـنك مثـل خصـال الامير * أو الرمل من هو الذى يحسـبو * عمـاد الامصار وفصيح العرب
من فصاحـة لفظـه يتقربوا * يحمل العـلم انفردو العـمل * ومع بديع الشـعر ماأكتبو
ففى الصـدور بالرمح ماأطعنـه * وفى الرقاب بالسيف ماأضربو * من السماء يحسد فى أربع صفات
فن يعـد قلـبي أو يحسـبو * الشمس نورو والقـمر همتو * والغيث جودو والنجوم منصبو
يركب جوادالجود ويطلق عنان * الاغنيا والجنـد حين يركبوا * من خلعتو يلبس كل يوم بطيب
منـه بنـات المعـالى تطيبـوا * نعمـتو تظهر على كل من يحبه * قاصـدو وارد قط ماخيبـوا
قـدأظهـر الحق وكان فى حجاب * لاش يقدر الباطل بعدمايحجبو * وقـدبنى بالسمر ركن التقى
من بعـد ما كان الزمان خربو * تخاف حـين تلقاه كماترتجيـه * فـمع سماحة وجهو ماأسيبو
يلقى الحروب ضاحكا وهى عابسه * غلاب هو لاشئ فى الدنيا يغلبو * اذاجبد سيفه مابين الردود
فليس شئ يغـنى من يضربو * وهو سمى المصـطفى والاله * للسلطنة اختارو واستنجبو
تراه خليفـة أمـير المؤمنـين * يقودجيوشـو ويزين موكبو * لذى الامارة تخضع الرؤس
نعم وفى تقبيـل يديه يرغبوا * بيتـه بقى بدور الزمان * يطلعوا فى المجد ولا يغربوا
وفى المعـالى والشرف يبعـدو * وفى التواضـع والحيـا يقربو * والله يبقيهـم مادار الفلك
واشرقت شمسـه ولاح كوكبو * ومايغنى ذاالقصـيدفى عروض * ياشمس خدرمالهـامغربو

ثم اسـتحدث اهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشـعر فى أعاريض مزدوجـة كالموشح نظموا فيـه بلغتهم الحضرية ايضا وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه فيهم رجل من اهل الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الاعراب مطلعها

أبكانى بشاطى النهـر نوح الحمـام * على الغصن فى البستان قريب الصباح
وكف السحر يمحو مـدادالظـلام * وماء الـنـدى يجـرى بثغـر الاقاح

الشفيع جناح الطالب اذا أقبلت الدنيا عليك فانفق منها فانها لاتفنى واذا أدبرت عنك فانفق منها فانها لاتبقى قال الشاعر
فأنفق اذا ايسرت غير مقتر * وانفق على ماخلت حين تعسر فلاالجود يفنى المال والحظ مقبل * (٣٩١) ولاالبخل يبقى المال والحظ مدبر

ولغيره
لاتبخلن بدنيا وهى مقبلة
فلـن يضربها التبـذير
والسرف
وان تولت فاحرى ان تجود
بها
فالشكر منها اذاماادبرت
خلف

الغريب فى كل مـكان مظلوم من سلك الحذار أمن العثار لم يحر راكب القصد عجبا للئيم يستعجل الفقر الذى منه هرب ويفوته الكرم الذى اتاه يطلبه فيعيش فى الدنيا عيش الفـقراء ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء من يطل ذيله يكثر ويله (وقال على رضى الله عنه) مايظل فعل الله ينتطق به غنك خير من سمين غيرك ان أحببت أن لايفوتك ماتشتهى فاشته مايمكنك من قصد أسهل ومن اسرف أوعر القصد أخو الحمام شر السير الحقحقة بوئ لنفسك فى المجالس مجلسا لايقصر بك ولاتقام عنه اقطع الشر من صدر غيرك يقطعه من صدرك وازجر المسئ باثابة المحسن لكى يرغب فى الاحسان لن يهلك من مالك ماوعظك الخلاف يهدم الرأى خير الناس لغيره خيرهم لنفسه احسان الله مكفور عند من أصبح مصرا على ذنب مستور بصير التخلق خلقا بالاجتهاد والاعتياد الحجر الغصب فى البنيان رهن على الخراب رب شارق شارب الماء قبل ريه رب رأى أنفع من مال وحزم اوقى من رجال من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام من ذم الزمان لم

بحمد الاخوان بتقلب الاحوال تعلم جواهر الرجال من عرف الزمان لم يحتج الى ترجمان من عرف الايام لم يغفل عن الاستعداد رسولك
ترجمان عقلك الطاعة غنيمة الاكياس (٣٩٢) عند تفريط العاجز كلما اشتد الظلام حسن ضوء السراج الثناء باكثر من الاستحقاق

باكرت الرياض والطل فيها افتراق * سر الجواهر فى نحو ر الجوار
ودمع النواعر ينهرق انهراق * يحاكى ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق * ودار الجميع بالروض دور السوار
وايدى الندى تخرق جيوب الكمام * ويحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الصبا يطلى بمسك الغمام * وجر النسيم ذيلو اعليها وفاح
رأيت الحمام بين الورق فى القضيب * قد ابتلت ار ياشو بقطر الندى
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب * قد التف من توبو الجديد فى ردا
ولكن بما أحمر ساقو خضيب * ينظم سلوك جوهر و يتقلدا
جالس بين الأغصان جلسة المستهام * جناحا توسد والتوى فى جناح
وصار يشتكى ما فى الفؤاد من غرام * منها ضم منقاره اصدره وصاح
قلت يا حمام احرمت عينى الهجوع * اراك ماتزال تبكى بدمع سفوح
قال لى بكيت حتى صفت لى الدموع * بلا دمع نبقى طول حياتى ننوح
على فرخ طار لى لم يكن لو رجوع * ألفت البكا والحزن من عهد نوح
كذا هو الوفاء وكذا هو الزمام * انظر جفون صارت بحال الجراح
وانتم من يبكى منكم اذا تم عام * يقول عنانى ذا البكا والنواح
قلت يا حمام لو خضت بحر الضنى * كنت تبكى وترثى لى بدمع هتون
ولو كان بقلبك ما بقلبى انا * ما كان يصير تحتك فروع الغصون
اليوم نقاسى الهجر كم من سنا * حتى لا سبيل جمله ترانى العيون
ومما كسا جسمى النحول والسقام * اخفانى نحولى عن عيون اللواح
لو جتنى المنايا كان يموت فى المقام * ومن مات بعد يا قوم لقد استراح
قال لى لو رقدت لا وراق الرياض * من خوفى عليه ود النفوس للفؤاد
وتخضبت من دمعى وذاك البياض * طوق العهد فى عنقى ليوم التناد
اما طرف منقارى حد يتو استفاض * باطراف البلد والجسم صار فى الرماد

فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذى ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه اصنافا الى المزدوج والكارى والملعبة والغزل واختلفت اسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها فن المزدوج ماقاله ابن شجاع من فحولهم وهو من أهل تازا

المال زينة الدنيا وعز النفوس * يبهى وجوها ليس هى باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس * ولوه الكلام والرتبة العاليا
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير * ويصغر عزيز القوم اذ يفتقر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصير * يكاد ينفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجى من هو فى قومو كبير * لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
لذا ينبغى يحزن على ذى العكوس * ويصبغ عليه توب فراش صافيا
اللى صارت الاذناب امام الرؤس * وصار يستفيد الواد من الساقيا

ملق والتقصير عن الاستحقاق عى او حسد أولى الناس بالرحمة من احتاج اليها فحرمها من لم يدر قدر البلية لم يرحم أهلها كفاك أدبا لنفسك ما كرهته لغيرها مجالسة الاحمق غرر والقيام عنه ظفر لا تسأل عما لم يكن فان فى الذى كان شغل البخل جامع لمساوى العيوب وهو زمام يقاد به الى كل سوء اذا صح القلب وصح العمل كان التوفيق احراز العواقب بالاجتهاد والاجتهاد أربح بضاعة التوفيق خير قائد كمال العمل التوفيق من ترفق فى استتمام الحظ من البغية أدرك و بلغ مقاربة الناس فى اخلاقهم أمن من غوائلهم لا تنظر الى احد بالموضع الذى رتبه فيه زمانه ولكن انظر اليه بقيمته فى الحقيقة فانها مكانه الطبيعى أبعد الناس سفرا من سافر فى طلب أخ صالح ليست البركة من الكثرة لكن الكثرة من البركة (وقال داود عليه السلام) ان كان ماترى من الجهل يغبط اذن يكثر الجهل و يطول غمك (قيل لبزرجمهر) مالكم لا تعاتبون الجهلة قال لانا ما نريد من العميان أن يبصروا العشق مرض نفس فارغة لا همة لها اجالة الفكرة واستخراج الفطنة تتبع الاساءة ضعف
بالندم وتتبع الندم بالاقلاع الامن البراءة و كثرة الصديق بالتواضع وأعم الاشياء نفعا فقد الاشرار من بذر عداوة حصد ندامة السمنة

ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان * مايدروا على من يكثروا ذا العتاب
اللى صار فلان يصبح با بوفلان * ولو رأيت كيف يرد الجواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان * أنفاس السلاطين فى جلود الكلاب
كبار النفوس جدا ضعاف الأسوس * هم ناحيا والجد فى ناحيا
يروا أنهم والناس يروهم تيوس * وجوه البلد والعمدة الراسيا

ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم فى بعض مزدوجاته

تعب من تبع قلبو املاح ذا الزمان * اهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد الاوخان * قليل من عليه تحبس و يحبس عليك
يهبوا على العشاق و يمنعوا * و يستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلوا من حينهم يقطعوا * وان عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هو يتووشت قلبي معو * وصيرت من خدى لقدمو نعال
ومهدت لو من وسط قلبى مكان * وقلت اقلبى اكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتريك من هوان * فلابد من هول الهوى يعتريك
حكمتوا على وارتضيت بو أمير * فلو كان يرى حالى اذا يبصرو
يرجع مثل درحولى بوجه الغدير * مرديه و يتعطس بحال انحزروا
وتعلمت من ساعا بسبق الضمير * و يفهم مرادو قبل ان يذكرو
و يحتل فى مطلو ولو ان كان * عصرى الربيع أوفى الليالى يريك
و يمشى بسوق كان ولو باصبهان * وايش ما يقل يحتاج يقل لو يحيك

حتى أتى على آخرها * وكان منهم على بن المؤذن سلمان * وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من ضواحى مكناسة رجل يعرف بالكفيف أبدع فى مذاهب هذا الفن ومن أحسن ما علق له بحفوظى قوله فى رحلة السلطان أبى الحسن و بنى مرين الى افريقية يصف هزيمتهم بالقيروان و يعزيهم عنها و يونسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيبهم على غزاتهم الى افريقية فى ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول فى مفتتحها وهو من أبدع مذاهب البلاغة فى الاشعار بالمقصد فى مطلع الكلام وافتتاحه و يسمى براعة الاستهلال

سبحان مالك خواطر الامرا * ونواصيها فى كل حين وزمان
ان طعناه عطفهم لنا قسرا * وان عصيناه عاقب بكل هوان

الى أن يقول فى السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص

كن مرعى قل ولا تكن راعى * فالراعى عن رعيته مسؤل
واستفتح بالصلاة على الداعى * للاسلام والرضا السنى المكمول
على الخلفاء الراشدين والاتباع * واذكر بعدهم اذا تحب وقول
أحجاجا تحللوا الصحرا * ودواسرح البلاد مع سكان
عسكر فاس المنيرة الغرا * و بن سارت بو عزائم السلطان

للنساء غلمة وللرجال غفلة (قال المسيح) عليه السلام ما حلم من لم يصبر عند الجهل وما قوة من لم يرد الغضب وما عبادة من لم يتواضع للرب سبحانه عبادة النوكى المجىء فى غير وقت والجلوس فوق القدر واذا وقعت الضرورة ارتفعت المشورة (قيل لحكيم) أخرج الهم من قلبك قال ليس باذنى دخل من اغتر بحاله قصر فى احتياله اياكم وطلب الامور من غير وجهها فيعنيكم طلبها ولا تدركوا حظا منها هيبة الزلل تورث الحصر (قيل للحكيم) لاى شئ تزوجت امراة دميمة وانت وسيم قال اخترت من الشر أقله (وقيل لحكيم) ما تقول فى الزواج قال لذة شهر وهم دهر فتنة عالم الى ابليس خير من غواية الف جاهل تمنى المعاتب ولا تمنى المعاذير الموالاة فى الاسلام بمنزلة الحلف فى الجاهلية سب الجاهل للحكماء تشريف لهم عند أهل الفضل لان الجاهل منسوب الى فعله وكما ان الحكيم يتألم بحديث الجاهل كذلك الجاهل يتألم بسماع الحكمة أغنى الناس عن الحقد من عظم قدره عن المحاذاة الكبير الهمة من الرجال من كان عنف الناصح عنده ألطف موقعا من ملق الكاشح ان كانت الحدود هى الحظوظ فما بال الحرص وان كانت الامور ليست بدائمة فما بال السرور وان كانت الدار غدارة فما بال الطمأنينة (وقال الشعبى) ما رأيت الله سبحانه وتعالى أعطى عباده أجل من الحلم (وقال عمر ابن الخطاب) رضى الله عنه خس من لم تكن فيه فلا ترجه لشئ من أمر الدنيا والآخرة من لم تعرف الوثيقة فى أرومته والدمامة فى خلقه والكرم فى طبعه والنبل فى نفسه والتحافر عند ربه (قال عبد الله بن حمدون) كنت مع المتوكل لما خرج الى دمشق فركب يوما الى رصافة هشام بن عبد الملك فنظر الى قصورها ثم خرج فرأى ديرا قديما هنالك حسن البناء بين مزارع وأنهار وأشجار فدخله فبينما

هو يطوف اذ بصر برقعة قد الصقت فى صدره فامر بقلعها فاذا فيها هذه الابيات أيا منزلا بالدير أصبح خاليا * تلاعب فيه شمأل ودبور
كانك لم يسكنك بيض اوانس * ولم يتبختر فى فنائك حور وأبناء املاك غواشم سادة * صغيرهمو عند الاله كبير
اذا لبسوا أدراعهم فعوابس * وان لبسوا تيجانهم فبدور على انهم يوم اللقاء ضراغم * وانهم يوم النوال بحور

أتجاجا بالنبي الذى زرتم * وقطعتم لو كلا كل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألكم * المتلوف فى افريقيا السودا
ومن كان بالعطايا يزودكم * ويدع برية الحجاز زغدا
قام قل للسد صادف الجزرا * ويجبز شوط بعد ما يخفان
ويزف كردوم وتهب فى الغبرا * اى ما زاد غزالهم سبحان
لو كان ما بين تونس الغربا * وبلاد الغرب سد السكندر
مبنى من شرقها الى غربا * طبقا بحديدا وثانيا بصفر
لابد الطيران تجيب نبا * أو يأتى الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وما شرا * لو تقرا كل يوم على الديوان
تجرت بالدم وانصدع حجرا * وهوت الخراب وخافت الغزلان
أدرلى بعقلك الفحاص * وتفكر لى بخاطرك جعا
ان كان تعلم حسام ولا رقاص * عن السلطان شهر وقبله سبعا
تظهر عند المهين القصاص * وعلامات تنشر على الصمعا
الا قوم عاريين فلا سترا * مجهولين لا مكان ولا امكان
ما يدروا كيف يصوروا كسرا * وكيف دخلوا مدينة القيروان
امولاى أبو الحسن خطينا الباب * قضية سيرنا الى تونس
فقنا كنا على الجريد والزاب * واش لك فى اعراب افريقيا القويس
ما بلغك من عمر فتى الخطاب * الفاروق فاتح القرى المواس
ملك الشام والحجاز وتاج كسرى * وفتح من افريقيا وكان
رد ولدت لوكره ذكرى * ونقل فيها تفرق الاخوان
هذا الفاروق مردى الاعوان * صرح فى افريقيا بذا التصريح
وبقت حمى الى زمن عثمان * وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
لمن دخلت غنائمها الديوان * مات عثمان وانقلب علينا الريح
وافترق الناس على ثلاثة أمرا * وبقى ما هو للسكوت عنوان
اذا كان ذا فى مدة البررا * اش نعمل فى أواخر الازمان
وأصحاب الحضر فى مكناسا تا * وفى تاريخ كاتنا وكيوانا
تذكر فى صحتها أبياتا * شق وسطيح وابن مرانا
ان مرين اذا تكف براياتا * لجدا وتونس قد سقط بنيانا
قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا * عيسى بن الحسن الرفيع الشان
قال لى رايت وانا بذا أدرى * لكن اذا جاء القدر عميت الاعيان
ويقول الك مادهى المرينيا * من حضرة فاس الى عرب دياب

ليالى هشام بالرصافة قاطن
وفيك ابنه يا دير وهو أمير
اذا العيش غض والخلافة
لذة
وأنت طريب والزمان غرير
وروضك مرتاد ونورك مزهر
وعيش بنى مراون فيك نضير
بلى فسقاك الغيث صوب
سحائب
عليك لها بعد الرواح بكور
تذكرت قومى فيكما فبكيتهم
بشجو ومثلى بالبكاء جدير
فعزيت نفسى وهى نفس
اذا جرى
لها ذكر قومى انه لزفير
لعل زمانا جار يوما عليهم
لهم بالذى تهوى النفوس
يدور
فيفرح محزون وينعم بائس
ويطلق من ضيق الوثاق
اسير
رويدك ان الدهر يتبعه غد
وان صروف للدائرات تدور
فلما قرأها المتوكل ارتاع
وتطير وقال اعوذ بالله من
شر أقداره ثم دعا صاحب
الدير فسأله عمن كتبها فقال
لا علم لى به واما الكتب
وصفاتها فتجل عن الوصف
ولقد احسن ابن الجهم
فى قوله
سمير اذا جالسته كان مسليا

فؤادك مما فيه من الم الوجد يفيدك علما او يزيدك حكمة * وغير حسود أو مصر على الحقد اراد
ويحفظ ما استودعته غير غافل * ولا خائن عهدا على قدم العهد زمان ربيع فى الزمان باسره * يبيحك روضا غير ذاو ولا جعد
ينور أحيانا بورد بدائع * أخص واولى بالنفوس من الورد وأنشد بعض العجم اذا ما خلا الناس فى دورهم * بخمر سلاف وخود كعاب

اراد المولى بموت ابن يحيى * سلطان تونس وصاحب الابواب

ثم اخذ فى ترحيل السلطان وجيوشه الى آخر رحلته ومنتهى امره مع اعراب افريقية وأتى فيها بكل غريبة من الابداع وأما أهل تونس فاستحدثوا فى الملعبة ايضا على لغتهم الحضرية الا أن أكثره ردىء ولم يعلق بحفوظى منه شئ لرداءته وكان لعامة بغداد ايضا فن من الشعر يسمونه المواليا وتحته فنون كثيرة يسمون منها القوما وكان وكان ومنه مفرد ومنه فى بيتين ويسمونه دوبيت على الاختلافات المعتبرة عندهم فى كل واحد منها وغالبها مزدوجة من اربعة اغصان وتبعهم فى ذلك اهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها فى أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاؤا بالعجائب ومن أعجب ما علق بحفظى منه قول شاعرهم

هذا جراحى طريا * والدما تنضح
وقاتلى يا أخيا * فى الفلا يمرح
قالوا ونأخذ بثارك * قلت ذا أقبح

ولغيره

طرقت باب الخباقالت من الطارق * فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لى من ثغرها بارق * رجعت حيران فى بحر ادمعى غارق

ولغيره

عهدى بها وهى لا تأمن على البين * وان شكوت الهوى قالت فدتك العين
لمن تعنى لها غيرى غليم زين * ذكرتها العهد قالت لك على دين

ولغيره فى وصف الحشيش

دى خمر صرف التى عهدى بها باقى * تغنى عن الخمر والخمار والساقى
قحبا ومن قحبها تعمل على احراقى * خبيتها فى الحشى طات من احداقى

ولغيره

يامن وصالو لاطفال المحبة بج * كم توجد القلب بالهجران أوه أح
آودعت قلبى حوحو والتصبر بج * كل الورى كخ فى عينى وشخصك دح

ولغيره

ناديتها ومشيبى قد طوانى طى * جودى على بقبله فى الهوى يا مى
قالت وقد لى كوت داخل فؤادى كى * ماهكذا القطن يحشى فم من هو حى

ولغيره

رانى ابتسم سبقت سحب ادمعى برقه * ماط اللثام تبدى بدر فى شرقه
اسبل دجى الشعر تاه القلب فى طرقه * رجع هدانا بخيط الصبح من فرقه

ولغيره

ياحادى العيس ازجر بالمطايا زجر * وقف على منزل احبابى قبيل الفجر
وصيح فى حيهم يامن يريد الاجر * ينهض يصلى على ميت قتيل الهجر

وأنسهم فى ظلام الليال * لغير الندامى وزهو السحاب
خلوت وصحبى كتب العلوم * وبيت العروس بيت الكتاب
ودرس العلوم شراب العقول * فدوروا على بذاك الشراب
وما يجمع المرء فى دهره * سوى العلم يجمعه للتراب
ومن مليح ما ينشد فى الكتب اذا ما خلوت من المؤنسين * جعلت المؤانس لى دفترى (٣٩٥) فلم أخل من شاعر محسن * ومن عالم صالح منذر
ومن حكم بين اثنائها
فوائد للناظر المفكر
وان ضاق صدرى باسراره
وأودعته السر لم يظهر
وان صرح الشعر باسم الحبيب
ب لم احتشمه ولم أحصر
وان عدت من ضجره بالهجا
وسب الخليفة لم أحذر
ونادمت فيه كريم المغيب
لندمائه طيب المخبر
فلست ارى مؤنسا ما حييت
عليه نديما الى المحشر
وانشد ابن حزم لبعض الادباء
ان صحبنا الملوك تاهوا علينا
واستبدوا بالرأى دون الجليس
او صحبنا التجار عدنا الى الفقر
وصرنا الى حساب الفلوس
فلزمنا البيوت نتخذ الحبر
رونملا به وجوه الطروس
لو تركنا وذاك كنا ظفرنا
من امانينا بعلق نفيس
غير ان الزمان أعنى بنيه
حسدونا على حياة النفوس
وأنشد غيره
أنست الى التفرد طول عمرى
فمالى فى البرية من أنيس
جعلت محادثى ونديم نفسى
وأنسى دفترى بدل العروس
قد استغنيت عن فرسى برجلى
اذا سافرت او نعل كبوس ولى عرس جديد كل يوم * يطرح الهم فى امر العروس فبطنى سفرتى والخرج جسمى * وهميانى فى ابدا وكيسى وبيتى حيث يدركنى مسائى * واهلى كل ذى عقل نفيس ولئن كان الناطقون قد وصفوا فجودوا وقالوا فابلغوا فلقد قصروا وأجل ممدوح من استقصر فى مدحه المنتهى واستنزر فى تقريظه المحتفل وكيف لا والكتاب نعم الانيس فى ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة

ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل وعالم ملئ علما وظرف حشى ظرفا واناء ملئ مزاحا وجد ذا بستان يحمل في ردن وروضة تنقلب في حجر هل سمعت بشجرة تؤتى أكلها كل ساعة بالوان مختلفة وطعوم متباينة هل سمعت بشجرة لا تذوى وزهر لا يتوى وثمر لا يفنى ومن لك بجليس يفيدك الشئ وخلافه والجنس وضده ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء ان غضبت عليه لم يغضب وان سخطت عليه لم يصخب أكتم من الارض وانم من الريح والهى من الهوى واخدع من المنى وامتع من الضحى وانطق من سحبان وائل وأعيى من باقل هل سمعت بمعلم واحد تحلى بحلل كثيرة وجمع اوصافا غزيرة عربي فارسي هندي سندي رومي يوناني ان وعظ أسمع وان ألهى امتع وان أبكى ادمع وان ضرب اوجع يفيدك ولا يستفيد منك ويزيدك ويستزيدك ان جد فسمر وان مزح فنزهة قبر الاسرار وحرز الودائع قيد العلوم وينبوع الحكم ومعدن المكارم ومؤنس لا ينام يفيدك علم الاولين ويخبرك عن كثير من أنباء الآخرين هل سمعت في الاولين أو بلغك عن أحد من السالفين جمع هذه الاوصاف مع قلة مؤنته وخفة محمله لا يرزأك شيأ من دنياك نعم الذخر والعدة والمشتغل والحرفة جليس لا يضربك ورفيق لا يملك يطيعك بالليل طاعته بالنهار ويطيعك في السفر طاعته في الحضر ان أدمت النظر اليه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بنانك وفخم الفاظك ان القيته خلد على الايام ذكرك وان درسته رفع في الخلق قدرك وان حملته نوه عندهم باسمك يقعد العبيد في مقاعد السادة ويجلس السوقة في مجالس الملوك فاكرم به من صاحب وأعزز به من مرافق وقد قال فيه الاول

لنا جلساء ما نمل حديثهم * ألباء مأمونون غيبا ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى * ورأيا وتأديبا وعقلا مسددا

بلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة * ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا

فان قلت اموات فما أنت كاذب * وان قلت احياء فلست مفندا

فهذا ما اردنا ان نمليه في هذا الكتاب فاكتبوا ان شئتم انفاسه ان كانت الانفاس مما يكتب

ولغيره

عيني التي كنت ارعاكم بها باتت * ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت

وأسهم البين صابتني ولا فاتت * وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

ولغيره

هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكر * غزال يبلي الاسود الضار يا بالفكر

غصن اذا ما انثنى يسبي البنات البكر * وان تهلل فالبدر عندو ذكر

ومن الذي يسمونه دوبيت

قد اقسم من أحبه بالباري * أن يبعث طيفه مع الاسحار

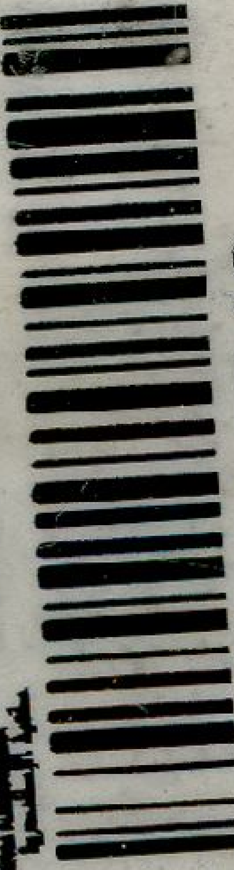
يا نار شوقي به فاتقدي * ليلا فعساه يهتدي بالنار

واعلم أن الاذواق في معرفة البلاغة كلها انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية فلا الاندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الاندلس والمشرق ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر أهل الاندلس والمغرب لان اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته وفي خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات وقد كدنا أن نخرج عن الغرض وعزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الاول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيأ فشيأ الى أن يكمل والله يعلم وأنتم لا تعلمون

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه أتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبته وألحقت به تواريخ الامم كما ذكرت في أوله وشرطته وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم

(يقول مصححه عفا الله عنه)

بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله قد تم طبع مقدمة العالم الشهير والفاضل النحرير صاحب التآليف العديدة والاقوال المفيدة من أقرت بفصاحته المتقدمون والمتأخرون الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الرحمن بن خلدون محلاة الهوامش بكتاب سراج الملوك للعلامة أبي بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي نفعنا الله بعلومهم آمين وذلك بالمطبعة الفائقة ذات الادوات الباهرة الرائقة الموسومة بالازهرية المصريه ادارة الراجي من الله الغفران حضرة السيد محمد رمضان في غرة ربيع الثاني سنة ١٣١١ هجريه على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحيه


Bibliotheca Alexandrina
0405240